اللآلئ والدرر السعدية

من كلام

فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنة

المتوفى ١٣٧٦هـ

جمعه ونسقه وخرج أحاديثه وعلق عليه

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

مكتبة الرشد

ناشرون

اللآلئ والدرر السعدية

من كلام

فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنة

المتوفى ١٣٧٦هـ

العلم | الإيمان | القرآن الكريم | الدعاء | الصبر

التقوى | الحياة الطيبة | الدعوة

جمعه ونسقه وخرج أحاديثه وعلق عليه

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

مكتبة الرشد

الرياض

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م

مكتبة الرشد للنشر والتوزيع

* المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ طريق الحجاز

ص ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١ فاكس ٤٥٧٣٣٨١
E-MAIL: alrushd@suhuf.net.sa
www.alrushd.com

* فرع مكة المكرمة: ـ هاتف ٥٥٨٥٤٠١ ـ ٥٥٨٣٥٠٦
* فرع المدينة المنورة: ـ شارع أبي ذر الغفاري ـ هاتف ٨٣٤٠٦٠٠
* فرع القصيم بريدة طريق المدينة ـ هاتف ٣٢٤٢٣١٤
* فرع أبها: ـ شارع الملك فيصل هاتف ٢٣١٧٣٠٧
* فرع الدمام: ـ شارع ابن خلدون ـ هاتف ٨٣٨٢١٧٥

وكلاؤنا في الخارج

* الكويت: ـ مكتبة الرشد ـ حولي ـ هاتف: ٢٦١٢٣٤٧
* القاهرة: ـ مكتبة الرشد ـ مدينة نصر ـ هاتف: ٢٧٤٤٦٠٥
* بيروت: ـ الدار اللبنانية ـ شارع الجاموس ـ هاتف: ٠٠٩٦١٣٨٤٣٤٥٧
* عمان: الاردن - دار البلاء - هاتف: ٥٣٣٢٦٥٨

اللآلئ والدرر السعدية

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

فلا يخفى على أحد من الناس ما لأهل العلم من جهد كبير، وأثر عظيم في نقل هذا الدين، وإيصاله إلى الناس صافياً نقياً، وما لهم من الجهد العظيم أيضاً في الذود عن حمى هذا الدين من دسائس المبطلين وتحريف الظالمين من الملاحدة والزنادقة والمبتدعة وغيرهم.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ويقول رسول الله ﷺ: «. . . **وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» [أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٩٦) والترمذي في سننه (٥/٤٩)، وابن ماجه في سننه (١/٨١) وغيرهم وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه (١/٤٣)].

وقال الإمام أحمد رحمه الله في رسالة له: (. . . الحمد لله الذي جعل في كل زمان بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، وينهون عن الردى، يحيون بكتاب الله الموتى، وبسنة النبي أهل الجهالة والردى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، ينفون عن دين الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، الذين عقدوا ألوية البدع، وأطلقوا أعنّة الفتنة، مختلفين في الكتاب، يقولون على الله وفي الله ـ تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً ـ وفي كتابه بغير علم، فنعوذ بالله من كل فتنة مضلة) [مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص ٢١٧)].

ففي كل زمان من الأزمان، يقيض الله تعالى وهو الحكيم الرحمن، لهذا الدين القويم، العلماء الأتقياء الأعلام، الذين يعلمون الناس أمور دينهم، ويبصرونهم بكتاب ربهم، ويرشدونهم إلى سنة نبيهم، ويهدونهم إلى الطريق المستقيم في شتى مجالات الدعوة، من الخطب والدروس والمواعظ والمحاضرات أو المؤلفات والكتب النافعة القيمة، فيحيون ما اندرس من السنن، ويردون ما جد من الحوادث والبدع، ويكونون أئمة خير يهدون الناس بأمر الله إلى كل خير، وبهم يكون صلاح الدين والدنيا، ولهذا فقد نالوا المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة عند الله تعالى، فنسأل الله تعالى أن يغفر لهم ويرحمهم ويحشرنا معهم في الجنان إنه جواد كريم.

وإن من هؤلاء العلماء الأعلام فضيلة العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى عام ١٣٧٦هـ ـ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنة ـ فقد بذل رحمه الله حياته، ونذر أوقاته، لخدمه العلم ونشره بين الناس، وتوضيح العقيدة الصافية الصحيحة بين المسلمين، عن طريق خطبه ودروسه ومؤلفاته القيمة النافعة التي انتفع بها خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى.

وأثناء قراءتي لكتب شيخنا ومؤلفاته، وجدت أسلوبه سهلاً سلساً مبسطاً يدخل إلى قلوب الناس، كما وجدت كلماته وعباراته التي يكتبها مؤثرة جداً في القلوب، وتفهمها العقول بكل بساطة، فهي لآلىء والله ودرر، تستحق أن تكتب بماء الذهب، نابعة من قلب شيخنا رحمه الله تعالى إلى قلوب المسلمين، حرصاً على هدايتهم وتبصيرهم بأمور دينهم، ورجوعهم وتوبتهم إلى ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى.

لذلك فقد أحببت أن أجمع ما قاله شيخنا رحمه الله في كتبه المتنوعة حول بعض المواضيع التي لا يستغني عنها طالب النجاة في هذه الدنيا وفي الآخرة، وتكون في رسائل مفردة، ليعم نفعها وتكبر فائدتها بإذنه تعالى:

وهذه المواضيع التي اخترتها هي:

١ ـ العلم. ٢ ـ الإيمان. ٣ ـ القرآن الكريم. ٤ ـ الدعاء. ٥ ـ الصبر. ٦ ـ التقوى. ٧ ـ الحياة الطيبة. ٨ ـ الدعوة.

وقد قسمت كل رسالة من هذه الرسائل إلى عدة فصول:

الفصل الأول: ويحتوي على الآيات التي تدل على الموضوع، وحاولت أن أجمع غالبية الآيات في ذلك، ثم وضعت تفسير شيخنا السعدي على هذه الآيات من تفسيره القيم: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

الفصل الثاني: ويحتوي على شرح شيخنا السعدي رحمه الله للأحاديث التي تتناول أو تتكلم عن ذلك الموضوع، وقد جمعتها من كافة كتبه المطبوعة.

الفصل الثالث: ويحتوي على فوائد ودرر من كلامه رحمه الله حول هذا الموضوع وجمعتها أيضاً من كافة كتبه المطبوعة.

الفصل الرابع: ويحتوي على خطب شيخنا السعدي رحمه الله حول هذا الموضوع.

وإذا كان لشيخنا السعدي رحمه الله رسالة مفردة في أي موضوع من تلك المواضيع فإني أضيفها وأضع لها فصلاً جديداً.

ثم قمت بعد ذلك بالتعليق على كل رسالة بما يُناسبها، ونقلت كلام أئمتنا ومشايخنا ووضعته في الهامش لما رأيته يزيد الدرر درراً، وعلى رأسهم:

سماحة الوالد العلامة الفقيد الغالي شيخنا عبد العزيز بن عبد الله بن باز، وسماحة الوالد العزيز شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمهما الله رحمة واسعة وأسكنهما فسيح الجنة.

كما قمت بتخريج أحاديث الكتاب، واعتمدت في تصحيح الأحاديث على كلام شيخنا الغالي محدث العصر محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنة.

وقد كان من المفترض أن تصدر هذه الرسائل تباعاً كل واحدة بمفردها ولكني ارتأيت أن تكون مجموعة في مجلد واحد، ليسهل تناولها والانتفاع بها، ومن الله نسأل السداد والعون، وأسميت هذا الكتاب:

اللالىء والدرر السعدية

هذا وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني عملي هذا، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه، كما أسأله تعالى وهو الرحمن الرحيم أن يغفر لشيخنا السعدي ولعلمائنا ومشايخنا ووالدينا وجميع المسلمين، إنه جواد كريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

عامله الله بلطفه الخفي

ترجمة المصنف

هو العلامة الورع الزاهد، الفقيه الأصولي، المحقق المدقق، فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي. من نواصر بني تميم من بني عمرو أحد البطون الكبار من قبيلة بني تميم الشهيرة.

ولد في عنيزة في القصيم في اليوم الثاني عشر من شهر المحرم لعام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وتوفيت أمه سنة ١٣١٠هـ وله أربع سنوات، وتوفي والده سنة ١٣١٣هـ وله سبع سنوات، فعاش يتيم الأبوين، وقد كان والده من طلبة العلم الحريصين على الطلب وكان إماماً لأحد المساجد في عنيزة، فاعتنى بابنه عبد الرحمن وسعى في تربيته تربية صالحة، فلما توفاه الله عطفت عليه زوجة والده وكفلته وأحبته أكثر من حبها لأولادها وصار عندها موضع العناية والرعاية، فلما شب صار في بيت أخيه الأكبر حمد، فنشأ نشأة كريمة صالحة.

وقد كان شيخنا عبد الرحمن منذ نعومة أظفاره مثيراً للإعجاب فقد اشتهر بفطنته وذكائه ورغبته الشديدة في طلب العلم وتحصيله، فاجتهد رحمه الله في طلب العلم وجد فيه وسهر الليالي وواصل الأيام، ومضى في طريقه قُدُما لا يلوي على شيء غير العلم، ولا يريد شيئاً غير تحصيل العلم، وهكذا حتى نال حظّاً وافراً من العلوم الشرعية.

أما أخلاقه رحمه الله فيصفه تلميذه فضيلة الشيخ عبد الله البسام حفظه الله تعالى فيقول: «له أخلاق أرق من النسيم، وأعذب من السلسبيل، لا يعاتب على الهفوة، ولا يؤاخذ بالجفوة، يتودد ويتحبب إلى البعيد والقريب، ويجاذب

أطراف أحاديث الأنس والود، ويعطف على الفقير والصغير، ويبذل طاقته ووسعه، ويساعد بماله وجاهه وعلمه ورأيه ومشورته ونصحه، بلسان صادق، وقلب خالص، وسر مكتوم، ومهما أردت أن أعدد فضائله ومحاسنه في مجال الأخلاق الكريمة والشيم الحميدة التي يتحلى بها فإني مقصر وقلمي عاجز، ولا يدرك هذا إلا من عاشره وجالسه، لذا فإن الله سبحانه أعطاه محبة في القلوب، وثقة في النفوس، فأجمعت البلاد على وده، واتفقت على تقديمه، فصار له زعامة شعبية، فإشارته نافذة وكلمته مسموعة وأمره مطاع».

ولقد بذل شيخنا رحمه الله أكثر جهده، ومعظم وقته في طلب العلم وتحصيله، فلازم العلماء وأكب على كتب العلم، فلا يصرفه عن حلق الذكر ومجالس العلم وقراءة الكتب صارف، ولا يرده عنها راد، حتى أناله الله من العلم حظّاً وفيراً، وقدراً كبيراً، فعلا قدره، وعظم شأنه، وظهر تفوقه، وذاع صيته.

وأقبل عليه طلاب العلم من عنيزة وما جاورها من المدن، ورغبوا في دروسه وحرصوا على الاستفادة منه. وقد كان أول جلوسه للتعليم في الثالثة والعشرين من عمره، ففي هذه السن جلس في حلقة التدريس يعطي الدروس للطلاب وجد في تعليمهم واجتهد، يعلّم زملاءه ومن يريد العلم ويطلبه، وكان يحرص على التعلّم كحرصه على التعليم. فجمع بذلك بين طلب العلم والتعليم ورتب أوقاته في ذلك، فكان يقضي بعض أوقاته في القراءة على العلماء، وبعضها يجلس للتلاميذ يعلمهم، وبعضها في مَراجعة الكتب والبحث فيها ولا يفوّت من أوقاته شيئاً إلا وقد رتبه.

فبلغ الذروة في علوم الحديث والفقه والتفسير، حتى إنه منذ عام ١٣٥٠هـ صار مرجع التدريس ومرجع الإفتاء في بلده وما حولها من القرى، وأصبح المعول لدى جميع الطلاب في أخذ العلوم.

وقد أخذ عنه العلم خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى منهم فضيلة شيخنا العلامة الفقيه الأصولي محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ وفضيلة الشيخ العلامة عبد الله بن عبد الرحمن البسام حفظه الله تعالى.

وكان شيخنا السعدي رحمه الله ذا عناية بالغة بالتأليف، وله مؤلفات كثيرة في أنواع العلوم الشرعية، فألف في التوحيد والفقه والحديث والتفسير والأصول ومحاسن الدين وغيرها وانتفع بمؤلفاته خلق كثير بفضل الله تعالى.

ولقد أشاد كثير من العلماء بفضل الشيخ السعدي وعلمه وحسن خلقه وطيب معشره، وحبه للخير، بل كان محل إعجابهم وثناؤهم، فوصفوه بحميد الأفعال ونعتوه بطيب الخصال.

قال شيخنا العلامة الإمام سماحة الوالد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنة: «كان رحمه الله كثير الفقه والعناية بمعرفة الراجح من المسائل الخلافية بالدليل، وكان عظيم العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم، وكان يرجح ما قام عليه الدليل. وكان قليل الكلام إلا فيما تترتب عليه فائدة، جالسته غير مرة في مكة والرياض، وكان كلامه قليلاً إلا في مسائل العلم، وكان متواضعاً حسن الخلق، ومن قرأ كتبه، عرف فضله، وعلمه، وعنايته بالدليل، فرحمه الله رحمة واسعة».

وقال شيخنا العلامة الإمام محمد بن صالح العثيمين رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنة: إن الرجل قل أن يوجد مثله في عصره في عبادته وعلمه وأخلاقه، حيث كان يعامل كلاً من الصغير والكبير بحسب ما يليق بحاله، ويتفقد الفقراء، فيوصل إليهم ما يسد حاجتهم بنفسه، وكان صبوراً على ما يلم به من أذى الناس. وكان يحب العذر ممن حصلت منه هفوة حيث يوجهها توجيهاً يحصل به عذر من هفا».

وبعد حياة مليئة بالدعوة إلى الله تعالى والعلم والتعليم، أصيب رحمه الله في عام ١٣٧١هـ بمرض ضغط الدم وتصلب الشرايين، فكان يعتريه مرة بعد مرة وهو صابر عليه، فسافر للعلاج وشفي بحمد الله، ونصحه الأطباء بالراحة وقلة التفكير والاجتهاد، ولكنه لم يصبر على ترك العلم والتعليم، فتابع حياته بعزم وإرادة، فصار المرض يعاوده، إلى أن اشتد عليه، فوافاه الأجل قبل طلوع الفجر من يوم الخميس الموافق ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ عن تسع وستين سنة.

وبموته فقدت بلدته، بل فقد العالم الإسلامي، عالماً كبيراً، ومربياً فاضلاً، ومعلماً ناصحاً، وأحس الناس بفراغ واسع بفقده، وحتى الآن وذكره في الألسن، ومحبته في القلوب، وأحاديثه وإرشاداته وفتاويه يتناولها الناس بعضهم لبعض، فرحمه الله رحمة واسعة وأجزل له المثوبة وأسكنه فسيح الجنة وأعلى درجته فيها، إنه جواد كريم.

* * *

اللآلىء والدرر السعدية

(العلـــم)

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

فإن الله تعالى قد حث على طلب العلم، وعلى السعي في تحصيله في كثير من الآيات، كما حث على ذلك رسول الله ﷺ، ورغب فيه في كثير من الأحاديث، ومن هنا فقد تنافس سلفنا عليهم رحمة الله في تحصيل العلم والتعلم، فأخذوا يتسابقون إلى حلقات العلم، ويزاحمون الركب في الحلقات - وما ذاك إلا لحرصهم على نيل المثوبة والرضوان من عند ربنا الرحيم الرحمن - يتعلمون

ويعلمون، ثم يعلّمون ويعظون ويدعون إلى الله تعالى، كما أمرهم الله تعالى بذلك في كتابه الحكيم.

ومن هؤلاء المشايخ الفضلاء، والعلماء الأجلاء، علامة القصيم عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله رحمة واسعة وغفر له ولجميع مشايخنا وعلمائنا ـ فقد قضى عمره في تحصيل العلم وطلبه، ومن ثم تعليمه للناس ودعوتهم إليه، في المجالس والحلقات والمنابر، وبذل في ذلك جهداً كبيراً ـ نسأل الله تعالى بمنه ورحمته أن يجعله في ميزان حسناته وأن يعلي درجته ـ.

كما ألف شيخنا العديد من الكتب النافعة، والمؤلفات القيمة، التي انتفع بها خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى، واستفادوا منها كثيراً وأفادوا، وذلك لأنها تميزت بسهولة العبارة، ووجازة الكلمة، وصدق النصيحة، وما دل ذلك إلا عن علمه الغزير، واطلاعه الواسع، وفهمه الدقيق لنصوص الكتاب والسنة.

ولما رأيت أن في كلامه دراً، وفي عباراته جواهراً ـ تستحق أن تكتب بماء الذهب ـ أحببت أن أجمع ما قاله شيخنا، حول فضل العلم والتعلم، والاجتهاد في تحصيله، وآداب طالب العلم، وغير ذلك مما يتعلق بموضوع العلم، بالإضافة إلى الفوائد المنثورة في كتبه حول هذا الموضوع، وأجعل ذلك في كتاب يسهل تناوله والانتفاع به إن شاء الله تعالى[1].

فاستخرت الله تعالى، وقمت بجمع ذلك من كتب الشيخ ـ رحمه الله وغفر له ـ وأضفت إليه كلاماً نفسياً لشيخنا محمد الصالح بن عثيمين ـ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنة ـ لما رأيته يزيد الدرر دراً.

وأسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل معيناً لي أولاً، ولطلاب العلم ثانياً، في الانكباب على العلم وتحصيله وطلبه، والإخلاص في ذلك لله تعالى، ومن ثم تعليمه للناس ودعوتهم إليه، لينتشر النفع، ويعم الخير، بإذن الله تبارك وتعالى.

---

(١) خاصة ونحن في زمان قد عزف فيه الكثير من الناس عن العلم وزهدوا في التعلم، وانغمروا في ملذات دنيا غرارة وفي شهواتها الفانية، فأضاعوا أنفسهم وخسروا دينهم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

وقد قسمت هذا الكتاب إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: ما قاله شيخنا رحمه الله في تفسير الآيات الدالة على فضل العلم وطلبه، والإخلاص فيه.

الفصل الثاني: ما شرحه شيخنا رحمه الله ـ في كتبه ـ لبعض الأحاديث التي تحث على طلب العلم والتعلم.

الفصل الثالث: ويحتوي على فصول ومباحث، من كلام شيخنا السعدي حول العلم وآداب المتعلمين.

الفصل الرابع: ويحتوي على فوائد نفيسة، ودرراً غالية، وجواهر نادرة من كلام الشيخ حول طلب العلم والتعلم، وبعض توجيهاته ونصائحه لطلاب العلم.

الفصل الخامس: ويحتوي على خطب للشيخ السعدي حول الحث على طلب العلم وتعليمه.

وأسميت هذا المجموع الحافل:

اللآلىء والدرر السعدية (العلم)

هذا وأسأل الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه، وأن يتقبله مني ويجعله في ميزان حسناتي يوم لقاه، وأن يغفر لشيخنا عبد الرحمن السعدي، ولجميع مشايخنا وعلمائنا وجميع المسلمين، إنه سميع مجيب.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

كتبه

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

عامله الله بلطفه الخفي

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الآيات الدالة على فضل العلم والحث على طلبه والإخلاص فيه لله عز وجل وتفسير شيخنا السعدي لها

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الآية الأولى:

قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد: ١٩].

يقول شيخنا عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه وتمامه أن يعمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به ـ وهو العلم بتوحيد الله ـ فرض عين على كل إنسان لا يسقط عن أحد كائناً من كان، بل كل مضطر إلى ذلك.

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور:

أحدها: ـ بل أعظمها ـ : تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده، من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داعٍ إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضرّاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا ينصرون من عبدهم ولا ينفعونهم بمثقال ذرة من جلب خير أو دفع شر فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله وبطلان إلٰهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقاً، وعقولاً ورأياً وصواباً وعلماً ـ وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون ـ قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة تنادى عليه بلسان حالها، بما أودعها من لطف صنعته، وبديع حكمته وغرائب خلقه فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك فكيف إذا اجتمعت وتواطأت، واتفقت وقامت أدلة التوحيد من كل جانب.

فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد ـ على تكرر الباطل والشبه ـ إلا نمواً وكمالاً، هذا وإن نظرت إلى الدليل العظيم والأمر الكبير ـ وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته ـ فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٠)]

الآية الثانية:

وقال الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [سورة العلق: ١ ـ ٥].

يقول شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ، فإنها نزلت في مبادىء النبوة إذ كان لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه السلام بالرسالة وأمره أن يقرأ فاعتذر وقال (ما أنا بقارىء) فلم يزل به حتى قرأ، فأنزل الله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ عموم الخلق.

ثم خص الإنسان وذكر ابتداء خلقه ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾.

فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره لا بد أن يدبر بالأمر والنهي، وذلك

بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولهذا أتى بعد الأمر بالقراءة بخلقه للإنسان.

ثم قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾ أي كثير الصفات واسعها كثير الكرم والإحسان واسع الجود، الذي من كرمه أن علم أنواع العلوم.

و﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم، فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم.

فللّه الحمد والمنة الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٣٥)]

الآية الثالثة:

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [سورة النحل: ٤٣ ـ ٤٤].

يقول شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا﴾** أي لست ببدع من الرسل فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كاملين لا نساء **﴿نوحي إليهم﴾** من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم **﴿فاسألوا أهل الذكر﴾** أي: الكتب السابقة **﴿إن كنتم لا تعلمون﴾** نبأ الأولين وشككتم هل بعث الله رجالاً؟ فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبينات فعلموها وفهموها فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى.

وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله

المنزل فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم من جميع الحوادث.

وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال، وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾** أي القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم، ودنياهم الظاهرة والباطنة **﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾** وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه **﴿ولعلهم يتفكرون﴾** فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٦٢)]

الآية الرابعة:

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] [سورة الزمر: ٩].

---

(١) قال شيخنا سماحة الوالد الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية:

«**﴿قل هل يستوي﴾**: يعني لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، لأن الجاهل متصف بصفة ذم والعالم متصف بصفة مدح ولهذا لو تعير أدنى واحد من العامة وتقول له: أنت جاهل، غضب وأنكر ذلك، مما يدل على أن الجهل عيب مذموم، كل ينفر منه، والعلم خير ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون في أي حال من الأحوال. العالم يعبد الله على بصيرة، يعرف كيف يتوضأ، وكيف يصلي، وكيف يزكي، وكيف يصوم، وكيف يحج، وكيف يبر والديه، وكيف يصل رحمه. العالم يهدي الناس: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. لا يمكن أن يكون هذا مثل هذا فالعالم نور يهتدى به، ويرفع الله به، والجاهل عالة على غيره لا ينفع نفسه ولا غيره، بل إن أفتى بجهل ضر نفسه وضر غيره، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون».

[شرح رياض الصالحين (٥/ ٢٧٩)]

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم **﴿والذين لا يعلمون﴾** شيئاً من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار.

﴿إنما يتذكر﴾ إذا ذكروا **﴿أولوا الألباب﴾** أي أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون، الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته، ولأن لهم عقولاً ترشدهم للنظر من العواقب بخلاف من لا لب له ولا عقل، فإنه يتخذ إلٰهه هواه.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣١٢)]

الآية الخامسة:

وقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٤٩].

يقول شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿بل هو﴾ أي هذا القرآن **﴿آيات بينات﴾** لا خفيات **﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾** وهم سادة الخلق وعقلاؤهم وأولوا الألباب منهم والكمل منهم، فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً، ولهذا قال: **﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾** لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم ولم يقتد بأهل العلم، ومن هو متمكن من معرفته على حقيقته، أو متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٦٧)]

الآية السادسة:

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

غَفُورٌ﴾[1] [سورة فاطر: ٢٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

(قال رحمه الله بعد أن فسر الآيات التي تدل على قدرة الله تعالى ورحمته وحكمته وسعه علمه سبحانه وتعالى): ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث له تذكراً، وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهاذا قال: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** فكل من كان بالله أعلم كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله الإنكفاف عن المعاصي والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

[تيسير الكريم الرحمن (٤/٢١٦)]

الآية السابعة:

وقال الله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سورة سبأ: ٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار هو الحق،

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى:
«يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلاَّ العلماء، ولا يكون عالماً إلاَّ من يخشاه، فلا يخشاه إلاَّ عالم وما من عالم إلاَّ وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم...»

[شفاء العليل (ص ١٧٢)]

منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين. ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيه **﴿يهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾**، وذلك لأنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة من جهة علمهم بصدق ما أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم، ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك، وتنهى عن كل صفة قبيحة تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال والأعراض، وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/١٧٨)]

الآية الثامنة:

وقال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[1] [سورة آل عمران: ١٨].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

«. . . ومن فضائل العلم أن الإنسان يتوصل به إلى أن يكون من الشهداء على الحق، والدليل قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فهل قال: «أولوا المال؟» لا، بل قال: **﴿وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾** فيكفيك فخراً يا طالب العلم أن تكون ممن شهد لله أنه لا إله إلاّ هو مع الملائكة الذين يشهدون بوحدانية الله عز وجل».

[كتاب العلم (ص ١٧)]

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

هذه أهل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة وأهل العلم، على أجلّ مشهود عليه، وهو توحيد الله، وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء، فإن الشرع والدين أصله، وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبودية، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء، والمجد والعز، والقدرة والجلال، ونعوت الجود والبر، والرحمة والإحسان والجمال، وبكماله المطلق الذي لا يحصى أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الثناء عليه، والعبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها والأمر والنهي، كله عدل وقسط، لا ظلم فيه ولا جور بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة كله قسط وعدل.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩] فتوحيد الله ودينه وجزاؤه قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء، لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة، وفي ضمن ذلك تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون وفي هذا من الفضل والشرف، وعلو المكانة، ما لا يقادر قدره.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٣٤)]

الآية التاسعة:

وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

استدل بقوله تعالى: **﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾** أن تقوى الله وسيلة إلى

حصول العلم[1]، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩] أي علماً تفرقون به بين الحقائق، والحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٢٤)]

الآية العاشرة:

وقال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾[2] [سورة المجادلة: ١١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

... والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم به من العلم والإيمان. **﴿والله بما تعلمون خبير﴾** فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وفي هذه الآية فضيلة العلم وأن زينته وثمرته التأدب بآدابه والعمل بمقتضاه.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩٦)]

الآية الحادية عشر:

وقال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [سورة الرحمن: ١ ـ ٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

هذه السورة الكريمة الجليلة افتتحها (سبحانه) باسمه **﴿الرحمن﴾** الدال

---

(١) وهذا حق والله فكلما اتقى الإنسان ربه فتح الله على قلبه وعقله، ونور بصيرته بالعلوم النافعة، والعكس بالعكس أيضاً فإذا عصى الإنسان ربه طمست المعصية نور العلم في قلبه، وقل بذلك علمه وساء حفظه، وفي ذلك يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

فانتبه لهذا الأمر يا طالب العلم.

(٢) قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى في كتابه العلم (ص ٢٠): =

على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله، ثم ذكر (سبحانه) ما يدل على رحمته وأثرها، الذي أوصله الله إلى عباده، من النعم الدينية والدنيوية والأخروية، وبعد كل جنس ونوع من نعمه، ينبه الثقلين لشكره ويقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٦].

فذكر أنه **﴿علم القرآن﴾** أي علم عباده ألفاظه ومعانيه ويسرها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها العباد، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن الألفاظ، وأوضح المعاني، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

﴿خلق الإنسان﴾ في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البارىء تعالى البديع خلقه أي إتقان وميزه على سائر الحيوانات بأن **﴿علمه البيان﴾** أي التبين عما في ضميره وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله به الآدمي على غيره من أجل نعمه وأكبرها عليه.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٧)]

الآية الثانية عشر:

وقال الله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٧٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

قال تعالى: **﴿نرفع درجات من نشاء﴾** بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها كما رفعنا درجات يوسف (عليه السلام). **﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾** فكل عالم فوقه من هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب

= ومن أهم فضائل العلم أن الله يرفع أهل العلم في الآخرة وفي الدنيا، أما في الآخرة فإن الله يرفعهم درجات بحسب ما قاموا به من الدعوة إلى الله عز وجل، والعمل بما عملوا، وفي الدنيا يرفعهم الله بين عباده بحسب ما قاموا به، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

والشهادة (سبحانه).

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٢٩)]

الآية الثالثة عشر:

وقال الله تعالى عن يعقوب: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف: ٦٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿وإنه لذو علم﴾ أي لصاحب علم عظيم **﴿لما علمناه﴾** أي لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** عواقب الأمور ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٢٧)]

الآية الرابعة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[1] [سورة طه: ١١٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ أي لا تبادر بِتَلقُّفِ القرآن حين يتلوه عليك جبريل، وأصبر حتى يفرغ منه فإذا فرغ منه فاقرأه فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك وقراءتك إياه كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

ولما كانت عجلته ﷺ على تَلقُّف الوحي ومبادرته إليه تدل على محبته

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة (١/ ٢٢٣):
وكفى بهذا شرفاً للعلم أن أمر الله تعالى نبيه أن يسأله المزيد منه.

التامة للعلم وحرصه عليه، أمره تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبه، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد والشوق للعلم، وسؤال الله والاستعانة به، والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة، الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنّى ويصبر، حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض فإذا فرغ منه سأل، إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام مُلْقي العلم، فإنه سبب للحرمان، وكذلك المسؤول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب، فإن ذلك سبب لإصابته الصواب.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٥٥)]

الآية الخامسة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [سورة التوبة: ١٢٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى ـ منبهاً لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم ـ : **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافةً﴾** أي جميعا لقتال عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، ويفوت به كثير من المصالح الأخرى **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم﴾** أي من البلدان والقبائل والأفخاذ **﴿طائفة﴾** تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى، ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم، مصالح، لو خرجوا، لفاتتهم. فقال: **﴿ليتفقهوا﴾** أي القاعدون **﴿في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾** أي ليتعملوا العلم الشرعي ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم. ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه، فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي ينمى، وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة،

وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت فيموت علمه وثمرته وهذا غاية الحرمان لمن آتاه الله علماً ومنحه فهماً.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٩٧)]

الآية السادسة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [سورة النساء: ٨٣].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة، ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرزاً من أعدائهم، فعلوا ذلك، وإن رأوا ما فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه.

ولهذا قال: **﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾** أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة، وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أنه يولى من هو أهل لذلك ويجعل إلى أهله ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ، وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان أم لا؟ فيحجم عنه؟

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٧٧)]

الآية السابعة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ

خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

لما ذكر سبحانه أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم ومنّ عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه. والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا وأجل الهبات، ولهذا قال: **﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾** لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدي، ومن حمق الإنحراف في الأقوال والأفعال إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع في دينهم ودنياهم، وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة التي هي وضع الأشياء في مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام، ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم **﴿إلا أولوا الألباب﴾** وهم أهل العقول الواقية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه والضار فيتركونه.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢١٤)]

وقال رحمه الله:

وقوله تعالى: **﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾** هذا يدل على أن من أفضل منن الله على عبده، أن يؤتيه الحكمة، والحكمة هي إصابة الصواب ووضع الأمور مواضعها في العلوم والأعمال. ففي العلوم: أن يكون العبد عارفاً لما تجب أو تستحب معرفته، معرفة مطابقة للواقع، وأن يكون تعلمه وتعليمه على طريقة يحصل بها أكمل ما يكون من الوصول إلى العلوم بحسب الاستطاعة والمقدور، وضد ذلك الجهل البسيط أو الجهل المركب الذي لا يعرف وهو لا يعرف أنه لا يعرف، أو نقص العلم، أو سلوك طرق التعلم والتعليم التي لا توصل إليه، أو توصل إليه بوجه ناقص، فكل هذا مناف للحكمة العلمية.

وأما الحكمة العملية فإنه يسلك العبد في عمله الديني أو الدنيوي أنفع طريق يتم به العمل، ففي الدين: الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول، والاقتصاد في السير، وعدم الغلو فيه أو التقصير، وفي العمل الدنيوي: أن يستعمل من الأسباب أنسبها إليه وأتمها لحصول مقصوده، ويسعى سعياً جميلاً، وبعد حصول ثمرة السبب الدنيوي يسعى في إنفاقه فيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي من غير إسراف ولا تقتير. والله أعلم

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٧٠)]

الآية الثامنة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾ أي لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، لأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها فهي مصلحة لعموم الناس **﴿و﴾** لكن **﴿ما يعقلها﴾** بفهمها وتدبرها وتطبيقها على ما ضربت له وعقلها في القلب **﴿إلا العالمون﴾** أي إلا أهل العلم الحقيقي الذين وصل العلم إلى قلوبهم، وهذا مدح الأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين، والسبب في ذلك أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله بها وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى، ولهذا أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٦٣)]

الآية التاسعة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الروم: ٥٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**وقال الذين أوتوا العلم والإيمان**﴾ أي منّ الله عليهم بهما، وصار وصفاً لهم، العلم بالحق والإيمان المستلزم إيثار الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق مؤثرين له، لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع مناسباً لأحوالهم، فلهذا قالوا الحق: ﴿**لقد لبثتم في كتاب الله**﴾ أي في قضائه وقدره الذي كتبه الله عليكم وفي حكمه ﴿**إلى يوم البعث**﴾ أي عُمْراً يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر، ويعتبر فيه المعتبر، حتى صار البعث، ووصلتم إلى هذه الحال ﴿**فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون**﴾ فلذلك أنكرتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً، تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٩٧)]

الآية العشرون:

وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة القصص: ٨٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

(ذكر الله سبحانه قبل هذه الآية قصة قارون وما أنعم الله عليه من الكنوز والأموال فغره ذلك واستكبر، وطغى وتجبر، ولم ينقد للحق، وخرج في ذات يوم على قومه في أرفع ما يكون من أحوال دنياه فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت برَّتُهُ القلوب، واختلبت زينته النفوس، فقال عندها الذين تعلقت قلوبهم بالحياة الدنيا، ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ﴾ [القصص: ٧٩] فلما سمع أولوا العلم والبصائر) ـ الذين عرفوا حقائق الأشياء ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها ـ (بمقولتهم تلك، قالوا لهم): ﴿**ويلكم**﴾

متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم منكرين لمقالهم ﴿ثواب الله﴾ العاجل من لذة العبادة، ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والآجل من الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذه حقيقة الأمر.

ولكن ما كل من يعلم ذلك يقبل عليه، فما يُلَقّى ذلك ويوفق له ﴿إلا الصابرون﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٢)]

الآية الحادية والعشرون:

وقال الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [سورة النساء: ١٦٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

لما ذكر (سبحانه) معايب أهل الكتاب ذكر الممدوحين منهم فقال: ﴿لكن الراسخون في العلم﴾ أي الذين ثبت العلم في قلوبهم ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأثمر لهم الإيمان التام العام ﴿منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ وأثمر لهم الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللذين هما أفضل الأعمال، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد، وآمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد ورجوا الوعد. ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب. والرسل السابقة واللاحقة[1].

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٣٩)]

---

(١) قوله (واللاحقة): يعني اليهود الذين آمنوا بالرسل والكتب قبل بعثة النبي ﷺ.

الآية الثانية والعشرون:

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿**قل**﴾ لمن كذب به (بالقرآن) وأعرض عنه ﴿**آمنوا به أو لا تؤمنوا**﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضارية شيئاً وإنما ضرر ذلك عليكم، فإن لله عباداً غيركم وهم الذين آتاهم العلم النافع ﴿**إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً**﴾ أي يتأثرون به غاية التأثر ويخضعون له ﴿**ويقولون سبحان ربنا**﴾ عما لا يليق بجلاله مما نسبه إليه المشركون، ﴿**إن كان وعد ربنا**﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿**لمفعولا**﴾ لا خُلْفَ فيه ولا شك ﴿**ويخرون للأذقان**﴾ أي على وجوههم ﴿**يبكون ويزيدهم**﴾ القرآن ﴿**خشوعاً**﴾.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٣٦)]

الآية الثالثة والعشرون:

وقال الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الحج: ٥٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك**﴾ وأن الله منحهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيفرقون بين الأمرين، الحق المستقر الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم يقيض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة ﴿**فيؤمنوا به**﴾ بسبب ذلك ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبهة، ﴿**فتخبت له قلوبهم**﴾ أي تخشع وتخضع، وتسلم

لحكمته وهذا من هدايته إياهم ﴿**وإن الله لهاد الذين آمنوا**﴾ بسبب إيمانهم ﴿**إلى صراط مستقيم**﴾ علم بالحق وعمل بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٣١)]

الآية الرابعة والعشرون:

وقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة النحل: ٢٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**ثم يوم القيامة يخزيهم**﴾ أي يفضحهم على رؤوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله ﴿**ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم**﴾ أي تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء لله، فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم والاعتراف بعنادهم فيقولون: ﴿**ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين**﴾ ﴿**قال الذين أوتوا العلم**﴾ أي العلماء الربانيون ﴿**إن الخزي اليوم**﴾ أي يوم القيامة ﴿**والسوء**﴾ أي سوء العذاب ﴿**على الكافرين**﴾ وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٥٦)]

الآية الخامسة والعشرون:

وقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة النحل: ٧٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي: هو المنفرد بهذه النعم حيث ﴿**أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً**﴾ ولا تقدرون على شيء ثم إنه ﴿**جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة**﴾

خص هذه الأعضاء الثلاثة، لشرفها وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا يصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة، هو الذي أعطاهم إياها، وجعل ينميها فيهم شيئاً فشيئاً، إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المعاملة.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٧٣)]

الآية السادسة والعشرون:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [سورة الصف: ٢ ـ ٣].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه. وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون متصفون به، فهل تليق بالمؤمنين، هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله، أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس مبادرة إليه، والناهي عن الشر، أن يكون أبعد الناس عنه، قال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾[البقرة: ٤٤] (١).

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٩)]

* * *

(١) انظر الفائدة الخامسة من درر العلامة السعدي في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

الفصل الثاني

بعض الأحاديث الدالة
على فضل العلم والتعلم
والتي قام بشرحها
شيخنا السعدي
رحمه الله

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الحديث الأول

عن معاوية رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: **«من يرد الله به خيراً يفقهه من الدين»**[1] متفق عليه[2].

قال رحمه الله:

هذا الحديث من أعظم فضائل العلم وفيه:

أن العلم النافع علامة على سعادة العبد، وأن الله أراد به خيراً.

والفقه في الدين يشمل الفقه في أصول الإيمان، وشرائع الإسلام والأحكام، وحقائق الإحسان، فإن الدين يشمل الثلاثة كلها كما في حديث «جبريل» لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وأجابه ﷺ بحدودها، ففسر الإيمان بأصوله الستة، وفسر الإسلام بقواعده الخمس، وفسر الإحسان بـ **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[3] فيدخل في

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في كتابه مفتاح دار السعادة (١/٢٤٦) بعد ذكره لهذا الحديث: وهذا يدل على أن من لم يفقه في دينه لم يرد به خيراً، كما من أراد خيراً فقهه في دينه، ومن فقهه في دينه، فقد أراد به خيراً إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل، وأما إن أريد به مجرد العلم فلا يدل على أن من فقه في الدين فقد أريد به خيراً فإن الفقه حينئذ يكون شرطاً لإرادة الخير، وعلى الأول يكون موجباً، والله أعلم.

وقال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

قوله ﷺ: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»** أي: يجعله فقيهاً في دين الله عز وجل، والفقه في الدين ليس المقصود به فقه الأحكام العملية المخصوصة عند أهل العلم بعلم الفقه فقط. ولكن المقصود به هو علم التوحيد وأصول الدين وما يتعلق بشريعة الله عز وجل، ولو لم يكن من نصوص الكتاب والسنة إلاَّ هذا الحديث في فضل العلم لكان كاملاً في الحث على طلب علم الشريعة والفقه فيها.

[كتاب العلم (ص ١٩)]

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧١)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٣٨٩).

(٣) جزء من حديث جبريل الطويل الذي أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، حديث رقم (٨).

ذلك التفقه في العقائد ومعرفة مذهب السلف فيها، والتحقق به ظاهراً وباطناً، ومعرفة مذاهب المخالفين وبيان مخالفتها للكتاب والسنة.

ودخل في ذلك: علم الفقه أصوله وفروعه، وأحكام العبادات والمعاملات والجنايات وغيرها، ودخل في ذلك: التفقه بحقائق الإيمان ومعرفة السير والسلوك إلى الله، الموافقة لما دَلّ عليه الكتاب والسنة.

وكذلك يدخل في هذا: تعلم جميع الوسائل المعينة على الفقه في الدين، كعلوم العربية بأنواعها.

فمن أراد الله به خيراً فقهه في هذه الأمور ووفقه لها.

ودل مفهوم الحديث على أن من أعرض عن هذه العلوم بالكلية فإن الله لم يرد به خيراً لحرمانه الأسباب التي تنال بها الخيرات، وتكتسب بها السعادة.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ٢٤)]

الحديث الثاني

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يدعو فيقول: **«اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»**[1] . . . . . .

---

(١) قال النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم (حديث رقم ٦٨٤٢):

قوله ﷺ: **«اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»**. أما العفاف والعفة فهو التنزه عما لا يباح والكف عنه. والغنى هنا غنى النفس، والاستغناء عن الناس وعما في أيديهم.

قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله:

الهدى هنا بمعنى العلم والنبي ﷺ محتاج إلى العلم كغيره من الناس، لأن الله سبحانه قال لـه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طـه: ١١٤]. وقال الله لـه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. فهو عليه الصلاة والسلام محتاج إلى العلم فيسأل الله الهدى.

والهدى إذا ذكر وحده يشمل العلم والتوفيق للحق، أما إذا قرن معه ما يدل على التوفيق للحق فإنه يُفسر بمعنى العلم، لأن الأصل في اللغة العربية أن العطف =

رواه مسلم[1].

قال رحمه الله:

هذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها، وهو يتضمن سؤال خير الدين وخير الدنيا، فإن الهدى هو العلم النافع، والتقى العمل الصالح، وترك ما نهى الله ورسوله عنه، وبذلك يصلح الدين، فإن الدين علوم نافعة ومعارف صادقة، فهي الهدى، وقيام بطاعة الله ورسوله فهو التقى.

«والعفاف والغنى» يتضمن العفاف عن الخلق، وعدم تعلق القلب بهم.

والغنى بالله وبرزقه والقناعة بما فيه، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية، وبذلك تتم سعادة الحياة الدنيا، والراحة القلبية، وهي الحياة الطيبة.

= يقتضي المغايرة فيكون الهدى له معنى وما بعده مما يدل على التوفيق له معنى آخر.

وأما قوله: **«والتقى»** فالمراد بالتقوى تقوى الله عز وجل، فسأل النبي ﷺ ربه التقى أي أن يوفقه إلى تقوى الله، لأن الله هو الذي بيده مقاليد كل شيء، فإذا وكل العبد إلى نفسه ضاع ولم يحصل على شيء، فإذا وفقه الله عز وجل ورزقه التقى صار مستقيماً على تقوى الله.

وأما قوله: **«العفاف»** فالمراد به أن يمن الله عليه بالعفاف، والعفة عن كل ما حرم الله عليه فيكون عطفه على التقوى من باب عطف الخاص على العام إن خصصنا العفاف بالعفاف عن شيء معين، وإلاَّ فهو من باب عطف المترادفين.

فالعفاف أن يعف عن كل ما حرم الله عليه فيما يتعلق بجميع المحارم التي حرمها الله عز وجل، وأما الغنى، فالمراد به الغنى عما سوى الله أي: الغنى عن الخلق بحيث لا يفتقر الإنسان إلى أحد سوى ربه عز وجل.

والإنسان إذا وفقه الله ومنّ عليه بالاستغناء عن الخلق صار عزيز النفس غير ذليل لأن الحاجة إلى الخلق ذل ومهانة والحاجة إلى الله عز وعبادة، فهو يسأل عليه الصلاة والسلام الغنى.

فينبغي لنا أن نقتدي بالرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الدعاء، وأن نسأل الله الهدى والتقى والعفاف والغنى.

[شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٨٩)]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء، برقم (٦٨٤٢).

فمن رزق الهدي والتقى والعفاف والغنى، نال السعادتين وحصل له كل مطلوب ونجا من كل مرهوب. والله أعلم.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ١٦٥)]

الحديث الثالث

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»**[(١)] رواه مسلم[(٢)].

قال غفر الله له:

هذا الحديث ـ وما أشبهه من الأحاديث ـ فيه: الحث على الدعوة إلى الهدى والخير، وفضل الداعي، والتحذير من الدعاء إلى الضلالة والغي، وعظم جرم الداعي وعقوبته.

والهدى: هو العلم النافع، والعمل الصالح.

وكل من علم علماً أو وجّه المتعلمين إلى سلوك طريقة يحصل لهم فيها علم، فهو داعٍ إلى الهدى.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في كتابه مفتاح دار السعادة (١/ ٢٥٠): الوجه الرابع والأربعون (في تفضيل العلم وأهله) بعد أن ذكر هذا الحديث: أخبر ﷺ أن المنتسب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به، والمنتسب إلى الضلالة بدعوته له مثل إثم من ضل به، لأن هذا بذل قدرته في هداية الناس وهذا بذل قدرته في ضلالهم فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام. وهذه قاعدة شرعية ـ كما هو مذكور في غير هذا الموضع ـ قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وهذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه حقاً، لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته إليه، وهذا من أعظم معاداته نعوذ بالله من الخذلان.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٧٤).

وكل من دعا إلى عمل صالح يتعلق بحق الله، أو بحقوق الخلق العامة والخاصة: فهو داعٍ إلى الهدى.

وكل من أبدى نصيحة دينية أو دنيوية، يتوسل بها إلى الدين فهو داعٍ إلى الهدى.

وكل من اهتدى في علمه أو عمله، فاقتدى به غيره فهو داعٍ إلى الهدى.

وكل من تقدم غيره بعمل خيري، أو مشروع عام النفع، فهو داخل في هذا النص.

وعكس ذلك كله: الداعي إلى الضلالة.

فالداعون إلى الهدى: هم أئمة المتقين وخيار المؤمنين.

والداعون إلى الضلالة: هم الأئمة الذين يدعون إلى النار.

وكل من عاون غيره على البر والتقوى، فهو من الداعين إلى الهدى.

وكل من أعان غيره على الإثم والعدوان: فهو من الداعين إلى الضلالة.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ٢٣)]

الحديث الرابع

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «. . . **اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع[١] ومن قلب لا يخشع[٢] ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها**». رواه مسلم[٣].

---

(١) العلم النافع هو الذي يزكي النفس ويولد فيها خشية الله تعالى فتسري منها إلى سائر الجوارح ويثمر العمل الصالح الذي ينال به رحمه الله تعالى والجنة.

(٢) القلب الخاشع هو الذي يخاف ويضطرب عند ذكر الله سبحانه وتعالى: ثم يلين ويطمئن ويركن إلى حمى مولاه، فمن كان كذلك، كان قلبه محلاً لنور الله الذي يجعله الله في قلب عبده فرقاناً بين الحق والباطل.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٦٨٤٤).

قال رحمه الله رحمة واسعة:

تعوذ ﷺ من علم لا ينفع وذلك لأمور:

منها: العلوم الضارة ضرراً محضاً، أو شرها أعظم من خيرها كعلوم السحر وتعلم الباطل بغير بصيرة بالحق.

ومنها: الاشتغال بالعلوم التي تشغل العبد عن الأمور النافعة حتى المباحة.

ومنها: العلم الشرعي الذي لا يعمل به صاحبه، يعرف الخير فيتركه ويعرف الشر فيقتحمه.

ومنها: الاشتغال بالعلوم الطبيعية إذا أعرض صاحبها عن العلوم الدينية، فإن الاقتصار عليها يوجب لصاحبها تيهاً وكبراً يتكبر به على الحق، علماً وعملاً كما هو مشاهد ممن يشتغل بالعلوم العصرية المحضة، ويزهد عن علوم الدين.

أما العلوم النافعة فهي علوم الدين وما أعان عليها من علوم العربية بأنواعها، وما فيه إصلاح للدين والدنيا والأحوال والأخلاق بشرط أن يكون الدين فيها هو الأصل وغيره تبع له ومعين عليه.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٥٠)]

الحديث الخامس

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»**[1] . . . . . .

---

(١) قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث:
(لا حسد إلاَّ في اثنتين) يعني لا غبطة، ولا أحد يغبط على ما أعطاه الله سبحانه من=

متفق عليه[1].

قال رحمه الله وغفر له:

الحسد نوعان: نوع محرم مذموم على كل حال، وهو أن يتمنى زوال نعمة الله عن العبد ـ دينية أو دنيوية ـ وسواء أحب ذلك محبة استقرت في قلبه ولم يجاهد نفسه عنها، أو سعى مع ذلك في إزالتها وإخفائها وهذا أقبح فإنه ظلم متكرر. وهذا النوع هو الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

النوع الثاني: أن لا يتمنى زوال نعمة الله عن الغير، ولكن يتمنى حصول مثلها له، أو فوقها أو دونها وهذان نوعان: محمود وغير محمود.

فالمحمود من ذلك: أن يرى نعمة الله الدينية على عبده فيتمنى أن يكون له مثلها، فهذا من باب تمني الخير فإن قارن ذلك سعي وعمل لتحصيل ذلك فهو نور على نور.

وأعظم من يغبط من كان عنده مال قد حصل له من حلِّه، ثم سُلِّط ووفق على إنفاقه في الحق، في الحقوق الواجبة والمستحبة فإن هذا من أعظم البرهان على الإيمان، ومن أعظم أنواع الإحسان. ومن كان عنده علم وحكمة علمه الله إياها، فوفق لبذلها من التعليم والحكم بين الناس.

فهذان النوعان من الإحسان لا يعادلهما شيء.

= مال وغيره إلاَّ في اثنتين: الأولى رجل أعطاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، صار لا يبذله إلاَّ فيما يرضي الله هذا يحسد... والثانية رجل آتاه الله الحكمة يعني العلم... فهو يقضي بها ويعلمها يقضي بها في نفسه وفي أهله، وفي من تحاكم عنده ويعلمها الناس أيضاً... فهذا لا شك أنه مغبوط على ما آتاه الله عز وجل من الحكمة.

[شرح رياض الصالحين (٦/ ٦٣)]

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧٣ و١٤٠٩ و٧١٤١ و٧٣١٦)، ومسلم في صحيحه رقم (١٨٩٣).

الأول: ينفع الخلق بماله، ويدفع حاجاتهم وينفق في المشاريع الخيرية، فتقوم ويتسلسل نفعها ويعظم وقعها.

والثاني: ينفع الناس بعلمه وينشر بينهم الدين والعلم الذي يهتدي به العباد في جميع أمورهم: من عبادات ومعاملات وغيرها.

ثم بعد هذين الاثنين تكون الغبطة على الخير، بحسب حاله ودرجاته عند الله، ولهذا أمر الله تعالى بالفرح والاستبشار، بحصول هذا الخير وأنه لا يوفق لذلك إلا أهل الحظوظ العظيمة العالية.

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة يونس: ٥٨].

وقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٥].

وقد يكون من تمنى شيئاً من هذه الخيرات له مثل أجر فاعله، إذا صدقت نيته وصمم من عزيمته أن لو قدر على ذلك العمل، لَعَمِل مثله، كما ثبت بذلك الحديث. وخصوصاً إذا شرع وسعى بعض السعي. وأما الغبطة التي هي غير محمودة: فهي تمني حصول مطالب الدنيا لأجل اللذات وتناول الشهوات كما قال الله تعالى حكاية عن قوم قارون: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [سورة القصص: ٧٩].

فإن تمني مثل حالة من يعمل السيئات فهو بنيته ووزرهما سواء.

فبهذا التفصيل يتضح الحسد المذموم في كل حال والحسد الذي هو الغبطة والذي يحمد في حال ويذم في حال. والله أعلم.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ١٦٣ ـ ١٦٥)]

الحديث السادس

قوله ﷺ: «**اِحرِص عَلَى ما يَنفَعُكَ، وَاستَعِن بالله، ولا تَعجز، وَإِنْ**

أَصابَكَ شَيءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذا، لَكانَ كَذَا... فَإِنَّ «لَوْ» تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ»[1].

قال رحمه الله: ما أجلَّ هذا الحديث وأغزر فوائده، وأجمعه لِخَيْري الدنيا والآخرة؛ فإن مجموع سعادة الدنيا والآخرة، في حرص العبد على كل عمل ينفعه في دينه ودنياه، مع استعانته بالله.

فمتى حَرَص العبد على الأمور النافعة، واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطُرُقَها، واستعان بربه في حصولها وتكميلها، كان ذلك كماله وعنوان توفيقه.

ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة، فاته من الخير بحسبها. فمن لم يكن حريصاً على الأُمور النافعة؛ بل كان كسلاناً عن النافع له في أُمور دينه ودنياه، لم يدرك شيئاً، فالكسل أصل الخَيْبة والفشل.

فالكسلان لا يُدرك خيراً، ولا ينال مَكرُومَةً، ولا يحظى بدين ولا دنيا. وإن كان حريصاً، لكن على غير الأُمور النافعة، إما على أمور ضارّة، أو أُمور مُفَوِّتَةً للمنافع والكمال ـ كان ثمرة حرصه الخيبة وفوات الخيرات، وحصول الشُّرور والمَضرَّات. فكم من حريص على سلوك طرق وأحوال غير نافعة لم يستفد من حرصه إلا التعب والعناء والشقاء. ثم إذا سلك العبد الطرق النافعة، وحرص عليها واجتهد، لم تتم إلا بصدق اللَّجَإِ والاستعانة بالله على إدراكها وتكميلها، وأن لا يتَّكِلَ على حَوْلِه وقُوَّتِه، بل يكون اعتماده التام ـ بقلبه وباطنه ـ على ربِّه.

فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأُمور، وتحصل له الثمرات الطيبة في أمر الدين، وأمر الدنيا. لكنه في هذه الأحوال مُحتاج، بل مُضطر، إلى معرفة الأُمور النافعة التي ينبغي الحرص عليها، والجد في طلبها.

إذا تقرر ذلك، فالأُمور النافعة في الدِّين ترجع إلى أمرين: علم نافع، وعمل صالح.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه رقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

أما العلم النافع، فهو العلم المُزَكِّي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدَّارين. وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفِقْهٍ، وما يُعين على ذلك من علوم العربية، بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان.

وتعيين ما يشتغل به من الكتب يختلف باختلاف الأحوال والبلدان. والحالة التقريبية في نظرنا هذا: أن يجتهد طالب العلم في حِفظ مختصرات الفن الذي يشتغل به، فإن تعذَّر أو قصر عليه حفظه لفظاً، فليكرره كثيراً حتى ترسخ معانيه في قلبه.

ثم تكون باقي كتب الفن كالتوضيح والتفسير لذلك الأصل الذي أدركه وعرفه. فلو حفظ طالب العلم: «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«الثلاثة الأصول» و«كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وفي الفقه: «مختصر الدليل» و«مختصر المقنع»، وفي الحديث: «بلوغ المرام»، وفي النحو: «الآجُرُومِيَّة»، واجتهد في فهم هذه المُتُون، وراجع عليها ما تيسر من شروحها، أَوْ كُتُبِ فَنِّها، فإنها كالشروح لها، لأن طالب العلم إذا حفظ الأُصول، وصار له مَلَكَةٌ تامة في معرفتها ـ هانت عليه كتب الفن كلها، الصغار والكِبار. ومن ضيع الأصول حُرم الوصول. فمن حرص على هذه العلوم النافعة، واستعان بالله، أعانه وبارك له في علمه وطريقه الذي سلكه. ومن سلك في طلبه للعلم غير الطريقة النافعة، فاتت عليه الأوقات، ولم يدرك إلا العناء كما هو معروف بالمشاهدة والتجربة.

أما الأمر الثاني فهو العمل الصالح؛ فالعمل الصالح هو الذي جمع الإخلاص لله، والمتابعة للرسول، وهو التقرب إلى الله بما يحبُّ، باعتقاد ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحقه على عباده من العبودية، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وتصديقه، وتصديق رسوله في كل خبر أخبر به.

ثم يسعى في أداء ما فرض الله على العباد من حقوقه وحقوق عباده، ويكمِّل ذلك بالنوافل والتطَوُّعات، وخصوصاً المؤكدة في أوقاتها، مستعيناً بالله على فعلها وتكميلها ظاهراً وباطناً. ثم [يتقرّب] إلى الله بترك المحرمات،

وخصوصاً التي تدعو إليها النفوس الأَمارة بالسوء. فيتقرب العبد إلى الله بتركها، كما يتقرب إليه بفعل المأمورات.

فمتى وُفِّق العبد لسلوك هذا الطريق في العمل، واستعان الله على ذلك، أفلح وأنجح، وكان كماله بحسب ما قام به من هذه الأمور، ونقصه بحسب ما فاته منها.

وأما الأمور النافعة في الدنيا، فالعبد لا بد له من طلب الرزق، فينبغي أن ينظر أنفع الأسباب الدنيوية اللائقة بحاله، فيسلكها، ويعمل عليها، وذلك يختلف باختلاف الناس.

ويقصد بطلبه وسعيه القيام بواجب نفسه، وواجب عائلته، ومن يقوم بمؤونته، ويَنْوي الكَفاف والاستغناء بسببه عن الخلق. وكذلك ينوي القيام بالعبوديات اللائقة بالمال من زكاة وكفارة، ونذر ونفقات، ونحوها من كل ما يتوقف على المال. فمتى كان طلبُ العبد وسعيُه في الدنيا لهذه المقاصد الجليلة، وسلك أنفع طريق يراه مناسباً لحاله، وسلِمَ من المعاملات الرديئة والغش وتوابعها، كانت حركاته قُرْبَةً يتقرّب بها إلى الله عز وجل. ولا يتم ذلك إلا بالتوكل على الله وحده، راجياً منه أن ييسره لأَيسر الأُمور وأنجحها، وأقربها تحصيلاً لمراده، ويسأل الله أن يبارك له في رزقه، فأول بركه الرزق: أن يكون مؤسساً على التقوى، والنية الصالحة.

ومن بركة الرزق: أن يُوَفَّقَ العبدُ لوضعه في مواضعه الواجبة والمستحبة. ومن بركة الرزق والمعاملة: أن لا ينسى العبدُ الفضل. قال تعالى:

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧].

وذلك بالتيسير على الموسِرين، وإنظار المعْسِرين، والمحاباة عند البيع والشراء بما تيسر من قليل وكثير، وإقالة المستقيل، والسماحة في البيع والشراء. فمن وُفِّق لهذا أدرك خيراً كثيراً.

فإن قيل: أيُّ المكاسب أولى وأفضل؟

قيل: قد اختلف العلماء، فمنهم من فضّل الزراعة والحراثة، لما فيها من قوة التوكل، وتعلُّق الرجاء بالله في إنزال الغيث، ولما فيها من النَّفع المتعدّى.

ومنهم من فَضَّل البيع والشراء، لما فيه من الشرف، وحُسن الاعتبار، وتوسُّع المعرفة والبركة. ومنهم من فضّلَ الصناعة، لما فيها من القيام بالمنافع الكلية.

ولكن هذا الحديث هو الفاصل للنزاع في هذه المسألة، إذ قال ﷺ: **«احرِصْ على ما ينفعك، واستعن بالله»**[1].

والنافع من ذلك، معلوم أنه يختلف باختلاف الناس: فقد يكون بعض المذكورات أفضل في حق شخص، ويكون الآخر أفضل في حق الآخر.

ولكن السبب الذي يأتيك براحة وطمأنينة، ويكون فيه معونة على أُمور دينك: لا ريب أنه أفضل الأسباب على الإطلاق. ثم إنه ﷺ، في آخر الحديث، حضَّ على الرِّضا بقضاء الله وقدَره بعد بذل الجهد، واستِفراغ الوُسع في الحرص على النافع. فإذا أصاب العبد ما يكره، فلا ينسُبه إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها، بل يُخلدُ إلى قضاء الله وقدَره، ليزداد إيمانه، ويسكن قلبه، فإن «لو» في هذه الحالة تفتح عمل الشيطان، وهو نقص الإيمان، وعدم الرضا بقدر الله وقضائه. وتفتح «لو» باب القلق والحزن من تشوش الأسباب. وهذه الحال التي أرشد إليها ﷺ هي الطريق الوحيد لراحة العبد في دنياه، كما أنها خير له في دينه وأُخراه؛ فإن مَدار سعادة الدنيا على راحة القلب وسكونه، وقناعته بما قسم الله، وذلك بما دلَّ عليه هذا الحديث من الحرص على كل أمر نافع، وسيلةً ومقصداً، مع الاستعانة بالله وقت حصوله، والرضا بالله وبقدره بعد حصوله. والله أعلم.

الفتاوى السعدية (ص ٢٧ ـ ٣٠)]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه رقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

الفصل الثالث

مباحث
من كلام العلامة السعدي
حول فضل العلم
وآداب المتعلمين
وأخلاقهم

المبحث الأول

في العلم وفوائده

قال رحمه الله:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر: ٩].

وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[١] [سورة المجادلة: ١١].

وفي الصحيحين عنه ﷺ، قال:

«مَنْ يُرِد الله بِهِ خَيراً، يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[٢].

«إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[٣].

حدّ العلم: ما قامت عليه الأدلة والبراهين، والنافع منه ما تعلّق بالدين، وكان من العلوم المعِينة على الدين.

وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة على فضل العلم وشرفه، وفضل أهله؛ وأن كل شيء يفتقر إليه، وأن الناس كلهم في الظلمات إلا من استنار بنور العلم.

وجعل الله طريق الجنة والصراط المستقيم مركباً من العلوم النافعة[٤]، ومن

---

(١) انظر شرح الآيتين في الفصل الأول من هذا الكتاب.

(٢) تقدم تخريجه قبل قليل.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الوصية برقم (٤١٩٩).

(٤) كما قال ﷺ: **«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»** [رواه مسلم].

الأعمال الصالحة.

العلم خير من المال. العلم يحرسُك، وأنت تحرس المال.

العلم يصْحَبُك في دُورك الثلاث: في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد.

والمال إن فُرِض وجوده، صحِبَك صُحْبة مُنكدة في حال الحياة الدنيا.

العلم نور يُهتدى به في ظُلمات الشكوك والجهالات، وحياة تُقيم العبد وتوصّله إلى الجنات.

ما زال علم العالم يُعلَّم، أو يعمل به، أو يستفاد منه، فصحيفة حسناته في ازدياد في حال الحياة وبعد الممات.

بأيّ شيء يعرف الله، ويهتدى إلى صراط الله؟ وبأي شيء يهتدى إلى الفرق بين الأحكام الخمسة التابعة لجميع الحركات والسَكَنات؟ وبأي شيء يهتدى إلى الفُرقان بين الهدى والضلال، والغيّ والرشاد؟ وبأي شيء تعرف الأعمال النافعة؟

والله، لا يتمكن من شيء من ذلك إلا بالعلم!

العلم هو الأساس الأعظم لجميع المعاملات، وهو الشرط لصحة الأقوال والأعمال.

الجهل داءٌ قاتل، والعلم حياة ودواء نافع.

حاجة الناس إلى العلم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب.

الاشتغال بالعلم من أفضل الطاعات وأجلّ القربات.

مذاكرة العلم تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعلمه وتعليمه ودراسته تُوجب رضا ربّ العباد.

قال ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ». رواه مسلم[1].

وقال ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِياضِ الْجَنَّةِ فارْتَعُوا».

قالوا: وَما رياضُ الجنة؟

قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ»[2].

فَرِياضُ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ، فِيها - مِنَ الْمَعَارِفِ - مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

فيها: أجلُّ المعارف وأفضلها، وهو العلم بأسماء الله وصفاته، وأفعاله وآلائه.

وفيها: عِلم الحلال والحرام، والنافع والضار.

وفيها: علم الأخلاق التي ترقِّي صاحبها إلى أعلى المقامات، وعلم الآداب التي تجعل العبد من أكبر البَرِيَّات.

وفيها: تشخيص ما في النفوس من الخير والشر، والرغبات والرَّهَبات.

وفيها: كيفية توجيهها إلى فعل الخيرات، وترك المنكرات، وإلى ما يناسبها من الأمور النافعات.

فيها: علوم العربية الجليلة، على اختلاف منافعها وفوائدها، وثمرتها: تقيم لك اللسان، وتهديك إلى أوضح العبارات وحُسن البيان، وتستعين بها على معرفة معاني كلام الله وكلام رسوله، وتكون آلة لك في كل علم وعمل تسلُكه.

وفي هذه الرياض عِلم أحوال التواريخ والدُّوَل وأصناف الأمم، تتمكن فيها من اجتلاء القرون السالفين، ومُعاصرة الأمم الغابرين، ثم هكذا تنتقل من قرن إلى قرن، حتى تتصل بأحوال الأمم الموجودين، وتعتبر فيها حكمة الله وسنته في السالفين واللاحقين، فترى الخير والفضل عُنوان شرف وسعادة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٩٩).

(٢) رواه الترمذي في سننه رقم (٣٧٥٧) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله رحمة واسعة في صحيح سنن الترمذي (رقم ٢٧٨٧).

وذكرى جميلة حيث كان، والشر والظلم عُنوان شقاء وفضيحة وخِزي في جميع الأزمان.

ثم تتجلّى فيها عُقول الأوّلين، والآخِرين، وكيف كان التفاوت الذي لا ينضبط ولا يُدرك مُنتهاه بين أفراد البشر.

فهذا لا يتميّز عن البهائم إلا بالشكل والنُّطق من خِسَّته ودناءته، وهذا يفوق أمة عظيمة في عقله ومعارفه وأخلاقه العالية، وهذا قد سيطرت عليه الشهوات البهيمية، فانقاد لها عقله وهواه. وهذا قد ارتفعت هِمّته فوق الثريا، فلم تملِكه العادات، ولم يُقدّم شيئاً على رِضا مولاه.

وهكذا تجد في رياض العلوم كثيراً من نُصوص الكتاب والسنة، بنصّها أو فحواها أو لازمها، مما يدلّ على اعتبار جميع العلوم النافعة للدنيا والدين.

وفيها: الحثُّ على تعليم الصّناعات والمخترعات، وامتنان الله علينا، بتسخير ما على الأرض وما في باطنها، لنستخرج منه جميع ما نقدِر عليه من المنافع التي لا يزال الله يُعلّمها الإنسان شيئاً بعد شيء.

ونجد أن الله أمرنا أن نعلّم الجُهّال والسُّفهاء كيفية حِفظ الأموال، وكيفية التكسب فيها، واستِحصال منافعها.

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [سورة النساء: ٦].

فأمرنا أن نُعلّمهم ونختبرهم فيما يليق بأحوالهم. فإذا مهروا في هذا العلم، وأبصرنا رشدهم، دفعنا إليهم أموالهم. وما داموا في جهلهم يعمهون، وفي سَفههم يتيهون، لا نمكّنهم من أموالهم، حذَر الضيّاع والنقص.

ففي هذا دليل على أن العلم نافع، حتى العلوم الدنيوية، وأنه حِفاظ للمنافع، ودافع للمَضارّ.

لولا العلم، لكان الناس كالبهائم في ظُلمات الجهالة.

ولولا العلم، لما عُرفتْ المقاصد والوسائل.

ولولا العلم ما عُرفت البراهين على المطالب كلها ولا الدلائل.

العِلم هو النُّور في الظلمات، وهو الدليل في المتاهات والشُّبُهات، وهو المميّز بين الحقائق، وهو الهادي لأكمل الطرائق.

بالعِلم يرفع الله العبد درجات[1]، وبالجهل يهوي إلى أسفل الدَّرَكات.

[الرياض الناضرة (ص ٦٨ ـ ٧١)]

* * *

(١) مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فهذا النور بين يديك يا طالب العلم وهذه الرفعة قد سمعتها، وهذه الفضائل قد فهمتها فاسلك سبيل العلم وطريقه، يسهل لك الله طريقاً للجنة بإذنه سبحانه.

المبحث الثاني

في الطرق التي تدرك بها العلوم

وسئل رحمه الله: ما هي الطرق التي تدرك بها العلوم؟ وما أقواها؟ وما أصحها؟

فقال رحمه الله: الجواب، وبالله التوفيق: هذا سؤال عظيم جداً يستدعي الإجابة عن جميع الطرق التي يتوصل بها إلى أنواع العلوم، وإلى بيان درجاتها ومراتبها في القوة والضعف، والوضوح وضده.

اِعلم أن الطرق والمسالك التي يتوصل بها إلى العلوم، كثيرة الأجناس والأنواع والأفراد؛ ولكن يجمع مُتفرّقاتها، ويلُمُّ أشتاتَها، ثلاثُ طرق، **إحداها**: طريق الإخبارات الصادقة[1]، **والثانية**: الحِسُّ، **والثالثة**: طريق العقل.

ووجه الحصر في ذلك أن المعلومات إمّا أن تُدرك بالسمع أو بالبصر أو باللمس أو بالذوق، وإما أن تدرك بالعقل، وإما أن تُنَال بالإخبار. وكل واحد من هذه الثلاثة قد يجتمع مع الآخرين، أو مع أحدهما، وقد يكون ضرورياً يضطر الإنسان إلى عِلمه، والتصديق به. وقد يكون نظرياً يحتاج إلى زيادة فكر وتأمل وتفكر.

ثم هذه الأجناس قد توصل إلى العلم الراسخ اليقيني، وقد توصل إلى الترجيح فقط، وبين المرتبتين درجات متفاوتة.

أما أقواها، فما اتفقت عليه الطرق الثلاث، واتفق على اتفاقها عليه أهل

---

(١) وذلك لا شك يكون عن طريق كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

العلم المعتبرون، وأُولو الألباب العارفون.

ومن نفى واحداً من هذه الأمور الثلاثة، أو نفى بعضه، فذاك لفساد تَصَوُّره، أو لقصور علمه وانحرافه وسوء قصده.

وكلما كان المخبرون أعظم صدقاً وأعلى معرفة، والمعارف أجلُّ وأعظم وأنفع، كان العلم الحاصل بذلك أقوى من غيره.

ولهذا كان أعلى درجات العلم وأصَحُّها وأنفعها، وأكثرها أدلة وبراهين، وأجلاها للحقائق: خبَر الله وخبر رُسله.

فإنه ليس أصدق من الله قيلاً، ولا أصدق منه حديثاً، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: ٤].

فكلُّ ما قاله الله ورسوله فهو الحق. وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وهو يهدي إلى كل دليل على الحق، نَقْلِيّ أو عَقْلِيّ.

وإذا أردت أن تعرف الحق الصحيح، فهو ما قاله الله أو قاله رسوله، وأن ما ناقضه ونافاه، فهو باطل مضمحل مبنيّ على جهالات وموادَّ فاسدة، ومقدمات ناقصة[1].

فانظر إلى أُصول الدين وقواعده وأسسه، كيف اتفقت عليها الأدلة العقلية والحسية؟!

انظر إلى توحيد الله وتَفَرُّده بالوحدانية، وتوَحُّده بصفات الكمال، كيف كانت الكتب السماوية مشحونة بها، بل هي المقصد الأعظم، وخصوصاً القرآن الذي هو، من أوله إلى آخره، يقرر هذا الأصل الذي هو أكبر الأصول،

---

(١) وهذا هو الصواب الذي لا مرية فيه، ألا فليسمع ذلك من يقدمون عقلهم الفاسد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليدركوا تماماً ـ إن أدركوا ـ أن العلم الحقيقي هو ما قاله الله وقاله رسوله ﷺ، ورحم الله ابن القيم حيث قال:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس بالتمويه

وأعظمها!..

وانظر كيف اتفقت جميع الرسل والأنبياء ـ وخصوصاً خاتمهم وإمامهم محمداً ﷺ ـ على تقرير توحيد الله، وأنه متفرد بالوحدانية، وعظمة الصفات: من سعة العلم، وشمول القدرة والإرادة، وعموم الحجة والحكمة، والملك والمجد والسلطان، والجلال والجمال، والحسن والإحسان، في أسمائه وصفاته وأفعاله.

ثم انظر إلى هذا الأصل العظيم في قُلوب سادات الخلق، وأُولي الألباب الكاملة، والعقول التامَّة، كيف تجده أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وأوضح من كل شيء. وأنه مقدم على الحقائق كلها، وأنهم يعلمونه علماً ضرورياً بديهياً قبل الأدلة النظرية، ويعلمون أن كل ما عارضه، فهو أبطل الباطل.

ثم انظر إلى كثرة البراهين المنقولة والمعقولة، بل والمحسوسة الشاهدة لله بالوحدانية.

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْواحِدُ

فوجود الأشياء في العالم العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ، وبقاؤها وما هي عليه من الأوصاف المتنوعة، كل ذلك من الأدلة والبراهين على وجود مُبْدِعها ومُمِدِّها بكل ما تحتاج إليه.

ومن أنكر هذا، فقد باهت وكابر، وأنكر أجلى الأمور، وأعظم الحقائق.

ومن ها هنا تعرف أن الماديِّين الملحدين من أضلِّ الخلق وأجهلهم، وأعظمهم غروراً، حيث اغترُّوا لَمَّا عرفوا بعض العلوم الطبيعية، ووقفت عقولهم القاصِرَة عندها، وقالوا: نُثبت ما وصلت معارفنا إليه، ونَنْفي ما سواه.

فتعرف بهذا أن نفيهم جهل وباطل، باتفاق العقلاء، فإن من نفى ما لا يعرفه، فقد بَرْهن على كذبه وافترائه؛ فكما أن من أثبت شيئاً بلا علم، فهو

ضال غاوٍ، فكذلك من نفى شيئاً بغير علم.

وتعرف أيضاً أن إثباتهم لعلوم الطبيعية التي عرفوها وتوصلت إليها معارفهم، إثبات قاصر لم يصلوا إلى غايته وحقيقته، فلم يصلوا بذلك إلى خالِق الطبيعية ومُبدعها، ولم يعرفوا المقصود من نظامها وسببيّتها، فأثبتوا بعض السبب، وعَمُوا عن المقصود، وهم في علمهم هذا حائرون متردِّدون، لا تثبت لهم قدم على أمر من الأُمور، ولا تثبت لهم نظرية صحيحة مستقيمة، فهم دائماً في خَبْطٍ وخَلْطٍ وتناقُض، وكلما جاءهم من البراهين الثابتة ما لا قِبَلَ لهم به، قالوا: هذا من فَلتات الطبيعة. وكلما برز أحد من فحولهم وأذكيائهم، ابتكر لهم طريقة غير طريقة إخوانه، فصدق عليهم قوله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [سورة ق: ٥].

وصدق عليهم أيضاً قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣﴾ [سورة غافر: ٨٣].

والمقصود أن هذا الأصل العظيم قد دلَّت عليه جميع الأدلة بأجناسها وأنواعها، ودلَّ عليه الشرع المحكم، والقدَر المعَظم المتقن.

وانظر إلى الأصل الثاني وهو إثبات الرسالة، وأن الله قد أقام على صدق رسله من الآيات البيِّنات، والأدلة الواضحات، ما على مثله يؤمن البشر، وخصوصاً إمامهم وسيِّدهم، محمداً ﷺ، فإن آيات نبوته وبراهين رسالته متنوعة: سيرته وأخلاقه وهَدْيه، وما جاء به من الدين القويم. وحَثُّه على كل خُلُقٍ جميل، وعمل صالح، ونفع وإحسان إلى الخلق، ونهيه عن ضد ذلك - كلها آيات وبراهين على رسالته. وما جاء به من الوحي من الكتاب والسنة، كله، جملة وتفصيلاً، وأدلة وبراهين على رسالته، مع ما أكرمه الله به من النصر العظيم، وإظهار دينه على الأديان كلها، وإجابة الدعوات، وحلول أنواع البركات التي لا تُعدُّ أنواعها، فضلاً عن أفرادها.

هذا بقطع النظر عن شهادة الكُتُب السابقة له، وعن معارضة المكذبين له، وتحدِّيه إياهم بكل طريق، حتى عجزوا غاية العجز عن نصرِ باطلهم، ولا يزال الباطل بين يَدَيْ ما جاء به الرّسول مخذولاً، بحيث إن القائمين بما جاء به الرسول والقائمين بمعرفة دينه، يَتَحَدَّوْن جميع أهل الأرض أن يأتوا بصلاح أو فلاح أو رُقِيٍّ حقيقي أو سعادة حقيقية بجميع وجوهها؛ فيتبين أنه محال أن يتوصّل إلى شيء من ذلك، بغير ما جاء به الرسول، وأرشد إليه، ودلّ الخلقَ عليه[1].

ولولا الجهل بما جاء به الرسول، والتعصبات الشديدة، وإقامة الحواجز المتعددة، والمقاومات العنيفة، لمنع الجماهير والدهماء من رؤية الحقّ الصريح، والدين الصحيح، لم يبق دين على وجه الأرض سوى دين محمد ﷺ؛ لدعوته وإرشاده إلى كل صلاح وإصلاح، وخير ورشد وسعادة. ولكن مقاومات الأعداء، ونصر القوة للباطل بالتمويهات والتزويرات، وتقاعُد أهل الدين الحقّ عن نُصرته، هي الأسباب الوحيدة التي منعت أكثر الخَلْق من الوُقوف على حقيقته.

ثم انظر إلى الأصل الثالث: وهو إثبات المعاد والجزاء، كيف اتفقت الكتب السماوية، والرُّسل العِظام، وأتباعهم، على اختلاف طبقاتهم، وتَبايُنِ أقطارهم وأزمانهم وأحوالهم، على الإيمان به، والاعتراف التام به.

وكم أقام الله عليه من الأدلة الحسية المشاهدة ما يدل أكبر الدلالة عليه، وكم أشهد عبادَه في هذه الدار نماذج من الثواب والعقاب، وأراهم حُلول المَثُلاتِ بالمكذِّبين، وأنواع العُقوبات الدنيوية بالمجرمين، كما أراهم نجاة

---

(١) وهذه هي الحقيقة التي يغفل عنها كثير من الناس ومن تتبع السيرة لوجد أن صحابة رسول الله ﷺ ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من العزة والتمكين والسعادة والفلاح إلاّ بعبوديتهم لربهم سبحانه وتحقيق هذه العبودية بحذافيرها، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

الرسل وأتباعهم المؤمنين، وإكرامهم في الدنيا قبل الآخرة.

وكم أبطل الله كل شبهة يقدح بها في المعاد، كما أقام الأدلة على إبطال الشُّبَه الموجّهة إلى توحيده، وصدق رسله، وبَيَّنَ فساد عقولهم وسَفههم، وأنه ليس لهم من المستندات على إنكار ذلك إلا استبعادات مجرّدة، وقياس قدرة رب العالمين على قُدَرِ المخلوقين. والمقصود أن هذه الأصول العظيمة قد قامت البراهين والقواطع عليها، من كل وجه، وبكل اعتبار، وأن جميع الحقائق الثابتة المعلومة لم يقم على ثبوتها وعلمها عُشر معشارِ ما قام على هذه الأُصول من البراهين المتنوعة، فيدلُّ ذلك أن كل من أثبت معلوماً، أو حقيقة من الحقائق، بطريق عقلي أو خبري أو حسّي، ثم نفى مع ذلك واحداً من هذه الأصول الثلاثة التي هي أساس الدين، فقد كابر عقله وحِسُّه وعلمه، ونادى على نفسه بالتناقض العظيم، لأن الطرق التي دلَّته على إثبات معلوماته، هي وأضعافها وأضعاف أضعافها، وما هو أقوى منها وأوضح، قد دلت على التوحيد والرسالة والمعاد.

واعلم أن المعلومات بخبر الله، وخبر رسله عامة يدخل فيها الإخبار عن الله، وعن ملائكته، وعن الغيوب كلها، وعن الشهادة، وعن أُمور الشرع، وأُمور القدر. وهي الأخبار المعصومة الصادقة التي يُعلم كذب ما خالفها وبطلانه. وبعد هذه، أخبار الصادقين عن الحوادث والوقائع التي شاهدوها، والأماكن والأعيان التي رأَوها. وهذا النوع ـ بحسب صدق المخبرين وتواتر خبرهم ـ يحصِّل العلم القطعي بذلك. وكذلك أخبار الصادقين عن العلوم التي سمعوها، والألفاظ التي نقلوها. وأصدق الناقلين هنا حَمَلة الشّريعة، لكمال صدقهم، وشدة عنايتهم، وقوة دينهم، وأنهم محفوظون عن الاتفاق على غير الصواب.

ومن الأمور التي تُعلم بالعقل: أن العقول الصحيحة التي لم تغيِّر فِطرتها، ولم تفسد بالعقائد الفاسدة، تعلم حسن التوحيد والإخلاص لله، كما تعلم قبح الشرك. وتعلم حسن الصدق والعدل والإحسان إلى المخلوقين، كما تعلم قبح

ضده. وتعلم وُجوب شُكر المُنعم، ووجوب حقّ الوالدين، وصِلَةِ الرَّحِم، والقيام بحقوق من له حق عليك، وتنْهَى عن ضِدّه. وتستحْسن كلّ صلاح، وتستقْبح كل فساد وضرر[1].

ومن أشرف ما يُعلم بالعقل: أنه مركوز في العقول أن الكمال المُطلق لله وحده، وأن له الحكمة التامة في خَلْقه وشِرعته، وأنه لا يليق به أن يترك خلقَه سُدى، لا يُؤمرون ولا يُنهون، ولا يثابون ولا يعاقبون. ومركوز في العقول وجوب القيام بحق من كان له حق عليك، وكل ما دعت إليه الشريعة فَمَرْكوز في العقل حُسنه، كما أنه كل ما نَهَت عنه، فإنه معلوم في العقل قُبحه. ومن المعلوم بالحِسّ ما يُدرَك بالحس، كسمْع الأصوات وإبْصار الأعْيان، وهو من أتمّ المعارف، فإنه: «**لَيْسَ الخَبَرُ كالْمُعَايَنَةِ**»[2].

فلهذا كان عين اليقين وهو المشاهد بالبصر أعظم من علم اليقين، وهو العلم الثابت بالخبر، وأعلى منهما حق اليقين، وهو المدرك بالذوق فلهذا ينبغي للعبد أن يسعى في تحصيل العلم النافع، ولا يكتفي بعلم اليقين مع تمكنه من عين اليقين كما طلب الخليل ﷺ من الله أن يريه كيف يحيي الموتى ليرقى من علم إلى أعلى منه[3].

ومن حق اليقين: علم ما في معرفة الله وعبوديته والإنابة إليه واللهج بذكره من مواجيد الإيمان وذوق حلاوته القلبية والطمأنينة التي تستقر في قلوب المتقين الذاكرين.

ومن المدرك بالحواس ما يدرك بالشم كشم الروائح الطيبة والخبيثة وما

---

(١) وهذا مشاهد في المجتمع المسلم أو بأحد أفراده ممن بقي على الفطرة ولم يدخل إلى قلبه شبهات أهل الأهواء والبدع وفلسفات الفلاسفة نسأل الله تعالى السلامة منهم.

(٢) رواه أحمد في المسند (١/ ٢١٥، ٢٧١) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في شرح العقيدة الطحاوية رقم (٤٠١)، وانظر المشكاة (٥٧٣٨).

(٣) والقصة معروفة وهي في سورة البقرة.

يدرك باللمس كالحرارة والبرودة، وما يدرك بتحليل الأشياء والوقوف على موادها وجواهرها وصفات كل هذا من مدركات الحس. فطرق العلم إلى المعلومات كثيرة جداً وكلما كان الشيء أعظم، ومعرفته أهم كانت الطرق الموصلة إليه أكثر وأوضح وأصح وأقوى كما تقدمت الإشارة إلى التوحيد والنبوة والمعاد. والله أعلم.

[الفتاوى السعدية (ص ٣٠ ـ ٣٦)]

* * *

المبحث الثالث

في آداب العالم والمتعلم

وسئل رحمه الله: ما الآداب التي ينبغي للعالم والمتعلم التخلق بها؟

فأجاب رحمه الله:

أصْلُ الأدبِ لكلّ منهما، الإخلاص لله، وطَلب مرْضاتِه، وقصْد إحياءِ الدِّين، والاقتداء بسيِّد المرسلين. فيقصد وجْه الله تعالى مِن تعلُّمِه وتعليمه، وتفهُّمِه وتفهيمه، وفي مُطالعته ومُدارسته ومُراجعته، وأن يُزيل عن نفسهِ وغيره مَوْتَ الجهل وظُلمتَه، ويُنيرَ قلبه ويُحييه بالعِلم النافع؛ فإن العِلم نورٌ يُستضاء بِه في الظُّلماتِ وحِنْدِس الجَهالات. فكلّما ازداد علماً ازداد نوراً بمعرفةِ الحَقِّ من الباطل، والهدى من الضّلال، والحَلال من الحَرام، والصّحيح من الفاسِد. وعرف مَراتِب الأشياء، وطُرُق الخير من الشرّ.

فالعِلم عبادة تجْمع عِدّة قُرُباتٍ: التقرُّب إلى الله بالاشتغال به، فإن أكثر الأئمّة نَصُّوا على تفضيله على أُمّهات العبادات، وذلك في أوْقاتهم الزّاهِرة بالعِلم، فكيْف بهذه الأوقات التي تلاشَى فيها أو كاد أن يضْمحِلَّ - والاستكثار من ميراث النبي ﷺ. وأن «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة**» رواه مسلم[1]، ونفعه واصِل لصاحبه ومُتَعَدٍّ إلى غيره، ونافع لصاحبه حيًّا وميتاً. وإذا انقطعت الأعمال بالموت، وطُويت صحيفة العبد، فأهل العلم حسناتُهم تتزايد كلما انْتُفِع بإرشادهم، واهْتُدِيَ بأقوالهم وأفعالهم.

فحقيقٌ بالعاقل الموفَّق أن يُنفق فيه نفائس أوقاته، وجواهر عمره، وأن

---

(١) تقدم تخريجه قبل قليل.

يعِدَّه ليوم فقره، وفاقته. وينبغي للمعلم أن يصبر على التعليم، ويبذُل جهده في تفْهيم كل طالب ما يتحمله ذهنه، ولا يشغله بكثرة القراءات، أو بما لا يتحمله ذهنه، وأن يُنشطه على الدوام، ويُكثر من سؤاله وامتحانه، ويمَرِّنَهُ على المُباحثة وتصوير المسائل، وبيان حكمتها ومآخذها، ومن أيِّ الأُصول الشرعية أُخذت، فإن معرفة الأُصول والضّوابط، واعتبارها بالمسائل والصور، من أنفع طرق التعليم وكلما ذاق طالب العلم لذة فهمه، وحسن مأْخذه، ازدادت رغبته، وقَوِيَ فهمه.

وكذلك ينبغي له أن يوقظ فهمه بكثرة البحث، والسؤال والجواب، ويُرِيه السرور إذا أورد عليه سؤالاً أو إشكالاً، أو عارضه بما قاله، فإن القصد النفع، والوصول للحقّ، لا الانتصار للقول الذي يقوله، والمذهب الذي يصير إليه؛ بل إذا أرشده مَنْ دونه إلى خلل بما قاله، شكره عليه، وبحث معه بحثاً يقصد منه الوصول إلى الحقيقة، لا نَصْر ما هو عليه من الطريقة.

ورجوع المعلم إلى فهم المتعلم، حيث يكون أقرب إلى الصواب، أَدلّ شيء على فضيلته، وعُلُوِّ مرتبته، وحسن خلقه، وإخلاصه لله تعالى. وإذا لم يصل إلى هذه الحال، فَلْيُعَوِّدْ نفسه ذلك، ولْيَتَمَرّنْ عليه؛ فإن المُزاولات تُعطي الملكات، والتمرينات تُرقي صاحبها لدَرَج الكمالات.

وينبغي للمتعلم أن يحسن الأدب مع معلِّمه، ويحمد الله إذ يَسَّر له من يعلمه من جهله، ويُحييه من موته، ويوقظه من سِنَتِه، وينتهز الفرصة كلَّ وقت في الأخذ عنه، ويُكْثِرُ من الدعاء له حاضراً وغائباً، فإن النبي ﷺ قال:

«مَنْ صَنَعَ إِلَيكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ما تُكافِئُونَهُ بِهِ، فادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كافَأْتُمُوهُ»[1].

وأَيُّ معروف أعظم من معروف العلم؟ وكل معروف ينقطع إلاّ معروف

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله، انظر صحيح سنن أبي داود (رقم ١٤٦٨).

العلم والنصح والإرشاد. فكل مسألة استُفيدت عن الإنسان فما فوْقها، حصل بها نفع لمتعلمها وغيره، فإنه معروفٌ، وحسناتٌ تَجْري لصاحبها. وقد أخبرني صاحب لي كان قد أَفْتَى في مسألة في الفرائض، وكان شيخه قد تُوُفِي، أنه رآه في المنام يقرأ في قبره، فقال: المسأَلة الفلانية التي أَفتْيت فيها، وصلني أجرُها. وهذا أمر معروف في الشرع:

«مَنْ سَنَّ سُنَّة حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُها وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ» رواه مسلم[1].

وينبغي أيضاً للمتعلم أن يُلطف بالسؤال، ويرْفُق بمعلِّمه، ولا يسأله في حالة ضجَر أو ملل أو غضب، لِئلا يتصوّر خِلاف الحقّ مع تشوُّش الذِّهن.

وأقلُّ الحالات أن يقع الجواب ناقصاً.

وإذا رآه مخطئاً في شيء، فلا يصرّح بالخطأ، بل ينبّهه بصورة متعلم وسائل، فإنه لا يزال كذلك حتى يتّضح له الصواب، لأن كثيراً من الناس إذا صرّحت له بخطئه، بَعُدَ رجوعُه، وصعب عليه الأمر، إلا من ملك نفسه، وخَلَّقها بالأخلاق الجميلة، فإنه لا يُبالي إذا ردّ عليه قوله، وصرّح له بالخطأ. وهذه الحال من أندر الأحوال، وليس بين العبد وبينها إلا توفيق الله، والاجتهاد في رياضة النفس.

وكذلك ينبغي للمتعلم إذا دخل في فن من فنون العلم، أن ينظر إلى كل باب من أبواب العلم، فيحفظ منه الأشياء المهمة، وبُحوثه النافعة، فيحققها ويتصورها كما ينبغي، ويحرص على مآخذها وما هي مبنيّة عليه، فإنه لا يزال على هذه الحال حتى يحصل له خير كثير، وعلم غزير.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩].

ونسأل الله التوفيق والهداية دائماً، فإنه قريب مُجيب.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٠١٧).

وصلى الله على محمد وسلم.

في فائدة السؤال لمن يوجه إليه

س: ما فائدة السؤال لمن يُوَجَّه إليه؟

ج: **يقول الشيخ في جملة جواب له:** ونحن ممنونون في كل ما يقع لكم من الإشكالات؛ لأنها قد تصير سبباً لبحث أُمور لم تخطُر على البال، ومراجعة مَحالِّها، وهذا من طُرق العلم؛ فلا تحرمونا ذلك. أرجو الله أن يجعل عملنا وإياكم خالصاً لوجهه.

وينبغي للمُفتى والعامل في مسائل الخلاف أن يتجرّز غاية التحرز في الخروج من الخلاف، وأن يسلُك طريق الاحتياط في فتْواه وعمله، إلا إذا كان الخلاف ضعيفاً جدًّا لا ينظر إليه، وليس له حظّ من النّظر.

هذا في ابتداء الأمر، وفي الأمر الذي ممكن تلافِيه.

فأما إذا مضى الأمر، وحصل العمل بقول مُفْتٍ، والمسألة خلافية، والخلاف فيها قوليٌّ، له حظ من النظر والدليل: فينبغي عدم الحكم بنقضه وإبطاله، لأن الأُمور لها أحوالٌ وقت الابتداءِ وإمكان التدارك، وأحوال إذا تعذر ذلك.

في أقسام العلوم

س: ما هي أقسام العلوم؟

ج: العلوم قسمان: عُلوم نافعة تُزَكّي النفوس، وتهذب الأخلاق، وتُصلح العقائد، وتكون بها الأعمال صالحة مُثمرة للخيرات، وهي العلوم الشرعية وما يتبعها مما يُعين عليها من علوم العربية.

والنوع الثاني: علوم لا يقصد بها تهذيب الأخلاق، وإصلاح العقائد والأعمال، وإنما يقصد بها المنافع الدنيوية فقط. فهذه صناعة من الصناعات،

وتتفاوت بتفاوت منافعها الدنيوية؛ فإن قصد بها الخير، وبُنِيَتْ على الإيمان والدين، صارت علوماً دنيوية دينية. وإن لم يُقصد بها الدين، صارت علوماً دنيوية محضة، لا غاية شريفة لها، بل غاياتها دنيئة ناقصة جدًّا، وربما ضرَّت أهلها من وجهين:

أحدهما: قد تكون سبباً لشقائهم الدنيوي وهلاكهم وحلول المَثُلاَتِ[1] بهم، كما هو مُشاهَد في هذه الأوقات، حيث صار ضَرر العلوم التي أحدثت المخترعاتِ والأسلحة الفتاكة، شرّاً عظيماً على أَهْلِها وعلى غيرهم[2].

والثاني: أن أهلها يحدُث لهم الزَّهْو والكِبر والإعجاب بها، وجعْلها هي الغاية المقصودة من كل شيءٍ، فيحتقرون غيرهم، ويُناوِئون علوم الرُّسُلِ التي هي العلوم النافعة، فيدفعونها ويتكبَّرون عنها، فرِحين بعلومهم التي تميزوا بها عن كثير من الناس[3] فهؤلاء ينطبق عليهم أتم الإنطباق قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة غافر: ٨٣].

فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

[الفتاوى السعدية (ص ٧٧ ـ ٨٢)]

* * *

---

(١) وهي العقوبات.

(٢) وما حصل في الحروب العالمية خير دليل على ذلك.

(٣) وهذا مما نشاهده ونلمسه في هذه الأيام بكثرة وبالأخص من بعض الشباب المسلم المثقف الذين تأثروا بفلسفات الغرب من خلال دراستهم في تلك الدول لمختلف أنواع العلوم الدنيوية، مما أدى إلى انحرافهم عن طريق الله تعالى، حيث طعنوا في شرع الله، وتطاولوا على رسل الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون من حال أمتنا الإسلامية في هذا الزمان!

المبحث الرابع

ما الواجب سلوكه مع علمائنا؟

قال رحمه الله:

سألني سائل من أهل العلم: ما الواجب عليَّ سلوكه مع علماء نجد، وهل لهم ميزة على سائر المؤمنين؟

فقلت للسائل: لم ضيقت دائرة السؤال، هلا سألت عن علماء المملكة كلها، بل عن علماء الأقطار كلها؟

فقال السائل: لم يخف عليَّ ما ذكرته، ولٰكني أحببت التخفيف عنك في الجواب، وأيضاً هم الذين أعرفهم غالباً حق المعرفة، وأيضاً إذا حصل الجواب عنهم؛ فسائر علماء المسلمين طريقهم طريق هؤلاء، فإن الأسئلة لا يلزم أن تكون كلية، بل كثير من الأسئلة الجزئية يكون جوابها أوضح وأبين من جواب الأسئلة الكلية، وبالجزئيات نتعرف الكليات، فحين عرفت مراده بل حين عرفني بمراده؛ قلت: الجواب وبالله التوفيق ونسأله الإعانة:

اعلم يا أخي أن الواجب عليك موالاة جميع علماء نجد ومحبتهم والتقرب إلى الله بذلك، وأن تميزهم عن جميع المؤمنين لما خصَّهم الله به من العلم والإيمان والتعليم والدعوة والقيام بفروض كفايات نابوا فيها عن جميع المؤمنين، وهي كثيرة جداً، وأن تجعل هذه الفواضل والفضائل نصب عينيك، وتعلم مع ذلك أنهم كسائر الناس بشر يجري منهم ما يجري من البشر؛ فاجعل ما يبلغك مما ينتقد عليهم إن صح ذلك وأكثره غير صحيح؛ اجعل ذلك مقابلاً لما لهم من المحاسن والفضائل تجد ذلك مضمحلاً، وجاهد نفسك إن وجدت في نفسك على أحد منهم موجودة أن تداويها بالمحبة والثناء والدعاء؛ تقرباً

إلى الله، وقياماً بالواجب، وارتقاءً إلى الكمال الممكن، واعلم أنهم ـ ولله الحمد ـ كلهم على المذهب السلفي متفقون على إثبات ما أثبته الله ورسوله من صفات الله جل جلاله من غير استثناء على الوجه اللائق بعظمة الله وكبريائه، ونفي ما نفاه الله ورسوله من النقص والكفو والند والتمثيل، ومتفقون أيضاً على الدعوة إلى الشهادتين التوحيد الخالص والاتباع الخالص، وإذا فرض خطأ واحد منهم في بعض المسائل وهو معتقد هذا الأصل؛ فخطؤه قد غفره الله وتجاوز عنه بعد الاجتهاد، وهو المظنون، بل هو المعلوم من حالهم؛ فإنهم يعتقدون ما ذكرنا من صميم قلوبهم، ويدعون إليه ويقررونه، وينكرون على جميع المعطلين النفاة كما ينكرون على المعطلين لتوحيد الإلٰهية والعبادة، وهم كلهم متفقون على أن من صرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله من أي مخلوق يكون؛ فهو مشرك كافر؛ [لأن][1] هذا حد الشرك الأكبر المخرج عن دائرة الإسلام، فإذا عرفت ما ذكرته لك عنهم، وإن شككت في ذلك؛ فاسأل العارفين الذين ليس لهم هوى ولا أغراض؛ عرفت أن الواجب عليهم تمييزهم بالموالاة والمحبة والثناء، ونشر فضائلهم، وقمع من تعرض لهم، ونصيحة من يظن بهم خلاف ما ذكرناه، واجعل هذا طريقك الذي تسلكه؛ فإنه الطريق المستقيم الموافق للكتاب والسنة والقواعد الشرعية وأصولها.

ثم اعلم أن في هذا القطر المسؤول عنه أربعة من أهل العلم الذين برزوا على غيرهم، وتميزوا بعلمهم وتعليمهم ودعايتهم ونفعهم، وحصل بهم وعلى أيديهم خير كثير ونفع كبير؛ فميزهم يا أخي بمحبتك، واعرف قدرهم، وأكثر من الدعاء لهم والثناء عليهم ونشر محاسنهم، وتقرب إلى الله بذلك، وهؤلاء تعرفهم ويعرفهم غيرك، وذكر صفاتهم يغني عن ذكر أسمائهم، وضم إليه خامساً جعل الله فيه بركة؛ فهو وإن كان دونهم في العلم؛ فقد حصل على يديه من النفع التعليمي والديني ما لم يحصل على يد غيره، وقد انحاز إلى بعض أقطار المملكة؛ فهدى الله به ذلك القطر وانتقل إلى مذهب السلف، وكثر فيهم

---

(١) في الأصل: «لا».

أهل العلم؛ فالعلم إذا جعل الله فيه بركة ترتب عليه خير كثير، وهذا الخامس من أكبر الدعاة إلى الله وإلى دينه فتجب مؤازرته ومناصرته والثناء عليه والذب عنه، كما يجب ذلك لهؤلاء الأربعة ولغيرهم من علماء المسلمين.

ثم إياك يا أخي أن تسمع بأحد منهم قدحاً أو انتقاداً إلا رددته ونصحت المعترضين وبينت له مقاماتهم العالية[1]، ولا يغرنك ترك أكثر الناس لمراعاة هذا الحق الذي هو آكد حقوق المسلمين، وبه يحصل للعبد من الخير والثواب ويحصل به من المصالح الخاصة والعامة شيء كثير.

وهذا الجواب الذي ذكرته وإن كان موضوعه هذا القطر الذي وقع عليه السؤال وهذا الوقت الذي لأجله سيق السؤال؛ فهو شامل لجميع علماء الأقطار ممن عرفوا بالعلم والدين، وشامل أيضاً لجميع الأزمنة، وأول وأولى مما يدخل في هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر: ١٠]، وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [سورة محمد: ١٩] أول وأولى من يدخل في ذلك علماء المسلمين في كل زمان ومكان، كما أن أوصاف الخير والكمال وأحكام الثواب أولى من يدخل فيها وتنطبق على أهل العلم والإيمان، فهم الغاية في كل فضيلة، وهم الهداة المرشدون إلى كل خير.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ١٩١ ـ ١٩٦)]

* * *

(١) وهذا والله ما نفقده في هذا الزمان فقد كثر الذين يتكلمون في العلماء، وينقصون من قدرهم، ويحطون من منزلتهم، ونسي هؤلاء الظالمون أن طعنهم للعلماء طعن في الشريعة التي يحملونها، وانتقاص لدين الله تعالى، ألا فليتق الله أولئك الجهال، وليتوبوا إلى الله تعالى، ومما عملوه، عسى ربنا سبحانه أن يغفر لهم ويتجاوز عنهم.

المبحث الخامس

في واجبات أهل العلم فيما بينهم وفيما يتعلق بالناس

قال رحمه الله:

أما الواجب على أهل العلم من العلماء الكبار ومن دونهم، والطلبة فيما بينهم:

فعلى كل منهم أن يحب للآخر ما يحب لنفسه.

وهذا واجب عمومي على جميع المسلمين.

لكن أهل العلم عليهم من هذا الحقّ أعظم مما على غيرهم، لما تميزوا به، ولما خصّهم الله به. وعلى كل منهم أن يَدين لله، ويتقرّب إليه بمحبته جميع أهل العلم والدين؛ فإن هذا الحب من أعظم ما يقرّب إلى الله، ومن أكبر الطّاعات.

وهذا الحب يتبع ما اتصف به الإنسان من الأمور التي يحبها الله ورسوله، من العلم والاشتغال به، والعمل، فإن نفس الاشتغال بالعلوم الشرعية وتوابعها من أجلّ الطاعات. ثم حُصول العلم للشخص هو من الأوصاف التي يحب لأجلها، ثم تعليمه للناس وعمله مما يجب أن يحب عليه.

فكل هذه الأمور موجودة في أهل العلم، فلهم من الحق على أهل العلم وعلى غيرهم، أن يميزوا بهذا عن غيرهم. لما لهم من المميزات. وإذا عثر أحدهم وغلط في مسألة علمية، تعيّن ستر ما صدر منه، ونصيحته بالتي هي أحسن.

ومن أعظم المحرمات وأشنع المفاسد، إشاعة عثراتهم، والقدح فيهم في

غلطاتهم. وأقبح من هذا وأقبح: إهدار محاسنهم عند وجود شيء من ذلك.

وربما يكون ـ وهو الواقع كثيراً ـ أن الغلطات التي صدرت منهم لهم فيها تأويل سائغ، ولهم اجتهادهم فيه.

[فهم] معذورون، والقادح فيهم غير معذور.

وبهذا وأشباهه يظهر لك الفرق بين أهل العلم الناصحين، والْمُنتسِبين للعلم من أهل البغي والحسد والمعتَدِين.

فإن أهل العلم الحقيقي قصدهم التعاون على البِرّ والتقوى؛ والسعي في إعانة بعضهم بعضاً في كل ما عاد إلى هذا الأمر، وستر عورات المسلمين، وعدم إشاعة غلطاتهم، والحرص على تنبيههم، بكل ما يمكن من الوسائل النافعة، والذَّبِّ عن أعراض أهل العلم والدين.

ولا ريب أن هذا من أفضل القُرُبات.

ثم لو فرض أن ما أخطأوا فيه أو عثروا ليس لهم فيه تأويل ولا عُذر، لم يكن من الحق والإنصاف أن تهدر المحاسن، وتمحي حقوقهم الواجبة بهذا الشيء اليسير، كما هو دأب أهل البغي والعدوان، فإن هذا ضرره كبير، وفساده مستطير.

أيّ عالم لم يخطىء؟ وأيّ حكيم لم يعثُر؟

وقد علمت نصوص الكتاب والسنة التي فيها الحثّ على المحبة والائتلاف، والتحذير من التفرق والاختلاف. وأعظم من يوجّه إليهم هذا الأمر أهل العلم والدين. فمتى لزموا هذه الأوامر الشرعية الحكمية، تبعهم الناس، واستقامت الأحوال. ومتى أخلُّوا بذلك، وحلّ محلّه البغي والحسد، والتباغض والتدابُر، تبِعهم الناس، وصاروا أحزاباً وشِيَعاً، وصارت الأمور في أطوار التغالُب وطلب الإنتصار، ولو بالباطل، ولم يقفوا على حدّ محدود، فتفاقَم الشرُّ، وعظُم الخطر، وصار المتولِّي لكِبْرها: من كان يُرجى ـ منهم ـ قبل ذلك ـ أن يكونوا أول قامع للشرّ!.

وإذا تأملت الواقع، رأيت أكثر الأمور على هذا الوجه المحزن! ولكنه مع

ذلك يوجد أفراد من أهل العلم والدين ثابتين على الحق، قائمين بالحقوق الواجبة والمستحبّة، صابرين على ما نالهم في هذا السبيل من قدح القادح، واعتراض المعترض، وعدوان المعتدين.

فتجدهم متقرّبين إلى الله بمحبة أهل العلم والدين، جاعلين محاسنهم وآثارهم وتعليمهم ونفعهم نُصب أعينهم، قد أحبّوهم لما اتصّفوا به وقاموا به من هذه المنافع العظيمة، غير مُبالين بما جاء منهم إليهم من القدح والاعتراض، حاملين ذلك على التأويلات المتنوعة، ومُقيمين لهم الأعذار الممكنة.

وما لم يُمْكِنهم ممّا نالهم منهم أن يجدوا له محملاً، عاملوا الله فيهم، فعفوا عنهم لله، راجين أن يكون أجرهم على الله. وعفوا عنهم لما لهم من الحق الذي هو أكبر شفيع لهم.

فإن عجزوا عن هذه الدرجة العالية، التي لا يكاد يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد، نزلوا إلى درجة الإنصاف، وهي اعتبار ما لهم من المحاسن ومقابلتها بالإساءة الصادرة منهم إليهم، ووازنوا بين هذه وهذه.

فلا بد أن يجدوا جانب الإحسان أرجح من جانب الإساءة، أو متساويين، أو ترجح الإساءة. وعلى كل حال من هذه الاحتمالات، فيعتبرون ما لهم وما عليهم.

وأما من نزل عن درجة الإنصاف، فهو بلا شك ظالم ضارّ لنفسه، تارِك من الواجبات عليه بمقدار ما تعدّى فيه من الظلم.

فهذه المراتِب الثلاث: مرتبة الكمال، ومرتبة الإنصاف، ومرتبة الظلم، تميّز كل أحوال أهل العلم ومقاديرهم ودرجاتهم، ومن هو القائم بالحقوق، ومن هو التارك.

والله تعالى هو المُعين الموفّق.

وأما واجب أهل العلم المتعلّق بالخلق، فإن مهمتهم أعظم المهمات، وعليهم من القيام بالحقوق أضعاف ما على غيرهم، فإن الله أوجب على أهل

العلم أن يبيّنوه للناس، ولا يكتموه، فيعلّموا الجاهلين وينصحوا، ويعظوا، ويُذَكّروا، ويَصْدَعُوا بأمر الله، ويُظهروا دين الله.

فكما أمر الله الجهال أن يتعلموا، فقد أمر أهل العلم أن يُعلموا الناس على اختلاف طبقاتهم، وأن يحنوا عليهم، ويعلموهم مما علمهم الله.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٩].

وأمر بالتبليغ والتذكير في عدة آيات.

وقال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**». رواه البخاري[1].

وذمَّ الله الكاتمين للحقّ في عدة آيات.

وأكثر الشرائع الظاهرة والباطنة، لا يمكن قيامها، ولا العمل بها، إلا بتعليم أهل العلم، وتذكيرهم بكل وسيلة، وبكل طريق ومناسبة.

ما أمر الله الجهّال والمسترشدين أن يتعلّموا، حتى أمر أهل العلم أن يُرشدوا ويُعلّموا.

التعليم له طرق كثيرة، سوى طرق التعليم في المدارس على اختلاف أنواعها، وسوى طرق تعليم الطلبة المستعدّين للتعلُّم في أوقات مرتّبة، وعلى طرائق مختلفة.

وهؤلاء المتعلمون هم المستعدون للترقّي في العلم، بِحَسَبِ ما يسّر الله لهم من طُرق التعليم النافعة بِحَسَب قرائحهم وأذهانهم. وهم الذين يُرجى أن يبلغوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٦١).

مبلغاً بحيث يكونون المرجوع إليهم، وأن يكونوا معلّمين بعد ما كانوا متعلّمين.

وليس المقصود هنا: شرح حالات التعليم في المدارس، وتعليم الطلبة المستعدين، وكيفية ذلك؛ فإن لها محلاً غير هذا.

وإنما المقصود الوسائل والطُّرق الأخرى التي يجب على أهل العلم أن يسلكوها في إيصال العلم إلى الناس، على اختلاف طبقاتهم، ورفع الجهل بحسب الإمكان.

فمنها إلقاء العلوم في المساجد، وينبغي أن يلقى إليهم من العلوم ما يكون فهمُه أقرب إلى أذهانهم، وأن يكون أهم الأشياء وأنفعها، وتكون بعبارات مناسبة لأذهان السامعين، وأن يلقى في كل موسم ومناسبة ما يليق وما يتعلق بهما. فإن فهم الأشياء الحاضرة، أقرب وأشوق للأذهان من أن تكون بغير وقتها.

وكذلك ينبغي أن يُفَهَّموا تدخيل الصور والتفاصيل الموجودة التي يعرفونها ويعرفون وُقوعها: يُبيّن لهم موضعها ومحلّها من العِلم، وهل هي محبوبة للشارع أو مكروهة، وما الطريق إلى تحصيل المحبوب وإلى دفع المكروه أو تخفيفه؛ وأن تطبق الأمور الواقعية على القواعد الشرعية حتى يتم فهمها. فإن أكثر السامعين، إذا ألقيت عليهم المسائل الشرعية مجردة عن بيان الأمور الواقعة، لا يدرون عن دخولها أو خروجها.

وكذلك ينبغي إلقاء العلوم النافعة في النوادي الكبار والصِّغار، وفي المجامع التي يجتمع فيها أهل العلم بالعوام؛ إما بإلقاء أمور تَخِفُّ عليهم ولا يستثقِلونها، إذا رأى أذهانهم قابلة، وقُلوبهم مُصِيغَة.

وأما إذا حصل مناسبة عند المخاطبات بين الناس، فإنهم يخوضون في كل حديث وكل موضوع دنيوي، وقَلَّ موضوع منها إلا ويجد العالم البصير موضعاً ومحلاً لإلقاء ولو بعض المسائل. فبيان القليل خير من التَّرْك بالكلية. والعالم الحاذِق يتمكّن أن يجري مع العوامّ في أحاديثهم العادية، ويُلقي ما شاء الله من المسائل التي تنفعهم في أثناء تلك الأحاديث.

والناصح لنفسه ولغيره يحصِّل في هذا خيراً كثيراً.

ومن ذلك أيضاً: النصائح الخاصة بالأشخاص، باختلاف رُتَبِهم: من رآه مقصراً في واجب من واجبات الله وحقوق الخَلق، نصحه سرًّا وعلَّمه الواجب، وكيفية سُلوكه، والفوائد والثمرات المترتبّة على فعله.

ومن رآه متجرّئاً على محرّم، متعمداً أو جاهلاً، نصحه ووعظه، وبيّن له الوجهة التي يجب عليه سُلوكها في ترك ذلك المحرم، وما لتاركه من الخير والثواب، وما على فاعله من الوِزْر والعقاب. ولا يحقر صغيراً ولا كبيراً، ولا شريفاً ولا وضيعاً. فكم حصل بهذه الطريقة من تعليم للجاهلين، وإرشاد للغافلين، وتوجيه للخير للمعرضين أو المعارضين.

وأولى مَن على العالم تعليمه ونصحه وإرشاده، بكل وسيلة مناسبة، وطريقة ناجحة: الأهل والأولاد، والأقارب والأصحاب، والمعاملون والخُلَطاء. فكما أن حقوق هؤلاء مقدمة على غيرهم، فأحقّ الحقوق وأولاها: التعليم والنصح، والإرشاد والتوجيه للأمور النافعة، والتحذير من الأمور الضارّة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إذا وفّق من عنده علم لهذه الأمور التي ذكرناها، بحسب اقتداره، لم يزل يَغْنَم من الخيرات والثواب من الله، كلما تسلسل نفعُه، وعُمل بإرشاده، ثم ما ترتب على هذه الأعمال من الدعوات المستجابات، ممن انتفعوا بإرشاده ونصائحه.

فكم شاهدنا وشاهد غيرُنا، ممن وفُّقوا للقيام بشكر من أحسن إليهم ببعض هذه الأمور، من التشكّرات والدعوات المتكررة، كلما تذكروا نصائحه القيمة، وإرشاده النافع.

وهذه أمور لا يُستهان بها.

وإني أذكُر، وأتذكّر كثيراً، من الإرشادات التي وصلتني وأتحفني بها بعض إخواني ومشايخي الموجودين والمفقودين، بعضُها من أعوام لا تقِلّ عن خمس وأربعين سنة.

كلما ذكرتها واستحضرت نفعها لي ولغيري، عرفت سَعَة فضل الله على أولئك المرشدين، وأن نفس إرشادهم من أجلّ العبادات. ثم ما ترتّب على آثارها من عبادات متسلسلة.

فجزى الله من وصل إلينا إحسانه القليل والكثير أفضل الجزاء، وتقبّل الله سعيهم، وضاعف لهم الأجور.

ونحمد الذي أوصل إلينا على أيديهم من الخير والفضل، حمداً كثيراً طيّباً مُباركاً، لا يُعدّ ولا يحصى.

فإنه تعالى المنعِم المطلق على الجميع. أنعم بالأسباب ومسبّباتها، ونسأله أن يتمّ نِعَمه على الجميع:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ١٥].

وأوزِعني أن أشكر المحسنين والمرشدين، ومن انتفعت بهم مُشافهة أو مُكاتبة، أو استفدت من كُتبهم، فإن شكرهم مِن شُكرِك، فمن لم يشكر الناس لم يشكُر الله.

[الرياض الناضرة (ص ٨٩ ـ ٩٥)]

* * *

المبحث السادس

فائدة تشتمل على

نُبَذٍ من آداب المعلِّمين والمتعلمين

قال رحمه الله:

يتعيّن على أهل العلم من المتعلمين والمعلمين: أن يجعلوا أساس أمرهم الذي يبنُون عليه حركاتهم وسكَناتهم: الإخلاص الكامل[1]، والتقرّب إلى الله تعالى بهذه العبادة التي هي أجَلّ العبادات، وأكملها وأنفعها، وأعمّها نفعاً، ويتفقَّدوا هذا الأصل النافع في كل دقيق من أُمورهم وجليل.

فإن درسوا أو دارسوا، أو بحثوا أو ناظروا، أو أسمعوا أو استمعوا، أو

---

(١) قال شيخنا ووالدنا سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله رحمة واسعة في كتابه مسؤولية طالب العلم (ص ٦):

... ثم عليه مسؤولية أخرى من جهة الإخلاص لله سبحانه ومراقبته وأن يكون هدفه إرضاءه عز وجل وأداء الواجب وبراءة الذمة ونفع الناس، فلا يهدف إلى مال وعرض عاجل فذلك شأن المنافقين وأشباههم من أهل الدنيا، ولا يهدف للرياء والسمعة ولكن هدفه أن ينفعَ عباد الله وأن يرضي ربه قبل ذلك، وأن يكون على بينة فيما يقول، وفيما يفتي به وفيما يعمل به ولا يجوز له التساهل لأن طالب العلم متَّبع متأسي بتصرفاته وأعماله. فإن كان مدرساً تأس به الطلبة، وإن كان مفتياً أخذ الناس فتواه، وإن كان داعية كذلك خطرة عظيم، وإن كان قاضياً فالأمر أعظم، فالواجب على طالب العلم أن يكون له موقف مع ربه، موقف يرضاه مولاه، موقف يشتمل على الإخلاص لله والصدق في طلب رضاه، والحرص الذي لا حدود له، في معرفة الأدلة الشرعية والتفتيش عنها حتى يقف على الدليل، وبذلك تتفسح أمامه الدنيا، ويفتي على بصيرة، ويدعوا إلى الله على بصيرة، ويعلّم الناس على بصيرة، ويأمر بالمعروف على بصيرة، وينهى عن المنكر على البصيرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقد فسرت البصيرة بالعلم.

كتبوا أو حفظوا، أو كرّروا دروسهم الخاصة، أو راجعوا عليها أو على غيرها الكتب الأخرى، أو جلسوا مجلس علم، أو نقلوا أقدامهم لمجالس العلم، أو اشتروا كتباً، أو ما يُعِين على العلم ـ كان الإخلاص لله، واحتساب أجره وثوابه، ملازماً لهم، ليصير اشتغالهم كله قوة وطاعة، وسيْراً إلى الله وإلى كرامته، وليتحققوا بقوله ﷺ:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إلى الْجَنَّةِ» رواه مسلم[1].

فكل طريق حِسّي أو معنوي يسلُكه أهل العلم، يُعِين على العلم أو يحصله، فإنه داخل في هذا.

ثم بعد هذا يتعيّن البداءة بالأهمّ فالأهم من العلوم الشرعية، وما يُعين عليها من علوم العربية. وتفصيل هذه الجملة كثير معروف، يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص وينبغي أن يسلك أقرب طريق يوصل إلى المقصود الذي يطلبه، وأن ينتقي من مُصنّفات الفن الذي يشتغل فيه أحسنها وأوضحها، وأكثرها فائدة[2]. ويجعل جُلّ همّه واشتغاله بذلك الكِتاب حفظاً عن الإمكان، أو دراسة تكرير بحيث تصير معانيه معقولة في ذهنه محفوظة، ثم لا يزال يكرّر ما مرّ عليه ويُعيده.

وعلى المعلم أن ينظر إلى ذهن المتعلم، وقوّة استعداده أو ضعفه، فلا يدَعه، يشتغل بكتاب لا يناسب حاله، فإن هذا من عدم النصح، فإن القليل الذي يفهمه ويعقله خير من الكثير الذي هو عرضة لعدم الفهم وللنِّسيان.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٩٩).

(٢) قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى في كتابه العلم (ص ٨٩):
يجب على طالب العلم أن يحرص على الكتب الأمهات الأصول دون المؤلفات حديثاً، لأن بعض المؤلفين حديثاً ليس عنده العلم الراسخ، ولهذا إذا قرأت ما كتبوا تجد أنه سطحي قد ينقل الشيء بلفظه وقد يحرفه إلى عبارة طويلة لكنها غثاء، فعليك بالأمهات كتب السلف، فإنها خير وأبرك بكثير من كتب الخلف.

وكذلك يلقي عليه من التوضيح والتقرير لدرسه، بقدر ما يتّسِع فهْمُه لإدراكه ولا يخلِط المسائل بعضها ببعض. وينبغي أن لا ينتقل من نوع من أنواع المسائل إلى نوع آخر، حتى يتصورّ ويحقق السابق، فإنه درَك للسابق، وبه يتوفّر الفهم على اللاّحق.

فأما إذا أدخل المسائل والأنواع بعضها ببعض، قبْل فهم المتعلم، فإنه سبب لإضاعة الأول، وعدم فهم اللاّحق، ثم تتزاحَم المسائل التي لم يحقِّقها على ذهنه فيملّها، ويضيق عَطَنُه عن العود إليها. فلا ينبغي أن يهمل هذا الأمر.

وعلى المعلم النُّصح للمتعلم بكل ما يقدر عليه من التعليم، والصبر على عدم إدراكه، وعلى عدم أدبه وجفائه، مع شدة حرصه وملاحظته لكل ما يقوِّمه ويهذّبه ويحسن أدبه. لأن المتعلم له حقّ على المعلّم، حيث أقبل على الاشتغال بالعلم الذي ينفعه وينفع الناس. وحيث توجّه للمعلم دون غيره. وحيث كان ما يحمله من العلم عن المعلّم هو عيْن بِضاعة المعلم، فيحفظها ويُنميّها، ويتطلب بها المكاسِب الرابحة، فهو الولد الحقيقي للمعلم، الوارث له. قال تعالى:

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [سورة مريم: ٥ ـ ٦].

والمراد وِراثه العلم والحكمة. فالمعلم مأجور على نفس تعليمه، سواء أفهم المتعلم أم لم يفهم، فإذا فهم ما علمه، وانتفع به بنفسه، ونفع غيره، كان أجراً جارياً للمعلم، ما دام ذلك النفع متسلسلاً متصلاً.

وهذه تجارة بمثلها يتنافس المتنافسون.

فَعلَى المعلّم أن يسعى سعياً شديداً في إيجاد هذه التِّجارة وتنمِيتها، فهي من عملِه، وآثار عمله. قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [سورة يس: ١٢].

فما قدّموا: ما باشروا عمله، وآثارهم: ما ترتب على أعمالهم من المصالح والمنافع أو ضدّها في حياتهم وبعد مماتهم.

وينبغي أن يُرغِّب المتعلم بكل طريق، وينشطه ولا يُمِلّه، بإشغاله بما يعسُر على فهمه من أنواع العلم ومفرداته.

وعلى المتعلم أن يوقِّر معلمه، ويتأدّب معه غاية ما يقدر عليه، لما له من الحق العامّ والخاص[1]. أما العام، فإن معلم الخير قد استعدّ لنفع الخَلق بتعليمه وفَتْواه، فحقُّه على الناس حقّ المحسنين، ولا إحسان أعظم وأنفع من إحسان من يُرشد الناس لأمر دينهم، ويعلمهم ما جهلوا، ويُنَبِّههم لما عنه غفلوا. ويحصل من الخير وانقِماع الشر، ونشر الدِّين والمعارف النافعة ما هو من أنفع شيء للموحِّدين، ولمن أتى من بعدهم من ذُرِّيتهم وغيرهم. فلولا العِلم كان الناس كالبهائم في ظُلمة يتخبّطون.

فهو النّور الذي يُهتدى به في الظلمات، والحياة للقلوب والأرواح في الدين والدنيا[2]. والبلد الذي ليس فيه من يُبَيِّن للناس أمور دينهم، ويُرشدهم لما ينتابهم، مما هم في غاية الضرورة إليه، قد فقد أهلُه من ضروراتهم ومصالحهم ما يضرّ فقده بدينهم ودنياهم[3].

---

(١) قال فضيلة الشيخ بكر أبو زيد حفظه الله في كتابه حلية طالب العلم (ص ٢٦):
تنبيه مهم: أعيذك بالله من صنيع الأعاجم والطرقية، والمبتدعة الخلفية، من الخضوع الخارج عن آداب الشرع من لحس الأيدي، وتقبيل الأكتاف، والقبض على اليمين باليمين والشمال عند السلام كحال تودد الكبار للأطفال، والانحناء عند السلام، واستعمال الألفاظ الرخوة المتخاذلة، سيدي، مولاي، ونحوها من ألفاظ الخدم والعبيد.

(٢) قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله في كتابه العلم (ص ١٩) في فضل العلم والعلماء:
أن العالم نور يستضيء به العبد فيعرف كيف يعبد ربه وكيف يعامل عباده فتكون مسيرته في ذلك على علم وبصيرة.
أن العالم نور يهتدي به الناس في أمور دينهم ودنياهم ـ ثم ذكر قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً وأراد أن يتوب والقصة مشهورة ثم قال ـ فانظر الفرق بين العالم والجاهل.

(٣) وهذا مشاهد وملموس فنسأل الله تعالى أن يبارك في أعمار علمائنا وأئمتنا.

فمن كان هذا إحسانه، وأثره على الخَلق: كيف لا يجب على كل مسلم محبَّته وتوقيره، والقِيام بِحُقوقه؟!

وأما حقّه الخاصّ على المتعلم، فلِما بذله من تعليمه، والحرص على ما يُرشده، ويوصِّله إلى أعلى الدرجات. فليس نفع الآباء والأمهات نظيراً لنفع المعلمين المربِّين للناس بصِغار العلم قبل كِباره، الباذلين نفائس أوقاتهم، وصَفوة أفكارهم، في تفهيم المسترشدين بكل طريق ووسيلة يقدرون عليها.

وإذا كان من أحسن إلى الإنسان بهديَّة مالية ينتفع بها، ثم تزول وتذْهَب، له حق كبير على المحسِن إليه، فما الظنّ بهدايا العلم النافع الكثيرة المتنوِّعة، الباقي نفعُها ما دام العبد حيًّا وبعد مماته، المتسلسل بحسب حال تلك الهدايا؟

فحينئذٍ يعرف أن له من الحقّ والتّوْقير، وحسن الأدب معه، والوقوف مع إشارته، وعدم الخروج عما أشار إليه مما ينفعه من الأمور التي قد جرَّبها، وهو أعرف بها منه من كيفِيّات التعليم ونحوها ـ ما ليس لغيره.

وليجلس بين يديه متأدِّباً، ويظهرْ غاية حاجته إلى علمه، ويَدْعُ له حاضراً وغائباً، وإذا أتحفه بفائدة أو توضيح لمُشكِل، فلا يظهر أنه قد عرفه قبله، وإن كان عارفاً له، بل يُصغي إليه إصغاء المتطلّب بشدة للفائدة.

هذا فيما يعرفه، فكيف بما لم يعرفه؟

ولهذا كان هذا الأدب مستحسناً مع كل أحد في العلوم والمخاطبات في الأمور الدينية والدنيوية.

وإذا أخطأ المعلِّم في شيء، فليُنَبِّهه برِفق ولطف، بحسب المقام، ولا يقول له: أخطأت، أو: ليس الأمر كما تقول.

بل يأتي بعبارة لطيفة، يدرك بها المعلم خطأه، من دون أن يتشوّش قلبه. فإن هذا من الحقوق اللازمة، وهو أدْعَى إلى الوصول إلى الصواب، فإن الرد الذي يصحبه سوء الأدب وإزعاج القلب، يمنع من تصوّر الصواب ومن

قصده[1].

وكما أن هذا لازم على المتعلم، فعلى المعلم إذا أخطأ أن يرجع إلى الحقِّ، ولا يمنعه قول قاله ثم رأى الصواب في خلافه، من مراجعة الحق، والرُّجوع إليه. فإن هذا علامة الإنصاف والتواضُع للحَقِّ. فالواجب اتِّباع الصَّواب، سواء جاء على يد الصغير أو الكبير[2].

ومن نِعمة الله على المعلم، أن يجد من تلاميذه من يُنبِّهه على خطئه، ويرشده إلى الصواب، ليزول استمراره على جهله، فهذا يحتاج إلى شكر لله تعالى، ثم إلى شكر من أجرى الله الهدى على يديه، متعلماً كان أو غيره.

ومن أعظم ما يجب على المعلمين أن يقولوا لما لا يعلَمونه: الله أعلم. وليس هذا بِناقِص لأقدارهم، بل هذا مما يزيد قدرَهم، ويستدلُّ به على كمال

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في كتابه العلم (ص ٤١):
إن على طلبة العلم احترام العلماء وتقديرهم وأن تتسع صدورهم لما يحصل من اختلاف بين العلماء وغيرهم، وأن يقابلوا هذا الاعتذار عمن سلك سبيلاً خطأً في اعتقادهم وهذه نقطة مهمة جدّاً، لأن بعض الناس يتتبع أخطاء الآخرين ليتخذ منها ما ليس لائقاً في حقهم ويشوش على الناس سمعتهم وهذا من أكبر الأخطاء، وإذا كان اغتياب العامي من الناس من كبائر الذنوب فإن اغتياب العالم أكبر وأكبر، لأن اغتياب العالم لا يقتصر ضرره على العالم بل عليه وعلى ما يحمله من العلم الشرعي... أقول إن على هؤلاء الشباب أن يحملوا ما يجري بين العلماء من الاختلاف على حسن النية، وعلى الاجتهاد، وأن يعذروهم فيما أخطأوا فيه، ولا مانع أن يتكلموا معهم فيما يعتقدون أنه خطأ، ليبينوا لهم هل الخطأ منهم أو من الذين قالوا إنهم أخطأوا؟ لأن الإنسان أحياناً يتصور أن قول العالم خطأ، ثم بعد المناقشة يتبين له صوابه والإنسان بشر (**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**). [رواه أحمد والترمذي وصححه شيخنا الألباني في صحيح سنن الترمذي].
أما أن يفرح بزله العالم وخطئه ليشيعها بين الناس فتحصل الفرقة فإن هذا ليس من طريق السلف.

(٢) وهذا هو دأب سلفنا ومشايخنا عليهم رحمة الله تعالى فإذا تبين لهم أن الحق في خلاف كلامهم تراهم على الفور يرجعون عن كلامهم ويتبعون الحق، والأمثلة على هذا كثيرة جداً لا تحصى، فرحم الله مشايخنا وعلماءنا رحمة واسعة.

دينهم، وتحرّيهم للصواب[1].

وفي توقُّفِه عما لا يعلم فوائد كثيرة:

منها: أن هذا هو الواجب عليه.

ومنها: أنه إذا توقّف وقال: الله أعلم، فما أسرع ما يأتيه عِلم ذلك من مراجعته أو مراجعة غيره. فإن المتعلم إذا رأى معلّمه قد توقّف، جدَّ واجتهد في تحصيل علمها، وإتحاف المعلم بها، فما أحسن هذا الأثر!

ومنها: أنه إدا توقّف فيما لا يعرف، كان دليلاً على ثقته وأمانته وإتقانه فيما يجزِم به من المسائل. كما أن من عُرِفَ منه الإقدام على الكلام فيما لا يعلم، كان ذلك داعياً للرّيب في كلِّ ما يتكلّم به، حتى في الأمور الواضحة.

ومنها: أن المعلِّم إذا رأى منه المتعلمون التوقّف فيما لا يعلم، كان ذلك تعليماً لهم، وإرشاداً لهذه الطريقة الحسنة.

والاقتداء بالأحوال والأعمال، أبلغ من الاقتداء بالأقوال.

ومما يُعِين على هذا المطلوب، أن يفتَح المعلم للمتعلمين باب المُناظَرة في المسائل والاحتِجاج، وأن يكون القصد واحداً، وهو اتّباع ما رجَّحته الأدلة. فإنه إذا جعل هذا الأمر نُصب عينيه وأعيُنِهم، تنوّرت الأفكار، وعُرفت المآخذ والبراهين، واتّبعت الحقائق، وكان القصد الأصلي معرفة الحق واتّباعه.

فالحذرَ الحذرَ من التعصُّب للأقوال والقائلين[2]، وهو أن يجعل القصد

---

(١) وما حصل لعالم المدينة الإمام مالك بن أنس لشاهد على ذلك، فقد سئل أربعين سؤالاً. فقال في ستة وثلاثين منها: لا أدري. فرحم الله الإمام مالك، وجميع أئمتنا وعلماءنا، وليسمع هذا من صدروا أنفسهم للفتوى بدون علم حتى يظهروا للناس أنهم علماء. ألا فليتقوا الله تعالى وليتورعوا عن إصدار الفتاوى قبل طلب العلم وليتوبوا إلى الله تعالى قبل فوات الأوان.

(٢) انظر للفائدة كتاب بدعة التعصب المذهبي لفضيلة الشيخ محمد عيد العباسي حفظه الله تعالى من كل سوء ومكروه ونفع به وبعلومه.

من المناظرة والمباحثة، نصر القول الذي قاله، أو قاله من يعظِّمه. فإن التعصُّب مُذهِب للإخلاص، مزيل لبهجة العلم، مُعم للحقائق، فاتح باب الحقد والخصام الضارّ. كما أن الإنصاف هو زينة العلم، وعُنوان الإخلاص والنصح والفلاح.

ثم الحذرَ الحذرَ من طلب العلم للأغراض الفاسدة والمقاصد السيئة: من المباهاة، والمماراة، والرِّياء، والسُّمعة. وأن يجعله وسيلة للأمور الدنيوية والرِّياسة. فليست هذه حال أهل العلم الذين هم أهله في الحقيقة. ومن طلب العلم أو استعمله في أغراضه السّيئة، فليس له في الآخرة من خَلاق[1].

ومن أعظم ما يتعيّن على أهل العلم: الاتِّصافُ بما يدعو إليه العلم من الأخلاق والأعمال والتعليم، فهم أحقُّ الناس بالاتصاف بالأخلاق الجميلة، والتَّخَلِّي من كل خلق رذيل. وهُم أوْلى الناس بالقيام بالواجبات الظاهرة والباطِنة، وترك المحرّمات، لما تميَّزوا به من العلم والمعارف التي لم تحصُل لغيرهم، ولأنهم قُدوة للناس، والناس مجبولون على الإقتداء بعلمائهم شاؤوا أم أبوْا، في كثير من أمورهم. ولأنهم يتطرّق إليهم، من الاعتِراض والقوادح عندما يتركون ما يدعو إليه العلم، أعظم مما يتطرّق إلى غيرهم.

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله رحمة واسعة في كتابه العلم (ص ٢٥):
إذن فيجب الإخلاص فيه ـ أي طلب العلم ـ لله بأن ينوي الإنسان في طلب العلم وجه الله عز وجل وإذا نوى الإنسان بطلب العلم الشرعي أن ينال شهادة ليتوصل بها إلى مرتبة أو رتبة، فقد قال رسول الله ﷺ: **«من تعلم علماً يبتغي به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلاَّ ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»** يعني: ريحها. وهذا وعيد شديد.
قلت: والحديث رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود.
فإياك يا طالب العلم أن يكون غرضك من طلب العلم دنيا زائلة أو متاعاً فانياً، وأخلص في طلبك للعلم حتى تنال الرفعة والدرجات في الدنيا والآخرة.

وأيضاً، فكان السَّلَف يستعينون بالعمل على العلم. فإن عمل به المعلم استقرَّ ودام ونما وكثُرت بركته. وإن ترك العمل به، ذهب أو عدمت بركته. فرُوح العِلم وحياته وقِوامه، إنما هو بالقيام به: عملاً، وتخلّقاً، وتعليماً، ونُصحاً[1].

ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.

وينبغي سلوك الطريق النافع عند البحث تعلّماً وتعليماً.

فإذا شرع المعلم في مسألة وضّحها وأوْصَلها إلى أفهام المتعلمين بكل ما يقدر عليه من التعبير، وضرب الأمثال، والتصوير والتحرير. ثم لا ينتقل منها إلى غيرها قبل تفهيمها للمتعلمين. ولا يدع المتعلمين يخرُجون من الموضوع الذي لم يتمّ تعليمه وتقريره إلى موضوع آخر، حتى يحكموه ويفهموه، فإن الخروج من الموضوع إلى غيره، قبل الانتهاء منه، يحرِم الفائدة كما تقدم.

وينبغي تعاهُد محفوظات المتعلمين ومعلوماتهم بالإعادة والامتحان والحثّ على المذاكرة والمراجعة وتكرار الدّرس، فإن التعلم بمنزلة الغَرس للأشجار، والدرس والمذاكرة والإعادة بمنزلة السّقي لها، وإزالة الأشياء الضارّة عنها، لتنمو وتزداد على الدوام.

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في كتابه العلم (ص ٣٢) تحت عنوان العمل بالعلم:
أن يعمل طالب العلم بعلمه عقيدة، وعبادة وأخلاقاً وآداباً، ومعاملة، لأن هذا هو ثمرة العلم وهو نتيجة العلم، وحامل العلم كحامل لسلاحه، إما له وإما عليه.
ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«القرآن حجة لك أو عليك»** رواه مسلم.
لك إن عملت به وعليك إن لم تعمل به، وكذلك يكون العمل بما صح عن النبي ﷺ بتصديق الأخبار وامتثال الأحكام، إذا جاء الخبر من الله ورسوله فصدقه وخذه بالقبول والتسليم ولا تقل: لم؟ وكيف؟ فإن هذا طريقة غير المؤمنين فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وكما أن على المتعلم توقير معلمه، والأدب معه: فكذلك أقرانه والمتعلمون معه: عليه من مراعاة حقوقهم، والأدب معهم، أعظم من حقوق الأصحاب بعضهم على بعض.

فالصُحبة في طلب العلم تجمع حقوقاً كثيرة، لأن لهم حقَّ الأُخوة والصُحبة، وحقوق الاحترام، لما قاموا به من الاشتغال بما ينفعهم وينفع الناس، وحقَّ الانتماء إلى معلمهم، وأنهم بمنزلة أولاده، وحقّاً لنفع بعضهم بعضاً.

ولهذا ينبغي أن لا يدَع ممكناً من نفع من يقدر على نفعه منه، بتعليمه ما يجهل، والبحث معه، للتعاون على الخير، وإرشاده لما فيه نفعه. وينبغي أن يكون اجتماعهم في كل وقت غنيمة يتعلم فيها القاصر ممن هو أعلى منه. ويعلِّم العارف غير العارف، ويتطارحون من المسائل النافعة. وليجعلوا همّهم معقوداً على ما هم بصَددِه.

وليحذروا من الاشتِغال بالناس، والتفتيش عن أحوالهم، والعَيْب لهم، فإن ذلك إثم حاضر، والمعصية من أهل العلم أعظم منها من غيرهم، ولأن غيرهم يقتدي بهم ومن كان طبعُه الشر من غيرهم جعلهم حجة له، ولأن الاشتغال بالناس يضيع المصالح النافعة، والوقت النفيس، ويذهب بهجة العلم ونوره.

واعلم أن القناعة باليسير والاقتصاد في أمر المعيشة، مطلوب من كل أحد، لا سيما المشتغِلون بالعلم، فإنه كالمتعيّن عليهم، لأن العلم وظيفة العمر كله أو معظمه، فمتى زاحمته الأشغال الدنيوية والضروريات، حصَل النّقص بحسب ذلك[1].

---

(١) قال فضيلة الشيخ بكر أبو زيد ـ حفظه الله ورعاه ونفع به وبعلومه ـ في كتابه: حلية طالب العلم (ص ١١):
(من آداب طالب العلم في نفسه) التحلي بالقناعة والزهادة. وحقيقة الزهد: (الزهد =

والاقتصاد والقناعة من أكبر العوامل لحَصر الأشغال الدنيوية، وإقبال المتعلم على ما هو بصَدَدِه.

ومن آداب العالم والمتعلم: النُّصح، وبثّ العلوم النافعة بحسب الإمكان، حتى لو تعلم الإنسان مسألة واحدة، ثم بثّها، كان من بركة علمه، ولأن ثمرات العلم أن يأخذه الناس عنك. فمن شحّ بِعلمه، مات علمهُ بموته، وربما نسِيَه وهو حَيٌّ، كما أن من بثَّ علمه، كان حياة ثانية، وحفظاً لما علمه، وجازاه الله من جنس عمله.

ومن أهم ما يتعيّن على أهل العلم: معلمين أو متعلمين، السَّعي في جَمْع كلمتهم، وتأليف القلوب على ذلك، وحَسْم أسباب الشر والعداوة والبَغضاء بينهم. وأن يجعلوا هذا الأمر نُصب أعينهم، يسعون له بكل طريق، لأن المطلوب واحد، والقصد واحد، والمصلحة مشتركة.

فيحققون هذا الأمر بمحبة كل من كان من أهل العلم، ومن له قدَمٌ فيه واشتِغال أو نفع، ولا يَدعُون الأغراض الضارَّة تملكهم وتمنعهم من هذا المقصود الجليل، فيُحب بعضهم بعضاً، ويذُبُّ بعضهم عن بعض، ويبذلون النصيحة لمن رأوه منحرفاً عن الآخر، ويُبرهنون على النّزاع في الأمور الجزئية التي تدعو إلى ضد المحبة والائتلاف، لا تقدَّم على الأمور الكلية التي فيها جمع الكلمة، ولا يدعُون أعداء العلم من العوامِّ وغيرهم يتمكّنون من إفساد

= بالحرام، والابتعاد عن حماه، بالكف عن المشتبهات وعن التطلع إلى ما في أيدي الناس).

ويؤثر عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (لو أوصى إنسان لأعقل الناس، صرف إلى الزهاد)... وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي المتوفى في ١٧/ ١٢/ ١٣٩٣هـ رحمه الله تعالى متقللاً من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئات العملة الورقية. وقد شافهني بقوله: لقد جئت من البلاد «شنقيط» ومعي كنز، قل أن يوجد عند أحد، وهو «القناعة» ولو أردت المناصب لعرفت الطريق إليها، ولكني لا أوثر الدنيا على الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، آمين.

ذاتِ بينِهم، وتفريق كلمتِهم[1].

فإن في تحقيق هذا المقصد الجليل والقيام به من المنافع، ما لا يعدُّ ولا يحصى. ولو لم يكن فيه إلا أن هذا هو الدين الذي حثّ عليه الشارع بكل طريق، وأعظم من يلزم القيام به أهله، وأنه من أعظم الأدلة على الإخلاص والتضحية اللّذين هما رُوح الدِّين، وقُطب دائرته، وأن بهذا الأمر يتّصِف العبد أن يكون من أهل العلم الذين هم أهلُه الذين ورد في الكتاب والسنة من مدحهم والثناء عليهم ما لا يتّسِع هذا الموضوع لذِكره.

وفيه أيضاً من تكثير العلم، وتوسِعَة الوصول إليه، وتنوّع طُرُقِه ما هو ظاهر، فإن أهل العلم إذا كانت طريقتهم واحدة، تمكن أن يتعلم بعضهم من بعض، وأن يعلم بعضهم بعضاً.

وإذا كان كل طائفة منهم مُنزويَة عن الأخرى، منحرفة عنها، انقطعت الفائدة، وحلَّ محلّها ضدها، من حُصول البغضاء والتعصُّب والتفتيش من كل منهما عن عيوب الطائفة الأخرى وأغلاطها والتوسُّل بها للقَدح. وكلُّ هذا مُنافٍ للدين والعقل ولما عليه السَّلف الصالح، حيث يظنه الجاهل من الدِّين.

فالموفّق تجده ناصحاً لله بتوحيده، والقيام بعبوديته، ظاهراً وباطناً، بإخلاص واحتساب، وتكميلاتها بحسب وُسعه.

وناصحاً لكتاب الله بالإيمان بما اشتمل عليه، والإقبال على تعلُّمه، وتعلُّم ما يتعلّق به، ويتفرَّع عنه من علوم الشريعة.

وناصحاً لرسوله ﷺ بالإيمان بكل ما جاء به من أصول الدين وفروعه،

---

(١) ليت هذه الكلمات الذهبية تجد قلوباً واعية وآذاناً سامعة في هذا الزمان، الذي نشكو إلى الله تعالى ما حصل فيه بين طلاب العلم من النزاع والشقاق والعداوة والبغضاء بين بعضهم البعض، فنسأل الله تعالى أن يصلح الأمور، ويذهب العداوة والبغضاء من قلوب المسلمين عامة ومن قلوب طلاب العلم خاصة.

وتقديم محبّته على كل محبة بعد محبة الله، وتحقيق متابعته في شرائع الدِّين الظاهرة والباطنة.

وناصحاً لأئمة المسلمين من وُلاتِهم وعلمائهم ورؤسائهم، في محبة الخير لهم، والسعي في إعانتهم عليه، قولاً وفعلاً، ومحبّة اجتماع الرَّعيَّة على طاعتهم، وعدم مخالفتهم الضارة.

وناصحاً لعامة المسلمين، يُحِب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويسعى في إيصال النفع إليهم بكلِّ ممكن، ويصدِّق ظاهرُه باطنه، وأقوالُه أفعالَه، ويدعو إلى هذا الأصل العظيم، والصِّراط المستقيم.

فنسأله تعالَى أن يرزُقنا حُبّه، وحبَّ من يحبّه، وحبَّ العمل الذي يُقرِّبنا إلى حُبِّه، ويهب لنا من لدُنه رحمة، إنه هو الوهاب. وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله في أحيانه كلّها:

عبد الرحمن بن ناصر السَّعدي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين

[الفتاوى السعدية (ص ٤٥٥ ـ ٤٦٣)]

* * *

المبحث السابع

حسن الخُلق

قال رحمه الله:

كم في الكتاب والسُّنَّة من النصوص الحاثَّة على حسن الخُلق، المُثنِية على أصحابه، الذَّاكرة ما لهم من الفضائل والفواضِل، وذلك لما اشتملت عليه من الخُلق الجميل، وما يترتَّب عليه من المنافع، والمصالح العامة والخاصة.

فمن أَجَلِّ فوائده: امتثال أمر الله وأمر رسوله، والاقتداء بخُلق النبي ﷺ العظيم، وإنه في نفسه عبادة عظيمة تتناول من زمان العبد وقتاً طويلاً، وهو في راحة ونعيم، مع حصول الأجر العظيم.

ومن فوائده أنه يحبِّب صاحبه للقريب والبعيد، ويجعل العدوَّ صديقاً، والبعيد قريباً، وبه يتمكَّن الداعي إلى الله والمعلم للخير من دعوته، ويجمع الخَلق إليه بقلوب راغبة، وقبول واستعداد، لوجود السبب، وانتفاء المانع!

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

وهو بنفسه إحسان قد يزيد على الإحسان الماليِّ:

«إِنَّكُمْ لَن تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ لِيَسَعْهُمْ مِنكُمْ حُسْنُ الْخُلُقِ»[1].

فمتى اجتمع الأمران، فهو الكمال، ومتى فقد الإجمال الماليّ، ناب عنه

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٣٣١) والبزار في مسنده كما في الكشف (٢/ ٤٠٩) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٥) والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٤) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع برقم (٢٠٤٣) والضعيفة برقم (٦٣٤).

حُسْن الخُلُق والإحسان الحاليّ والمقاليّ، فربما صار له موقع أكبر من نفع المال.

وبالخُلُق الحسن، وطمأنينة القلب وراحته، يتمكن من معرفة العلوم التي سعى لإدراكها، والمعارف التي يفكِّر في تحصيلها وبه يتمكَّن المناظر والمخاصم من إبداء حجته، وفهم حجة صاحبه، ويسترشد بذلك إلى الصواب قولاً وعملاً.

وكما أنه سبب لهذين الأمرين في نفسه، فهو من أقوى الدواعي لحصولهما لمن خاصمه أو ناظره:

«إن الله يعطي على الرفق، ما لا يعطي على العنف»[1].

وبالخُلق الحسن يسلم العبد من مضارّ العجَلة والطيش، لرزانته وصبره، ونظره لكل ما يمكن من الاحتمالات، وتجنّب ما يخشى ضرره.

وبالخُلق الحسن يتمكَّن من الوفاء بالحقوق الواجبة والمستحبة للأهل والأولاد والأقارب والأصحاب، والجيران والمعاملين، وسائر من بينه وبينه مخالطة أو حقٌّ.

فكم من حقوق أُضيعت من جرَّاء سوء الخُلق!

وإن حسن الخلق ليدعو إلى صِفَة الإنصاف، فإن صاحب الخلق الحسن يسلم غالباً من الانتصار لنفسه، والتعصُّب لقوله، لأن الانتصار للنفس والتعصب يحمل على الاعتِساف، وعدم الإنصاف.

وإن صاحب الخلق الحسن في راحة حاضرة، ونعيم عاجل، فإن قلبه مطمئن، ونفسه ساكنة، وهذا مادة الراحة العاجلة، وطيب العيش. كما أن سيء الخُلق في شقاء حاضر، وعذاب مستمر، ونزاع ظاهري وباطني مع نفسه،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (٦٥٤٤).

وأولاده، ومخالطيه، يشوّس عليه حياته ويكدّر أوقاته مع ما يترتب على ذلك من فوات تلك الآثار الطيبة، والتعرُّض لضِدّها.

وبهذا ونحوه يتبيّن معنى قوله ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»[1].

فإن قلت: إذا كان حُسن الخلق له هذه الفضائل والآثار الحسنة، فهل للاتّصاف به أسباب يتمكن العبد من فعلها؟ أو هو مجرّد موهبة؟

قلت: ما من صفة حميدة، ظاهرة أو باطنة، إلا وقد يسّر الله للعبد حُصولها، ونهج الطرق الموصلة إليها، وأعان عليها بكل وسيلة. وكلما كملت الصفات، كثرت الطرق المُفضِيَة إليها، مع أن الغرائز والطبائع الأصلية أعظم عون عليها، وصاحبها إذا سعَى أدنى سَعْيٍ أدرك مُرادَه.

فاعلم أن من أعظم ما يُعين على هذا الخُلق الجميل: التفكُّر في الآثار السابقة المترتبة عليه، فإن معرفة ثمرات الأشياء وحُسن عواقبها من أكبر الدواعي إلى فعلها، والسعي إليها، وإن عظم الأمر، واعترضت الصعوبات. فإن المُواراة إذا أفْضَت إلى ضدها، هانت وحلت. وكلما تصعّبت النفس عليه، ذكّرها تلك الآثار، وما تجتني بالصبر من الثمار، فإنها تلين وتنقاد طائعة، منشرحة الصدر، محتسبة، راجية حصول تلك المطالب.

ومن أعظم الأسباب: علوّ الهمة، ورغبة العبد في مكارم الأخلاق، وأنها أولى ما اكتسبته النفوس، وأجلُّ غنيمة غنمَها الموفّقون. فبحسَب قوة رغبته في ذلك، يسهُل عليه نيْل هذا الخلق الجميل.

ومن الأسباب: أن يتأمل: هل يجلب له سوء الخلق إلا الأسف الدائم، والهم الملازم، والآثار القبيحة؟ فيربأ بنفسه عن هذا الخلق الذميم.

---

(١) رواه أبو داود في سننه رقم (٤٧٩٨)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود برقم (٤٠١٣).

ومن الأسباب: رياضة النفس وتمرينها على هذا الخلق، وتوطينها على كل سبب يدرك به هذا الخُلق الفاضل، فيُوَطّنها على معارضات الأقوال، وأنه لا بد من مخالفتهم في العلوم والإرادات.

ولا بد أيضاً من أذِيّة قولية أو فعلية، فَلْيَتَوطّن على تَحَمُّل الأذى، وليعلم أن الأذى القولي لا يضر إلا مَنْ قاله. وإن من الحزم والقوة أن يكون الإنسان بحيث لا يتأثر بكلام يقصد به إحفاظه وإغضابه. بل يعلم أنه إذا غضب أو تأثر، فقد أعان المتكلم على نفسه. وإن لم يبال به، ولم يلقه باله، ولم يهتم به، ويكترث به، فقد قابل القائل بما يكرهه. لأن جُلّ مقصِد عدوّه إيلام قلبه، وإدخال الهم والغم والخوف على قلبه. فكما يسعى بدفع ما يريد إيلام ظاهره، فليسع بدفع ما يريد إيلام باطنه، بترك الاهتمام به.

وما أنفع في هذا المقام وغيره، أن يجعل الإنسان نصب عينيه وجُلَّ مقصده، الإبقاء على قلبه من المشوشات والواردات المؤلمة، وأن يحفظ راحة قلبه بكل ما يُفضي إلى الراحة من تحصيل الأسباب المريحة للقلب، ودفع كلّ مُعارِض لها.

فإن راحة القلب أصل طيب العيش في هذه الدار.

فلو كان الإنسان بكل نعيم، وتوفّرت لديه أسباب الراحة، وقلبه في قلق وحرج، لا يخرُج من همّ إلا وقع في آخر، ولا يفرح بموجود ومحبوب إلا وجد حشو قلبه ما يكدره، فإنه حتى الآن لم يصل إلى المقصود الذي يسعى له أَهل العقول الراقية، فإنهم يسعون أَولاً لراحة قلوبهم وطمأنينتها، بالإنابة إلى الله في مُهماتهم ومُلِمّاتهم وأَحوالهم كلها، ويُتَمّمون ذلك بالحِلم وحُسن الخُلُق، وحِفظ قلوبهم من كل مشوّش يكدّر عليهم حياتهم الطيبة، ونعيمهم العاجل والآجل.

فتأمّل في بعض قصص الأخيار، وما هم عليه من الحياة الطيبة، سواءً كانوا في فقر أَو غنى، أَو شِدَّة أَو رخاء ـ وحيث تنقلت بهم الأحوال ـ فإنك تجد الواحد منهم أبسط الناس خُلقاً، وأَروحهم نفساً، وأَقرّهم عيناً، بل تجد

من هو في يَسارة منهم وفقر، راضياً قانعاً، غير مُتسَخّط على الله وعلى الخَلق. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[1].

[الرجاء ممدوح واليأس مذموم]

الرجاء ممدوح شرعاً وعقلاً، واليأس مذموع شرعاً وعقلاً.

لا ريب أن الشارع مدح الرّجاء الذي هو الرجاء، وأمر به وبكل وسيلة توصّل إليه، وذم اليأس ونهى عنه، وأخبر أنه من موبقات الذنوب، وكذلك لما يترتب على الرجاء من المصالح والثمرات النافعة، وما ينشأ عنه من الأسباب الموصلة للمقاصد الجليلة، وما يترتب على اليأس من ضد ذلك.

مثال ذلك: أن الرّاجي لرحمة الله ومغفرته بحسب قوة رجائه يسعى بكل طريق يوصل إلى الرحمة والمغفرة اللتين تعلّق بهما رجاؤه، بل لا يكون الرجاء حقيقياً حتى يقوم بالأعمال الموصلة إلى الرحمة والمغفرة. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٢١٨].

فخَصَّ هؤلاء برجاء رحمة الله، لما حصل منهم من السبب الأقوم الذي تنال به الرحمة، وقال تعالى:

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤]. إلى آخر الآية التي فيها ذكر الأسباب الموصّلة إلى ذلك، المحقّقة له. فقوّة الرجاء تحمل العبد على كل عمل صالح، فإذا عمله على الوجه المرضي، قوي رجاؤه، فلم

---

(١) وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. وانظر كتاب الحياة الطيبة من كلام شيخنا السعدي رحمه الله تعالى في الجزء السابع من هذا الكتاب.

يزل في ازدياد من الأعمال، ورغبة فيما يقرّب إلى الله تعالى ورضوانه وثوابه. وكلما ضعف رجاؤه، كسل عن الخيرات، وتجرأ على السيئات، ودَعتْه نفسه الأمارة بالسوء إلى كل سوء، فانقاد لها، لأنه ليس عنده من رجاء رحمة الله ومغفرته، ما يكسر سَوْرتها، ويقمع شرها. ثم لا يزال الرجاء يضعف من قلبه، واليأس يقوى، فيضعف إيمانه، وتضعف دواعيه إلى الخير، كما تقوى دواعيه إلى الشر، فيقع في اليأس المحض من رَوْح الله، فلا يزال مكبّاً على الذنوب، مصرّاً على المعاصي، لا يحدث نفسه بتوبة، ولا يرجع إلى ربّه، لاستيلاء اليأس عليه، وضعف الرجاء.

وهذا هو الهلاك المبين.

ومع أنه هلاك، يُرجَى إن سعى في علاجه أن يزول وتعود الصحة، وذلك بأن يتأمل ويتفكر في الأسباب التي أوصلته إلى هذه الحال، وأنها أسباب قابلة للزوال، إذا مرَّن نفسه على إضعاف اليأس الذي يرمي به إلى الهلاك، وتقوية الرجاء الحامل له على التوبة والإنابة، لأنه إذا علم أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، ولو بلغت الحال ما بلغت، طمع في مغفرته ربه، واستعان به على التوبة التي هي الإقلاع عن المعاصي، والندم على ما مضى منها، والتصميم على أن لا يعود، وحصل من علوم الإيمان وأعماله ما يقوّي عزيمته، ويوقظ همّته، خصوصاً الإيمان الخاص في هذا المقام، وهو توحيده، وعلمه أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وأن العبد إذا تاب توبة نصوحاً فإن الله يغفر له ويتقبل منه. فلا يزال إيمانه يمدّ توبته، وتوبته تمدّ إيمانه، ويعمل من الأعمال الصالحة ما يتم به الإيمان والتوبة، ويسلك الصراط المستقيم في علمه وعمله، حتى يضمحل يأسه، ويقوى رجاؤه، ويسير إلى ربه سيراً جميلاً.

فهذا كلام عام في أمور الدين كلها، العلمية والعملية.

ومن مفردات هذا: طلب العلم إذا اشتغل بفن من فنونه، فبعد اشتغاله به رأي من صعوبته وبطء فهمه مسائله ما أوجب له اليأس من تحصيله، فإنه يملكه اليأس، ويدعوه إلى تركه.

وكلما خطر بباله الاشتغال به، أو ذكر لهذا الأمر، فإذا اليأس من إدراكه ماثل بين عينيه، كأنه حجر عظيم في طريقه. فإن هو أخلد إلى هذه واسترسل معها، قتله اليأس، ورأى هذا المطلوب من المستحيلات عليه وإن كان موفقاً، ينظر إلى حقائق الأشياء على ما هي عليه، ولم يملكه الخيال الضّار، علم أن الآدمي قابل لتعلم كلّ علم، مهيّأ لذلك، وأن مجرد اشتغاله بالعلوم النافعة، ولو لم يحصل منها ويستفيد شيئاً يذكر، مصلحة وعبادة، لأنه تصحَبُه النية الصالحة. وإن لم يشتغل به إلا لنفع نفسه ونفع غيره، فلا يزال ساعياً في هذا الأمر، إذا لم يحصل له مراده أو بعضه في وقت، حدَّث نفسه أنه سيحصله في وقت آخر، إذا استمر على السعي والاجتهاد؛ فيقوى حينئذٍ رجاؤه، وينشط في المسير في طلبه، وينفض عنه غبار اليأس، حتى يرتقي إلى درجته اللائقة به.

وكما أن الإنسان يطبق هذا المعنى على نفسه، فليستعمله في غيره، إذا أراد هداية أحد، أو دعوته إلى الإسلام، أو أصل من أصوله، أو فرع من فروعه، أو تعليمه لعلم نافع، ثم رأى من المدعوّ نفوراً وإعراضاً، أو بلادة وقلة فِطنة. فإن أخذه الملل واليأس من إدراك المقصود منه، وعدم رجاء انتفاعه، لم يلبث إلا قليلاً حتى يدع دعوته وتعليمه، فيفوت بذلك خير كثير[1].

وإن هو سلك مسلك نبيِّه ﷺ في دعوته، وهداية الخَلق، وعلم أنه مكث مدة طويلة يدعو الناس إلى الإسلام والتوحيد، فلا يلقى أُذناً سامعة، ولا قلباً مجيباً، فلم يضعف ولم يَنِ، بل لم يزل قويّ الرجاء، عالماً أن الله سيتمّ أمره، ماضيّاً على دعوته، حتى فتح الله به أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، وبلغت دعوته وهداية ما بلغ الليل والنهار فإذا جعل هذا بين عينيه، لم يشتدَّ عليه أمر من الأمور[2].

---

(١) ألا فانتبه من ذلك الأمر كثيراً يا طالب العلم فإن الدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر كبير (ونفس عميق) ولا بد من تحمل المشاق والأذى في ذلك. فهذا طريق الأنبياء وسبيل الصالحين، فالصبر الصبر والثبات الثبات.

(٢) وهذا حق بلا شك فافهم ذلك يا طالب العلم وائتسي بنبيك ﷺ في صبره وتحمله للمشاق في الدعوة إلى الله حتى فتح الله له مشارق الأرض ومغاربها. فاصبر ولا =

ولو لم يحصل له إلا أن مجرد دعوته إلى الله من أكبر الحسنات، لكفى الموفّق داعياً إلى الصبر والرجاء.

وكم من أمر مَأيوس منه، انتقل من طيّ العدم إلى الوجود بالصبر والمزاولة، فلا يزال راجياً طامعاً في إدراك معقوده أو بعضه، ساعياً السعي اللائق به، حتى يرى من آثار سعيه خيراً كثيراً.

وكما أن هذا المعنى ثابت في دقيق الأمور وجليلها، فخير ما استعمل هذا الأصل المهم في أحوال المسلمين اليوم، حيث كانوا من زمان طويل، والتفرّق سارٍ فيهم، والعداوة قائمة بينهم، وكثير من مصلحات دينهم متروكة، حتى تفككت قُواهم، وضعُف أمرهم، وتملكهم اليأس والقنوط، خصوصاً إذا نظروا إلى أعدائهم الحقيقيين، وقد بلغوا من القوة مبلغاً هائلاً، فحينئذٍ يستولي عليهم الكسل واليأس، ويتوهّمون أنه كالمحال وجود قوة كافية، تدفع عنهم عادية الأعداء، فضلاً عن أن يكونوا في صفوف الأمم القوية.

ومن حدَّث نفسه بهذا أو غيره فقد حدثها بالمحال، فاستولى عليهم الذل، وتوهّمت نفوسهم أنهم طُعمة لكل أحد. وهذا ناشىء من ضعف الإيمان واستيلاء اليأس وضعف الرجاء.

فلو أنهم جعلوا الرجاء لرحمة الله، ونصره وإعزاز دينه، نُصب أعينهم، وعلموا أن من ينصر الله ينصره، ويثبت قدمه، فسَعَوْا بما يمكن تلاقيه من أمرهم، وجمعوا كلمتهم، وجعلوا وَحدة دينهم وحفظه من كل عاد هو الجامعة التي تربط أقصاهم وأدناهم، وتركوا لهذا كل ما عارضه من الأغراض الفاسدة، والأهوية الضارّة، وقاموا في هذا الأمر قياماً حقيقيًا، ولم يمنعهم ما اعترض لهم من العقبات والتهويلات، لكان أول فائدة يجنونها الأمن على دينهم الذي لولاه لم يسعدوا دنيا ولا أُخرى[1]، وسلامتهم من الضربات المعدّة له ولهم،

= تستعجل الثمرة بل عليك الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والثمرة ستأتي بلا شك بإذن الله تعالى.

(١) كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

الموجّهة إليهم. ولأمكنهم أن يعيشوا بأنفسهم مع الأمم بطمأنينة وحفظ للمصالح الدينية والدنيوية، من غير أن يضربوا بسلاح، ولا يُشوِّشوا على أحد. لأن كل مُنصف يعذرهم، حيث سَعَوا لحفظ كيانهم، ودفع الظلم عنهم بكل طريق، وهو حقٌّ يُدْلِي به القوي والضعيف، ثم يَسْعَون في الاستعداد الكافي لمقاومة المعتدين.

فلو جعل الرؤساء هذا الأمر الواجب قِبلة قلوبهم، وجُلَّ مقصدهم، وحصل البحث التام في كيفية الوصول إلى هذا المقصد، ومن أي طريق ينفذ، ورَجَوْا عواقبه الحميدة، لَرَأَوْا من آثاره خيراً كثيراً.

فنرجو الله أن يوفّق جميع المسلمين في أقطار الأرض كلها، للقيام بدينهم حق القيام، وأن يكونوا يداً واحدة على من ناوأهم، واعتدى عليهم، وأن ييسِّر لهم الأسباب النافعة، ويُزيل عن قلوبهم الذي استولى على أكثرهم.

فلو نظروا بأعينهم لبعض الأمم الصغيرة التي عملت لوحدة مصالحها الخاصة، كيف عاشت مع الأمم القوية، حتى سادتهم في حفظ الحقوق والنظام والمصالح، خصوصاً في هذا الوقت العصيب الذي وقع فيه التفاني بين أكبر قوة في العالم مع نظيرتها، وكلّ واحدة منهما تُبدىء وتُعيد أنها ستخرج العالم من الظلم والاعتداء، وتجعل لهم نظاماً جديداً من العدل يحفظ جميع الأمم. فلا علينا أن يكون هذا الكلام منهم حقيقة. وإنما هو دعاية.

فالمسلمون أحقُّ الناس كلّهم للتنبُّه لهذا الأمر، وفيهم من الكثرة والقوة المستعدة ما يؤهلهم إلى أعلى المقامات، من الإيمان، والعَوْن الإلٰهي، وقوَّة الرجاء، وما في دينهم من الدعوة إلى كل إصلاح، ونَبْذِ كلّ ضارّ[1].

[الفتاوي السعدية (ص ٤٦٤ ـ ٤٧١)]

* * *

---

(١) وهذا الذي يجب أن يفهمه المسلمون فهم الآن قرابة المليار مسلم ولكن أين هم؟ غثاء كغثاء السيل، فنسأل الله تعالى أن يوحد صفوف المسلمين وأن يجعلهم جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

المبحث الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

مما قال العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي، رحمة الله عليه: نظم معنى الحديث الذي في «الصحيحين».

قوله ﷺ: **«إنَّ مَثَلَ ما بَعَثَنِي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِهِ مِنَ الْهُدَى والْعِلْم: كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصابَ أَرْضاً: ـ فَكَانَتْ مِنها طائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ. وكَانَ مِنها أجادِبُ أَمْسَكَتِ الْماءَ، فَنَفَعَ الله بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْها وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وأَصابَ طَائِفَةً مِنها أُخْرَى، إِنَّما هِيَ قِيعانٌ، لا تُمْسِكُ ماءً، وَلا تُنْبِتُ كلأً، فَذلكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دينِ الله، وَنَفَعَهُ بما بَعَثَنِيَ الله بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»**.

قال رحمه الله يحثُّ على طلب العلم:

قد طال شوقي إلى الأحباب والفِكَرُ ... وقد عَرَاني لذاك الهَمُّ والسَّهَرُ

وكم يُجيش الهوَى قلبي فيَتْرُكني ... لا أستفيق لما آتي يوما أَذَرُ

وكَمْ نصيحٍ أتى يوماً ليَعْذُلَني ... فَصَار يَعْذُرُني فيهم ويَعْتَذِرُ

يا لائِماً في الهوى صَبًّا أضرَّ به ... طولُ البِعاد عن الأحباب مُذْ هَجرُوا

فبات يرعى الدراري مِنْ تَشَوُّقه ... قد بات منه الحشا والقلب ينفَطِرُ

لو كنتَ تدري الهوى أو قد بُليت به ... وذُقْتَ آلامه كالنَّار تَسْتَعِرُ

لما نَطَقْتَ ولم تنطق بلائمةٍ ... لَوْمُ المحبِّين ذنبٌ ليس يُغْتَفَرُ

دَعْ عنك ذكر الهوى والمولَعِينَ به ... وانهضْ إلى منزلٍ عالٍ به الدُّرَرُ

تسلو بِمَرْبَئِه عن كُلِّ غالية ... وعَنْ نعيم لدينا صَفْوُهُ كَدَرُ

وعن نديم به يلهو مُجالِسهُ ... وعن رياضٍ كساها النَّوْرُ والزَّهَر

انهض إلى العلم في جدٍّ بلا كسل ... نهوض عبد إلى الخيرات يَبْتدِرُ
واصبِر على نَيْلِه صبرَ المُجِدِّ له ... فَلَيْسَ يُدركُه مَنْ ليس يصطبر
فَكم نُصوصٍ أتت تثني وتمدحه ... للطالبين بها مغنىً ومُعتبر
أما نفَى الله بين العالمين به ... والجاهلين مساواةً إذا ذُكِروا
وقال للمصطفى مغ ما حَباه به: ... ازْدَدْ مِنَ العِلْم في علم به بَصرُ
وخَصَّصَ الله أهل العِلم يُشهدهم ... على العبادة والتوحيد فاعتبروا
وذَمُّ خالِقِنا للجاهلين به ... في ضمنه مدحُ أهل العلم منحصرُ
وفي الحديثِ أنْ يُرِدْ ربُّ الورى كرماً ... بعبده الخيرَ والمخلوقُ مُفْتَقِرُ
أعطاه فِقْهاً بدين الله يَحْمِلُه ... يا حبّذا نِعَماً تأتي وتُنتظر
أما سمعتَ مِثالاً يُستضاءُ به ... ويستفز ذوي الألباب إن نظروا
بأن علم الهدى كالغيث يُنْزِله ... على القلوبِ فمِنها الصفوُ والكدرُ
أما الرياض التي طابت فقد حسنت ... منها الرُّبى بنبات كلُّه نَضِرُ
فأصبح الخلقُ والأنعامُ راتِعَةً ... بكلِّ زوج بهيج ليس يَنْحَصرُ
وبعضها سَبِخٌ ليست بقابلةٍ ... إنبات عُشْبٍ به نفعٌ ولا ضَرَرُ
يكفيك بالعلم فضلاً أنَّ صاحبه ... بالعِزِّ نال العُلا، والخيرَ ينتظر
يكفيك بالجهل قُبحاً أن صاحبه ... ينفيه عن نفسه والعلم يبتكر
يكفيك بالجهل قبحاً أن مُؤْثِرَه ... قد آثر المطلبَ الأدنى ويفتخر
أيُّ المفاخر ترضى أن تُزَان بها ... أجَهْلك النفس جهلاً ما له قدر؟
أم بالجهالة منكَ في شريعته ... كيف الصلاة وكيف الصوم والطُّهر؟
أم كيف تعقِد عقداً نافذاً أبداً ... كيف الطلاق؟ وكيف العِتق يا غُدَرُ؟
أم افتِخارُك بالجهل البسيط، نَعمْ ... وبالمركَّب لا تُبقي ولا تَذَرُ؟
تبًّا لعقل رزين قد أحاط به ... مع الجهالة دَين الذنبِ والغرَرُ
كم بين من هو كسلان أخو ملل ... فما لَهُ عن ضياع الوقت مُزْدجَر
قد استلان فراشَ العجزِ مرتفقاً ... حتى أتى المضعِفان: الشَّيْبُ والكِبَر
وبين من هو ذو شوق أخو كلَف ... على العلوم، فلا يَبْدُو له الضَّجرُ
يرعى التَّوَقِّي ويرعى مِن تحفُّظِه ... أوقاتَه من ضياع كُلُّه ضرَر

لا يستريح ولا يَلوي أَعِنَّتَه ... عن الوصول إلى مطلوبه وَطَر
تُلْفِيهِ طوراً على كُتْبٍ يطالعُها ... يحلو له من جناها ما حوَى الفِكَرُ
تُلهيه عن روضة غناء مزهرةٍ ... أطيارها غرَّدت والماء منهمِرُ
وباحِثاً تارة مغْ كلِّ منتسبٍ ... يبغي الرَّشاد، فلا يطغى ويحتقِرُ
واها له رجلاً فرداً محاسنه ... بالحزم والعزم هان الصعب والعَسِرُ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رحمه الله يمدح شيخ الإسلام: ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، ومؤلفاتهم:

يا طالباً لعلوم الشرع مجتهداً ... يبغي انكشاف الحق والعِرفانِ
احرص على كتب الإمامين اللذيـ ... ـن هما المحكُّ لهذه الأزمانِ
العالِمَيْن العامِلَيْن الحافِظَيْـ ... ـنِ المُعْرِضين عن الحُطَام الفاني
عاشا زماناً داعيين إلى الهدى ... من زائغ ومقلِّد حيران
صبَرا النفوسَ على جهاد عدوّها ... للقلب والأقوال والأركان
كم نالهم من نكبة وأذيةٍ ... هانت لذاتِ الخالق الدّيّان
نشر الإله لهم ثناءً صادقاً ... إذ أحسنوا في العلم والإيمان
فقلوب أهل الخير من حُب لهم ... قد أُشرِبت وثناؤهم بلسان
أعني به شيخ الوَرَى وإمامَهم ... يُعْزَى إلى تيميَّة الحرَّان
والآخرَ المدعوَّ بابن القيِّم ... بحر العلوم العالم الرّباني
فهما اللذان قدَ أودعا في كتْبهم ... غُرَرَ العلوم كثيرة الألوان
فيها الفوائد والمسائل جُمِّعتْ ... من كلِّ فاكهة بها زوجان
إن رُمْت معرفة الإلٰه وما لهُ ... من وصفه وكماله الرّبّاني
أو رُمت تفسير الكتاب وما حوَى ... من كثرة الأسرار والتِّبيان
أو رمت معرفة الرسول حقيقة ... وجلالة المبعوث بالفُرقان
أو رمت فقه الدين مرتبطاً به ... أصل الدليل أدِلة الإتقان
أو رمت معرفة القصائد كلها ... للمُبطلين وردّها ببيان

أو رُمْت معرفة الفنون جميعا ... من نحوها والطِّبّ للأبدان
تلقَ الجميع مقرراً وموضحاً ... قد بيّناها أحسن التِّبيان
جمعت على حسن العبارة رونقاً ... وبهاء معنى، جل ذو الإتقان
تدعو القلوب إلى محبّة ربها ... والذِّكر للرحمٰن كلّ أوان
يدري بهذا من له نوع اعتِنا ... في كتبهم مع صحة العِرفان
فاحمد إله الخلق إن كنت امرءاً ... تشتاقها وتحبّها بجنان
واحمد إله الخلق أيضاً ثانياً ... في نشرها في هذه الأزمان
حتى غدت بين العباد كثيرة ... مشهورة في سائر البلدان
فعسى الذي بعث القروم لنشرها ... أن يبعث العَزَماتِ بعد تَوان
حتى تكون إلى العلوم سريعة ... مشتاقة للعلم والعِرفان
ويزيلَ عن هذي القلوب موانعاً ... عاقت وصول العلم والإيقان
وَيَلُمَّ هذا الدِّين بعد تشعّث ... قد كاد أن ينهد للأركان
ويفتّح الأبواب بعد مضيِّها ... دهراً على التغليق والأدران
ويؤلف الرحمٰنُ بعد تفرّق ... أرواح أهل العلم والإيمان
بجلاله وجماله متوسلاً ... يا دائم المعروف والإحسان
وعلى الرسول مصليّاً ومسلماً ... والصَّحب والأتباع بالإحسان

[الفتاوي السعدية (ص ٤٧٢ـ ٤٧٦)]

* * *

المبحث التاسع

قول بعض الناس:
هذا وقت العلم والمعارف

قال رحمه الله:

يقول كثير من الناس: هذا وقت العلم والمعارف والرقي؛ ومقصودهم بهذا: الإعراضُ عن الماضي، وعن علوم الدين والتزهيد فيها؛ وقد صدقوا من جهة، وكذبوا من جهات أُخَر: قد صدقوا أنه وقت ترقَّت فيه علوم الصناعات والمخترعات، وما يرجع إلى الماديات والطبيعيات، وقد كذَبوا أفظعَ الكَذِب حيث حصروا العلم بهذا النوع، ولم يعلموا أن العلم الحقيقي النافع هو العلم بما جاء به الكتاب والسّنة، والكفيلُ بكل خير ديني ودنيوي وأخروي. والعلم النافع من علوم الصناعات والمخترعات داخلٌ في ضمن هذا، بل العلم الديني هو الذي يصيِّر العلوم الطبيعية والصناعية نافعة نفعاً صحيحاً، وهو الذي يوجهها إلى نفع النوع الإنساني ويمنعها من التهور المهلك. ولهذا نقول: وقد كذبوا أيضاً من جهة أن هذه العلوم التي افتخروا بها لم يوجهوها التوجيه النافع، بل استعملوها فيما يضر الخلق في الإهلاك والإفناء والتدمير؛ فهي من أعظم النِّعَم ولكنها باستعمالهم إياها كانت من أكبر النكبات والنِّقَم وهذا من المعلوم الذي لا ريب فيه أن الشيء الذي لا يتولى الدين الصحيح توجيهه فهو منعكس، ضرره أكبر من نفعه.

وقد صدقوا أنه زمان ترقِّي الماديات الجافة، وقد كَذَبوا في إطلاقهم الترقي فيظُنُّ الظانُّ أنه ترقٍّ في كل شيء، وهو إنما هو تَرَقٍّ في الصناعات والمخترعات، لا في الأخلاق الفاضلة والديانات، فلا ينفع الترقِّي في الماديات إذا هبطت الأخلاق التي عليها المدار في كل شيء، وهي التي تصلح الأشياء

ولا تصلح الأمور بدونها، كما هو مشاهد محسوس، فأي ترقٍّ صبَّر أهله بمنزلة السباع الضارية دأبُها الظلم والفتك والاستعمار للأمم الضعيفة وسلبها حقوقها؟ فالترقي الصحيح الذي هو من آثار الدين من آثاره العدل والرحمة والوفاء بالحقوق والحثّ على كل خير والتحذير من كل شر. هذا هو الترقي الذي لم يشمُّوا له رائحة، ولا خطر بقلوبهم؛ وكيف يخطر بقلوبهم وقلوبهم ملآى بالهلع والجشع والزهو والكبر والغرور، ومن كل خلق رذيل؟

وقد كذبوا أيضاً في زعمهم أن العلوم العصرية والفنون الاختراعية النافعة هم الذين ابتدأوها، وأن الشريعة الإسلامية لم تهدِ إليها ولم تُرشدْ إلى أصولها. وهذا بهتٌ عظيم، ومكابرة يعرفها من له أدنى نظر في الدين الإسلامي. وكيف أصّل للعباد أصولاً عظيمة نافعة بها صلاح دنياهم كما أصّل لهم أصولاً نافعة فيها صلاح دينهم، وقد ذكرنا بعض النصوص من الكتاب والسّنة الدالة على هذا الأصل كما سبقت الإشارة إليه. نعم، لو قالوا: إن الناس في هذا الوقت انتفعوا بهذه الأصول والتعاليم الدينية في ترقية الصناعات وابتكار المخترعات ومعرفة طرق الاقتصاديات، وما أشبه ذلك، ولكنهم رقَّوها ترقيةً مبتورة مقطوعة الصلة بالله، وبدين الله، فهلذا نفعت من جهة وضرَّت من جهات. نفعت بما اشتملت عليه من منافع العباد الدنيوية، ونفعت من استعان بها على الدين والخير. وضرّت من جهة: أنها سببت لأهلها الوحشية والهمجية الذي من آثاره الإهلاك والتدمير، والشرور التي لم يوجد لها نظير، فيما سبقت وضرّت أيضاً من جهة ما أحدثت في نفوس أهلها من الزهو والغرور والكبرياء، واستعباد الضعفاء وظلمهم، وهضم الحقوق والشرور المتنوعة، فلو أن هذه المخترعات تولّى الدين توجيهها لحصل فيها من المنافع أضعاف أضعاف ما شوهد، ولاندفعت مضارُّها وشرورها، ولكانت مبنيةً على الخير والصلاح، وآثارها الخير والإصلاح للدين والدنيا، ولكن لله في خلقه شؤون..

[الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخل في الدين الإسلامي]

المبحث العاشر

أعظم آفات العلم

قال رحمه الله:

أعظم آفات العلم وقواطعه الانخداع بالوقوف مع المخلوقات دون خالقها، وبالآثار عن مؤثرها، وبالأسباب عن مسببها، وبالوسائل عن مقاصدها، وهذا النوع نقصه كثير وضرره كبير؛ فإن كثيراً من الملحدين والمغترين بهم يمهَرون في العلوم الطبيعية، ولكنهم يقفون معها ويعمَوْن عن ارتباطها بخالقها ومسببها، والذي أودع فيها من العجائب والأسرار ما أودع، فيرون أنفسهم قد عرفوا عن عجائب علوم الطبيعة ما لم يعرفه غيرهم، ومن الأسرار التي أودعها الله في الطبائع ما زادوا به على غيرهم فيأخذهم الزهو والغرور، ويقفون معها ويرونها هي الحاصل وهي المقصود، وهي الغاية، فيحصل الانحراف العظيم والنقص في العلم والعقل. فلو أنهم عرفوا وأثبتوا الموجد الحقيقي والمدبِّر للأمور كلِّها وربطوا الأسباب بقضائه وقَدَره، وعلموا أن الأسباب محل حكمته، فإنه تعالى حكيم، يضع الأمور مواضعها، ويجعل الأمور الدقيقة والجليلة منتظمة بنظام عجيب، وارتباط وثيق، وجعل لكل مطلوب ومقصود سبباً ووسيلة، وطريقاً يوصل إليه. ولذلك نتيجة وثمرة بحسب قوة الأسباب وضعفها، وبحسب قوة العامل بها وضعفه. ثم ربطوا هذه الأسباب والوسائل والنتائج بقَدَر الله وقضائه. لو أنهم فعلوا ذلك في عملهم لتمَّ علمُهم وحصل لهم من اليقين ما لا يحصل لمن لم يصل إلى ما وصلوا إليه. ولكنهم فرحوا بما عرفوه من الوسائل التي يعرفون نتائجها الدنيوية ملموسة وتكبروا بها فانطبق عليهم قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة غافر: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٦].

وهذا أعظم آفات العُجْب والكِبْر على الإطلاق، وأعظم الطرق التي اغترّ بها وانخدع كثير من الخلق، فنسأل الله أن يرزقنا العلم الصحيح، المؤيَّد بالعقل والنقل والفطرة، وهو العلم النافع الذي يعرفه العبد من جميع نواحيه، وهو العلم الذي يربط الفروع بأصولها، ويرد الأسباب وآثارها ونتائجها إلى مسببها، وإلى الذي جعلها كذلك وهو العلم الذي لا ينقطع صاحبه بالمخلوق عن خالقه وبالآثار عن مؤثِّرها وبالحِكَم والأسرار والنظامات العجيبة عن محكِمِها ومنظِّمها ومبدِعها، وهذا العلم هو الذي يثمر اليقين وتحصلُ به الطمأنينة وتتم به السعادة والفلاح، ويثمر الأخلاقَ الجميلة والأعمالَ الصالحة المصلحة للدين والدنيا.

أما علوم المنحرفين، فإنها ـ كما ذكرنا ـ مقطوعة مبتورة، جافة، نهاية نفعها كنفع الصناعات المادية، كما هو مشاهد محسوس، لا تثمر إيماناً ولا أمانة، ولا رحمة ولا أخلاقاً جميلة، بل ثمراتها ضد ذلك؛ يؤسف غاية الأسف لكل ذي عقل كبير وذكاء مفرط أن تكون هي غايته وثمراته فإن العقل الصحيح فهم الأشياء والإحاطة بها من جميع نواحيها، ثم العمل بالأمور النافعة واستغلال الخيرات والمواهب التي وُهِبَها العبد، والجمع بين مصالح الدارين ومنافع البدن والروح، والنظرُ الصحيح للمبادىء والعواقب، وربط الأمور المتصلة بعضها ببعض، فكل من لم يتصف بهذه الأوصاف نقص من عقله بحسب ذلك فكيف بدينه؟.

[الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال
النافعة العصرية داخل في الدين الإسلامي]

* * *

المبحث الحادي عشر

في أن الأنبياء صلى اللَّه عليهم وسلم بيّنوا للناس ـ غاية البيان ـ العلوم العقلية والنّقْليَّة وأن علومهم هي الصحيحة النافعة في جميع المطالب العالِيَةِ: العقائد والأخلاق والأعمال

قال رحمه الله:

وبيان ذلك على وجه الإجمال والاختصار أن العلوم قسمان:

علوم سمعية: تنبني على صِدق المتكلّم وبيانه.

وعلوم عقلية: تنبني على صحة الفِطرة وسلامتها، وعدم انحرافها.

أما الأول، فإنه لا أصدَق من الله ورسوله قِيلاً وحديثاً، ولا أعظم وأوضح من بيان الله ورسوله.

وقد تكفّل الكِتاب، والسنة ـ على وجه التفصيل ـ ببيان جميع ما يحتاجه العباد من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والحقوق، والمعاملات: تفصيلاً وتوضيحاً. لو اجتمعت العقلاء كلهم، من أوّلهم إلى آخرهم، لم يقدروا أن يأتوا بشيء يُقاربه في الحُسن، والتوضيح، والإحكام، والتفاصيل الصادقة عن أمور الغيب، وعن الأحكام الشرعية، والمعاملات بين الخَلق، على اختلاف مراتبها. وكلما أمعن العقلاء بمعرفة الكتاب والسُّنَّة، عرفوا من ذلك ما تخضع له العقول، وتعترف أنه حاو للكمال المُطلقَ من جميع الوجوه.

وأمّا بيان الله ورسوله للعلوم العقلية، فإن في الكتاب والسنة من البراهين العقلية، والأدلة الحِسِّيَّة، وتنبيه العقول على جميع المطالب العالية، ما لو جمعت جميع ما عند النُّظّار والمتكلمين من البراهين، لكان جزءاً يسيراً بالنسبة لما في الكتاب والسنة، مع وُضوح دَلالته، وسلامته من الغلَط والنقص والاختلال بوجه من الوجوه. وهي براهين يفهمها العالم والجاهل، والذَّكِيّ والبليد.

وإذا أردت نموذجاً لهذا الأصل، فانظر إلى أهم الأصول، وهي: التوحيد، والرسالة، وإثبات المعاد.

انظر ماذا في الكتاب والسنة، على كل واحد من هذه الأصول الثلاثة، من الأدلة العقلية الفطرية الواضحة البيِّنة؟

أما التوحيد، فانظر إلى هذا الحصر العقلي الذي يفهمه كل أحد، ويعترف به كل أحد، إلا من كابر الحِسّ والواقع، حيث قال تبارك وتعالى للمتكبرين:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [سورة الطور: ٣٥ـ ٣٦].

فإن كل أحد يعلم علم يقين أنهم قد خُلِقوا، وأنهم لم يخلقوا أنفسهم، فإن هذه أعظم المُحالات، ولا وُجدوا من غير مُوجِد. فتعيّن أن الله هو الذي خلقهم، فاضطر العقول إلى الاعتراف بهذا الأمر البيِّن الواضح.

وكذلك: إخباره بأن له المثل الأعلى.

فكلُّ كمال موجود في المخلوقات لا يتضمَّن نقصاً، فالذي أعطى الكمال أحقّ بالكمال، وكلُّ نقص تنزّه عنه المخلوق المربوب، فالله أحقّ بالتَّنزه عنه. وهذا برهان عقلي فِطريّ واضح، فإن مُعطيَ الكمال أحقُّ بالكمال من غيره.

وكذلك: تنبيه العِباد في عدة مواضع من كتابه على النظر في عظمة السمٰوات والأرض وما فيهما من المخلوقات، وحسنها، وانتظامها، وكثرة ما فيها من المنافع..

أليس هذا من أبلغ الأدلة على عظمة خالقها، وكمال قُدرته، وشمول حكمته ورحمته، وإحاطة علمه بالكليات والجزئيات؟

وأخصّ من ذلك: أنه أمرنا أن ننظُر ونتفكَّر في أنفسنا، وما فيها من العجائب الدالة على وَحدانية الله وعظمته، وأنه لا يستحِقّ العبادة إلا هو، ولا رَبَّ سِواه.

وَفِـــي كُـــلِّ شَـــيْءٍ لَـــهُ آيَـــةٌ تَـــدُلُّ عَـــلَـــى أَنَّـــهُ الـــواحـــدُ

وكذلك دلّهم دلالة عقلية على توحيده، وأنه لا يستحق العبادة والتأله إلا هو، بأنه المتفرِّد بالخلق للمخلوقات، وتدبيرها ورزقها وتسخيرها، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكُن.

فمن كان هذا وصفه المعترَف به بين الخليقة: بَرُّها وفاجرها، كان من المعلوم بالعقل والفطرة، أنه الواحد الذي لا يستحقّ العبادة إلا هو.

وكذلك دلّهم في عدة مواضع، بكثرة نعمه وخيراته على العباد، وأن جميع النعم منه، وأن رحمته وسِعَت كل شيء ـ دلّهم بذلك على أن مَن هذا شأنه، فهو الذي يتعيَّن أن يكون هو المحمود، المشكور، المحبوب، المخضوع له، المعبود.

وبالجملة، فإن الآثار تدلُّ على المؤثر، والصنعة تدل على صانعها، والمخلوقات تدل على خالِقها. فهي أدلة واضحات وبراهينُ بيِّنات دالاّت على وحدانيته وانفِراده بالأُلوهية والعُبودية، كما دلَّت على انفِراده بالخَلق والرِّزق والرُّبوبية.

وأدلة التوحيد الفعلية كثيرة جدًّا، بل جميع الموجودات وحركاتها، وصِفاتها وتنقُّلاتها، كلّها براهين على توحيده.

وأما براهين الرسالة العقلية، فإننا إذا عرفنا أن ربّنا عليم، حكيم، رحيم، واسع الرحمة، وعظيم الإحسان، وأن جميع الإحسان المتنوّع فهو منه تعالى، وهو الدَّافع للمَكارِه كلها: عرفنا أن من أعظم إحسانه ورحمته: بَعْثَهُ الرُّسُل ـ

صلوات الله عليهم وسلامه ـ ليبيِّنوا للناس ما يحتاجونه، ويعرّفوهم بربِّهم، وبدينه، ويذكروهم بأيامه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٦٤].

ولقد أيّد الله رُسله بالآيات البيِّنات، والأدلة القاطعات. وجعل تعالى نفس بَعثتِهم وما بُعِثوا به من الدين الحقّ والهدي والخير والرحمة الشاملة: من البراهين العقلية على بعثتهم وصِدقهم. وجعل أخلاقهم وما هم عليه من الصِّفات العظيمة التي لا تكون إلا للكُمّل من الخَلق: براهين على رسالتهم، وجعل معجزاتهم المتنوّعة الخارقة للعادة، التي لا تكون إلا بتأييد منه: من البراهين على رسالتهم. فما بعث الله نبيًّا إلا جعل على يده من الآيات ما على مثله يؤمن البشر.

وشاركهم محمد ﷺ في جِنس براهينهم، واختصَّ من بينهم بآيات عظيمة، أعظمها وأكبرها هذا القرآن العظيم، الذي من تأمَّله وعرفه، عرف أنه من عند الله، وأن من جاء به أكمل الرُّسل، وأعمّهم رسالة، وأن البراهين التي قامت على رسالة محمد ﷺ من حِسِّية وعقلية ونقلية، لا يُقارِبُها شيء من الآيات والبراهين، فازداد بها المؤمنون إيماناً ويقيناً، وتمَّ بها إيمانهم ويقينهم وعلمهم، وارتفعت بها درجاتهم.

وأما براهين المعادِ العقلية، فقد أخبر الله في كتابه بعدة قصص ممن أحياهم الله بعد موتهم، وذلك برهان عقلي حِسِّي على البَعث، وَذَكَرَ خلقه الإنسانَ، وأن الذي ابتدأ خلقه فإعادته أهون عليه وأسهل.

وذكر من البراهين: خَلق السمٰوات والأرض، وأنها أكبر من خَلق الناس، وذكر إحياء الأرض بعد موتها، وذكر كمال حكمته، وأنه لا يليق به أن يترك خلقَه سُدًى، لا يُؤمرون ولا يُنهون، ولا يُثابون ولا يعاقبون؛ فكمال قدرته وحكمته من أكبر الأدلة على المعاد. وذَكر سَعَة علمه وقُدرته في مواضع كثيرة.

وأن من جزئيات ذلك: بَعثَهُ الأموات، ومجازاتهم بأعمالهم، خيرها وشرها.

وردّ الأرواح في الأجساد، على رد الأرواح في الأجساد، وذكر تعالى الاستدلال بالموْتة الصُّغرى - وهي النوم - على الموتة الكبرى، وأعاد هذه البراهين في الكتاب، وأبداها لوضوحها وقوَّتها، وأن المُنكرين للبَعث ليس عندهم إلا مجرد استبعادات من عقول سخيفة، مبنيَّة على قياس الربّ العظيم وقدرته وعظمته، بالمخلوق الناقص الضعيف في كلِّ أوصافه.

وهذه أجناس الأدلة، فضلاً عن أنواعها، فضلاً عن أفرادها، التي لو بسطت لبلغت مجلدات، وهي براهين عقلية حسية مشاهدة.

وأما البراهين النقلية، فجميع الكتب السماوية، وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، أخبروا بذلك وفصَّلوه، وقرَّروا توحيد الله وصِدْق رُسُله، والجزاء والبعث.

والقرآن، يكاد يكون كله في تقرير هذه الأصول الثلاثة وتفصيلها. والسُّنَّة فيها من التفاصيل والتوضيحات لهذه الأصول شيء كثير يشفي ويكفي. وبالله التوفيق.

[الرياض الناضرة (ص ١٥٣- ١٥٧)]

* * *

المبحث الثاني عشر

مشكلة العلم

قال رحمه الله:

لقد غلط كثير من الناس في مُسمَّى العلم الصحيح الذي ينبغي ويتعين طلبه والسعي إليه على قولين متطرِّفين: أحدهما أخطر من الآخر. فالأول: قول من قَصَر العلمَ على بعض مسمَّى العلم الشرعي، المتعلق بإصلاح العقائد والأخلاق والعبادات، دون ما دلَّ عليه الكتاب والسُّنة: من أن العلم يشمل علوم الشرع ووسائلها، وعلوم الكون. وهذا قول طائفة ممن لم تتبصر بالشريعة تبصراً صحيحاً، ولكنهم الآن بدأوا يتحللون من هذا الإطلاق، لما رأوا من المصالح العظيمة في علوم الكون، وحين تنبّه كثير منهم لدلالات نصوص الدين عليه.

والقول الثاني قول من قَصَر العلم على العلوم العصرية، التي هي بعض علوم الكون. وهذا القول إنما نشأ من انحرافهم عن الدين وعلومه وأخلاقه. وهذا غلط عظيم حيث جعلوا الوسائل هي المقاصد؛ وحيث نَفَوْا من العلوم الصحيحة والحقائق النافعة ما لا تنسب إليه العلوم العصرية بوجه من الوجوه، غرّهم ما ترتب عليها من الصناعات والمخترعات. وهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة غافر: ٨٣]. فهم فرحوا بعلومهم واستكبروا بها واحتقروا علوم الرسل، حتى نزل بهم ما كانوا به يستهزئون من الحق، ونزل بهم العذاب الذي وُعِد به من كَذَّبَ الرسل، عُذِّبوا في الدنيا بالختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وعَمُوا عن الحق.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [سورة طه: ١٢٧]. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [سورة غافر: ٢١].

أما مدلول العلم النافع ومُسَماه الذي دلّ عليه الكتاب والسُّنة: فهو كل علم أوصل إلى المطالب العالية، وأثمر الأمور النافعة، لا فرق بين ما تعلق بالدنيا أو بالآخرة، فكل ما هَدَى إلى السبيل ورقّى العقائد والأخلاق والأعمال، فهو من العلم.

وقَسَّم العلوم إلى قسمين: مقاصد، ووسائل توصل إليها وتعين عليها. فالمقاصد: هي العلوم المصلحة للأديان؛ والوسائل: ما أعان عليها من علوم العربية بأنواعها، ومن علوم الكون التي ثمرتها معرفة الله ومعرفة وحدانيته وكماله، ومعرفة صدق رسله. وثمرتها: الاستعانة بها على عبادة الله وشكره، وعلى قيام الدين. فإنه تعالى أخبر أنه سخّر لنا هذا الكون، وأمرنا أن نتفكر فيه ونستخرج منافعه الدينية والدنيوية. والأمر بالشيء أمرٌ بما لا يتم إلاّ به، وذلك حثٌّ على معرفة علوم الكون التي يستخرج بها ما سخره الله لنا، لأن منافعها لا تحصل لنا عفواً من دون طلب وفكر وتجارب. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [سورة الحديد: ٢٥]، فهذه المنافع لا تحصل إلاّ بالمعرفة بفنون الصنائع حتى يتمَّ إنتاجها.

وقد تكاثرت نصوص الكتاب والسنة على الثناء على العلم وأهله وتفضيلهم على غيرهم. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] [سورة الزُّمر: ٩]. وإنهم أهل الخَشية لله والمعرفة به: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾[2] [سورة فاطر: ٢٨] وأمر الجهال بسؤال أهل العلم.

وقد أمر بعبادات كثيرة، وعفا عن محرَّمات؛ والأمر بالشيء والنهي عنه لا يمكن امتثال الأمر واجتناب النهي إلاّ بعد علمه ومعرفته فجميع الأوامر شرعية،

---

(١) انظر شرح الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.
(٢) انظر شرح الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

والنواهي تدل على وجوب تعلم العلم الذي تتوقف عليه. كما أنه أباح معاملات، وحرَّم معاملات، لا يمكن تمييز الحلال والحرام منها إلا بالعلم. وقد ذمَّ من لم يعرف حدود ما أنزلَ على رسوله من الكتاب والحكمة.

ومن ذلك أنه أمر بالجهاد في عدة آيات، وبإعداد المستطاع من القوة للأعداء، وأخذ الحذر منهم. ولا يتم ذلك إلاّ بتعلم فنون الحرب والصنائع التي تتوقف القوة والحذر منهم عليها. وأمر بتعلم أمور التجارة والأصول الاقتصادية، حتى إنه أمر أن يبتلى الأولاد الصغار اليتامى ويعلموا التجارة وطلب المكاسب، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [سورة النساء: ٦].

فلم يأمر بدفع أموالهم إليهم حتى يُعلم رشدُهم، ومعرفتُهم لأمور المكاسب والتجارة.

فهذه الشريعة الكاملة أمرت بتعلم جميع العلوم النافعة: من العلم بالتوحيد، وأصول الدين، ومن علوم الفقه والأحكام، ومن علوم العربية، ومن العلوم الاقتصادية والسياسية، ومن العلوم التي تصلح بها الجماعات والأفراد.

فما من علم نافع في الدين والدنيا إلا أمرتْ به هذه الشريعة وحثَّت عليه ورغَّبت فيه. فاجتمع فيها العلوم الدينية، والعلوم الكونية، وعلوم الدين، وعلوم الدنيا. بل إنها جعلت العلوم الدنيوية التي تنفع من علوم الدين.

وأما المتطرفون فإنهم اقتصروا على بعض علوم الدين، فقصَّروا وغلطوا غلطاً فاحشاً.

وأما الماديون فإنهم اقتصروا على بعض علوم الكون، وأنكروا ما سواها، فألحدوا ومَرَجَتْ أديانهم وأخلاقهم، وصارت علومهم حاصلها أنها صنائع جوفاء، لا تزكّي العقول والأرواح، ولا تغذّي الأخلاق. فكان ضررها عليهم أعظم من نفعها، فإنهم انتفعوا بها من جهة ترقية الصنائع والمخترعات وتوابعها، وتضرَّروا بها من جهتين: إحداهما: أنها صارت أكبر نكبة عليهم

وعلى جميع البشر، لِمَا ترتب عليها من الفناء والحروب المهلكة والتدمير.
الثانية: أنهم أُعجبوا بها واستكبروا، فحقَّروا لذلك علوم الرسل وأمور الدين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة غافر: ٥٦].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٦].

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة غافر: ٨٣].

فتبيَّن مما ذكرنا أن العلوم النافعة في العاجل والآجل: هي العلوم التي جاءت في كتاب الله وسنَّة رسول الله، وأنها احتضنت كل علم نافع، ومعرفة صحيحة، لا فرق بين الأصول والفروع، ولا بين الدينية والدنيوية، كما احتضنت عقيدتها الإيمان بكل حق وحقيقة، وبكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله. والحمد لله.

[الدين الصحيح يحل جميع المشكلات]

* * *

المبحث الثالث عشر

في دلالة الكتاب والسنة على الفنون والمخترعات العصرية

قال رحمه الله:

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة النحل: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الصافات: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [سورة العلق: ٥].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الجاثية: ١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [سورة الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة النحل: ٨].

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على هذا الأصل.

اعلم أن عُلوم البشَرِ السابقة واللاحقة، وما يترتب عليها من المعارف والأعمال والنتائج والثمرات، نوعان:

عُلوم دينية، وعلوم دنيوية.

وكلّ رُقيّ ديني ودنيوي وأخلاقي وجسدي، فإنه من ثمرات العلوم، ولكن الرقي يتفاوت تفاوتاً عظيماً.

فأعظم أنواع الرُّقِيّ وأعلاها وأصلحها وأكملها: إذا اتفق العِلْمان المذكوران، واتفقت آثارهما، وتعاونا على الخيرات كلها، وعلى زوال الشرور كلها، وكلها مُتفاوتات مُتساعدات يُؤازر بعضها بعضاً، ويهذّب بعضها بعضاً.

فمن تأمّل هذا القرآن العظيم، وهَدْيَ النبيّ الكريم، وخلفائه وأصحابه، عرف أنه بيّن النوعين، وحثّ عليهما، ودعا إليهما، وأخبر أن النجاح والفلاح والسعادة والهناء متوقّف عليهما، وأنه يساير الأوقات والعصور والأحوال كلها، ويُطبّق تعاليمه العالية على جميع ما حدث، ويحدث ويستجدّ، مهما كان. وأن كل علم ومعرفة وآثار ونتائج، مهما عَظُمت وترقّت، إذا لم تكن مبنيّة على الدِّين، فإنها ناقصة نقصاً عظيماً، وأن شرّها أعظم من خيرها، بل تكون خيراتها سبباً لشرور عظيمة، كما هو معروف للناظرين.

وقد أخبر في هذه الآيات، أنه خلق لنا جميع ما في الأرض، وسخّره لنا، نستمتع به، وأنه خلقنا وخلق أعمالنا، بما يَسَّرَ، وسخّر لنا من الأسباب. وأنه علم الإنسان ما لم يعلم. وأن الإنسان جعله الله قابلاً لتعلُّم العلوم التي جاءت بها الكتب السماوية، ودَعَتْ إليها الرُّسُل، والعلوم الكونية التي نبّه عليها القرآن في عدة آيات. وأنه امتنّ على الإنسان بهذا التعليم، وظهور آثاره ونتائجه، وأمره بسلوك كل طريق لتحصيل هذه المنافع.

وهذا العموم والشُّمول في هذه الآيات يأتي على جميع الفنون والعلوم العصرية، وما ينشأ من هذه الفنون من المخترعات الهائلة، وما يترتب عليها من المنافع الحاصلة.

وكلها من نعَمِ الله.

فإن الله تعالى هو الذي علم الإنسان الأسباب التي حصل له فيها العلم، كما أنه هو الذي رزقه الأسباب التي جعل الله رزقه فيها. وهو الذي جعل في

الأرض المنافع المتنوّعة، وهو الذي يسّر الأسباب التي تُدرك بها هذه المنافع، وأمرهم بالتفكر والتدبر والتأمل الذي يوصلهم إليها، ويهديهم إلى كيفية استخراجها. وربط البَشَر بعضهم ببعض في علومهم ومعارفهم، وفي آثارها ونتائجها. وجعل تعالى هذا الارتباط المتنوّع من أقوى الأسباب التي يدركون فيها كل مقدور للبشر، وكلّ ما هو في إمكانهم.

وهم في هذه الحالة بين أمرين: إما أن يستعينوا بهذه النِّعَم على شكر المنعم، وعلى القيام بحقوقه وحقوق سائر النوع الإنساني، بل على القيام بحقوق جميع المخلوقات، وعلى العدل، والرحمة، والحكمة، والصلاح، والسعادة الحاضرة والمستقبلة.

إن فعلوا ذلك لم يزالوا في صعود إلى الخيرات، وسلامة من جميع الشرور والمهلكات، وتمّت عليهم النعمة، وأمكنهم أن يحيوا حياة طيبة سعيدة هنيئة.

وبهذا أمر القرآن، ولهذا دعا القرآن، وأرشد العباد، وحذّرهم من ضده، وهو أنهم إن اشتغلوا بالنِّعَم عن المُنعم، وجعلوا هذه النعم غاية مطلوبهم، ونهاية مُرادهم، ولم يقوموا بحقوق المنعِم، ولا حنُّوا بها على الخَلق بالرحمة والعدل، كانت وَبالاً عليهم وضرراً لازماً، وصارت آلات ووسائل للهلاك والدمار والشقاء، ولم يمكنهم أن يعيشوا في هذه الدنيا عيشة هنيئة، بل عيشة شقاء وتنقُّل من شرور إلى شرور، كما هو مشاهَد لكل أحد.

أخبر تعالى في هذه الآيات، أنه سخّر لنا جميع الأحوال الكونيَّة، لننتفع بها في ديننا ودنيانا، ولنعتبر بها على ما أخبر به من أمور الغيب. ومن لوازم هذا التسخير، أنه لا بد أن ييسّر للبشر علوماً وأعمالاً وآلات يُدركون بها منافعهم وهذه الآيات فيها أكبر شاهد ودلالة، على أن في الأرض قوى ومنافع وخزائن، ما زال البشَر يدركونها ويحصلونها شيئاً بعد شيء؛ فكلّ ما تم للبشر من المخترعات والمستخرجات، فإنه داخل في هذه الآيات؛ فإنه تعالى أخبر أن جميع منافعها مسخّرة مستعدة للإنتاج إذا سلكوا طُرقها، وأن منها ما كان

موجوداً في الأزمنة الغابرة، ومنها شيء سيحدث ويُستخرج بعد ذلك، وهو في قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: ٨].

فإنه جاء بهذه الصيغة الدالة على الاستقبال، وأنه سيخلق في مستقبل الزمان ـ بتعليم الخَلق، وإقدارهم وتمكينهم من الأسباب المتنوعة ـ ما لا يعلمه العباد في ذلك الوقت، ولم يُعيِّن هذه الأشياء بأعيانها وأوصافها، بل أخبر باللوازم الدالّة على الملزوم، لحكمة يفهمها كل متدبّر متأمل.

فإنه لو أخبرهم في ذلك الوقت بأوصافها، وقال لهم: إنها ستكون الطيارات والمراكب البخارية بأنواعها، وإن الناس سيتخاطبون في مشارق الأرض ومغاربها في أسرع من لمح البصر، وإنه سيكون كذا وكذا مما هو واقع ولا يزال يقع.

لو أخبرهم ببعض ذلك، لارتاب الناس من خبَره، ولكان ذلك داعياً قويًا إلى التكذيب، لأن الناس لا يصدّقون بأمر لم يشاهدوا له نظيراً.

انظر: لمَّا أخبرهم بالإسراء والمعراج والشجرة الملعونة في القرآن، كيف كان ذلك فتنة للمكذِّبين، مع أن معجزات الأنبياء قد عرف الناس أنها من خَوارق العادات، وأنها تقع على خلاف المعهود.

فكيف لو أخبرهم بما حدث ويحدث في هذه الأوقات؟!

ولكن، ولله الحمد، أخبر تعالى بنصوص متعدّدة بإخبارات عامة، وبلوازم تدلّ على جميع ما حدث ويحدث. وكلّ المخترعات ـ وإن عظمت ـ يسهل جدًا تطبيق النُّصوص عليها. وإذا وُجدت ظهر بها معجزة القرآن، حيث أخبر بأمور ولوازم لها ملزومات من أبعد الأشياء في عقول الخلق، ثم وقعت طبق ما أخبر، فازداد المؤمنون بها إيماناً بالله ورسوله، وازداد المكذّبون إعراضاً ونُفوراً وتمرُّداً. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة يونس: ٩٦ـ ٩٧].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٦].

وكما أن الأرض محتوية على منافع عظيمة سخّرها الله للآدميين، كذلك أخبر أن الحديد فيه منافع للناس، ولم يقُل المنفعة الفلانية والفلانية، ليشمل جميع المنافع التي تستخدم بالحديد سابقاً أو لاحقاً. فكل منفعة استخرجت من الأرض أو من الحديد، منفردة، أو مقرونة بغيرها، أو مساعدة لغيرها من الأسباب، فإنها داخلة في هذه الآيات. وكل تعليم حصل للبشر في العلوم الدينية والدنيوية والكونية، فإنه داخل في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [سورة العلق: ٥].

فلا يمكن أن يشذّ عن هذه العمومات شيء من العلوم والفنون والمنافع والمخترعات والمستخرجات والنتائج والثمرات؛ وكلها من الله بما يسّر للعباد من الوسائل التي يُدركونها بها!

فمن الذي علمهم؟ ومن الذي أقدرهم عليها؟

ومن الذي جعل فيها القُوَى والمنافع الكامنة، وهداهم إلى استخراجها، إلا الله تعالى؟

كما أنه هو الذي يحيي ويميت، ويرزق الخلائق، ويدبّر أنواع التدابير، بما خلق ويسّر من الأسباب الموصلة إلى هذه الأمور!

ولكن الجاحد قاصر النظر، يقف عند الأسباب، ولا يتجاوزها إلى مسبِّبها ومقدِّرها والمنعم بها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: ٥٣].

فهذا خبره تعالى عن أمور مستقبلة: أنه يُري عباده من الآيات والبراهين في الآفاق وفي الأنفس، ما يدلّهمْ على أن القرآن حقّ، والرسول حق، وما جاء به هو الحق.

وقد أراهم من آثار تعليم الله لهم، وإقداره لهم، وتيسيره للأسباب المتنوّعة في الآفاق، وفي أنفسهم، ما يتبين به لكلّ مُنصف: أن خبر الله وخبر رُسُله حقّ.

فإن المكذِّبين يستبعدون خبَر الله وخبر رُسُله عن الغُيوب التي لا تُدركها عقولهم وأفهامهم القاصرة، فأراهم في هذه الأوقات أموراً فيها الدلالة الواضحة على ذلك، فإنه الذي أقدر الآدمي الذي خرج من بطن أُمّه لا يعلم شيئاً، فعلَّمه وأقدره، ويسّر له الأسباب التي تنتج له الأعمال الباهرة، بعدما كانت هذه الأمور من المحالات عندهم.

ذلك برهان على صدقه وصدق رسله، فقد كان المكذبون يستبعدون إحياءه الموتى، وجمعهم ليوم لا ريب فيه، ولا يصدّقون بالإسراء ومعراج الرسول، ولا بأنه تعالى ينادي الخلق بصوت يسمعه القريب والبعيد، ويُنكرون التخاطُب بين أهل الجنة والنار مع البُعد المفرِط، مع أن أمور الغيب مخالفة لأمور الشهادة؛ فأراهم الله في الآفاق وفي أنفسهم من مخترعاتهم وعلومهم وفنونهم: من المراكب الهوائية والبحرية والبرّية بأصنافها، ومن المخترَعات الجهنمية، ومن المخاطبات المتنوعة بين أهل الأقطار ما يدلّهم على أن الله هو الحق ورسوله ودينه، ووعده ووعيده، ولكن أبى الظالمون إلا نُفوراً واستكباراً.

والحديث الثابت في الصحيح صريح في هذا، فإنه أخبر ﷺ أنه يتقارب الزمان، فظهر مصداقه في هذه الأوقات بقُرب المواصلات، واتّصال الأخبار بجميع أهل الأقطار؛ حتى كأن الدنيا كلها بلد واحد من تقارُب ما بينها. وتقارُب الزمان يلزم منه تقارب المكان.

وقد كان هذ الحديث مُشكلاً معناه على أهل العلم قبل هذا الوقت، فلما تمّ للبشر ما تم لهم من هذا التقارُب الباهر، لم يشكّ أحد أن هذا مراد الحديث، وأن من لوازم إخباره ﷺ الإخبار بوجود الأسباب المتنوّعة التي يحصل بها التقريب، لأن إخبار الشارع بالشيء إخبار به، وبما لا يتم إلا به، كما أن أمره بالشيء أمر به، وبما لا يتم إلا به. والوسائل لها أحكام المقاصد.

وكذلك: إخباره بأنها لا تقوم الساعة، حتى تعود جزيرة العرب مُروجاً وأنهاراً. والحديث في صحيح مسلم.

من ذا الذي يخطر بباله قبل هذه الأوقات، أن هذه الجزيرة القاحلة تكون على هذا الوصف، حتى ظهر مصداق ذلك ومباديه بتيسير أمور الحِراثة، أو استخراج المياه بالآلات الحديثة. فخبرُه بذلك خبر عن الأمرين: عما يقع، وعما به يقع: عن الجزيرة أنها ستكون مروجاً وأنهاراً، وعن الآلات التي تستخرج بها المياه وتحرث بها الأراضي وتتيسّر الأعمال.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠].

وقوله: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [سورة النساء: ١٠٢].

فهذا الأمر في كل زمان ومكان، وفي كل حال بما يليق بها، وهو أمر بتعلّم العلوم والفنون العصرية التي فيها التحصُّن من الأعداء، والحذر منهم، وإعداد القوة بحسب الاستطاعة. والأمر بالشيء أمر به، وبما لا يتم إلا به. فلا ريب أن هذا أمر بتعلّم الصناعات والمخترعات، ولكل ما يحصل به إعداد القوة المرهبة للأعداء، من القوة المادية والمعنوية.

فمن ظن أنها لا تدخل فيها، فلقصور علمه وعقله.

ولهذا أطلق الله في الآيتين إعداد القوة، والأخذ بالحذر، ليشمل كل ما حصل به هذا الأمر الضروري النافع.

بل جميع الأوامر التي يأمر الله فيها بدفع عدوان الأعداء ومقاومتهم بكل طريق، تدلّ على وجوب تعليم الفنون الحربية والصناعية. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وذلك داخل في الجهاد: جهاد المقاومة، وجهاد المدافعة.

ومن ذلك: إخباره بأنهم: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٦].

(الحدب: الموضوع المرتفع، والنسلان: الإسراع).

فإذا أخبر أنهم من كل حدب: أي مكان مرتفع ومنخفض؛ لأن الإخبار بالمرتفعات الصعبة المتعسرة، يدلّ من باب أولى وأحرى أن السهول كذلك.

وهذا دليل على أمرين عظيمين:

أحدهما: الإخبار بقُرب المواصلات، فإن ﴿كُلِّ حَدَبٍ﴾ من أدوات العموم، وأن هذا الحديث سيشمل جميع الأقطار في غاية ما يكون من السرعة.

والثاني: الإخبار بحدوث ما به يحصل هذا الإسراع الشامل لكل حدب، وهو هذه المخترعات الحديثة؛ فإن الإخبار باللازم إخبار بالملزوم، وبالعكس، والإخبار بالشيء إخبار بالوسائل والأسباب التي توصل إليه. وهذا واضح؛ فالوسائل تدل على المقاصد، والمقاصد يعرف بها حصول الوسائل.

ومن ذلك: امتنانه على العباد بما يسّره لهم من الفُلك البحرية، وأنها من أكبر نِعَمه التي تحمِلهم وتحمل أثقالهم وأمتعتهم؛ ويحصُل فيها تبادل المنافع المتعددة، وذلك يدل دلالة واضحة أن الصناعات التي يحصل بها هذا الجنس النافع ـ بل الضروري ـ الذي نفع العباد في أمور دينهم ودنياهم: أن تعلمها مما يحبه الله ومما يأمر به، وهنا آيات كثيرة في هذا.

ولكن هنا آية تشاركها في هذا المقصد، وتمتاز عنها بشمولها لجميع أصناف الفُلك البحرية والبرية والهوائية، وهي قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة يس: ٤١].

أي وآية للعباد على كمال قُدرة الله، وتفرُّده بالوَحدانية، وسَعَة رحمته، وصدق رسله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

فإنه لما كان القرآن خطاباً لأول هذه الأُمة وآخرها، والقرآن أوسع المعاني وأشملها، وقد علم الباري ـ جل جلاله ـ بعلمه المحيط أن الفلك المتنوعة، من سُفن بحرية ومن قطارات وسيارات برية، ومن طائرات هوائية بجميع أنواعها ـ علم تعالى أنها تتسع جدًّا في آخر الزمان، وأنه لا يُدركها هؤلاء المخاطبون أولاً، وإنما تدركها ذُرِّيَاتهم، قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

فإنه لما كان جنس الفلك موجوداً، وهي السفن التي يعرفونها، صرّح به، كما صرّح بما كان أصله موجوداً في ذلك الوقت، ولكن الصناعة رقّته ونوّعته وفرّعته.

وهذا التفسير في هذه الآية، نظير التفسير الذي أشرنا إليه في قوله ﷺ: «**يتقارب الزمان**»[1]، وأن أهل العلم قبل وُقوعه تضاربت أقوالهم فيه بمحتملات بعيدة.

كذلك هذه الآية الكريمة، فسّروا الذرية بوجوه بعيدة عن اللفظ والمعنى، حتى حمَلها كثير من المفسرين على أن المراد بالذرية: الآباء والأجداد، وأنه من الأضداد. وهذا لا يُعرف في اللغة.

ولكن، ولله الحمد، القرآن عربي اللفظ والمعنى، صريح فيما ذكرنا، وأن الله إذا ذكر المعاني الجليلة، ذكر أوسعها وأعلاها وأشملها.

وقد يذكر الله قصة خاصة. فإذا أراد أن يحكم عليها، ذكر حُكماً عامًّا يشملها، ويشمل ما هو نظيرها، كما ذكرنا هذا في القواعد القرآنية، وذكرنا أمثلته هناك.

والمقصود: أن الآية الكريمة تشمل النعمة بجميع الفُلك، على اختلاف أنواعه: البري والبحري والهوائي. وهذا متضمّن للحث على الوسائل التي تُدرك بها هذه الأشياء، وذلك بالتعلم للفنون والصناعات العصرية، فإنه لا وسيلة لها سوى ذلك، كما هو معروف لكل أحد.

فصل

ومن ذلك: أمره تعالى بفعل الأسباب التي تحصل فيها الأرزاق من تجارات وصناعات وحِراثات وحِرَف وغيرها، وامتنانه على العباد بتيسيرها، والاستعانة بها على طاعة الله، والقيام بالواجبات المتعددة، كقوله تعالى حين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣/ ٨١ ـ ٨٢ فتح) برقم: (٧١٢١).

أمر بالسعي إلى الجمعة وتقديمها على المكاسب، التي هي وسائل لها ولغيرها من الفروض: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الجمعة: ١٠].

أي: بيع وشراء، وصناعة وحراثة، وغيرها من أسباب الرزق.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الملك: ١٥].

أي جعلها مُذلّلة لأسفاركم، مذللة لحروثكم، لاستخراج معادنكم المتنوعة، مهيأة لكل ما تحتاجونه منها؛ فامشوا في مناكبها، أي في طلب الرزق والسعي في تحصيله. وذلك يشمل جميع الطرق التي ينال بها الرزق من جميع الاقتصاديات التي أباحها الله ورسوله، التي كانت موجودة في ذلك الزمان، والتي لا تزال تحدث أسبابها شيئاً بعد شيء، وينفتح للعباد من أسباب الرزق وطُرقه أمور لم تكن موجودة قبل ذلك. فعِلمها وتعلّمها وسُلوك طُرقها مما أمر الله به رسوله، حتى إنّه تعالى أمر الناس أن يحجُروا على سُفهائهم في أموالهم الخاصة عن التصرّفات الضارة، لقِصَر عقولهم ومعارفهم وتجاربهم، حتى يعلموهم ويختبروهم بالتجربة التي هي الطريق لمعرفة أحوالهم.

وهذا يدلّ على أن الله يحب من عباده هذا الأمر، ويأمرهم به، ولهذا علل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [سورة النساء: ٥].

فأخبر تعالى أنه جعلها قياماً تقوم بها الأمور الدينية والأمور الدنيوية، تقوم بها الضروريات والحاجيات والكماليات.

فلقد علّمنا ربُّنا العناية التامة بحفظ الأموال، والاقتصاد في إنفاقها؛ وعلّمنا كيف نسلُك الطُّرق المتنوّعة لتحصيلها، ولم يحرم علينا منها طريقاً واحداً، إلا الطرق المحرّمة التي تضرّنا، وتكون سبباً لهلاكنا.

فَمَنْ هذه نعمته الكبرى على العباد ورحمته بهم، أليس يدل سبحانه على

أن تعلم الفنون الاقتصادية الخاصة بالأفراد والعامة للحكومات والأقطار، التي تُنال بها الأرزاق: مما يحبه الله ويرضاه، ويأمر به ويوجبه؟

فهل شذّ عن هذا الأصل فنّ وطريق، أو وسيلة من وسائل الرزق؟

فتبارك الرزاق الحكيم، الذي من حكمته جعل الأرزاق وغيرها تُنال بأسبابها.

ومن حكمته أن جعل لكل نوع منها أُناساً فيه يرغبون، وله يعملون، لتقوم المصالح كلها، ويرتبط الناس بعضهم ببعض؛ فأهل التِّجارات وأهل الصناعات وأهل المهن والحرف وأهل الحِراثات وغيرهم، كل منهم محتاج إلى الآخر، لا يستغني أحد منهم عن أحد؛ بل أهل الأقطار النائية، لما توسّعت أسباب المكاسب، اضطر بعضهم إلى بعض، وانفتحت طرق كثيرة لتحصيل الرزق، والكلّ من فضل الله وتيسيره، ورزقه وإحسانه.

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إِنَّ أَطْيَبَ ما أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ**»(١).

وهذا يشمل المكاسب كلها.

وسُئل: أي الكسب أطيب؟

فقال [ﷺ]: «**عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وكُلُّ بَيعٍ مَبْرُورٌ**»(٢).

وقال [ﷺ]: «**ما مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعاً، فَيُصِيبُ مِنْهُ إِنسانٌ أَوْ طَيْرٌ أَوْ دَابَّةٌ، إلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ حَسَناتٌ**»(٣).

وقد حث ﷺ في عدة أحاديث على التكسُّب، والاستغناء به عن مسْألة الناس وسؤالهم.

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وصححه شيخنا الألباني رحمه الله انظر أحكام الجنائز ص ١٧١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم (١٥٩٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٣٢٠ و٦٠١٢)، ومسلم في صحيحه برقم (٣٩٥٠).

والواجبات الدينية، من الزّكوات والكفارات ودفع الحاجات والضرورات، لا تقوم إلا بالأموال.

وكذلك الجهاد والمصالح الكلية والنّفقات على النفس والعائلة والمماليك والصّدقات المتنوّعة، كلها لا تقوم إلا بالأموال، والأموال لا تحصل إلا بالكسب.

فعُلم أن السعي في تحصيل هذه الأمور تبَع لها:

ما كان منها واجب فوسيلته واجبة، وما كان منها مندوب فوسيلته مندوبة.

[الرياض الناصرة (ص ١١٢ ـ ١٢٣)]

* * *

المبحث الرابع عشر

السبق والتبريز في العلوم وغيرها

قال رحمه الله:

السبق والتبريز والنبوغ في العلوم أو الأخلاق أو الأعمال معناه: أن يسبق غيره فيها سبقاً كثيراً، ويتقدم على المشاركين فيها أمداً بعيداً، وهٰذا نوعان:

أحدهما: سبق مطلق في كل فن من العلوم النافعة، وفي كل خلق من الأخلاق الفاضلة، وفي كل عمل من الأعمال الصالحة، أو في جمهور ذٰلك، وهٰذا من أندر النادر، ويوجد أفراد من هٰذا النوع ـ أيدهم الله بقوة منه ومعونة عظيمة ـ استولوا على السبق في كل شيء، وهي على إطلاقها قد تكاملت تكاملاً تامًّا في نبينا محمد ﷺ؛ فإنه أعلم الخلق وأكملهم وأعلاهم في كل فضيلة، وقد جمع الله من الفضائل ما تفرق في غيره وكان له منها أعلاها؛ فلذٰلك كان أفضل الخلق وأقربهم عند الله جاهاً ومنزلةً ووسيلةً؛ ﷺ، وكل ما شُرِح وبُيِّن من سيرته؛ فهو جزء من هٰذا الأصل الكبير، ثم بعده الأنبياء على مراتبهم، ثم خيار الصحابة رضي الله عنهم، ثم أئمة الهدى من أمته ومصابيح الدجى وهداة الأمة وأكابر الأئمة.

النوع الثاني: أن يسبق الإنسان في واحد من هٰذه الأمور أو اثنين مثلاً؛ فهٰذا كثير، وسبب ذٰلك مع إعانة الله: قوة الرغبة، وشدة الثقة في هٰذا الذي نبغ فيه وفاق غيره، وقوة الذكاء لأنه ينتج من ذٰلك قوة العمل، وذٰلك موجب للسبق الذي لا يدرك.

وأيضاً حصر الفكر والعمل في أمر من الأمور وجعله نصب العين والغاية وأكبر الهم ومبلغ العلم يوجب إدراك هٰذه المرتبة.

ومن هٰذا الباب نبوغ من فاق في علم التفسير، أو في علم الحديث، أو في علم الفقه، أو في علم النحو أو اللغة، أو [. .][1] أو الصناعات، أو غيرها من الفنون؛ فإنه من تخصص في شيء من هٰذه الفنون وصار هو دأبه ليلاً أو نهاراً؛ فإنه يدرك منه ما ييسر الله له فيه، ومن ذٰلك تبرز الإنسان في خصلة من الأخلاق المرضية والأعمال الصالحة؛ كأن يفوق غيره في الحلم الواسع، أو الصبر القوي، أو الخلق الحسن، مع كل أحد، والأعمال البدنية؛ ككثرة الصلاة أو الصيام، أو الإحسان، أو الحج، أو الشجاعة، أو غيرها، بحيث إذا ذكر في هٰذه المقامات عد من السابقين الذين لا يكاد يوجد لهم نظيرٌ أو مقارب.

كما يذكر في هٰذا الباب عن نوادر أهل الكرم والجود، ونوادر الشجعان، ونوادر المنقطعين للعبادة، ونوادر الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، وقد يكون فائقاً غيره في عمل خاص، مثل: بر الوالدين، أو صلة الأرحام، أو نحوها، ومن هٰذا ما ذكره النبي ﷺ في قصة أصحاب الغار[2] الذين انطبق عليهم، وقالوا: لا ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. فدعا كل واحد منهم بالعمل الذي برز به على غيره: هذا ببره الكامل بوالديه، وهٰذا بعفته العظيمة التي لا نظير لها، وهٰذا بأمانته وإحسانه الكثير الذي لا مثل له، ومن تأمل في أحوال الخلق رأى من هٰذا الباب عجائب، وذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء بالأسباب التي يخصه بها ويقويه عليها، والله ذو الفضل العظيم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٥٨ ـ ٦٠)]

* * *

(١) كلمة لم أستطع قراءتها.

(٢) حديث الغار أخرجه: البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣)؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

المبحث الخامس عشر

أعمال تنافي العقل

قال رحمه الله:

يا عجباً لمن هو عاقل ويدعي العقل، وهو يعمل ما ينافي العقل من جميع الوجوه!! فإن العقل يأمر بكل نافع، وبالاشتغال بالأهم عن المهم، وبترجيح أعلى المصالح على أدناها، وبردع صاحبه عن جميع الأمور الضارة.

وأكثر الخلق غير مستقيمين على هٰذا الأمر من كل وجه، وكثير من العقلاء يسلكه في بعض الأمور ويدعه في بعضها لأغراض نفسية يرى تقديمها على ما يقضي به العقل والشرع.

يا عجباً لمن يضيع أوقاته الثمينة في غير ما ينفعه وهي جواهر لا قيمة لها ولا يمكن استدراكها!!

ويا عجباً لمن أعطوا فهوماً وذكاءً؛ فصرفوها في العلوم الضارة، ومن أعطوا قوة وقدرة متنوعة؛ فصرفوها في الأمور الدنية وضيعوا الأمور العلية!!

ويا عجباً لمن كان شغلهم البحث عن عيوب من لا يحبونه، والاعتراض المتنوّع على من يبغضونه، كيف غطى السكر على عقولهم ولم يعلموا أن ذٰلك عين نقصهم والتعبير عن عدم فضلهم، والسعي في نقل حسناتهم إلى من يبغضونه بحسب بغضهم لهم، وهٰكذا تجد خلقاً كثيراً يدعون أن لهم عقولاً كباراً وهم على هٰذه الصفة!!

ويا عجباً لمن أغناهم الله ومولهم وأعطاهم وهم لم يستغنوا لا في دينهم ولا في دنياهم، لا قاموا بالنفقات الواجبة ولا المستحبة، بل يسعون في تحصيل الأموال وتجميعها، ولم يعرفوا أن المقصود منها أن تغني صاحبها بصرفها فيما

ينفع في دينه ودنياه، فجمعوا بين التعب العظيم في تحصيلها وبين الشح الزائد والبخل في إمساكها حين انتقلت دنياهم إلى غيرهم في حالة لا يحمدون عليها؛ فما أعظم حسرة هٰؤلاء وأشد أسفهم!!

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٦٠ ـ ٦١)]

* * *

الفصل الرابع

جواهر ودرر من كلام العلامة السعدي حول العلم وطلبه

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الفائدة الأولى

قال رحمه الله:

العلم[1]: هو معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة ومعرفة أدلتها وطرقها التي تهدي إليها.

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٨٣)]

الفائدة الثانية

قال رحمه الله:

العلم بالشيء غير وجوده والاتصاف به، فكم من إنسان يعلم ويعرف المحبة وأحكامها وجميع لوازمها ولكن قلبه خال منها؟! وكم من عبد يعرف ويعترف بقضاء الله وقدره، وحسن كفايته، ولكن إذا وقع المقدور بخلاف ما يحب، رأيته مضطرباً لا طمأنينة عنده ولا ثقة ولا سكون؟! وإلا فمن وصلت إلى قلبه معرفة الله حقيقة، اطمأن إلى كفاية الله واستسلم لحكمه حيثما تنقلت به الأحوال، وكم من إنسان يعرف أحكام التجارة وتفاصيلها، ولكنه وقت العمل ومباشرة البيع والشراء، لا يحسن ما يحسنه غيره؟!

وهكذا كثير من الأمور على هذا النسق، فلا تغتر إذا عرفت الشيء بأنك

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في تعريفه للعلم:
العلم لغة نقيض الجهل وهو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً، واصطلاحاً: فقد قال بعض أهل العلم: (هو المعرفة وهو ضد الجهل)، وقال آخرون من أهل العلم: (أن العلم أوضح من أن يعرف).
قلت: وما أحسن ما قاله القائل في ذمه للجهل.

وفي الجهل قبل الموت موت أهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور

متصف به، ولهذا شرع للعبد أن يسأل الله علماً نافعاً وهو العلم المستمر للعمل. والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٣٠)]

الفائدة الثالثة

قال رحمه الله:

قوله تعالى ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ..﴾ الآية [سورة المائدة: ٤] فيها فوائد كثيرة: منها: أن تعليم الله لعباده العلوم التي يدركون بها المعاش، ويتوصلون بها إلى المنافع الدنيوية من نعمه العظيمة، فإنه امتن على العباد بما يعلمون الجوارح الأسباب التي تحصل لهم بها الصيد، حتى يكون ما تدركه الجوارح بمنزلة ما يباشروه من الأعمال، لأنها من أعمالهم فكل علم علمه الله الإنسان، يدرك به منافعه الدينية والدنيوية، فإنه من نعمه، وفيها على أن تعليمها يكون بحسب العرف والعادة، لأن الله أطلق التعليم ولم يقيده إلا بقيدين: أحدهما: أن تتعلم هذه الجوارح تعلما تمسك على صاحبها، وتتميز من الجوارح التي تمسك لنفسها وعلى نفسها، ويعرف ذلك بالقرائن المعروفة. ثانيهما ذكر اسم الله عند إرسالها فإرسالها بمنزلة تحريك يده للذبح ـ ومنها أن الاشتغال بالعلوم التي تتسهل بها الأسباب الدنيوية، محبوبة لله وهو مما امتن الله به على عباده فكل طريق يوصل إلى المنافع الدنيوية أو يسهلها فإنه من هذا الباب.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٨٣)]

الفائدة الرابعة

قال رحمه الله:

العلوم قسمان: علوم نافعة تزكي النفوس، وتهذب الأخلاق، وتصلح العقائد، وتكون بها الأعمال صالحة مثمرة للخيرات، وهي العلوم الشرعية وما يتبعها مما يعين عليها من علوم العربية. والنوع الثاني: علوم لا يقصد بها

تهذيب الأخلاق وإصلاح العقائد والأعمال وإنما يقصد بها المنافع الدنيوية فقط، فهذه صناعة من الصناعات وتتفاوت بتفاوت منافعها الدنيوية، فإن قصد بها الخير وبنيت على الإيمان والدين صارت علوماً دنيوية دينية، وإن لم يقصد بها الدين، صارت علوماً دنيوية محضة، لا غاية شريفة لها، بل غاياتها دنية ناقصة جداً، فانية، وربما ضرت أهلها من وجهين:

أحدهما: قد تكون سبباً لشقائهم الدنيوي وهلاكهم وحلول المثلات بهم كما هو مشاهد في هذه الأوقات، حيث صار ضرر العلوم التي أحدثت المخترعات والأسلحة الفتاكة شرّاً عظيماً على أهلها وغيرهم.

والثاني: أن أهلها تحدث لهم الزهو والكبر والإعجاب بها وجعلها هي الغاية المقصودة من كل شيء فيحتقرون غيرهم، وتأتيهم علوم الرسل التي هي العلوم النافعة، فيدفعونها ويتكبرون عنها فرحين بعلومهم التي تميزوا بها عن كثير من الناس[1]. فهؤلاء ينطبق عليهم أتم الانطباق قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة غافر: ٨٣] فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٩٩)]

الفائدة الخامسة

قال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [سورة الصف: ٢] الآيات تدل على ذم من يأمر الناس بما لا يأتمر به وينهاهم عما كان

---

(١) وهذا حاصل للأسف في زماننا هذا، فما يكاد أحدهم ينال الشهادات العالية إلاّ ويظن نفسه قد وصل إلى ذروة العلم، ويناقش ويجادل في جميع العلوم بل وحتى في العلوم الدينية ويتكبر على خلق الله بشهادته ويعجب بنفسه، ونسي المسكين ما حصل لمن هم أقوى منه وأكثر أموالاً وجاهاً ومنصباً منه فقد دمرهم الله لما أعرضوا عن آياته سبحانه، وأهلكهم الله لما تركوا الانقياد له سبحانه وتعالى فهل اعتبر المتكبرون والمغرورون؟!

يرتكب، فإنها أيضاً تهدي إلى طريقة نافعة في التعلم والتعليم، وهي أنك إذا تعلمت أو علمت فلا يكن ذلك مجرد تعليم ألفاظ ومعاني لا تتصف بها ولا يتصف بها من تعلمه، بل طبق العمل على العلم، واستعن بالعمل على قوة العلم وجودته وكماله[1].

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٢٥٣)]

الفائدة السادسة

قال رحمه الله:

الفائدة التي تستفيدها من العلوم نوعان:

أحدهما: مسائل لم تكن تعرفها قبل ذلك فتستفيدها بعد جهلك بها.

ثانيهما: مسائل قد علمتها ثم نسيتها فيحصل لك تذكرها.

ولهذا ذكر الله هذين النوعين في قوله ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [سورة ق: ٨]. يتبصر بها الأعمى الجاهل، فيحصل له العلم بعد الجهل، وذكرى يتذكرها من كان علمها ثم نسيها. وهنا نوع ثان من التذكرة وهو أن يعرفها جملة ثم يفصل له ما كان في علمه مجملاً، فيكون للتفصيل بعد الإجمال موقع عظيم، ثم الطريق إلى هذين الأمرين التبصرة والذكرى، التفكر والتأمل في حدود الأشياء وتصورها التصور الذي يميزها عن غيرها، ثم

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في كتابه مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٢):
العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه، كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان يفسد أكثر مما يصلح. والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود. وقال رحمه الله (١/ ٣٠٤): إن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته وإن قدر سلامته اتفاقاً نادراً فهو غير محمود بل مذموم عند العقلاء.

الاستدلال بالدليل والبرهان عليها، فالنظر والتدبر مبتدأ العلم ومفتاحه ثم ينتقل به إلى تصور الأشياء، ثم الحكم عليها حكماً صحيحاً يحصل به تبصرة للمجهول وتذكرة للمنسي، ولكن الذي ينتفع بذلك حقيقة هو العبد المنيب إلى الله الذي وجه وجهه لله، وقصد اتباع الحق، والبحث عن طريقه، فأما من أعرض عن الله أو كان غرضه غير الحق، فإنه لا ينتفع بالآيات والعلوم النافعة، بل تكون حجة عليه(١). والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٢٢٧)]

الفائدة السابعة

قال رحمه الله:

الله خلق الخلق، وأنزل الأمر والشرائع ليعرفوه ويعبدوه وحده، فمعرفة الحق والعمل به، هي للعلم النافع والعمل الصالح لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة الطلاق: ١٢]. مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]. وقد جمع بين الأمرين في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة الزمر: ٢] فالأول: العلم النافع، والثاني: العمل الصالح، وهذان الأمران هما دعوة الحق المذكوران في قوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [سورة الرعد: ١٤]. فدعوة الحق هي إخلاص العمل لله المتضمن معرفته، ومعرفة دينه وشرعه، وهذان الأمران هما الطريق الوحيد للسعادة والفلاح، وهما أعلا ما يكون وأرفع وأكمل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ

---

(١) ويكون مصيره النار، نسأل الله السلامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤ـ ١٢٦].

﴿قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴿٣٣﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٣]. والدعوة إلى الله ملازمة ومتضمنة للعلم لأن من شروط الدعوة العلم بما يدعو إليه الداعي.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٢١٩)]

الفائدة الثامنة

قال رحمه الله:

دعاء النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[1] يظن كثير من الناس أنهما مترادفان معناهما واحد وليس الأمر كذلك فإن الفقه في الدين: التفقه في أصوله وفروعه وأحكامه المتنوعة، ومعرفة الشرائع الكلية. وأما معرفة التأويل فهي أخص من ذلك، فهي التمكن من إدخال الوقائع والجزئيات والمعينات في الشرعيات الكلية وتطبيقها عليها، فإذا أخبر الله ورسوله بخبر عن وقوع بعض الحوادث، فالفقه في الدين معرفة ذلك، واعتقاد مدلوله. وعلم التأويل إذا وقع ذلك الحادث تمكن العالم من إدخاله في ذلك الخبر، وعلم أنه هو المراد، فيزداد بذلك علماً وإيماناً. وكذلك إذا حكم الله ورسوله بحكم أمر أو نهي أو إباحة، فالفقه في الدين هو معرفة ذلك الحكم ومعرفة المراد منه، والتأويل تطبيق الجزئيات والأعيان على الكليات، ومعرفة تفاصيل الأعيان، وأنها مراد الله ورسوله بذلك الحكم، فكم من فقيه في الدين ولكنه يخفى عليه إدخال كثير من الحوادث والمعينات في الأحكام الكلية ولا يشعر بها؟! ولهذا ينبغي للمعلم والواعظ أن ينبه على الوقائع والحوادث والمعينات، وأنها هي المراد، وهي داخلة في ذلك الأمر أو النهي أو الإباحة أو الخير فما أعظم نفع ذلك!

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٦) وصححه العلامة أحمد شاكر رحمه الله، ورواه البخاري في صحيحه برقم (٧٥ و١٤٣) بلفظ: (**اللهم علمه الكتاب**).

وهذا التطبيق أيضاً يقوي تلك المعرفة الكلية فكل منهما يمد الآخر: الحوادث والوقائع لا بد أن ترجع وتربط بالكليات، والكليات لا تتضح تماماً إلا بالتفصيل وتعيين الجزئيات.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ١٩٦)]

الفائدة التاسعة

قال رحمه الله:

طريق أهل السنة والجماعة في العلم والعمل

وذلك أن أهل السنة والجماعة يعتقدون ويعلمون أن لا طريق إلى الله وإلى كرامته إلا بالعلم النافع والعمل الصالح، والعلم النافع هو ما جاء به الرسول ﷺ من الكتاب والسنة، فيجتهدون في معرفة معانيها، والتفقه فيها أصولاً وفروعاً، ويسلكون جميع الطرق المعينة على ذلك دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام، ويبذلون قواهم في إدراك ذلك بحسب ما آتاهم الله، ويعتقدون أن هذه هي العلوم النافعة، هي وما تفرع عليها من أقيسة صحيحة، ومناسبات حكميّة، وكل علم أعان على ذلك وآزره فهو علم شرعي كما أن كل علم ضاده أو ناقضه فهو باطل. فهذا طريقهم في العلم.

وأما طريقهم في العمل فإنهم يتقربون إلى الله تعالى بالتصديق والاعتراف التام والإيمان الذي لا ريب فيه بعقائد الدين، التي هي أصل العبادات وأساسها.

ثم يتقربون إليه بعد ذلك بآداء فرائضه المتعلقة بحق الله وحقوق خلقه، مع الإكثار من النوافل، والسعي بالإحسان إلى الخلق بكل طريقة، وبترك المحرمات والمنهيات تعبداً لله تعالى.

ويعلمون أن الله لا يقبل إلا كل عمل خالص لوجهه الكريم، مسلوك فيه

طريق النبي الكريم[1].

ويستعينون بالله في هذه الطرق النافعة، التي هي العلم النافع والعمل الصالح[2] المُوصل إلى كل خير وفلاح وسعادة عاجلة وآجلة[3].

فهذه الأصول العظيمة هي أصل الأصول، احتوى عليها هذا الجواب على وجه الإيجاز والاتيان بالنُّكت الحسان منها، ولو فُصِّلتْ وبسطت وذكرت أدلتها لاحتاجت إلى شرح كثير وكتاب كبير. والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

[الفتاوي السعدية (ص ١٧)]

---

(١) فلقبول العمل عند الله تعالى شرطان: الأول: الإخلاص، والثاني: المتابعة، ودليل الإخلاص قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]. فينبغي أن يخلص العبد في عبادته ويبتغي بها وجه الله تعالى، أما دليل المتابعة فهو قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ 131#&تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فلا تكون العبادة مقبولة أو العمل صالحاً حتى يتوفر فيها هذا الشرط بأن تكون هذه العبادة أو هذا العمل وفقاً للقرآن والسنة، وعلى هذا فينبغي لطالب العلم أن يخلص في طلب للعلم ويبتغي بذلك وجه الله تعالى لا غير، وعليه أيضاً أن يحرص على طلب العلم النافع الموافق للكتاب والسنة، حتى يتقبل الله منه عمله، ويكون من الفائزين في الدار الآخرة.

(٢) مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى: الهدى هو العلم النافع... ودين الحق هو العمل الصالح.

[شرح العقيدة الواسطية (١/ ٤٠)]

(٣) قال ابن القيم رحمه الله في فوائد الفوائد (ص ٤٥٩): لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله سبحانه أحبار أهل الكتاب ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم المنافقين.

الفائدة العاشرة

الوقت لك أو عليك[1]

قال رحمه الله:

الوقت إما لك ربح ومَغْنَمٌ، وإما عليك وزر ومأثم، وإما خسارة وتفويت

---

(١) قال فضيلة الشيخ بكر أبو زيد حفظه الله في كتابه حلية طالب العلم تحت عنوان آداب الطالب في حياته العلمية:
المحافظة على رأس مالك «ساعات عمرك». الوقت الوقت للتحصيل فكن حلف عمل لا حلف بطالة وبطر، وحلس معمل لا حلس تلة وسمر، فالحفظ على الوقت بالجد والاجتهاد، وملازمة الطالب ومثافنة الأشياخ، والاشتغال بالعلم قراءة وإقراء ومطالعة، وتدبراً، وحفظاً، وبحثاً، لا سيما في أوقات شرخ الشباب، ومقتبل العمر، ومعدن العافية، فاغتنم هذه الفرصة الغالية لتنال رتب العلم العالية، فإنها «وقت جمع القلب واجتماع الفكر»، لقلة الشواغل والصوارف عن التزامات الحياة، والترؤس، ولخفة الظهر والعيال. وإياك وتأمير التسويف على نفسك، فلا تسوف لنفسك بعد الفراغ من كذا، وبعد «التقاعد» من العمل هذا، وهكذا، بل البدار قبل أن يصدق عليك قول أبي الطحان القَيْني:

حنتني حانيات الدهر حتى ... كأني خاتل أدنو لصيد
قصير الخطو يحسب من رآني ... ولست مقيد أني بقيد

...فإن أعملت البدار فهذا شاهد منك على أنك تحمل «كِبَر الهمة في العلم».
[حلية طالب العلم (ص ٤٦)]

وقال فضيلة شيخنا محمد بن عثيمين غفر الله له: ...يتعين على طالب العلم أن يبذل الجهد في إدراك العلم والصبر عليه وأن يحتفظ به بعد تحصيله، فإن العلم لا ينال براحة الجسم، فيسلك المتعلم جميع الطرق الموصلة إلى العلم وهو مثاب على ذلك لما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة**» رواه مسلم. فليثابر طالب العلم ويجتهد ويسهر الليالي ويدع عنه كل ما يصرفه أو يشغله عن طلب العلم.

[كتاب العلم (ص ٦٠)]

فالبدار البدار إلى اغتنام الأوقات في طلب العلم حتى ننال الرفعة في الدرجات في الدنيا والآخرة.

للمنافع. وهذه الثلاثة الأقسام لا بد للإنسان من واحد منها، فمن كان وقته في طاعة الله من صلاة وصيام وقراءة وذكر وجهاد وحج وعلم وقيام بحق الله أو بحقوق الخلق، فهو له مغنم وربح وسيحمد غِبَّهُ بعد حين، وسيغتبط بما قدمت يداه. ولا بد لمن كان على هذا الوصف من الراحات واستعمال ما يعين على العبادة، من استعمال الطيبات، وهذه الوسائل ينسحب عليها حكم الوقت، وتكون عبادات مع النية الصالحة، ومن كان وقته في الشر وعمل المعاصي، والإصرار على ما يُسخط الله تعالى من جميع أجناس المعاصي المتعلقة بحق الله، أو حق خلقه، فهو يسعى إلى دار الشقاء، وعاقبته أوخم العواقب، وسيجد غِبَّ أعماله إذا انقطعت الأسباب، فإن تمتع في الدنيا قليلاً أعقبه ذلك حزناً طويلاً، ومن كان وقته في الغفلات والاشتغال بما لا يعين من اللذات والمباحات فقد خسر وقته الذي هو أنفس من كل نفيس، وخسر خسراناً مبيناً وفاتته المتاجر والأرباح، فسبحان من فاوت بين عباده هذا التفاوت.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الإسراء: ١٢].

[الفتاوي السعدية (ص ٦٨)]

الفائدة الحادية عشر

في تفاوت أهل اليقظة في حفظ الوقت[1]

قال رحمه الله:

سبحان من فاوت بين أهل اليقظة في قوة السير وضعفه، وفي استغراق جميع الأوقات في العبادة وعدمه. منهم من يكون سيره مستقيماً في ليله

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في فوائد الفوائد (ص ٤٥٨):
إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

ونهاره، ومع ذلك يتخير من الأعمال أفضلها وأكملها، ولا ينزل من فاضلها إلى مفضولها. إلا لمصلحة تقترن بالمفضول، توجب أن يساوي العمل الفاضل، ويزيد عليه.

وقد يكون المباح في حق هذا عبادة، لكمال إخلاصه ونيته بذلك المباح أن يُجِمَّ به نفسه، ويتقوى به على الخير، فتراه يتنقل في مقامات العبودية في كل وقت بما يناسبه ويليق به، لا فرق عنده بين العبادة المتعلقة بحقوق الله المحضة، وبين العبادة المتعلقة بحقوق الخلق على اختلاف مراتبهم وأحوالهم، ولقد ذكرت في هذا المقام كلاماً لبعض الشيوخ لما رأى كثرة المجتمعين ببعض أصحابه قال مؤدباً له ومقوماً: (يا مُناخ البَطّالين).

يريد أنهمم يقطعون عليه وقته عن الخير... وكلاماً أيضاً للشيخ أبي الفرج ابن الجوزي في سياق الخبر عن نفسه بحفظه الوقت، وأنه رأى مما لا بد منه أن ينتابه أناس للزيارة، وأنه لما رأى أن هذه الحال تقطع عليه وقته، أعد للوقت الذي يجتمعون فيه إليه أشياء من أمور الخير لا تمنع زيارتهم، ولا تقطع عليه وقته، مثل تقطيع الأوراق، وتصليح المداد، وبَرْي الأقلام التي لا بد له منها لتصنيف العلوم النافعة، وهي لا تمنع الحديث مع الناس ولا الاستئناس بهم.

فقلت: سبحان من مَنّ على هؤلاء السادة بحفظ أوقاتهم وبقوة العزيمة والنشاط على الخير، ولكن كل كمال يقبل التكميل والرقي إلى حالة أرفع منه.

فلو أن هؤلاء الأجلاء الأفاضل جعلوا اجتماعهم مع الناس للزيارة والدعوات وغيرها من المجالس العادية، فرصة يغتنمون فيها إرشاد من اجتمع بهم إلى الخير، والبحث في العلوم النافعة، والأخلاق الجميلة، والتذكر لآلاء الله ونعمه، ونحو ذلك من المواضيع المناسبة لذلك الوقت ولذلك الاجتماع، بحسب أحوال الناس وطبقاتهم، وأنهم وطنوا أنفسهم لهذا الأمر، وتوسلوا بالعادات إلى العبادات، وبرغبتهم في الاجتماع بهم إلى انتهاز الفرصة في

إرشادهم ـ لحصلوا بذلك خيراً كثيراً، وربما زادتهم هذه الاجتماعات مقامات عالية، وأحوالاً سامية، مع ما في ذلك من النفع العظيم للعباد، لأنه ليس من شروط نفع العالم أن يرشد فقط المستعدين لطلب العلم من المتعلمين، بل يكون مستعداً لإرشاد الخلق أجمعين بحسب أحوالهم واستعدادهم، وعلمهم وجهلهم، وإقبالهم وإعراضهم وأن يعامل كل حالة بما يليق بها من الدعوة إلى الخير، والتسبب لفعله وتعطيل الشر وتقليله، وأن يستعين بالله على ذلك. فمن كانت هذه حاله، لم يتبرم باجتماعه بالخلق مهما كان حريصاً على حفظ وقته، لأن التبرم والتثاقل إنما هو للحالة التي يراها العبد ضرراً عليه، ومُفوِّتة لمصالحه. والله الموفق وحده لا شريك له.

ويبنغي لمن دعا ربه في حصول مطلوب أو دفع مرهوب، أن لا يقتصر في قصده ونيته في حصول مطلوبه الذي دعا لأجله، بل يقصد بدعائه التقرب إلى الله بالدعاء، وعبادته التي هي أعلى الغايات، فيكون على يقين من نفع دعائه، وإن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها، فإنه يجذب القلب إلى الله وتلجئه حاجته للخضوع والتضرع لله الذي هو المقصود الأعظم في العبادة. ومن كان قصده في دعائه التقرب إلى الله بالدعاء، وحصول مطلوبه فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط، كحال أكثر الناس، فإن هذا نقص وحرمان لهذا الفضل العظيم وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون.

وهذا من ثمرات العلم النافع، فإن الجهل منع الخلق الكثير من مقاصد جليلة، ووسائل جميلة، لو عرفوها لقصدوها، ولو شعروا بها لتوسلوا إليها. والله الموفق.

[الفتاوى السعدية (ص ٤١ ـ ٤٣)]

الفائدة الثانية عشر

وقال رحمه الله:

قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الأنعام: ٥١].

ليس فيه نقص كما توهمه بعضهم، وجعل الخوف بمعنى العلم، وإنما فيه زيادة معنى نفيس وهو: أنه كما كان العلم نوعين: علم لا يثمر العمل بمقتضاه، وإنما هو حجة على صاحبه وهو غير نافع، وعلم يثمر العمل، وهو علم المؤمنين بأن الله سيبعثهم ويجازيهم بأعمالهم، فأحدث لهم الخوف فخافوا مقام ربهم، وانتفعوا بنذارة الرسل، وعلموا أنه ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع، فهؤلاء الذين أمر الله رسوله بنذارتهم، لأنهم يعرفون قدرها، ويقومون بحقها، وأما حالة المعرضين الغافلين، والمعارضين المعاندين، فهؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا تذكير، لعدم المقتضى والسبب الموجب، وهذا المعنى يأتي بما أشبه هذا الموضع من القرآن، والله ولي الإحسان.

[المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ٣٥)]

الفائدة الثالثة عشر

من هو الراسخ في العلم؟

قال رحمه الله:

الراسخ في العلم الذي مدحه الله هو المتمكن في العلم النافع المزكي للقلوب، ولهذا وصف الله الراسخين في العلم بأنهم يؤمنون بمحكم الآيات ومتشابهها، ويردون المتشابه المحتمل للمحكم الصريح فيؤمنون بهما جميعاً، وينزلون النصوص الشرعية منازلها، ويعلمون أنها كلها من عند الله، وأنها كلها حق، وإذا ورد عليهم منها ما ظاهره التعارض، اتهموا أفهامهم، وعلموا أنها حق لا يتناقض، لأنه كله من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ

﴿ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢]، وهم دائماً يتضرعون إلى ربهم في صلاح قلوبهم واستقامتهم وعدم زيغها، ويعرفون نعمة الله عليهم بعظيم هدايته وتمام البصيرة التي مَنَّ الله بها عليهم.

ومن صفاتهم التي وصفهم الله بها أنهم يدورون مع الحق أينما كان ويطلبون الحقائق حيثما كانت، ولهذا وصف الله الراسخين من أهل الكتاب بأنهم يؤمنون بما أنزل الله على جميع أنبيائه ولا يحملهم الهوى على تكذيب بعض الأنبياء وبعض الحق فقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾[1] [سورة النساء: ١٦٢].

[المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ٣٢)]

وقال رحمه الله:

قسم الله أصول الآيات المحكمات والمتشابهات قسمين قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ . .﴾ الآية [سورة آل عمران: ٧].

فأخبر بالسبب والغاية في كل من القسمين. أما الذين في قلوبهم زيغ فهم يتبعون المتشابه ويدعون المحكم وذلك لزيغ قلوبهم وانحرافها وقصدها الفاسد مالت إلى هذا العمل المنحرف وغايتها أخس الغايات ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله على غير المراد منه. وأما الراسخون في العلم فالسبب في استقامتهم رسوخهم في العلم في كماله وتحقيقه وإيمانهم الصحيح، فالعلم والإيمان الذي في قلوبهم أثمر لهم هذه الفائدة الحميدة وهو الإيمان بكل من المحكم والمتشابه لعلمهم أنهما من عند الله وما كان من عند الله فهو حق والحق يصدق بعضه بعضاً ولا تناقض، فيردون المتشابه المحتمل للوجهين إلى المحكم الواضح، فيصير الجميع محكماً ويزول الاشتباه إذا رد المتشابه إلى المحكم.

---

(١) انظر شرح الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وكذلك أمثلة كثيرة، منها الآية التي بعدها في قولهم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [سورة آل عمران: ٨] في القرآن عدة آيات فيها الإخبار بأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء فهي وحدها بما يظن الغالط أن هدايته لمن اهتدى وإضلاله من ضل لمجرد المشيئة ومحض الإرادة وأنها غير مقرونة بالحكمة ولهذا ظن خاطىء فقد أخبر في آيات كثيرة أن الهداية لها أسباب وكذلك الإضلال كقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [سورة المائدة: ١٦] وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: ٣٠]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة الصف: ٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة الأنعام: ١١٠]... إلى غيرها من الآيات الدالة على ربط هدايته وإضلاله بالحكمة البالغة التي يحمد عليها ويثنى عليها بها ويعلم أنه ما وضع هدايته إلا في محلها ولا أضل إلا من اختار لنفسه طريق الغي والضلال، وأنه ولاه ما تولى لنفسه، ومثل ذلك الإخبار بأنه يرزق من يشاء ويبسط الرزق ويقدره على من يشاء مع ذكر الأسباب التي يحصل بها هذا وهذا ونحو ذلك. والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ١٢٢ ـ ١٢٤)]

الفائدة الرابعة عشر

قال رحمه الله:

ومن دعاء الراسخين في العلم بعد الثناء عليهم بالإيمان التام ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [سورة آل عمران: ٨] فسألوا ربهم، وتوسلوا بربوبيته من حصول أفضل الوسائل، وهو استقامة القلوب على ما يحبه الله ويرضاه، والثبات على ذلك، وعدم زيغها عن هذه الهداية، وأجل المقاصد وهو حصول رحمة الله تعالى التي يحصل معها خير الدنيا والآخرة، وختموا دعاءهم بالتوسل إلى ربهم باسمه «الوهاب» أي كثير العطايا، واسع الكرم، فمن كرمك يا وهاب نسألك الاستقامة، وعدم زيغ القلوب وأن تهب لنا من لدنك رحمة لأن الرحمة التي من لدنه لا يقادر قدرها، ولا يعلم ما

فيها من البركات والخيرات إلا الذي وهبهم إياها ويشبه أن يكون قولهم ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾ [سورة آل عمران: ٩] توسلاً إلى ربهم بإيمانهم بهذا اليوم، وتصديق ربهم من وعده ووعيده فإن التوسل إلى الله بالإيمان ومنة الله به من الوسائل المطلوبة فيكون هذا من تمام دعائهم.

[المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ١٢٨)]

الفائدة الخامسة عشر

قال رحمه الله:

ومن فروع هذه القاعدة ـ الوسائل لها أحكام المقاصد ـ وجوب تعلم العلوم النافعة، وهي قسمان: علوم تعلمها فرض عين، وهي ما يضطر إليه العبد في دينه وعباداته ومعاملاته كل أحد بحسب حاله. والثاني فرض كفاية، وهو ما زاد على ذلك بحيث يحتاجه العموم، وفرض الكفاية إذا قام به من يكفي سقط عن غيره، وإذا لم يقم به أحد، أثم كل قادر عليه... ومن فروعها أن العلوم الشرعية قسمان:

أحدهما: مقاصد وهي علم الكتاب والسنة.

والثاني: وسائل إليها مثل علوم العربية بأنواعها، فإن معرفة الكتاب والسنة وعلومهما تتوقف أو يتوقف أكثرها على معرفة علوم العربية، ولا تتم معرفتهما إلا بها، فيكون الاشتغال بعلوم العربية لهذا الغرض تابعاً للعلوم الشرعية.

[القواعد والأصول الجامعة (ص ٢٤ و٢٥)]

الفائدة السادسة عشر

الاعتناء بالتربية والتعلم من أصول الجهاد

قال رحمه الله:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [سورة التحريم: ٦]

وذلك بالتعليم والتأديب والتربية، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر: ٩] وذلك أن من أعظم أصول الإصلاح والجهاد التربية الدينية، والاهتمام التام والاعتناء الكامل بشباب الأمة، فإنهم محل رجائها وموضع أملها ومادة قوتها وعزها[١] فعليهم أن يربوهم تربية عالية ويبثوا فيهم روح الدين وأخلاقه الجميلة، والحزم والعزم، وجميع مبادىء الرجولة والفتوة والمروّة، وأن يدربوهم على الصبر وتحمل المشاق الذي يفضي إلى النجاح والمثابرة في كل عمل نافع[٢] ويحذروهم من الجبن والكسل والسير وراء الطمع والمادة والانطلاق في المجون والهزل والدعة، فإن ذلك مدعاة للتأخر الخطير. وشباب الحاضر هم رجال المستقبل وبهم تعقد الآمال وتدرك الأمور المهمة، فعليهم أن يجتهدوا ليكونوا في خصال الخير والفضائل المثل الأعلى وبأوصاف الحزم والمروّة والكمال القدوة المثلى.

ومن أعظم أركان التربية العامة النافعة، إصلاح التعليم والاعتناء بالمدارس العلمية، وأن يختار لها الأكفاء من المعلمين والأساتذة الصالحين الذين يتعلم التلاميذ من أخلاقهم الفاضلة، قبل ما يتلقون من معلوماتهم العالية[٣]. ويختار لها من فنون العلم الأهم فالأهم من العلوم النافعة الدينية والدنيوية المؤيدة للدين، وأن تكون العلوم الدينية هي الأصل والأساس الأقوم، ويكون غيرها تبعاً لها ووسيلة إليها وأن يكون الغرض الوحيد من المتخرجين في المدارس الناجحين في علومها أن يكونوا صالحين في أنفسهم وأخلاقهم وآدابهم،

---

(١) فهذه هي الحقيقة التي يجب على كل أب غيور أن يعيها ويفهمها، فهل من أذن تسمع، أم هل من قلب يعي ويفهم هذا الأمر؟!

(٢) وهذا ما فرط فيه الكثير من الآباء للأسف حتى رأينا أبناء الإسلام يتخبطون في الجهالات والضلالات يميناً وشمالاً، ولعل السبب الرئيسي في ذلك هو سوء التربية، فنسأل الله تعالى أن يمن على شباب الإسلام بالهداية، والرجوع إلى طريق الحق، والثبات على ذلك حتى الممات.

(٣) وهذا الأمر المهم قد فقد من المدارس للأسف فأين هم الأساتذة المصلحين والمعلمين المربين إنهم والله أندر من النادر، فإلى الله المشتكى!

مصلحين لغيرهم، راشدين مرشدين، مهتمين بتربية الأمة، فإن كثيراً من المدارس الآن التعليم فيها قاصر جداً، لا يعتني فيه بأخلاق التلاميذ، ويكون تعليم الدين فيها ضعيفاً، ويكون الغرض منها المادة[1]، وأن يخرج منها تلاميذ يصلحون للوظائف الدنيوية المادية البحتة، وهذا ضرره كبير وسبب للضعف والانحلال. ولا ريب أن السعي في إصلاح التعليم من أهم المهمات وبه ترتفع الأمة وتنتفع بعلمائها وعلومهم، فالتعاليم النافعة والتربية الصالحة تقود المسلمين إلى كل خير وفلاح، وتكون العلوم مقصوداً بها الصلاح والإصلاح.

[وجوب التعاون بين المسلمين وموضوع الجهاد الديني (ص ١٩)]

الفائدة السابعة عشر

قال رحمه الله:

قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾[2] [سورة الشعراء: ١٩٧] تدل على أن أهل العلم بهم يعرف الحق من الباطل، والحلال من الحرام، فهم الوسائل بين الله وبين عبادة، ولهذا استشهد الله بهم على التوحيد، وعلى النبوة، وعلى صحة القرآن، كما في هذه الآية. وعلى التوحيد في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨] وعلى القرآن قوله ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[3] [سورة العنكبوت: ٤٩] وتدل هذه الآية على أن العلم الحقيقي هو ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وما فرق بين الحق والباطل، وما سوى ذلك وإن كان صحيحاً فلا يستحق صاحبه أن يكون من أهل العلم الذين أمر الله بالرجوع إليهم، وإنما هو من أهل الذكر الذين قال الله فيهم: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٣].

---

(١) كما هو مشاهد وللأسف في كثير من بلاد المسلمين، فنسأل الله تعالى أن يرد المسلمين إلى دينه رداً جميلاً.

(٢) انظر شرح الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

(٣) انظر شرح الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

حقيق بمن مَنّ الله عليهم بشيء من العلم أن يكونوا أسرع الناس انقياداً للحق وأبعد الناس عن الباطل، ولهذا شدد الله الذم بمخالفة هذين الأمرين على أهل العلم كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة النساء: ٥١] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [سورة النساء: ٤٤] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة آل عمران: ٢٣].

[المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ٨٧ ـ ٨٨)]

الفائدة الثامنة عشر

قال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة المجادلة: ١١].

فيها فضيلة التأدب بالآداب الشرعية ورفعتها عند الله ولو ظنها الإنسان منقصة، فليس النقص غير الإخلال بآداب الله لعباده.

ومن الفوائد: إيقاع الظاهر موقع الضمير في هذه الآية حيث قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ ولم يقل يرفعكم، ليدل ذلك على فضيلة الإيمان والعلم عموماً، وأن بهما تحصل الرفعة في الدنيا والآخرة[1]، ويدل على أن من ثمرات العلم والإيمان سرعة الإنقياد لأمر الله، وأن هذه

---

(١) قال شيخنا محمد الصالح بن عثيمين رحمه الله تعالى: في كتابه العلم (ص ٢٠):
(من فضائل العلم) أن الله يرفع أهل العلم في الآخرة وفي الدنيا، أما في الآخرة فإن الله يرفعهم درجات بحسب ما قاموا به من الدعوة إلى الله عز وجل والعمل بما علموا، وفي الدنيا يرفعهم الله بين عباده بحسب ما قاموا به. قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

الآداب ونحوها إنما تنفع صاحبها، ويحصل له بها الثواب إذا كانت صادرة عن العلم والإيمان، وهو أن تكون خالصة لوجه الله لا لغير ذلك من المقاصد.

[المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ١٠٢ ـ ١٠٣)]

الفائدة التاسعة عشر

وقال رحمه الله: كمال العبد في تمام النعمتين: نعمة الدين ونعمة الدنيا، فيهما تحصل السعادة العاجلة والآجلة، فنعمة الدين: بالعلم الهادي إلى الصراط المستقيم، وبتقوى الله التي هي امتثال أمره واجتناب نهيه.

ونعمة الدنيا: بأن ينقطع العبد عن رجاء المخلوقين والافتقار إليهم ويرزقه الله العفة من القبائح، ثم يغنيه بالحياة الطيبة والخير الذي يكون عوناً له على عبادة ربه.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [سورة محمد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة النور: ٣٣] وقد تضمن هذه الأمور الأربعة الدعاء الذي ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء **«اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»**[1] رواه مسلم.

[المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ١٠٢]

الفائدة العشرون

قال رحمه الله:

المطلوب من العلم تصور مسائله الكلية والجزئية، والاستدلال عليها بالدلائل الموصلة إلى العلم بقدر الإمكان، فالعلم مسائل ودلائل والله يقول الحق في خبره وحكمه، وهو يهدي السبيل في آياته وبراهينه وأدلته وبيناته الواضحة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، حديث رقم (٦٨٤٢).

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ فأعظم الحق وأصدقه وأنفعه ما قاله الله ورسوله وحكم به الله ورسوله[1] وأوضح الأدلة والبراهين ما نبه الله عليه ورسوله، والكليات من المسائل والدلائل تحفظ الجزئيات وتجمعها وتكون أساساً وأصلاً، والجزئيات تفصل الكليات وتوضحها فمتى كان صاحب العلم متمكناً من الأحكام الكلية وتصويرها وتقريرها من التمثيل بالجزئيات، فقد تم علمه، ومتى قصر فيهما أو في أحدهما، حصل له من القصور والجهل بحسب ما قصر فيه فمستقل ومستكثر، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والعلم الموروث عن الرسول من الكتاب والسنة فيه المسائل والدلائل المحتاج إليها على أكمل وجه وفيه من الأدلة العقلية والنقلية، ويدعو إلى الخضوع والذل لله والتواضع للحق والخلق، وعلوم أعداء الرسل ليس فيها براهين عقلية ولكنها شبه وجهل وضلال، ومع ذلك ففي قلوب أهلها كبر ما هم ببالغيه، كبر على الحق وعلى الخلق، مع قصورهم العظيم، وجهلهم المركب، واغترارهم بما عرفوه من العلوم التي إن نفعت ففي بعض الأمور الدنيوية.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٧٩)]

الفائدة الحادية والعشرون

قال رحمه الله وغفر له:

يعجبني ما وقع لبعض أهل العلم، وهو أنه كتب له آخر من أهل العلم والدين ينتقده انتقاداً شديداً، في بعض المسائل، ويزعم أنه مخطىء فيها حتى

---

(١) يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وعلى هذا فلا يجوز للمرء أن يقدم قول أحد على قول الله ورسوله بل عليه أن يسمع كلام الله ورسوله، وينفذه على الفور إذا كان أمراً، أو يجتنبه على الفور إذا كان نهياً، وإلاَّ فإن الله تعالى توعده بالعذاب كما قال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أنه قدح في قصده ونيته، وقال مع ذلك أنه يدينُ الله ببغضه بناء على ما توهم من خطئه.

فأجاب المكتوب له: (اعلم يا أخي أنك إذا تركت ما يجب عليك من المودة الدينية والأخوة الإسلامية، وسلكت ما يحرم عليك من اتهام أخيك بالقصد السيء على فرض أنه أخطأ، وتجنبت الدعوة بالحكمة في مثل هذه الأمور، فإني أخبرك قبل الشروع في جوابي لك عما انتقدته عليّ أني لا أترك ما يجب عليّ من الإقامة على مودتك والاستمرار على محبتك المبنية عل ما أعرفه من دينك انتصاراً لنفسي[1] بل أزيد على ذلك بإقامة العذر لك بقدحك في أخيك، إني أعرف أن الدافع لك على ذلك حسن قصد، لكن لم يصحبه علم يصححه، ولا معرفة تبين مرتبته، ولا ورع ورأي صحيح يوقف العبد عند حده الذي أوجبه الشرع عليه، فلحسن قصدك المتمحض أو الممتزج بشيء آخر، قد عفوت لك عما كان منك إليّ من الاتهام بالقصد السيء فهب أن الصواب معك يقينا فهل خطأ الإنسان عنوان على سوء قصده؟ فلو كان الأمر كذلك لتوجه رمي جميع علماء الأمة بالقصود السيئة، فهل سلم أحد من الخطأ؟ وهل هذا القول الذي تجرأت عليه إلا مخالف لما أجمع عليه المسلمون، من أنه لا يحل رمي المسلم بالقصد السيء إذا أخطأ في مسألة علمية دينية؟ والله تعالى قد عفا عن خطأ المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦]. قال الله: قد فعلت[2]. ثم نقول: هب أنه جاز للإنسان القدح في إرادة ما دلت القرائن والعلامات على قصده السيء، فيحل القدح فيمن عندك من الأدلة والقرائن الكثيرة على بعده عن القصود السيئة ما لا يبرر لك أن تتوهم فيه شيئاً مما رميته به وأن الله أمر المؤمنين أن يظنوا بإخوانهم خيراً إذا قيل فيهم خلاف ما يقتضيه الإيمان فقال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [سورة النور: ١٢].

---

(١) تأمل في ذلك يا طالب العلم وقارنه بحال طلبة العلم في هذا الزمان تجد البون شاسعاً!. والله المستعان.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٢٦) من حديث ابن عباس.

واعلم يا أخي أن هذه المقدمة ليس الغرض منها مقابلتك بما قلت، فإني قد ذكرت لك أني قد عفوت لك عن حقي إذا كان لي حق، ولكن الغرض النصيحة وأن أعرفك موقع هذا الاتهام ومرتبته من الدين والعقل والمروءة الإنسانية»[1].

ثم إنه بعد هذا أخذ يتكلم عن الجواب الذي انتقده مما لا محلّ لذكره هنا وإنما الفائدة من هذه المقدمة.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٤٣)]

الفائدة الثانية والعشرون

وقال رحمه الله: ومن أعظم الجهاد سلوك طرق التعلم والتعليم فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيته لا يوازنه عمل من الأعمال لما فيه من إحياء العلم والدين وإرشاد الجاهلين والدعوة إلى الخير والنهي عن الشر والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه.

فمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة..

ومن ذلك المشاريع الخيرية التي فيها إعانة للمسلمين على أمور دينهم ودنياهم التي يستمر نفعها ويتسلسل إحسانها كما ورد في «الصحيح»: **«إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به من بعده أو ولد**

---

(١) يا ليت طلاب العلم في هذا الزمان يدركون قيمة هذه الكلمات فلا يتسرعون في الحكم على الأشخاص والدخول في نياتهم، وإن حصل ووقع غيرهم فيهم أن يبادروا إلى العفو والصفح والنصيحة لا أن يردّوا (الكلمة كلمتين والصاع صاعين!). فهذه الآداب هي آداب الإسلام، وهي الآداب التي أمرنا ربنا أن نتحلى بها في كثير من الآيات، ويكفيك أن تتأمل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

صالح يدعو له»[1] رواه مسلم.

[الفتاوى السعدية (ص ٣٨)]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية/باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم (٤١٩٩) والترمذي في سننه، كتاب الأحكام/باب في الوقف، حديث رقم (١٣٧٦) والنسائي في سننه، كتاب الوصايا/باب فضل الصدقة عن الميت حديث رقم (٣٦٥٣)، وأبو داود في سننه، كتاب الوصايا/باب ما جاء في الصدقة عن الميت حديث رقم (٢٨٨٠).

الفصل الخامس

خطب الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي حول طلب العلم وفضله

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

خطبه

في الحث على العلم

الحمد لله الذي فاوت بحكمته بين المخلوقات، ورفع المؤمنين الذين أُوتُوا العلم درجات، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كما لا تستوي الأنوار والظلمات؛ وأشهدُ أنْ لا إلٰه إلا الله، وحده لا شريك له في ألوهيته وربوبيته وما له من الأسماء الحسنى وكامل الصفات؛ وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، خلاصةُ الخلق وأكمل البريّات، اللَّهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه الذين فَضَّلهم الله بالعلم النافع والأعمال الصالحات، وسلِّم تسليماً.

أما بعد: أيها الناس. اتقوا الله تعالى، وذلك بمعرفة الحق واتِّباعه، ومعرفة الباطل واجتنابه؛ واعلموا أن طلبَ العلم فريضةٌ على كل مسلم مكلَّف، وأن على العبد أنْ يعرفَ الحقَّ والباطلَ ويتعرفَ؛ فإن الله أمر بالتعلُّم والتدبُّر والتذكُّر والسؤال، والنبي ﷺ حثَّ أمته، وقال «**ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العيِّ السؤالُ**»[1] ويجب على كل أحد أن يتعلم ما لا يُستغنى عنه من أمر دينه، وما يحتاجه في عبادته ومعاملاته، ليصير على بيِّنة من إيمانه ويقينه؛ ويتعلمَ التوحيدَ وأصولَ الإيمانِ وشرائعَ الإسلام، فلا يستقيم الفرعُ إلا إذا تم الأساس واستقام، وتعلموا من العبادات ما يُصلحها ويُكَمِّلها وما يُنقصها ويُفسدها؛ ومن المعاملات والعقود ما يُقَومها ويُصَحِّحها وما يُبطلها؛ فإن الجهل ظلمة والعلم نور وضياء، والجهلَ داءٌ قاتل، والعلمَ حياة ودواء وشفاء؛ وحاجة

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٣٦)، وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٣٢٥).

الناس إلى العلم أعظمُ من حاجتهم إلى الطعام والشراب، ليعرفوا الحلال والحرام وأحكام ربهم في الذهاب والإياب.

وكما أن السعي في طلب العلم [الضروري لاتباع الأوامر واجتناب المنهيات] من الواجبات، فإنه من أجلِّ القُرُبات وأفضل الطاعات؛ والاشتغال به أفضل من نوافل الصوم والصلاة؛ فإنه من الجهاد في سبيل الله الذي هو رأس العبادات؛ لا سيما في هذه الأوقات التي كثر فيها الجهل والجهلاء، وقل فيه العلم والعلماء، وتداعى بهم داعي الموت والفناء. فالداعي مُلِحٌّ لا يُقْلع، والذاهب منهم لا يرجع، ولا يخلفه من يقوم مقامه فيلتئم الخرق ويقمع. كذلك يموت العلم بموت حامليه، ويفقد بفقدان أهله ومعلميه؛ ولا يعرف قدر العالم إلا بعد ارتحاله، ولا تعرف شدة الحاجة إليه إلا بعد انتقاله؛ لكن أهل العلم، رضي الله عنهم، يذهبون وتبقى آثارهم، ويموتون وتحيا أخبارهم؛ أجسامهم مفقودة، وأفعالهم وصفاتهم ومناقبهم الجميلة في القلوب موجودة؛ تجردوا طول حياتهم للتعلم والتعليم، وأنفقوا نفائس أعمارهم في نفع الخلق رجاءَ لرِضَى الربِّ الكريم؛ فشكر الله لهم، ولم يزل لأوليائه شكوراً، ونشر لهم لسان صدق بين عباده، محبة وثناء ودعاء لهم وشكوراً؛ مات غيرُهم فطويت صحائف حسناتِهم، فلا ينقص فيها ولا يزاد؛ والعلماء ما دام ينتفع بعلمهم وآثارهم، فهم في أجرٍ ورفعةٍ وازدياد؛ فإذا حُشر الناس اغتبطوا بعلمهم، وما أسلفوه يوم يقوم الأشهاد.

فاعرفوا ـ رحمكم الله ـ قدرَ العلم وآثاره الحميدة، وثابروا على تعلّمه، والازدياد من أنواره المفيدة؛ فإنه ينوِّر القلوب والأبصار، ويوجب الأجر والقرب من الملك الغفار؛ ولازموا مجالس العلم والعلماء، فإن الله يباهي بهم أهل السماء في الملأ الأعلى، ويشهدهم أنه قد غفر لكل حاضر لمجلس الذكر من مستمع ومتعلم، فإنهم القوم لا يشقى بهم جليسُهم، ولو جاء لحاجة ولم يكن قصده التعليم. فكونوا عالمين أو متعلمين أو مستمعين أو سائلين، ولا تكونوا الخامس المعرض، فتصبحوا هالكين.

كيف يليق بالعبد أن يعرض طول عمره عن حضور الخير وطلبه؟ وهو لا يزال في تعب الدنيا وفي نصبها، وفي ذهابه ومنقلبه يحسن أمور دنياه، وهو غافل عن العلم الذي يقربه إلى مولاه. فما أخسَر عبدٍ في أمور دنياه من أعرف الناس وأحذقهم، وفي أمور دينه من أبلدهم وأجهلهم. قد جعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه وغاية مناه، وأعرض عن العلم الذي فيه صلاح دينه ودنياه.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الزمر: ٩] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

خطبة

في العلم أيضاً

الحمد لله الذي وَسِعَ كلَّ شيء رحمةً وعلماً، وقضى بشرعه على المكلَّفين، ومَنْ أحسنُ منه قضاءً وحكماً؟! وَوَفَّق من اختارهم، فأعطاهم إيماناً ويقيناً وعلماً، وحَبَاهم من فضله عرفاناً وفقهاً وفهماً؛ وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده، لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله الذي أنزل عليه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤] اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه الذين هم أبرُّ الخلق قلوباً وأغزرهم علوماً وأكملهم حزماً وعزماً، وسلِّم تسليماً.

أما بعد: أيها الناس. اتقوا ربكم، واعلموا ـ رَحِمَكم الله ـ أن طلب العلم من أعظم الواجبات، وأنه شفاء للعيّ، وسلامةٌ من جميع الآفات؛ وأن من أراد الله به خيراً فَقَّهَهُ في الدين، ومن لم يرد به خيراً أعرض عن طلبه، فأصبح من الخاسرين. فإن الله فرض عليكم فرائض لا تتمكنون من أدائها إلاّ بتعلم أحكامها، ولا تدركون سلوك الطريق المستقيمة إلا بالتمييز بين حلالها وحرامها؛ وعلى كل عبد معرفة ما يهتدي به إلى الصواب، وحاجة العبد إلى العلم أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب؛ ألاَ وإنّ الاشتغال به من أجل الطاعات وأفضل الحسنات المذهِبَةِ للسيئات؛ فإن مذاكرته تسبيح والبحث عنه

جهاد، وتعلمه وتعليمه ودراسته توجب رضى رب العباد. فقد قال ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة؛ وما جلس قوم مجلس ذكر إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذَكَرهم الله فيمن عنده**»[1] وقال: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: «**حلَق الذكر**»[2].

أفيحسن بالحازم أن يزهد في رياض فيها من العلوم والمعارف كل زوج بهيج؟ ويستبدل بها مجالس اللغو واللهو وكل أمر مريج؟ أيرضى المؤمن أن يكون في أمر دنياه من أحذق الحاذقين، وفي أمر دينه من الهمج الرعاع الذين لا يعرفون شيئاً من أمور الدين؟ لقد اختار الأدنى الخسيس على الحظ الأعلى النفيس، ورضي بمشاركة البهائم وزهد في خصال أهل المكارم؛ فوالله لَمَسْأَلَةٌ يسمعها أحدكم فيفهمها ويعمل بها خير له من الدنيا وما فيها؛ وَلَحُضورَكُمْ في مجالس الذكر خير لكم وأنفس من مجالس لا فائدة فيها، فإن العلم خير من المال. العلم يحرسك وأنت تحرس المال؛ العلم يؤنسك في حياتك وفي قبرك ويوم نشرك، والمال يملأ قلبك همًّا وغمًّا ويكون وزراً على ظهرك؛ العلم يقرِّبك من رب العالمين، ويوصلك إلى أعلى علِّيين، ويكون نوراً لك تمشي به في الظلمات، وحرزاً لك يقيك الآفات والمهلكات؛ به تفرق بين الكفر والإيمان، وبه تميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وبه تخرج عن أوصاف الأرذال الجهال، وبه تعرف الحق والحرام والحلال وبه تعرف كيف تصلي وتصوم وتتعبد، وكيف تبيع وتشتري وتعامل وتنكح وتأكل وتشرب وتقوم وتقعد. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الزمر: ١٧ـ ١٨] بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣٧٥٧)، وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم (٢٧٨٧).

خطبة

في إصلاح التعليم

الحمدُ لله الذي أمرَنا أنْ نأتيَ البيوتَ منْ أبوابها، وأن نسيرَ في طريقِ مصالحِنا بتعَرُّف مناهجِها وأسبابِها، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله الذي أخرجَنا منْ بطون أُمَّهاتِنا لا نعلمُ من العلومِ قليلاً ولا كثيراً، وجعلَ لنا الأسماعَ والأبصارَ والأفئدةَ لنشكرَهُ بصَرْفِها إلى المعارفِ النافعةِ وكانَ ربُّك قديراً، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ الذي أُرسِلَ إلى جميعِ الثَّقَلينِ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى اللهِ بإذْنِه وسراجاً منيراً، اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وأصحابِهِ صلاةً وسلاماً كاملاً كثيراً.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتقُوا اللَّهَ بمعرفةِ الخيرِ واتِّباعِهِ، ومعْرفَةِ الشرِّ وتركِهِ واجتنابِه، واعلمُوا أنَّ العِلمَ هو الأساس الذي يسْتَقيمُ عليه البنيانُ، وبهِ الصَّلاحُ والفسادُ والكمالُ والنقصانُ، فليكن تأسيسُكم على علوم نافعة صحيحة، ومعارفَ قويَّة صادقة رجيحةٍ، فالعلومُ النافعةُ كلها تنقسمُ إلى مقاصدَ ووسائل، فالمقاصدُ هي الأصولُ المُصلِحةُ للعقائدِ والأخلاقِ والفضائِل، وهي العلومُ الدينيَّةُ التي بيَّنَها الرسولُ وحثَّ عليها، وهي التي لا تنفَعُ العلومُ كلها إلا إذا بنيتْ عليها، فوجِّهُوا رحمَكُم اللَّهُ وجوهكُم ووجوهَ المتعلِّمِينَ إلى علومِ الدينِ، واغرِسُوا هذا الغراسَ الجميلَ الباقيَ في أذهان الناشئينَ، فبذلكَ تصلحُ الأحوالُ، وتزكُو الأعمالُ، وبذلكَ يتمُّ النجحُ في الحالِ والمآلِ، وبذلكَ تصلُحُ العقائدُ والأخلاقُ، وبهِ يسيرُ التعليمُ إلى كلِّ خيرٍ وينساقُ، ولا يتمُّ ذلكَ إلاَّ بتخيُّرِ الأساتذةِ الفضلاء النَّاصِحينَ، وملاحَظَتِهِم التامَّةِ لأخلاق المُتَعَلِّمين، وأنْ يعلَّقَ النجاحُ والشهاداتُ الراقيةُ لمنْ جمَعَ بينَ العِلمِ والدِّينِ، فإنَّ العلمَ الخاليَ من الدِّين لا يزكي صاحِبَهُ وإنما هو صنعةٌ مِنَ الصناعات، ولا بدَّ أنْ يهبِطَ بأصحابِهِ إلى أسفَلِ الدَّركاتِ، أما رأيتُمْ حالةَ المدارِسِ المنحرفةِ حينَ أُهمِلَ فيها تعليمُ الدِّين كيفَ انساقَ أهلُها إلى الشرِّ والإلحاد. وكيفَ كانَ الكِبَرُ ملأ قلوبَ

أهلِها وأعرضُوا عنْ ربِّ العبادِ. . . فالعلومِ العصريَّةُ إذا لم تُبْنَ على الدينِ شرُّها طويلٌ. وإذا بُنِيَت على الدين أينعتْ بكلِّ ثمرة جميلةٍ وعمل جليلٍ. لقد افترى منْ زعمَ أنَّ العُلومَ تتقوَّمُ بغيرِ الدين. ولقدْ خابَ منْ توسَّلَ بعلومِ المادَّةِ المحضَةِ وخسِرَ الخسرانَ المبينَ. أما ترونَ الماديِّينَ كيفَ انحلَّتْ منهمُ الأخلاقُ الجميلةُ، وحصَلوا على كلِّ خصْلةٍ رذيلة؟ أما ترونَهُمْ يسْعَونَ خلْفَ أغراضِ النفوسِ وخسيسِ الشَّهواتِ ؟ أما تشاهدون أحوالَهُم فوضى قدْ مرجَتْ فيهمُ المعنويَّاتُ والصِّفات؟ أما ترونَهُمْ حينَ عرفُوا شيئاً من علومِ الطَّبيعة أُعجبُوا بأنفُسِهِم فهُمْ مُستكبرون. وحينَ جاءتْهُمْ علومُ الرُّسُلِ احتقروها وحاقَ بهِمْ ما كانوا بهِ يستهزئون. فنعوذُ بالله من علم لا ينفعُ ونفسٍ لا تشبَعُ ودعاءٍ لا يجابُ ويشفعُ. قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٩].

لقد أرشدنا ربُّنا إلى الطَّريقَةِ المثلى في تعليمِ المتعلِّمين، وأنْ نسْلُكَ أقربَ طريقٍ يوصِلُ المعارفَ إلى أذهانِ المشتغلين، فلا نزحمها بكثرةِ الفُنونِ فإنَّ الأذهانَ لا تتحَمَّلُها، ولا تُلقي عليها منَ المسائِلِ ما لا تُطيقُها ولا تحفظُها، بلْ تلقي على كلِّ أحد ما يتحمَّلُهُ ذهنُهُ وما يشتاقُ إليهِ، ونتعاهَدُهُ بالدَّرسِ والإعادةِ وكثرةِ المرور عليه، فالقليلُ الثَّابتُ الراسخُ البنيانِ، خيرٌ من الكثير الذي هو عرضةٌ للزَّوالِ والنِّسيان، فتزاحُمُ العلومِ يضيعُ بَعْضُها بعضاً وتوجِبُ الكسلَ والملَلَ، وذلك من أعظمِ الأضرارِ والإخلالِ، وشدَّة الخللِ، فكمْ منْ تلميذٍ على هذا الوصْف مكث المدةَ الطَّويلةَ بغيْر معرفةٍ صحيحةٍ ونجاحٍ، وكمْ منْ تلميذٍ سلكَ الطريقَ النافعةَ ففاز بكلِّ خيرٍ وفلاح، فكما أنَّ القُوى لا تُكلَّفُ من الأعمال والأشغال إلاَّ ما تطيقُ وتستطيعُ، فكيفَ بالأذهانِ الصغيرةِ إذا زُحِمَتْ بما لا طاقةَ لها بهِ وذلكَ عبءٌ ثقيلٌ مريعٌ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [سورة آل عمران: ١٨٧].

خطبة

في الحث على العلم

الحمدِ للَّهِ الذي رفعَ من أرادَ به خيراً بالْعلم والإيمان، وخذلَ المعرضينَ عن الهُدى وعرّضَهُمْ لكلِّ هلاك وهوانٍ، وأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ الكريمُ المنَّانُ، وأشهدُ أن محمَّداً عبدُهُ ورسولُه الذي كمَّل اللَّهُ لهُ الفضائلَ والحُسن والإحسان، اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِهِ والتابعينَ لهُمْ مدى الزَّمانِ.

أما بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقُوا الله تعالى واعلمُوا أنَّ التقوى لا تتمّ لكمْ إلا بمعرفةِ ما يُتَّقى من الكفْر والفسوق والعصيان، ولا تستقيمُ لكمْ إلاَّ بقيامكم بأصولِ الإيمانِ وشرائع الإسلام وحقائقِ الإحسانِ، فطلبُ العلمِ إذاً مِنْ أفرضِ الفرائض وأوجَب الواجباتِ، فإنَّ عليه المدارَ في قيامِ الطاعات وترك المخالفاتِ، فمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بهِ خيراً يُفقِّهْهُ في الدين. ومنْ لمْ يُرِدْ بهِ خيراً أعرضَ عن طلبِ العلمِ وسماعِه فكان من الهالكينَ الجاهلينَ، فما بالُكم مُعْرِضينَ عن العلم وهو من الفروض الواجبة، وما لكُمْ مُقْبلينَ على ما يضُرُّكم تاركينَ ما يَنْفَعُكمْ راضين بالصفقة الخاسرة، قال ﷺ: **«إذا مرَرْتُمْ برياضِ الجنَّةِ فارتَعُوا»** قالوا: «وما رياضُ الجنَّة؟» قالَ: **«حلقُ الذكر»**[1]، فهذهِ الرِّياضُ البهيجةُ فيها من العلوم كلُّ زوجٍ كريم، فيها يُعرَفُ اللَّهُ ويهتَدى إلى الصِّراطِ المستقيم، وفيها يعرفُ الحلالُ من الحرامِ والصلاحُ من الفسادِ، وفيها يعرفُ سبيلُ الغيِّ والضلالِ وسبيلُ الهُدى والرشاد، فكيفَ تعتاضُونَ عنها مجالِسَ اللَّهْوِ وتضييع الأوقاتِ أو مجالسَ الشرِّ والفساد، أَمَا إنَّ طلبَ العلمِ قربةٌ وثوابٌ عندَ ربِّ العالمينَ، والإعراضُ عنهُ شرٌّ وخسرانٌ مبينٌ، فيا أيها المُعرضُون عنْ طلب العلمِ، ماذا عُذْركم عند اللهِ وأنتُمْ في العافية تتمتعونَ؟ وماذا يمنَعُكم منْهُ وأنتم في أرزاق ربِّكم ترتعون؟ أترضَونَ لأنفُسِكم أن تكونوا كالبهائمِ السائمةِ؟ أتختارُونَ الهَوى

---

(١) تقدم تخريجه قبل قليل.

على الهُدى والقلوبُ منكم ساهيةٌ هائمةٌ؟ أتسلكُون طُرُقَ الجَهْل وهي الطرقُ الواهيةُ، وتَدَعُون سبُل الهُدى وهي السُّبُلُ الواضحةُ النافعةُ، أترضى إذا قيلَ لك: مَنْ ربُّك، وما دينُك، ومن نبِيُّك؟ لمْ تحِرِ الجواب، وإذا قيلَ: كيف تُصلي وتتعَبَّدُ؟ أجَبْتَ بغيرِ الصواب، وكيفَ تبيعُ وتشتري وتعامِلُ ولمْ تعرِف الحلالَ من الحرام؟ أَمَا واللهِ إنَّها حالةٌ لا يرضاها إلاَّ أشباهُ الأنعامِ، فكونُوا رحِمَكُمُ الله متعلِّمينَ، فإنْ لمْ تفعلوا فاحضرُوا مجالسَ العلمِ مستمعينَ ومستفيدين، واسألوا أهلَ العِلم مسترشدين متبصرين، فإن لم تفعلوا وأعرضتم عن العلم بالكلية فقد هلكتم وكنتم من الخاسرين، أما علمتم أن الاشتغال بالعلم منْ أجَلِّ العبادات؟ وأفضَل الطاعاتِ والقرباتِ؟ وموجبٌ لرضى ربِّ الأرضِ والسمواتِ؟ ومجلسُ علم تجلِسُهُ خيرٌ لكَ مِنَ الدُّنيا وما فيها؟ وفائدةٌ تستفيدُها وتنتفعُ بها لا شيءٌ يزنُها ويساويها؟ فاتَّقُوا الله، عبادَ الله، واشتغِلوا بما خُلِقْتُمْ لهُ مِنْ معرفَةِ اللهِ وعبادتِهِ، وسَلُوا ربَّكُمْ أنْ يمُدَّكُمْ بتوفيقِهِ ولُطْفِهِ وإعانتِهِ.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الزمر: ٩]، بارك الله لي ولكم في القرآن العظيمِ.

خطبة

في الفرق بين العلم النافع والعلم الضارّ

الحمد لله الذي جعل العلومَ النافعةَ رافعةً لأهلها إلى أعلى الدرجات، كما أن العلومَ الضارَّةَ هابطةٌ بهم إلى أسفل الدركات.

وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحدَه، لا شريك له، كامل الأسماء والصفات.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه أشرف المخلوقات.

اللهم صلِّ وسلِّم على محمد وعلى آله وأصحابه أُولي الفضائل والكرامات.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله وتعلَّموا ما ينفعكم في الدنيا والدين. قال

تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر: ٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ [سورة فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤].

ومن دعاء النبي ﷺ: **«اللهم إني أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لا ينفع»**[1]. قسم ﷺ العلم إلى نوعين: نوع نافع لأهله في الدنيا والدين. ونوع ضارٌ لحامليه وهابط بهم أسفل سافلين. إنما تعرف العلوم والمعارف بآثارها، وبما يترتب عليها من منافعها أو مضارّها، للعلوم النافعة والضارّة علامات سأبديها:

العلوم النافعة تطهر القلوب وتزكّيها، وتُكَمِّل الأخلاق الفاضلة وتنمّيها، تدعو أهلها إلى الإيمان والرغبة في الخيرات، وتحذّرهم من الشرور ومصارع الهلكات؛ تدعو إلى الإخلاص وخفض الجناح للمؤمنين، وتحمل على التواضع ومحبة الخير لكافة المسلمين.

أما العلوم الضارّة: فإنها تدنّس النفوس وتُوسِيها، وتميت الأخلاق الفاضلة ولا تحييها، تحمل أهلها على الكِبْرِ والعُجْبِ والغرور، وتوجب الأَشَرَ والبَطَرَ وأنواعَ الشرور، صاحبها معجب بنفسه وبعقله الناقص المهين، مضرٌّ لأهل الفضل والخير من المؤمنين، مهدر لحق من له حق وفضل على غيره وعليه، وربما احتقر من سفاهته وسقوط أخلاقه والديه، تعرف هذ النوع من الناس بسيماهم وأحوالهم، وتستدل على سفاهتهم بما يبدو من أفعالهم وأقوالهم.

إذا أبدى غيرهم رأياً سديداً، قالوا: هذا عقل عتيق سقيم، وقد أعجبوا بأقوالهم الفاسدة الداعية لكل خلق ذميم. أما علموا أن العقول لا تزكو ولا تكمل إلا بالوحي والقرآن؟ ولا تكون عقولاً نافعة حتى تغتذي باليقين والإيمان؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [سورة طه: ٥٤ و١٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٦٨٤٤).

وهم أهل العقول الوافية والأخلاق الزاكية، محال أن توجد عقول تقارب عقل النبي ﷺ الذي تستمد منه العقول والآراء، أو عقول أصحابه الكُمَّل النجباء، أو عقول السلف والأئمة الصالحين. الذين أصلحوا بعقولهم ودينهم الدنيا والدين. حَسْبُ العقول الكاملة أن تستمد من عقل النبي ﷺ وآرائه، وتستنير بنور هديه وتوجيهه وإرشاده.

كيف تستقيم العقول إذا أعرضت عن الرشد والهدى والنور، وأقبلت على شهوات الغي والباطل والغرور؟

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة غافر: ٨٣].

خطبة

في الحث على لزوم الصراط المستقيم

الحمد لله الذي نَوّر بهدايته قلوب العارفين، وأقامَ على الصِّراط المستقيم أقدامَ السالكين.

ونشهد أن لا إله إلاَّ الله وحدَه لا شريكَ له، فاياه نعبدُ وإياهُ نَستعين.

ونشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، سيِّدُ المُرسَلين، وإمامُ المتَّقين، وقائدُ المهتدين.

اللهم صلِّ وسلِّمْ على محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله بلزوم طاعتِهِ وطاعةِ رسولِه، وذلك بتصديقِ الخبرِ وامتثالِ الأمْرِ واجتنابِ الزَّجْرِ، فمن فعل ذلك: فقد ٱستقامَ على الصِّراطِ المستقيم، وهو الطريق المعتدل الموصل إلى جنات النعيم. فقد أمركم الله بسلوكِ هذا الصِّراطِ والاستقامة عليه. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣]، وأمَرَكُم أنْ تسألُوه وتَتَضَرّعوا إليه في كلِّ رَكعةٍ من ركعاتِ الصلاة أنْ يهديَكُم إليه. وفي

الحديث القدسي «**يا عبادي، كُلُّكم ضالٌّ إلاَّ من هديتُهُ فاستهدونِ أَهْدِكم**»[1] فكلُّ أحدٍ مضطرٌ إلى هدايةِ ربِّه في جميع أحوالِهِ بأن يُسَدِّدَهُ في أخلاقه وأقواله وأفعاله. قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٨]، ومن يتبع نبيه فهو الراشد المقتدي.

ومن دعاء النبيّ ﷺ: «**اللهم اهدني لأحسنِ الأعمالِ والأخلاقِ، لا يهدي لأحسنها إلاّ أنتَ، واصرفْ عنّي سيِّء الأعمالِ والأخلاقِ، لا يصرف عني سيِّئَها إلاّ أنت**»[2]. وقد دعا بأربع كلمات تَجْمعُ للعبد خيرَ الدين والدنيا «**اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الهُدَى والتُّقى والعَفافَ والغِنَى**»[3]. فالهداية التامة هي الهداية للعلم النافع والعمل الصالح، وهو الهدى ودين الحق. فمن عرف الحقَّ فاتَّبَعَهُ وعَرَفَ الباطلَ فاجتَنَبهُ فَقَدْ هُدِي إلى صِراط مستقيم، ومن قام بحقوق اللهِ وحقوقِ عبادِهِ فهو المهتدي إلى جنات النعيم. ولهذا لمّا ذكر الله ما أَمَرَ به وما نَهَى عنه من الشرائع الكبار في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأنعام: ١٥١] فعدَّدها وقال في آخرها: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣].

من لَزِمَ هذا الصراطَ قَبِلَ اللَّهُ منه اليسيرَ مِنَ العملِ، وغَفَرَ لَهُ الكثيرَ مِنَ الزَّللِ، وجعلَ له من كلِّ هَمٍّ فَرَجاً، ومن كلِّ ضيقٍ مخرجاً، ومن كل بلاء عافيةً، ورَزَقَهُ من حيثُ لا يَحْتَسِبُ، ومَرَّ على جِسرِ جهنَّم كلمح البَصرِ، وهَدِي إلى الطيِّبِ مِنَ القولِ وهُدِي إلى صراط الحميد، وإذا تبوَّأ أهلُ الجنةِ منازِلهم قالوا مغتبطين بهذه الهداية ومُثْنِينَ على ربهم بالتوفيق بها:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥/ ٤٣٩) برقم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٦٨٤٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (١٨٠٩) وأبو داود في سننه كتاب الصلاة/ باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء حديث رقم (٧٦٠ و١٦٧) والترمذي في سننه كتاب الدعوات/ باب منه حديث رقم (١٢٤٣، ٣٤٢٣) وغيرهم.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٣].

خطبة

في قوله ﷺ: «احرص على ما ينفعك»

الحمْدُ للَّهِ الذي جَعَلَ الشريعَةَ محتويةً على الهدى والشِّفا والنُّورِ. وأوْصَلَ مَنِ استرْشدَ بكلامِهِ وكلامِ رسُولهِ إلى كُلِّ خيرٍ وسُرور. أحمدُهُ على أوصافِه الكامِلةِ وأسمائِه الحُسْنى. وأشكرُه على آلائِهِ الباطِنةِ والظَّاهرةِ وما لهُ من عمِيم النعمى. وأشْهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في أُلوهِيَّتِهِ وربُوبيَّتِهِ. ولاَ نَديدَ لهُ في عظمَتِهِ وكبريائِه ومجدِه وأحديَّتِهِ. وأشْهدُ أن محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ خيرُ بريَّتِهِ. اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارك على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِه القائمينَ بحقوقِهِ ونُصرتِه.

أمَّا بعد: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا الله حَقَّ تقواهُ، وتمَسَّكوا بإرْشادِ نَبِّيهِ وهدْيهِ وهُداهُ، فقدْ قالَ ﷺ: **«احرصْ على ما يَنْفَعُكَ واستعِنْ بالله»**[1] فيا لهُما من كلمَتينِ عظيمَتين جمَعَ فيهما خيرَ الدُّنْيا والآخرةِ لمَنْ فهمهُما وعمِلَ بهما من العبَادِ، فأمَّا الحِرْصُ فهو الجدُّ في تحْصيلِ الأمورِ النَّافِعَةِ في المعاشِ والمعادِ، وذلك بالاجتهادِ في القيامِ بعبوديَّةِ الله التي خلقَ اللَّهُ المكلَّفِينَ لأجْلها، وبما يُعينُ عَلَى ذلك من كسبِ الحلالِ المساعدِ على أمرها، ولا يتمُّ ذلك إلاَّ بسُلوكِ طُرُقِها النَّافِعَةِ وأبوابها، ولا يحصلُ إلاَّ بقوَّةِ الاستعانة بالله والتَّوكُّلِ عليه لا على الأسبابِ بل على مُسبِّبِها، فلا يفوتُ أحداً الخيرُ إلاَّ بترك واحدٍ من هذه الأمورِ، إمَّا أنْ لا يحرص بَلْ يستولي عليهِ الكسلُ والفتورُ، أو يكونُ حريصاً على غيرِ الأمورِ النَّافعةِ أو لا يستعين بميسِّرِ الأمورِ، أعظمُ الأمور النافِعةِ أن تَتَعَلمَ ما يقيمُ دينكَ وعباداتكَ ومعاملاتكَ، وأن تؤدي الشرائِعَ الظَّاهرة والباطِنة مجتهداً في تكميلِ عباداتِكَ، قائماً بحقوقِ الخالِقِ وحقوقِ الخلْقِ، مستعيناً بربِّكَ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٦٤).

في طَلبِ الحلالِ من الرِّزق. فيا طُوبى لِمَنْ قوي توكُّله عَلَى ربِّهِ في تيسِير أمر دينِه ودنْياهُ، ويا سعادتَهُ إذا شاهدَ النَّجاحَ والفلاح عند تمامِ مسعَاهُ، إذا أرَدْتَ أنْ تختارَ عملاً نافعاً تصلحُ به دُنْياك، فاسلُكِ الطَّريقَ الموصِلَ إليه برفْقٍ واستعنِ بمولاكَ، فإنَّك إذا حقَّقْتَ التَّوكُلَ عليه سَهَّلَ لكَ الأمرَ ويسَّرَهُ وكفاكَ، وإنْ أُعْجِبْتَ بنفْسكَ ورأيكَ خذلكَ ووَكَلَكَ إلى ضَعْفِكَ فَوَهَتْ قُوَّتكَ وقُواك، فلو توكَّلتم على الله حقَّ توكلِهِ لَرَزَقَكُمْ كما يرزقُ الطيرَ: تغدو خماصاً وتروحُ بطاناً، ولكنَّ كثيراً منكمْ يُعْجَبُ بنَفْسِهِ فيرهِقُهُ وهْناً وهواناً وخذلاناً، واعتصموا بالله هو مولاكُمْ فنِعْمَ المولى ونِعْمَ النَّصيرُ.

* * *

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

اللآلىء والدرر السعدية

(الإيمـــان)

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠ـ ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

فإن أعظم نعمة أنعمها الله تبارك وتعالى علينا، وإن أجل وأغلى منة تفضل الله بها علينا، نعمة الإيمان، نعمة التوفيق لطاعة الرحمن، فالإيمان بالله نعمة عظيمة من نعم الله تعالى على هذه البشرية، يهبها من يشاء، ويصرفها عمن يشاء، يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [سورة الشورى: ٥٢].

فهو نعمة تزكي العمر وتبارك الحياة، وهو نور يقذفه الله تعالى في قلب عبده المؤمن فيمتلىء قلبه بحب الله، ويتعلق قلبه بربه سبحانه، فيرتفع عندها المؤمن عن التعلق بهذه الدنيا الغرارة، وبزهرتها الفانية.

وفي الإيمان بالله يجد الإنسان الحياة الحقيقية الطيبة، ويجد السعادة في الدنيا والآخرة، فلا طريق يوصل إلى السعادة في هذه الدنيا وفي الآخرة، إلا طريق الإيمان، فهو سبيل أهل الجنة، وهو رياض الموفقين، وعنوان قلوبهم، وصفاء أرواحهم، ونور وجوههم. فهو النعمة والله التي لا تعدلها نعمة، لأنه يقرب العبد من ربه، ويحل عليه رضوانه سبحانه، وينال به سلعة الله الغالية، ألا وهي الجنة، فطوبى لمن سلك طريق الإيمان والتزم بذلك حتى الممات.

وفي هذا الكتاب لآلىء ودرر، كتبها وقيدها شيخ لطالما أفنى حياته في الدعوة إلى الله تعالى، وتعليم الناس أمور دينهم، وتبصيرهم بمنهج ربهم ألا وهو شيخنا الفاضل العلامة: عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله رحمة واسعة وأعلى درجته في الجنان.

فقد تحدث رحمه الله عن الإيمان وثمراته وطريقه، وصفات المؤمنين وأحوالهم، في كثير من المواضع في كتبه رحمه الله تعالى.

ولما رأيت أن في كلامه دراً ولآلىء وجواهر، أحببت أن أجمع ما تناثر من كلام الشيخ حول الإيمان وصفات المؤمنين، وأجعل ذلك في كتاب يسهل تناوله والانتفاع به بإذن الله تعالى وسميته:

اللآلىء والدررالسعدية (الإيمان)

وقد قسمت الكتاب إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: الآيات الدالة على حقيقة الإيمان وصفات المؤمنين وتفسير شيخنا السعدي لها.

الفصل الثاني: الأحاديث الدالة على حقيقة الإيمان وصفات المؤمنين والتي قام بشرحها شيخنا السعدي رحمه الله.

الفصل الثالث: وفيه رسالة شيخنا السعدي رحمه الله والموسومة بـ التوضيح والبيان لشجرة الإيمان مع التعليق عليها.

الفصل الرابع: ويحتوي على فصول ومباحث ودرر من كلام شيخنا السعدي رحمه الله على الإيمان.

الفصل الخامس: خطب شيخنا السعدي رحمه الله عن الإيمان وصفات المؤمنين.

هذا وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني عملي هذا، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه، كما أسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، أن يرحم شيخنا السعدي رحمة واسعة، ويجزيه عنا وعن المسلمين خير الجزاء، ويعلي درجته في الجنان، ويغفر لمشايخنا وعلمائنا ـ الذين علمونا وأرشدونا لهذا الطريق المستقيم الذي نسأل الله تعالى أن يثبتنا عليه حتى الممات ـ وجميع المسلمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وكتب

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

الفصل الأول

الآيات الدالة على حقيقة الإيمان وصفات المؤمنين وتفسير شَيخنا السعدي لها

الآية الأولى:

قال الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة البقرة: ١٣٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

اعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح. وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها. فهي من الإيمان وأثر من آثاره فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر. وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسما لما في القلب من الإقرار والتصديق. والإسلام اسماً للأعمال الظاهرة. وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة.

فقوله تعالى: ﴿**قولوا**﴾ أي بألسنتكم، متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء فكما أن النطق باللسان، بدون اعتقاد القلب، نفاق وكفر. فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة وإن كان العبد يؤجر عليه إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان لكن فرق بين القول المجرد والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: ﴿**قولوا**﴾ إشارة إلى أن الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها إذ هي أصل الدين وأساسه. وفي قوله: ﴿**آمنا**﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل منسوباً إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعاً والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحداً، وعملهم متحداً، وفي ضمنه النهي عن الافتراق.

وفيه: أن المؤمنين كالجسد الواحد.

وفي قوله: ﴿**قولوا آمنّا بالله**﴾ إلخ، دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد بل على وجوب ذلك بخلاف قوله: (أنا مؤمن)

ونحوه فإنه لا يقال إلا مقروناً بالاستثناء بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس والشهادة على نفسه بالإيمان.

فقوله: ﴿آمنا لله﴾ أي أنه واجب الوجود واحد أحد متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص وعيب مستحق لإفراده بالعبادة كلها، وعدم الاشراك به من شيء منها، بوجه من الوجوه. ﴿وما أنزل علينا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ فيدخل فيه الإيمان بما تضمن كتاب الله وسنة رسوله من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلة، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الأمرية الشرعية، وأحكام الجزاء وغير ذلك.

﴿وما أنزل إلى إبراهيم﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء والإيمان بالأنبياء عموماً، وخصوصاً ما نص عليه في الآية، لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار. فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب الإيمان به مفصلاً.

وقوله: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ أي: بل نؤمن بهم كلهم. هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين. فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم. وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب. فإنهم يكفرون بغيره. فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضهما يؤمنون به وبعضهما يكفرون به، ينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا، أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمداً ﷺ. فإذا كذبوا محمداً، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به فيكون كفراً برسولهم.

وفي قوله: ﴿وما أوتي النبيون من ربهم﴾ دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع. وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿من ربهم﴾ إشارة إلى إنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل عليهم الكتب ويرسل إليهم الرسل فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدى ولا هملا... ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي خاضعون لعظمته منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا مخلصون له العبادة.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٩٨ ـ ١٠٠)]

الآية الثانية:

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤ـ ٢٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً﴾ وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وفروعها. ﴿كشجرة طيبة﴾ وهي النخلة ﴿أصلها ثابت﴾ في الأرض ﴿وفرعها﴾ منتشر ﴿في السماء﴾ وهي كثيرة النفع دائماً. ﴿تؤتي أكلها﴾ أي ثمرتها ﴿كل حين بإذن ربها﴾ فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علماً واعتقاداً وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية والآداب الحسنة في السماء دائماً، يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، ما ينتفع به المؤمن وينتفع غيره.

﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه. فإن في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان، ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته وحسن تعليمه، فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها في قلب المؤمن.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٧)]

وقال رحمه الله: مثّل الله كلمة التوحيد والإيمان كمثل هذه الشجرة الطيبة الموصوفة بأن لها أصولاً وفروعاً وثماراً فأصول هذه الكلمة شهادة التوحيد

والإيمان بأصول الدين كلها، وفروعها القيام بشرائع الإسلام الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق الخلق، وثمارها ما يتحلى به صاحبها من كل خلق جميل وهدى حسن وسمت صالح وأوصاف عالية جليلة، وثمار ذلك من الثواب العاجل والآجل، فمتى تمت هذه الشجرة كملت فروعها وتمت ثمارها ولذ جناها، ومتى نقصت أو ضعفت، تبعتها هذه الأمور، فضعفت الفروع، وقلت الثمار أو عدمت، فحقيق بكلمة هذه حالها أن يبلغ العبد من معرفتها والعمل بها غاية مقدوره لتوقف سعادته وفلاحه عليها. والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ١١٤)]

الآية الثالثة:

وقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[1] وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [سورة يونس: ٦٢ـ ٦٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يخبر الله تعالى عن أوليائه وأحبائه ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم.

فقال: **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم﴾** فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال. **﴿ولا هم يحزنون﴾** على ما أسلفوا لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته فلا ينفع ظاهر لا باطن له، وإن حقن به الدماء، وعصم به المال والذرية، ولا يجزىء باطن له إلاّ إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك.

فتخلف العمل ظاهراً مع عدم المانع دليل على فساد الباطن، وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل على نقصه، وقوته دليل على قوته.

فالإيمان قلب الإسلام ولبه واليقين قلب الإيمان ولبه، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول، وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول.

[فوائد الفوائد (ص ٢٨٣)]

وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ثبت لهم الأمن والسعادة والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿**الذين آمنوا**﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فكل من كان مؤمناً تقيّاً كان لله تعالى ولياً لذلك كانت ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ أما البشارة في الدنيا فهي: الثناء الحسن والمودة في قلوب المؤمنين والرؤيا الصالحة وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق وصرفه عن مساوىء الأخلاق وأما في الآخرة فأولها البشارة عند قبض أرواحهم كما قال تعالى: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم والنجاة من العذاب الأليم، ﴿**لا تبديل لكلمات الله**﴾ بل ما وعد الله فهو حق لا يمكن تغييره ولا تبديله لأنه الصادق من قبله الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه ﴿**ذلك هو الفوز العظيم**﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور والظفر بكل مطلوب محبوب وحصر الفوز فيه لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب رتبه الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك فلم يقيّده.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٢٨)]

الآية الرابعة:

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ[1] ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

---

(١) قال شيخنا السعدي رحمه الله: الإيمان هو التصديق الجازم بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٨٠)]

وقال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله: الإيمان هو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول للأخبار والإذعان للأحكام، هذا الإيمان إما مجرد أن تؤمن بأن الله موجود، فهذا ليس =

وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥ـ ٢٨٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

ثبت عنه ﷺ أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته كفتاه، أي من جميع الشرور، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني الجميلة فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان بجميع أصوله في قوله: **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾** الآية، وأخبر في هذه الآية أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين آمنوا بهذه الأصول العظيمة وبجميع الرسل وجميع الكتب ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض وكفر ببعض، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة، وفي قرن المؤمنين بالرسول ﷺ والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد شرف عظيم للمؤمنين، وفيه أنه ﷺ مشارك للأمة في الخطاب الشرعي له وقيامه التام به وأنه فاق المؤمنين بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: **﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾** هذا التزام من المؤمنين، عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد ومضمون ذلك تضرعهما إلى الله في طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات وما ارتكبوه من المحرمات وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ

= ليس بإيمان حتى يكون هذا الإيمان مستلزماً للقبول في الأخبار والإذعان في الأحكام وإلاّ فليس إيماناً.

[شرح العقيدة الواسطية (١/ ٥٥)]

فقال: (قد فعلت)، فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعاً ومن أفرادهم إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذة في الخطأ والنسيان وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق والآصار والأغلال ما حمله على من قبلهم ولم يحملهم فوق طاقتهم وقد غفر لهم ورحمهم ونصرهم على القوم الكافرين فنسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته وبما منّ به علينا من التزام دينه أن يحقق لنا ذلك، وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه وأن يصلح أحوال المؤمنين.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٢٦)]

الآية الخامسة:

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [سورة الأنفال: ٢- ٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿إنما المؤمنون﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان.

﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي خافت ورهبت فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب **﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾** ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجعلونه ويتذكرون ما كانوا نسوه. أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات وازدجاراً عن المعاصي وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وعلى ربهم﴾ وحده لا شريك له **﴿يتوكلون﴾** أي يعتمدون في قلوبهم

على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك، والتوكل هو الحال للأعمال كلها فلا توجد ولا تكمل إلا به.

﴿**الذين يقيمون الصلاة**﴾ من فرائض ونوافل بأعمالها الظاهرة والباطنة كحضور القلب فيها الذي هو روح الصلاة ولبها.

﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات والنفقة على الزوجات والأقارب وما ملكت أيمانهم والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير ﴿**أولئك**﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿**هم المؤمنون حقاً**﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان وبين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده. وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها.

وفيها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال: ﴿**لهم درجات عند ربهم**﴾ أي عالية بحسب علو أعمالهم ﴿**ومغفرة**﴾ لذنوبهم ﴿**ورزق كريم**﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم من الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٨٨)]

الآية السادسة:

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة التوبة: ٧١- ٧٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

لما ذكر سبحانه أن المنافقين بعضهم من بعض، ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين فقال: **﴿والمؤمنون والمؤمنات﴾** أي ذكورهم وإناثهم **﴿بعضهم أولياء بعض﴾** في المحبة والموالاة والانتماء والنصرة. **﴿يأمرون بالمعروف﴾** وهو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم **﴿وينهون عن المنكر﴾** وهو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة والأعمال الخبيثة والأخلاق الرذيلة. **﴿ويطيعون الله ورسوله﴾** أي لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام **﴿أولئك سيرحمهم الله﴾** أي يدخلهم في رحمته ويشملهم بإحسانه.

﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي قوي قاهر ومع قوته فهو حكيم يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به، ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال: **﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها ـ الأنهار الغزيرة، المروية للبساتين الأنيقة التي لا يعلم ما فيها من الخيرات إلا الله تعالى **﴿خالدين فيها﴾** لا يبغون عنها حولا **﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾** قد زخرفت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفاً في غاية الصفاء والحسن، ويرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، فهذه المساكن الأنيقة التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس وتنزع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح لأنها في جنات عدن، أي: إقامة لا يظعنون عنها ولا يتحولون منها. **﴿ورضوان من الله﴾** يحله على أهل الجنة **﴿أكبر﴾** مما هم فيه من النعيم فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم ولأن الغاية التي أمها العابدون والنهاية التي سعى نحوها المحبون. فرضا رب الأرض والسموات أكبر من نعيم الجنات **﴿ذلك هو**

الفوز العظيم﴾ حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٦٥)]

الآية السابعة:

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [سورة يونس: ٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة المشتملة على أعمال القلوب، أعمال الجوارح على وجه الإخلاص والمتابعة ﴿**يهديهم ربهم بإيمانهم**﴾ أي بسبب ما معهم من الإيمان يثيبهم الله أعظم الثواب وهو: الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية ويهديهم للنظر في آياته ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿**تجري من تحتهم الأنهار**﴾ الجارية على الدوام ﴿**في جنات النعيم**﴾ أضافها الله إلى النعيم لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والحبور ورؤية الرحمن وسماع كلامه والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان والتمتع بالاجتماع بهم وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب والمناكح ونحو ذلك مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٠٥)]

الآية الثامنة:

ويقول الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ

وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة المؤمنين: ١ـ ١١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

هذا تنويه من الله بذكر عباده المؤمنين وذكر فلاحهم وسعادتهم وبأي شيء وصلوا إلى ذلك وفي ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم والترغيب فيها.

فليَزِنِ العبد نفسه وغيره على هذه الآيات يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصاً، كثرة وقلة.

فقوله: **﴿قد أفلح المؤمنون﴾** أي قد فازوا وسعدوا ونجحوا وأدركوا كل ما يروم المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم **﴿في صلاتهم خاشعون﴾** والخشوع في الصلاة هو: حضور القلب بين يدي الله تعالى مستحضراً لقربه فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبا بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة والمقصود منها وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزية مثاباً عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

﴿والذين هم عن اللغو﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة **﴿معرضون﴾** رغبة عنه وتنزيهاً لأنفسهم وترفعاً عنه **﴿وإذا مروا باللغو مرّوا كراماً﴾**، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه ـ إلا في الخير ـ كان مالكاً لأمره كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: **«ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟»** قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: **«كف عليك هذا»**[1]

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢/ ١٠٣)، وابن ماجه في سننه برقم (٣٩٧٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الإرواء برقم (٤١٣).

فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات.

﴿**والذين هم للزكاة فاعلون**﴾ أي مؤدون لزكاة أموالهم على اختلاف أجناس الأموال مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوىء الأعمال التي تزكو النفوس بتركها وتجَنُّبِهَا فأحسنوا في عبادة الخالق في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿**والذين هم لفروجهم حافظون**﴾ عن الزنا ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك كالنظر واللمس ونحوها فحفظوا فروجهم عن كل أحد ﴿**إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم**﴾ من الإماء المملوكات ﴿**فإنهم غير ملومين**﴾ بقربهما لأن الله تعالى أحلهما، ﴿**فمن ابتغى وراء ذلك**﴾ غير الزوجة والسرية ﴿**فأولئك هم العادون**﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرّمه، المتجرئون على محارم الله.

وعموم هذه الآية يدل على تحريم المتعة فإنها ليست زوجة حقيقية مقصوداً بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك.

ويدل قوله: ﴿**أو ما ملكت أيمانهم**﴾ أنه يشترط في حل المملوكة أن تكون كلها في ملكه فلو كان له بعضها لم تحل لأنها ليست مما ملكت يمينه بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون**﴾ أي مراعون لها ضابطون حافظون حريصون على القيام بها وتنفيذها وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله والتي هي حق للعباد قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها. وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما فعلى العبد مراعاة الأمرين وأداء الأمانتين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وكذلك العهد يشمل العهد الذي بينهم وبين العباد وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها.

﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون**﴾ أي يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها فمدحهم بالخشوع في الصلاة، وبالمحافظة عليها لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع أو على الخشوع من دون محافظة عليها فإنه مذموم ناقص.

﴿**أولئك**﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿**هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس**﴾، الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم في مراتبهم كل بحسب حاله.

﴿**هم فيها خالدون**﴾ لا يظعنون عنها، ولا يبغون عنها حِوَلاً، لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه، من غير مكدر ولا منغص.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٤٥)]

الآية التاسعة:

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحجرات: ١٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**إنما المؤمنون**﴾ أي على الحقيقة ﴿**الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله**﴾ أي: من جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار دل ذلك على الإيمان التام في قلبه. لأن من جاهد غيره على الإسلام والإيمان والقيام بشرائعه فجهاده لنفسه على ذلك من باب أولى وأحرى، ولأن من لم يقو على الجهاد فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب أي الشك لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به الذي لا يعتريه الشك بوجه من الوجوه. وقوله: ﴿**أولئك هم الصادقون**﴾ أي الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى عظيمة في كل شيء يحتاج صاحبه إلى حجة

وبرهان وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذي هو مدار السعادة والفوز الأبدي والفلاح السرمدي. فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك علم أنه ليس بصادق في دعواه وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/٧٦)]

الآية العاشرة:

وقال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: **﴿إن الله لا يَسْتَحْيِي أن يضرب مثلاً ما﴾** أي أي مثل كان **﴿بعوضة فما فوقها﴾** لاشتمال الأمثال على الحكمة وإيضاح الحق، والله لا يستحي من الحق، وكأن في هذا جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة واعترض على الله في ذلك فليس في ذلك محل اعتراض بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر ولهذا قال: **﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾** فيفهمونها ويتفكرون فيها إن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثاً، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابغة.

﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ فيعترضون ويتحيرون فيزدادون كفراً إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيماناً إلى إيمانهم ولهذا قال: **﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾** فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية.

[تيسير الكريم الرحمن (١/٤٦)]

الآية الحادية عشر:

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحديد: ١٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى ـ مبيناً لفضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامة ـ **﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾** أي إذا كان يوم القيامة وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة ونصب الصراط على متن جهنم فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم فيمشون بإيمانهم، ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة فيقال: **﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾** فلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب ونجوا من كل شر ومرهوب.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٨٧)]

الآية الثانية عشر:

وقال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الحج: ٣٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

هذا إخبار ووعد وبشارة من الله للذين آمنوا أن الله يدفع عنهم كل مكروه ويدفع عنهم ـ بسبب إيمانهم ـ كل شر من شرور الكفار وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون فيخفف عنهم غاية التخفيف كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه فمستقل ومستكثر.

﴿**إن الله لا يحب كل خوان**﴾ أي خائن في أمانته التي حمله الله إياها فيبخس حقوق الله عليه ويخونها ويخون الخلق ﴿**كفور**﴾ لنعم الله يوالي الله عليه الإحسان ويتولى منه الكفر والعصيان فهذا لا يحبه الله بل يبغضه ويمقته وسيجازيه على كفره وخيانته. ومفهوم الآية أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته شكور لمولاه.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٢٣)]

الآية الثالثة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [سورة الحديد: ١٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**والذين آمنوا بالله ورسله**﴾ والإيمان عند أهل السنة ما دل عليه الكتاب والسنة وهو قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا هذه الأمور هم الصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٨)]

الآية الرابعة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحشر: ١٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**والذين جاءوا من بعدهم**﴾ أي من بعد المهاجرين والأنصار ﴿**يقولون**﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين ﴿**ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان**﴾ وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين من السابقين من الصحابة ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم

ببعض ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض وأن يحب بعضهم بعضاً. ولهذا ذكر الله في هذا الدعاء نَفْيَ الغل عن القلب الشامل لقليله وكثيره الذي إذا انتفى ثبت ضده وهي المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين فوصف الله مَنْ بعد الصحابة بالإيمان لأن قولهم: ﴿**سبقونا بالإيمان**﴾ دليل على المشاركة فيه وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله وهم أهل السنة والجماعة الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً حيّاً وميتاً.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٩)]

الآية الخامسة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل: ٩٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن**﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها بل لا تسمى أعمالاً صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مقتضى لها، فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات. فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿**فلنحيينه حياة طيبة**﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً من حيث لا يحتسب ﴿**ولنجزينهم**﴾ في الآخرة. ﴿**أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ من أصناف اللذات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيؤتيه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٨٣)]

الآية السادسة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ﴾ [سورة الشورى: ٢٢- ٢٣]

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم بالله وبكتبه ورسله وجاءوا به **﴿وعملوا الصالحات﴾** يشمل فيه كل عمل صالح من أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات فهؤلاء **﴿في روضات الجنات﴾** أي الروضات المضافة إلى الجنات والمضاف يكون بحسب المضاف إليه فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقه وما فيها من الأنهار المتدفقة، والغياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب. رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسناً وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقاً إلى لذاتها ووداداً **﴿لهم ما يشاءون﴾** فيها أي في الجنات **﴿عند ربهم﴾** فمهما أرادوا فهو حاصل ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر **﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾** وهل فضل أكبر من الفوز برضا الله تعالى والتنعم بقربه في دار كرامته.

﴿ذلك الذي يبشر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي هذه البشارة العظيمة التي هي أكبر البشائر على الإطلاق بشر بها الرحيم الرحمن على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٢١)]

الآية السابعة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة النور: ٥١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي ﴿**إنما كان قول المؤمنين**﴾ حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿**إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم**﴾ سواء وافق أهواءهم أو خالفها ﴿**أن يقولوا سمعنا وأطعنا**﴾ أي سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة سالمة من الحرج ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ حصر الفلاح فيهم لأن الفلاح الفوز بالمطلوب والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٠)]

الآية الثامنة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الروم: ٤٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة ووعدنا به، فلا بد من وقوعه، فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ إن بقيتم على تكذيبكم، حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

الآية التاسعة عشر:

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1] [سورة الأنعام: ٨٢].

---

(١) قال شيخنا عبد العزيز بن باز رحمه الله في تفسيره لهذه الآية:
﴿**آمنوا**﴾ أي وحدوا الله وأخلصوا له العبادة وآمنوا أنه إلٰههم الحق ﴿**ولم يلبسوا**﴾ أي لم يخلطوا ﴿**إيمانهم**﴾ توحيدهم ﴿**بظلم**﴾ بشرك بل أخلصوا له العبادة سبحانه، ﴿**لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ أي الأمن الكامل والهداية الكاملة إذا كان إيمانهم سليماً من الظلم كله، دقة وجله من الشرك وما دونه من المعاصي وظلم العباد.
[التعليق المفيد على كتاب التوحيد (ص ٣٣)]
وقال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله: ﴿**وهم مهتدون**﴾ أي في الدنيا إلى شرع الله بالعلم =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا**﴾ أي يخلطوا ﴿**إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ الأمن من المخاوف، والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم. فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك، ولا بمعاصي، حصل لهم الأمن التام والهداية التامة وأن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية ولا أمن بل حظهم الضلال والشقاء.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٩)]

الآية العشرون:

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[1][سورة النساء: ٦٥].

= والعمل، فالاهتداء بالعلم هداية الإرشاد، والاهتداء بالعمل: هداية توفيق.
ومهتدون من الآخرة إلى الجنة. قال الله تعالى: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢ و٢٣].

هذه هداية الآخرة وهي للذين ظلموا إلى صراط الجحيم، فيكون مقابلها أن الذين آمنوا ولم يظلموا يهدون إلى صراط النعيم.

[القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ٥٧)]

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره لهذه الآية: فهذا إقسام مؤكد بـ (لا) وإقسام بأخص ربوبية من الله عز وجل لعباده ـ وهي ربوبية الله للرسول ـ على نفي الإيمان عمن لم يقم بهذه الأمور الثلاثة:
الأول: تحكيم الرسول ﷺ لقوله: ﴿**حتى يحكموك**﴾ يعني: الرسول فمن طلب التحاكم إلى غير الله ورسوله فإنه ليس بمؤمن، فإما كافر كفراً مخرجاً عن الملة وإما كافر كفراً دون ذلك.
الثاني: انشراح الصدر بحكمه، بحيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، بل يجدون القبول والإنشراح لما قضاه النبي ﷺ. =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم أي في كل شيء يحصل فيه اختلاف بخلاف مسائل الاجماع فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى يسلموا لحكمه تسليماً بانشراح صدر وطمأنينة نفس وانقياد بالظاهر والباطن، فالتحكيم في مقام الإسلام وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب وكملها فقد استكمل مراتب الدين كلها ومن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن تركه ـ مع التزامه ـ فله حكم أمثاله من العاصين.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٦٥)]

الآية الحادية والعشرون:

وقال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [سورة النساء: ٥٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أمر سبحانه برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله والرسول، أي إلى كتاب الله وسنة رسوله فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية إما بصريحهما أو عمومهما أو إيماء أو تنبيه أو مفهوم أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه.

لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين ولا يستقيم الإيمان إلا بهما،

= الثالث: أن يسلموا تسليماً وأكد التسليم بمصدر يعني: تسليماً كاملاً، فاحذر أيها المسلم أن ينتفي عنك الإيمان.

[شرح العقيدة الواسطية (ص ٢٢١)]

فالرد إليهما شرط من الإيمان فلهذا قال: ﴿**إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة بل مؤمن بالطاغوت كما ذكر من الآية بعدها. ﴿**ذلك**﴾ أي الرد إلى الله ورسوله ﴿**خير وأحسن تأويلا**﴾ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس من أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٦٢)]

الآية الثانية والعشرون:

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة المائدة: ٥٥ ـ ٥٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

لما نهى سبحانه عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله**﴾ فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً ومن كان لله ولياً فهو ولي لرسوله، ومن تولى الله ورسوله كان تمام ذلك تولي من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً وأخلصوا للمعبود بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم وقوله: ﴿**وهم راكعون**﴾ أي خاضعون لله ذليلون فأداة الحصر في قوله: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا**﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين والتبري من ولاية غيرهم، ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: ﴿**ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون**﴾ أي فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿**وإن جندنا لهم الغالبون**﴾ وهذه بشارة عظيمة

لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده أن له الغلبة، وإن أديل عليه في بعض الأحيان لحكمة يريدها الله تعالى فآخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلا.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٩٧)]

الآية الثالثة والعشرون:

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها فالسابقة هي الأساس وهذه هي الثمرة، فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله وصدقوا إيمانهم بالقيام بواجبات الإيمان وترك كل ما ينافيه أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة ويتولى تربيتهم فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض إلى نور العلم واليقين والإيمان والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، وييسرهم لليسرى ويجنبهم العسرى، وأما الذين كفروا فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولاهم الله ما تولوا لأنفسهم وخذلهم ووكلهم إلى رعاية من تولاهم ممن ليس عنده نفع ولا ضر، فأضلوهم وأشقوهم وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرموهم السعادة، وصارت النار مثواهم خالدين فيها مخلدين، اللهم تولنا فيمن توليت.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٠٥)]

الأحاديث الدالة على حقيقة الإيمان وصفات المؤمنين والتي قام بشرحها شيخنا السعدي رحمه الله

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الحديث الأول

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**» رواه مسلم[1].

قال رحمه الله:

فهذا الرجل طلب من النبي ﷺ كلاماً جامعاً للخير نافعاً موصلاً صاحبه إلى الفلاح، فأمره النبي ﷺ بالإيمان بالله الذي يشمل ما يجب اعتقاده من عقائد الإيمان وأصوله، وما يتبع ذلك من أعمال القلوب والانقياد والاستسلام لله باطناً وظاهراً، ثم الدوام على ذلك والاستقامة عليه إلى الممات، وهو نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٠].

فرتب على الإيمان والاستقامة السلامة من جميع الشرور وحصول الجنة وجميع المحاب، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة الكثيرة على أن الإيمان يشمل ما في القلوب من العقائد الصحيحة وأعمال القلوب من الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، وإرادة الخير، وكراهة الشر، ومن أعمال الجوارح، ولا يتم ذلك إلا بالثبات عليه.

[بهجة قلوب الأبرار(ص ١٥ ـ ١٦)]

الحديث الثاني

وعن أبي أمامه رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان (١/ ٢١٣).

(٢) رواه أبو داود وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٣٩١٥).

قال شيخنا السعدي رحمه الله:

قوله ﷺ: «**من أحب لله، وأبغض لله وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**» وجه ذلك ـ والله أعلم ـ أن الإيمان الشرعي تدخل فيه أعمال القلوب التي أصلها حب الله والإنابة إليه، وتكميل ذلك أنه يحب من يحبه الله، وما يحبه الله، من الأشخاص والأعمال والأزمنة والأمكنة والأحوال، ويدخل فيه أعمال الجوارح التي هي فعل وترك.

وتحقيق ذلك أن يكون كذلك إعطاؤه المال الذي جرت عادة أكثر الناس أن يكون مبذولاً في مُرادات النفوس وأهويتها وشهواتها.

فهذا المستكمل للإيمان قد جعل عطاءه ومنعه تبعاً لمراد الله ومحبته... وإذا كان هذا حاله في البذل والمنع المالي فالبذل من باب أولى وأحرى. وحالة هذا، هي حالة المخلص لله من كل وجه.

[الفتاوى السعدية (ص ٢٢ـ ٢٣)]

الحديث الثالث

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[1].....

---

(١) قال سماحة الوالد الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله رحمة واسعة في شرحه لهذا الحديث:

فهذا الحديث يدل على أن مطلق الإيمان يدخل فيه الإسلام والهدى والإحسان والتقوى والبر، فالإيمان الذي أعلاه كلمة لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق هو ديننا كله، وهو الإسلام وهو الإيمان ولذا قال: «**فأفضلها قول لا إله إلاَّ الله**» ومعلوم أن لا إله إلاَّ الله هي الركن الأول من أركان الإسلام مع الشهادة بأن محمداً رسول الله فجعلها هاهنا أعلى خصال الإيمان فعلم بذلك أن الإيمان عند الإطلاق يدخل فيه الإسلام وأركانه وأعماله وهكذا عند إطلاق الإيمان بالله فقط أو الإيمان بالله ورسوله يدخل فيه كل ما شرع الله ورسوله من الصلاة والزكاة والصيام والحج والإيمان =

متفق عليه[1].

قال رحمه الله:

هذا الحديث من جملة النصوص الدالة على أن الإيمان اسم يشمل عقائد القلب وأعماله وأعمال الجوارح، وأقوال اللسان، وبين ما يقرب إلى الله وما يحبه ويرضاه من واجب ومستحب فإنه داخل في الإيمان وذكر هنا أعلاه وأدناه وما بين ذلك وهو الحياء، ولعل ذكر الحياء لأنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان فإن من استحيا من الله لتواتر نعمه، وسوابغ كرمه، وتجليه عليه بأسمائه الحسنى ـ والعبد مع هذا كثير التقصير مع هذا الرب الجليل الكبير، يظلم نفسه ويجني عليها ـ أوجب له هذا الحياء التوقي من الجرائم والقيام بالواجبات والمستحبات.

فأعلى هذه الشعب وأصلها وأساسها قول لا إله إلا الله صادقاً من قلبه، بحيث يعلم ويوقن أنه لا يستحق هذا الوصف العظيم وهو الألوهية إلا الله وحده، فإنه هو ربه الذي يربيه ويربي جميع العالمين بفضله وإحسانه والكل فقير وهو الغني، والكل عاجز وهو القوي، ثم يقوم في كل أحواله بعبوديته لربه مخلصاً له الدين، فإن جميع شعب الإيمان فروع وثمرات لهذا الأصل. ودل على أن شعب الإيمان بعضها يرجع إلى الإخلاص للمعبود الحق وبعضها يرجع إلى الإحسان إلى الخلق.

= بالملائكة والكتاب والنبيين واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، لأن هذا كله داخل في مسمى الإيمان بالله، فإن الإيمان بالله يتضمن الإيمان بأسمائه وصفاته ووجوده وأنه رب العالمين وأنه يستحق العبادة كما يتضمن أيضاً الإيمان بجميع ما أخبر به سبحانه وتعالى وشرعه لعباده ويتضمن أيضاً الإيمان بجميع الرسل والملائكة والكتب والأنبياء وبكل ما أخبر الله به ورسوله ﷺ.

[مجموع فتاوى ومقالات منوعة (٣/ ٢٢)]

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٩)، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان رقم (١٥١ و١٥٢).

ونبه بإماطة الأذى على جميع أنواع الإحسان القولي والفعلي:

الإحسان الذي فيه وصول المنافع، والإحسان الذي فيه دفع المضار عن الخلق.

وإذا علمنا أن شعب الإيمان كلها ترجع إلى هذه الأمور: علمنا أن كل خصلة من خصال الخير فهي من الشعب.

وقد تكلم العلماء على تعيينها. فمنهم من وصل إلى هذا المبلغ المقدر في الحديث. ومنهم من قارب ذلك ولكن إذا فهم المعنى تمكن الإنسان أن يَعُدّ كل خصلة وردت عن الشارع ـ قولية أو فعلية، ظاهرة أو باطنة ـ من الشعب. ونصيب العبد من الإيمان بقدر نصيبه من هذه الخصال: قلةٍ وكثرة وقوة وضعفاً، وتكميلاً وضده، وهي ترجع إلى تصديق خبر الله وخبر رسوله وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما. وقد وصف الله الإيمان بالشجرة الطيبة في أصلها وثمراتها التي أصلها ثابت وفرعها باسقه، في السماء ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٥] والله أعلم.
[بهجة قلوب الأبرار (ص ١٤١)]

وقال رحمه الله: هذه الحديث من أعظم أدلة السلف على أن الإيمان يشمل عقائد القلوب وأعمالها وأعمال الجوارح وأنه درجات متفاوتة أعلاها وأفضلها على الأطلاق شهادة التوحيد فإنها الأساس الأعظم لجميع أمور الإيمان، وأدناها أقل إحسان يتصور إماطة الأذى عن الطريق، وخص الحياء بالذكر لأنه يدعو إلى كل خلق جميل وعمل صالح وينهى عن ضده. وقد صنف العلماء رحمهم الله في تعداد شعب الإيمان وتحقيقها كل عقيدة صحيحة، وإرادة محمودة، وخلق جميل، وعمل صالح، والتفاصيل الواردة في الكتاب والسنة ترجع إلى ذلك، فمنها: الأصول الستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والشرائع الخمس الشهادتان، والصلاة، والزكاة والصيام، والحج فرض ذلك ونفله، ومنها: أعمال القلوب كمحبة الله وخوفه ورجائه وحده والإخلاص له في كل شيء والتوكل عليه والحياء والصبر والإنابة والتقوى

والورع. ومنها النصيحة لله ولكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم.

ومنها: بر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجيران والأصحاب والمعاملين. ومنها التواضع للحق والخلق. ومنها: ذكر الله على اختلاف أنواعه وتعلم العلوم النافعة وتعليمها وكمال المتابعة للرسول والاستقامة على دينه وهديه وسنته. ومنها: القيام بحقوق الأهل والمماليك من الآدميين والبهائم.. إلى غير ذلك مما حث عليه الكتاب والسنة. والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٨٧)]

وقال رحمه الله:

فائدة في أعظم شعب الإيمان الباطنة والظاهرة

وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، وأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك [و] حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وخوف الله ورجاؤه، والإنابة إليه والتوكل عليه والصبر على طاعته وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة والرضى عن الله والشكر لله بالقلب اعترافاً، وباللسان ذكراً وثناء وتحدثاً، وبالجوارح عملاً بطاعة الله والعلم واليقين والطمأنينة بالله وبذكره والحياء من الله ومن خلقه، وذكر الله والثناء عليه، وتلاوة كتابه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، والسعي في حوائج الناس، ودفع الأذى عن مساجدهم ومجالسهم وطرقهم وجميع ما يتصل بهم، وحسن الخلق، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والثقة بوعد الله والسكون إلى ما بيده والتعليق بالله من كل شيء، وأن لا يسأل إلا الله ولا يستعيذ ويستعين إلا بالله، وتنقية القلب من الشك والشرك والشقاق والنفاق، والرياء والسمعة والغل والحقد والحسد وغيرها من الصفات القبيحة والاتصاف بأضداها، ومحبة أولياء الله وبغض أعدائه والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي

أحسن والتحقق بما دل عليه قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . .﴾ إلى قوله ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١ـ ١٠] وبما دل عليه قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ. .﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥] وبما دل عليه قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩ـ ٢٠٠]، وبقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة فصلت: ٣٤] وبقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [سورة النحل: ١٢٨].

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ١٨)]

الحديث الرابع

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا، كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل فإن «لو» تفتح عمل الشيطان[1]»**

---

(١) قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث: المؤمن القوي يعني في إيمانه وليس المراد القوي في بدنه، لأنه قوة البدن ضرراً على الإنسان إذا استعمل هذه القوة في معصية الله، فقوة البدن ليست محمودة ولا مذمومة في ذاتها، إن كان الإنسان استعمل هذه القوة فيما ينفع في الدنيا والآخرة صارت محمودة وإن استعان بهذه القوة على معصية الله صارت مذمومة لكن القوة في قوله ﷺ: **«المؤمن القوي»** أي قوي الإيمان. . . لأن المؤمن القوي في إيمانه تحمله قوة إيمانه على أن يقوم بما أوجب الله عليه وعلى أن يزيد من النوافل ما شاء الله، والضعيف الإيمان يكون إيمانه ضعيفاً لا يحمله على فعل الواجبات وترك المحرمات فيقصر أحياناً.

وقوله: **«خير»** يعني خير من المؤمن الضعيف، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ثم قال عليه الصلاة والسلام: **«وفي كل خير»** يعني المؤمن القوي والمؤمن الضعيف كل منهما فيه خير.

ثم قال ﷺ: **«احرص على ما ينفعك»** يعني اجتهد في تحصيله ومباشرته. . . ويشمل منافع الدين والدنيا وعند التعارض تقدم منافع الدين على منافع الدنيا. =

مسلم[1].

قال رحمه الله:

هذا الحديث اشتمل على أصول عظيمة، وكلمات جامعة.

فمنها: إثبات المحبة صفة لله، وأنها متعلقة بمحبوباته وبمن قام بها، ودل على أنها تتعلق بإرادته ومشيئته، وأيضاً تتفاضل.

فمحبته للمؤمن القوي أعظم من محبته للمؤمن الضعيف.

ودل الحديث على أن الإيمان يشمل العقائد القلبية، والأقوال والأفعال، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: قول: «لا إله إلا الله» وأدناها: «إماطة الأذى عن الطريق». والحياء شعبة منه. وهذه الشعب التي ترجع إلى الأعمال الباطنة والظاهرة كلها من الإيمان.

فمن قام بها حق القيام، وكَمَّل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمَّل غيره بالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر: فهو المؤمن القوي الذي حاز أعلى مراتب الإيمان. ومن لم يصل إلى هذه المرتبة، فهو المؤمن الضعيف.

وهذا من أدلة السلف على أن الإيمان يزيد وينقص، وذلك بحسب علوم الإيمان ومعارفه، وبحسب أعماله.

= وقوله ﷺ: **«واستعن بالله»** أي لا تنسى الاستعانة بالله ولو على الشيء اليسير.
وقوله ﷺ: **«ولا تعجز»** يعني استمر في العمل ولا تعجز وتتأخر وتقول إن المدى طويل والشغل كثير... ثم قال ﷺ: **«فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا»**، يعني بعد أن تحرص وتبذل الجهد وتستعين بالله وتستمر، ثم يخرج الأمر على خلاف ما تريد فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا، لأن هذا أمر فوق إرادتك... **«ولكن قل قدر الله وما شاء فعل»** أي هذا قدر الله أي تقدير الله وقضاؤه وما شاء فعله: **«فإن لو تفتح عمل الشيطان»** أي تفتح عليك الوساوس والأحزان والندم والهموم.
[شرح رياض الصالحين (٣/ ١١) وما بعدها باختصار]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر برقم (٢٦٦٤).

وهذا الأصل قد دل عليه الكتاب والسنة في مواضع كثيرة.

ولما فاضل النبي ﷺ بين المؤمنين: قويهم وضعيفهم، خشي من توهم القدح في المفضول، فقال: **«وفي كل خير»**.

وفي هذا الاحتراز فائدة نفيسة، وهي أن على من فاضل بين الأشخاص أو الأجناس أو الأعمال أن يذكر وجه التفضيل، وجهة التفضيل، ويحترز بذكر الفضل المشترك بين الفاضل والمفضول، لئلا يتطرق القدح إلى المفضول. وكذلك في الجانب الآخر إذا ذكرت مراتب الشر والأشرار، وذكر التفاوت بينهما. فينبغي بعد ذلك أن يذكر القدر المشترك بينهما من أسباب الخير أو الشر. وهذا كثير في الكتاب والسنة.

وفي هذا الحديث: أن المؤمنين يتفاوتون في الخيرية، ومحبة الله والقيام بدينه، وأنهم في ذلك درجات ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [سورة الأحقاف: ١٩].

ويجمعهم ثلاثة أقسام: السابقون إلى الخيرات، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات، وكملوا ما باشروه من الأعمال، واتصفوا بجميع صفات الكمال. ثم المقتصدون الذين اقتصروا على القيام بالواجبات، وترك المحظورات، ثم الظالمون لأنفسهم، الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وقوله ﷺ: **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله»** كلام جامع نافع، مُحْتَوٍ على سعادة الدنيا والآخرة.

والأمور النافعة قسمان: أمور دينية، وأمور دنيوية. والعبد محتاج إلى الدنيوية، كما أنه محتاج إلى الدينية. فمدار سعادته وتوفيقه على الحرص والاجتهاد في الأمور النافعة منها، مع الاستعانة بالله تعالى، فمتى حرص العبد على الأمور النافعة واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطرقها، واستعان بربه في حصولها وتكميلها: كان ذلك كماله، وعنوان فلاحه. ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة، فاته من الخير بحسبها. فمن لم يكن حريصاً على الأمور النافعة، بل كان كسلاناً لم يدرك شيئاً..

فالكسل هو أصل الخيبة والفشل، فالكسلان لا يدرك خيراً، ولا ينال مكرمة؛ ولا يحظى بدين ولا دنيا. ومتى كان حريصاً ـ ولكن على غير الأمور النافعة: إما على أمور ضارة، أو مفوتة للكمال ـ كان ثمرة حرصه الخيبة، وفوات الخير، وحصول الشر والضرر.

فكم من حريص على سلوك طرق وأحوال غير نافعة لم يستفد من حرصه إلا التعب والعناء والشقاء!.

ثم إذا سلك العبد الطرق النافعة، وحرص عليها، واجتهد فيها: لم تتم له إلا بصدق اللجإ إلى الله، والاستعانة به على إدراكها وتكميلها، وأن لا يتكل على نفسه وحَوْله وقوته، بل يكون اعتماده التام بباطنه وظاهره على ربه. فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأحوال، وتتم له النتائج والثمرات الطيبة في أمر الدين وأمر الدنيا، لكنه في هذه الأحوال محتاج ـ بل مضطر غاية الاضطرار ـ إلى معرفة الأمور التي ينبغي الحرص عليها، والجد في طلبها.

فالأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين:

علم نافع، وعمل صالح.

أما العلم النافع: فهو العلم المزكي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين. وهو ما جاء به الرسول ﷺ: من حديث وتفسير وفقه، وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان، وتعيين ذلك يختلف باختلاف الأحوال.

والحالة التقريبية: أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصر من مختصرات الفن الذي يشتغل فيه. فإن تعذر أو تعسر عليه حفظه لفظاً، فليكرره كثيراً متدبراً لمعانيه، حتى ترسخ معانيه في قلبه. ثم تكون باقي كتب هذا الفن كالتفسير والتوضيح والتفريع لذلك الأصل الذي عرفه وأدركه، فإن الإنسان إذا حفظ الأصول، وصار له ملكة تامة في معرفتها، هانت عليه كتب الفن كلها: صغارها وكبارها.

ومن ضيع الأصول، حرم الوصول.

فمن حرص على هذا الذي ذكرناه، واستعان بالله: أعانه الله، وبارك في علمه، وطريقه الذي سلكه.

ومن سلك في طلب العلم غير هذه الطريقة النافعة: فاتت عليه الأوقات، ولم يدرك إلا العناء، كما هو معروف بالتجربة. والواقع يشهد به، فإن يسر الله له معلماً يحسن طريقة التعليم، ومسالك التفهيم: تم له السبب الموصل إلى العلم.

وأما الأمر الثاني ـ وهو العمل الصالح: فهو العمل الذي جمع الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ، وهو التقرب إلى الله: باعتقاد ما يجب لله من صفات الكمال وما يستحقه على عباده من العبودية، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وتصديقه وتصديق رسوله في كل خبر أخبرَا به عما مضى، وعما يستقبل: عن الرسل، والكتب والملائكة، وأحوال الآخرة، والجنة والنار، والثواب والعقاب، وغير ذلك. ثم يسعى في أداء ما فرضه الله على عباده: من حقوق الله، وحقوق خلقه، ويكمل ذلك بالنوافل والتطوعات، خصوصاً المؤكدة في أوقاتها، مستعيناً بالله على فعلها، وعلى تحقيقها وتكميلها، وفعلها على وجه الإخلاص الذي لا يشوبه غرض من الأغراض النفسية.

وكذلك يتقرب إلى الله بترك المحرمات، وخصوصاً التي تدعو إليها النفوس، وتميل إليها. فيتقرب إلى ربه بتركها لله، كما يتقرب إليه بفعل المأمورات.

فمتى وفّق العبد بسلوك هذا الطريق في العمل، واستعان الله على ذلك، أفلح وأنجح. وكان كماله بحسب ما قام به من هذه الأمور، ونقصه بحسب ما فاته منها.

وأما الأمور النافعة في الدنيا: فالعبد لا بدّ له من طلب الرزق. فينبغي أن يسلك أنفع الأسباب الدنيوية اللائقة بحاله. وذلك يختلف باختلاف الناس.

ويقصد بكسبه وسعيه القيام بواجب نفسه، وواجب من يعوله ومن يقوم بمؤنته. وينوي الكفاف، والاستغناء بطلبه عن الخلق. وكذلك ينوي بسعيه وكسبه تحصيل ما تقوم به العبوديات المالية: من الزكاة والصدقة، والنفقات الخيرية الخاصة والعامة، مما يتوقف على المال، ويقصد المكاسب الطيبة، متجنباً للمكاسب الخبيثة المحرمة.

فمتى كان طلب العبد وسعيه في الدنيا لهذه المقاصد الجليلة، وسلك أنفع طريق يراه مناسباً لحاله؛ كانت حركاته وسعيه قربة يتقرب إلى الله بها.

ومن تمام ذلك: أن لا يتكل العبد على حوله وقوته، وذكائه ومعرفته، وحذقه بمعرفة الأسباب وإدارتها، بل يستعين بربه متوكلاً عليه، راجياً منه أن ييسره لأيسر الأمور وأنجحها، وأقربها تحصيلاً لمراده. ويسأل ربه أن يبارك له في رزقه.

فأول بركة الرزق: أن يكون مؤسساً على التقوى والنية الصالحة. ومن بركة الرزق: أن يوفق العبد لوضعه في مواضعه الواجبة والمستحبة. ومن بركة الرزق: أن لا ينسى العبد الفضل في المعاملة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧] ـ بالتيسير على الموسرين، وإنظار المعسرين، والمحاباة عند البيع والشراء، بما تيسر من قليل أو كثير. فبذلك ينال العبد خيراً كثيراً.

فإن قيل: أي المكاسب أولى وأفضل؟

قيل: قد اختلف أهل العلم في ذلك. فمنهم من فضل الزراعة والحراثة. ومنهم من فضل البيع والشراء. ومنهم من فضل القيام بالصناعات والحرف ونحوها. وكل منهم أدلى بحجته. ولكن هذا الحديث هو الفاصل للنزاع، وهو أنه ﷺ قال: **«احرص على ما ينفعك؛ واستعِنْ بالله»** والنافع من ذلك معلوم أنه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص. فمنهم من تكون الحراثة والزراعة أفضل في حقه، ومنهم من يكون البيع والشراء، والقيام بالصناعة التي يحسنها أفضل في حقه. فالأفضل من ذلك وغيره: الأنفع.

فصلوات الله وسلامه على من أعطي «جوامع الكلم» ونوافعها.

ثم إنه ﷺ حض على الرضا بقضاء الله وقدره، بعد بذل الجهد، واستفراغ الوسع في الحرص على النافع. فإذا أصاب العبد ما يكرهه فلا ينسب ذلك إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها، بل يسكن إلى قضاء الله وقدره ليزداد إيمانه؛ ويسكن قلبه، وتستريح نفسه، فإن «لو» في هذه الحال تفتح عمل الشيطان بنقص إيمانه بالقدر، واعتراضه عليه، وفتح أبواب الهم والحزن المضعف للقلب. وهذه الحال التي أرشد إليها النبي ﷺ هي أعظم الطرق لراحة القلب، وأدعى لحصول القناعة والحياة الطيبة، وهو الحرص على الأمور النافعة، والاجتهاد في تحصيلها، والاستعانة بالله عليها، وشكر الله على ما يسره منها، والرضا عنه بما فات، ولم يحصل منها.

وأعلم أن استعمال «لو» يختلف باختلاف ما قصد بها. فإن استعملت في هذه الحال التي لا يمكن استدراك الفائت فيها، فإنها تفتح على العبد عمل الشيطان، كما تقدم. وكذلك لو استعملت في تمني الشر والمعاصي فإنها مذمومة، وصاحبها آثم، ولو لم يباشر المعصية، فإنه تمنى حصولها.

وأما إذا استعملت في تمني الخير، أو في بيان العلم النافع، فإنها محمودة: لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

وهذا الأصل الذي ذكره النبي ﷺ - وهو الأمر بالحرص على الأمور النافعة، ومن لازمه اجتناب الأمور الضارة مع الاستعانة بالله - يشمل استعماله والأمر به في الأمور الجزئية المختصة بالعبد ومتعلقاته، ويشمل الأمور الكلية المتعلقة بعموم الأمة.

فعليهم جميعاً أن يحرصوا على الأمور النافعة. وهي المصالح الكلية والاستعداد لأعدائهم بكل مستطاع، مما يناسب الوقت، من القوة المعنوية والمادية، ويبذلوا غاية مقدورهم في ذلك، مستعينين بالله على تحقيقه وتكميله، ودفع جميع ما يضاد ذلك.

وشرح هذه الجملة يطول، وتفاصيلها معروفة.

وقد جمع النبي ﷺ في هذا الحديث بين الإيمان بالقضاء والقدر، والعمل بالأسباب النافعة، وهذان الأصلان دل عليهما الكتاب والسنة في مواضع كثيرة. ولا يتم الدين إلا بهما. بل لا تتم الأُمور المقصودة كلها إلا بهما، لأن قوله: **«احرص على ما ينفعك»**، أمر بكل سبب ديني ودنيوي، بل أمر بالجد والاجتهاد فيه، والحرص عليه، نية وهمة، فعلاً وتدبيراً.

وقوله: **«واستعن بالله»** إيمان بالقضاء والقدر، وأمر بالتوكل على الله الذي الاعتماد التام على حوله وقوته تعالى في جلب المصالح ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في نجاح ذلك.

فالمتبع للرسول ﷺ يتعين عليه أن يتوكل على الله في أمر دينه ودنياه، وأن يقوم بكل سبب نافع، بحسب قدرته وعلمه ومعرفته. والله المستعان.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ٢٦ ـ ٣١)]

الحديث الخامس

عن «أبي هريرة» رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قالَ: مَنْ عَادى لِي وَلِيًا فقد آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا ٱفْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّب إِلَيَّ بالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبيتُه: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بهَا، وَرِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، ولَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أنا فاعِلُه تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ المُؤمِنِ: يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْهُ»**. رواه البخاري[1].

قال رحمه الله:

هذا حديث جليل، أشرف حديث في أوصاف الأولياء، وفضلهم ومقاماتهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٤٨١).

فأخبر أن معاداة أوليائه معاداة له ومحاربة له. ومن كان متصدياً لعداوة الرب ومحاربة مالك الملك فهو مخذول. ومن تكفل الله بالذَّبِّ عنه فهو منصور. وذلك لكمال موافقة أولياء الله لله في محابه، فأحبهم وقام بكفياتهم، وكفاهم ما أهمهم.

ثم ذكر صفة الأولياء الصفة الكاملة، وأن أولياء الله هم الذين تقربوا إلى الله بأداء الفرائض أولاً: من صلاة وصيام وزكاة وحج، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وجهاد، وقيام بحقوقه، وحقوق عباده الواجبة.

ثم انتقلوا من هذه الدرجة إلى التقرب إليه بالنوافل، فإن كل جنس من العبادات الواجبة: مشروع من جنسه نوافل فيها فضائل عظيمة، تكمل الفرائض، وتكمل ثوابها.

فأولياء الله قاموا بالفرائض والنوافل، فتولاهم وأحبهم، وسهل لهم كل طريق يوصلهم إلى رضاه، ووفقهم وسددهم في جميع حركاتهم، فإن سمعوا سمعوا بالله، وإن أبصروا فلله، وإن بطشوا أو مشوا ففي طاعة الله.

ومع تسديده لهم في حركاتهم جعلهم مجابي الدعوة: إن سألوه أعطاهم مصالح دينهم ودنياهم، وإن استعاذوه من الشرور أعاذهم.

ومع ذلك لطف بهم في كل أحوالهم، ولولا أنه قضى على عباده بالموت لسلم منه أولياءه؛ لأنهم يكرهونه لمشقته وعظمته، والله يكره مساءتهم، ولكن لما كان القضاء نافذاً كان لا بدّ لهم منه.

فبين في هذا الحديث: صفة الأولياء، وفضائلهم المتنوعة، وحصول محبة الله لهم التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأنه معهم وناصرهم، ومؤيدهم ومسددهم، ومجيب دعواتهم.

ويدل هذا الحديث على إثبات محبة الله، وتفاوتها لأوليائه بحسب مقاماتهم.

ووصف النبي ﷺ لأولياء الله بأداء الفرائض والإكثار من النوافل، مطابق

لوصف الله لهم بالإيمان والتقوى في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [سورة يونس: ٦٢- ٦٣].

فكل من كان مؤمناً تقيًّا كان لله وليًّا: لأن الإيمان يشمل العقائد، وأعمال القلوب والجوارح، والتقوى ترك جميع المحرمات.

ويدل على أصل عظيم: وهو أن الفرائض مقدمة على النوافل، وأحب إلى الله وأكثر أجراً وثواباً؛ لقوله: **«وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه»**، وأنه عند التزاحم يتعين تقديم الفروض على النوافل.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ٧٦ ـ ٧٨)]

* * *

الفصل الثالث

رسالة
التوضيح والبيان
لشجرة الإيمان

تأليف

العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله تعالى

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي غرس شجرة الإيمان في قلوب عباده الأخيار، وسقاها وغذاها بالعلوم النافعة، والمعارف الصادقة، واللهج بذكره آناء الليل والنهار؛ وجعلها تؤتي أكلها وبركتها كل حين من الخيرات والنعم الغزار. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الواحد القهار، الكريم الرحيم الغفار؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الرسول المصطفى المختار. اللهم صل وسلم على محمد وآله وأصحابه البررة الأخيار.

أما بعد: فهذا كتاب يحتوي على مباحث الإيمان التي هي أهم مباحث الدين وأعظم أصول الحق واليقين؛ مستمداً ذلك من كتاب الله الكريم ـ الكفيل بتحقيق هذه الأصول تحقيقاً لا مزيد عليه ـ ومن سنة نبيه محمد ﷺ: التي توافق الكتاب وتفسره، وتعبر عن كثير من مجملاته، وتفصل كثيراً من مطلقاته. مبتدئاً بتفسيره، مثنياً بذكر أصوله ومقوماته، ومن أي شيء يستمد؟ مثلثاً بفوائده وثمراته، وما يتبع هذه الأصول.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[1] [سورة إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

فمَثَّل الله كلمة الإيمان ـ التي هي أطيب الكلمات ـ بشجرة هي أطيب الأشجار، موصوفة بهذه الأوصاف الحميدة: أصولها ثابتة مستقرة، ونماؤها

---

(١) انظر تفسير الآية من كلام شيخنا السعدي في الفصل الأول من الكتاب.

مستمر، وثمراتها لا تزال، كل وقت وكل حين، تغل على أهلها وعلى غيرهم، المنافع المتنوعة، والثمرات النافعة.

وهذه الشجرة متفاوتة في قلوب المؤمنين تفاوتاً عظيماً، بحسب تفاوت هذه الأوصاف التي وصفها الله بها. فعلى العبد الموفق أن يسعى لمعرفتها، ومعرفة أوصافها وأسبابها، وأصولها وفروعها؛ ويجتهد في التحقق بها: علماً وعملاً. فإن نصيبه ـ من الخير والفلاح، والسعادة العاجلة والآجلة ـ بحسب نصيبه من هذه الشجرة.

* * *

المبحث الأول

في حد الإيمان وتفسيره

حدود الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها، تتقدم أحكامها؛ فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها، فمن حكم على أمر من الأمور ـ قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصوراً يميزه عن غيره ـ أخطأ خطأ فاحشاً.

أما حد الإيمان وتفسيره، فهو: التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به؛ والانقياد ظاهراً وباطناً. فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن[1]. وذلك شامل للقيام بالدين كله.

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح[2]. وهو: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص

---

(١) قال شيخنا محمد بن صالح بن عثيمين، رحمه الله تعالى في شرح العقيدة الواسطية (ص ٢٣٠):
أكثر أهل العلم يقولون إن الإيمان في اللغة التصديق. ولكن في هذا نظر لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة فإنها تتعدى بتعديتها، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه، والإيمان لا يتعدى بنفسه، فتقول مثلاً: صدقته، ولا تقول أمنته بل تقول: آمنت به. أو آمنت له. فلا يمكن أن تفسر فعلاً لازماً لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعد بنصب المفعول به بنفسه، ثم إن كلمة (صدقت) لا تعطى معنى كلمة (آمنت)، فإن (آمنت) تدل على طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت) ولهذا لو فسر الإيمان بالإقرار لكان أجود فنقول: الإيمان: الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق، فنقول: أقرّ به، كما نقول: آمن به، وأقر له، كما نقول: آمن له. هذا في اللغة.

(٢) قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله في شرح العقيدة الواسطية (ص ٢٣٠): أما «قول» فالأمر فيه واضح وهو النطق وأما عمله فحركاته وليست هي النطق بل النطق ناشىء =

بالمعصية[1]. فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله.

= عنها إن سلمت من الخرس. وأما قول القلب فهو اعترافه وتصديقه. وأما عمله، فهو عبارة عن تحركه وإرادته مثل الإخلاص في العمل فهذا عمل قلب، وكذلك التوكل والرجاء والخوف، فالعمل ليس بمجرد الطمأنينة في القلب بل هناك حركة في القلب.
أما عمل الجوارح، فواضح، ركوع وسجود وقيام وقعود، فيكون عمل الجوارح إيماناً شرعاً، لأن الحامل لهذا العمل هو الإيمان.
فإذا قال قائل: أين الدليل على أن الإيمان يشمل هذه الأشياء؟ قلنا: قال النبي ﷺ: **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»** رواه مسلم.
فهذا قول القلب أما عمل القلب واللسان والجوارح، فدليله قول النبي ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياة شعبة من الإيمان»** متفق عليه.
فهذا قول اللسان وعمله وعمل الجوارح والحياء عمل قلبي وهو انكسار يصيب الإنسان ويعتريه عند وجود ما يستلزم الحياء.
فيتبين بهذا أن الإيمان يشمل هذه الأشياء كلها شرعاً.
ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال المفسرون: أي صلاتكم إلى بيت المقدس فسمى الله تعالى الصلاة إيماناً مع أنها عمل جوارح وعمل قلب وقول لسان.

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

(١) قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى في شرح العقيدة الواسطية (ص ٢٣٣): إن من أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص ويستدلون لذلك بأدلة من الكتاب والسنة:
فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١] وهذا صريح في ثبوت الزيادة.

وأما النقص فقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ وعظ النساء وقال لهن: **«ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»** فأثبت نقص الدين، ثم لو فرض أنه لم يوجد نص في ثبوت النقص فإن إثبات الزيادة مستلزم للنقص، فتقول: كل نص يدل على زيارة الإيمان فإنه متضمن للدلالة على نقصه. ا هـ.
قلت: ثم ذكر حفظه الله أسباب زيادة الإيمان وأسباب نقصه وفصل في ذلك جزاه الله عنا خير الجزاء، فانظره غير مأمور فإنه كلام نفيس يكتب بماء الذهب.

فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى: من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته. هو من أعظم أصول الإيمان.

وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة ـ وهو: التأله والتعبد لله ظاهراً وباطناً ـ من أصول الإيمان.

والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة؛ والإخبار باليوم الآخر، كل هذا من أصول الإيمان.

وكذلك الإيمان بجميع الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وما وصفوا به في الكتاب والسنة من الأوصاف الحميدة، كل هذا من أصول الإيمان.

كما أن أعظم أصول الإيمان: الاعتراف بانفراد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة. كل هذا من أصول الإيمان.

ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة. ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا: من شموله للعقائد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح. لأنه متى فات شيء من ذلك: حصل من النقص وفوات الثواب، وحصول العقاب ـ بحسبه.

بل أخبر الله تعالى: أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات في الدنيا، وأعلى المنازل في الآخرة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾[1] [سورة الحديد: ١٩]، والصديقون هم أعلى الخلق درجة بعد درجة الأنبياء: في الدنيا، وفي منازل الآخرة. وأخبر في هذه الآية: أن من حقق الإيمان به وبرسله، نال هذه الدرجة.

ويفسر ذلك ويوضحه ما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ: «**إن أهل الجنة**

---

(١) انظر تفسير شيخنا السعدي للآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

ليتراءَوْنَ أهل الغرفِ، كما تراءَوْنَ الكوكبَ الشرقيَّ أو الغربيَّ في الأفق؛ لتفاضل ما بينهم؛ فقالوا يارسول الله: تلك منازلُ الأنبياءِ لا يبلغها غيرهم قال: بلى - والذي نفسي بيده - رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين»[1].

وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين: في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم لله ولرسله. فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين.

وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه: من الانقياد والاستسلام؛ وأثنى على من قام به؛ فقال في أعظم آيات الإيمان: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾[2][سورة البقرة: ١٣٦].

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة؛ والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله؛ وبالإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده - بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٦] .

كما أثنى على المؤمنين - في آخر السورة - بالقيام بذلك؛ فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾[3][سورة البقرة: ٢٨٥].

فأخبر: أن الرسول ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء؛ بل آمنوا بهم جميعاً، وبما أوتوه من عند الله؛ وأنهم التزموا طاعة الله، فقالوا: سمعنا وأطعنا؛ وطلبوا من ربهم: أن يحقق لهم ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٢٥٦)، ومسلم في صحيحه برقم (٧٠٧٣).
(٢) انظر تفسير شيخنا السعدي للآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.
(٣) انظر تفسير شيخنا السعدي للآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وأن يعفو عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان؛ وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله: يجازيهم بما قاموا به من حقوق الإيمان، وما ضيعوه منها. كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء ـ عيسى وغيره ـ أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة آل عمران: ٥٣]، فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم؛ وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد وأن يحقق لهم القيام به: قولاً، عملاً، واعتقاداً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[1] [سورة الأنفال: ٢ ـ ٤].

فوصف الله المؤمنين بهذه الصفات المتضمنة للقيام بأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه. فإنه وصفهم بالإيمان به إيماناً: ظهرت آثاره في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وأنه ـ مع ثبوت الإيمان في قلوبهم ـ يزداد إيمانهم كلما تليت عليهم آيات الله، ويزداد خوفهم ووجلهم كلما ذكر الله؛ وهم في قلوبهم وسرهم متوكلون على الله، ومعتمدون في أمورهم كلها عليه، ومفوضون أمورهم إليه. وهم مع ذلك يقيمون الصلاة فرضها ونفلها: يقيمونها ظاهراً وباطناً، ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة. ومن كان على هذا الوصف: فلم يُبْقِ من الخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً. ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهراً وباطناً، ثم ذكر ثوابهم الجزيل، المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور، ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) انظر تفسير شيخنا السعدي للآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾[1] [سورة المؤمنون: ١ - ١١].

ففسر الله الإيمان - في هذه الآيات - بجميع هذه الخصال. فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ إلى آخر الأيات المذكورة. فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقاً. ومضمونها: القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات. وبتكميلهم للإيمان استحقوا وراثة جنات الفردوس التي هي أعلى الجنات؛ كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات.

وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة. ويترتب على ذلك: أنه يزيد بزيادة هذا الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها؛ وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت الأوصاف.

ولهذا كانوا ثلاث درجات: سابقون مقربون، وهم: الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات. ومقتصدون، وهم: الذي قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات وظالمون لأنفسهم، وهم: الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات، كما ذكرها الله بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٣٢﴾ [سورة فاطر: ٣٢].

---

(١) انظر تفسير شيخنا السعدي للآيات في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وقد يعطف الله على الإيمان، الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر، للحاجة إلى ذكر المعطوف. لئلا يظن الظان: أن الإيمان يكتفي فيه بما في القلب. فكم في القرآن من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ ثم يذكر خبراً عنهم[1]. والأعمال الصالحات: من الإيمان، ومن لوازم الإيمان. وهي التي يتحقق بها الإيمان. فمن ادعى أنه مؤمن ـ : وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله: من الواجبات، ومن ترك المحرمات، ـ فليس بصادق في إيمانه.

كما يقرن بين الإيمان والتقوى، في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾[2] [سورة يونس: ٦٢ ـ ٦٣].

فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب: من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة، ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله: من الكفر والفسوق والعصيان. ولهذا حقق ذلك بقوله: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ كما وصف الله بذلك خيار خلقه، بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [سورة الحجرات: ٧ ـ ٨].

فهذه أكبر المنن: أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويذيقه حلاوته: وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام؛ ويُبغِّض الله إليه أصناف المحرمات. والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله اللائق به.

---

(١) كما في سورة البقرة، (الآية: ٢٧٧)، وسورة يونس، (الآية: ٩)، وسورة هود، (الآية: ٢٣)، وسورة الكهف، (الآية: ٣٠، ١٠٧)، وسورة مريم، (الآية: ٩٦)، وسورة لقمان، (الآية: ٨)، وسورة فصلت، (الآية: ٨)، وسورة البروج، (الآية: ١١)، وسورة البينة، (الآية: ٧)، وغير ذلك من الآيات.

(٢) انظر تفسير شيخنا السعدي للآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

كما ثبت في الصحيح ـ من حديث أنس رضي الله عنه ـ أنه ﷺ قال: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع عن دينه، كما يكره أن يقذف في النار»**[1].

فذكر أصل الإيمان الذي هو: محبة الله ورسوله؛ ولا يكتفي بمطلق المحبة، بل لا بد أن تكون محبة الله مقدمة على جميع المحاب، وذكر تفريعها: بأن يحب لله، ويبغض لله. فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين؛ لأنهم قاموا بمحاب الله واختصهم من بين خلقه، وذكر دفع ما يناقضه وينافيه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة، تقدر أعظم من كراهة إلقائه في النار.

وأخبر في هذا الحديث: أن للإيمان حلاوة في القلب، إذا وجدها العبد سلته عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأغراض النفسية، وأوجبت له الحياة الطيبة، فإن من أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعاً ـ فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ـ واجتهد في متابعة الرسول، وقدَّم متابعته على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها. من كان كذلك: فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام، فهو على نور من ربه. وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [سورة الأنعام: ١٣٢].

وكذلك في الصحيحين ـ من حديث أبي هريرة ـ أنه ﷺ قال: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ أعلاها قول: لا إله إلا الله؛ وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[2].

وهذا صريح: أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٦ و٦٥٤٢)، ومسلم في صحيحه برقم (١٦٣).
(٢) انظر شرح الحديث لشيخنا السعدي رحمه الله في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه. فجمع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته ـ هو قول: لا إله إلا الله؛ اعتقاداً، وتألهاً، وإخلاصاً لله ـ وبين أدناه، وهو: إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذي، عن الطريق فكيف بما فوق ذلك: من الإحسان، وذكر الحياء، ـ والله أعلم ـ : لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح. كما به يتحقق كل خلق حسن، وهذه الشعب ـ المذكورة في هذا الحديث ـ هي جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وهذا ـ أيضاً ـ صريح: في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه، ومن المعلوم: أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً كبيراً، فمن زعم: أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص: فقد خالف الحس، مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى.

وقد ذكر النبي ﷺ الإسلام والإيمان في حديث جبريل المشهور، حيث سأله جبريل بحضرة الصحابة عن الإيمان، فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقدر**»[1]؛ وفسر الإسلام بالشرائع الخمس الظاهرة. لأنه ـ كما تقدم ـ إذا قرن بالإيمان غيره، فسر الإيمان بما في القلب من العقائد الدينية؛ والإسلام أو الأعمال الصالحة بالشرائع الظاهرة. وأما عند الإطلاق إذا أطلق الإيمان، فقد تقدم أنه يشمل ذلك أجمع.

وفي الصحيحين ـ من حديث أنس ـ أن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[2].

فأخبر ﷺ: أنه إذا تعارضت المحبتان؛ فإن قدم ما يحبه الرسول: كان صادق الإيمان؛ وإلا: فهو ناقص الإيمان. كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٠ و٤٧٧٧)، ومسلم في صحيحه برقم (٩٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٥)، ومسلم في صحيحه برقم (١٦٧).

قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[1][سورة النساء: ٦٥].

فأقسم تعالى: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، ولا يبقى في قلوبهم حرج وضيق من حكمه وينقادوا له انقياداً، وينشرحوا لحكمه. وهذا شامل في تحكيمه في أصول الدين، وفي فروعه، وفي الأحكام الكلية، والأحكام الجزئية.

وفي الصحيحين أيضاً ـ عن أنس مرفوعاً ـ : «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[2]. وذلك يقتضي أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامة؛ فإنه من الإيمان. ومن لم يقم بذلك ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب، بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه.

وفي صحيح مسلم ـ من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي الله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً**»[3].

والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأقضيته عليه، و [أن] يرضى بالإسلام ديناً، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر المنن: حيث رضي الله له الإسلام ووفقه له، واصطفاه له: ويرضى بمحمد ـ ﷺ ـ نبيّاً: إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال، وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته، وأتباعه ـ : من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن

---

(١) انظر تفسير الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣)، ومسلم في صحيحه برقم (١٦٨).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٥٠).

كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٦٤]، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة التوبة: ١٢٨].

فكيف لا يرضى المؤمن بهذا الرسول الكريم، الرؤوف الرحيم؛ الذي أقسم الله أنه لعلى خلق عظيم[1]؛ وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله، واقتداؤه برسوله، ومحبته واتباعه؛ وهذا علامة محبة الله؛ وباتباعه تتحقق المحبة والإيمان؟!.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [سورة آل عمران: ٣١].

وفي صحيح مسلم ـ من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ـ قال: قلت: يا رسول الله؛ قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «**قل آمنت بالله؛ ثم استقم**»[2].

فبين ﷺ ـ بهذه الوصية الجامعة ـ : أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهراً وباطناً، ثم استقام عليه ـ قولاً وعملاً، فعلا وتركاً ـ: فقد كمل أمره، واستقام على الصراط المستقيم، ورجي له أن يدخل مع من قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

وفي حديث ابن عباس ـ المتفق عليه ـ في وفد عبد القيس، حين وفدوا على النبي ﷺ، حيث قالوا: (مرنا بأمر فصل: نخبر به من وراءنا وندخل به

---

(١) انظر سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه وانظر شرح الحديث وكلام شيخنا السعدي عليه في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

الجنة)؛ وسألوه عن الأشربة. فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع: أمرهم: بالإيمان بالله وحده؛ [و] قال: «**أتدرون: ما الإيمان بالله وحده؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله؛ وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس**» ونهاهم عن أربع: «**عن الحنتم، والدُّبَّاء، والنَّقِير، والمُزَفَّتِ**» وقال: «**احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم**»[1].

فهذا ـ أيضاً ـ صريح في إدخاله الشرائع الظاهرة بالإيمان؛ مثل الصلاة والزكاة والصيام، وإعطاء الخمس من المغنم. وكل هذا يفسر لنا الإيمان تفسيراً يزيل الإشكال، وأنه كما يدخل فيه العقائد القلبية، تدخل فيه الأعمال البدنية فكل ما يقرب إلى الله ـ من قول وعمل واعتقاد ـ فإنه من الإيمان.

وفي سنن أبي داود، عن أبي إمامة، قال رسول الله ﷺ: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله: فقد استكمل الإيمان**»[2].

فالحب والبغض: في القلب والباطن، والعطاء والمنع: في الظاهر. واشترط فيها كلها: الإخلاص الذي هو روح الإيمان ولبه وسره.

فالحب في الله: أن يحب الله، ويحب ما يحبه: من الأعمال والأوقات والأزمان والأحوال؛ ويحب من يحبه: من أنبيائه وأتباعهم.

والبغض في الله: أن يبغض كل ما أبغضه [الله]: من كفر وفسوق وعصيان ويبغض من يتصف بها، أو يدعو إليها.

والعطاء يشمل عطاء العبد من نفسه كل ما أمر به؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [سورة الليل: ٥ ـ ٧]، وهذا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٣ و٥٢٣ و١٣٩٨ و٣٠٩٥ و٣٥١٠ و٤٣٦٨ و٤٣٦٩ و٦١٧٦ و٦١٧٦ و٧٢٦٦)، ومسلم في صحيحه برقم (١١٥ و٥١٤٧).

(٢) رواه أبو داود في سننه وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٣٩١٥) والسلسلة الصحيحة برقم (٣٨٠) وانظر شرح شيخنا السعدي للحديث في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

يشمل جميع ما أمر به العبد: لا يختص بالعطاء المالي؛ بل هو جزء من العطاء، وكذلك مقابله المنع.

وبهذه الأمور الأربعة، يتم للعبد إيمانه ودينه.

وكذلك ما رواه الترمذي والنسائي ـ من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**»[1] يدل: على أن الإيمان الصحيح يحمل صاحبه على رعاية الأمانة، وينهاه عن الخيانة؛ حتى يطمئن إليه الناس، ويأمنوه على أنفس الأشياء عندهم، وهي: الدماء، والأموال.

وهذه النصوص كلها تبين معنى الإيمان وحقيقته، وأنه ـ كما قال الحسن وغيره: (ليس الإيمان بالتمني والتحلي ولكنه: ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال).

فالأعمال الظاهرة، والباطنة تصدق الإيمان، وبها يتحقق. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [سورة التغابن: ١١].

فالعبد إذا أصابته المصيبة، فآمن أنها من عند الله وأن الله حكيم رحيم في تقديرها، وأنه أعلم بمصالح عبده ـ : هدى الله قلبه هداية خاصة للرضا والصبر والتسليم والطمأنينة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾[2] [سورة يونس: ٩]، فحذف المتعلق: ليشمل هدايتهم لكل خير، وهدايتهم لترك كل شر؛ وذلك بسبب إيمانهم. فالأعمال من الإيمان من جهة، ومن ثمرات الإيمان ولوازمه من جهة أخرى. والله الموفق.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣].

كثير من المفسرين فسروا الإيمان هنا، بالصلاة إلى القبلة التي كانوا

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٦٢٧) والنسائي في سننه (٨/ ١٠٤، ١٠٥) وصححه شيخنا الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم (٦٧١٠).

(٢) انظر تفسير الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

عليها ـ بيت المقدس ـ قبل النسخ؛ حيث مات أناس من المسلمين قبل أن تنقل القبلة إلى الكعبة، فحصل عند بعضهم اشتباه في شأنهم، فأنزل الله هذه الآية[1]. وذلك: أن صلاتهم إلى بيت المقدس في ذلك الوقت، التزام منهم لطاعة الله ورسوله: وذلك هو الإيمان.

وهذه الآية فيها بشارة كبرى وهي: أن الله لا يضيع إيمان المؤمنين: قلَّ ذلك الإيمان، أو كثر. كما ورد في الصحيح: **«أن الله يخرج من النار من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان»**[2].

وبشارة لكل من عمل عملاً قصده طاعة الله ورسوله، وهو متأول أو مخطىء، أو نسخ ذلك العمل. فإنه إنما عمل ذلك العمل: إيماناً بالله، وقصداً لطاعته، ولكنه تأول تأويلاً أخطأ فيه، أو أخطأ بلا تأويل؛ فخطؤه معفو عنه، وأجر القصد والتوجه إلى الله وإلى طاعته، لا يضيعه الله.

ولهذا قال الله عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦] قال الله على لسان نبيه: **«قد فعلت»**[3].

وفي الحديث الصحيح: **«إذا اجتهد الحاكم فحكم، فأصاب: فله أجران: وإذا اجتهد، فأخطأ: فله أجر واحد»**[4]. خطؤه مغفور له.

وكذلك: من نوى عملاً صالحاً، وحرص على فعله، ومنعه مانع: من مرض، أو سفر، أو عجز أو غيرها. كتب له ما نواه من ذلك العمل، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم ـ من حديث أبي موسى مرفوعاً ـ : **«من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»**[5] ويدخل في ذلك من أقعده الكِبَرُ عن عمله المعتاد.

---

(١) كما في صحيح البخاري (١/ ١٢ ـ ١٣) وفتح الباري (١/ ٩٥، ٩٨) وسنن أبي داود (٤/ ٢٢٠).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٢ و٦٥٦٠)، ومسلم في صحيحه برقم (٤٥٦).
(٣) انظر صحيح مسلم (١٢٦) (٢٠٠).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧٣٥٢) تعليقاً، ومسلم في صحيحه برقم (٤٤٦٢).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٢٤٦)، وأحمد في المسند (٤/ ٤١٠ و٤١٨).

فصل

إذا ثبت بدلالة الكتاب السنة معنى الإيمان، وأنه اسم جامع لشرائع الإيمان، وحقائق الإحسان؛ وتوابع ذلك من أمور الدين ـ بل هو إسم للدين كله ـ : علم أنه يزيد وينقص، ويقوى ويضعف.

وهذه المسألة لا تقبل الاشتباه بوجه من الوجوه: لا شرعاً، ولا حسّاً، ولا واقعاً.

وذلك: أن نصوص الكتاب والسنة صريحة في زيادته ونقصانه؛ مثل قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [سورة الفتح: ٤]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [سورة المدثر: ٣١] ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣] ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة التوبة: ١٢٤] وغيرها من الآيات.

وكان الحس والواقع يشهد بذلك من جميع وجوه الإيمان؛ فإن الناس في علوم الإيمان، وفي معارفه، وفي أخلاقه وأعماله الظاهرة والباطنة ـ متفاوتون تفاوتاً عظيماً: في القوة والكثرة، ووجود الآثار، ووجود الموانع، وغير ذلك. فالمؤمنون الكمل عندهم من تفاصيل علوم الإيمان ومعارفه وأعماله، ما لا نسبة إليه من علوم كثير من المؤمنين، وأعمالهم وأخلاقهم. فعند كثير منهم علوم ضعيفة مجملة، وأعمال قليلة ضعيفة، وعند كثير منهم، من المعارضات والشبهات والشهوات، ما يضعف الإيمان، وينقصه درجات كثيرة، بل تجد المؤمنين يتفاوتون تفاوتاً كثيراً في نفس العلم الذي عرفوه من علوم الإيمان؛ أحدهما: علمه فيه قوي صحيح لا ريب فيه ولا شبهة؛ والآخر: علمه فيه ضعيف، وعنده معارضات كثيرة تضعفه أيضاً. وكذلك أخلاق الإيمان يتفاوتون فيها تفاوتاً كثيراً: صفات الحلم والصبر والخلق وغيرها. وكذلك في العبادات الظاهرة: كالصلاة، يصلي اثنان صلاة واحدة، وأحدهما يؤدي حقوقها الظاهرة

والباطنة، ويعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه[1]. والآخر يصليها بظاهره: وباطنه مشغول بغيرها. وكذلك بقية العبادات.

ولهذا كان المؤمنون ثلاث مراتب: مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين، ومرتبة الظالمين. وكل واحدة من هذه المراتب أيضاً، أهلها متفاوتون تفاوتاً كثيراً. والعبد المؤمن ـ في نفسه ـ له أحوال وأوقات تكون أعماله كثيرة قوية، وأحياناً بالعكس. وكل هذا من زيادة الإيمان ونقصه، ومن قوته وضعفه. وكان خيار الأمة، والمعتنون بالإيمان منهم ـ يتعاهدون إيمانهم كل وقت يجتهدون في زيادته وتقويته، وفي دفع المعارضات المنقصة له، ويجتهدون في ذلك، ويسألون الله: أن يثبت إيمانهم، ويزيدهم منه: من علومه وأعماله وأحواله. فنسأل الله: أن يزيدنا علماً ويقيناً، وطمأنينة به وبذكره، وإيماناً صادقاً.

وخيار الخلق ـ أيضاً ـ يطلبون ويتنافسون في الوصول إلى عين اليقين، بعد علم اليقين، وإلى حق اليقين. كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة الأنعام: ٧٥].

والحواريون خواص أتباع المسيح بن مريم ـ حين طلبوا نزول المائدة ووعظهم عيسى عن هذا المطلب ـ ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: ١١٣] فذكروا حاجتهم الدنيوية، وحاجتهم العلمية الإيمانية، إلى ذلك.

* * *

(١) وهذا هو تعريف الإحسان كما عرفه رسول الله ﷺ في حديث جبريل المشهور.

المبحث الثاني

في ذكر الأمور التي يستمد منها الإيمان

وهذا فصل عظيم النفع والحاجة، بل الضرورة ماسة إلى معرفته والعناية به، معرفة واتصافاً ـ وذلك: أن الإيمان هو كمال العبد، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل. ولا يحصل، ولا يقوى، ولا يتم إلا بمعرفة ما منه يستمد. وإلى ينبوعه وأسبابه وطرقه.

والله تعالى قد جعل لكل مطلوب سبباً وطريقاً يوصل إليه. والإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها؛ وقد جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما كان له أسباب تضعفه وتوهيه.

ومواده التي تجلبه وتقويه أمران: مجمل ومفصل.

أما المجمل فهو: التدبر لآيات الله المتلوة: من الكتاب والسنة؛ والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها؛ والحرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد؛ والعمل بالحق؛ فجميع الأسباب مرجعها إلى هذا الأصل العظيم.

وأما التفصيل: فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة:

١ ـ منها ـ بل أعظمها ـ : معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها.

فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**إن لله تسعة وتسعين إسماً ـ مائة إلا واحداً ـ من أحصاها، دخل الجنة**»[1] أي من حفظها، وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبَّد لله بها دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٤١٠)، ومسلم في صحيحه برقم (٦٧٥٠).

فعلم: أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته؛ ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلٰهية، وتوحيد الأسماء الصفات، وهذه الأنواع هي رُوح الإيمان ورَوحه، وأصله وغايته. فكلما إزداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، إزداد إيمانه، وقوي يقينه، فينبغي للمؤمن: أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل؛ اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول؛ بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله.

٢ ـ ومنها: تدبر القرآن على وجه العموم. فإن المتدبر لايزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه؛ ما يزداد به إيماناً. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢].

وكذلك: إذا نظر إلى انتظامه وإحكامه؛ وأنه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف ـ : تيقن أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه ـ من التناقض والاختلاف ـ أموراً كثيرة. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة النساء: ٨٢]. وهذا من أعظم مقويات الإيمان؛ ويقويه من وجوه كثيرة: فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة ـ يحصل له من أمور الإيمان، خير كبير فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره؟! ولهذا كان المؤمنون الكمل يقولون: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [سورة آل عمران: ١٩٣].

٣ ـ وكذلك معرفة أحاديث النبي ﷺ وما تدعوا إليه من علوم الإيمان وأعماله ـ كلها من محصلات الإيمان ومقوياته. فكلما ازداد العبد معرفة

بكتاب الله وسنة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه، وقد يصل في عمله وإيمانه إلى مرتبة اليقين. فقد وصف الله الراسخين في العلم. الذين حصل لهم العلم التام القوي. الذي يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام؛ ولهذا كانوا سادة المؤمنين: الذين استشهد الله بهم، واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [سورة آل عمران: ٧].

فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات؛ وردوا المتشابه من الآيات إلى المحكم منها، وقالوا: آمنا بالجميع، فكلها من عند الله؛ وما منه، وما تكلم به وحكم به ـ كله حق وصدق.

وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [سورة النساء: ١٦٢].

وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٨].

ولعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح ـ استشهد بهم في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الروم: ٥٦].

وأخبر تعالى في عدة آيات: أن القرآن آيات المؤمنين، [وآيات] للموقنين[1]. لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره ـ: من العلم واليقين والإيمان ـ بحسب ما فتح الله عليهم منه. فلا يزالون يزدادون علماً وإيماناً ويقيناً.

---

(١) انظر على سبيل المثال الآيات: (البقرة: ٩٧)، (النساء: ٨٢)، (الأنفال: ٢)، (يونس: ٥٧)، (الإسراء: ٩، ٨٢)، (النمل: ٢، ٧٧)، (يس: ٦٩، ٧٠)، (الجاثية: ٢٠)، (الأحقاف: ٣٠) وغير ذلك.

فالتدبر للقرآن من أعظم الطرق والوسائل: الجالبة للإيمان، والمقوية له.
قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص: ٢٩].

فاستخراج بركة القرآن ـ التي من أهمها حصول الإيمان ـ سبيله وطريقه: تدبر آياته وتأملها؛ كما ذكر: [أن تدبره يوقف الجاحد عن جحوده، ويمنع المعتدي على الدين من اعتدائه].

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٨] أي: فلو تدبروه حق تدبره، لمنعهم مما هم عليه: من الكفر والتكذيب؛ وأوجب لهم الإيمان واتباع من جاء به.

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [سورة يونس: ٣٩]؛ أي: فلو حصل لهم الإحاطة بعلمه، لمنعهم من التكذيب، وأوجب لهم الإيمان.

٤ ـ ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه ـ معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة.

فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه، وصدق ما جاء به: من الكتاب والسنة، والدين الحق، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٦٩]، أي: فمعرفته ـ ﷺ ـ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن لم يؤمن وزيادة الإيمان ممن آمن به.

وقال تعالى حاثّاً لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان ـ: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة سبأ: ٤٦].

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول، وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق ـ بقوله: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [سورة القلم: ١ ـ ٤].

فهو ـ ﷺ ـ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة،

وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة فهو الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١] ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [سورة الحشر: ٧].

وقد ذكر الله عن أولى الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ وهو: هذا الرسول الكريم ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ بقوله وخلقه، وعمله ودينه، وجميع أحواله؛ ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [سورة آل عمران: ١٩٣] أي: إيماناً لا يدخله ريب.

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله ـ توسلوا بإيمانهم: أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات؛ فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٩٣].

ولهذا كان الرجل المنصف ـ الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه ـ يبادر إلى الإيمان [به ﷺ]، ولا يرتاب في رسالته بل كثير منهم ـ مجرد ما يرى وجهه الكريم ـ يعرف: أنه ليس بوجه كذاب.

وقيل لبعضهم: (لم بادرت إلى الإيمان بمحمد قبل أن تعرف رسالته؟) فقال: (ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته نهى عنه؛ ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به) فاستدل هذا العاقل الموفق ـ بحسن شريعته، وموافقتها للعقول الصحيحة ـ على رسالته؛ فبادر إلى الإيمان [به].

ولهذا استدل ملك الروم هرقل ـ لما وصف له ما جاء به الرسول، وما كان يأمر به، وما ينهي عنه ـ استدل بذلك: أنه من أعظم الرسل؛ واعترف بذلك اعترافاً جليّاً. ولكن منعته الرئاسة وخشية زوال ملكه من اتباعه؛ كما منعت كثيراً ممن اتضح لهم أنه رسول الله حقّاً. وهذا من أكبر موانع الإيمان في حق أمثال هؤلاء.

وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه الموانع والرئاسات

والشبهات والشهوات تضمحل، ولا يرون لها قيمة: حتى يعارض بها الحق الصحيح النافع، المثمر للسعادة: عاجلاً وآجلاً.

ولهذا السبب الأعظم، كان المعتنون بالقرآن حفظاً ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة ـ أعظم إيماناً ويقيناً من غيرهم، وأحسن عملاً في الغالب.

٥ ـ ومن أسباب الإيمان ودواعيه: التفكر في الكون، في خلق السموات والأرض وما فيهن: من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه: من الصفات.

فإن ذلك داع قوي للإيمان، لما في هذا الموجودات: من عظمة الخلق الدَّال على قدرة خالقها وعظمته؛ وما فيها: من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الألباب؛ الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته؛ وما فيها: من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره. وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره؛ وإخلاص الدين له. وهذا هو روح الإيمان ويسره.

وكذلك النظر إلى فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين خصوصاً ما تشاهده في نفسك: من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار. وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله: في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه؛ ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه. وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التعبد. فإن الدعاء مخ العبادة وخالصها[1].

---

(١) يشير شيخنا ـ رحمه الله وغفر له ـ إلى حديث **«الدعاء مخ العبادة»** رواه الترمذي ولكنه ضعيف كما نبه على ذلك شيخنا الألباني رحمه الله تعالى، واللفظ الصحيح **«الدعاء هو العبادة»** رواه أحمد أبو داود والترمذي وصححه شيخنا الألباني رحمه الله تعالى. انظر أحكام الجنائز ص ١٩٤.

وكذلك التفكر في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة، التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين. فإن هذا يدعو إلى الإيمان.

ولهذا دعى الله الرسل والمؤمنين إلى شكره: فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٢]. فالإيمان يدعو إلى الشكر والشكر ينمو به الإيمان. فكل منهما ملازم وملزوم للآخر.

٦ ـ ومن أسباب دواعي الإيمان: الإكثار من ذكر الله كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة.

فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها. وكلما ازداد العبد ذكراً لله: قوي إيمانه؛ كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر. فمن أحب الله أكثر من ذكره؛ ومحبة الله هي: الإيمان، بل هي روحه.

٧ ـ ومن الأسباب الجالبة للإيمان: معرفة محاسن الدين.

فإن الدين الإسلامي كله محاسن: عقائده أصح العقائد وأصدقها وأنفعها؛ وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها؛ وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها.

وبهذا النظر الجليل يزين الله الإيمان في قلب العبد، ويحببه إليه. كما امتن به على خيار خلقه، بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ٧] فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء. وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدها في قلبه؛ فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمل الجوارح بأعمال الإيمان: وفي الدعاء المأثور: **«اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»**[1].

* * *

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٦٤) والنسائي (٣/ ٥٤، ٥٥) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن النسائي برقم (١٢٣٧ و ١٢٣٨).

٨ ـ ومن أعظم مقويات الإيمان: الاجتهاد في التحقق في مقام الإحسان، في عبادة الله والإحسان إلى خلقه. فيجتهد: أن يعبد الله كأنه يشاهده، فإن لم يقو على هذا استحضر أن الله يشاهده ويراه؛ فيجتهد في إكمال العمل وإتقانه. ولا يزال العبد يجاهد نفسه: ليتحقق بهذا المقام العالي، حتى يقوى إيمانه ويقينه. ويصل في ذلك إلى حق اليقين ـ الذي هو أعلى مراتب اليقين ـ فيذوق حلاوة الطاعات، ويجد ثمرة المعاملات. وهذا هو الإيمان الكامل.

وكذلك الإحسان إلى الخلق ـ بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع ـ هو من الإيمان، ومن دواعي الإيمان، والجزاء من جنس العمل، فكما أحسن إلى عباد الله، وأوصل إليهم من بره، ما يقدر عليه ـ: أحسن الله إليه أنواعاً من الإحسان، ومن أفضلها: أنْ يُقوي إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرب إلى ربه، وإخلاص العمل له.

وبذلك يتحقق العبد بالنصح لله ولعباده فإن الدين النصيحة[1]؛ ومن وفق للإحسان في عبادة ربه، والإحسان في معاملة الخلق: فقد تحقق نصحه.

ولذلك قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[2].

٩ ـ ومنها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾[3] [سورة المؤمنون: ١ ـ ١١] فهذه الصفات الثمان، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه؛ كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره كما تقدم.

فحضورالقلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود ـ من أسباب زيادة الإيمان ونموه.

---

(١) كما ورد ذلك من الحديث الصحيح المتفق عليه.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣)، ومسلم في صحيحه برقم (١٦٨).
(٣) انظر شرح الآيات في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وتقدم: أن الله سمى الصلاة إيماناً، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣] وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥]. فهي أكبر ناه عن كل فحشاء ومنكر ينافي الإيمان؛ كما أنها تحتوي على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه؛ لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده، وهي فرضها ونفلها: كما قال النبي ﷺ: «**والصدقة برهان**»[1]، أي: على إيمان صاحبها. فهي دليل الإيمان، وتغذيه وتنميه.

والإعراض عن اللغو الذي هو: كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه ـ بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولاً وفعلاً ـ لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان، ويثمر الإيمان.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم، يقول بعضهم لبعض: (إجلس بنا نؤمن ساعة): فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية. فيتجدد بذلك إيمانهم.

وكذلك العفة عن الفواحش خصوصاً فاحشة الزنا، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته. فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه، نهى النفس عن الهوى، إجابة لداعي الإيمان، وتغذية لما معه من الإيمان.

ورعاية الأمانات والعهود وحفظها: من علائم الإيمان. وفي الحديث: «**لا إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ**»[2].

وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه، فانظر حاله: هل يرعى الأمانات كلها، مالية أو قولية؛ أو أمانات الحقوق؟ وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله، والتي بينه وبين العباد؟.

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه.

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١) وابن أبي شيبة في الإيمان (٧) وغيرهما وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في تخريج الإيمان لابن أبي شيبة.

فإن كان كذلك: فهو صاحب دين وإيمان. وإن لم يكن كذلك: نقص من دينه وإيمانه بمقدار ما انتقص من ذلك.

وختمها بالمحافظة على الصلوات ـ على حدودها، وحقوقها، وأوقاتها ـ: لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذي يجري على بستان الإيمان، فيسقيه وينميه ويؤتي أكله كل حين.

وشجرة الإيمان ـ كما تقدم ـ محتاجة إلى تعاهدها كل وقت بالسقي ـ وهو: المحافظة على أعمال اليوم والليلة من الطاعات والعبادات ـ وإلى إزالة ما يضرها من الصخور والنوابت الغريبة الضارة؛ هو: العفة عن المحرمات قولاً وفعلاً. فمتى تمت هذه الأمور حيا هذا البستان وزَها، وأخرج الثمار المتنوعة.

١٠ ـ ومن دواعي الإيمان وأسبابه: الدعوة إلى الله وإلى دينه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه: بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويُكمِّلُ غيرَه كما أقسم تعالى بالعصر: أن جنس الإنسان لفي خسر، إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان والعمل الصالح اللذين بهما تكميل النفس، والتواصي بالحق ـ الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق ـ وبالصبر على ذلك كله؛ يكمل غيره.

وذلك: أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقومات الإيمان وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهن على تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.

وأيضاً: فإن الجزاء من جنس العمل؛ فكما سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق؛ وصبر على ذلك ـ لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده بنور منه، وروح وقوة وإيمان، وقوة التوكل، فإن الإيمان وقوة التوكل على الله، يحصل به النصر على الأعداء: من شياطين الإنس، وشياطين

الجن. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [سورة النحل: ٩٩].

وأيضاً: فإنه متصد لنصر الحق؛ ومن تصدى لشيء، فلا بد أن يفتح عليه فيه ـ: من الفتوحات العلمية والإيمانية ـ بمقدار صدقة وإخلاصه.

١١ ـ ومن أهم مواد الإيمان ومقوياته: توطين النفس على مقاومات من ينافي الإيمان: من شعب الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان.

فإنه كما أنه لا بد في الإيمان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له، فلا بد مع ذلك ـ من دفع الموانع والعوائق؛ وهي: الإقلاع عن المعاصي، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة في علوم الإيمان، المضعفة له، والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان. فإن الإرادات التي أصلها: الرغبة في الخير ومحبته والسعي فيه، ـ لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها: من رغبة النفس في الشر ومقاومة النفس الأمارة بالسوء.

فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات، وفتن الشهوات، ـ: تم إيمانه، وقوي يقينه؛ وصار مثل بستان إيمانه: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٥].

ومتى كان الأمر بالعكس: ـ بأن استولت عليه النفس الأمارة بالسوء، ووقع في فتن الشبهات والشهوات، أو كليهما ـ انطبق عليه هذا المثل وهو قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٦٦].

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها علماً وعملاً وحالاً.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها: من الفتن الظاهرة والباطنة؛ ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني -: بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [سورة الأعراف: ٢٠١]؛ أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان؛ فإذا أبصروا. تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق برتقه؛ فعادوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيراً ذليلاً؛ وَإِخْوَانُ الشياطين: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٢] الشياطين لا تقتصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك؛ والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك؛ ويحق عليهم الخسار.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا؛ وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان؛ واجعلنا من الراشدين بفضلك ومنتك، إنك أنت العليم الحكيم.

* * *

المبحث الثالث

في فوائد الإيمان وثمراته

كم للإيمان الصحيح من الفوائد والثمرات العاجلة والآجلة، في القلب والبدن والراحة، والحياة الطيبة، والدنيا والآخرة، وكم لهذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة، والجنى اللذيذ، والأكل الدائم، والخير المستمر؛ أمور لا تحصى، وفوائد لا تستقصى، ومجملها: أن خيرات الدنيا والآخرة، ودفع الشرور كلها من ثمرات هذه الشجرة.

وذلك: أن هذه الشجرة إذا ثبتت وقويت أصولها، وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها ـ: عادت على صاحبها وعلى غيره، بكل خير عاجل وآجل.

١ ـ فمن أعظم ثمارها الاغتباط بولاية الله الخاصة، التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأجل ما حصله الموفقون.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة يونس: ٦٢ ـ ٦٣].

فكل مؤمن تقي، فهو لله ولي ولاية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧]، أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر. وحاصل ذلك: أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة، إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل.

وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل: بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا

الإيمان بالتقوى فإن التقوى من تمام الإيمان، كما تقدم تحقيقه.

* * *

٢ ـ ومن ثمرات الإيمان: الفوز برضا الله، ودار كرامته.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[1] [سورة التوبة: ٧١ ـ ٧٢] فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة: بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات. وذلك فضل الله.

* * *

٣ ـ ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار؛ والإيمان ـ ولو قليلاً ـ يمنع من الخلود فيها.

فإن من آمن إيماناً ـ أدى به الواجبات، وترك المحرمات ـ: فإنه لا يدخل النار. كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ ـ في هذا الأصل. كما تواتر عنه: أنه لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان ولو يسيراً[2].

* * *

٤ ـ ومن ثمرات الإيمان: أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المكاره، وينجيهم من الشدائد. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [سورة

---

(١) انظر تفسير شيخنا السعدي للآيات في الفصل الأول من هذا الكتاب.
(٢) انظر ما رواه البخاري (٧/ ١٤٩) ومسلم (١/ ٦٦) في صحيحيهما.

الحج: ٣٨]، أي يدافع عنهم كل مكروه؛ يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخففها بعد نزولها.

ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنه: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨]: إذا وقعوا في الشدائد؛ كما أنجينا يونس. قال النبي ﷺ: «**دَعْوَةُ أَخِي يُونُسَ ما دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إلاَّ فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَتَهُ ـ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**»[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: بالقيام بالإيمان ولوازمه؛ ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [سورة الطلاق: ٢]، أي من كل ما ضاق على الناس؛ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [سورة الطلاق: ٤].

فالمؤمن المتقي: ييسر الله له أموره وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى: ويسهل عليه الصعاب ويجعل له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً؛ ويرزقه من حيث لا يحتسب. وشواهد هذا كثير. من الكتاب والسنة.

* * *

٥ ـ ومنها: أن الإيمان والعمل الصالح ـ الذي هو فرعه ـ يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[2] [سورة النحل: ٩٧].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٧٠) والترمذي في سننه (٣٥٠٥) و صححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٧٨٥).

(٢) انظر تفسير الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وذلك أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته، وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره، وهذه هي الحياة الطيبة. فإن أصل الحياة الطيبة: راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.

* * *

٦ ـ ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها: من الإيمان والإخلاص.

ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل؛ مثل قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٤]؛ أي لا يجحد سعيه ولا يضيع عمله؛ بل يضاعف بحسب قوة إيمانه.

وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة الإسراء: ١٩]. والسعي للآخرة: هو العمل بكل ما يقرب إليها، ويدني منها؛ من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ.

فإذا تأسست على الإيمان، وانبنت عليه كان السعي مشكوراً مقبولاً مضاعفاً، لا يضيع منه مثقال ذرة.

وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره، فإنه غير مقبول. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الفرقان: ٢٣].

وذلك: لأنها أسست على غير الإيمان بالله ورسوله، الذي روحه: الاخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥] فهم لما فقدوا الإيمان، وحل محله الكفر بالله وآياته حبطت أعمالهم.

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر: ٦٥] ، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟

لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام:٨٨].

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يجب ما قبله: من السيئات وإن عظمت؛ والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان، والقادحة فيه، والمنقصة له ـ تجب ما قبلها.

* * *

٧ ـ ومنها: أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم، ويهديه في الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلقي المحاب والمسار بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾(١) [سورة يونس: ٩].

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [سورة التغابن: ١١]، قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم.

ولو لم يكن من ثمرات الإيمان، إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره: التي كل أحد عرضة لها في كل وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها وذلك: لقوة إيمانه، وقوة توكله، ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه في فضله، فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: ١٠٤].

ولهذا تجد اثنين: تصيبهم مصيبة واحدة أو متقاربه ـ وأحدهما عنده إيمان، والآخر فاقد له ـ تجد الفرق العظيم بين حاليهما، وتأثيرها في ظاهرهما وباطنهما وهذا الفرق راجع إلى الإيمان والعمل بمقتضاه.

وكما أنه يسلي عند ورود المصائب والمكاره، فإنه يسلي عند فقد

---

(١) انظر تفسير شيخنا السعدي للآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

المحاب. فإذا فقد المؤمن حبيبه الذي تمكن حبه من قلبه ـ: من أهل وولد، ومال، وصديق، وشبهها ـ: تسلى بحلاوة إيمانه، والإيمان خير عوض للمؤمن عن كل مفقود، كما هو مشاهد مجرب.

وفقد المحبوب ـ في الحقيقة ـ معدود من المصائب. ولولا أن يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ عنده من الإيمان ما يُهَوِّنُ عليه مصيبته في فقد يوسف مع شدة حبه العظيم: بحيث قال لإخوته ـ لمّا طلبوا منه بعض يوم، أن يذهب معهم ليرتع ويلعب ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ [سورة يوسف: ١٣].

فأخبر أن المانع له من إرساله: أنه لا يصبر على فراقه ولا ساعة من نهار. ولكنهم عالجوه، وذكروا له الأسباب التي توجب له أن يرسله معهم، فأرسله ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [سورة الأنفال: ٤٢] فمن هذه حاله، وهذا حبه البليغ الذي لا يمكن المعبر أن يعبر عنه ـ هل يدخل في الذهن أنه يبقى هذه المدة الطويلة على الوجود؟! بل يغلب على الظن أن الحب يفتت كبده بأسرع وقت. ولكن قوة الإيمان، وقوة الرجاء بالله، أوجب له أن يتمسك كل هذه المدة، حتى جاء الله بالفرج الذي وعد به المؤمنين.

وكذلك: أم موسى ـ حين ذهب اليم بموسى، وأصبح فؤادها فارغاً من كل شيء إلا من الحزن على موسى، ولولا أن الله ربط على قلبها بالإيمان، وعلمت أن وعد الله حق، لكادت تبدي بما في قلبها، وتصرح بمصيبتها. ولكن هو الإيمان: المثبت عند الشدائد، المسلي عند المصائب، المقوي إذا وهنت القوى، المعزي إذا عز العزا.

وقال النبي ﷺ، في وصيته العظيمة ـ في حديث عن ابن عباس، الصحيح الذي في السنن: «**تَعَرَّف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة**»[1]، أي تعرف إلى الله بالإيمان وأعمال الإيمان ـ وأنت صحيح غني ـ يعرفك الله في

---

(١) رواه أحمد والترمذي بلفظ: (يا غلام إني أعلمك كلمات: إحفظ الله يحفظك... =

الشدة، ويقويك الله على مباشرتها، ويعينك على معالجتها، وأعظم شدة ـ تنزل بالمؤمن ـ شدة الموت وسكراته.

فهذا الحديث بشرى لكل مؤمن، قد تَعَرَّف إلى ربه في رخائه أن يعينه في ذلك المقام الحرج، والشدة المزعجة، وضعف القوى، وتكاثف الشياطين الذين يريدون أن يحولوا بين العبد وبين ختم حياته بالخير. فإن الله يعينه بتأييده، ورَوْحِه ورحمته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

٨ ـ ومن ثمرات الإيمان ولوازمه ـ من الأعمال الصالحة ـ ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [سورة مريم: ٩٦]، أي بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان، يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين. ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده، حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين: من الثناء والدعاء له حيّاً وميتاً، والاقتداء به، وحصول الإمامة في الدين.

وهذه أيضاً من أجل ثمرات الإيمان: أن يجعل الله للمؤمنين ـ الذين إيمانهم بالعلم والعمل ـ لسان صدق ـ ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [سورة السجدة: ٣٤] فبالصبر واليقين ـ اللذين هما رأس الإيمان وكماله ـ نالوا الإمامة في الدين.

* * *

٩ ـ ومنها قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [سورة المجادلة: ١١].

= وروى عبد بن حميد الحديث بلفظ: احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة...) قال ابن رجب الحنبلي أنها رواية ضعيفة، انظر رياض الصالحين بتحقيق شيخنا الألباني رحمه الله حديث (رقم: ٦٣).

فهم أعلى الخلق درجة عند الله وعند عباده في الدنيا والآخرة.

وإنما نالوا هذه الرفعة: بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم، والعلم، واليقين من أصول الإيمان.

* * *

١٠ ـ ومن ثمرات الإيمان: حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه.

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٣] فأطلقها ليعم الخير العاجل والآجل، وقيدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥] فلهم البشارة المطلقة والمقيدة.

ولهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1] [سورة الأنعام: ٨٢].

ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٨]، فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم، وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة: أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشرور. وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سورة يونس: ٦٤] ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

---

(١) انظر تفسير الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الحديد: ٢٨].

فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته، ويمشي به يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1] [سورة الحديد: ١٢]، فالمؤمن من يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه، وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة: مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم.

وكذلك رتب المغفرة على الإيمان، ومن غفرت سيئاته: سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب.

* * *

١١ ـ ومن ثمرات الإيمان: حصول الفلاح ـ الذي هو: إدراك غاية الغايات، فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب ـ والهدى الذي هو أشرف الوسائل.

كما قال تعالى ـ بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على من قبله، والإيمان بالغيب. وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: اللتين هما من أعظم آثار الإيمان ـ قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [سورة البقرة: ٥].

فهذا هو الهدى التام، والفلاح الكامل.

فلا سبيل إلى الهدى والفلاح ـ اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما ـ إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزل الله، وبكل رسول أرسله الله. فالهدى أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات.

* * *

---

(١) انظر تفسير الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

١٢ ـ ومن ثمرات الإيمان: الانتفاع بالمواعظ والتذكير والآيات.

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الذاريات: ٥٥]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الحجر: ٧٧].

وهذا: لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه، علماً وعملاً، وكذلك معه الآلة العظيمة والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة الدالة على الحق، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضاً: فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات.

ومن لم يكن كذلك: فلا يستغرب عدم قبوله للحق، واتباعه له. ولهذا يذكر الله ـ في سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول ﷺ، وقبول الحق الذي جاء به ـ السبب الذي أوجب لهم ذلك وهو: الكفر الذي في قلوبهم. يعنى: لأن الحق واضح وآياته بينة واضحة، والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه، أي فلا تستغربوا هذه الحالة، فإنها لم تزل دأب كل كافر.

* * *

١٣ ـ ومنها: أن الإيمان يحمل صاحبه على الشكر في حالة السراء، والصبر في حالة الضراء، وكسب الخير في كل أوقاته.

كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: «**عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير: إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»[1] والشكر والصبر هما جماع كل خير، فالمؤمن مغتنم للخيرات في كل أوقاته، رابح في كل حالاته.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**لا يصيب المؤمن من هم، ولا غم ولا أذى ـ**

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٧٤٢٥).

إلا كفَّر الله عنه بها من خطاياه»[1].

فيجتمع للمؤمن عند النعم والسراء، نعمتان: نعمة حصول ذلك المحبوب، ونعمة التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك وبذلك تتم عليه النعمة.

ويجتمع له عند الضراء، ثلاث نعم: نعمة تكفير السيئات، ونعمة حصول مرتبة الصبر التي هي أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب والتمرن على الصبر ـ هانت عليه وطأة المصيبة، وخف عليه حملها.

* * *

١٤ ـ ومنها أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾[2] [سورة الحجرات: ١٥]، أي: دفع الإيمان الصحيح الذي معهم الريب والشك الموجود، وأزاله بالكلية، وقاوم الشكوك التي تلقيها شياطين الإنس والجن، والنفوس الأمارة بالسوء. فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان.

ولهذا ثبت في الصحيحين ـ من حديث أبي هريرة ـ أن النبي ﷺ قال: **«لا يزال الناس يتساءلون [حتى يقال] هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك، فليقل: آمنت بالله، ولينته، وليتعوذ بالله من الشيطان»**[3].

فذكر ﷺ، هذا الدواء النافع لهذا الداء المهلك. وهو ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبَّه بها

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠/ ١١٠ فتح)، ومسلم في صحيحه (٢٥٧١).
(٢) انظر تفسير الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣١٠٢) بنحوه، ومسلم في صحيحه برقم (٣٤١).

ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به: كان من الآمنين.

وذلك: لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة، أعظمها: العلم أنه منافٍ للحق، وكل ما ناقض الحق فهو باطل: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [سورة يونس: ٣٢].

* * *

١٥ ـ ومنها: أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلم بهم: من سرور وحزن وخوف وأمن، وطاعة ومعصية، وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها.

فعند المحاب والسرور، يلجؤون إلى الإيمان: فيحمدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم.

وعند المكاره والأحزان: يلجؤون إلى الإيمان من جهات عديدة: يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب على ذلك من الثواب، ويقابلون الأحزان والقلق براحة القلب. والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.

ويلجؤون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه، ويزيدهم إيماناً وثباتاً، وقوة وشجاعة، ويضمحل الخوف الذي أصابهم كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤] لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده.

ويلجؤون إلى الإيمان عند الأمن: فلا يبطرهم، ولا يحدث لهم الكبرياء، بل يتواضعون. ويعلمون أنه من الله، ومن فضله وتيسيره فيشكرون الذي أنعم بالسبب والمسبب، الأمن وأسبابه. ويعلمون أنه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعِزّ، أنه بحول الله وقوته وفضله، لا بحولهم وقوتهم.

ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة: فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق، وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها وعدم ردها أو نقصها. ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها: أن يتم عليهم نعمته بقبولها. والذي تفضل عليهم بحصول أصلها: أن يتم لهم منها ما انتقصوه منها.

ويلجؤون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي ـ بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات ـ لجبر نقصها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [سورة الأعراف: ٢٠١].

وقال ﷺ: «**مثل المؤمن [ومثل الإيمان] كالفرس المربوط في آخيته: يجول ما يجول، ثم يعود إلى آخيته**»[1].

كذلك المؤمن: يجول ما يجول في الغفلة والتجرىء على بعض الآثام، ثم يعود سريعاً إلى الإيمان الذي بنى عليه أموره كلها.

فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ـ ملجؤهم إلى الإيمان ـ ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضاده، وذلك من فضل الله عليهم ومَنِّه.

* * *

١٦ ـ ومنها أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزنى الزَّاني ـ حين يزنى ـ وهو مؤمن، ولا يسرق السارق ـ حين يسرق ـ وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر ـ حين يشربها ـ وهو مؤمن**[2]» الحديث.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/٣٨، ٥٥) وابن حبان في صحيحه (٦١٦) بإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٤٢٥) ومسلم في صحيحه برقم (٢٠٤) والنسائي في سننه برقم (٤٨٨٦).

ومن وقعت منه: فإنه لضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه، وهذا معروف مشاهد.

والإيمان الصادق الصحيح، يصحبه الحياء من الله، والحب له، والرجاء القوي لثوابه، والخوف من عقابه، والنور الذي ينافي الظلمة. وهذه الأمور - التي هي من مكملات الإيمان لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح.

فأخبر، أن الإيمان إذا صحبه - عند وجود أسباب هذه الفواحش -، فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها، فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق ووجود حلاوة الإيمان، والحياء من الله - الذي هو من أعظم شعب الإيمان، بلا شك - يمنع من مواقعة هذه الفواحش.

١٧ - ومنها أنه ثبت عنه ﷺ في الصحيحين - من حديث أبي موسى رضي الله عنه - أنه قال: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، كمثل الأترُجه طعمها طيب، وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة: طعمها طيب، ولا ريح لها**»[1].

وهؤلاء القسمان هم خير الخليفة، فإن الناس أربعة أقسام:

الأول: خير في نفسه، متعد خيره إلى غيره. وهو خير الأقسام. فهذا المؤمن الذي قرأ القرآن، وتعلم علوم الدين فهو نافع لنفسه، متعد نفعه إلى غيره، مبارك أينما كان كما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [سورة مريم: ٣١].

والثاني: طيب في نفسه. صاحب خير. وهو المؤمن الذي ليس عنده من العلم. ما يعود به على غيره.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٢٠، ٥٠٥٩، ٧٥٦٠) ومسلم في صحيحه برقم (١٨٥٧) وأبو داود في سننه برقم (٤٨٣٠) والترمذي في سننه برقم (٢٨٦٥) وابن ماجه في سننه برقم (٢١٤).

فهذان القسمان هما خير الخليفة، والخير الذي فيهم عائد إلى ما معهم: من الإيمان القاصر والمتعدي نفعه إلى الغير بحسب أحوال المؤمنين.

والقسم الثالث: من هو عادم للخير، ولكنه لا يتعدى ضرره إلى غيره.

والرابع: من هو صاحب شر على نفسه، وعلى غيره. فهذا شر الأقسام: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة النحل: ٨٨].

فعاد الخير كله إلى الإيمان وتوابعه، وعاد الشر إلى فقد الإيمان، والاتصاف بضده. والله الموفق.

وشبيه بهذا المعنى، قوله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»(١).

فقسَّم ﷺ المؤمنين، إلى قسمين: قسم قوي في عمله وقوة إيمانه، وفي نفعه لغيره، وقسم ضعيف في هذه الأشياء.

ومع ذلك، ففي كل من القسمين خير: لأن الإيمان وآثاره كله خير، وإن تفاوت المؤمنون في هذا الخير.

ومثل هذا قوله ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم - خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»(٢) ومفهوم هذه النصوص الصحيحة المحكمة: أن فاقد الإيمان لا خير فيه، لأنه إذا عدم الإيمان: فإما أن يكون الشخص أحواله كلها شر وضرر على نفسه، وعلى المجتمع من جميع الوجوه، وإما أن يكون فيه بعض الخير الذي قد انغمر

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه وانظر شرح الحديث في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٤٣، ٥/ ٣٦٥) والترمذي في سننه (٢٥٠٧) وابن ماجه في سننه (٤٠٣٢) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله انظر الصحيحة برقم (٩٣٩).

بالشر، وغلب شره خيره. والمصالح إذا انغمرت واضمحلت في المفاسد، صارت شرّاً، لأن الخير الذي معه، يقابله شر نظيره: فيتساقطان، ويبقى الشر ـ الذي لا مقابل له من الخير ـ يعمل علمه.

ومن تأمل الواقع في الخلق، رأى الأمر كما ذكر النبي ﷺ.

* * *

الخاتمـــة

فتبين مما تقدم: أن هذه الشجرة المباركة ـ شجرة الإيمان ـ أبرك الأشجار وأنفعها وأدومها.

وأن عروقها وأصولها وقواعدها: الإيمان وعلومه ومعارفه. وساقها وأفنانها: شرائع الإسلام، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، المؤيدة والمقرونه بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر: السمت الحسن، والهدي الصالح، والخلق الحسن، واللهج بذكر الله وشكره، والثناء عليه، والنفع لعباد الله بحسب القدرة، نفع العلم والنصح، ونفع الجاه والبدن، ونفع المال، وجميع طرق النفع، وحقيقة ذلك كله: القيام بحقوق الله، وحقوق خلقه.

وأن هذه الشجرة ـ في قلوب المؤمنين ـ متفاوتة تفاوتاً عظيماً، بحسب ما قام بهم، واتصفوا به: من هذه الصفات.

وأن منازلهم في الآخرة تابعة لهذا كله.

وأن الفضل في ذلك كله لله وحده، والمنَّة كلها [لله سبحانه]. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الحجرات: ١٧].

وقال أهل الجنة بعد ما دخلوها، وتبوؤوا منازلهم ـ معترفين بفضل ربهم العظيم ـ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٣].

فجمع في هذه الآية بين الإخبار باعترافهم وثنائهم على الله بنعمه وفضله:

حيث وصلوا إلى المنازل العالية وبين ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنة الله عليهم به، وهو: العمل الصالح الذي هو الإيمان وأعماله.

فنسأل الله تعالى: أن يمنَّ علينا بالإيمان الصادق، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

* * *

الفصل الرابع

فصول ومباحث ودرر من كلام شيخنا السعدي على الإيمان

فصل

في عقائد الدين الكلية

قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة البقرة: ١٣٦].

وفي القرآن آيات كثيرة تشرح هذه الأصول الكليّة وتفصّلها، وتبيّن أسماء الله وصِفاته، وأفعاله [وآلاءه]، وتفصّل أحوال اليوم الآخر، وما فيه من الحساب والعدل والفضل، والثواب والعقاب، وتبيّن أحوال الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام وأوصافهم وهُداهم، وما دعَوْا إليه، والكتب المنزلة عليهم، وما فيها من الحقائق النافعة، والهداية المتنوّعة.

وقد جمع الله في هذه الآية بين الأمر الموجّه إلى الظاهر والباطن: قول اللسان والاعتراف، والتحقّق بالقلب بجميع هذه الأصول، وبين الخضوع والانقياد في الباطن والظاهر، والإخلاص التام لله بجميع حقوق الدين. فهذه العقائد الصحيحة النافعة تملأ القلوب أمناً وإيماناً، ويقيناً ونوراً وهداية، وتعبُّداً لله، وتألهاً له، وإنابة إليه في كل الأحوال، ولجوءاً إليه في كل النوازل والمهمّات، وطمأنينة بمعرفته، وسُكوناً إلى ذكره، والثناء عليه. وتوجب للعبد قوة التوكل على الله، والاعتماد الكامل والاستعانة به في مُزاولة الأعمال الدينية والدنيوية.

وكلما ضعفت إرادة العبد ووهَت قوّته في محاولة المهمات، أمدَّه هذا الإيمان الصادق بقوة قلبية تتبعها الأعمال البدنية.

وكلما أحاطت به المخاوف كان هذا الإيمان حصناً حصيناً يلجأ إليه المؤمن، فيطمئن قلبه، وتسكن نفسه. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

وهذا الإيمان الصادق واليقين الصحيح يحمل صاحبه على العزة والقوة، والشجاعة القولية والفعلية، فإنه متى يتيقن العبد أن الله هو النافع الضار، المعطي المانع؛ وأن من اعتز به فهو عزيز، ومن التجأ لغيره فهو الذليل، وأن الخلق كلهم فقراء إلى الله، لا ينفعون ولا يضرّون ـ أوجب له ذلك القوة بالله، والالتجاء إليه، وأن لا يخاف ولا يرجو أحداً غير الله، ولا يطمح إلا في فضله. وبهذا يتمّ له التحرّر من رِق المخلوقين، وأن لا يُعلِّق قلبه بأحد منهم في نفع ولا دفع ضرّ، بل يكون الله وحده مولاه وناصره، يتولاه في طلب المنافع، ويستنصره في دفع المضارّ، فيتمّ له من كفاية المولى وتيسير أموره، ما لا يتم لمن لم يكن معه هذا الإيمان؛ ويحصل له من قوة القلب وشجاعته، ما لا يصل إليه من لم يبلغ درجته، وهذا كله من ثمرات الإيمان الصحيح.

ومن ثمراته أيضاً أن يُسلّي العبد عند المصائب، ويهوّن عليه الشدائد والنوائب، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [سورة التغابن: ١١]، وهو العبد الذي تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ فيرضى ويسلم للأقدار المؤلمة، وتهون عليه المصائب المزعجة، لصدورها من عند الله، وإيصالها إلى ثوابه. قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [سورة النساء: ١٠٤].

ولهذا يوجد عند المؤمنين الصادقين ـ حين تصيبهم النوازل والقلاقل والابتلاء ـ من الصبر والثبات والطمأنينة والسّكون، والقيام بحق الله، ما لا يوجد عُشر مِعشاره عند من ليس كذلك، وذلك لقوة الإيمان واليقين.

ومن ثمرات الإيمان الصادق أنه يقوّي الرغبة في فعل الخيرات، والتزوّد من الأعمال الصالحات، ويدعو إلى الرحمة والشفقة على المخلوقات، وذلك بسبب داعي الإيمان، وبما يحتسبه العبد عند الله من الثواب الجزيل.

ومن ثمراته أيضاً أنه ينهى عن الشرور والفواحش كلها، ما ظهر منها وما بطن، ويحذّر من كل خُلق رذيل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[1] [سورة الأنفال: ٢ ـ ٤].

فذكر في هذه الآية ما يُثمره الإيمان من أعمال القلوب والجوارح، والقيام بحقّ الله وحق الخلق.

فهذه الأخلاق الحميدة: هل يتوصّل إليها بغير الإيمان؟.

وهل يعصم العبد من انحلال الأخلاق المؤدّية إلى الهلاك إلا الإيمان؟.

وهل أوْدت بكثير من الخَلق الأمور المادية، والشهوات البهيمية، والأخلاق السَّبُعِيّة، وهبطت بهم إلى الهلاك، إلا حين فقدت روح الإيمان؟.

وهل تؤدى الأمانات والحقوق الواجبة بغير وازع الإيمان؟ وهل تثبت القلوب عند المزعجات، وتطمئن النفوس عند الكريهات، إلا بعدّة الإيمان؟.

وهل تقنع النفوس برزق الله، وتتمّ لها الراحة والحياة الطيّبة في هذه الدار، إلا بقوة الإيمان؟.

وهل يتحقق العبد بالصدق في أقواله وأفعاله ومعاملاته، ويكون أميناً شريفاً معتبراً عند الله وعند خلقه، إلا بالإيمان؟.

فكل أُسّ تنبني عليه هذه الأمور الجليلة سوى الإيمان فهو مُنهار، وكلّ رقيّ مادي لا يصحبه الإيمان فهو هبوط ودمار. ألا وإن الإيمان يحمل العبد على الصبر على قضاء الله، والشكر لنعم الله، والتخلّق بكل خُلق جميل، والتخلّي [عن] كل خُلق رذيل. ومِصداق ذلك ما هو موجود في كل متّصف بالإيمان، ومفقود ممن لم يكن كذلك. فإن وجدت موصوفاً ببعض هذه الصفات وهو غير ملتزم للإسلام، فعن الدين الإسلامي قد أخذها، وقد يصبغها

---

(١) انظر شرح الآيات في الفصل الأول من هذا الكتاب.

بغير صبغة الدين، فيأت المعترض بمثال واحد يخرج عن هذا الأصل إن كان صادقاً، فإن الدِّين يهدي للتي هي أقوم، ويدعو إلى كل خير.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤].

ومن ثمرات الإيمان: أنه يأمر بالعدل والقسط في جميع المعاملات، وأداء الحقوق المتنوّعة الواقعة بين الناس، وينهى عن الظلم في الدماء والأموال والأعراض والحقوق كلها. وهل يمكن صلاح هذه الأمور إلا بالعدل والقسط الذي هو روح الدين وقوامه؟.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [سورة النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ [سورة النساء: ١٣٥].

وإذا اعتبرت تفاصيل العدل في الأحكام الشرعية المتعلقة بالعقود والمعاملات، من معاوضات وشركات، وحقوق المواريث الزوجية، والأقارب، والمعاملين، وجدتها في غاية العدل والانتظام المصلح للأحوال، الجالب للمنافع، الدافع للمضارّ والمفاسد.

وهذا الإيمان الصحيح الشامل لأصول الإيمان وحقائقه، يتضمّن الخضوع الكامل لله، والإنابة إليه في كل الأحوال. [وذلك] هو غاية صلاح القلوب والأرواح، فيدخُل فيه الإخلاص لله في عبوديته، والإحسان المتنوّع بكل وجه لله الخالق. ويدخل فيه الإيمان بكلّ كتاب أنزله الله، وبكلّ رسول أرسله الله، وبكلّ حقّ نزلت به الكتب، وجاءت به الرسل، واتفقت عليه الفِطَر السليمة، والعقول المستقيمة.

وهو الدِّين المزكّي للقلوب، المطهّر للنفوس، المنمّي للأخلاق.

دين الحكمة والفطرة، دين العقل الصحيح والنقل الصريح.

دينٌ يبرأ من الوثنيات، والإلحاد، وانحلال الأخلاق.

دينٌ قد جاء بإباحة جميع الطيّبات والمنافع، وتحريم الخبائث والمضارّ، يأمر بكل معروف شرعاً وعقلاً، وينهى عن كل منكر وبغي وعدوان. دينٌ فيه صلاح القلوب والأجساد، والسعي لكل منفعة دينية ودنيوية معينة على الدين.

دين نزل من عند العزيز الحميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، لا يتمكن مُبطِل من نقض أصل من أصوله، ولا يخبر بما تُحيله العقول، بل بما تشهد به العقول الصحيحة، أو لا تهتدي إلى تفصيله وبيانه.

دين جميع الأنبياء والمرسلين، وعليه جميع الأصفياء والعلماء الربانيين، أئمة الهدى، ومصابيح الدُّجَى. ونبذه كل مشرك وجاحد، ممن مرضت عقولهم، وانحلّت أخلاقهم، وطغت عليهم المادة، فدمرت أديانهم تدميراً.

المؤمن بالله حقاً قد تنعّم بعبادة الله، راجياً ثوابه، وتنعّم بنصيبه من الدنيا على الوجه الأكمل، فإنه تناوله من حِلّه، ووضعه في محلّه، قاصداً به قيام ما عليه من الواجبات، مستعيناً به على عبادة ربّه.

المؤمن: وَصْفه التواضع للخَلق وللحق، يتبع الحق أين كان، ويدين بالنصيحة لعباد الله، على اختلاف مراتبهم.

والجاحد: وصفُه التكبُّر على الحق وعلى الخلق، والإعجاب بالنفس، لا يدين بنصيحة أحد من الخلق.

المؤمن: سليم القلب من الغِشّ والغِلّ والحقد، صِدوق اللسان، حسن المعاملة، وصفُه الحلم والوقار والسكينة، والصبر والرحمة، والوفاء والثبات، لا يذِلّ إلا لله. قد صان قلبه ووجهه عن بذله وتذلّله لغير ربه، قد جمع بين

السعي في فعل الأسباب النافعة، والتوكل على الله، والثقة به، وطلب العون منه في كل الأمور. وبقوّة توكلّه وثقته وطمعه بربِّه قد يسّره الله لليُسرى، وجنّبه العُسرى.

إذا أتته الدنيا والنِّعَم والمحابُّ، تلقّاها بالشكر، وصرفها فيما ينفعه ويعود عليه بالخير. وإذا أصابته المكاره، تلقّاها بالصبر والاحتساب، وارتقاب الأجر والثواب، والرجاء لفرج الله بزوالها، فيكون ما عُوِّض من الخير والإيمان والطمأنينة أعظم مما فاته من محبوب، أو حصل له من مكروه.

فهذه الخصال الجميلة من عقائد صادقة، وأخلاق راقية، وآداب سامية، هل يمكن أن يتّصف بها إلا المؤمن حقّاً؟.

وهي من أكبر البراهين على أن الدِّين بعقائده وأخلاقه، هو الدين الحقّ الذي يؤول إليه أولو الألباب والحِجى، وأرباب البصائر والنُّهى، ولا يزهد فيه إلا الأرذال الذين اختاروا الضلالة على الهدى، والشقاوة بالسعادة.

لَهْفِي على المؤمنين الأخيار، وحنيني المتتابع على الصادقين الأبرار، الذين عمرت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته، ولهجت ألسنتهم بِذكر الله والثناء عليه، وعمرت أوقاتهم بطاعته وخِدمته، وحنّوا بهذا الإيمان الحقيقي على الخلق بالرأفة والرحمة والنصح، ومنعهم هذا الإيمان من كل خُلق رذيل، كما حثّهم على كل خلق جميل[1].

أين الإيمان الصحيح من أهل الرِّياء والتملّق والنفاق؟.

وأين الإيمان ممن دأبهم الفُسوق والعِصيان والشقاق؟ أين الإيمان من المعرِضين عن معرفة الله ومحبته، الناكبين عن طاعته وخدمته؟ وأين الإيمان ممن مُلئت قلوبهم بالتعلق بالحب والتعظيم، والخوف والرجاء للمخلوقين، وخلَت من تعلّقها برب العالمين؟ أين الإيمان من الطعّانين؟ وأين الإيمان من

---

(١) أين هم أولئك في هذا الزمان؟ نشكوا إلى الله تعالى قسوة قلوب المسلمين.

الكذابين والنمّامين؟ وأين الإيمان من المعاملين بالرِّبا والغشاشين؟ فليس الإيمان بالتحلِّي والتمني، وإنما الإيمان ما وقَر في القلوب، وصدّقته الأعمال عند التمحيص والتحقيق. والامتحان يظهر الكاذب وصادق الإيمان.

[الرياض الناصرة (ص ١٣ ـ ١٩)]

أصول الدين الكبار

قال رحمه الله:

مسألة الإيمان.

وذلك أن أهل السنة والجماعة، يعتقدون ما جاء به الكتاب والسنة، من أن الإيمان: تصديق القلب المتضمن لأعمال الجوارح، فيقولون: الإيمان اعتقادات القلوب وأعمالها، وأعمال الجوارح، وأقوال اللسان، وأنها كلها من الإيمان...

وأن مَنْ أكملها ظاهراً وباطناً، فقد أكمل الإيمان، ومن انتقص شيئاً منها، فقد نقص إيمانه.

وهذه الأمور بِضْعٌ وسبعون شعبة، أعلاها قول: «لا إله إلا الله»، وأدناها: إماطَةُ الأذَى عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان[1].

ويُرتِّبون على هذا الأصل أن الناس في الامتحان درجات: مُقَرَّبون، وأصحاب يمين، وظالمون لأنفسهم، لأنهم بحسب مقاماتهم في الدين والإيمان، وأنه يزيد وينقُص.

فمن فعل محرَّماً، أو ترك واجباً، نقص إيمانه الواجب، ما لم يَتُب إلى الله.

ويرتبون على هذا الأصل، أن الناس ثلاثة أقسام: منهم من قام بهذه

---

(١) هذا جزء من حديث متفق عليه، من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه. وانظره مع شرحه في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وبحقوق الإيمان كلها، فهو المؤمن حقّاً، ومنهم من تركها كلها، فهذا كافر بالله.

ومنهم من فيه إيمان وكفر، وإيمانٌ ونفاق، وخير وشر، ففيه من ولاية الله، واستحقاقه لكرامته، بحسب ما معه من الإيمان؛ وفيه من عداوة الله واستحقاقه لعقوبه الله، بحسب ما ضيَّعه من الإيمان.

ويرتِّبون على هذا الأصل أن كبائر الذُّنوب وصغارها، لا تصل بصاحبها إلى الكفر؛ ولكنها تنقص الإيمان، من غير أن تخرجه من دائرة الإسلام، ولا يخلد صاحبها في النار، ولا يطلقون عليه اسم الكفر، كما تقوله الخوارج، أو يَنْفُون عنه الإيمان، كما تقوله المعتزلة؛ بل يقولون: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. فمعه مُطلق الإيمان. أما الإيمان المطلق فينفى عنه.

وهذه الأُصول إذا عرفت وجهها، يحصل بها الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة، ويترتَّب الأصل أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، وأن التوبةَ تَجُبُّ ما قبلها، وأن من ارتدَّ ومات على ذلك حَبِطَ عمله، ومن تابَ، تاب الله عليه. ويرتِّبون أيضاً على هذا الأصل صحَّة الاستثناء في الإيمان، فيصحُّ أن يقول:

أنا مؤمنٌ إن شاء الله، لأنه يرجو من الله تكميل إيمانه، فيستثني لذلك، ويرجو الثبات على ذلك إلى الممات، فيستثني من غير شك منه بحصول أصل الإيمان.

ويرتِّبون أيضاً على هذا الأصل أن الحب والبغض، أصله ومقداره تابع للإيمان وجوداً وعدماً، وتكميلاً أو نقصاً. ثم يتبع ذلك: الولاية والعداوة، ولهذا كان من الإيمان: الحب في الله والبغض في الله[1]، والولاية لله، والعداوة لله.

---

(١) كما قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لله، وَأَبْغَضَ لله، وَأَعْطَى لله، وَمَنَعَ لله فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**». رواه أبو داود وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٣٩١٥).

ولا يتمّ الإيمان إلا بأن يحب لأَخيه ما يحب لنفسه[1].

ويترتَّب على ذلك ـ أيضاً ـ محبة اجتماع المؤمنين، والحَثُّ على التآلف والتَّحابُب، وعدم التقاطع. ويبرأُ أهل السُّنة والجماعة من التعصُّبات والتفرق والتَّباغُض، ويرون هذه القاعدة، من أهم قواعد الإيمان، ولا يرون الاختلاف في المسائل التي لا توصل إلى بدعة أو كفر، موجبة للتفرُّق.

ويترتب على الإيمان محبّة أصحاب النبي ﷺ، بحسب مراتبهم، وأن لهم من السَّوابق والفضل والمَناقِب، ما فُضِّلوا به على سائر الأُمَّة، ويَدِينون بحبهم ونشر فضائلهم، ويُمسكون عما شَجَر بينهم، ويعتقدون أنهم أَوْلى الأُمة بكل خصلة حميدة، وأسبقهم إلى كل خير، وأبعدهم من كل شر.

ويعتقدون أن الأُمة لا تستغني عن إمام يُقيم لها دينها ودنياها، ويدفع عنها عادية المعتدين.

ولا تتمّ إمامته، إلا بطاعته، في غير معصية الله.

ويرون أنه لا يتمُ الإيمان إلا بالإمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، باليد واللسان والقلب، على حسب القدرة والاستطاعة.

وبالجملة، فيرَوْن القيام بكل أصول الشريعة، على الوجه الشرعي.

[الفتاوى السعدية (ص ١٤ ـ ١٦)]

فصل

وقال رحمه الله:

الإيمان هو أعلى الخصال وأشرف المراتب وأكمل المناقب بل لا يمكن أن تكون فضيله ولا ثواباً إلا بالإيمان وحقوقه ولذلك أثنى الله به على خيار

---

(١) حيث قال رسول الله ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتّى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» متفق عليه.

خلقه والمصطفين من عباده فقال في كل من نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس وغيرهم من الأنبياء أنه من عبادنا المؤمنين فعلل ما حصل لهم من الخيرات وزوال الشرور بإيمانهم.

وقد علق الله الفلاح ودخول الجنان على الإيمان في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [سورة المؤمنون: ١] ثم ذكر صفاتهم الناشئة عن إيمانهم ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٣] وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [سورة يونس: ٦٢ ـ ٦٣].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [سورة الحج: ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: ١٩] وغير ذلك من نصوص الكتاب والسنة الدالة على فضله وفضل أهله وأن الخير كله فيه. فعلى العبد الذي يريد نجاة نفسه ويقصد كمالها وفلاحها أن يسعى غاية جهده ويبذل مقدوره في هذا الوصف وهو الإيمان «علماً ومعرفة وعملاً وحالاً ووصفاً»، وهو كما قال النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**»[1] فوصفه بأقوال اللسان التي يحبها الله ورسوله وذكر أعلاها بالإحسان إلى عباد الله، أيّ إحسان كان، حتى إماطة الأذى عن طريقهم، وبأعمال القلوب التي أصلها الحياء، فإن من اتصف بالحياء من الله انصبغ قلبه بمعرفة الله وحبه وخوفه ورجائه والتحبب إليه مهما أمكن. وحقيقة هذا أن الإيمان اسم جامع للشرائع الظاهرة والباطنة، ولأقوال اللسان وأقوال القلب، وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح وأنّ من قام بهذه الأمور كلها ونصح فيها وأحسنَ كان أكمل الناس إيماناً، وأنّ من نقص منها معرفة وعلماً وعملاً وحالاً

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٥) (٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظره مع شرحه في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

نقص من إيمانه بقدر ذلك.

والناس في الإيمان درجات متفاوتة فأكملهم من وصل في علوم الإيمان إلى علم اليقين وحق اليقين، وفي أعماله من وفّى مرتبة الإحسان وعبد الله على وجه الحضور والمراقبة، وفي أحوال الإيمان من كانت آدابه وأخلاقه صبغة لقلبه وحالا غير حائله بل إن عرض له ما يشوش عليه إيمانه بادر بالحال لإزالته ورجع إلى نعته ووصفه: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [سورة البقرة: ١٣٨] ولهذا قال النبي ﷺ: «**أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**»[1] فإن لم يتغير إيمانه عند المعارضات كالشهوات والإرادات السيئة وإتيان الأمر مخالفاً لمراد النفس كان هذا المؤمن حقاً ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحجرات: ١٥].

ولهذا كان من كمال الإيمان أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك.

ولهذا أيضاً كان إخراج محبوب النفس وهو المال لله تعالى دليلاً على الإيمان كما قال النبي ﷺ: «**والصدقة برهان**»[2].

ولهذا أيضاً كان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.

ومن علامات الإيمان ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٥٠، ٤٧٢)، وأبو داود في سننه (٤٦٨٢)، والترمذي في سننه (١١٦٢)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٣٩١٦).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ولفظه: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله، تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**».

يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [سورة الأنفال: ٢ ـ ٤] فوصف المؤمنين بأنهم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم أي خضعت وخشعت، وذلت لعظمته، وانكسرت لكبريائه، فتركت معاصيه، وخافت عقابه، واطمأنت بذكره ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الرعد: ٢٨]. وإنهم ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي ازدادوا بها علماً وبصيرة ورغبة في الخير ورهبة من الشر، فنمى الإيمان في قلوبهم وكان إيماناً ناشئاً عن أعظم الأدلة والبيانات كما قالوا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة آل عمران: ١٦]، وقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [سورة آل عمران: ١٩٣] وكما قال مؤمنوا الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [سورة الجن: ١٣] فبحسب إيمان العبد يزدادُ إيمانه عند تلاوة كتاب الله والحكمة وهذا أعلى ما يكون من الإيمان، فإنه إيمانٌ عن أكبر البارهين، وإيمان على بصيرة، لا كإيمان ضعفاء المؤمنين الناشىء عن العادات والتقليد الذي هو عرضة للعوارض والعوائق، وأما هذا الإيمان فهو إيمان لا تزعزعه الشبهات ولا تعارضه الخيالات بل يزداد مع صاحبه مدى الأوقات.

ووصفهم بتحقيق التوكل عليه، فأعظم الناس إيماناً أعظمهم توكلاً على الله خصوصاً التوكل العالي الذي هو الاعتماد التام على الله في تحصيل محابه ومراضيه ودفع مساخطه، ولهذا يجعل الله التوكل ملازماً للإيمان في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٣] فالمؤمن حقاً تجده قائماً بما أمر الله به من الأسباب، معتمداً على مسببها ومصرفها، واثقاً بربه لا يقلقه تشوشها ولا يحزنه إتيانها على غير مراده، قد هدى الله قلبه فاطمأن إلى ربه ورضي به وفوض إليه أمره: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [سورة التغابن: ١١] قد تحقق قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الحج: ٧٠] ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [سورة الحديد: ٢٣] قد رضي بكفاية ربه وسلَّم إليه الأمر: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [سورة الطلاق: ٣].

ووصف المؤمنين حقاً في هذه الآية بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يقيمونها بقيام مكملاتها ظاهراً وباطناً، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فالصلاة فيها الإخلاص للمعبود والزكاة فيها الإحسان إلى عباد الله تعالى، فبحسب إيمان العبد يكون قيامه بالصلاة والزكاة اللذين هما أُمُّ العبادات وأجلُّها وأعلاها وأعظمها نفعاً وثمرات.

وكذلك وصف الله المؤمنون في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [سورة المؤمنون: ١ ـ ١٠] فهذه الأوصاف العظيمة بها يكمل الإيمان ويتحقق، وهو ميزان للخلق، فالمؤمنون المفلحون أهل الفردوس هم الذين أقاموا الصلاة ظاهراً وباطناً بحقوقها وخشوعها الذي هو لُبّها، وآتوا الزكاة المأمور بها، وحفظوا ألسنتهم من الكلام السيء والفحش ومن اللغو والكلام الباطل، ولهذا نبه بالأدنى الذي هو اللغو على ما هو أولى منه؛ فإخبار الله أنهم عن اللغو الذي هو الكلام الذي لا منفعة فيه [معرضون] يدل على أنهم تركوا الكلام المحرم وحفظوا فروجهم عن الحرام لله تعالى. وتمام حفظها حفظ البصر وعدم قربان الفواحش ومقدماتها كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾ [سورة النور: ٣٠].

ووصفهم بمراعاة عهودهم وأماناتهم وهذا عام للعهود والأمانات التي بينهم وبين ربهم فإنهم قد عقدوا بينهم وبين ربهم عقد الطاعة والسمع والالتزام ولهذا ذَكَّرَهُم الله بهذا العهد في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾ [سورة المائدة: ٧] والعهود والأمانات التي بينهم وبين الخلق أن لا ينقضوها وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، ولهذا ذكر النبي ﷺ أن علامة الإيمان أن يكون العبد مؤتمناً على الدماء والأموال فقال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم**

وأموالهم»[1] وقال: «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»[2]، ووصف المنافق بضد ذلك.

ووصف المؤمنين بالإيمان بجميع الحق الذي نَزَّله الله والرسل الذين أرسلهم الله فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥] فالمؤمن لما كان وصفه أنه متطلب لرضوان الله متبع هداه أينما كان آمن بجميع الإلهية والرسل والتزم الدخول في طاعة الله وطاعة رسوله في كل شيء وسأل الله أن يغفر له ما قصّر فيه وأن يتجاوز عنه إذا قَدمَ عليه.

ومن صفات المؤمنين أنهم يحكمون الله ورسوله في جميع أمورهم:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة النساء: ٦٥].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة النور: ٦٢].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة النور: ٥١].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٧٦٢)، والنسائي في سننه (٨/ ١٠٤، ١٠٥)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم (٢١١٨).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٠/ ٤٤٣) من حديث أبي شريح رضي الله عنه، ولفظه: «**والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن من جاره بوائقه**».
وأخرجه مسلم في صحيحه برقم (٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**».

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [سورة النساء: ٥٩].

فالمؤمن أخلص دينه لله واجتهد في الاقتداء برسول الله ولم يقدم على قوله وحكمه قول غيره وحكمه، بل إذا تبينت له سنة رسول الله لم يعدل عنها إلى غيرها وبحسب تحقيقه لهذين الأصلين يتحقق إيمانه ويقوى يقينه وعرفانه.

ومن صفات المؤمنين أنهم متحابون متوالون متراحمون متعاطفون كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [سورة التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥﴾ [سورة المائدة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [سورة الحشر: ١٠].

وكما قال النبي ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[1].

وكلما ازداد الاتصال بقرابة أو جوار أو حق من الحقوق ازداد هذا المعنى وتأكد الإحسان إليه كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/٥٦، ٥٧)، ومسلم في صحيحه برقم (٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠/٤٤٥)، ومسلم في صحيحه برقم (٤٨) من حديث أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه.

وقال «**من غشنا فليس منا**»[1] وقال: «**الدين النصيحة، لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[2].

فالمؤمنون يدينون الله بالنصيحة له في عبوديته، ولكتابه في تعلمه وتَفَهُّمه والعمل به والدعوة لذلك، ولرسوله في الاجتهاد في متابعته في أقواله وأفعاله وجميع أحواله، ولأئمة المسلمين وعامتهم بإرشادهم إلى مصالحهم الدينية والدنيوية ومعاونتهم على البر والتقوى وكفِّهم عن الإثم والعدوان بحسب القدرة كما قال تعالى في الآية السابقة في وصفهم أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ومن صفاتهم الحميدة ومناقبهم السديدة ما قاله النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ثلاث من كن فيه وجد فيهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[3] فجعل تحقيق الإيمان ووجد حلاوته بكون المحبة لله ولرسوله وتقديمها على سائر المحاب وجعل المحاب تبعاً لها؛ فيحب المرء لما قام به واتصف به من محاب الله وما مَنَّ الله به من الأخلاق الفاضلة فكلما قويت فيه ازدادت محبته له، فتكون محبة المؤمن دائرة مع محبة الله، فيحب الله ورسوله ويحب من يحبه من الأعمال والأشخاص، وتكون كراهته للكفر المضاد للإيمان أعظم من كراهته للنار التي سيقذف فيها، ومثل ذلك قوله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً**»[4] وقد تقدم قول هرقل: «وسألتك هل

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٠١) ولفظه: «**من حمل علينا السلام فليس منا ومن غشنا فليس منا**» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٧٢)، ومسلم في صحيحه برقم (٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

يزيدون أو ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان إذا وقر في القلب، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب» الحديث في صحيح البخاري[1].

وقال ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته**»[2].

ومن علاماتهم أن الله قد شرح صدورهم للإسلام فانقادوا لشرائعه طوعاً واختياراً ومحبة، قد اطمأنت لذلك نفوسهم وصاروا على بينة من أمرهم فهم يمشون بنورهم بين الناس، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [سورة الزمر: ٢٢] وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥].

وقال ﷺ: «**إذا دخل الإيمان في القلب اتسع وانشرح**» قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: «**نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله**»[3].

---

(١) حديث هرقل أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣١ ـ ٣٣)، ومسلم في صحيحه (١٢/ ١٠٣ ـ ١١١ نووي).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٤٢٠، ٤٢١ و ٤٢٤)، وأبو داود في سننه برقم (٤٨٨٠)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤٠٨٣).

(٣) ضعيف جداً، أورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٥٤)، وعزاه إلى زهد ابن المبارك وعبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي جعفر المدائني. وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢/ ١٨٠، ١٨١)، من طرق مدارها كلها على أبي جعفر واسمه عبد الله بن المسور بن عون بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي المدائني وهو متروك كذاب، كان يضع الحديث.
قال أحمد بن حنبل وغيره: كان يضع الحديث. =

ولما قال له حارثه[1]: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «**وما حقيقة إيمانكَ؟**» قال: عزفت النفس عن الدنيا فأسهرت ليلي واظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار في النار يتعاوَوْن فيها، فقال: «**عبدٌ نَوَّرَ الله قلبه، فالزم**».

فتحقيق الإيمان علامته سهولة العبادات، والتلذذ بالمشقات في رضى رب الأرض والسموات، والتصديق التام بالجزاء والعمل بمقتضى هذا اليقين. وكذلك قال الحسن[2] رضي الله عنه: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال.

ولهذا من أَجَلِّ علاماتهم أنّ الإيمان يصل بهم إلى حد اليقين والصديقين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [سورة الحديد: ١٩].

ولما ذكر النبي ﷺ ارتفاع غرف الجنة وعلوها العظيم، قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ فقال: «**بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»[3] ولهذا كانت الصديقية التي أثنى بها على

= وانظر ترجمته في لسان الميزان (٣/ ٤٤٢- ٤٤٤)، وميزان الاعتدال (٢/ ٥٠٤) والجرح والتعديل (٢/ ٢/ ١٦٩- ترجمة رقم ٧٨٢).

(١) الحارث: هو ابن مالك الأنصاري.
قال الحافظ في الإصابة (١/ ٥٩٧)، روى حديثه ابن المبارك في الزهد.
ثم قال بعد أن ساقه بإسناده: (وهو معضل).
ورواه البيهقي في الشعب - كما في الإصابة (١/ ٥٩٨)، وقال البيهقي عقبه: (هذا منكر).
ورواه ابن أبي شيبة في الإيمان (ص ٣٧)، ولكنه قال فيه: أن رسول الله ﷺ لقي عوف بن مالك فقال وذكره، ولم يذكر فيه حارثة بن مالك.
قال شيخنا الألباني رحمه الله معلقاً عليه: وهذا حديث ضعيف مرسل.

(٢) أي البصري.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٣٢٠)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

خواص خلقه هي تكميل مراتب الإيمان علماً وعملاً ودعوة.

وكما أنّ من تحقيق الإيمان أنْ تكون الأعمال الصالحة مُصَدقَة له فمن تحقيقه أيضاً أن يكون المؤمن متنزهاً عن الإثم والفسوق وأنواع المعاصي الداخله في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأنعام: ٨٢] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٧٨].

ومن موجبات الإيمان: صرف الأموال في مصارفها الشرعية ووضعها مواضعها، وإقامة الحدود التي حد الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [سورة الأنفال: ٤١].

وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [سورة النور: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور: ٣] إلى غير ذلك من النصوص في الكتاب والسنة الدالة على وصف المؤمنين، وأنّ العبد لا يستحق حقيقة الإيمان حتى يتصف بها. وفي الجملة فكل ما قال تعالى: ياأيها الذين أمنوا افعلوا كذا واتركوا كذا، كان امتثال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي من مقتضيات الإيمان وموجباته الذي لا يتم إلا بها؛ فبهذا ونحوه تعرف حقيقة الإيمان الذي جعله الله عنوان السعادة، ومادة الفلاح، وسبب الفوز بكل مطلوب، والنجاة من كل مرهوب. فنسأله تعالى إيماناً كاملاً يهدي به قلوبنا إلى معرفته ومحبته والإنابة إليه في كل أمر، وألسنتنا إلى ذكره والثناء عليه، وجوارحنا إلى طاعته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [سورة يونس: ٩].

ومن صفاتهم الجليلة أن الله يهديهم إلى الحق في المواطن المشتبهاب وللصواب في محال المتاهات التي لا تحتملها عقول كثير من الناس، ويزدادون إيماناً ويقيناً في المواضع التي يزداد بها غيرهم ريباً وشكّاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [سورة البقرة: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۖ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [سورة المدثر: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران: ٧].

فما معهم من الإيمان واليقين يهديهم إلى الحقائق، وأقوَم الطرائق، وأرْشَد الأمور، وأصْلَح الأحوال؛ ولهذا كان القرآن تذكرة ورحمة وبشرى للمؤمنين.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٥٧ ـ ٥٨]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة النحل: ٧٩] ومواضع أخرى.

فلما مشوا في نور إيمانهم في ظلمات الجهالات والشرور، وتولاهم مولاهم ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ

فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧] والله ولي المؤمنين، مشوا في نورهم يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحديد: ١٢].

ولما كانت تجارتهم أجل التجارات، كان ربحها النعيم المقيم في غرف الجنان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الصف: ١٠ ـ ١١].

ومن صفاتهم أن الله ينزل في قلوبهم السكينة والطمأنينة في مواضع الحرج والقلق، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [سورة الفتح: ٤].

[المواهب الربانية (ص ٦٥ ـ ٨٣)]

* * *

فصل

[مبحث جليل في الإيمان بالغيب]

سؤال: ما هو الغيب[1] الذي أثنى الله على المؤمنين به وأخبر عن سعادتهم وفلاحهم واستحقاقهم النعيم المقيم، فلعل العبد يعرفه ويتعرف محاله ومواضعه فيجتهد في تحقيق الإيمان ليكون من المفلحين، فإن أكثر الناس بل أكثر المؤمنين ليس عندهم في هذا الباب إلا أُمور مجملة وألفاظ غير محققة، وهذا نفعه دون نفع التنويع والتفصيل والتوضيح والتبيين بكثير كثير، فأفتونا بحسب قدرتكم واستطاعتكم فإنا لا نطلب منكم شططاً، وإلا فقد تقرر أنَّ هذه المسألة لا يتمكن خواص الخلق من إيفاء حقِّها وبيان أمرها فأفتونا مأجورين؟.

الجواب: وبالله أستعين وإليه أضرع في الهداية فيها وفي غيرها: الغيب هو خلاف الشهادة؛ ولهذا تقسم الأشياء قسمين: غيبية ومحسوسة. فالأمور المحسومة المشاهدة لم يعلق الشارع عليها حكماً من أحكام الإيمان الذي يفرق به بين أهل السعادة وغيرهم وذلك كالسماء والأرض وما فيها من المخلوقات المشاهدة والطبائع المعلومة المعقولة، إنما يذكر الله تعالى من هذا النوع الأدلة والبراهين على ما أخبر به وأخبرت به رسله.

القسم الثاني: وهو الغيب الذي أمر بالإيمان به ومدح المؤمنين به في غير موضع من كتابه. وضابط هذا القسم أنّه كل ما أخبر الله به وأخبرت به رسله على وجه يدعو الناس إلى تصديقه والإيمان به. وذلك أنواع كثيرة أجلّها وأعلاها وأفضلها وأنفعها وأيسرها ما أخبر به في كتبه وأخبرت به رسله من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، ونعوته الجليلة، وأفعاله الحميدة. وفي الكتاب والسنة من هذا النوع شيء كثير جداً بحسب الحاجة إليه، فإنه لا أعظم

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٢، ٣].

حاجة وضرورة من معرفة النفوس بربها ومليكها الذي لا غني لها عنه طرفه عين، ولا صلاح لها ولا زكاء إلا بمعرفته وعبادته، وكلما كان العبد أعرف بأسماء ربه وما يستحقه من صفات الكمال وما يتنزه عنه مما يضاد ذلك، كان أعظم إيماناً بالغيب واستحق من الثناء والمدح بحسب معرفته. وموضع هذا تدبر أسمائه الحسنى التي وصف وسمى بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسله فيتأملها العبد اسماً اسماً يعرف معنى ذلك، وإن له تعالى من ذلك الاسم أكمله وأعظمه، وأنّ هذا الكمال والعظمة ليس له منتهى، ويعرف أنّ كل ما ناقض هذا الكمال بوجه من الوجوه فإن الله تعالى منزه مقدس عنه. ولما كان هذا النوع هو أصلُ الإيمان بالغيب وأعظمه وأجلّه قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحد، من أحصاها دخل الجنة»**[1]، أي ضبط ألفاظها، وأحصى معانيها، وتعقلها في قلبه، وتعبَّد الله بها، وتقرَّب بمعرفتها إلى رب العالمين.

فينبغي للمؤمن الناصح لنفسه أن يبذل ما استطاع من مقدوره في معرفة أسماء الله وصفاته وتقديسه، ويجعل هذه المسألة أهم المسائل عنده وأولاها بالإيثار وأحقها بالتحقيق ليفوز من الخير بأوفر نصيب. ولهذا لما سأل النبي ﷺ الرجل الأنصاري عن سبب ملازمته لقراءة سورة «قل هو الله أحد» في صلاته، فقال: لأنها صفة الرحمن فأحبُّ أن أقرأ بها. فقال: **«حُبُّكَ إياها أدخلك الجنة»** متفق عليه[2].

فثبت أنّ حب العبد لصفات الرحمن وملازمة تذكرها واستحضار ما دلت عليه من المعاني الجليلة والتفهم في معانيها من أسباب دخول الجنة. وطريق ذلك أن يجمع العبد الأسماء الحسنى الواردة في القرآن وهي قريب من ثمانين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١١/ ٢١٤ و١٣/ ٣٧ فتح)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٢٥٥) معلقاً ووصله الترمذي في سننه رقم (٣٠٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧٣٧٥)، ومسلم في صحيحه برقم (١٨٨٧) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها.

اسماً وفي السنة زيادة على ذلك فيتدبرها ويعطي كل اسمٍ منها عموم ذلك المعنى وكماله وأكمله.

[تدبر اسم اللَّه]:

فإذا تدبر اسم (الله) عرف أنّ الله تعالى له جميع معاني الإلٰهية وهي: كمال الصفات والانفراد بها وعدم الشريك في الأفعال لأن المألوه إنما يُؤله لما قام به من صفات الكمال فيُحَب ويُخْضَع له أجلها، والباري جل جلاله لا يفوته من صفات الكمال شيء بوجه من الوجوه. أو يؤله ويعبد لأجل نفعه وتوليه ونصره فيجلب النفع لمن عبده ويدفع عنه الضرر، ومن المعلوم أن الله تعالى هو المالك لذلك كله وأنّ أحداً من الخلق لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. فإذا تقرر عنده أن الله وحده المألوه أوجب له أن يُعَلِّق بربه حبه وخوفه ورجاءه، وأناب إليه في كل أموره وقطع الالتفات إلى غيره من المخلوقين ممن ليس له من نفسه كمال، ولا له فعال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

[تدبر اسم العليم]:

ويتدبر مثلاً اسم (العليم) فيعلم أنّ العلم كله بجميع وجوهه واعتباراته لله تعالى. فيعلم تعالى الأمور المتقدمة والأمور المتأخرة أزلاً وأبداً، ويعلم جليل الأمور وحقيرها وصغيرها وكبيرها، ويعلم تعالى ظواهر الأشياء وبواطنها غيبها وشهادتها ما يعلم الخلق منها وما لا يعملون، ويعلم تعالى الواجبات أو المستحيلات والجائزات، ويعلم تعالى ما تحت الأرض السفلى كما يعلم ما فوق السموات العُلى، ويعلم تعالى جزيئات الأمور وخبايا الصدور وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم وأنحاء المملكة، فهو الذي أحاط علمه بجميع الأشياء في الأوقات ولا يعرض تعالى لعلمه خفاء ولا نسيان. ويتلو على هذه الآيات المقررة له كقوله في غير موضع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة لقمان: ٢٣]، ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ [سورة التغابن:

٤]، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [سورة طه: ٧]، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [سورة الرعد: ١٠]. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [سورة الحج: ٧٠]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [سورة آل عمران: ٦ ـ ٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝٣٤﴾ [سورة لقمان: ٣٤].

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [سورة الأنعام: ٥٩]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣﴾ [سورة الحج: ٦٣]. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [سورة سبأ: ٢]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٩﴾ [سورة لقمان: ٢٧ ـ ٢٩]. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المجادلة: ١٣]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [سورة المجادلة: ٧]. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ۚ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [سورة السجدة: ١٧]. وغير ذلك من النصوص الكثيرة على هذا المعنى فإنَّ تدبُّر بعض ذلك يكفي المؤمن البصير معرفةً بإحاطة علم الله تعالى وكمال عظمته وجليل قدره وأنه الرب العظيم المالك.

[تدبر اسم الرحمن]:

وكذلك يتدبر اسمه (الرحمن) وأنه تعالى واسع الرحمة، له كمال الرحمه، ورحمته قد ملئت العالم العلوي والسفلي وجميع المخلوقات وشملت الدنيا والآخرة. ويتدبر الآيات الدالة على هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣]، ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [سورة الروم: ٥٠] ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [سورة لقمان: ٢٠]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤ - ٣٦]، ويتلو سورة النحل الدالة على أصول النعم وفروعها التي هي نفحةٌ وأثرٌ من آثار رحمة الله ولهذا قال في آخرها: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [سورة النحل: ٨١].

ثم تدبر سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فإنها عبارة عن شرح وتفصيل لرحمة الله تعالى فكل ما فيها من ضروب المعاني وتصاريف الألوان من رحمة الرحمن ولهذا اختتمها في ذكر ما أعدّ الله للطائعين في الجنة من النعيم المقيم الكامل الذي هو أثرٌ من رحمته تعالى، ولهذا يُسَمي الله الجنة الرحمة كقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٧].

وفي الحديث: «**إن الله قال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي**»[1].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٥٩٥)، ومسلم في صحيحه (١٧/ ١٨٠، ١٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة يوسف: ٦٤].

وفي الحديث الصحيح: « **لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها**»[(١)].

وفي الحديث الآخر: «**إن الله كتب كتاباً عنده فوق عرشه: أنَّ رحمتي سبقت غضبي**»[(٢)].

وفي الجملة فالله خلق الخلق برحمته وأرسل إليهم الرسل برحمته، وأمرهم ونهاهم وشرع لهم الشرائع برحمته، وأسبغ عليهم النعمة الظاهرة والباطنة برحمته، ودَبّرهم بأنواع التدبير وصَرَّفهم بأنواع التصريف برحمته، وملأ الدنيا والآخرة من رحمته فلا طابت الأمور ولا تيسرت الأشياء ولا حصلت المقاصد وأنواع المطالب إلا برحمته، ورحمته فوق ذلك وأجل وأعلى وللمحسنين المتقين من رحمته النصيب الوافر والخير المتكاثر ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٦].

وهكذا يتدبر العباد صفات ربه وآثارها وأحكامها حتى ينصبغ قلبه بمعرفته ويستنير فؤاده ويمتلي من عظمة خالقه وشواهد صفاته. ولنقتصر على هذا التنبيه اللطيف على هذه الأسماء الثلاثة ليحتذي في باقيها على هذا الحذو ويتدبر مثلاً: آية الكرسي، وأول سورة آل عمران، وأول سورة الحديد، وغافر، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص، ونحوها من الآيات المشتملة على هذا العلم العظيم. وما يتأيد بها من الأحاديث النبوية لينال حظاً جزيلاً من الإيمان بالغيب وليكون من الذين يخشون ربهم بالغيب.

ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بجميع رسل الله الذين أرسلهم على وجه الإجمال والتفصيل لأشخاصهم ولدعوتهم وشرعهم. وكذلك الإيمان بجميع الكتب التي أنزلها الله هداية للعباد على ما اجتباهم برسالته ولهذا سمى الله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠/٤٢٦، ٤٢٧)، ومسلم في صحيحه (١٧/٦٩، ٧٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٢٨٧)، ومسلم في صحيحه (١٧/٦٧، ٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الوحي الذي أنزله على رسوله غيباً فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة التكوير: ٢٤] ويذكر تعالى من أدلة رسالة محمد ﷺ الإخبار بوقائع الأنبياء المتقدمين وما جرى لهم فيقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [سورة هود: ٤٩]. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٤]. ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة القصص: ٤٤]، وما أشبه هذا مما فيه التبيان لصحة رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بهذه الغيوب.

فتمام الإيمان بالغيب أن يؤمن العبد بجميع رسل الله ويعرف من صفاتهم ومن دعوتهم ما يحقق به هذا الأمر.

وكذلك يؤمن بجميع الكتب خصوصاً هذا القرآن العظيم الذي كلف العبد بالإيمان به إجمالاً وتفصيلاً.

وكيفية الإيمان على وجه الإجمال والتفصيل:

١ ـ أن يؤمن ويُصدِّق بأنه كلام الله أنزله مع جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ بهذا اللسان العربي لينذر الخلق ويهدي إلى الحق في جميع المطالب.

٢ ـ ويلتزم العبد التزاماً لا تردد فيه تصديق إخباراته كلها وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وإحلال حلاله وتحريم حرامه.

٣ ـ ثم يحقق هذا الأصل بتفاصيله فيتفهم ما دلت عليه أخباره ويجعلها عقيدة لقلبه راسخة لا تزلزلها الشُّبه ولا تغيرها العوارض.

٤ ـ ويجتهد في كل ما أُمر به من أعمال القلوب والجوارح؛ أن يقوم به على وجه الكمال والتكميل علماً وعملاً وحالاً، وما لا يقدر عليه ينوي فعله لو قدر عليه.

٥ ـ وكذلك النواهي يأخذ نفسه في كل ما نُهِيَ عنه أن لا يقربه ولا يحوم حوله امتثالاً لأمر الله ورجاء لثوابه.

فبحسب قيام العبد بهذا يكون إيمانه بالغيب فَمُسْتَقِل ومُسْتَكثِر ومُتوسطِ ويدخل في هذا النوع الإيمان بإخباره بما كان من الأمور الماضية وما يكون من الأمور المستقبلة.

ومن أنواع الإيمان بالغيب: الإيمان باليوم الآخر وبما وعد الله العباد من الجزاء فدخل في هذا الإيمان بجميع ما يكون بعد الموت من فتنة القبر وأحواله، ومن صفات يوم القيامة وأهواله، ومن صفات النار وأهلها وما أعد الله لهم فيها، ومن صفات الجنة وأهلها وما أعد الله فيها لأهلها. فيفهمها فهماً صحيحاً مأخوذاً من الكتاب ودلالته البينة ومن السنة الصحيحة ودلالتها الظاهرة، فبحسب ما يصل إلى العبد من نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب وفهمها على وجهها يكون إيمان العبد بالغيب.

وإذا استقر الإيمان بالوعد والوعيد في قلب العبد وحصل فيه من ذلك تفاصيل كثيرة أوجب له الرغبة في فعل ما يقربه إلى ثواب الله والرهبة من الأسباب الموجبة للإهانة وعلم أنّ الله تعالى قائم على كل نفس بما عملت من خير وشر، وأنه واسع الفضل كامل العدل، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ [سورة مريم: ٦١]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٢٢]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: ٨٧]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [سورة آل عمران: ٩].

ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بالملائكة الكرام الذين جعلهم الله عباداً مكرمين لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنه تعالى جعلهم يدبرون بأمره وإذنه أمور الدنيا والآخرة فهم أكثر جنود الله وهم رسله في أحكامه الدينية وأحكامه القدرية، وأن الله جعل للعبد منهم معقبات يحفظونه من أمر الله ويحفظون عليه أعماله ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة ق: ١٨]،

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [سورة الانفطار: ٩ ـ ١٢]. ولهم صفات وأفعال مذكورة في الكتاب والسنة لا يتم الإيمان بالغيب إلا بالإيمان بها.

فرجع الإيمان بالغيب إلى أُصول الإيمان الستة: بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره على هذا الوجه الذي ذكرنا والأصل الذي نبهنا أدنى تنبيه عليه فمن حقق الإيمان بذلك كله كان من المؤمنين ـ بالغيب حقيقةً ـ المتقين المفلحين.

[المواهب الربانية (ص ١١١ ـ ١٢٣)]

فصل

وقال رحمه الله:

الدين والإيمان يشمل القيام بأصول الإيمان الستة وشرائع الإسلام الخمس وحقائق الإحسان التي هي أعمال القلوب التي أصلها الإحسان «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» كما هو مذكور في حديث جبريل.

ويترتب على هذا أن المؤمنين ثلاثة أقسام:

سابقون بالخيرات وهم الذين حققوا هذه الأمور ظاهراً وباطناً وقاموا بواجبها ومستحبها، ومقتصدون وهم الذين اقتصروا على فعل الواجبات وترك المحرمات.

وظالمون لأنفسهم وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

ويترتب على هذا أن الإيمان يزيد بزيادة هذه الأمور كثرة وجودة وينقص بنقص شيء منها، ويترتب على هذا أيضاً أن العبد يكون فيه خير وشر، وأسباب ثواب، وأسباب عقاب، وخصال كفر، ونفاق، وخصال إيمان.

ويتفرع على هذا أنه يستحق من المدح والذم، ومن الثواب والعقاب، بمقدار ما قام به من هذه الأمور المقتضية لآثارها من ثواب وعقاب ومدح وقدح

وهذا مقتضى حكمة الله وعدله وفضله.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ١٦)]

وقال رحمه الله:

توضيح أن الإيمان يشمل عقائد الدين وأعمال القلوب وأعمال الجوارح كما دل عليه الكتاب والسنة واتفق عليه السلف الصالح، وبيان ارتباط بعضها ببعض وذلك أن العبد إذا سمع النصوص من الكتاب والسنة الدالة على صفات الله إثباتاً ونفياً وعلى تصديق رسوله وعلى الإخبار بكل الغيوب وعلى الأمر بالخير والنهي عن الشر، فإنه يفهمها أولاً فإذا فهمها وعرفها اعترف القلب بها وصدقها تصديقاً لا ريب فيه تصديقاً لله ولرسوله وذلك تقتضي محبتها والتقرب إلى الله باعتقاد ما دلت عليه والجزم بأنه الحق النافع، فإذا عرف الله ورسوله وأحبه، أحب كل ما يقرب إلى الله وكره كل ما يبغضه ويمقته وحينئذ ينقاد القلب انقياداً جازماً لطاعة الله، وطاعة رسوله، فيقصد ويريد فعل ما يقدر عليه من محبوبات الله من واجب ومستحب، قصداً جازماً يترتب عليه وجود ما قصده وأراده ويقصد اجتناب ما نهى الله عنه ونهى عنه رسوله قصداً جازماً يقترن به الترك وهذا هو معنى قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ [سورة آل عمران: ١٩٣] وقول المؤمنين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥]، ومنة الله عليهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ . . .﴾ الآية [سورة الحجرات: ٧].

فتبين أن هذه الأمور: التصديق والاعتراف والحب والانقياد ووجود مقتضى هذا الانقياد، متلازمة مرتبط بعضها ببعض إذا تم واحد منها وكمل، علم أن جميعها قد كملت وإذا انتفى واحد منها بالكلية علم أن جميعها انتفت، وإذا نقص واحد منها فَلِنَقْصٍ في بقيتها، فافهم هذا الإيضاح في بيان الإيمان، ولهذا مثل الله الإيمان بالشجرة في وجودها وكمالها ونقصها على هذا الوصف الذي ذكرنا. والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٤٩)]

وقال رحمه الله:

الإيمان والاحتساب يخفف المصائب ويحمل على الصبر:

دليله قوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: ١٠٤] أي فليكن صبركم أعظم ومصيبتكم أخف، كما أن عدم الإيمان يُصَعِّب المصيبة ويحمل على الجزع، دليله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٦] ومما يدل على الأمرين قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [سورة الحديد: ٢٢ - ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [سورة التغابن: ١١]، وغير ذلك من الآيات.

[المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ٢٩)]

وقال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة التوبة: ١٢] أوقع الظاهر وهو قوله: «أئمة الكفر» موقع الضمير، فلم يقل: فقاتلوهم ليدل على الحض على قتالهم وأنهم تمكنوا من الكفر. ودل على أن بهذه الأشياء يكون الإنسان من أئمة الكفر، وهو نقض العهود والدعوة إلى دين الكفر، والطعن في دين الإسلام.

ويدل هذا على أن أئمة الإيمان ضدهم فهم المؤمنون الملتزمون لشرائع الإيمان الموفون بعهوده الداعون إلى الله الذابون عنه المبطلون لما ناقضه ظاهراً وباطناً وأنهم الموثوق بهم ومحل القدوة والأمانة، نسأل الله تعالى من فضله.

[المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ٤٢)]

وقال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة الحشر: ٩] لا يمكن أن تكون القبلية في قوله: «من قبلهم» راجعة إلى الدار دون الإيمان لأن اللفظ لا يساعد على هذه لأن الوصف بالجار المجرور ولا يصلح إلا أن يعود على المعطوف والمعطوف عليه، وإلى أين يعود وقد علم وتقرر أن المهاجرين قد تقدم إيمان كثير منهم على الأنصار؟ فالجواب: أن هذا عائد إلى الدار والإيمان على اللفظ المصرح به وهو التبوء والاستقرار ومعنى هذا أن أهل الإيمان لهم حال تبوء وتمكين، يتمكنون فيه من إقامة دينهم وقيامهم في أنفسهم وفي غيرهم، ولهم حال وجود للإيمان منهم دون تمكين، فلم يحصل التمكين إلا بعدما هاجروا إلى المدينة وصار لهم دار إسلام وأما قبل ذلك فهم وإن كانوا مؤمنين لكنهم في حالة ذلة وقلة محكومون مقهورون خائفون على أنفسهم وبهذا يتبين المعنى.

[المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ١٠٤)]

وقال رحمه الله:

قوله في حديث الوسوسة **(ذلك صريح الإيمان)**[١] رواه مسلم و**(الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة)**[٢] رواه أبو داود. وذلك أن ما يقع في القلب من وساوس الشيطان أو إلقائه ـ إذا كان منافياً لما أخبر الله به ورسوله ـ فإن المؤمن لا يستريب في خبر الله ورسوله وما دل عليه من المعاني والعقائد، والشيطان لا بد أن يُلْقِيَ من الشبهات والشكوك، ما يتوصل به إلى حصول مراده. ولكن ما مع المؤمن من الإيمان واليقين ينفي ذلك ويكرهه أشد الكراهة، فلا يزال يكرهه ويدفعه حتى يستقر الإيمان في القلب صافياً من الأكدار، سالماً من الشبهات فهذا صريح الإيمان الذي نفى الشبهات والشكوك والحمد لله الذي رد كيده إلى

---

(١) أخرجه مسلم في صيحه كتاب الإيمان برقم (٨٣٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٣٥) وأبو داود في سننه كتاب الأدب/باب من رد الوسوسة حديث رقم (٥١١٢) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود برقم (٤٦٢٤).

الوسوسة فلم يدرك من الإنسان إلا مجرد وساوس لا قرار لها ولا ثبوت، بل نفيها وكراهتها يزداد به المؤمن إيماناً والموقن أيقاناً.

فالاستعاذة منه من باب دفع الشر والمكره والصائل.

والرجوع إلى الإيمان بالله ورسوله والاعتراف بوحدانيته وصفاته من باب الرجوع إلى الأصل الثابت، الذي يدفع بذاته وقوته كل شك.

وشبهة الاستعاذة فيها، الاستعانة بالله على دفعه، والرجوع إلى الإيمان فيه الرجوع إلى فضله ورحمته. وهذا من أعظم الأسباب على الاطلاق في دفع هذه الشبهة التي هي من أعظم الشبهات، بل هذا يدفع كل شبهة على الحق.

فمتى تحقق العبد الحق، وعلمه علماً لا يستريب فيه، علم أن كل ما ناقضه فهو باطل، ولا يتم ذلك إلا بالاستعانة بالله وتوفيقه.

والله المستعان على حصول الخير ودفع الشر.

[الفتاوي السعدية (ص ٦١)]

وقال رحمه الله في شرحه على كتاب التوحيد:

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

أما الصبر على طاعة الله والصبر على معصيته فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان بل هما أساسه وفرعه فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه، وصبر عن محارم الله فإن الدين يدور على ثلاثة أصول: تصديق خبر الله ورسوله وامتثال أمر الله ورسوله واجتناب نهيهما. فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم ولكن خص بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله وأن الله أتم الحكمة في تقديرها وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد رضي بقضاء الله، وسلم لأمره، وصبر على المكاره تقرباً إلى الله، ورجاء لثوابه وخوفاً من عقابه، واغتناماً لأفضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوي إيمانه وتوحيده.

[القول السديد شرح كتاب التوحيد]

وقال رحمه الله: في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن

لما كان الإيمان أصل الخير كله والفلاح، وبفقده يفقد كل خير ديني ودنيوي وأخروي، أكثر من ذكره في القرآن جداً أمراً به ونهياً عن ضده وترغيباً فيه، وبيان أوصاف أهله، وما لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي فأما إذا كان المقام خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي أو مقام إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان فإنها تتناول كل مؤمن سواء كان متمماً لواجبات الإيمان وأحكامه أو ناقصاً في شيء منها، وأما إن كان المقام مقام مدح وثناء، وبيان الجزاء الكامل للمؤمن، فإنما المراد بذلك المؤمن حقاً الجامع لمعاني الإيمان وهذه هو المراد بيانه هنا، فنقول: وصف الله المؤمن في كتابه باعترافه وتصديقه بجميع عقائد الدين وبإرادة ما يحبه الله ويرضاه، وبالعمل بما يحبه الله ويرضاه، وبترك جميع المعاصي والمبادرة بالتوبة مما صدر منه وبأن إيمانهم أثر في أخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم الآثار الطيبة فوصف المؤمنين بالإيمان بالأصول الجامعة وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأنهم يؤمنون بكل ما أوتيه الرسل كلهم، ويؤمنون بالغيب، ووصفهم بالسمع والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً، ووصفهم بأنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[1] [سورة الأنفال: ٢ ـ ٤] ووصفهم بأن جلودهم تقشعر وعيونهم تفيض من الدمع وقلوبهم تلين وتطمئن لآيات الله وذكره، وبأنهم يخشون ربهم في الغيب والشهادة وأنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، ووصفهم بالخشوع في أحوالهم عموماً وفي الصلاة خصوصاً، وأنهم عن اللغو معرضون، وللزكاة فاعلون، ولفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، وأنهم بشهادتهم قائمون ولأماناتهم وعهدهم راعون، ووصفهم باليقين الكامل الذي لا ريب فيه وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ووصفهم بالإخلاص لربهم في كل ما يأتون ويذرون، ووصفهم بمحبة المؤمنين والدعاء لإخوانهم من المؤمنين السابقين

---

(١) انظر تفسير الآيات في الفصل الأول من هذا الكتاب.

واللاحقين، وأنهم يجتهدون في إزالة الغل من قلوبهم على المؤمنين، وبأنهم يتولون الله ورسوله وعباده المؤمنين ويتبرءون من موالاة جميع أعداء الدين، وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويطيعون الله ورسوله في كل أحوالهم، فجمع الله لهم بين العقائد الحقة واليقين الكامل والإنابة التامة التي آثارها الانقياد لفعل المأمورات، وترك المنهيات، والوقوف على الحدود الشرعيات فهذه الأوصاف الجليلة هي وصف المؤمن المطلق الذي سلم من العقاب واستحق الثواب، ونال كل خير رتب على الإيمان، فإن الله رتب على الإيمان في كتابه حسن الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مائة فائدة، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها: رتب على الإيمان نيل رضاه الذي هو أكبر كل شيء، ورتب عليه دخول الجنة والنجاة من النار، والسلامة من عذاب القبر ومن صعوبات القيامة وتعسر أحوالهم، والبشرى الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة والثبات في الدنيا على الإيمان والطاعات وعند الموت وفي القبر على الإيمان والتوحيد والجواب النافع السديد، ورتب عليه الحياة الطيبة في الدنيا والرزق والحسنة، وتيسير العبد لليسرى وتجنيبه للعسرى، وطمأنينة القلوب، وراحة النفوس، والقناعة التامة، وصلاح الأحوال، وصلاح الذرية، وجعلهم قرة عين للمؤمنين والصبر عند المحن والمصائب وحمل الله عنهم الأثقال، ومدافعة الله عنهم جميع الشرور، والنصر على الأعداء، ورفع المؤاخذة عن الناس والجاهل والمخطىء منهم وأن الله لم يضع عليهم الآصار، بل أزالها ولم يحملهم ما لا طاقة لهم فيه، ومغفرة الذنوب بإيمانهم والتوفيق للتوبة، فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من الله والقرب من رحمته ونيل ثوابه، وأكبر وسيلة لمغفرة الذنوب وإزالة الشدائد أو تخفيفها وثمرات الإيمان على وجه التفصيل كثيرة وبالجملة خيرات الدنيا والآخرة مرتبة على الإيمان كما أن الشرور مرتبة على فقده، والله أعلم.

[القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص ١٠٨ ـ ١١١)]

* * *

فائدة مهمة جدّاً

مغذيات الإيمان

قال رحمه الله:

ينبغي للعبد أن يسعى ويجتهد في عمل الأسباب الجالبة للإيمان والمقوية للإيمان، ومن أعظم ذلك تدبر القرآن؛ فإنه يزيد في علوم الإيمان وشواهده، ويقوي الإرادة القلبية، ويحث على أعمال القلوب من التوكل والإخلاص والتعلق بالله الذي هو أصل الإيمان، وكذلك معرفة أحوال النبي ﷺ وسماع أحاديثه، ومعرفة معجزاته، وما هو عليه من الأخلاق والأوصاف، وكذلك التفكر في آيات الله ومخلوقاته المتنوعة، ولهذا يحث الله على التفكر في ملكوت السماوات والأرض وما أودع فيها من الآيات والبراهين الدالة على وحدانية الله وصفاته وآلائه، وكذلك التفكر في نعم الله الظاهرة والباطنة الخاصة والعامة؛ فإنها تدعو دعاء حثيثاً إلى الإيمان وتقويه؛ فما بالعباد من النعم وما يدفعه من النقم كلما تفكر فيها؛ ازداد إيمانه وقوي يقينه، وكذلك النظر في أحوال الأنبياء والصديقين وخواص المؤمنين، ومعرفة أحوالهم، وتتبع أمورهم؛ من أكبر مقويات الإيمان ومواد تغذيته، وكذلك الضرورات التي تلجىء العبد إلى ربه وتحثه على ذكره وكثرة دعائه وما ينشأ عن ذلك من تفريج الكربات وإجابة الدعوات وحصول المسار واندفاع المضار؛ كلها من مقويات الإيمان.

ومن أعظم مقويات الإيمان ومغذياته اللهج بذكر الله والإكثار من دعائه والإنابة إليه في السراء والضراء، في جميع النوازل الخاصة والعامة الكبيرة الصغيرة؛ فهي من مغذيات الإيمان، والإيمان يغذيها؛ فكل من الأمرين يمد الآخر، وكلما ازداد العبد من هذه الأمور ومن الرجوع إلى الله في كل أحواله؛ ازداد إيمانه، وكثرت شواهده، وازداد العبد بصيرةً ويقيناً، وقوي توكله.

ومن مغذيات الإيمان: قوة الصبر على طاعة الله وعن معاصيه وعلى

أقداره، مع استصحاب التوكل والاستعانة بالله على ذلك، بل هو الإيمان أصلاً وفرعاً وغذاءً وثمرةً؛ فمتى غرست شجرة الإيمان في القلب وتأصلت بمعرفة الله ومعرفة ما له من الأسماء الحسنى والصفات العظيمة، والتفرد بكل كمال وكل فضل وإفضال، وانبعثت دواعي الإنابة إلى الله بذكره ودعائه، والرجوع إليه، وامتثال أمره واجتناب نهيه، والصبر على أقداره، والرضى به رباً بالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وتعاهد العبد هذه الشجرة بالأوراد الشرعية والوظائف المرتبة، وهي: أعمال اليوم والليلة، ودوام التوبة والاستغفار كل وقت، والعزم الجازم على تحقيق الإخلاص لله والمتابعة للرسول، والاجتهاد في تحقيق ذلك، وتنقية القلب من كل ما يضاد ذلك؛ من رياء وفخر، وعجب وكبر، وتيه، ومن غل وحقد وغش مما ينافي النصيحة ومحبة الخير للمسلمين، وتعاهدها أيضاً ببذل ما يستطيعه العبد من النفع للعباد من تعليم، ونصيحة لهم في دينهم ودنياهم، وتوجيه لهم إلى الخير بحسب أحوالهم، ودعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة بحسب قدرته واستطاعته وبحسب الظروف التي هو فيها متى وفق لذلك كله، أتت هذه الشجرة أكلها كل حين بإذن ربها والله تعالى هو الموفق وحده، المحمود وحده، الذي لا ملجأ للعبد ولا منجا منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو المرجو في كل الأمور، وإليه المفزع والمشتكى، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٨٠ ـ ٨٢)]

تأييد الله لخواص عباده

قال رحمه الله:

قوله تعالى في حق خواص المؤمنين: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢] هذا التأييد من الله لهم من تأييدهم بالأسباب التي نالوا بها مراتب الإيمان؛ فأيدهم بقوة نالوا بها العلم، وبقوة نالوا بها اليقين والإيمان، وبقوة نالوا بها الصبر والتوكل والخوف والرجاء والإنابة، وبقوة قاموا بها بالجهاد؛ فالله تعالى هو المتفضل [عليهم] بالسبب وسبب السبب، كما أنه هو المتفضل عليهم

بالجزاء على ذلك؛ فمنه الفضل السابق واللاحق، وبتأييده لهم بالأسباب ومسبباتها تمت عليهم النعمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحجرات: ٧ ـ ٨]، وبهذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [سورة المائدة: ١٦] تعرف حكمة الله في تأييده هؤلاء الخواص بمعالي الأخلاق ومحاسن الأعمال، كما أن مثل قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ. . .﴾ الآية [سورة الأعراف: ٣٠] يعرف بها حكمة الله في عدم هداية الذين اختاروا الشقاء والضلالة على السعادة والهدى، وولاية الشياطين على ولاية رب العالمين؛ فكان من الحكمة الربانية التي يحمد الله عليها أكمل حمد أنه ولى هؤلاء الأشقياء ما تولوه واختاروه لأنفسهم، وأنهم حين جاءهم الهدى والحق فردوه ولم يؤمنوا به؛ قلب الله قلوبهم وختم عليها؛ فله الحمد على ذلك كما له الحمد على فضله وإحسانه.

خطاب الحازم مع نفسه

وقال رحمه الله:

الحازم: هو الذي ينازع ويدافع الأقدار المؤلمة بما يدفعها قبل نزولها، أو يرفعها بعد نزولها، أو يُخَفِّفها بالطرق المباحة، أو المأمور بها. فإن أعياه ذلك استسلم للقدر، ورضيَ بقضاء الله، وسَلَّمَ لأَمره.

ولهذا قال عُمَرُ رضي الله عنه: «نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله، إلَى قَدَرِ الله».

كذلك يفِرّ العبد مما يكره الله باطِناً وظاهراً، إلى ما يُحبّه الله ظاهراً وباطناً: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الذاريات: ٥٠].

ويفِرّ من أسباب الهلاك والعَطَب والضرر، إلى أسباب النجاة والسّلامةِ، وحُصول النفع. ولكن الشأنَ في معرفة الأسباب النافعة والضارة، ثم في سُلوك خيْر الأمرين، ومُدافعة أشدّ الضَّرَرَيْن. والله الموفق وحده.

والتثبُت في سماع الأخْبار، وتمْحيصها ونقْلها وإذاعتها، والبِناءُ عليها؛ أصل كبير نافع، أمر الله به ورسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [سورة الحجرات: ٦].

فأمر بالتثبُت، وأخْبر بالأضرار المُترتّبة على عدم التّثبُت، وأن من تثبّت لم يندم.

وأشار إلى الميزان في ذلك قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ وأنه العلم والتحَقُّق في الإصابة وعَدَمِه.

فمَن تحقّق، وعلِم كيف يسمع، وكيف ينقُل وكيف يعمل، فهو الحازِم المُصيب.

ومن كان غير ذلك، فهو الأحمق الطائش الذي مَآلُه النّدامة.

وأَحُوج الناس إلى هذا الأمر الوُلاة على اختلاف مَراتبهم وطبقاتِهم، وأهل العِلم على تفاوُت درجاتهم، وذلك يحتاج إلى اجتهاد وتمرين للنفس، وتوْطين لها على مُلازمة التثبّت مع الاستعانة بالله، والله الموفق المعين.

ولا يزالُ المؤمن بإيمانه يُقاوِم جميع الواردات، يستدْفع بإيمانِه المَكارِه والشّدائد، ويستديم به المحابَّ. إن وردتْ عليه الشّدائد والمصيبات، تَلَقَّاها بقُوَّة إيمان وصبْر ويقين، وهو في ذلك، بِثقته بربِّه، وقُوَّة ظنِّه ورجائِه، في حِصن حَصين، فَرِحٌ إذا حزن الناس، مُبتهج بذلك إذا اشتد اليأس. وإن وردت عليه المحبوبات تلقّاها بِطُمَأْنِينَة وسُكون، وحَمَلَهُ الإيمان على القيام بوظيفةِ الشّاكرين، يفرح بها لا فَرَحَ أَشرٍ وَبَطَرٍ، بل لأنها من فضل ربّه أوْصلها بِجودِه إليه، ويصْرِفها فيما يعود عليه بالنفع في الدنيا والدين.

وإن وردتْ عليه الأوامر الشرعية، تلقّاها بالرِّضا والتسليم، وهوَّنَ إيمانُه عليه القِيام بها، طاعةً لربّه، وتكميلاً لإيمانه، وتَقْوِيَةً لإيقانه، ورجاءً لموعودِها، وخُروجاً من تَبِعَةِ التَّرْك.

وإن دعتْه النّفسُ الأمّارَةُ بِالسُّوء إلى بعض المعاصي، قال لها الإيمان: يا نَفْسُ، كيْف يليقُ بكِ أن تأمريني بما يُضْعِف إيماني، ويعودُ عليك بالخِسار؟.

كيف تأمرينني بلذة ساعة، تُفَوِّتُ لذّاتٍ كثيرةً، مِنْ أَبْلَغِها حلاوةُ لذّة الإيمان؟.

أما تعلمين أنّ للإيمان حلاوةً تُزْرِي بِلذّات الدّنيا كلِّها؟ فالله الله ـ يا نفْسي ـ أن تَفجعيني بهذه الحلاوة!...

وَيْحَك، يا نفسُ: أما لَكِ نظرٌ في عَواقِب الأُمور؟ فإن خاصِّيَّة العقْلِ النّظر في عواقِب الأُمور، كما ينظر في مَباديها، وأنّه لا يدخُل في أمر من الأُمور حتى يعرف المَخرج منه بعافِيَة وسلامة؟ أما علمت أن من وقع في المعاصي ارْتكَس، وكلما كرّرها استحكم قيْدُه وحبْسه وانْتكس؟!.

ويحك، يا نفْسُ: إذا أردت أن تعصي الله، فلا تستعيني بِنِعَمِه على معاصيه، فإنّ المعصيةَ لا تتأَتّى إلاّ مِن القُوّة والعافِيَة، ومَن الذي أَعْطاها؟!.

ولا تتحرّك إلا مِن تَوالِي الشِّبَع، ومَن الذي يسّر الأقوات وآتاها؟! ولا تكون في العادة إلا بِخلْوَة من الخَلْق. ومَن الذي أَسْبل عليكِ حِلمَه وسَتْرَهُ؟ ولا تقَعُ إلاّ بِنظَرِه إليكِ، فإياكِ أن تَسْتَخِفّي بِاطّلاعِه وعِلمه.

أَمَا تعلمين ـ يا نَفْسُ ـ أنَّ من جاهد نفسَه عن المعاصي، وأَلْزمها الخَيْر، فقد سعَى في سعادتِها وقد أَفْلَحَ من زَكّاها؟ وأنَّ من أطاع نفسَه على ما تُريد من الشَّرّ، فقد تسبّب لهلاكِها ودَسّاها؟!.

ويحك ـ يا نَفْسُ ـ كم بيْني وبينَكِ في المعاملة: أنت تريدين هلاكي، وأنا أسعى لكِ بالنجاة!... وأنت تَحَيَّلِينَ عليَّ بِكُلِّ طريق يُوقعُ في المضارِّ والشُّرور، وأنا أجتهدُ لك في كلِّ أمْر مآلُه الخيْر والراحة والسُّرور!

فَهَلُمّي ـ يا نَفْسُ ـ إلى صُلح شريف، يحتفظ كلّ مِنّا على ما لَهُ من المرادات والمقاصد، ونتّفق على أمر يَحْصُل به لِلطرَفيْن أصْناف المصالح والفوائِد...

دعِيني - يا نَفْسُ - أمْضي بإيماني مُتقدماً إلى الخيْرات، مُتَّجراً فيه، لِتحْصيل المكاسِب والبَركات...

دَعِيني أتوسّل بإيماني إلى مَن أعطاه، أن يُتِمَّه بتمام الهداية، وكمال الرّحمة، وأُكْمِل ما نقَص منه، لعلّ الله أن يُتمَّ عليَّ وعليكِ النِّعمة، ولئن تركتني وشأني ولم تعترِضي عليَّ بِوجْه من الوُجوه، لأُعْطِيَنّك كلَّ ما تطلُبينه من المُباحاتِ، وكلّ ما تُؤَمِّله النُّفوس وتزْجوه. ولئن تركتنِي وشأني، لأُوصلنّك إلى خيرات ولذّات طالما تمنّاها المُتَمَنُّون، وطالما مات بِحسْرتها - قبل إدْراكها - البَطّالون!...

يا نَفْسُ: أما تُحِبّين أن تُنْقَلي من هذا الوصْف الدّنيء إلى أوْصاف النُّفُوس المطمئنة التي اطمأنّت إلى رَبِّها، وإلى ذِكْره، واطمأنت إلى عطائِه ومَنْعِه، واطمأنت إليه في جميع تدبيره، واطمأنت إلى توحيده والإيمان به، حتى سَلاَّها عن كُلِّ المَحْبُوبات، واطمأنت إلى وعده حتى كانت هي الحامِلَة للعبد على الطّاعات، المُزعجة له عن المعاصي والمُخالفات.

فلا يزال المؤمنُ مع نفسِه في مُحاسبة ومُناظَرة، حتى تنقادَ لِداعي الإيمان، وتكون ممن يُقال لها عند الانْتِقال من هذه الدار:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الفجر: ٢٧ - ٣٠].

* * *

الفصل الخامس

خطب الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي حول حقيقة الإيمان وصفات المؤمنين

خطبة

في الحث على تحقيق الإيمان وتكميله

الحمد لله الذي جعل الإيمان أُسَّ الفضائل وأعلاها، وأكمل الخصال الحميدة وأجلها وأزكاها، به تزكو الأحوال، وبه تدرك الآمال، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وحدَه لا شريك له، إقراراً بمعناها وتصديقاً وانقياداً لمقتضاها، وإخلاصاً بها وإيقاناً وتحقيقاً، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولهُ، أفضلُ داعٍ إلى الإيمان، وأعلى مؤسس لقواعد الإيقان؛ اللهم صلِّ على محمد، وعلىَ آله وأصحابه والتابعين بإحسان، وسلِّم تسليماً.

أما بعد، أيها الناس اتَّقوا الله تعالى، واعلموا أن أصل التقوى أن تتحققوا بحقوق الإيمان، وأن تقوموا بلوازمه التي أمركم بها الرحمن، فإن للإيمان عقائدَ لا بُدَّ أن تعتقدوها، وله أعمالاً ظاهرة وباطنة لا يتمُّ لكم الإيمان حتى تسلكوها، فصدِّقوا ـ رحمكم الله ـ واعترفوا بكل ما أخبر الله به ورسوله إجمالاً وتفصيلاً، واستسلموا إلى ربكم إخلاصاً وإنابةً ومحبةً وتعظيماً وتبجيلاً، وفوِّضوا أموركم جميعها إليه، وقوموا بشكره وذكره والتوكل عليه؛ فلن يذوق عبدٌ طعمَ الإيمان حتى يرضى بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً **«ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا الله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»**[1].

المؤمن هو من تحقق بكمال اليقين وصدق الإخلاص وصحة الطَّويَّة، ومن انبعثت نفسه بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والأقوال المرضيّة؛ المؤمن من امتلأ قلبه من محبة الرسول فقدّم قولَه على كل أحد، واتَّبعه واقتدى

---

(١) تقدم تخريجه.

به، ونَصر ما جاء به ونصح لما شَرَعه فصار بذلك من أنصاره وأحبابه؛ المؤمن من أحبَّ للمؤمنين من الخير ما يحبه لنفسه، وكره لهم من الشر ما يكرهه لنفسه؛ المؤمن من تواضع وخفض جناحه للمؤمنين، فجعل كبيرهم بمنزلة أبيه، وصغيرهم بمنزلة بنيه، والنظير بمرتبة أخيه؛ المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأعراضهم واحتمل ما يلقاه من أذيتهم وجفوتهم وإعراضهم؛ المؤمن الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده لصحة إيمانه وأمانته، وسلموا من غشه وخديعته وخيانته؛ المؤمن هو التائب من الإثم والعصيان والفسوق، ومن هو مجتهد في بِرِّ القريب والجار والصاحب، قائم بالحقوق؛ ليس المؤمن بالطَّعَّان ولا اللَّعَّان، ولا بالفاحش ولا بذيء اللسان، وليس المؤمن من لا يأمن جاره بوائقَه، ولا يأمن من غائلته وغشه من عامله أو رافقه؛ ليس المؤمن من تسخّط أقدار الله بقلبه أو فعله أو لسانه، ولا شكر ربه على فضله وكرمه وإحسانه، المؤمن بريء من الكذب وإخلاف الوعد والمخاصمة والفجور، معرض عن السباب واللغو وقول الزور؛ فطوبى لعبدٍ صَدَقَ إيمانُه بالقول والعمل، وويل لمن ادَّعى الإيمان فخالف ظاهرُه باطنه فخاب وانقطع منه الأمل، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [سورة الأنفال: ٢ ـ ٤].

خطبة

في شُعَبِ الإيمان

الحمد الله الذي جعل الإيمان به أصلَ الأصول، وبَلَّغَ مَنْ قام به غايةَ المُنى والقَبُول.

وأشهدُ أن لا إله إلاَّ الله الذي سمَّى نفسَه المؤمن. فإنه الحامد المُثْنِي على نفسه المُتَفَرِّد بالكمالات، المصدِّق لأنبيائه ورسله بالأدلة القواطع والبراهين الساطعات.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه أكملُ من قام بأصول الإيمان، ودعا إلى حقائق اليقين ومقامات الإحسان. اللهم صلِّ وسلِّمْ على محمدٍ وعلى آله وأصحابه على توالي الزمان.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله بالقيام بأصول الإيمان وشرائع الدين. وأَصْلِحوا بذلك ظواهركم وبواطنكم كل وقت وحين.

فقد قال ﷺ: **«الإيمان بضعٌ وسبعونَ شعبة فأعلاها قول: لا إله إلاَّ الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[1].

فذكر ﷺ العقائدَ والأخلاقَ والأعمالَ. ومثَّل مِنْ كلٍّ واحدٍ منها بمثال. فأصل الأصول قولُ العبدِ صادقاً مخلصاً: لا إله إلا الله. فهي أصل الدين وأساسه ومنتهاه؛ نعترف بأنه المستحق للألوهية، وهي جميع المحامد والكمالات، وللإخلاص في العبودية في كل الحالات. ومثَّل بالحياء الذي عليه تستنير أعمال القلوب، ومراقبة علام الغيوب، فيستَحْيي العبدُ من ربِّه أن يراه حيث نهاه، أو يفقِدَه حيثُ أمره. فمن استحيا مِن ربِّه حقَّ الحياء حَفِظَ القلبَ ما وعى، والرأسَ وما حوى، وعرف ما خُلِقَ لَهُ مِنْ عبادةِ ربِّه، فآثر ما يبقى على ما يفنى، ومثل بإماطة الأذى عن الطريق تنبيهاً على أن الإحسان إلى الخلق يجلب مصالِحَهم ودفع أذاهم، من أعظم ما يقرب العباد إلى ربهم ومولاهم.

فجميع شعب الإيمان ترجع وتدور على ما ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف، فهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، والقيام بشرائع الإسلام من الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصومِ رمضان، وحجِّ البيت الحرام، والإحسانِ إلى الوالدين والأقارب والجيران والمماليك. والحُنُوِّ على اليتامَى والمساكين والغرباء وجميع العاملين، والبعد عن جميع الموبقات واستعمال المعروف مع كل أحد في كل الحالات.

---

(١) تقدم تخريجه، وانظر شرحه في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة النحل: ٩٠] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

خطبة

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾

[سورة الحديد: ٢٨]

الحمد لله الذي جعل القيام بطاعته خير الوسائل. وحصول مغفرته ورحمته أفضل المقاصد والمطالب الكوامل.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا نِدَّ ولا مماثل.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المبعوثُ بالحق الظاهر وأوضح الدلائل. اللهم صلِّ وسلِّم على محمد، وعلى آله وأصحابه أُولي المقامات العالية والفضائل.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الحديد: ٢٨].

فوعد من قام بالإيمان والتقوى ثلاثة أمور: وعدهم المغفرة؛ والرحمة المضاعفة؛ والعلم الذي هو النور. فيالها من ثلاثة، ما أجلَّها وأعلاها، وما أعظم حظّ من نالها وتبَّوأ علاها. أتدرون ما هو الإيمان، وما هي التقوى؟ اللذين من قام بهما نال النجاة وفاز برضى المولى؟.

الإيمان: أن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وأما التقوى: فأَنْ تعملوا بطاعة الله على نور من الله ترجون ثواب الله، وأن تتركوا معصية الله على نورٍ من الله تخشَوْن عقاب الله. إذا وقر الإيمان في

القلب: صدقته الأعمال. وإذا استقام العبد: صَلُحت له جميع الأقوال والأفعال. ليس الإيمان بالتسمِّي الخالي من الحقيقة والبرهان. إنما الإيمان هو اعتقاد القلوب وأعمالها، وأعمال الأركان، والقيام بشرائع الإسلام وأصول الإيمان وحقائق الإحسان. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾[1] [سورة الأنفال: ٢ ـ ٤].

رزقنا الله وإياكم إيماناً كاملاً ويقيناً. ووَهَبَ لنا من نعمه ما يقربنا إليه ويدنينا. إنه جواد كريم.

خطبة

في الاستقامة

الحمدُ لله الواحِد الأحدِ. الفردِ الصمدِ. الذي لم يلدْ ولم يولَدْ ولمْ يكُنْ لهُ كفواً أحدٌ. وأشهَدُ أن لا إله إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ الذي ليسَ لفضلهِ منتهى ولا مدد. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُهُ خيرُ مولودٍ وأشرفُ ولد. اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عَلَى محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ صلاةً وسلاماً بغيرِ عدد.

أمَّا بعد، أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللهَ تعالى وتقرَّبوا إليه. واستقيمُوا إليه. واسلكُوا كلَّ طريقٍ يوصلكُم إليه. فقد جاء رجلٌ إلى النَّبيّ ﷺ فقال: «يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنهُ أحداً بعدك»، قال: «**قُلْ: آمنتُ باللهِ ثمَّ استَقِمْ**»[2]. فَجَمَعَ ﷺ في هذهِ الوصيَّةِ أصولَ الخيرِ وفروعَهُ بلفظٍ موجزٍ واضحٍ مثمرٍ للسعادةِ والفلاحِ، وجميعِ المصالحِ، فقولُه: آمنتُ باللهِ أي أعترفُ من صميمِ قلبي أنَّهُ ربي وإلهي الذي لا ربَّ لي سواهُ، ولا معبودَ لي إلاّ إيَّاهُ، وأنَّهُ

---

(١) انظر تفسير الآيات في الفصل الأول من هذا الكتاب.

(٢) انظر شرح الحديث مع تخريجه في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

الموصوفُ بصفاتِ الكمالِ، المنزَّهُ عن العيوبِ والنقائصِ والمثالِ. الأوَّلُ الذي ليسَ قبلَهُ شيءٌ، الآخرُ الذي ليسَ بعدهُ شيءٌ، الظاهرُ الذي ليسَ فوقهُ شيءٌ، الباطنُ الذي ليسَ دونَهُ شيء، المحيطُ بكلّ شيءٍ رحمةً وعلماً وقدرةً ومشيئةً وحكماً، الحميدُ في أسمائِه وأوصافهِ وأفعالِه، الحكيمُ في خلقهِ وشرعهِ وعطائِهِ ومنعِهِ، الرحمنُ الرحيمُ الجوادُ الكريمُ الذي شمَلَ العباد بواسِع نوالِه، يسألُهُ منْ في السمواتِ والأرض كلَّ يومٍ هو في شأنٍ، يغفرُ ذنباً ويفرِّجُ كرباً، ويُعْطي سائلاً ويرفعُ أقواماً ويضَعُ آخرين، بيَدِه ملكوتُ كلّ شيءٍ، وإليهِ مرجِعُ كلّ حيّ، ليسَ للعبادِ غنىً عن طاعته والافتقارِ إليهِ، ولا لهُمْ ملجأ ومعاذٌ وملاذٌ ولا اضطرارٌ إلا إليهِ، فمَن آمنَ باللهِ على الوجهِ الذي جاء عنْ رسولِ اللهِ واستقامَ على شرعَ اللهِ فقد استقام على الصراطِ المستَقيم، واستحقَّ الفوزَ في جنَّاتِ النَّعيم، ليسَ الإيمانُ بالتحلِي ولا بالتمنِّي، ولا بمجردِ الأقوالِ الخاليةِ من الأعمالِ، إنَّما الإيمانُ ما وقَرَ في القلوبِ وصدَّقَتْهُ الأعمال، وأثمرَ الخَشيةَ من علاَّم الغيوب: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [سورة الأنفال: ٢ ـ ٤].

المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ منْ لسانِه ويدِه، والمؤمن مَنْ أمِنَهُ النَّاسُ على دمائِهم وأموالِهم، وتمامُ الاستقامَةِ بمعرفةِ الخيرِ والاجتهاد في فعلِه، ومعرفةُ الشرّ والاجتهاد في تركِهِ، فليجاهِد العبدُ نفسَهُ في تحقيقِ التَّقوى، ويستعنْ بالملكِ الأعلى، ويسألِ الله الثباتَ إلى الممات، وأنْ يحفظَهُ اللَّهُ من فتَنِ الشُّبهاتِ والشهواتِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [سورة فصلت: ٣٠]. باركَ اللَّهُ لي ولكُمْ...

* * *

اللآلىء والدرر السعدية

(القـرآن الكـريم)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمَده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة المائدة: ١٥ ـ ١٦].

فالقرآن الكريم نور وهدى يستنير به السالكون لطريقه ويهتدون بهديه، فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم الذي من اتبعه أفلح

ونجا ومن ابتعد عنه خاب وخسر، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ ويقول أيضاً: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ فهو الحق الذي يقوله الله في كتابه وعلى لسان رسوله وهو الهداية إلى السبيل لكل علم وعمل، جمعت آياته الكمال في ألفاظها ومعانيها، فألفاظه أوضح الألفاظ وأبلغها وأحسنها تفسيراً لكل ما تفسره من الحقائق، بوضوحها وأحكامها وقوامها، ومعانيه كلها حق، وذلك أنه تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، صدقاً في أخبارها، وعدلاً في أحكامها: أوامرها ونواهيها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ولهذا، فإن من الواجب علينا أن نأتمر بما أمرنا به ربنا سبحانه في كتابه العزيز، وأن ننتهي عما نهانا عنه سبحانه في هذا الكتاب الكريم، وأن نتعلمه ونعلمه للناس، وأن نتفهمه ونفهمه للناس لنعمل به في شؤون حياتنا كلها، فنستنير بنوره، ونهتدي بهداه، حتى نفلح ونفوز في هذه الدنيا وفي الآخرة.

وفي هذا الكتاب لآلىء ودرر جمعتها من كلام شيخنا الغالي فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنة ـ لما رأيت فيها من تأثير قوي على النفس، ونفع عظيم للقلب، من كلامه رحمه الله حول كتاب الله تعالى وعظم منزلته، وحثه على العمل والتمسك به، وبيانه لفوائد الآيات الكريمة بأسلوب سهل يسير يفهمه الصغير والكبير. فحرصاً لتعميم النفع جمعت هذا الكتاب من كتبه الكثيرة القيمة وأفردته بمصنف مستقل، راجياً من الله تعالى أن ينفع به وأن يكتب لمؤلفه المثوبة والأجر. كما أضفت إليه تعليقات نفيسة من كلام شيخنا الغالي محمد بن عثيمين رحمه الله وأسكنه فسيح الجنة.

وقد قسمت الكتاب إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: الآيات الدالة على عظم القرآن والآمرة باتباعه وتلاوته وعدم الإعراض عنه، وتفسير شيخنا السعدي لها.

الفصل الثاني: شرح شيخنا السعدي لحديث (قل هو الله أحد تعدل ثلث

القرآن) رواه مسلم.

الفصل الثالث: فصول ومباحث وفوائد من كلام شيخنا السعدي في بيان عظمة القرآن والحث على تلاوته وتدبره وعدم الإعراض عنه.

الفصل الرابع: خطبة لشيخنا السعدي في الحث على تدبر القرآن.

هذا واسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يتقبل مني عملي هذا، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لقاه، وأن يغفر لمشايخنا وعلمائنا وجميع المسلمين، وأن يجمعنا بهم في دار كرامته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب
محمد بن رياض الأحمد
السلفي الأثري

الآيات الدالة على عظم القرآن والآمرة باتباعه وتلاوته وعدم الإعراض عنه وتفسير شيخنا السعدي لها

الآية الأولى:

يقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾[1] [سورة الفرقان: ١ـ ٢].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

قوله: ﴿تبارك﴾ بمعنى تعالى وتعاظم. و ﴿الذي نزل الفرقان على عبده﴾: هو الله عز وجل.

وقوله: ﴿الْفُرْقَانَ﴾؛ يعني به: القرآن؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين المسلم والكافر، وبين البر والفاجر، وبين الضار والنافع، وغير ذلك مما فيه الفرقان؛ فكله فرقان.

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾: محمد عليه الصلاة والسلام، فوصفه بالعبودية في مقام التحدث عن تنزيل القرآن عليه، وهذا المقام من أشرف مقامات النبي ﷺ.

ولهذا وصفه الله تعالى بالعبودية في مقام تنزيل القرآن عليه؛ كما هنا، وكما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ووصفه بالعبودية في مقام الدفاع عنه والتحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ووصفه بالعبودية في مقام تكريمه بالمعراج، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسرا: ١]، وقال في سورة النجم: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠]؛ مما يدل على أن وصف الإنسان بالعبودية لله يعد كمالاً؛ لأن العبودية لله هي حقيقة الحرية؛ فمن لم يتعبد له؛ كان عابداً لغيره.

قال ابن القيم رحمه الله:

هَرَبُوا من الرِّقِّ الذي خُلِقُوا لَهُ ... وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ والشَّيْطَانِ

و«الرق الذي خلقوا له»: عبادة الله عز وجل.

و«بلوا برق النفس والشيطان»: حيث صاروا أرقاء لنفوسهم، وأرقاء للشيطان؛ فما من إنسان يفر من عبودية الله؛ إلا وقع في عبودية هواه وشيطانه؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾: اللام هنا للتعليل، والضمير في ﴿لِيَكُونَ﴾ عائد على =

. . . . . .

= النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأنه أقرب مذكور، ولأن الله تعالى قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢]، وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ فالمنذر: الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿للعالمين﴾: يشمل الجن والإنس.

وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾: عام يشمل كل شيء.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾: وذلك لكمال صفاته وكمال غناه عن غيره، ولأنه لا مثيل له، فلو اتخذ ولداً، لكان الولد مثله، لو كان له ولد، لكان محتاجاً إلى الوالد يساعده ويعينه، لو كان له ولد، لكان ناقصاً، لأنه إذا شابه أحد من خلقه فهو نقص.

وقوله: ﴿ولداً﴾ يشمل الذكر والأنثى، ففيه رد على اليهود والنصارى والمشركين.

اليهود قالوا: لله ولد، وهو عزير.

والنصارى قالوا: لله ولد وهو المسيح.

والمشركون قالوا: لله ولد، وهم الملائكة.

وقوله: ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿لم يتخذ ولداً﴾، يعني والذي لم يكن له شريك في الملك لا في الخلق ولا في الملك ولا في التدبير. كل ما سوى الله فهو مخلوق لله، مملوك له، يدبره كما يشاء، ولم يشاركه أحد في ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢] على سبيل التعيين ﴿وَمَا لَهُم فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ: ٢٢] على سبيل الشيوع، ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، لم يعاونه أحد في هذه السماوات والأرض، ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] وبهذا تقطعت جميع الأشياء التي يتعلق بها المشركون في آلهتهم فالآلهة هذه لا تملك من السموات والأرض شيئاً معيناً، وليست شريكة لله، ولا معينة، ولا شافعة، إلا بإذنه بقول: ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾: الخلق: الإيجاد على وجه معين. والتقدير: بمعنى التسوية أو بمعنى القضاء في الأزل، والأول أصح، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: ٢]، وبه تكون الآية على الترتيب الذكري والمعنوي، وعلى الثاني تكون الآية على الترتيب الذكري.

[شرح العقيدة الواسطية (ص ٣٠٦)]

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

هذا بيان لعظمته الكاملة، وتفرده بالوحدانية من كل وجه، وكثرة خيراته وإحسانه، فقال: **﴿تبارك الذي نزل الفرقان﴾** أي: تعاظم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمه، أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام، والهدى والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

﴿على عبده﴾ محمد ﷺ الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع المرسلين.

﴿ليكون﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده **﴿للعالمين نذيراً﴾**. ينذرهم بأس الله ونقمه، ويبين لهم، مواقع رضا الله من سخطه. حتى إن من قبل نذارته، وعمل بها، كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية، والملك السرمدي. فهل فوق هذه النعمة، وهذا الفضل والإحسان، شيء؟

فتبارك الذي هذا بعض إحسانه وبركاته.

﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ أي: له التصرف فيهما وحده، وجميع من فيهما، مماليك وعبيد له، مذعنون لعظمته، خاضعون لربوبيته، فقراء إلى رحمته، الذي **﴿لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾**. وكيف يكون له ولد، أو شريك، وهو المالك، وغيره مملوك، وهو القاهر وغيره مقهور، وهو الغني بذاته، من جميع الوجوه، والمخلوقات مفتقرون إليه، فقراء من جميع الوجوه؟!!. وكيف يكون له شريك في الملك، ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحركون أو يسكنون، ولا يتصرفون، إلا بإذنه، فتعالى الله عن ذلك، علوّاً كبيراً.

فلم يقدره، حق قدره، من قال فيه ذلك، ولهذا قال:

﴿وخلق كل شيء﴾ شمل العالم العلوي، والعالم السفلى، من حيواناته، ونباتاته، وجماداته. **﴿فقدره تقديراً﴾** أي: أعطى كل مخلوق منها، ما يليق به،

ويناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كل مخلوق، لا يتصور العقل الصحيح، أن يكون بخلاف شكله، وصورته المشاهدة. بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد، لا يناسبه غير محله، الذي هو فيه. قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾. وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. ولما بين كماله وعظمته، وكثرة إحسانه، كان ذلك مقتضياً لأن يكون وحده، المحبوب المألوه، المعظم، المفرد بالإخلاص وحده، لا شريك له ـ ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَلَا نُشُورًا﴾.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٢٥)]

الآية الثانية:

يقول الله تعالى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣﴾ [سورة الزمر: ٢٣].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يخبر تعالى عن كتابه الذي نزله أنه: **﴿أحسن الحديث﴾** على الإطلاق.

فأحسن الحديث، كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله، هو هذا القرآن.

وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ، وأوضحها، وأن معانيه، أجل المعاني، لأنه أحسن الحديث، في لفظه ومعناه، متشابهاً في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهر الناضرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا هو المراد بالتشابه في هذا الموضع.

وأما في قوله تعالى: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات**

هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾. فالمراد بها، التي تشتبه على فهوم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه، إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: **﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾** فجعل التشابه لبعضه.

وهنا جعله كله متشابهاً، أي: في حسنه، لأنه قال: **﴿أحسن الحديث﴾** وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضاً، كما ذكرنا.

﴿مثاني﴾ أي: تثنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته. وهذا من جلالته، وحسنه، فإنه تعالى، لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي الأشجار. فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء، نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها، حسنت، وأثمرت أنواع الثمار النافعة. فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مدة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعاً، ولم تحصل النتيجة منه. ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له.

فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع. بل كل موضع تجد تفسيره، كامل المعنى، غير مراع لما مضى، مما يشبهه. وإن كان بعض المواضع، يكون أبسط من بعض، وأكثر فائدة.

وهكذا ينبغي للقارىء للقرآن، المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه. فإنه يحصل له بسبب ذلك، خير كثير، ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثَّر في قلوب أولي الألباب المهتدين فلهذا قال تعالى: **﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾** لما فيه من التخويف والترهيب المزعج.

﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب. فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ذلك﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم.

﴿هدى الله﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم ﴿يهدي به﴾ أي: بسبب ذلك ﴿من يشاء من عباده﴾.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذلك﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هدى الله﴾ الذي لا طريق يوصل إلى الله منه ﴿يهدي به من يشاء من عباده﴾ ممن حسن قصده، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾.

﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق بالإقبال على كتابه. فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء المهين.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣١٨ـ ٣١٩)]

الآية الثالثة:

يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [سورة البقرة: ٢]

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

قوله: ﴿ذلك الكتاب﴾ أي هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين من العلم العظيم والحق المبين.

فهو ﴿لا ريب فيه﴾ ولا شك بوجه من الوجوه. ونفي الريب عنه يستلزم ضده إذ ضد الريب والشك، اليقين. فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل الشك والريب.

وهذه قاعدة مفيدة أن النفي المقصود به المدح لا بد أن يكون متضمناً لضده وهو الكمال، لأن النقي عدم والعدم المحض لا مدح فيه، فلما اشتمل

على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال: ﴿**هدى للمتقين**﴾ والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة. وقال: ﴿**هدى**﴾ وحذف المعمول فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية ولا للشيء الفلاني لإرادة العموم وأنه هدى لجميع مصالح الدارين فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية ومبين للحق من الباطل والصحيح من الضعيف ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم. وقال في موضع آخر ﴿**هدى للناس**﴾ فعمم. وفي هذا الموضع وغيره ﴿**هدى للمتقين**﴾ لأنه في نفسه هدى لجميع الناس فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً ولم يقبلوا هدى الله فقامت عليهم به الحجه ولم ينتفعوا به لشقائهم.

وأما المتقون الذين أتو بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى التي حقيقتها اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فاهتدوا به وانتفعوا غاية الانتفاع. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣١ـ ٣٢)]

الآية الرابعة:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [سورة النساء: ١٠٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله، الكتاب بالحق، أي: محفوظاً في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل. بل نزل بالحق، ومشتملاً أيضاً على الحق. فأخباره صدق، وأوامره ونواهيه، عدل: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾. وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾.

فيحتمل أن هذه الآية، في الحكم بين الناس، في مسائل النزاع والاختلاف. وتلك في تبيين جميع الدين، وأصوله، وفروعه. ويحتمل أن الآيتين كلتيهما، معناهما واحد. فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد، وفي جميع مسائل الأحكام.

وقوله: ﴿**بما أراك الله**﴾ أي: لا بهواك، بل بما علمك الله وألهمك.

كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

وفي هذا دليل على عصمته ﷺ، فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها. وأنه يشترط في الحكم، العلم والعدل لقوله: ﴿**بما أراك الله**﴾ ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضاً، الحكم بين الناس على معرفة الكتاب. ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، نهاه عن الجور والظلم، الذي هو ضد العدل فقال:

﴿**ولا تكن للخائنين خصيماً**﴾ أي: لا تخاصم عن من عرفت خيانته، من مدع ما ليس له، أو منكر حقاً عليه، سواء علم ذلك، أو ظنه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل، في الخصومات الدينية، والحقوق الدنيوية. ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٠٠ـ ٤٠١)]

الآية الخامسة:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ [سورة الزمر: ٢٧ـ ٢٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير،

وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء والحكمة في ذلك ﴿لعلهم يتذكرون﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون، ويعملون.

﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ أي: جعلناه قرآناً عربياً، واضح الألفاظ، سهل المعاني، خصوصاً على العرب.

﴿غير ذي عوج﴾ أي ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه، ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾.

﴿لعلهم يتقون﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى، العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٢٠ـ ٣٢١)]

الآية السادسة:

يقول الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ [سورة فصلت: ٢ـ ٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات:

يخبر تعالى عباده أن هذ الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تنزيل﴾ صادر ﴿من الرحمن الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها، إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به، من العلم والهدى، والنور، والشفاء، والرحمة، والخير الكثير، ما هو من أجل نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿فصلت آياته﴾ أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق.

﴿**قرآناً عربياً**﴾ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل عربياً.

﴿**لقوم يعلمون**﴾ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه، كما يتبين لفظه ويتضح لهم الهدى من الضلال، والغَيّ من الرشاد. وأما الجاهلون، الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البيان إلا عَمًى فهؤلاء لم يُسَقِ الكلام لأجلهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿**بشيراً ونذيراً**﴾ أي: بشيراً بالثواب العاجل والآجل، ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة. وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يُتلقى بالقبول والإذعان والإيمان به، والعمل به.

ولكن أعرض أكثر الخلق إعراض المستكبرين ﴿**فهم لا يسمعون**﴾ له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا سمعوه سماعاً تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٨٥ـ ٣٨٦)]

الآية السابعة:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة فصلت ٤١ـ ٤٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا بالذكر**﴾ أي يجحدون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية، المُعلي لقدر من اتبعه.

﴿**لما جاءهم**﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم.

﴿**و**﴾ الحال ﴿**إنه لكتاب**﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿**عزيز**﴾ أي: منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء. ولهذا قال: ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص. فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة

ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿تنزيل من حكيم﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزله منازله.

﴿حميد﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فلهذا كان كتابه، مشتملاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمد عليها.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٠٢)]

الآية الثامنة:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية:

﴿وإنه﴾ أي هذا القرآن الكريم **﴿لذكر لك ولقومك﴾** أي فخر لكم ومنقبة جليلة ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضاً ما فيه من الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه.

﴿وسوف تسألون﴾ عنه هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به؟ فيكون حجة عليكم، وكفراً منكم بهذه النعمة.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٤٨ـ ٤٤٩)]

الآية التاسعة:

وقال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [سورة الأنعام: ١٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي وأوحى الله إليّ هذا القرآن لمنفعتكم ومصلحتكم لأنذركم به من العقاب الأليم، والنذارة إنما تكون

بذكر ما ينذرهم به من الترغيب والترهيب وببيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة التي من قام بها فقد قبل النذارة، فهذا القرآن فيه النذارة لكم، أيها المخاطبون وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٢)]

الآية العاشرة:

يقول الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة الأنعام: ٩٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿وهذا﴾ القرآن **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾** أي: وصفه البركة وذلك لكثرة خيراته، وسعة مبراته. **﴿مصدق الذي بين يديه﴾** أي موافق للكتب السابقة وشاهد لها بالصدق **﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾** أي وأنزلناه أيضاً لتنذر أم القرى وهي مكة المكرمة ومن حولها من ديار العرب بل ومن سائر البلدان. فتحذر الناس عقوبة الله وأخذه الأمم وتحذرهم مما يوجب ذلك **﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾** لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه وانقاد لمراضي الله. **﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾** أي يداومون عليها ويحفظون أركانها وحدودها، وشروطها وآدابها ومكملاتها، جعلنا الله منهم.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٤)]

الآية الحادية عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾[1] [سورة الأنعام: ١٥٥].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى: =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿وهذا﴾ القرآن العظيم والذكر الحكيم. **﴿كتاب أنزلنا مبارك﴾** أي فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم وتستخرج منه البركات فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه. وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة.

﴿فاتبعوه﴾ فيما يأمر به وينهى وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه.

﴿واتقوا﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمراً **﴿لعلكم﴾** إن اتبعتموه **﴿ترحمون﴾**

= قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾: المشار إليه القرآن.

﴿كِتَابٌ﴾، أي: مكتوب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي السفرة، ومكتوب في المصاحف التي بأيدينا.

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾؛ أي: ذو بركة.

فهو مبارك؛ لأنه شفاء لما في الصدور، إذا قرأه الإنسان بتدبر وتفكر؛ فإنه يشفي القلب من المرض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

مبارك في اتباعه؛ إذ به صلاح الأعمال الظاهرة والباطنة.

مبارك في آثاره العظيمة؛ فقد جاهد المسلمون به بلاد الكفر؛ لأن الله يقول: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، والمسلمون فتحوا مشارق الأرض ومغاربها بهذا القرآن حتى ملكوها، ولو رجعنا إليه؛ لملكنا مشارق الأرض ومغاربها؛ كما ملكها أسلافنا، ونسأل الله ذلك.

مبارك في أن من قرأه؛ فله بكل حرف عشر حسنات؛ فكلمة (قال) مثلاً فيها ثلاثون حسنة، وهذا من بركة القرآن؛ فنحن نحصل خيرات كثيرة لا تحصى بقراءة آيات وجيزة من كلام الله عز وجل.

والحاصل: أن القرآن كتاب مبارك؛ فكل أنواع البركة حاصلة بهذا القرآن العظيم.

[شرح العقيدة الواسطية (١/ ٣٧١)]

فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٨٨)]

الآية الثانية عشر:

يقول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [سورة الأعراف: ٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ، مبيناً له عظمة القرآن:

﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي: كتاب جليل، حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً.

﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: ضيق وشك واشتباه.

بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد، وأنه أصدق الكلام، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخشى لائماً ومعارضاً.

﴿لتنذر به﴾ الخلق، وتعظهم، وتذكرهم، فتقوم الحجة على المعاندين.

﴿و﴾ ليكن **﴿ذكرى للمؤمنين﴾** كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد، وبين سلوكه.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٩٥)]

الآية الثالثة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٧٠﴾ [سورة الأعراف: ١٧٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**والذين يمسكون بالكتاب**﴾ أي يتمسكون به علماً وعملاً فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم ويعلمون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة. ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها بالذكر لفضلها وشرفها، وكونها ميزان الإيمان وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحاً قال تعالى: ﴿**إنا لا نضيع أجر المصلحين**﴾ في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم مصلحين لأنفسهم ولغيرهم. وهذه الآية وما أشبهها دلت على أن الله بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٦٩)]

الآية الرابعة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿الٓمٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ [سورة الرعد: ١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق المبين. لأنه أخباره صدق وأوامره ونواهيه عدل مؤيده بالأدلة والبراهين القاطعة. فمن أقبل عليه وعلى علمه كان من أهل العلم بالحق الذي يوجب لهم علمهم به، العمل بما أوجب الله ﴿**ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**﴾ بهذا القرآن إما جهلاً وإعراضاً عنه وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً، فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به لعدم السبب الموجب للانتفاع.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٥٥)]

الآية الخامسة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سورة إبراهيم: ١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق ليخرج الناس من ظلمة الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة. وقوله: **﴿بإذن ربهم﴾** أي لا يحصل منهم المراد المحبوب لله إلا بإرادة من الله ومعونته، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم، ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب فقال: **﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾** أي الموصل إليه وإلى دار كرامته المشتمل على العلم بالحق والعمل به. وفي ذكر **﴿العزيز الحميد﴾** بعد ذكر الصراط الموصل إليه، إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعزة الله قوي ولو لم يكن له أنصار إلا الله محمود في أموره، حسن العاقبة وليدل ذلك على صراط الله من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال ونعوت الجلال وأن الذي نصبه لعباده عزيز السلطان، حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٥)]

الآية السادسة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة النحل: ٨٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

وقوله: **﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾** في أصول الدين وفروعه في أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جليلة. حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت وإعادتها في كل ساعة ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة

وأدلة متنوعة لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى. فلما كان هذا القرآن بياناً لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة فالهدى ما نالوا به من علم نافع وعمل صالح. والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة والرزق الواسع والنصر على الأعداء بالقول والفعل ونيل رضا الله تعالى وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٧٧ـ ٧٨)]

الآية السابعة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة النحل: ٩٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله والاستعاذة من شره.

فيقول القارىء: **﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم﴾** متدبراً لمعناها، معتمداً بقلبه على الله في صرفه عنه مجتهداً في دفع وسواسه وأفكاره الرديئة مجتهداً على السبب الأقوى في دفعه وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٨٣)]

الآية الثامنة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الروم: ٥٨- ٥٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي: **﴿ولقد ضربنا﴾** لأجل عنايتنا، ورحمتنا، ولطفنا، وحسن تعليمنا.

﴿للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ تتضح به الحقائق، وتعرف به الأمور، وتنقطع به الحجة. وهذا عام في الأمثال، التي يضربها الله، في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة. وفي الإخبار، بما سيكون، وجلاء حقيقته، حتى كأنه وقع. ومنه في هذا الموضع، ذكر الله تعالى، ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه، وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب.

ولكن أبى الظلمون الكافرون، إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا، قال:

﴿ولئن جئتهم بآية﴾ أي: أي آية، تدل على صحة ما جئت به **﴿ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾** أي: قالوا للحق: إنه باطل. وهذا من كفرهم وجراءتهم، وطَبع الله على قلوبهم، وجهلهم المفرط، ولهذا قال:

﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ فلا يدخلها خير، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/٩٨)]

الآية التاسعة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾[1] [سورة ص: ٢٩].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

قوله تعالى: **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾**، فبركة القرآن في تلاوته، =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك**﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير. فيه كل هدى من ضلالة وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات. وفيه كل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم، منذ أنشأه الله.

﴿**ليدبروا آياته**﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها. فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره. وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر، أفضل من سرعة التلاوة، التي لا يحصل بها، هذا المقصود.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٨٧)]

الآية العشرون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة فاطر: ٢٩ـ ٣٠].

= والعمل به، وما يحصل فيه من التأثير على القلب لزيادة الإيمان، ومعرفة الله عز وجل وأسمائه وصفاته وأحكامه، وكذلك ما حصل فيه من التأثير على الأمم، حيث فتح الله بهذا القرآن مشارق الأرض ومغاربها. كل هذا من بركاته، وكذلك ما حصل للمتمسكين به من الرفعة والعزة والظهور على جميع الأمم، وكذلك ما يحصل للمتمسك به من صحة القصد، وسلامة المنهج، والسعادة في الدنيا والآخرة. فالمهم أن بركات هذا القرآن لا تحصى.

وقوله: ﴿**ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**﴾، هذا فيه ثناء عظيم على من تذكره بالقرآن واتعظ به، وأنه هو صاحب اللب، أي العقل.

[مقدمة في أصول التفسير (ص ٢٣)]

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أي: يتبعونه في أوامره، فيمتثلونها، وفي نواهيه، فيتركونها، وفي أخباره، فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال. ويتلون أيضاً ألفاظه، بدراسته، ومعانيه بتتبعها واستخراجها. ثم خص من التلاوة بعد ما عمم، الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين، واليتامى، وغيرهم من الزكاة والكفارات، والنذور، والصدقات **﴿سراً وعلانية﴾** في جميع الأوقات.

﴿يرجون﴾ بذلك **﴿تجارة لن تبور﴾** أي: لن تكسد. وتفسد. بل تجارة، هي أجل التجارات، وأعلاها، وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه. وهذا فيه الإخلاص بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها، من المقاصد السيئة، والنيات الفاسدة شيئاً.

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال: **﴿ليوفيهم أجورهم﴾** أي: أجور أعمالهم، وعلى حسب قلتها، وكثرتها، وحسنها، وعدمه **﴿ويزيدهم من فضله﴾** زيادة عن أجورهم.

﴿إنه غفور شكور﴾ غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢١٦ـ ٢١٧)]

الآية الحادية والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾[1] [سورة الكهف: ٢٧].

---

(١) قال شيخنا محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله تعالى:
قوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]. =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

التلاوة، هي الاتباع أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره ونواهيه، فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته، أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن، فوق كل غاية **﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾**. فلكمالها، استحال عليها التغيير والتبديل. فلو كانت ناقصة، لعرض لها ذلك، أو شيء منه. وفي هذا، تعظيم للقرآن، في ضمنه، الترغيب على الإقبال عليه.

﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ أي: لن تجد من دون ربك، ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذاً تعوذ به. فإذا تعين أنه وحده، الملجأ في كل الأمور، تعين أن

= قوله: **﴿ما أوحي إليك﴾**؛ يعني: القرآن، والوحي لا يكون إلاَّ قولاً؛ فهو إذاً غير مخلوق.

وقوله: **﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾**: أضافه إليه سبحانه وتعالى؛ لأنه هوالذي تكلم به، أنزله على محمد ﷺ بواسطة جبريل الأمين.

﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾؛ يعني: لا أحد يبدل كلمات الله، أما الله عز وجل؛ فيبدل آية مكان آية؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل: ١٠١].

وقوله: **﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾**: يشمل الكلمات الكونية والشرعية:

ـ أما الكونية: فلا يستثنى منها شيء، لا يمكن لأحدٍ أن يبدل كلمات الله الكونية:

إذا قضي الله على شخصٍ بالموت؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك.

إذا قضى الله تعالى بالجدب؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك.

وكل هذه الأمور التي تحدث في الكون؛ فإنها بقوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

ـ أما الكلمات الشرعية؛ فإنها قد تبدل من قبل أهل الكفر والنفاق، فيبدلون الكلمات: إما بالمعنى، وإما باللفظ إن استطاعوا، أو بهما.

وفي قوله: **﴿كلمات﴾** دليل على أن القرآن كلام الله تعالى.

[شرح العقيدة الواسطية (١/ ٣٧٠)]

يكون هو المألوه المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٥٣)]

الآية الثانية والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ [سورة الإسراء: ٩- ١٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه **﴿يهدي للتي هي أقوم﴾** أي أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع الأمور.

﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ من الواجبات والسنن. **﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾** أعده الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو. **﴿وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾**، فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة وهو الإيمان والعمل الصالح والتي تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٩٩)]

الآية الثالثة والعشرون:

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾ [سورة الإسراء: ٤١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الأية:

يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن أي نوع من الأحكام ووضحها وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه ووعظ وذكر لأجل أن يتذكروا ما

ينفعهم فيسلكوه وما يضرهم فيدعوه ولكن أبى أكثر الناس إلا نفوراً عن آيات الله لبغضهم للحق ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل حتى تعصبوا لباطلهم ولم يعيروا آيات الله لها سمعاً ولا ألقوا لها بالاً. ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة التوحيد الذي هو أصل الأصول. فأمر به ونهى عن ضده، وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً بحيث أن من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه شكّاً ولا ريب.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٠٩ـ ١١٠)]

الآية الرابعة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الإسراء: ٨٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي: فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة. وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العاملين به.

وأما الظالمون بعدم التصديق به، أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً، إذ به تقوم عليهم الحجة.

فالشفاء الذي تضمنه القرآن، عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة والانحراف السيىء، والقصود الرديئة. فإنه مشتمل على العلم اليقين، الذي تزول به كل شبهة وجهالة. والوعظ والتذكير، الذي يزول به كل شهوة، تخالف أمر الله.

ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها. وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل، التي يحث عليها، متى فعلها العبد، فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل. هذه طبيعة الإنسان، من حيث هو، إلا من هداه الله.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٢٨)]

الآية الخامسة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[1][سورة المائدة: ١٥ـ ١٦].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

عُلم من هذا أن القرآن موحى، وأنه سبب الهداية بإذن الله، وأن المهتدي به اتبع رضوان الله، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

ثم يقول: **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾**، وسبل السلام مفعول ثاني ليهدي، لأن (يهدي) فعل ينصب مفعولين؛ الأول: (من اتبع)، والثاني: (سبل السلام).

وفي هذه الآية قال تعالى: **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾**، مع أن سبيل الله واحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. والجمع بين الآيتين بأن يقال: إن سبيل الحق واحد، لكن له فروع وشعب، من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وبر وصلة وما أشبه ذلك، هذه سبل لكنها تجتمع كلها في سبيل واحد، وأيضاً لا يمكن أن تطلق سبل ويراد بها الإسلام، وإنما تضاف كما في سبل السلام، فإذا كانت كلها مؤدية إلى السلام فهي الإسلام.

وقوله عز وجل: **﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾** أي: المعنوية لأن القرآن هدايته معنوية. فيخرجهم من الظلمات أي: ظلمات الجهل، وظلمات القصد، وظلمات الجهل أن لا يكون عند الإنسان علم، وظلمات القصد أن يكون عنده علم لكن لا يريد الحق ولا يؤمن به، إذاً النور نور العلم ونور العمل.

وقوله: **﴿بإذنه﴾**، في الآية: **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من =**

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿**قد جاءكم من الله نور**﴾ وهو القرآن يستضاء به في ظلمات الجهالة، وعماية الضلالة. ﴿**وكتاب مبين**﴾ بكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم، من العلم بالله واسمائه وصفاته وأفعاله ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية. ثم ذكر من الذي يهتدي بهذا القرآن؟ وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك فقال: ﴿**يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام**﴾ أي: يهدي من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله وصار قصده حسناً ـ سبل السلام، التي يسلم صاحبها من العذاب وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، وإجمالاً وتفصيلاً ﴿**ويخرجهم من الظلمات**﴾ ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغفلة. ﴿**إلى النور**﴾ نور الإيمان والسنة، والطاعة والعلم والذكر. وكل هذه من الهداية بإذن الله الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿**ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٧٠)]

الآية السادسة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة النساء: ٨٢].

= **الظلمات إلى النور بإذنه**﴾، قد يقول قائل: كيف قال الله تعالى يهدي به بإذنه مع أن الله تعالى لا يهدي إلاَّ بعد أن يريد؟ فيقال: إن قوله: بإذنه، متعلق بقوله من اتبع، يعني من اتبع رضوانه بإذنه، لأن الإنسان لا يستقل بعمله ولا رأيه، فهو لا يفعل إلاَّ بإذن الله. =

= وقوله: ﴿**ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾، هذا من باب عطف الصفة، لأن قوله: ﴿**يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام**﴾ هو معنى قوله تعالى: ﴿**ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾ إلاَّ أن تفسر الهداية الأولى بهداية التوفيق، والثانية بهداية الدلالة، ولهذا عديت الثانية بإلى وعدّيت الأولى بنفسها، ويكون المعنى أن من اهتدى بالإسلام زاده الله تعالى علماً، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

[مقدمة في أصول التفسير (ص ١٥ـ ١٧)]

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

قال تعالى: **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾**.

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك، يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه، يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً. فترى الحكم والقصة والأخبار، تعاد في القرآن، في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً. فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور.

فلذلك قال تعالى: **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾**.

أي: فلما كان من عند الله؛ لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٧٧)]

الآية السابعة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة يونس: ٣٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: **﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾** أي: غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله، لأنه الكتاب العظيم، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة فصلت: ٤٢]: وهو الكتاب الذي: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. وهو الكتاب الذي تكلم به رب العالمين. فكيف يقدر أحد من الخلق، أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!!. فإن كان أحد

يماثل الله في عظمته، وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن. ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فَتقوَّله أحد على رب العالمين، لعاجله بالعقوبة، وبادره بالنكال.

﴿**ولكن**﴾ الله أنزل هذا الكتاب، رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين.

أنزله: ﴿**تصديق الذي بين يديه**﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها، وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت.

﴿**وتفصيل الكتاب**﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة. ﴿**لا ريب فيه من رب العالمين**﴾ أي: لا شك ولا مرية فيه، بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين ﴿**تنزيل من رب العالمين**﴾ الذي ربَّى جميع الخلق بنعمه.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣١٩)]

الآية الثامنة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٣-٢٠٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿**هذا**﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿**بصائر من ربكم**﴾ يستبصر به في جميع المطالب الإلٰهية، والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول، فمن تفكر وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. وبه قامت الحجة، على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون

﴿**و**﴾ إلا فمن آمن، فهو: ﴿**هدى**﴾ له من الضلال ﴿**ورحمة**﴾ له من الشقاء. فالمؤمن، مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه. وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي، في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر، بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه. وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه، ويتدبر ما يستمع. فإن من لازم على هذين الأمرين، حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً، وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدى متزايداً، وبصيرة في دينه. ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما. فدل ذلك، على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له ولم ينصت، أنه محروم الحظ، من الرحمة، قد فاته خير كثير. ومن أوكد ما يؤمر مستمع القرآن، أنه يستمع له وينصت، في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات. حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من قراءته الفاتحة، وغيرها.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٨٤)]

الآية التاسعة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [سورة يونس: ١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: **﴿ألر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾** وهو هذا القرآن المشتمل على الحكمة والأحكام الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٠١)]

الآية الثلاثون:

يقول تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ١- ٣].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يخبر تعالى، أن آيات القرآن هي: **﴿آيات الكتاب المبين﴾** أي: البين الواضحة ألفاظه، ومعانيه. ومن بيانه وإيضاحه، أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة، وأبينها. المبين، لكل ما يحتاجه الناس، من الحقائق النافعة.

وكل هذا الإيضاح والتبيين: **﴿لعلكم تعقلون﴾** أي: لتعقلوا حدوده، وأصوله، وفروعه، وأوامره، ونواهيه. فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم، واتصفت قلوبكم بمعرفتها، أثمر ذلك، عمل الجوارح، والانقياد إليه.

و**﴿لعلكم تعقلون﴾** أي: تزداد عقولكم، بتكرر المعاني الشريفة العالية، على أذهانكم. فتنتقلون من حال إلى أحوال، أعلى منها وأكمل.

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ وذلك لصدقه، وسلاسة عبارته، ورونق معانيه.

﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن، الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذاك محض مِنَّةٍ، من الله وإحسان.

﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ أي: ما كنت تدري، ما الكتاب، ولا الإيمان، قبل أن يوحي الله إليك، ولكن جعلناه نوراً، نهدي به من نشاء من عبادنا.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٩٩)]

الآية الحادية والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يأمر تعالى بتلاوة وحيه، وتنزيله، وهو: هذا الكتاب العظيم. ومعنى تلاوته، اتباعه، بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى، وبعضه. وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كلها، داخلة في تلاوة الكتاب.

فيكون قوله: **﴿وأقم الصلاة﴾** من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها، وآثارها الجميلة، وهي: **﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾**. فالفحشاء، كل ما استعظم واستفحش من المعاصي، التي تشتهيها النفوس. والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر. ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها، وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر. فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر. فهذا من أعظم مقاصد الصلاة، وثمراتها.

وثَمَّ في الصلاة، مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو: ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب، واللسان، والبدن. فإن الله تعالى، إنما خلق العباد، لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة.

وفيها من عبوديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: **﴿ولذكر الله أكبر﴾**. ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى، خارج الصلاة، أكبر من الصلاة كما هو قول جمهور المفسرين. لكن الأول، أولى، لأن الصلاة، أفضل من الذكر خارجها، ولأنها ـ كما تقدم ـ بنفسها من أكبر الذكر.

﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ذلك، أكمل الجزاء، وأوفاه.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٦٣ـ ٦٤)]

الآية الثانية والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة النمل: ٧٦ـ ٧٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

وهذا خبر عن هيمنة القرآن، على الكتب السابقة، وتفصيله، وتوضيحه: لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، قصَّه هذا القرآن قصّاً، زال به الإشكال واستبان به الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة، من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد، يقابل النعمة بالشكر. ولهذا بيَّن أن نفعه، ونوره، وهداه، مختص بالمؤمنين فقال:

﴿وإنه لهدى﴾ من الضلالة والغيّ والشُّبه **﴿ورحمة﴾** تثلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية **﴿للمؤمنين﴾** به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في معانيه. فهؤلاء، تحصل لهم به، الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة، والفوز والفلاح.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٥١٩)]

الآية الثالثة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [سورة الفرقان: ٣٠ـ ٣١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿وقال الرسول﴾ منادياً لربه، وشاكياً له إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفاً على ذلك منهم: **﴿يا رب إن قومي﴾** الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم.

﴿اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ أي قد أعرضوا عنه، وهجروه، وتركوه،

مع أن الواجب عليهم، الانقياد لحكمه، والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه.

قال الله مسلّياً لرسوله، ومخبراً، أن هؤلاء الخلق، لهم سلف، صنعوا كصنيعهم، فقال:

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً من المجرمين﴾ أي من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه، يعارضونهم، ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل.

من بعض فوائد ذلك، أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين الحق، ويتضح اتضاحاً عظيماً لأن معارضة الباطل للحق، مما تزيده وضوحاً وبياناً، وكمال استدلال، وأن نتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة، فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

﴿وكفى بربك هادياً﴾ يهديك، فيحصل لك المطلوب، ومصالح دينك ودنياك.

﴿ونصيراً﴾ ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه، في أمر الدين والدنيا، فَاكْتَفِ به، وتوكل عليه.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٣٨ـ ٤٣٩)]

الآية الرابعة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [سورة القمر: ١٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً، وأصدقه معنى، وأبينه تفسيراً. فكل من أقبل عليه، يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه.

والذكر، شامل لكل ما يتذكر به العاملون، من الحلال والحرام وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ، والعبر، والعقائد النافعة، والأخبار الصادقة. ولهذا كان علم القرآن، حفظاً وتفسيراً، أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق. وهو العلم النافع، الذي إذا طلبه العبد، أُعين عليه.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٣٩)]

الآية الخامسة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحديد: ١٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي: ألم يأت الوقت الذي به تلين قلوبهم، وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق، الذي جاء به محمد ﷺ؟ وهذا فيه، الحث على الاجتهاد، على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلٰهية، والأحكام الشرعية، كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك.

﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد﴾. أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب، والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا. بل طال عليهم الزمان، واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم، وزال إيقانهم.

﴿فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت، إلى أن تذكر بما أنزل الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإنه سبب لقسوة القلب، وجمود العين.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٨٠)]

الآية السادسة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1] [سورة الحشر: ٢١].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

الجبل من أقسى ما يكون، والحجارة التي منها تتكون الجبال هي مضرب المثل في القساوة؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ولو نُزِّلَ هذا القرآن على جبل؛ لرأيت هذا الجبل خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

﴿خاشعاً﴾؛ أي: ذليلاً.
ومن شدة خشيته لله يكون ﴿مُتَصَدِّعاً﴾ يتفلق ويتفتق.
وهو ينزل على قلوبنا، وقلوبنا ـ إلا أن يشاء الله ـ تضمر وتقسو لا تتفتح ولا تتقبل.
فالذين آمنوا إذا نزلت عليهم الآيات؛ زادتهم إيماناً، والذين في قلوبهم مرض؛ تزيدهم رجساً إلى رجسهم؛ والعياذ بالله!.
ومعنى ذلك: أن قلوبهم تتصلب وتقسو أكثر وتزداد رجساً إلى رجسها، نعوذ الله من ذلك!
وهذا القرآن لو أنزل على جبل؛ لتصدع الجبل وخشع؛ لعظمة ما أنزل عليه من كلام الله.
وفي هذا دليل على أن للجبل إحساساً؛ لأنه يخشع ويتصدع؛ والأمر كذلك، قال النبي ﷺ في أحد: «هذا أحد جبل يحبنا ونحبه».
وبهذا الحديث نعرف الرد على المثبتين للمجاز في القرآن، والذين يرفعون دائماً عَلَمَهُم مستدلين بهذه الآية: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]؛ يقول: كيف يريد الجدار؟!

فنقول: يا سبحان الله! العليم الخبير يقول: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، وأنت تقول: لا يريد! أهذا معقول؟
فليس من حقك بعد هذا أن تقول: كيف يريد؟! =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

. . . ولما بين تعالى لعباده ما بين وأمر عباده ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجبا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي. فإن هذا القرآن، لو أنزل على جبل، لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن، أعظم المواعظ على الإطلاق. وأوامره ونواهيه، محتوية على الحكم والمصالح، المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف لا تناقض فيها، ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها، ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها. فإن التفكير فيها، يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوىء الأخلاق. فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن، والتدبر لمعانيه.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٣ـ ٢١٤)]

الآية السابعة والثلاثون:

يقول تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[1] [سورة النحل: ١٠٢].

= وهذا يجعلنا نسأل أنفسنا: هل نحن أوتينا علم كل شيء؟

[شرح العقيدة الواسطية (١/ ٣٧٣)]

(١) قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾: ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾: هو جبريل، ووصفه بذلك لطهارته من الخيانة عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال في آية أخرى: =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿قل نزله روح القدس﴾ وهو جبريل الرسول، المقدس المنزه عن كل

= ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التكوير: ١٩ـ ٢١].

قوله: **﴿مِنْ رَبِّكَ﴾**: قال: **﴿مِنْ رَبِّكَ﴾**، ولم يقل: من رب العالمين؛ إشارة إلى الربوبية الخاصة؛ ربوبية الله للنبي عليه الصلاة والسلام، وهي ربوبية أخص الخاصة.

وقوله: **﴿بِالْحَقِّ﴾**: إما أن يكون وصفاً للنازل أو للمنزول به.

فإن كان وصفاً للنازل؛ فمعناه: أن نزوله حق، وليس بكذب.

وإن كان وصفاً للمنزول به؛ فمعناه: أن ما جاء به فهو حق.

وكلاهما مراد؛ فهو حق من عند الله، ونازل بالحق.

قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

فالقرآن حق، وما نزل به حق.

قوله: **﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾**: هذا تعليل وثمرة عظيمة، يثبت الذين آمنوا به، ويمكنهم من الحق، ويقويهم عليه.

قوله: **﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾**؛ أي: هدى يهتدون به، ومناراً يستنيرون به، وبشارة لهم يستبشرون به.

بشارة؛ لأن من عمل به، واستسلم له كان ذلك دليلاً على أنه من أهل السعادة، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ـ ٧].

ولهذا ينبغي للإنسان أن يفرح إذا رأى من نفسه الخير والثبات عليه والإقبال عليه، يفرح؛ لأن هذه بشارة له؛ فإن الرسول ﷺ لما حدَّث أصحابه؛ قال: **«ما منكم من أحد إلاَّ وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار»**. قالوا أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: **«لا؛ اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»**، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ـ ١٠].

فإذا رأيت من نفسك أن الله عز وجل قد منّ عليك بالهداية، والتوفيق والعمل الصالح ومحبة الخير وأهل الخير؛ فأبشر؛ فإن في هذا دليلاً على أنك من أهل اليسرى، الذين كتبت لهم السعادة. =

عيب وخيانة وآفة. ﴿من ربك بالحق﴾ أي: نزوله من عند الله بالحق، وهو مشتمل على الحق، في أخباره، أوامره، ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً، لأنه إذا علم أنه الحق، علم أن ما عارضه وناقضه، باطل، ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم، وقتاً بعد وقت. فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً، حتى تكون إيمانهم، أثبت من الجبال الرواسي، وأيضاً، فإنهم يعلمون أنه الحق. وإذا شرع حكماً من الأحكام، ثم نسخه، علموا أنه أبدله، بما هو مثله، أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية، والمناسبة العقلية.

﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ أي يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً، وأيضاً، فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم، مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكماً وبشارة، أكثر. فإذا فهموه وعقلوه، وعرفوا المراد منه، وترووا منه، أنزل نظيره وهكذا، ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق، وعوائد، وأعمال، فاقوا بها الأولين والآخرين، وكان أعلى وأولى لمن بعدهم، أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٨٤)]

الآية الثامنة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ

= ولهذا قال هنا: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

[شرح العقيدة الواسطية (١/ ٣٧٧)]

وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾[1] [سورة الشورى: ٥٢ـ ٥٣].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

قال تعالى: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾**، **﴿روحاً﴾** أي القرآن، وسماه الله تعالى روحاً لأن فيه الحياة المعنوية، وإن شئت فقل الحقيقية أيضاً، لأن من اهتدى به فإن له الحياة الكاملة في الدنيا وفي الآخرة.

وقوله: **﴿روحاً من أمرنا﴾**، يعني مما نأمر به ونوحي به، وبهذا استدللنا على أن القرآن غير مخلوق، من قوله: **﴿من أمرنا﴾**، وكذلك أن الله قال في آية أخرى: **﴿ألا له الخلق والأمر﴾**، فجعل الأمر قسيماً للخلق. والقرآن من الأمر لا من الخلق، فتبين بهذا أن القرآن غير مخلوق.

وقوله: **﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾**، فالفعل (تدري) ينصب مفعولين، وما استفهام مبتدأ، والكتاب خبر، والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب سد مسد مفعولي تدري، لأن الرسول ﷺ ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى إليه.

وقوله: **﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء﴾** يعني: صيرنا هذا الروح الذي أوحينا إليك نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا. وكلمة من نشاء من عبادنا عامة، ولا ندري من الذي يشاء الله أن يهديه بالقرآن، لكن إذا رجعنا إلى الآية التي قبلها صار الذي يهديه به الله من اتبع رضوانه من عباده.

وقوله: **﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾**، هنا قال: **﴿نهدي به﴾**، وفي نفس الآية: **﴿وإنك لتهدي﴾**. لكن بين الهدايتين فرق؛ **﴿نهدي به﴾** هداية توفيق وهداية دلالة، ولهذا عديت بنفسها **﴿نهدي به من نشاء﴾**. وأما **﴿وإنك لتهدي إلى﴾**، فهي هداية دلالة، فالرسول يهدي إلى ولا يهدي مَن. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، لكن: **﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾**، فهو عليه الصلاة والسلام يدل الناس، لكن ليس بيده هداية التوفيق.

يقول: **﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾**، هنا الصراط أضيف إلى الله عز وجل، وقد أضيف في سورة الفاتحة إلى غير الله، فقال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. ولا تعارض بين الإضافتين، فإن إضافته إلى الله باعتبار أنه هو الذي وضعه لعباده، وأنه موصلٌ إليه، وإضافته إلى الناس في قوله: **﴿صراط =**

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿وكذلك﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك **﴿أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾** وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحاً، لأن الروح يحيا به الجسد والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير، والعلم الغزير. وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: **﴿ما كنت تدري﴾** أي قبل نزوله عليك **﴿ما الكتاب ولا الإيمان﴾** أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلٰهية، بل كنت أميّاً، لا تخط ولا تقرأ. فجاءك هذا الكتاب الذي **﴿جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾** يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم. **﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾** أي: تبينه لهم وتوضحه، وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه ثم فسر الصراط المستقيم فقال: **﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾** أي الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته.

= **الذين أنعمت عليهم﴾**، باعتبار أنهم أهله وسالكوه، فالإضافة مختلفة، فلهذا صح أن تضاف إلى هذا تارة وإلى هذا تارة.

وقوله: **﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾**، الأمور هنا أي الشؤون؛ كل الأمور الدنيوية والأخروية، الشرعية والكونية، كلها تصير إلى الله سبحانه وتعالى، ولهذا لا مرجع للخلق إلاّ ربهم سبحانه وتعالى، في جميع أحوالهم وشؤونهم الدينية والدنيوية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وكذلك الأمور الكونية، ﴿قُل مَّنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩].

وتصدير الجملة بألاَ ـ في قوله: **﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾** ـ للتنبيه الدال على الأهمية. وتقديم المتعلق يفيد الحصر، يعني: ألا إلى الله لا إلى غيره.

[مقدمة في أصول التفسير (ص ١٩، ٢٠)]

﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ أي ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازي كلاً بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٣٤ـ ٤٣٥)]

الآية التاسعة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾[1] [سورة طه: ١٢٤ـ ١٢٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

قوله: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾. قيل: إن المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه.

وقيل إن المراد بالمعيشة الضنك معيشته في الدنيا، وأنه وإن كان في سرور ظاهر، فإن قلبه في ضيق وضنك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وكما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، فإن هذا يدل على أن من ليس كذلك فحياته غير طيبة.

وقوله: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾، وذلك حسّاً ومعنى، ولهذا يقول: ﴿ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾ يعني تركتها ولم تعمل بها، ﴿وكذلك اليوم تنسى﴾ يعني تُترك.

والشاهد أن هذا فيه دليل على أن التمسك بهذا القرآن سبب للسعادة في الدنيا والآخرة، وأن المتمسك به لا يضل ولا يشقى، وأن الإعراض عنه سبب للشقاء في الدنيا والآخرة.

[مقدمة في أصول التفسير (ص ١٤)]

العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به **﴿فإن له معيشة ضنكاً﴾** أي: فإن جزاءه، أن نجعل معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلاّ عذاباً. وفسرت المعيشة الضنك، بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه، ويعذب، جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذا إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر.

والثانية قوله تعالى: **﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم﴾** الآية.

والثالثة قوله: **﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر﴾**.

والرابعة قوله عن آل فرعون: **﴿النار يعرضون عليها غدوّاً وعشياً﴾** الآية.

والذي أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك ـ والله أعلم ـ آخر الآية، وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة. وبعض المفسرين، يرى أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم، والغموم، والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها.

﴿ونحشره﴾ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه **﴿يوم القيامة أعمى﴾** البصر على الصحيح، كما قال تعالى: **﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾**.

قال على وجه الذل، والمراجعة، والتألم، والضجر من هذه الحالة: **﴿رب لم حشرني أعمى وقد كنت﴾** في دار الدنيا **﴿بصيراً﴾** فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة؟.

﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾ بإعراضك عنها **﴿وكذلك اليوم تنسى﴾** أي تترك في العذاب، فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل فكما عميت عن ذكر ربك، وغشيت عنه، ونسيته، ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب.

﴿وكذلك﴾ أي: هذا الجزاء ﴿نجزيه﴾ به ﴿من أسرف﴾ بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له ﴿ولم يؤمن بآيات ربه﴾ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه.

﴿ولعذاب الآخرة أشد﴾ من عذاب الدنيا أضعافاً مضاعفة ﴿وأبقى﴾ لكونه لا ينقطع، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع. فالواجب، الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

الآية الأربعون:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الزخرف: ٣٦ـ ٣٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يخبر تعالى عن عقوبته البليغة، بمن أعرض عن ذكره فقال: ﴿ومن يعش﴾ أي: يعرض ويصد ﴿عن ذكر الرحمن﴾ الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة، رحم بها الرحمن عباده. فمن قبلها، فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب. ومن أعرض عنها وردها، فقد خاب وخسر خسارة، لا يسعد بعدها أبداً وقيِّض له الرحمن شيطاناً مريداً، يقارنه، ويصاحبه، ويعده، ويمنيه، ويؤزه إلى المعاصي أزًّا.

﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل﴾ أي: الصراط المستقيم، والدين القويم.

﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل، وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم، الإعراض عن ذكر الله،

مع تمكنهم من الاهتداء. فزهدوا في الهدى، مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم. فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغيّ، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو: الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرّي من قرينه، ولهذا قال تعالى: **﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾**.

كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

وقوله تعالى: **﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾** أي: ولا ينفعكم يوم القيامة، اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم، وأخِلاؤكم. وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه. ولن ينفعكم أيضاً، روح التسلي في المصيبة فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم بعض الهون، وتسلّى بعضهم ببعض. وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٤٦ـ ٤٤٧)]

الآية الحادية والأربعون:

يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة محمد: ٢٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل.

فإنهم لو تدبروه، لَدلَّهُمْ على كل خير، ولَحَذَّرَهُمْ من كل شر، ولَملأ

قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، وَلَبَيَّنَ لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء يحذر، ولعرَّفهم بربهم، وأسمائه وصفاته، وإحسانه، ولشوَّقهم إلى الثواب الجزيل، ورهَّبهم من العقاب الوبيل.

﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الإعراض والغفلة، والاعتراض، وأقفلت، فلا يدخلها خير أبداً؟ هذا هو الواقع.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٤)]

الآية الثانية والأربعون:

يقول الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [سورة ق: ٤٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ والتذكير هو تذكير بما تقرر من العقول والفطر من محبة الخير وإيثاره وفعله ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه لئلا يقول: ﴿**ما جاءنا من بشير ولا نذير**﴾.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٨٩)]

* * *

شرح شيخنا السعدي لحديث (قل هو اللَّه أحد تعدل ثلث القرآن)

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**﴿قل هو الله أحد﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**»[1]. . . . . .

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
فهذه السورة تعدل ثلث القرآن في الجزاء لا في الإجزاء، وذلك كما ثبت عن النبي ﷺ أن: «**من قال: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير؛ عشر مرات فكأنما أعتق أربع أنفس من بني إسماعيل**» [متفق عليه]؛ فهل يجزىء ذلك عن إعتاق أربع رقاب ممن وجب عليه ذلك وقال هذا الذكر عشر مرات؟ فنقول: لا يجزىء. أما في الجزاء؛ فتعدل هذا؛ كما قال النبي ﷺ عليه الصلاة والسلام، فلا يلزم من المعادلة في الجزاء المعادلة في الإجزاء. ولهذا؛ لو قرأ سورة الإخلاص في الصلاة ثلاث مرات؛ لم تجزئه عن قراءة الفاتحة.
قال العلماء: ووجه كونها تعدل ثلث القرآن: أن مباحث القرآن خبر عن الله وخبر عن المخلوقات، وأحكام؛ فهذه ثلاثة:
١ ـ خبر عن الله: قالوا: إن سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تتضمنه.
٢ ـ خبر عن المخلوقات؛ كالإخبار عن الأمم السابقة، والإخبار عن الحوادث الحاضرة، وعن الحوادث المستقبلة.
٣ ـ والثالث: أحكام؛ مثل أقيموا، آتوا، لا تشركوا.. وما أشبه ذلك.
وهذا هو أحسن ما قيل في كونها تعدل ثلث القرآن.
﴿قُلْ﴾ الخطاب لكل من يصح خطابه.
وسبب نزول هذه السورة: أن المشركين قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: صف لنا ربك؟ فأنزل الله هذه السورة [رواه أحمد]. وقيل: بل اليهود هم الذين زعموا أن الله خُلِقَ من كذا ومن كذا مما يقولون من المواد؛ فأنزل الله هذه السورة. سَواء صح السبب أم لم يصح؛ فعلينا إذا سئلنا أي سؤال عن الله نقول: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.
=

. . . . . .

= ﴿هُوَ﴾: ضمير وأين مرجعه؟ قيل: إن مرجعه المسؤول عنه؛ كأنه يقول: الذي سألتم عنه الله وقيل: هو ضمير الشأن و ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ ثان و﴿أحد﴾: خبر المبتدأ الثاني، وعلى الوجه الأكمل تكون ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿اللَّهُ﴾ خبر المبتدأ، ﴿أَحَدٌ﴾: خبر ثان.

﴿اللَّهُ﴾: هو العلم على ذات الله، المختص بالله عز وجل، لا يتسمى به غيره وكل ما يأتي بعده من أسماء الله فهو تابع له إلاَّ نادراً؛ ومعنى ﴿اللَّهُ﴾: الإله، وإله بمعنى مألوه أي: معبود، لكن حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال، وكما في (الناس)، وأصلها: الأناس، وكما في: هذا خير من هذا، وأصله: أخير من هذا لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة؛ فالله عز وجل ﴿أَحَدٌ﴾.

﴿أَحَدٌ﴾: لا تأتي إلاَّ في النفي غالباً أو في الإثبات في أيام الأسبوع؛ يقال: الأحد، الإثنين.. لكن تأتي في الإثبات موصوفاً بها الرب عز وجل لأنه سبحانه وتعالى أحد؛ أي: متوحد فيما يختص به في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ﴿أَحَدٌ﴾؛ لا ثاني له ولا نظير له ولا ندّ له.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾: هذه جملة مستأنفة بعد أن ذكر الأحدية ذكر الصمدية، وأتى بها بجملة معرفة في طرفيها؛ لإفادة الحصر؛ أي: الله وحده الصمد.

فما معنى الصمد؟

قيل: إن ﴿الصَّمَدُ﴾: هو الكامل؛ في علمه في قدرته، في حكمته، في عزته، في سؤدده، لا في كل صفاته. وقيل: ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لا جوف له؛ يعني لا أمعاء ولا بطن، ولهذا قيل: الملائكة صمد؛ لأنهم ليس لهم أجواف؛ لا يأكلون ولا يشربون.

هذا المعنى روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ولا ينافي المعنى الأول، لأنه يدل على غناه بنفسه عن جميع خلقه، وقيل ﴿الصَّمَدُ﴾ بمعنى المفعول؛ أي: المصمود إليه؛ أي الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها؛ بمعنى: تميل إليه وتنتهي إليه وترفع إليه حوائجها؛ فهو بمعنى الذي يحتاج إليه كل أحد.

هذه الأقاويل لا ينافي بعضها بعضاً فيما يتعلق بالله عز وجل، ولهذا نقول: إن المعاني كلها ثابتة؛ لعدم المنافاة فيما بينها.

ونفسره بتفسير جامع فنقول: ﴿الصَّمَدُ﴾: هو الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته؛ فهي صامدة إليه.

وحينئذ يتبين لك المعنى العظيم في كلمة ﴿الصَّمَدُ﴾: أنه مستغن عن كل ما سواه، كامل في كل ما يوصف به، وأن جميع ما سواه مفتقر إليه. =

. . . . . .

= فلو قال لك قائل: إن الله استوى على العرش؛ هل استواؤه على العرش بمعنى أنه مفتقر إلى العرش بحيث لو أزيل لسقط؟ فالجواب: لا، كلا، لأن الله صمد كامل غير محتاج إلى العرش، بل العرش والسماوات والكرسي والمخلوقات كلها محتاجة إلى الله، والله في غنى عنها فنأخذه من كلمة ﴿الصَّمَدُ﴾.

لو قال قائل: هل الله يأكل أو يشرب؟ أقول: كلا؛ لأن الله صمد.

وبهذا نعرف أن ﴿الصَّمَدُ﴾ كلمة جامعة لجميع صفات الكمال لله وجامعة لجميع صفات النقص في المخلوقات وأنها محتاجة إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾: هذا تأكيد للصمدية والوحدانية، وقلنا: توكيد؛ لأننا نفهم هذا مما سبق فيكون ذكره توكيداً لمعنى ما سبق وتقريراً له؛ فهو لأحديته وصمديته لم يلد؛ لأن الولد يكون على مثل الوالد في الخلقة، في الصفة وحتى الشبه.

لما جاء مجزز المدلجي إلى زيد بن حارثة وابنه أسامة، وهما ملتحفان برداء، قد بدت أقدامهما؛ نظر إلى القدمين. فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض. متفق عليه. فعرف ذلك بالشبه.

فلكمال أحديته وكمال صمديته ﴿لم يَلِدْ﴾ والوالد محتاج إلى الولد بالخدمة والنفقة ويعينه عند العجز ويبقى نسله.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأنه لو ولد؛ لكان مسبوقاً بوالد مع أنه جل وعلا هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الخالق وما سواه مخلوق؛ فكيف يولد؟

وإنكار أنه وُلِد أبلغ في العقول من إنكار أنه والد ولهذا لم يدع أحد أن لله والداً وادعى المفترون أن له ولداً.

وقد نفى الله هذا وهذا وبدأ بنفي الولد؛ لأهمية الرد على مدعيه بل قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، حتى ولو بالتسمي؛ فهو لم يلد ولم يتخذ ولداً، بنو آدم قد يتخذ الإنسان منهم ولداً وهو لم يلده بالتبني أو بالولاية أو بغير ذلك، وإن كان التبني غير مشروع، أما الله عز وجل؛ فلم يلد ولم يولد، ولما كان يرد على الذهن فرض أن يكون الشيء لا والداً ولا مولوداً لكنه متولد؛ نفى هذا الوهم الذي قد يرد، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾، وإذا انتفى أن يكون له كفواً أحد؛ لزم أن لا يكون متولداً ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾؛ أي: لا يكافئه أحد في جميع صفاته.

[شرح العقيدة الواسطية (ص ١٢٨ وما بعدها)]

رواه مسلم[1].

تكلم أهل العلم على معنى هذه المعادلة وتوجيهها.

وأحسن ما قيل فيها: أن معادلتها لثلث القرآن، لما تضمنته من المعاني العظيمة: معاني التوحيد، وأصول الإيمان.

فإن المواضيع الجليلة التي اشتمل القرآن عليها:

١ـ إما أحكام شرعية: ظاهرة أو باطنة، عبادات أو معاملات.

٢ـ وإما توحيد ومعارف، تتعلق بأسماء الله وصفاته، وتفرده بالوحدانية والكمال، وتنزهه عن كل عيب ومماثلة أحد من المخلوقات.

فسورة (قل هو الله أحد) مشتملة على هذا، وشاملة لكل ما يجب اعتقاده من هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها.

ولهذا أمرنا الله أن نقولها بألسنتنا، ونعرفها بقلوبنا، ونعترف بها، وندين لله باعتقادها، والتعبد لله بها، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [سورة الإخلاص: ١].

فالله: هو المألوه المستحق لمعاني الألوهية كلها، التي توجب أن يكون هو المعبود وحده، المحمود وحده، المشكور وحده، المعظم المقدس، ذو الجلال والإكرام.

و«الأحد» يعني: الذي تفرد بكل كمال، ومجد وجلال، وجمال وحمد، وحكمة ورحمة، وغيرها من صفات الكمال.

فليس له فيها مثيل ولا نظير، ولا مناسب بوجه من الوجوه.

فهو الأحد في حياته وقيوميته، وعلمه وقدرته، وعظمته وجلاله، وجماله وحمده، وحكمته ورحمته، وغيرها من صفاته، موصوف، بغاية الكمال ونهايته، من كل صفة من هذه الصفات.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٨٨٣).

ومن تحقيق أحديته وتفرده بها:

أنه «الصمد» أي: الرب الكامل، والسيد العظيم، الذي لم [تبق] صفة كمال إلا اتصف بها. ووصف بغايتها وكمالها، بحيث لا تحيط الخلائق ببعض تلك الصفات بقلوبهم ولا تعبر عنها ألسنتهم. وهو المصمود إليه، المقصود في جميع الحوائج والنوائب.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الرحمن: ٢٩].

فهو الغني بذاته، وجميع الكائنات فقيرة إليه بذاتهم: في إيجادهم وإعدادهم، وإمدادهم بكل ما هم محتاجون إليه من جميع الوجوه. ليس لأحد منها غنى عنه مثقال ذرة، في كل حالة من أحوالها.

فالصمد: هو المصمود إليه، المقصود في كل شيء؛ لكماله وكرمه وجوده وإحسانه. ولذلك ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ [سورة الإخلاص: ٣]. فإن المخلوقات كلها متولد بعضها من بعض، وبعضها والد بعض، وبعضها مولود. وكل مخلوق فإنه مخلوق من مادة. وأما الرب جل جلاله: فإنه منزه عن مماثلتها في هذا الوصف، كما هو منزه عن مماثلتها في كل صفة نقص.

ولهذا حقق ذلك التنزيه، وتمم ذلك الكمال، بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [سورة الإخلاص: ٤]، أي: ليس له نظير ولا مكافىء ولا مثيل، لا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في جميع حقوقه التي اختص بها.

فحقه الخاص أمران: التفرد بالكمال كله من جميع الوجوه، والعبودية الخالصة من جميع الخلق.

فحق لسورة تتضمن هذه الجمل العظيمة: أن تعادل ثلث القرآن. فإن جميع ما في القرآن من الأسماء الحسنى، ومن الصفات العظيمة العليا، ومن أفعال الله وأحكام صفاته: تفاصيل لهذه الأسماء التي ذكرت في هذه السورة، بل كل ما في القرآن من العبوديات الظاهرة والباطنة، وأصنافها وتفاصيلها: تفصيل لمضمون هذه السورة، والله أعلم.

فصول ومباحث وفوائد
من كلام شَيخنا السعدي
في بيان عظمة القرآن
والحث على تلاوته
وتدبره وعدم
الإعراض عنه

المبحث الأول

فوائد في ضوابط من آيات القرآن

قال رحمه الله:

جمع الله في هذه الآية على اختصارها توحيد الربوبية وتوحيد العبادة وتوحيد الأسماء والصفات، وهو قوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة مريم: ٦٥].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ..﴾ [سورة غافر: ٦٥].

وفي هذه الآية الجزاء على كل خير وكل شر، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [سورة الزلزلة: ٧ـ ٨]، وتتضمن الترغيب في الخير، والتحذير من ضده.

وفي هذه الآية بنى الأمر بكل أصول الخير والنهي عن أصول الشر.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة النحل: ٩٠].

وجمع في هذه الآية بين الأمر بكل خلق جميل، ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩].

وجمع في هذه الآية بين الإخلاص لله والمتابعة للرسول والصدق وتدارك التقصير والتوحيد ولزوم الصراط المستقيم والبشارة بحصول المحبوبات والسلامة من المكروهات، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٠].

وجمع في هذه الآية بين الحقوق الثلاثة: حق الله الخاص، وحق رسوله

الخاص، والحق المشترك، وهي قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [سورة الفتح: ٩].

وذكر في هذه الآية أوقات الصلاة الخمسة: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [سورة الإسراء: ٧٨].

وجمع الله أصول الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . .﴾ إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ . . .﴾ [سورة الإسراء: ٢٣ـ ٣٩] وفي قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . . .﴾ [سورة النساء: ٣٦].

وجمع أوصاف الكمل على وجه التفصيل في قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا . . .﴾ إلى آخر السورة [سورة الفرقان: ٦٣ـ ٧٧].

وجمع الله أصول التوحيد، وهي إثبات جميع المحامد والكمالات لله وتنزيهه عما ينقضها أو يضادها بوجه من الوجوه في سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [سورة الإخلاص: ١].

وجمع الله الاستعاذة من أصول الشر وأنواعها وأوقاتها وأحوالها في سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ . . .﴾ إلى آخرهنَّ.

وجمع الله بين صفات المفلحين الرابحين وبين صفات الخاسرين في سورة: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر: ١ـ ٣].

وجمع الله بين كمال القرآن لفظاً ومعنىً ومناسبةً وحكمةً في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ [سورة الفرقان: ٣٣].

وذكر الله أصول العلم الصحيح، وهي الدلائل والمسائل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: ٤].

وذكر الله الزاد الحسي والمعنوي واللباس الحسي والمعنوي في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧]. ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [سورة الأعراف: ٢٦].

وبين الله أوصاف الرحمة وأصولها وفروعها في سورة الرحمن إلى آخرها؛ فكلها تفاصيل لمضمون قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وأصناف رحمته.

وحثنا الله على ما يعين على جميع الأمور في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة البقرة: ٤٥]، وعلى ما يدفع شرور الشياطين في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩].

وذكر الله الأسباب التي تحصل فيها الهداية، وهي الاجتهاد في حسن القصد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩]. وفي قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [سورة المائدة: ١٦].

والأسباب التي تسد على العبد الهداية وتوجب له الضلال والغواية في قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: ٣٠]، وفي قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١١٥].

وقد جمع الله أصول الإيمان والإسلام في قوله: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة البقرة: ١٣٦].

وقد جمع الله أصول الشرائع الواجبة في كل شريعة والمحرمات في كل شريعة في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ...﴾ الآية [سورة الأعراف: ٢٩]، وفي قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا

حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ٣٣].

[و] جمع الله بين العبادة والاستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴿٥﴾﴾ [سورة الفاتحة: ٥]، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود: ١٢٣].

ولها نظائر في القرآن وفي السنة قوله ﷺ: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله»**(١).

ذكر الله أن أحكامه في غاية الحسن والإحكام، وكذلك مخلوقاته في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: ٥٠]، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [سورة السجدة: ٥]، وفي قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة النمل: ٨٨].

وجمع الله بين إثبات عموم القضاء والقدر وشموله لأعمال المكلفين كما شمل ذواتهم وصفاتهم، وبين إثبات مشيئة العبد، وأنه مختار في أفعاله كلها غير مجبور في قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٢٩﴾﴾ [سورة التكوير: ٢٨ـ ٢٩]، وفيها رد على طائفتي الجبرية والقدرية.

ذكر الله نفي التمثيل وأنه ليس له مثيل في جميع صفاته، وإثبات صفاته في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١]، وفيها رد على طائفتي التشبيه والتعطيل.

وجمع الله بين تميز الرسول عن البشر بالرسالة والوحي المتضمنين كمال أوصافه ﷺ، وبين مشاركته للبشر في الصفات البشرية في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة الكهف: ١١٠]، ففيها رد على الغالين بالرسول، الذين جعلوا له من أوصاف الله أو من حقوقه ما ليس له، وبين الجافين في حقه بالتكذيب أو التنقيص.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر رقم (٢٦٦٤).

وجمع الله بين الاستدلال بالآيات الأفقية والنعتية على أنه حق ورسوله حق ووعده ووعيده حق في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: ٥٣].

وبين الاستدلال بالمخلوقات المذكورة على توحيد الخالق وصدق رسله، والاستدلال بصفات الخالق على ما يفعله ويشرعه ويحكم، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة فصلت: ٥٣ـ ٥٤].

ذكر الله أن جميع الكفار الذين دخلوا النار قد خالفوا العقل كما خالفوا السمع، وأنهم سيعترفون بذلك في قوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ . . .﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [سورة الملك: ٨ـ ١١].

ويستدل على يسر الشريعة بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [سورة الطلاق: ٧]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥] ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

فهي في ذاتها في غاية اليسر والسهولة، ومتى عرض للعبد في بعض الشرائع عجز أو نحوه حصل له بالتخفيف ما يناسبه لأن المشقة تجلب التيسير.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ١٩ ـ ٢٧)]

* * *

المبحث الثاني

في أن القرآن شفاء لما في الصدور من الأمراض، ورحمة جالبة للخير

قال رحمه الله:

قد أخبر الله في عدة آيات من كتابه أن القرآن شفاء من الأمراض، وخصوصاً الأمراض القلبية، وأنه رحمة تحصل به الخيرات والكرامات، فبه تزول المكاره، وبه تحصل المحابّ، أخبر بذلك في عدة مواضع، وشرح الواقع المفصل لهذا الأمر العام في مواضع، عند كلامه على التشريع وتفصيل الأوامر والنّواهي: فصَّل الأمراض القلبية وشخصها، وبيّن أضرارها ومفاسدها الكثيرة، وذكر العباد: كيف يسعون في إزالتها واقتلاعها، وتوجيهها إلى ما ينفع ولا يضرّ؟

ولنذكر لهذا الأصل أمثلة يتّضِح بها الأمر:

فمنها: أن الشُّحَّ طبيعة نفسية ومرض داخلي، في قوله [تعالى]: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [سورة النساء: ١٢٨].

وأن الإنسان مجبول على محبَّة المال.

وإنه لحب الخير لشديد.

وذلك يقتضي إمساكه من كل وجه.

فهذا المرض موجود في كل النفوس البشرية، متغلغل في الضمائر.

ولكنه تعالى عالجه بعلاجات قوية نافعة، عالجه بقوّة تقهر جميع القُوَى

النفسية إذا تمت، وهي قوة الإيمان، وبيّن أن الإيمان يدعو المؤمنين إلى القيام بجميع حقوق الإيمان، وخصوصاً الواجبات الكبار، والحقوق الضرورية كالنفقة في الزكاة، والجهاد، وعلى المحتاجين، وعلى من لهم حقّ على الإنسان.

وأخبر في عدَّة آيات أن الإنفاق من حقوق الإيمان الكلِّيَة الكبار، وأنه لا يتمّ إيمان عبد حتى يؤدي الزكاة، وحتى يُنفق النفقات المأمور بها، وأن من قوي إيمانه لا [يتمادى] معه خُلق البُخل والشُّحّ، بل يأتي [إنفاقه] تبعاً منقاداً لداعي الإيمان وهذا أقوى علاج لهذا الداء.

ولهذا قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ**»[1].

أي برهان ودليل على صحة إيمان صاحبها، فإن الإيمان محبوب، ويجب تقديم هذا المحبوب على جميع محابّ النفوس. فمتى تعارض الداعي الطبيعي، وهو الشحّ، وداعي الإيمان، فعند هذا التعارُض يتّضح: من هو المؤمن حقًّا الذي يؤدي كل ما عليه، لا يلتفت إلى شُح وبخل ومحبة للمال، ممن لم يصل الإيمان إلى قلبه، وهو الذي يعبُد الله على حرف: إن سلم من المعارضات ثبت على دينه، وإن عارضه أي هوى يكون، انحاز مع الهوى وترك الدين، فهذا قد خسر الدنيا والآخرة.

وعالج هذا الخلق أيضاً بالترغيب المتنوّع في النفقات، في الثواب العاجل والآجل، وما فيه من الخلف، وتنمية خلق الكرم والجود في العبد، والأجر المتضاعف الذي لا يَدَع المؤمن يتجارى مع بخله وشُحّه، ويفوّت المغانم الجليلة، والآثار الجميلة.

وأيضاً يرهب من عقوبات الممسكين، وعواقب البخلاء المانعين. فكم حدا هذا الترغيب والترهيب إلى البذل في الواجبات والمستحبّات بنفوس مطمئنة، وقلوب واثقة بوعد الله، خائفة مُرَّ وعيده. وقرر ذلك بذكر مآل المحسنين، وما نالوا من الخير العاجل والآجل، ومآل المسكين، وكيف كانت

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الطهارة برقم (٥٣٣).

عواقبهم أسوأ العواقب؟ كيف زالت نِعَمهم ومحابُّهم، وحلّت بهم النقم والمكاره؟ ولم يزل يرغبهم في الإنفاق بكل وسيلة، ويخبرهم أن من أطاع الشيطان الذي يَعِدُ بالفقر، ويخرج من القلب الثقة بالله، والرحمة بعباد الله. وأن من أنفق فقد أطاع الله، وحصلت له المغفرة الشاملة، والرحمة العامة، والفضل والخلَف العاجل، والبركة في الرزق.

لم يزل يعالجهم بهذه الأدوية النافعة، حتى انقادت نفوس المؤمنين راغبة طائعة مختارة، مُؤثِرة ما عند الله، مطمئنة بفضله. وربما وصلت الحال بكثير منهم إلى أن ما يُعطون، أحبّ إليهم مما يأخذون!

ولأهل الكرم هُنا حكايات جميلة في بذلهم وإيثارهم، وكيف انقلب ذلك الطبع الجِبِلّي، بالعلاجات الشرعية، والأدوية الربانيّة إلى ضده.

ومن ذلك: أنه أبدى وأعاد في ذمّ الرِّياء، ومُصانعة الخلق، وأنه خُلق رذيل ساقط دنيء جدًّا، من أخلاق المنافقين الأرذلين، المنقطعين عن ربّ العالمين، في تعلُّقهم به، وبما يحبه ويرضاه.

فلم يزل يبيِّن لهم رذالة هذا الخلق، وأنه لا يتّصِف به إلا الأراذل من المنافقين، وأنهم في الدّرك الأسفل من النار، كما كانوا في الدّرك الأسفل من الأخلاق. ويبيّن أن المُرائي مع ضعف دينه قد ضعف عقله، فإنه راءى المخلوقين الفقراء العاجزين الذين لا يملكون لأنفسهم ـ فضلاً عن غيرهم ـ نفعاً ولا ضرًّا، ولا موتاً ولا حياة ولا نُشوراً. وأن من عمل لأجلهم، فقد اعتمد على غير معتمد، واتكأ على شَفا جُرف هارٍ، وأن المخلصين هم أهل الهمم العالية، والأجور الفاضلة. وأن الجزاء بحسب الإخلاص، والأعمال بالنيات، وأن العمل القليل من المخلص يَزِنُ الأعمال الكثيرة ممن لم يكن كذلك. وأن المخلصين هم الذين يخلِّصهم في الدنيا من الفِتَن والآثام، ومن العقوبات والآلام، وأنه بإخلاصهم يُحِلّهم المقامات العالية في دار السلام.

لم يزل يُعالجهم بهذه العِلاجات العالية، حتى علموا علم اليقين أنه لا عمل إلا بالإخلاص، وأن الإخلاص هو السبب الوحيد المنجّي من المكارِه،

المحصِّل للمحابّ كلها. وأن الله لم يخلقهم إلا لِيُخلِصوا له الدِّين، ويقوموا بعبوديته وحده لا شريك له، وأن من راءى الناس بعمله فقد خسر دينه وعقله وعِلمه، وتعلّق بغير متعلّق.

فأيّ مرض يبقى مع هذه العِلاجات الناجحة الراقية التي هي علاج العزيز الحكيم، الربّ الرحيم الذي هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها. فتبارك الله رب العالمين!

ومن ذلك: داء الكِبْر، الذي هو أشرّ الأدواء وأخسّها وأسقطها، وهو ردّ الحقّ، واحتقار الخَلق، والتعاظُم عليهم. أخبر [تعالى] في عدة آيات أن هذا ليس من صِفات الأزكياء ولا الأخيار من العباد. وأنه من صفات الجبابرة الذين لم يعرفوا ربّهم، ولم يعرفوا حقيقة أنفسهم، وأن قلوبهم امتلأت من هذا الخيال الباطل، وهو التعاظم على الحقّ الذي يجب على جميع الخلق الدخول تحت رقّه، وهو غاية شرَفهم. فعبودية الله، والافتقار له، والخضوع له: أكمل خلعة خُلِعت على العبد، وأفضل عطِيّة يُعطاها.

فالمتكبر خلَع هذه الخلعة العالية، واستبدل بها الخلعة الخسيسة: الكبر الذي هو خيال لا يبلغه العبد بالكلية. ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة غافر: ٥٦].

وكذلك الكِبر على الخَلق، واحتقارهم وازدراؤهم، لا ريب أنه أشرُّ الأخلاق، كما قال ﷺ: «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ: أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**»(١).

ولو علم المسكين ماذا فاته من الخير، وماذا حصل له من الشر والمقت، لناح على نفسه وندبها، وعلم أنه وضعها في أسقط المواضع، وعرّضها للعقوبات المتنوعة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة برقم (٢٥٦٤).

حذَّرهم [تعالى] من هذا الخُلق الرذيل بأنه لا يحبّ المتكبرين، بل يمقتهم أشد المقت، ويُوقع عليهم اللعنة منه ومن عباده، وأن النار مثوى المتكبرين، وأن من تكبَّر أهانه الله وخذله، ومن تواضع أكرمه ورفعه، [بما] في خُلق التواضُع من الخير والبشارة، والثواب العاجل والآجل.

وأن المتواضع قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الرحمة، قريب من الجنة، بعيد من النار. والمتكبِّر بضده.

فما زال الله يشرح لهم عن هذا الخلق، ويصوّره بأشنع صورة، ويذكر آثاره القبيحة، حتى اقتلعه من قلوب المؤمنين، واستبدلوا به خُلق التواضُع الجميل، خُلُق الأنبياء والأصفياء والأولياء.

ومن ذلك: داء الحسد والغِلّ والحقد، والغِشّ للعباد، أخبرهم أنه خلق الأراذل، وأنه موجب لسخط الله وعقابه، ونقص الإيمان، وخُلُوّ القلوب من النُّصح الذي هو أساس الخير. وأنه خُلق الجبابرة الذين أوقع بهم العقوبات، كقوم شُعيب وغيرهم، [وأنه] من البغي الذي يعود ضرره على الباغي. وأن القلوب المتَّصفة به قلوب منحرفة عن الخير، مُقبلة على الشر. وكفى بهذا شرًّا وضرراً.

وبمقابلة ذلك أخبرهم [تعالى] بأن النُّصح وسلامة الصدور من أخلاق الأنبياء، وأوصاف الأصفِياء، وأن الدين هو النصيحة بأكملها، وأن من خلا من النصيحة فقد فقدَ دينه، وفقد أخلاقه، وأن خواصّ المؤمنين هم الذين يدْعون ربَّهم ويجتهدون في زوال هذا الخلق عنهم، فيقولون:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر: ١٠].

و[أن] من جمع الله له بين محبة الله، والنصح لعباد الله، فقد جمع كل خير.

ما زال الله في كتابه وعلى لسان رسوله يُعالج العِباد عن هذا الخُلق بهذه العلاجات العالية الناجحة المضمون لها الشفاء، حتى ظهرت آثارها على المؤمنين، وبدَتْ أنوارها وخيراتها على المستجيبين.

ومن ذلك: داء الغفلة والإعراض عن الله، وعن طاعته.

بيَّن [تعالى] أنه مُناف لما خُلِق له العباد، فإن الله خلقهم ليعبدوه، وأسدى عليهم النعم ليشكروه، فينقلهم بذلك من نعم إلى أكبر منها.

وأن الغافلين المعرضين نسوا الله، فأنساهم أنفسهم، أنساهم مصالحها ومنافعها، حتى أهملوها وضرّوها غاية الضرر. وأن غاية المعرض أنه أعرض عمَّن كل السعادة والخير والفلاح في الإقبال عليه، إلى مَن كل الشقاء والخيبة والخُسران في الإقبال عليه! استبدل الخسيس بالنّفيس، والأمور الدنيّة عن الأمور العلِية.

وأن المُعرِضين يُيسَّرون لِلعُسرى، ويجنَّبون اليُسرى، ولا يزالون ينتقلون من شقاء إلى آخر، وأنهم حُرموا الخيرات، وحصلوا على الشرور والحسرات.

ونعَى على المعرضين أحوالهم كلها، وأن أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم ما أغْنت عنهم شيئاً، ولا استفادوا منها إلا قِيام الحُجَّة. فتبّاً للمعرِضين! وما أقبح أحوال الغافلين!

ثمّ في مقابلة ذلك: يذكر تعالى حالة المنيبين المقبلين عليه، الرَّاجين لفضله، الطامعين في بره، وأنه تعالى سيُجازيهم من خيره وبرِّه العاجل ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأنهم في حياة طيبة، ونعيم عاجل، وطمع في نعيم آجل.

وأخبر [تعالى] أنهم لهم الفوز المطلَق، والسعادة الأبدية.

فبهذه الأدوية الجليلة أقبلت القلوب إليه، وصَغَت إليه الأفئدة، وتزوّدت من طاعته أكمل حظ، وأوفر نصيب.

وقوَّى ذلك أن القلوب الصحيحة مجبولة على محبّة الكمال، وعلى محبة من أحسن إليها. والله تعالى له الكمال المُطْلَق التام من جميع الوُجوه، لا غاية لكماله، ولا منتهى لجلاله، ومنه النِّعم كلها، ظاهرها وباطنها.

فيا ويح المُعْرِضين الغافلين عنه! ويا سعادة المقبلين [عليه]!

فهذه أمثلة توضّح لك وجه أن هذا القرآن جعله الله شفاء لما في الصُّدور، ورحمة وهُدىً.

قِسْ عليها كل داء قلبيّ وبدنيّ.

وبالله التوفيق.

[الرياض الناضرة (ص ١٣٩ـ ١٤٤)]

* * *

المبحث الثالث

القرآن تبيان لكل شيء

قال رحمه الله:

إن القرآن تبيان لكل شيء، فعلوم الأصول وعلوم الفروع والأحكام، وعلوم الأخلاق والآداب، وعلوم الكون، وكل ما يحتاجه الخلق من ذلك اليوم، إلى أن تقوم الساعة، في القرآن بيانه والارشاد إليه وهو الذي إليه المرجع في جميع الحقائق الشرعية والعقلية، ومحال وممتنع أن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض شيئاً مما جاء به القرآن، فإنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة فصلت: ٤٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة النساء: ٨٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: ٩] ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: ٤] فهو الحق الذي يقوله الله في كتابه وعلى لسان رسوله وهو الهداية إلى السبيل لكل علم وعمل، كما أن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الفرقان: ٣٣] جمعت الكمال في ألفاظه ومعانيه، فألفاظه أوضح الألفاظ وأبلغها، وأحسنها تفسيراً لكل ما تفسره من الحقائق، بوضوحها وأحكامها وقوامها، ومعانيه كلها حق، وذلك أنه تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، صدقاً في أخبارها؛ وعدلاً في أحكامها: أوامرها ونواهيها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: ٥٠] فأحكامه على الاطلاق أحسن الأحكام وأنفعها للعباد، فهذا في شرعه ودينه، ونظيره في خلقه، الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، وقد جمع الله في كتابه بين المتقابلات العامة، وذلك لكمال هذا الكتاب وأحكامه كالأمثلة السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: ٢].

فإن البر اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد والأخلاق والأعمال، والتقوى اسم جامع لما يجب اتقاؤه من جميع المآثم والمضار، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [سورة المائدة: ٢] فالإثم: المعاصي المتعلقة بحقوق الله، والعدوان: البغي على الخلق في الدماء والأموال والأعراض والحقوق.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧]فجمع بين زاد سفر الدنيا، وزاد سفر الآخرة بالتقوى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [سورة الأعراف: ٢٦] فهذا اللباس الحسي الضروري والكمالي، ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [سورة الأعراف: ٢٦]، فهذا اللباس المعنوي، وإن شئت قلت عن الأول: إنه لباس البدن، وعن لباس التقوى: إنه لباس القلب والروح.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [سورة الإنسان: ١١] جمع لهم بين نعيم الظاهر بالنضرة والحسن والبهاء، ونعيم الباطن بكمال الفرح والسرور.

وكذلك قوله في صفة نساء الجنة: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الرحمٰن: ٧٠]فوصفهن بجمال الباطن بحسن الخلق الكامل، وجمال الظاهر بأنهن حسان الوجوه وجميع الظاهر.

ولما ذكر السير الحسي ذكر السير المعنوي، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [سورة النحل: ٩].

وكذلك قوله: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ﴾ أي أفراداً بدليل قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [سورة النساء: ٧١].

وكذلك قوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الليل: ١٥-١٦] كذب الخبر، وتولى عن الطاعة، «التكذيب»: انحراف الظاهر، ونظيره قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة طه: ٤٨].

وضد ذلك ما رتب الله على الإيمان والعمل الصالح من خير الدنيا والآخرة؛ فإن الإيمان ضد التكذيب، والتولي ضده الاستقامة والعمل الصالح.

وكذلك قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة: ٥] ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود: ١٢٣] تجمع جميع ما يراد من العبد، فالعبادة حق الله على العبد، والإعانة من ربه إسعافه بما استعان عليه زمن عبودية ربه وغيرها من منافعه؛ فالعبد في عبادةٍ لله واستعانةٍ به.

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [سورة النحل: ٩٧] فجمع للمؤمن العامل للصالحات بين طيب الحياة في الدنيا والآخرة، ونظيره ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [سورة النحل: ٣٠] ولأجر الآخرة أكبر - ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [سورة البقرة: ٢٠١].

وكذلك قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة يونس: ٦٢] في مواضع، نفي جميع المكروه الماضي بنفي الحزن والمستقبل، بنفي الخوف.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾ [سورة الواقعة: ٨٩] فالروح اسم جامع لنعيم القلب، والريحان اسم جامع لنعيم الأبدان؛ وجنة نعيم تجمع الأمرين.

وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [سورة طه: ١٢٤] أي القرآن الذي أنزله ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [سورة طه: ١٢٤] جمع له بين عذاب الدنيا وعذاب البرزخ وعذاب دار القرار.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [سورة غافر: ٢٨] أي متكبر على الحق جبار على الخلق. ومثله ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [سورة القلم: ١٢] أي معتد في البغي على عباد الله ﴿أَثِيمٍ﴾ أي متجرىء على محارم الله.

وكذلك قوله في مواضع ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [سورة البقرة: ١٠٧] فالولي الذي يجلب لمولاه المنافع و﴿نَصِيرٍ﴾ الذي يدفع عنه المضار.

[فوائد قرآنية (ص ٢٨- ٣٢)]

المبحث الرابع

في ذكر أوصاف القرآن العامة الجامعة

قال رحمه الله:

قد وصف الله كتابه بأوصاف جليلة عظيمة تنطبق على جميعه، وتدل أكبر دلالة على أنه الأصل والأساس لجميع العلوم النافعة، والفنون المرشدة لخير الدنيا والآخرة.

وصفه بالهدى والرشد، والفرقان، وأنه مبين وتبيان لكل شيء، فهو في نفسه هدى، ويهدي الخلق لجميع ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم، ويرشدهم إلى كل طريق نافع، ويفرق لهم بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وبين أهل السعادة والشقاوة بذكر أوصاف الفريقين، وفيه بيان الأصول والفروع بذكر أدلتها النقلية والعقلية، فوصفه بهذه الأوصاف المطلقة العامة التي لا يشذ عنها شيء في آيات كثيرة.

وقيد هدايته في بعض الآيات بعدة قيود: قيد هدايته بأنه هدى للمؤمنين، المتقين، لقوم يعقلون، ويتفكرون، ولمن قصده الحق. وهذا بيان منه تعالى لشرط هدايته، وهو أن المحل لا بد أن يكون قابلاً وعاملاً، فلا بد لهدايته من عقل وتفكير وتدبر لآياته. فالمعرض الذي لا يتفكر ولا يتدبر آياته لا ينتفع به، ومن ليس قصده الحق ولا غرض له في الرشاد، بل قصده فاسد وقد وطن نفسه على مقاومته ومعارضته، ليس له من هدايته نصيب. فالأول حرم هدايته لفقد الشرط، والثاني لوجود المانع، فأما من أقبل عليه وتفكر في معانيه وتدبرها بحسن فهم، وحسن قصد، وسلم من الهوى، فإنه يهتدي به إلى كل مطلوب، وينال به كل غاية جليلة ومرغوب.

ووصفه بأنه رحمة، وهي الخير الديني والدنيوي والأخروي المترتب على

الاهتداء بالقرآن، فكل من كان أعظم اهتداءً به فله من الرحمة والخير والسعادة والفلاح بحسب ذلك.

ووصفه بأنه «نور»، وذلك لبيانه وتوضيحه العلوم النافعة، والمعاني الكاملة، وأن به يخرج العبد من جميع الظلمات: ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والشقاء، إلى نور العلم واليقين والإيمان والطاعة والرشاد المتنوع.

ووصفه بأنه «شِفاء لما في الصدور»، وذلك يشمل جميع أمراض القلوب. فهو يوضح أمراض القلوب ويشخصها، ويرشد العباد إلى كل وسيلة يحصل بها زوالها وشفاؤها. فيذكر لهم أمراض الجهل والشكوك والحيرة وأسباب ذلك، ويرشدهم إلى قلعها بالعلوم النافعة واليقين الصادق، وسلوك الطرق الصحيحة المزيلة لهذه العلل. ويذكر لهم أمراض الشهوات والغي، ويبين لهم أسبابها وعلاماتها وآثارها الضارة. ويذكر لهم ما به تعالج من المواعظ والتذكر والترغيب والترهيب، والمقابلة بين الأمور وترجيح ما ترجحت مصلحته العاجلة والآجلة.

ووصفه بأنه «كله محكم»، وكله متشابه في الحسن، وبعضه متشابه من وجه، محكم من وجه آخر. فأما وصفه في عدة آيات أنه كله محكم، فلبلاغته وبيانه التام واشتماله على غاية الحكمة في تنزيل الأمور منازلها، ووضعها مواضعها، وأنه متفق غير مختلف، ليس فيه اختلاف ولا تناقض بوجه من الوجوه.

وأما «حسنه» فلما فيه من البيان التام لجميع الحقائق، ولأنه بين أحسن المعاني النافعة في العقائد والأخلاق والآداب والأعمال، فهي في غاية الحسن لفظاً ومعنى، وآثارها أحسن الآثار.

وكل هذه المعاني المثناة في القرآن يشهد بعضها لبعض في الحسن والكمال، ويصدق بعضها بعضاً.

وأما وصفه بأن ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [سورة آل

عمران: ٧]، فالمتشابهات هي التي يقع الإشكال في دلالتها لسبب من الأسباب اللفظية والعبارات المركبة، فأمر الله بردها إلى المحكمات الواضحة بينة المعاني التي هي نص في المراد. فإذا ردت المتشابهات إلى المحكمات صارت كلها محكمات، وزال الشك والإشكال؛ وحصل البيان للهدى من الضلال.

ووصفه بأنه كله صلاح ويهدي إلى الاصلاح، وإلى أقوم الأمور وأرشدها وأنفعها في كل شيء من دون استثناء، وهذا الوصف المحيط لا يخرج عنه شيء، فهو إصلاح للعقائد والقلوب، وللأخلاق والأعمال، ويهدي إلى كل صلاح ديني ودنيوي بحيث تقوم به الأمور، وتعتدل به الأحوال، ويحصل به الكمال المتنوع من كل وجه بالإرشاد إلى كل وسيلة نافعة تؤدي إلى المقاصد والغايات المطلوبة، فلا سبيل إلى الهداية والصلاح لجميع الأمور إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها القرآن، وحث العباد عليها.

فمتى عرفت أن القرآن العظيم موصوف كله بهذه الأوصاف وأكملها وأتمها وأنفعها للعباد، وأنه أعيدت فيه هذه المعاني الجليلة ومزجت فيه مزجاً عجيباً غريباً في كماله وحسنه، فهمت أن طالب العلم إذا وقف على تفسير بعض الآيات تدرب بها وتوسل بها إلى معرفة بقية الآيات.

[فوائد قرآنية (ص ٧ـ ١٠)]

* * *

المبحث الخامس

فصل في ذكر أمور ربطت بأسبابها

قال رحمه الله:

جعل الله الاستعداد للأعداء بكل مستطاع من القوة، وأخذ الحذر منهم سبباً لحصول النصر والسلامة من شرورهم، شاهده قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [سورة النساء: ٧١] وقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠].

وجعل الله اليسر يتبع العسر، والفرج عند اشتداد الكرب، شاهده قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [سورة الشرح: ٦] ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [سورة الطلاق: ٧] ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [سورة النمل: ٦٢].

وجعل الله الشكر سبباً للمزيد منها ومن غيرها، وكفران النعم سبباً لزوالها، شاهده قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٧].

وجعل الله الصبر والتقوى سبباً للعواقب الحميدة والمنازل الرفيعة؛ شاهده قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨] ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ٩٠].

وجعل الله الجهاد سبباً للنصر وحصول الأغراض المطلوبة من الأعداء والوقاية من شرورهم، شاهده قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: ١٤]. ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سورة النساء: ٨٤].

وجعل الله لمحبته، التي هي أعلى ما ناله العباد، أسباباً، أهمها وأعظمها

متابعة رسوله محمد ﷺ في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ٣١] ومن أسبابها ما ذكره بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦]، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٥]، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٤]، ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف: ٤].

وجعل الله النظر إلى النعم والفضل الذي أعطيه العبد وغض النظر مما لم يعطه سبباً للقناعة، شاهده قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٤].

وجعل الله القيام بالعدل في الأمور كلها سبباً لصلاح الأحوال، وضده سبباً لفسادها واختلافها، شاهده قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [سورة الرحمٰن: ٧-٩].

وجعل الله كمال إخلاص العبد لربه سبباً يدفع به عنه المعاصي وأسبابها وأنواع الفتن، شاهده قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة يوسف: ٢٤].

وجعل الله قوة التوكل عليه مع الإيمان حصناً حصيناً يمنع العبد من تسلط الشيطان؛ خصوصاً إذا انضم إلى ذلك الإكثار من ذكر الله والاستعاذة بالله من الشيطان، شاهده قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ [سورة النحل: ٩٩] وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [سورة الفلق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [سورة الناس: ١] إلى آخرهما.

وجعل الله مفتاح الإيمان واليقين التفكر في آيات الله المتلوة وآياته المشهودة والمقابلة بين الحق والباطل بحسن فهم وقوة بصيرة، شاهده قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [سورة ص: ٢٩]، والأمر بالتفكر بالمخلوقات في عدة آيات، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾ [سورة الحجر: ٧٧] فهي سبب للإيمان، والإيمان موجب للانتفاع بها.

وجعل الله القيام بأمور الدين سبباً لتيسير الأمور، وعدم القيام بها سبباً للتعسير، شاهده قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [سورة الليل: ٥-١٠].

وجعل الله العلم النافع سبباً للرفعة في الدنيا والآخرة، شاهده قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [سورة المجادلة: ١١].

وجعل الله كون العبد طيباً في عقيدته وخلقه وعمله سبباً لدخول الجنة وللبشارة عند الموت، شاهده قوله تعالى: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [سورة الزمر: ٧٣] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [سورة النحل: ٣٢].

وجعل الله مقابلة المسيء بالإحسان، وحسن الخلق سبباً يكون به العدو صديقاً، وتتمكن فيه صداقة الصديق، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ [سورة فصلت: ٣٤]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩] وبذلك تحصل الراحة للعبد وتتيسر له كثير من أحواله.

وجعل الله الإنفاق في محله سبباً للخلف العاجل والثواب الآجل، شاهده قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سورة سبأ: ١٣٥].

وجعل الله لرزقه أبواباً وأسباباً متنوعة، فمتى انغلق عن العبد باب منها فلا يحزن، فإن الله يفتح له غيره، وقد يكون أقوى منه وأحسن، وقد يكون مثله ودونه، شاهده قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ﴾ [سورة النساء: ١٣٥]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ الآية [سورة التوبة: ٢٨].

وجعل الله التحرز والبعد عن الموبقات المهلكة والحذر من وسائلها طريقاً سهلاً هيناً لتركها، شاهده قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي محارمه ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة: ١٨٧] أي لا تفعلوها ولا تحوموا حولها فمن رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وإذا قيل مثل هذه الآية: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة: ١٨٧] كان المراد بالحدود المحارم، وأما إذا قيل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩] فهذه الحدود التي حددها الله للمباحات فعلى العبد أن لا يتجاوزها، لأنه إذا تجاوز المباح وقع في المحرم، فافهم الفرق بين الأمرين.

وجعل الله السبب الوحيد القوي المثمر للثمرات الجليلة للدعوة إلى سبيله هو ما تضمنته هذه الآية: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]، فالحكمة وضع الدعوة في موضعها، ودعاية كل أحد بحسب ما يليق بحاله ويناسبه ويكون أقرب لحصول المقصود منه. والموعظة الحسنة البالغة في الحسن مبلغاً، يصير لها من التأثير وسرعة الانقياد ما يناسب مقتضى الحال، فالموعظة بيان الأحكام مع ذكر ما يقترن بها من الترغيب في ذكر مصالحها ومنافعها وخيراتها الحاملة عليها، وذكر ما يقترن بها من الترهيب على فاعل المحرمات أو تارك الواجبات من العقوبات والخسران والحسرات وحرمان الخير العاجل والآجل.

والمجادلة بالتي هي أحسن، بالعبارات الواضحة والبراهين البينة التي تحقق الحق وتبطل الباطل، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشاتمة.

وقد علم الله مع ذلك أن الناس ثلاثة أقسام؛ كل يدعى الطريق التي تناسبه.

القسم الأول: المنقادون الملتزمون الراغبون في الخير، الراهبون من الشر، فهؤلاء لما عندهم من الاستعداد لفعل المأمورات وترك المنهيات والاشتياق إلى الاعتقاد الصحيح، فقط يكتفي ببيان الأمور الدينية لهم والتعليم المحض.

والقسم الثاني: الذين عندهم غفلة وإعراض واشتغال بأمور صادة عن الحق، فهؤلاء مع هذا التعليم يدعون بالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، لأن النفوس لا تلتفت إلى منافعها، ولا تترك أغراضها الصادة لها عن الحق علماً وعملاً إلا مع البيان لها أن ترغب وترهب بذكر ما يترتب على الحق من المنافع وعلى الباطل من المضار، والموازنة بين الأمور النافعة والضارة.

والقسم الثالث: المعارضون أو المعاندون المكابرون المتصدون لمقاومة الحق ونصرة الباطل، فهؤلاء لا بد أن يسلك معهم طريق المجادلة بالتي هي أحسن بحسب ما يليق بالمجادل والمجادَل وبتلك المقالة وما يقترن بها، وإذا أردت تطبيق هذه الأمور الثلاثة تماماً فانظر إلى دعوات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم التي حكاها الله في كتابه مع أممهم المستجيبين، والمعرضين والمعارضين، تجدها محتويه على غاية الحسن في كل أحوالها.

ثم انظر إلى دعوة سيدهم وإمامهم محمد ﷺ وما سلك من الطرق المتنوعة في دعاية الخلق عموماً وخصوصاً على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وبحسب أحوالهم، وبحسب الأقوال والأحكام التي يدعو إليها، تجده قد فاق في ذلك الأولين والآخرين، والآثار أكبر دليل على قوة المؤثر.

وجعل الله السبب لفصل الخصام المرضي للمتشاجرين المنصفين في جميع المقالات، الذي هو خير في الحال وأحسن في المآل؛ ردها إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ شاهده قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [سورة النساء: ٥٩]. وجعل الله صلة ما أمر به أن يوصل من البر وصلة الأرحام والقيام بحق من له حق عليك سبباً تنال به مكارم الأخلاق ويتبوأ به المنازل العالية في جنات النعيم، شاهده قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ إلى ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ [سورة الرعد: ٢١-٢٣].

وجعل الله السوابق الحميدة للعبد وتعرفه لربه في حال الرخاء سبباً للنجاة من الشدائد وحصول أعظم الفوائد، شاهده قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ

ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة الصافات: ١٤٣-١٤٤] وقول أهل الجنة فيها ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾. [سورة الطور: ٢٦-٢٨]

وجعل الله لشرح الصدر ونعيمه وطمأنينته أسباباً متعددة: اليقين والإيمان والإكثار من ذكر الله وقوة الإنابة إليه، والقناعة بما أعطى من الرزق، وحصول العلم النافع، وترك الذنوب والمبادرة بالتوبة مما وقع منها، وشواهد هذا كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الرعد: ٢٨]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [سورة الزمر: ٢٢]، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة المطففين: ١٣] وشمول هذا النعيم لنعيم القلوب في الدنيا ظاهر. ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل: ٩٧] ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة المطففين: ١٤-١٥].

وجعل الله ضرب الأمثال في كتابه طريقاً عظيماً من طرق التعليم الذي تتبين وتتوضح به المطالب العالية والعقائد الصحيحة والفاسدة، كما مثل كلمة التوحيد والعقيدة الحقة الصحيحة﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤] في قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا﴾ من الأعمال والأخلاق ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾ أي منافعها ﴿كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤-٢٥]. ومثل ضد ذلك بالشجرة الخبيثة التي لا لها أصل ثابت ولا فرع نافع. ومثل المشرك بربه كالعبد الذي يتنازعه شركاء متشاكسون، والموحد المخلص لله السالم من تعلقه بغيره.

وكذلك مثّل الشرك والمشرك واتخاذه ولياً من دون الله يتعزز به وينتصر ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ﴾ [سورة العنكبوت: ٤١] ومثّل وحيه بمنزلة الغيث النافع، وقلوب الخلق بمنزلة الأراضي

الطيبة القابلة. والخبيثة، وبين ذلك، وهي أمثلة محسوسة يوضح الله بها المطالب النافعة. وهو يقسم تعالى على أصول الدين التي يجب على الخلق الإيمان بها: كالتوحيد والرسالة والمعاد وما يتفرع عنها، وضرب الأمثال من تصريف الله الآيات لعباده بأعلى أساليب الكلام المؤثرة الموضحة للحقائق، فتأمل إقسامات القرآن تجدها كذلك، ولذلك حث الله عليها ومدح من يتفكر فيها ويعقلها، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الحشر: ٢١] وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣].

[فوائد قرآنية (ص ٨٢ ـ ٩٠)]

المبحث السادس

مختارات من القواعد الحسان لتفسير القرآن

قال رحمه الله:

قاعـدة

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: ٩].

ما أعظم هذه القاعدة والأصل العظيم الذي نص عليه نصّاً صريحاً وعمم ذلك ولم يقيده بحالة من الأحوال، فكل حال هي أقوم في العقائد والأخلاق والأعمال والسياسات الكبار والصغار والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية فإن القرآن يهدي لها ويرشد إليها ويأمر بها ويحث عليها، ومعنى «أقوم» أي أكمل وأصلح وأعظم قياماً وإصلاحاً، فأما العقائد فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها إصلاح القلوب وغذاؤها وكمالها فإنها تملأ القلوب محبة لله وتعظيماً له وألوهية وإنابة، وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلق لأجله، وأما أخلاقه التي يدعو إليها فإنه يدعو إلى التحلي بكل خلق جميل من الصبر والحلم والعفو وحسن الخلق والآداب وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق ويرشد إليها بكل وسيلة، وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله وحقوق العباد على أكمل الحالات وأجلها وأسهلها وأوصلها إلى المقاصد، وأما السياسات الدينية والدنيوية فهو يرشد إلى سلوك الطرق النافعة في تحصيل المصالح الكلية وفي دفع المفاسد ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال حتى في سياسة العبد مع أولاده وأهله وخادمه وأصحابه

ومعامليه، فلا يمكن أنه وجد ويوجد حالة يتفق العقلاء أنها أقوم من غيرها وأصلح إلا والقرآن يرشد إليها نصّاً أو ظاهراً أو دخولاً تحت قاعدة من قواعده الكلية، وتفصيل هذه القاعدة لا يمكن استيفاؤه بالجملة، فالتفاصيل الواردة في القرآن وفي السنة من الأوامر والنواهي والإخبارات كلها تفصل لهذا الأصل المحيط وبهذا وغيره يتبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنى نافع أو طريق صلاح ينافي القرآن، والله تعالى ولي الإحسان.

* * *

قاعـدة

القرآن كله محكم باعتبار وكله متشابه باعتبار وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث

وقد وصفه الله تعالى بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاث فوصفه بأنه محكم في عدة آيات وأنه ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [سورة هود: ١]. ومعنى ذلك أنه في غاية الإحكام ونهاية الانتظام فأخباره كلها حق وصدق لا تناقض فيها ولا اختلاف، وأوامره كلها خير وبركة وصلاح ونواهيه متعلقة بالشرور والأضرار والأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة، فهذا إحكامه ووصفه بأنه متشابه في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا﴾ [سورة الزمر: ٢٣]. أي متشابهاً في الحسن والصدق والحق وروده بالمعاني النافعة المزكية للعقول، المطهرة للقلوب، المصلحة للأحوال، فألفاظه أحسن الألفاظ ومعانيه أحسن المعاني ووصفه بأنه ﴿مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ [سورة آل عمران: ٧]. فهنا وصفه بأن بعضه هكذا وبعضه هكذا وإن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلى المحكم فيصير كله محكماً ويقولون ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [سورة آل عمران: ٧]. أي ما كان من عنده فلا تناقض فيه فما اشتبه منه في موضع فسره الموضع الآخر المحكم فحصل العلم وزال الإشكال، ولهذا النوع أمثلة منها ما تقدم من الإخبار بأنه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فإذا اشتبهت

على من ظن به خلاف الحكمة، وإن هدايته وإضلاله يكون جزافاً لغير سبب وضحت هذا الإطلاق الآيات الأخر الدالة على أن هدايته لها أسباب يفعلها العبد ويتصف بها مثله قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [سورة المائدة: ١٦]. وأن إضلاله لعبده له أسباب في العبد، وهو توليه للشيطان ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: ٣٠] ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [سورة الصف: ٥]. وإذا اشتبهت على الجبري الذي يرى أن أفعال العباد مجبورون عليها بينتها الآيات الأخر الكثيرة الدالة على أن الله لم يجبر العباد وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة، كما أن هذه الآيات التي أضاف الله فيها الأعمال إلى العباد حسنها وسيئها إذا اشتبهت على القدرية النفاة وظنوا أنها منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأن الله ما شاءها منهم ولا قدرها تليت عليه الآيات الكثيرة الصريحة الدالة على تناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان والأعمال والأوصاف وأن الله خالق كل شيء، ومن ذلك أعمال العباد وأن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين، وقيل للطائفتين أن الآيات والنصوص كلها حق ويجب على كل مسلم تصديقها والإيمان بها كلها وأنها لا تتنافى فهي واقعة منهم وبقدرتهم وإرادتهم، وما أجمل في بعض الآيات فسرته آيات أخر، وما لم يتوضح في موضع، توضح في موضع آخر وما كان معروفاً بين الناس وورد فيه القرآن أمراً ونهياً كالصلاة والزكاة والزنا والظلم ولم يفصله فليس مجملاً لأنه أرشدهم إلى ما كانوا يعرفون وأحالهم على ما كانوا به ملتبسين فليس فيه إشكال، والله أعلم.

قاعدة

القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد

هذه قاعدة جليلة المقدار، عظيمة النفع، فإن الله أمر عباده بالمعروف وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً وعرفاً ونهاهم عن المنكر ووصفهم بذلك فما

كان من المعروف لا يتغير في الأحوال والأوقات كالصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها من الشرائع الراتبة، فإنه أمر به في كل وقت والواجب على الآخرين نظير الواجب على الأولين من هذه الأمة وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات كالشرك والقتل بغير حق والزنا وشرب الخمر ونحوها ثبتت في كل زمان ومكان لا تتغير ولا يختلف حكمها، وما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة والأحوال هو المراد هنا، فإن الله تعالى يردهم فيه إلى العرف والعادة والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت وذلك أنه أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال ولم يعين لعباده شيئاً مخصوصاً من الإحسان والبر ليعم كلما تجدد من الأوصاف والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر وفي حق شخص دون حق الشخص الآخر، فالواجب الذي أوجبه الله النظر في الإحسان المعروف في وقتك ومكانك في حق والديك ومثل ذلك ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب ونحوهم، فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحساناً وكذلك ضده من العقوق والإساءة ينظر فيه إلى العرف وكذلك قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: ١٩] ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٨].

فرد الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما على الآخر على المعروف المعتاد عند الناس في قطرك وبلدك وحالك وذلك يختلف اختلافاً عظيماً لا يمكن إحصاؤه عدّاً، فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة وهذا من آيات القرآن وبراهين صدقه وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [سورة الأعراف: ٣١] ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [سورة الأعراف: ٢٦] فأمر عباده بالأكل والشرب واللباس ولم يعين شيئاً من الطعام والشراب واللباس وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال، فيتعلق بها أمره حيث كانت لا ينظر إلى ما كان موجوداً فيها وقت نزول القرآن فقط وكذلك قوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠] ومن المعلوم أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن غير نوع القوة الموجودة

بعد ذلك، فهذا النص يتناول كل مستطاع من القوة في كل وقت بما يناسب ويليق به وكذلك لما قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [سورة النساء: ٢٩]. لم يعين لنا نوعاً من التجارة ولا جنساً ولم يحدد لنا ألفاظاً يحصل بها الرضى، وهذا يدل على أن الله أباح كلما عد تجارة ما لم ينه عنه الشارع، وأن كلما حصل به الرضى من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقق الرضى من قول أو فعل انعقدت به المعارضات والتبرعات، وكم في القرآن من هذا النوع شيء كثير.

قاعدة

في مقاصد أمثلة القرآن

اعلم أن القرآن الكريم احتوى على أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه، فمن أنواع تعاليمه العالية ضرب الأمثال وهذا النوع يذكره الباري في الأمور المهمة كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله والأعمال العامة الجليلة ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة ولتمثيلها بالأمور المحسوسة ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي عين وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه فقد مثل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء وقلوب الناس بالأراضي والأدوية وأن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأراضي، فمنها أراض طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير، فمثلاً القلوب الفاهمة التي تفهم عن الله ورسوله وحيه وكلامه وتعقله وتعمل به علماً وتعليماً بحسب حالها كالأراضي بحسب حالها ومنها أراضي تمسك الماء ولا تنبت الكلأ فينتفع الناس بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأراضيهم كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة وتلقيه إلى الأمة ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة بمعانيه ما عند الأولين وهؤلاء على خير

ولكنهم دون أولئك، ومنها أراض لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي لا علماً ولا حفظاً ولا عملاً ومناسبة الأراضي للقلوب كما ترى في غاية الظهور، وأما مناسبة تشبيه الوحي بالغيث فكذلك لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية، وكذلك مثل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فكذلك شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها معرفة وتصديقاً وإيماناً وإرادة لموجبها وتؤتي أكلها وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية والأعمال الصالحة والهدي المستقيم، ونفع صاحبها وانتفاع الناس به وهي صاعدة إلى السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه ومثل الشرك والمشرك بأن من اتخذ مع الله إلهاً يتعزز به ويزعم منه النفع ووقع الضرر في ضعفه ووهنه كالعنكبوت اتخذت بيتاً وهو أوهن البيوت وأوهاها، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفاً إلى ضعفها، كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه وليّاً ولا نصيراً من دون الله إلا ضعفاً، لأن قلبه انقطع عن الله ومن انقطع قلبه عن الله حله الضعف من كل وجه، وتعلقه بالمخلوق زاده وهناً إلى وهن، فإنه اتكل عليه وظن منه حصول المنافع فخاب ظنه وانقطع أمله. وأما المؤمن فإنه قوي بالله بقوة إيمانه وتوحيده وتعلقه بالله وحده الذي بيده الأمر والنفع ورفع الضرر وهو متصرف في أحواله كلها كالعبد الذي على صراط مستقيم في أقواله وأفعاله منطلق الإرادة حر عن رق المخلوقين غير مقيد لهم بوجه من الوجوه بخلاف المشرك، فإنه العبد الأصم الأبكم الذي هو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير لأن قلبه متقيد للمخلوقين مشرق لهم ليس له انطلاق وتصرف في الخير، فمثله أيضاً كالذي خر من السماء فتخطفته الطيور ومزقته كل ممزق، وهؤلاء الذين زعموا أنهم آلهة ينفعون ويدعون لو اجتمعوا كلهم على خلق أضعف المخلوقات وهو الذباب لم يقدروا باجتماعهم على خلقه، فكيف ببعضهم؟

فكيف فرد من مئات الألوف منهم؟

وأبلغ من ذلك أن الذباب لو يسلبهم شيئاً لم يقدروا على استخلاصه منه ورده، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟

وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك شيء. وهو مع هذا الغرور وهذا الوهن والضعف منقسم قلبه بين آلهة كالعبد الذي بين الشركاء المتشاكسين لا يتمكن من إرضاء أحدهم دون الآخر، فهو معهم في شر دائم وشقاء متراكم، فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لربأ بنفسه عما هو عليه ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعدما أضاع دينه. وأما الموحد فإنه خالص لربه لا يعبد إلا هو ولا يرجو ويخشى إلا هو، وقد اطمأن قلبه واستراح وعلم أنه على الدين الحق وأن عاقبته أحمد العواقب ومآله الخير والفلاح والسعادة الأبدية فهو في حياة طيبة ويطمح في حياة أطيب منها، ومثل الله الأعمال بالبساتين فذكر العمل الكامل الخالص له الذي لم يعرض له ما يفسده كبستان في أحسن المواضع وأعلاها تنتابه الرياح النافعة وقد ضحى وبرز للشمس وفي خلاله الأنهار الجارية المتدفقة فإن لم تكن غزيرة فإنها كافية له كالطل الذي ينزل من السماء، ومع ذلك فأرضه أطيب الأراضي وأزكاها، فمع توفر هذه الشروط لا تسأل عما هو عليه من زهاء الأشجار، وطيب الظلال، ووفرة الثمار، فصاحبه في نعيم ورغد متواصل وهو آمن عن انقطاعه وتلفه فإن كان هذا البستان لإنسان قد كبر وضعف عن العمل وعنده عائلة ضعاف لا مساعدة منهم ولا كفاءة. وقد اغتبط به حيث كان مادته ومادة عائلته، ثم أنه جاءته آفة وإعصاراً أحرقه وأتلفه عن آخره، فكيف تكون حسرة هذا المغرور وكيف تكون مصيبته، وهذا هو الذي جاء بسعة العمل بما يبطل عمله الصالح من الشرك والنفاق أو المعاصي المحرقة فيا ويحه بعدما كان بستانه زاكياً زهياً أصبح تالفاً قد أيس من عوده وبقي بحسرته مع عائلته فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها، فقد ذكر الله صفة بستان من ثبته الله على الإيمان والعمل وبستان من أبطل عمله بما ينافيه ويضاده ويؤخذ من ذلك أن الذي لم يوفق للإيمان ولا للعمل أصلاً أنه ليس له بستان أصلاً ووجه تشبيه الأعمال بالبساتين أن البساتين تمدها المياه وطيب المحل وحسن الموقع، فكذلك الأعمال يمدها الوحي النازل لحياة القلوب الطيبة، وقد جمع العامل جميع شروط قبول العمل من الاجتهاد والإخلاص والمتابعة، فأثمر عمله كل زوج بهيج، وقد مثّل الله عمل

الكافر بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماءً فيأتيه وقد اشتد به الظمأ وأنهكه الإعياء، فيجده سراباً، ومثّله بالرماد الذي أحرق فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية وهذا مناسب لحاله وبطلان عمله، فإن كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة وعمله بمنزلة الرماد والسراب الذي لا حقيقة له، وهو ما كان يعتقده فيفعله فإذا وصله ولم يجده شيئاً تقطعت نفسه حسرات، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، كما مثّل نفقات المخلصين بذلك البستان الزكي الزاهي، ومثل نفقات المرائين بحجر أملس عليه شيء من تراب فأصابه مطر شديد تركه صلداً لا شيء عليه، لأن قلب المرائي لا إيمان فيه ولا إخلاص بل هو قاس كالحجر فنفقته حيث لم تصدر عن إيمان بل رياء وسمعة لم تؤثر في قلبه حياة ولا زكاة كهذا المطر الذي لم يؤثر في هذا الحجر الأملس شيئاً، وهذه الأمثال إذا طبقت على ممثلاتها وضحتها وبينتها وبينت مراتبها من الخير والشر والكمال والنقصان، ومثّل الله حال المنافقين بحال من هو في ظلمة فاستوقد ناراً من غيره ثم لما أضاءت ما حوله وتبين له الطريق ذهب نورهم وانطفأ ضوؤهم فبقوا في ظلمة عظيمة أعظم من الظلمة التي كانوا عليها أولاً، وهكذا المنافق استنار بنور الإيمان فلما تبين له الهدى غلبت عليه الشقوة واستولت عليه الحيرة فذهب عنه نوره أحوج ما هو إليه، وبقي في ظلمة متحيراً، فهم لا يرجعون، لأن سنة الله في عباده أن من بان له الهدى واتضح له الحق ثم رجع عنه أنه لا يوفقه بعد ذلك للهداية لأنه رأى الحق فتركه وعرف الضلال فاتبعه وهذا المثل ينطبق على المنافقين الذين تبصروا وعرفوا ثم غلبت عليهم الأغراض الضارة فتركوا الإيمان.

والمثال الثاني وهو قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة البقرة: ١٩]. ينطبق على المنافقين الضالين المتحيرين الذين يسمعون القرآن ولم يعرفوا المراد منه وأعرضوا عنه وكرهوا سماعه اتباعاً لرؤسائهم وسادتهم، ومثّل الله الحياة الدنيا وزهرتها والاغترار بها بحالة زهرة الربيع تعجب الناظرين، وتغر الجاهلين، ويظنون بقاءها ولا يؤملون زوالها فلهو بها عما خلقوا له فأصبحت

عنهم زائلة، وأضحوا بعد الاخضرار هشيماً، وبعد الحياة يبساً رميماً، وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البر والفاجر، ولكن سكر الشهوات وضعف داعي الإيمان اقتضى إيثار العاجل على الآجل.

المبحث السابع

فوائد من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

[سورة الحجر: ٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [سورة الحجر: ٩]. اشتملت على فوائد عديدة:

الأولى والثانية: أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنّ الله تعالى عليٌّ على خلقه. وهذا مأخوذ من قوله ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ فإنه نزل به جبريل من الله العزيز العليم، فكونه نازلاً من عند الله يدل على علو الله، وكونه أيضاً من عنده يدل على أنّه كلام الله، فإنّ الكلام صفة للمتكلم ونعت من نعوته.

الثالثة: عظمة القرآن ورفعة قدره وعلو شأنه. حيث أخبر تعالى في هذه الآية بما أخبر أنه الذي تولى إنزاله وحفظه ولم يَكِل ذلك إلى أحد من خلقه.

الرابعة: أنّ القرآن مشتمل على كل ما يحتاج العباد إليه من أمور الدنيا وأمور الدين ومن الأحوال الظاهرة والباطنة. فإن معنى **الذكر:** أنه متضمن لتذكير العباد وتنبيههم لكل ما يحتاجون إليه وتتعلق به منافعهم ومصالحهم والأمرُ كذلك فإنه مشتمل على أمور الدين والدنيا ومصالحهما على أكمل وجه وأشمله بحيث لو تَذَكَّر الخلق بتذكيره ومشوا على إرشاده لاستقامت لهم الأمور ولاندفعت عنهم الشرور. ولهذا أكثر الله في القرآن من حثِّ العباد على الاهتداء به في كل شيء والتَفَكُّر والتَّدَبُّر لمعانيه النافعة. ويترتب على هذا المعنى:

الفائدة الخامسة: وهي أنّ من قام بالقرآن وتذكر به كان رفعةً له وشرفاً وفخراً وحُسْنَ ذكرٍ وثناء. وبهذا أُوِّلَ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [سورة الزخرف: ٤٤] أي شرف ورفعة لمن تذكر به واستقام عليه.

السادسة: أنّ التذكير بغيره غير مفيد ولا مُجدٍ على صاحبه نفعاً لأنه إذا ثبت وتقرر أنه مادة التذكير لجميع المنافع عُلِم أنّ ما ناقضه وخالفه فهو بضد هذا الوصف. ولهذا أتى بالألف واللام المفيدة للاستغراق والعموم.

السابعة: أنه أتى بما يوافق العقل الصحيح والفِطَرِ المستقيمة فليس فيه شيء مخالف ولا مناقض للمحسوس ولا معاكس للقياس الصحيح ولا مضاد للعدل والقسط والميزان والحق، لأن الله سماه ذكراً، والذكر هو الذي يُذَكِّر العباد ما تقرر من فطرهم السليمة وعقولهم الصحيحة من الحق والحض على الخير والنهي عن الشر، فهو مُذكِّرٌ لهم ما عرفوه مجملاً ولم يهتدوا إلى كثير من تفاصيله. فبه تزداد العقول وتتفتق الأذهان وتزكو الفطر، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا المعنى كتاب «موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح».

الثامنة والتاسعة: أنّ الله تكفل بحفظه حال إنزاله فلا يمكن أن يقربه شيطان فَيُغَيِّره ويزيد فيه وينقص، أو يختلط بغيره؛ بل نزل به القوي الأمين جبريل على قلب الرسول محمد ﷺ القلب الزكي الذكي الذي هو أكمل قلوب الخلق على الإطلاق وضَمِنَ لرسوله قرآنه وبيانه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [سورة القيامة: ١٨ـ ١٩].

العاشرة: وتكفّل الله أيضاً بحفظه بعدما نزل وتقرر، فأكمله الله تعالى وأكمل به على عباده النعمة، واستحفظه لهذه الأمة على اختلاف طبقات علمائها وأئمتها، ووكّلهم به وأتمنهم عليه. فكل قرن حمل عدو له وأزكياؤه الذين ضمن الله لهم العصمة عند اتفاقهم. ألفاظه ومعانيه غضة طرية لا تغيير فيها ولا تبديل، وكل من أراد إدخال شيء فيه أو إخراج شيء منه قَيَّضَ الله من يذب عنه ويحفظه وهذا من حفظه، ويؤيد هذا الفائدة العاشرة أنَّ هذا من أدِلة صدقه وصدق ما اشتمل عليه وصدق من جاء به وهو محمد ﷺ فإنه تعالى خَبَّرَ بأنَّه أنزَلَه وأنَّه حافظ له فوقع كما أخبر الله تعالى، فصار هذا آيةً وبرهاناً على صدقه وصحة ما جاء به كما يشهد بذلك الواقع.

[المواهب الربانية: (ص ٥٢ـ ٥٤)]

الفصل الرابع

خطبة لشيخنا السعدي
في الحث على تدبر القرآن

خطبة

في الحث على تدبر القرآن

الحمدُ لله الذي قالَ لنَبيّه المصطفى، منوهاً بعظمةِ القرآنِ وما فيهِ من الرَّحمةِ والنُّورِ والهُدى.

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [سورة طه: ١ ـ ٨].

وأشهدُ أنَّ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ الملكُ المولى. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ المختارُ منَ الخليقَةِ المجتبى. اللهمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّدٍ وعَلَى آلهِ وأصحابِهِ البرَرَة الأخيار النجباء.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا الله تعالى بمراعاة العلم وتحقيقِ التُّقى، وتدبَّرُوا هذا الكتابَ العزيزَ فإنَّهُ مباركٌ فيهِ الرحمةُ والشِّفا، فهوَ الهُدى الَّذي يهدِي منَ الضَّلالةِ، وينيرُ الحقائقَ الصحيحةَ في ظُلمِ الجهالةِ، يهدي إلى معرفةِ اللهِ بأسمائِهِ وصفاتِه وأفعالِهِ، ويُبَيِّنُ الطريقَ الموصِلَ إلى فضلِهِ وأفضالِهِ، ويوضحُ الأحكام كلَّها في العباداتِ والمعاملاتِ، ويبيِّنُ الحقوق في جميعِ التعلُّقاتِ، وهو الشِّفاءُ منَ الأمراضِ البَدَنيَّةِ والقلبيَّةِ، وبهِ العصمةُ والنجاءُ في الأمورِ الدِّينيَّةِ والدنيويةِ، وهوَ المزيلُ لأمراضِ الشُّبهات وأمراضِ الشَّهواتِ، بما فيه من البراهين القاطِعَةِ والمواعِظِ المؤثِّرة والتَّذكيرات، وهوَ الموصِلُ إلى المَعارِفِ الجليلة والعلم واليقين، الكاشِفِ للحقائقِ كلِّها بالتوضيح الكاملِ والبراهينِ، فيه نبأ الأوَّلينَ والآخرينَ، وفيهِ الحكمُ العادلُ بين الخلقِ أجمعينَ، وفيه منْ دلائلِ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ والمعَادِ ما تطمَئِنُّ بهِ القلوب، وفيهِ التفاصيلُ العظيمةُ النافعةُ الموصلةُ إلى كل مطلوب، كتابٌ عظيمٌ هيمَنَ على الكُتُب السابقةِ حتَّى أحاطَ

بها وحواها، وحكَمَ بالحقِّ في كلِّ ما تنازَعتْ فيهِ الأممُ أولاها وأُخراها، أعيا ببلاغَتِهِ وحسنِ نظمه جميعَ البُلغاء، وحيَّر بحسْنِ أسلوبه وما كَشفَهُ منْ غيوبهِ أفئدةَ العقلاء، وأصلحَ بهدايتِهِ العقائدَ والأخلاقَ والأعمالَ، وهدَى للَّتي هيَ أقومُ وأصلحُ وأنفَعُ، في كلِّ الأحوالِ.

كتابٌ حَفِظهُ الله من التَّغيير والتَّبديلِ والزيادَةِ والنقصانِ، لا يأتيهِ الباطلُ من بين يديه ولا منْ خَلْفِهِ تنزيلٌ من حميدٍ رحيم رحمانٍ، منْ قالَ بهِ صَدقَ، ومنْ عملَ بهِ أُجرِ، ومنْ حكمَ بهِ عدَل، ومنْ دَعا إليْهِ فقَدْ هدى إلى صراطٍ مستقيمٍ.

اللَّهمَّ اجعَل القرآنَ العظيمَ لقلوبنا ضياءً، ولأسقامِنا دواءً، ولذنوبنا مُمحِّصاً، وعنِ النَّارِ مخلِّصاً، واجعلنَا منْ أهلِ القرآنِ الذينِ هُمْ أهلُكَ وخاصَّتُكَ يا ربَّ العالمين.

* * *

اللآلىء والدرر السعدية

الدعاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠ـ ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فلا ريب أن دعاء الله تعالى هو من خير ما أمضيت فيه الأوقات وصرفت فيه الأنفاس، ومن أفضل ما تقرب به العبد إلى ربه سبحانه وتعالى، وهو مفتاح لكل خير يناله العبد في الدنيا والآخرة فمتى أعطى الله العبد هذا المفتاح فقد

أراد أن يفتح له، ومتى أضله بقي باب الخير مرتجا دونه، فيبقى القلب مضطرب، والفؤاد مشوش، والفكر مشتت ويصبح كثير القلق ضعيف الهمة والإرادة تائه حيران لا يسكن له فؤاد ولا تطمئن له نفس، لأنه بعيد عن ربه ومولاه، أما إذا حافظ على دعاء الله تعالى والتجأ إلى ربه وتضرع إلى مولاه فعندها ينال ما أراد ويظفر مما طلب بإذنه سبحانه، فهو سبحانه القائل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وهو سبحانه القائل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

وقد قال رسوله ﷺ: **«إن ربكم حييٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردّهما صِفراً»** [صحيح سنن أبي داود رقم ١٤٧٤].

ومن هنا نعلم أن من ترك هذه العبادة العظيمة فقد ترك خيراً عظيماً وفوت على نفسه كنزاً كبيراً، فحري بكل عبد أن يلتجىء إلى الله تعالى، ويتضرع إليه سبحانه في السراء والرخاء وفي الشدة والضراء، وفي كل وقت، حتى ينال الرضى والسعادة في الدنيا والآخرة.

وفي هذه الرسالة كلمات نفيسة، وعبارات غالية كتبها وألقاها شيخ عزيز على قلوبنا، حبيب لأنفسنا، ألا وهو الشيخ الفاضل العلامة الأصولي شيخنا العزيز عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله رحمة واسعة وجعل الجنة مثواه، حول الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى، جمعتها من كتبه القيمة وأفردتها في رسالة صغيرة بحجمها، عظيمة بنفعها، يسهل تناولها، لينتفع بها الصغير والكبير، وأسميتها:

اللآلىء والدرر السعدية (الدعاء)

وقد أضفت إليها بعض كلام شيخنا الغالي سماحة الوالد الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه الفردوس الأعلى في الجنان ـ حول هذه العبادة العظيمة ألا وهي الدعاء.

هذا وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني عملي هذا وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه، وأن يغفر لشيخنا السعدي وعلمائنا ومشايخنا وجميع المسلمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

الآيات الدالة على الاخلاص لله تعالى في الدعاء والحث عليه وتفسير شيخنا السعدي لها

الآية الأولى:

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[1] [سورة الأعراف: ١٨٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه بأن له الأسماء الحسنى أي: له كل اسم حسن.. ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها ولذلك قال: **﴿فادعوه بها﴾**، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة فيدعى من كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عليّ يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: **﴿وذرو الذين يلحدون[2] في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾**

---

(١) قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى:
قوله: **﴿الحسنى﴾** مؤنثة أحسن فهي اسم تفضيل ومعنى الحسنى أي البالغة في الحسن أكمله.. فأسماء الله تعالى بالغة في الحسن أكمله من كل وجه ليس فيها نقص، لا فرضاً ولا احتمالاً.. قوله: **﴿فادعوه بها﴾**، الدعاء هو السؤال والدعاء قد يكون بلسان المقال مثل: اللهم اغفر لي يا غفور وهكذا. أو بلسان الحال وذلك بالتعبد له، ولهذا قال العلماء: إن الدعاء دعاء مسألة وعبادة لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله ويخاف عقابه. والأمر بدعاء الله بها يتضمن الأمر بمعرفتها لأنه لا يمكن دعاء الله بها إلاّ بعد معرفتها...
قوله: **﴿وذروا الذين يلحدون﴾**، ذروا: اتركوا.. والإلحاد هو الميل.. والإلحاد في أسماء الله الميل بها عما يجب فيها... والمعنى: ذروهم أي لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم فإنهم على ضلال وعدوان.. ثم توعدهم الله بقوله: **﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾**.. لم يقل سيجزون العقاب إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل...
[شرح كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾**]

(٢) الإلحاد في اللغة الميل، ويلحدون أي يميلون وينحرفون عن الحق.

أي عقوبة وعذاباً على إلحادهم من إسمائه وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له إما بأن يسمى بها من لا يستحقها كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها وأن يجعل لها معنى، ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها. فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «**أن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة**».

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٧٤)]

الآية الثانية:

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الأعراف: ٢٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**قل أمر ربي بالقسط**﴾ أي بالعدل في العبادات والمعاملات لا بالظلم والجور ﴿**وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد**﴾ أي توجهوا إلى الله واجتهدوا في تكميل العبادات خصوصاً «الصلاة» أقيموها ظاهراً وباطناً ونقوها من كل نقص ومفسد.

﴿**وادعوه مخلصين له الدين**﴾ أي قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له والدعاء يشتمل دعاء المسألة ودعاء العبادة أي لا تزيدوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه.

﴿**كما بدأكم**﴾ أول مرة ﴿**تعودون**﴾ للبعث فالقادر على بدء خلقكم، قادر على إعادته بل الإعادة أهون من البدء.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٠٤ـ ١٠٥)]

الآية الثالثة:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [سورة الجن: ١٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً﴾ أي: لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محالّ للعبادة مبنية على الإخلاص لله والخضوع لعظمته والاستكانة لعزته.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٢٠)]

الآية الرابعة:

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[1] [سورة غافر: ٦٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

هذا من لطفه (سبحانه) بعباده، ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
قال تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾، ولم يقل عن دعائي، فدل على أن الدعاء عبادة فمثلاً الرحيم يدل على الرحمة وحينئذ تتطلع إلى أسباب الرحمة وتفعلها، والغفور يدل على المغفرة وحينئذ تتعرض لمغفرة الله عز وجل بكثرة التوبة والاستغفار كذلك، وما أشبه ذلك.
والقريب: يقتضي أن تتعرض إلى القرب منه بالصلاة وغيرها وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.
والسميع: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى السمع بحيث لا تسمع الله قولاً يغضبه ولا يرضاه منك.
والبصير: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى ذلك البصر بحيث لا يرى منك فعلاً يكرهه منك.
الثاني: دعاء المسألة وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلاً بها إلى الله تعالى: مثلاً يا حي يا قيوم اغفر لي، وارحمني وقال ﷺ: «**فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**» [رواه البخاري ومسلم].
والإنسان إذا دعا فقد أثنى على ربه بهذا الاسم طالباً أن يكون سبباً للإجابة والتوسل بصفة المدعو المرغوبة له سبب للإجابة فالثناء على الله بأسمائه من أسباب الإجابة.
[شرح كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾]

صلاح دينهم ودنياهم وأمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم. وتوعد من استكبر عنها فقال: ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ أي: ذليلين حقيرين يجتمع عليهم العذاب والإهانة جزاء على استكبارهم.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٧٢)]

الآية الخامسة:

يقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الأعراف: ٥٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

لما ذكر سبحانه من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الألباب على أنه وحده المعبود المقصود من الحوائج كلها، أمر بما يترتب على ذلك فقال: ﴿**ادعو ربكم تضرعاً**﴾ إلى ﴿**من المحسنين**﴾.

الدعاء: يدخل فيه دعاء المسألة ودعاء العبادة. فأمر بدعائه ﴿**تضرعاً**﴾ أي إلحاحاً في المسألة، ودؤوباً في العبادة و﴿**خفية**﴾ أي لا جهر أو علانية يخاف منه الرياء بل خفية وإخلاصاً لله تعالى: ﴿**إنه لا يحب المعتدين**﴾ أي المتجاوزين للحد في كل الأمور. ومن الاعتداء: كون العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له أو ينقطع في السؤال أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١١٩)]

الآية السادسة:

يقول الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[1] [سورة النمل: ٦٢].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى: =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي هل يجيب المضطر الذي أقلقته الكروب وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص، مما هو فيه، إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء، أي: البلاء، والشر، والنقمة، إلا الله وحده؟.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٥١٥)]

الآية السابعة:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[1] [سورة البقرة: ١٨٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

هذا جواب سؤال. سأل النبي ﷺ بعض أصحابه، فقالوا: يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزل **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾**

= قوله: ﴿أمّن﴾ أم منقطعة.

قوله: ﴿المضطر﴾ أصلها المضتر أي الذي أصابه الضرر. قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، فلا يجيب المضطر إلاّ الله لكن قيده بقوله: ﴿إذا دعاه﴾، أما إذا لم يدعه فقد يكشف الله ضره وقد لا يكشفه.

وقوله: ﴿ويكشف السوء﴾ أي يزيل السوء، والسوء: ما يسوء المرء وهو دون الضرورة لأن الإنسان قد يُساء بما لا يضرّه لكن كل ضرورة سوء.

[شرح كتاب التوحيد باب: من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره]

(١) قال ابن القيم رحمه الله:

هذه الآية تتناول نوعي الدعاء (دعاء العبادة ودعاء المسألة) وبكل منها فسرت الآية، قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل أثنيه إذا عبدني. والقولان ملازمان وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه. بل هذا استعمال له من حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً، فتأمله، فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له. وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً: هي من هذا القبيل.

[بدائع الفوائد (٣/ ٣)]

لأنه تعالى الرقيب الشهيد المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه بالإجابة ولهذا قال: **﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾** والدعاء نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة. والقرب نوعان قرب بعلمه من كل خلقه وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق. فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل الحرام ونحوه فإن الله قد وعده بالإجابة وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية والإيمان به الموجب للاستجابة. فلهذا قال: **﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾** أي يجعل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة ويزول عنهم البغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٤٦)]

الآية الثامنة:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[1] [سورة إبراهيم: ٣٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ أي لقريب الإجابة ممن دعاه. وقد دعوته ولم يخيب رجائي.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٣)]

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: قول إبراهيم الخليل ﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾، فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام، لأنه سميع لكل مسموع وإذا كان كذلك فالدعاء هنا، يتناول دعاء الثناء، ودعاء الطلب وسمع الرب تبارك وتعالى له، إثابته على الثناء، وإجابته للطلب فهو سميع لهذا وهذا.

[بدائع الفوائد (٣/ ٤)]

الآية التاسعة:

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة السجدة: ١٥- ١٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ أي: إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيمان.

وهم: **﴿الذين إذا ذكروا بها﴾** فتليت عليهم آيات القرآن، وأتتهم النصائح على أيدي رسل الله، وَدُعُوا إلى التذكر، سمعوها فقبلوها، وانقادوا، و**﴿خروا سجداً﴾** أي: خاضعين لها، خضوع ذكر الله، وفرح بمعرفته.

﴿وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ لا بقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيتمتعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول، وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصلوا بها، إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ أي: ترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم، وهو: الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى.

ولهذا قال: **﴿يدعون ربهم﴾** أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما.

﴿خوفاً وطمعاً﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها. خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه.

﴿ومما رزقناهم﴾ من الرزق، قليلاً أو كثيراً **﴿ينفقون﴾** ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم. فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة،

كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب. والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي، خير مطلقاً، سواء وافق فقيراً، أو غنيّاً، قريباً، أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت، بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

وأما جزاؤهم، فقال: ﴿**فلا تعلم نفس**﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونه نكرة في سياق النفي.

أي: فلا يعلم أحد ﴿**ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور. كما قال تعالى على لسان رسوله: «**أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».

فكما صلوا في الليل، ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿**جزاء بما كانوا يعملون**﴾.

[تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٨٥)]

الآية العاشرة:

يقول الله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة غافر: ١٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**فادعوا الله مخلصين له الدين**﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة. والإخلاص معناه تخليص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة حقوق الله وحقوق عباده. أي أخلصوا لله تعالى من كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٥٣)]

الآية الحادية عشر:

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة غافر: ٦٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿هو الحي﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية التي لا تتم حياته إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والعلم والكلام وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله **﴿لا إله إلاَّ هو﴾** أي لا معبود بحق إلا وجهه الكريم.

﴿فادعوه﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة **﴿مخلصين له الدين﴾** أي اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى.. فإن الإخلاص هو المأمور به كما قال تعالى: **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾**.

﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أي جميع المحامد والمدائح والثناء بالقول كنطق الخلق بذكره. والفعل كعبادتهم له، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له لكماله في أوصافه وأفعاله وتمام نعمه.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٧٥)]

الآية الثانية عشر:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ أي يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة ويكملونها على الوجه اللائق، الذي ينبغي ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها.

﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ أي يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة ويتعوذون بنا، من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين وهم راغبون لا غافلون، لاهون لا مدلون.

﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ أي خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٩٧)]

الآية الثالثة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الإسراء: ٥٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**أولئك الذين يدعون**﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿**يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب**﴾ أي يتنافسون في القرب من ربهم ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة، المقربة إلى الله تعالى ﴿**ويرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾ فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب ﴿**إن عذاب ربك كان محذوراً**﴾ أي هو الذين ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١١٧)]

الآية الرابعة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[1] [سورة الأنعام: ٥٢].

---

(١) قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى:
نهى الله تعالى نبيه محمد ﷺ أن يطرد هؤلاء (الصحابة) وإن كانوا فقراء، وإن لم يكن لهم قيمة في المجتمع لكن لهم قيمة عند الله، لأنهم يدعون الله بالغداة والعشي يعني صباحاً ومساءاً، يدعونه دعاء مسألة، فيسألونه رضوانه والجنة ويستعيذون به من النار. ويدعونه دعاء عبادة فيعبدون الله وعبادة الله تشتمل على الدعاء، ففي الصلاة مثلاً يقول الإنسان: رب اغفر لي، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. السلام علينا وعلى عباد الله=

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص رغبة في مجالسة غيرهم من الملازمين لدعاء ربهم دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم بل هم مستحقون لموالاتك إياهم ومحبتهم وإدنائهم وتقريبهم لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء، والأعزاء ـ في الحقيقة ـ وإن كانوا ـ عند الناس ـ أذلاء.

﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ أي كل له حسابه، وله عمله الحسن وعمله القبيح **﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾** وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٥)]

الآية الخامسة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ

= الصالحين، وما أشبه ذلك، ثم إن العابد أيضاً إنما يعبد لنيل رضا الله عز وجل.

وفي قوله: **﴿يريدون وجهه﴾** تنبيه على الإخلاص وأن الإخلاص له أثر كبير في قبول الأعمال ورفعة العمال عند الله عز وجل، فكلما كان الإنسان في عمله أخلص كان أرضى لله وأكثر لثوابه، وكم من إنسان يصلي وإلى جانبه آخر يصلي معه الصلاة، ويكون بينهما من الرفعة عند الله والثواب والجزاء كما بين السماء والأرض، وذلك لإخلاص النية عند أحدهما دون الآخر. فالواجب على الإنسان أن يحرص غاية الحرص على إخلاص نيته في عبادته وألا يقصد بعبادته شيئاً من أمور الدنيا، لا يقصد إلاّ رضا الله وثوابه حتى ينال بذلك الرفعة في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى في آخر الآية: **﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم﴾**، يعني: ليس عليك شيء منهم ولا عليهم شيء منك، حساب الجميع على الله، وكل يجازي بعمله **﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾**: يعني فإن طردتهم فإنك من الظالمين.

[شرح رياض الصالحين (٥/ ١٠٦)]

ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الأنعام: ٤٠- ٤١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يقول تعالى لرسوله: ﴿**قل**﴾ للمشركين بالله، العادلين به غيره: ﴿**أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين**﴾ أي إذا حصلت هذه المشقات وهذه الكروب التي يضطر إلى دفعها هل تدعون آلهتكم وأصنامكم أم تدعون ربكم الملك الحق المبين.

﴿**بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون**﴾ فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد تنسونهم لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. وتخلصون لله الدعاء لعلمكم أنه هو الضار النافع المجيب لدعوة المضطر، فما بالكم في الرخاء تشركون به وتجعلون له شركاء؟ هل دلكم على ذلك عقل أو نقل؟ أم عندكم من سلطن بهذا أم تفترون على الله الكذب؟.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢١)]

الآية السادسة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الأنعام: ٦٣، ٦٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الأيات:

أي ﴿**قل**﴾ للمشركين بالله الداعين معه آلهة أخرى، ملزماً لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلٰهية.

﴿**من ينجيكم من ظلمات البر والبحر**﴾ أي شدائدهما ومشقاتهما وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعاً بقلب خاضع ولسان

لا يزال يلهج بحاجته من الدعاء وتقولون ـ وأنتم في تلك الحال: ﴿**لئن أنجانا من هذه**﴾ الشدة التي وقعنا فيها ﴿**لنكونن من الشاكرين**﴾ لله أي المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته ﴿**قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب**﴾ أي من هذه الشدة الخاصة ومن جميع الكروب العامة. ﴿**ثم أنتم تشركون**﴾ لا تفون لله بما قلتم وتنسون نعمه عليكم.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣١)]

* * *

الفصل الثاني

شرح الشيخ السعدي لبعض أدعية النبي ﷺ

الحديث الأول

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يدعو فيقول: **«اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»**. رواه مسلم[1].

هذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها وهو يتضمن سؤال خير الدين، وخير الدنيا، فإن الهدى هو العلم النافع والتقى العمل الصالح وترك ما نهى الله ورسوله عنه. وبذلك يصلح الدين. فإن الدين علوم نافعة ومعارف صادقة فهي الهدى، وقيام بطاعة الله ورسوله فهو التقى «والعفاف والغنى» يتضمن العفاف عن الخلق وعدم تعليق القلب بهم، والغنى بالله وبرزقه، والقناعة بما فيه، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية، وبذلك تتم سعادة الحياة الدنيا والراحة القلبية وهي الحياة الطيبة.

فمن رزق الهدى والتقى والعفاف والغنى: نال السعادتين وحصل له كل مطلوب، ونجا من كل مرهوب. والله أعلم.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ١٦٥)]

الحديث الثاني

حديث: «اللهم إني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك».

في الدعاء المأثور عنه ﷺ: **«اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك»**[2]: دعاء جامع نافع؛ فإن مجموع مطالب السائلين حصول الرحمة المتضمنة لخير الدنيا والآخرة، وحصول المغفرة المتضمنة لاندفاع الشرور في الدنيا والآخرة، وموجبات الرحمة هي الأسباب التي توجبها والأوصاف التي تقتضيها، وقد ثبت في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة من أسباب الرحمة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء برقم (٦٨٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٤٧٩)، وابن ماجه في سننه برقم (١٣٨٤).
وقال شيخنا الألباني رحمه الله: «ضعيف جدًا». انظر ضعيف سنن ابن ماجه برقم (٢٩٣).

العامة والرحمة الخاصة أمور كثيرة، مثل قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ أي: في عبادة الله وإلى عباد الله.

وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ﴾ [الأعراف: ٥٦] الآية.

ومثل: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وطاعة الله ورسوله تشمل فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، بل وأبلغ من ذلك التصديق بخبر الله ورسوله عن كل شيء.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقوله ﷺ: **«الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**[1].

وأخبار كثيرة عمن عملوا بعض الأعمال التي رحمهم الله بها وغفر لهم بها، أما عزائم المغفرة، فكذلك هي الصفات والأخلاق والأعمال التي جعلها الله سبباً لنيل مغفرته عامة أو خاصة، مثل قوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة طه: ٨٢]، ونحوها من النصوص التي لا تحصى في ذلك أسباب المغفرة التي من أعظمها الإيمان والصدق والإخلاص، فسؤال موجبات الرحمة وعزائم المغفرة يدخل في هذا التوفيق لكل سبب ينال به رحمة الله ومغفرته.

فصلى الله وسلم على من أعطي جوامع الكلم ونوافعها وأصول الخير وفروعه.

[مجموع الفوائد (ص ٥٢ـ ٥٤)]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٦٠)، وأبو داود في سننه (٤٩٤١)، والترمذي في سننه (١٩٢٤)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٤١٣٢).

الحديث الثالث

معنى حديث: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»:

دعاء النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**اللهم! فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»[1] يظن كثير من الناس أنهما مترادفان معناهما واحد، وليس الأمر كذلك؛ فإن الفقه في الدين: التفقه في أصوله وفروعه وأحكامه المتنوعة، ومعرفة الشرائع الكلية، وأما معرفة التأويل؛ فهي أخص من ذلك؛ فهي التمكن من إدخال الوقائع والجزئيات والمعينات في الشرعيات الكلية وتطبيقها عليها، فإذا أخبر الله ورسوله بخبر عن وقوع بعض الحوادث؛ فالفقه في الدين معرفة ذلك واعتقاد مدلوله، وعلم التأويل إذا وقع ذلك الحادث تمكن العالم من إدخاله في ذلك الخبر وعلم أنه هو المراد؛ فيزداد بذلك علماً وإيماناً، وكذلك إذا حكم الله ورسوله بحكم أمر أو نهي أو إباحة؛ فالفقه في الدين هو معرفة ذلك الحكم ومعرفة المراد منه، والتأويل تطبيق الجزئيات والأعيان على الكليات، ومعرفة تفاصيل الأعيان، وأنها مراد الله ورسوله بذلك الحكم؛ فكم من فقيه في الدين ولكنه يخفى عليه إدخال كثير من الحوادث والمعينات في الأحكام الكلية ولا يشعر بها؟!

ولهذا ينبغي للمعلم والواعظ أن ينبه على الوقائع والحوادث والمعينات، وأنها هي المراد، وهي داخلة في ذلك الأمر أو النهي أو الإباحة أو الخير؛ فما أعظم نفع ذلك!

وهذا التطبيق أيضاً يقوي تلك المعرفة الكلية؛ فكل منهما يمد الآخر: الحوادث والوقائع لا بد أن ترجع وتربط بالكليات، والكليات لا تتضح تماماً إلا بالتفصيل وتعيين الجزئيات.

[مجموع الفوائد (ص ١٩٦- ١٩٧)]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٩٦)، وصححه العلامة أحمد شاكر رحمه الله.
ورواه البخاري في صحيحه برقم (٧٥ و ١٤٣) بلفظ: «**اللهم علمه الكتاب**».

الفصل الثالث

فصول ومباحث
ودرر من كلام شيخنا السعدي
عن الدعاء وآدابه

الدعاء هو العبادة

قال رحمه الله:

قول النبي ﷺ: **«الدعاء مخ العبادة» أو «الدعاء هو العبادة»**[1] إنما كان ذلك لأمور:

ـ منها: أن الدعاء فيه التضرع إلى الله وإظهار الضعف والحاجة إلى الله.

ـ ومنها: أن العبادة كلما كان القلب فيها أخشع والفكر فيها حاضر؛ فهي أفضل وأكمل، والدعاء أقرب العبادات إلى حصول هذا المقصود؛ فإن حاجة العبد تدفعه إلى الخشوع وحضور القلب.

ـ ومنها: أن الدعاء ملازم للتوكل والاستعانة بالله، فإن التوكل هو الاعتماد بالقلب على الله والثقة به في حصول المحبوبات واندفاع المكروهات، والدعاء يقويه، بل يعبر عنه ويصرح به؛ فإن الداعي يعلم ضرورته التامة إلى الله، وأنها بيد الله، ويطلبها من ربه راجياً له واثقاً به، وهذا هو روح العبادة.

ـ ومنها: أن الداعي لما كان يدعو الله لمصلحته ومنفعته ويطلب من الله حوائجه؛ فربما ظن الظان أن ذلك هو المقصود، وأنه إن حصلت الحاجة التي دعا لأجلها فقد حصل المراد، وإن لم تحصل فقد ضاع سعيه، وهذا ظن غالط؛ فإنه كسب العبادة لله بدعائه، كما لو صلى أو قرأ أو ذكر الله؛ فإن حصل مع هذه العبادة التي هي المقصود الأعظم مطلوبه وإلا فهو غانم ومحصل لعبادة ربه؛ فمن نعمة الله على العبد أن يأمره بالدعاء وتدفعه الحاجات والضرورات إلى سؤال الله لتحصل له هذه العبادة العظيمة، حتى كان بعض السلف يقول: إنّه تكون لي الحاجة إلى الله فأدعوه فيفتح لي من لذيذ مناجاته ما أتمنى معه أن حاجتي لم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٦٧)، والترمذي في سننه (٣٢٤٧)، وأبو داود في سننه (١٤٧٩)، وابن ماجه في سننه (٣٨٢٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٠)؛ عن النعمان بن بشير. وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في أحكام الجنائز (١٩٤)، ولفظه: «الدعاء هو العبادة».
وأما لفظ: «الدعاء مخ العبادة»؛ فقد أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٧١)، وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن الترمذي رقم (٦٦٩).

تُقْضَ؛ لما أخشى من انصراف النفس عن هذه المناجاة والعبادة. ويقول بعضهم: لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك.

[مجموع الفوائد (ص ٤٥ـ ٤٧)]

الدعاء لوازمه ومتمماته

قال رحمه الله:

الأدعية القرآنية والنبوية الأمر بها أو الثناء على الداعين بها يستتبع لوازمها ومتمماتها؛ فسؤال الله الهداية يستدعي فعل جميع الأسباب التي تدرك بها الهداية العلمية والعملية، وسؤال الله الرحمة والمغفرة يقتضي مع ذلك فعل الممكن من الأسباب التي تنال بها الرحمة والمغفرة، وهي معروفة في الكتاب والسنة، وإذا قال الداعي: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي**..»[1] إلى آخره؛ يقتضي في هذا الطلب والالتجاء إلى الله أن يسعى العبد في إصلاح دينه بمعرفة الحق واتباعه ومعرفة الباطل واجتنابه، ودفع فتن الشبهات والشهوات، ويقتضي أن يسعى ويقوم بالأسباب التي تصلح به دنياه، وهي متنوعه بحسب أحوال الخلق.

وإذا قال الداعي ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ١٥] فمع هذا التضرع إلى الله يسعى في شكر نعم الله عليه وعلى والديه اعترافاً، وثناء، وحمداً، واستعانة بها على طاعته، وتعرف الأعمال الصالحة التي ترضي الله والعمل بها، والسعي في تربية الذرية تربية إصلاحية دينية، وهكذا جميع الأدعية صريحة في الاجتهاد في فعل كل سبب ينال به ذلك المقصود، فإن الله تعالى جعل للمطالب كلها أسباباً لما تنال وأمر بفعلها مع قوة الاعتماد على الله، والدعاء يعبر عن قوة الاعتماد على الله ولهذا كان الدعاء روح العبادة ومخها، وإذا سأل العبد ربه أن يتوفاه مسلماً وأن يتوفاه مع الأبرار

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء حديث رقم (٦٨٤١) والترمذي في سننه برقم (٣٤٨٩) وابن ماجه في سننه برقم (٣٨٣٢).

كان سؤالاً لحسن الخاتمة ويستدعي فعل الأسباب والتوفيق للأسباب التي تنال بها الوفاة على الإسلام، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢]. وذلك بفعل الأسباب والاعتماد على مسببها والله أعلم.

[مجموع الفوائد (ص ٩٧ـ ٩٨)]

الدعاء عبادة

وقال رحمه الله:

مما ينبغي لمن دعا ربه في حصول مطلوب أو دفع مرهوب أن لا يقتصر في قصده ونيته في حصول مطلوبه الذي دعا لأجله، بل يقصد بدعاءه التقرب إلى الله بالدعاء وعباداته التي هي أعلى الغايات، فيكون على يقين من نفع دعائه، وأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها فإنه يجذب القلب إلى الله، وتلجئه حاجته للخضوع والتضرع لله الذي هو المقصود الأعظم في العبادة، ومن كان هذا قصده في دعائه التقرب إلى الله بالدعاء وحصول مطلوبه، فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط، كحال أكثر الناس فإن هذا نقص وحرمان بهذا الفضل العظيم ولمثل هذا فليتنافس المتنافسون، وهذا من ثمرات العلم النافع، فإن الجهل منع الخلق الكثير من مقاصد جليلة ووسائل جميلة لو عرفوها لقصدوها ولو شعروا بها لتوسلوا إليها، والله الموفق.

[مجموع الفوائد (ص ٨٤)]

فائدة عظيمة ومبحث بديع

في معاني أدعية القرآن الكريم

وقال رحمه الله:

فائدة عظيمة: لما كان الدعاءُ مُخُّ العبادة[1] ولبها وخالصها، لكونه

---

(١) اللفظ الصحيح الثابت عن النبي ﷺ قوله: «**الدعاء هو العبادة**» وتقدم تخريجه قبل قليل. =

متضمناً للافتقار التام لله والخشوع والخضوع بين يديه، وتنوع عبوديات القلب، وكثرة المطالب المهمة، كان أفضله وأعلاه ما كان أنفع للعبد وأصح من غيره وأجمع لكل خير وتلك أدعية القرآن التي أخبر الله بها عن أنبيائه ورسله وعباده الأخيار التي كان سيد المرسلين يختارها على غيرها.

ولما كان من شروط الدعاء وآدابه حضور قلب الداعي واستحضاره لمعاني ما يدعو به أحببتُ أن أُنبِّه تنبيهاً لطيفاً على معاني أدعية القرآن ليسهل استحضارها فيعظم انتفاع العبد بها:

فأفضل أدعية القرآن وأفرضها قوله تعالى ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [سورة الفاتحة: ٦ـ ٧] أي علِّمنا يا ربنا وألهمنا ووفِّقنا لسلوك الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، المشتمل على علم ما يحبه الله ورسوله، ومحبته وفعله على وجه الكمال، وعلم ما يكرهه الله ورسوله ويغضبه، وتركه من كل وجه. وحقيقة ذلك أنَّ الداعي بهذا الدعاء يسأل الله تعالى أن يهديه الصراط المستقيم المتضمن لمعرفة الحق والعمل به، ويجنبه طريق المغضوب عليهم الذين عرفوا الحق وتركوه، وطريق الضالين الذين تاهوا عن الحق فلم يعرفوه.

ومن أجمع الأدعية وأنفعها دعاء أرباب الهمم العالية الذين جمع الله لهم بين خيري الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ [سورة البقرة: ٢٠١] فَصَدروا دعاءهم بقولهم ﴿ربنا﴾ وذلك متضمن لاستحضارهم معنى تربية الله العامة وهو: الخلق والتدبير وإيصال ما به تستقيم الأبدان، والتربية الخاصة لخيار خلقه الذين رباهم بلطفه وأصلح لهم دينهم ودنياهم وتولاهم فأخرجهم من الظلمات إلى النور. وهذا متضمن لافتقارهم إلى ربهم وأنهم لا يقدرون على تربية نفوسهم

= أما اللفظ الذي أثبته المصنف فقد أخرجه الترمذي في «سننه» برقم (٣٤٣١)، وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن الترمذي رقم (٦٦٩).

من كل وجه فليس لهم غير ربهم يتولاهم ويصلح أُمورهم، ولهذا كانت أغلب أدعية القرآن مُصَدَّرة بالتوسل إلى الله بربوبيته لأنها أعظم الوسائل على الإطلاق التي تحصل بها المحبوبات وتندفع بها المكروهات.

وحسنة الدنيا اسم جامع: للعلم النافع، والعمل الصالح، وراحة القلب والجسم، والرزق الحلال الطيب من كل مأكل ومشرب وملبس ومنكح ومسكن ونحوها فهي اسم جامع لحسن الأحوال وسلامتها من كل نقص.

وأما حسنة الآخرة فهي كل ما أعده لأوليائه في دار كرامته مما لا عين رأت، ولا أُذن سَمِعَت ولا خَطَرَ على قلب بشر.

ولما كانت حسنة الدنيا والآخرة تمامها وكمالها الحفظ من عذاب النار، والحفظ من أسبابه وهو الذنوب والمعاصي قالوا: **﴿وقنا عذاب النار﴾** فاشتمل هذا الدعاء على كل خير ومطلوب محمود، ودفع كل شر وعذاب. ولهذا كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء كثيراً.

ومن ذلك الدعاء الذي في آخر البقرة الذي أخبر الله على لسان رسوله أنه قبله من المؤمنين حين دعوا به ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦] ولما كان إخلال العبد بأمر الله قد يكون عمداً على وجه العلم، وقد يكون نسياناً وخطأ، وكان هذا القسم غير ناشىء عن عمل القلب الذي هو محل الإثم وعدمه سألوا ربهم أن لا يؤاخذهم بالنسيان والخطأ وذلك عام في جميع الأمور قال الله تعالى: قد فعلت[1].

ولما كانت بعض الأفعال فيها شدة ومشقة وآصار وأغلال لو كُلِّفَ العبادُ بها، لأحرى أن لا يقوموا بها سألوا الله تعالى بأن لا يُحَمِّلَهُم إياها ولا يُكَلِّفَهُم بما لا طاقة لهم به ليسهل عليهم أمر ربهم وتخف عليهم شرائعه الظاهرة، فقال الله تعالى: قد فعلت.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/١٤٦).

ولما كانت أيضاً الشرائع التي شرعها الله لعباده لا بد أن يحصل منهم التقصير فيها إما بفعل محظور أو بترك مأمور، وذلك مُوجِب للشر والعقوبة إن لم يغفره الله ويزله قالوا: ﴿**واعفُ عنا واغفر لنا**﴾ فبهذه الأمور تندفع المكروهات والشرور كلها، ثم سألوا الله بعد ذلك الرحمة التي ينشأ عنها كل خير في الدنيا والآخرة.

ولما كان أمر الدين والتمكين من فعل الخير وترك الشر لا يحصل ولا يتم إلا بولاية الله وتوليه ونصرته على الأعداء الكافرين من الشيطان وجنوده قالوا: ﴿**أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**﴾ قال تعالى: قد فعلت. فالله تعالى يتولى عبده وييسره لليسرى في جميع الأمور، فيدفع عنه الشرور فهو نعم المولى ونعم النصير.

ومن هذا **دعاء الراسخين في العلم** بعد الثناء عليهم بالإيمان التام ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨] فسألوا ربهم وتوسلوا بربوبيته في حصول أفضل الوسائل وهو استقامة القلوب على ما يحبه الله ويرضاه والثبات على ذلك، وعدم زيغها عن هذه الهداية، وأجل المقاصد وهو حصول رحمة الله تعالى التي يحصل معها خير الدنيا والآخرة، وختموا دعاءهم بالتوسل إلى ربهم باسمه ﴿الوهاب﴾ أي: كثير العطايا واسع الكرم. فمن كرمك يا وهاب نسألك الإستقامة وعدم زيغ القلوب وأن تهب لنا من لدنك رحمة، لأن الرحمة التي من لدنه لا يقادر قدرها ولا يعلم ما فيها من البركات والخيرات إلا الذي وهبهم إياها؛ ويشبه أن يكون قولهم ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩﴾ [سورة آل عمران: ٩] توسلاً إلى ربهم بإيمانهم بهذا اليوم وتصديق ربهم في وعده ووعيده، فإن التوسل إلى الله بالإيمان ومنَّة الله به من الوسائل المطلوبة فيكون هذا من تمام دعائهم.

كذلك **دعاء المتقين** الذين أعد لهم الجنة وما فيها الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [سورة آل عمران: ١٦] فتوسلوا بربوبية الله لهم وبإيمانهم أن يغفر لهم الذنوب، وأن يقيهم عذاب النار؛ وإذا

غفرت ذنوبهم ووقاهم الله عذاب النار زال عنهم الشر بأجمعه وحصل لهم الخير بأجمعه لأن الأدعية هكذا تارة تأتي مطابقة لجميع مطالب العبد، وتارة يذكر نوع منها ويدخل الباقي باللزوم كهذا الدعاء.

ومما أتى فيه الدعاء بجميع المطالب على وجه المطابقة **دعاء أولي الألباب وخواص الخلق** حيث قالوا بعد ما تفكروا بما في ملكوت الله ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٩١ـ ١٩٤] فتوسلوا بربوبية الله، وكرروا هذا التوسل وإقرارهم بحكمة الله وصِدْقِ وعده ووعيده، وإيمانهم برسل الله حين دعوهم إلى الإيمان، ومنَّة الله عليهم بالمبادرة بذلك أن يقيهم عذاب النار، وأن يغفر ذنوبهم الكبار، ويكفر عنهم سيئآتهم الصغار، فيدفع عنهم أسباب الشرور كلها وهي الذنوب والسيئآت، وأن يرزقهم الله ويوفقهم لأعمال البرِّ كلها فيصيروا بذلك من عباد الله الأبرار، وأن يثبتهم عليها حتى يموتوا عليها فيدخلوا في معيَّة الأبرار، وأن يؤتيهم ما وعدهم على ألسنة رسله وذلك شامل لعطايا الدنيا وخيراتها وعطايا الآخرة وكراماتها، وأن يكرمهم في يوم القيامة ولا يخزهم.

وحقيق بقوم دعوا بهذه الأدعية الجليلة بحيث ما بقي خير إلا سألوه ولا شر إلا استدفعوه، أن يسميهم الله أولي الألباب فهذا من لبهم وعقلهم وتمام فطنتهم، نسأله تعالى أن يوفقنا لما وفقهم له، إنَّه جواد كريم.

ومن ذلك **دعاء أتباع الأنبياء في مواطن الشدائد وأنواع المحن** ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٤٧ـ ١٤٨] فَدَلَّ هذا على أنّ هذا الدعاء من الدعاء الذي استجابه الله وأن أهله محسنون فيه، وذلك أنهم توسلوا إلى الله بربوبيته فافتقروا إليه وطلبوا أن يُريَهم بما يصلح أحوالهم، وأن يغفر لهم

الذنوب وهي المعاصي المستقلة، ﴿**وإسرافنا في أمرنا**﴾ وهي تعدي ما حدَّ للعبد ونُهِيَ عن مجاوزته، فكما أن التقصير يلام عليه الإنسان فكذلك المجاوزة للحد، وأن يثبت أقدامهم فيرزقهم الصبر والثبات والقوة التي هي مادة النصر، وأن يمدهم بمدده الإلهي وهو نصره على القوم الكافرين. فسألوا ربهم زوال المانع من النصر وهي الذنوب والإسراف، وحصول سبب النصر وهو نوعان:

١ـ **سبب داخلي وهو**: ثبات الأقدام والصبر عند الإقدام.

٢ـ **وسبب خارجي وهو**: نصره.

ويشبه أن يكون قولهم ﴿**على القوم الكافرين**﴾ توسل إلى الله، وأننا يا ربنا آمنا بك واتبعنا رسلك وحاربنا أعدائك الذين كفروا بك وبرسلك فمعاداتنا لهم وقتالنا إياهم لأجلك وفي سبيلك فانصرنا عليهم لكوننا من حزبك وجندك، وهم جنود عدوك الشيطان الرجيم.

ومن ذلك **دعاء عباد الرحمن** الذين وصفهم الله بكل خلق جميل وأعد لهم المنازل العالية، فدعوا بدعوتين دعوة استجيبت لجميعهم، كامل الدرجة ومن دونه، ودعوة استجيبت لخواصهم وإئمتهم وقدوتهم، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الفرقان: ٦٣ـ ٦٥] فتوسلوا بربوبية الله لهم وإيمانهم وخوفهم من عذابه أن يقيهم عذاب النار، وإذا وقاهم الله عذاب النار كان من لازم ذلك مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئآتهم ودخولهم الجنة، وقال تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الفرقان: ٧٤] فتوسلوا بربوبية الله أن يهب لهم من أزواجهم وقرنائهم وذرياتهم ما تقر أعينهم به وهو أن يكونوا مطيعين لله عاملين بمرضاته، وذلك دليل على أن طاعة الله قرة أعينهم ومحبته نعيم قلوبهم، فقويت هذه الحالة إلى أن سألوا الله تعالى أن يجعل قرناءهم بهذه الحالة الكاملة وذلك من فضل الله عليهم، فإن الله إذا أصلح قرناءهم عاد من هذا الخير عليهم شيء كثير ولهذا جعلوا هذا من مواهب ربهم فقالوا: ﴿**ربنا هب لنا**﴾ إلخ.

ولما كان غاية كمال الإنسان أن يكون مطيعاً لله وأن يكون قريناً للمطيعين سألوا ربهم أعلى المراتب وأجلها وهي الإمامة في الدين وأن يكونوا قدوة للمتقين. وذلك أن يجعلهم علماء ربانيين راسخين في العلم مجتهدين في تعلمه وتعليمه والدعوة إليه وأن يكون علمهم صحيحاً بحيث أنَّ من اقتدى بهم فهو من المتقين، وأن يرزقهم من الأعمال الظاهرة والباطنة ما يصيرون به أئمة للمتقين، وجماع ذلك الصبر على محبوبات الله وثبات النفس على ذلك والإيقان بآيات الله وتمام العلم بها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: ٢٤] فالحاصل أنهم سألوا ربهم أن يكونوا كاملين مكملين لغيرهم: هادين مهتدين، وهذه أعلى الحالات فلذلك أعد الله لهم أعلى غرف الجنان ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٧٥ـ ٧٦].

ومن ذلك **دعاء آدم عليه السلام** حين تاب إلى الله وتلقى منه هذه الكلمات هو وزوجه قالا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٣] فتوسلا بربوبية الله واعترافهم بالظلم وإقرارهم بالذنب أن يغفر لهما فيزيل عنهما المكاره كلها وأن يرحمهما فيعطيهما أنواع المطالب، وأنه لا وسيلة لهما ولا ملجأ منه إلا إليه وأنه لإن لم يرحمهما ويغفر لهما خسرا الدنيا والآخرة، فقبل الله دعائهما وغفر لهما ورحمهما.

ومثل قول **نوح لما لامه الله بسؤال نجاة ابنه الكافر** الذي ليس من أهله، وأن هذا عمل غير صالح فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة هود: ٤٧]. فتوسل بربوبية الله واستعاذ به أن يسأله سؤالا ليس له به علم، وإنما حمله عليه مجرد محبة النفس لا إرادة رضى الله، واعترف بأن هذا الذي جرى منه يوجب التضرع والاستغفار وأنه إن لم يغفر له ربه ويرحمه كان من الخاسرين.

فالناس قسمان: **رابحون وهم**: الذين تغمدهم الله بمغفرته ورحمته؛ **وخاسرون وهم**: الذين فاتتهم المغفرة والرحمة ولا يحصل ذلك إلا بالله.

ومن ذلك **دعاء إبراهيم خليل الرحمن وابنه إسماعيل** وهما يرفعان قواعد البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة البقرة: ١٢٧ـ ١٢٨] فتضرعا إلى ربهم في قبول الله عملهما، وأن يكون كاملا من كل وجه، وتحصل منه الثمرات النافعة، وتوسلا إليه بأنه السميع لأقوالهما، العليم بجميع أحوالهما؛ ولما دعوا بهذا الدعاء الخاص في قبول عملهما سألا الله أجل الأمور وأعلاها وهو أن يَمُنَّ الله عليهما وعلى من شاء من ذريتهما بالإسلام لله ظاهراً وباطناً، والعمل بما يحبه ويرضاه، وأن يعلمهما العمل الذي شرعا فيه، ويكمل لهما مناسكهما علماً ومعرفة وعملاً، وأن يتوب عليهما لتتم أمورهما من كل وجه. فاستجاب الله هذا الدعاء كله وبارك فيه وحقق رجائهما والله ذو الفضل العظيم.

وكذلك **دعاء يوسف عليه السلام**: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة يوسف: ١٠١] فتوسل إلى الله بربوبيته وبنعمة الله عليه بنعمة الدنيا وهي المُلك وتوابعه، ونعمة الدين وهي العلم الكامل، وبولاية الله وانقطاعه عن غيره، وتولي الله له في الدنيا والآخرة أن يثبته على الإسلام الظاهر والباطن حتى يلقاه عليه فيدخله في خلّص عباده الصالحين.

ومن ذلك **دعاء سليمان عليه السلام**: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة النمل: ١٩] فتوسل إلى الله بربوبيته وبنعمته عليه وعلى والديه أن يُوزعَهُ أي يلُهمه ويوفقه لشكرها بالاعتراف بها ومحبته لله عليها والثناء عليه والإكثار من ذكره، وأن يوفقه عملاً صالحاً يرضاه ويدخل في هذا جميع الأعمال الصالحة ظاهرها وباطنها، وأن يدخله برحمته في جملة عباده الصالحين. وهذا الدعاء شامل لخير الدنيا والآخرة.

ومثل هذا **دعاء الذي بلَّغَهُ الله أشده** وبلغه أربعين سنة ومَنَّ عليه بالإنابة إليه فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا

تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ١٥] فتوسل بربوبية ربه له وبنعمته عليه وعلى والديه، وبالتزام ترك ما يكرهه ربه بالتوبة وفعل ما يحبه بالإسلام أن يَمُنَّ عليه بالشُّكر المتضمن لاعتراف القلب وخضوعه ومحبته للمُنْعِم والثناء على الله مطلقاً ومقيداً، وأن يوفقه لما يحبه الله ويرضاه، ويصلح له في ذريته فهذا دعاء محتوٍ على صلاح العبد وإصلاح الله له أموره كلها، وإصلاح ذريته في حياته وبعد مماته وهو دعاء حَقِيقٌ بالعبد خُصوصاً إذا بلغ الأربعين أن يداوم عليه بِذُلٍّ وافتقار لعله أن يدخل في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الأحقاف: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [سورة القصص: ٢٤] مستريحاً لذلك الظلال بعد التعب فقال في تلك الحالة مسترزقاً، ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [سورة القصص: ٢٤] أي إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ وتُيَسِّرَهُ لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال قد يكون أبلغ من السؤال بلسان المقال. فلم يزل في هذه الحالة راجياً ربه مُتَمَلِّقاً مُفْتَقِراً إليه مُعَلِّقاً رجاءه بالله وحده حتى فَرَّجَ كُرْبَهُ وجلى همه، والله هو الرزاق.

ومن ذلك الأدعية التي أمر الله بها رسوله وعباده المؤمنين فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١١٨] فهذا توسلٌ إلى الله بربوبيته ورحمته الواسعة في حصول الخير ودفع الشر كله، وهي المغفرة التي تندفع بها المكروهات والرحمة التي تحصل بها جميع المحبوبات.

وكذلك قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [سورة الإسراء: ٨٠] فهذا توسل إلى الله بربوبيته أن تكون مداخل العبد ومخارجه كلها صدقاً وذلك أن تكون صالحة خالصة لوجه الله مقرونة بالاستعانة بالله والتوكل عليه، وذلك يستلزم أن تكون حركات العبد كلها ظاهرها وباطنها طاعة لله وعملاً بما يحبه ويرضاه، وهذا هو الكمال من جهة العمل؛ وأما الكمال من جهة العلم فإنه يجعل الله له سلطاناً نصيراً أي حجة ظاهرة ناصرة وقوة يحصل بها نصر الحق وقمع الباطل فيحصل باستجابة

هذا الدعاء العلم النافع، والعمل الصالح، والتمكين في الأرض.

وقال تعالى لرسوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤] فالعلم أجل الأشياء وبه تعرف جميع الأشياء، فسؤاله وسؤال الزيادة منه من أفضل ما سَأَلَ السائلون.

ومن أجمع الأدعية وأحسنها توسلاً دعاء موسى عليه السلام حين تضرع إلى ربه فقال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٥- ١٥٦] فتوسل إلى وليه بولايته لعبده وحسن تدبيره وتربيته ولطفه على حصول المغفرة والرحمة، وكذلك توسل بكمال مغفرة الله وسعة جوده على هذا، ورتب على هذا حصول حسنة الدنيا والآخرة، فإنه إذا حصلت المغفرة زالت الشرور كلها والعذاب كله، وإذا حصلت الرحمة حل الخير وحسنات الدنيا والآخرة. فيكون قوله ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ نظير قوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [سورة البقرة: ٢٠١] مع زيادة التوسل بولاية الله وكمال غفرانه ومع طلب مغفرته ورحمته اللذين بهما تنال حسنة الدنيا والآخرة، ثم ختم دعاءه بالتوسل إلى ربه بالإقبال إليه والإنابة إليه والتذلُّل لعظمته فقال **﴿إنا هُدنا إليكَ﴾** أي رجعنا إليك في مهماتنا وأمورنا لا نرجع إلى غيرك لعلمنا أنه لا يكشف السوء ولا يجيب المضطر إلا أنت، ورجعنا إليك في عباداتنا الظاهرة والباطنة.

ومن ذلك **دعاء أصحاب الكهف** إذ فروا إلى الله بدينهم فقالوا ملتجئين إليه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [سورة الكهف: ١٠] فتضرعوا إليه في أن يؤتيهم من لَدُنه رحمة بحيث إذا حلّت عليهم سلم لهم دينهم وحفظهم من الفتن وأنالهم بها الخير، وأن يهيء لهم من أمرهم رشداً أي ييسرهم لليسرى ويسهل لهم الأمور ويرشدهم إلى أرفق الأحوال. فاستجاب لهم هذا الدعاء ونشر عليهم رحمته وحفظ أديانهم وأبدانهم وجعل فيهم بركة على أنفسهم وعلى غيرهم.

ومن ذلك **دعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة المقربين** حين دعوا للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ

وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [سورة غافر: ٧ـ ٩] وهذا دعاء جامع وتوسل نافع، فتوسلوا بربوبية الله تعالى وسعة علمه ورحمته المتضمن علمه بحال المؤمنين وما خلقهم عليه من الضعف ورحمته إياهم لكونه جعل الإيمان أعظم وسيلة تُنَالَ بها رحمته، أن يغفر للمؤمنين الملتزمين للإيمان وهم الذين تابوا مما يكرهه الله واتبعوا سبيله بالتزام ما يحبه ويرضاه فيغفر ذنوبهم ويقيهم أشدَّ العذاب وهو عذاب الجحيم، وأن ينيلهم أعظم الثواب وهو دخول جنات عدن التي وعدهم على ألسنة رسله، وتمام ذلك أن يُقِرَّ أعينهم باجتماعهم بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم الصالحين، ثم توسلوا بكمال عزة الله وكمال حكمته لأن المقام يناسب هذا، فمن كمال عزته واقتداره أن يحفظهم ويَحُول بينهم وبين السيئآت ويصرف عنهم السيئآت وينيلهم أنواع المثوبات. ومن كمال حكمته أن الموصوفين بتلك الصفات هم أهل لأن يغفر لهم ويرحمهم ويدفع عنهم السوء وينيلهم الأجر.

ولما دعوا أن يغفر لهم السيئآت التي فعلوها دعوا الله أن يقيهم سيئآت أنفسهم الأمارة بالسوء بأن يُحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم ويُكَرِّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ويجعلهم من الراشدين، وأن من لازِم وقاية السيئآت حصول رحمة الله. وهذا دعاء عظيم صادر من أعظم الخلق معرفة بالله ولذلك وصف الله من حصلت له هذه الأمور بالفوز بكل مطلوب والنجاة من كل مرهوب فقال: **﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾**.

وكذلك **دعاء الذين اتبعوا المهاجرين والأنصار بإحسان** حيث قال تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحشر: ١٠] فتضرعوا إلى ربهم وتوسلوا إليه بربوبيته ونعمته عليهم بالإيمان، وبسعة رحمته ورأفته، أن يغفر لهم ولجميع إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، وأن يصلح الله قلوبهم بالاجتماع على الإيمان ومحبة بعضهم بعضاً، وأن لا يجعل في قلوبهم أدنى غل لكل من اتصف بالإيمان.

وهذا الدعاء يتضمن حصول الخير لهم ولإخوانهم، ودفع الشر عنهم وعن إخوانهم، وقد أخبر الله أنَّ أنبيائه تضرعوا إليه في مطالب خاصة ومطالب عامة، وتوسلوا بكمال أسمائه وصفاته، وبما مَنَّ الله عليهم به من الإيمان والنعَم الدينية والدنيوية وبما كانوا عليه من الفقر والضعف وشدة الضرورة إلى ربهم في جميع أمورهم.

فهذه الأدعية التي أمر الله بها وحثَّ عليها ومدَحَ أهلها هي الأدعية النافعة التي لا يليق بالعبد أن يختار عليها غيرها من الأدعية المصطلحة والألفاظ المخترعة التي لا نسبة لها إلى هذه الألفاظ القرآنية.

إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم من الأعمال والأقوال الباطنة والظاهرة ومن ذلك الأدعية، وكم في السُّنَّةِ من الأدعية النبوية مما يوافق الأدعية القرآنية، فنسأله تعالى أن يهدينا لأحسَنِ الأمور ويصرف عنا جميع الشرور إنَّهُ جوادٌ كريم رؤوف رحيم.

[المواهب الربانية (ص ١٢٤ ـ ١٤٠)]

فائدة عظيمة من القواعد الحسان لتفسير القرآن

قاعدة:

قال رحمه الله:

«كلما ورد في القرآن الأمر بالدعاء والنهي عن دعاء غير الله والثناء على الداعين، تناول دعاء المسألة ودعاء العبادة».

وهذه قاعدة نافعة، فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة دعاء المسألة فقط، ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء ويدل على عموم ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: ٦٠] أي استجب طلبكم وأتقبل عملكم. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر: ٦٠] فسمى ذلك عبادة، وذلك

لأن الداعي دعاء المسألة يطلب سؤاله بلسان المقال والعابد يطلب من ربه القبول والثواب ومغفرة ذنوبه بلسان الحال، فلو سألته ما قصدك بصلاتك وعبادتك وحجك وقيامك بحق الله وحق الخلق، لكان قلب المؤمن ناطقاً بأن قصده من ذلك رضى ربي ونيل ثوابه والسلامة من عقابه، ولهذا كانت هذه النية شرطاً لصحة الأعمال وكمالها، وقال تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة غافر: ١٤] أي أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم وأخلصوا له أعمال البر والطاعة وقد يقيد أحياناً بدعاء الطلب كقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [سورة القمر: ١٠] وأما قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [سورة يونس: ١٢] فيدخل فيه دعاء الطلب فإنه لا يزال ملحاً بلسانه سائلاً دفع ضرورته، ويدخل فيه دعاء العبادة فإن قلبه في هذه الحال يكون راضياً طامعاً منقطعاً عن غير الله عالماً أنه لا يكشف السوء إلا الله وهذا دعاء عبادة قال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [سورة الأعراف: ٥٥]، يدخل فيه الأمران، فكما أن من كمال دعاء الطلب كثرة التضرع والإلحاح وإظهار الفقر والمسكنة وإخفاؤه ذلك وإخلاصه فكذلك دعاء العبادة لا تتم العبادة وتكمل إلا بالمداومة عليها ومقارنة الخشوع والخضوع وإخفائها وإخلاصها لله تعالى: وكذلك قوله عن إخلاصه الرسل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠] فإن الرغبة والرهبة وصف لهم إذا طلبوا وسألوا ووصف لهم إذا تعبدوا وتقربوا بأعمال الخير والقرب، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [سورة القصص: ٨٨] ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٧] وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن: ١٨] يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، فكما أن من طلب من غير الله حاجة لا يقدر عليها إلا الله فهو مشرك كافر، فكذلك من عبد مع الله غيره فهو مشرك كافر ومثله ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة يونس: ١٠٦] كل هذا يدخل فيه الأمران، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠] يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، أما دعاء المسألة فإنه يسأل الله تعالى في كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب ويقتضيه، فمن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الرحيم الغفور،

وحصول الرزق باسم الرزاق، وهكذا، وأما دعاء العبادة فهو التعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى، فيفهم أولاً معنى ذلك الاسم الكريم ثم يديم استحضاره بقلبه، يمتلىء قلبه منه، فالأسماء الدالة على الرحمة والفضل والإحسان تملأ القلب طمعاً في فضل الله ورجاء لروحه ورحمته، والأسماء الدالة على الوداد والحب والكمال تملأ القلب محبة وواداً وإنابة لله تعالى، والأسماء الدالة على سعة علمه ولطيف خبره توجب للعبد مراقبة الله تعالى والحياء منه، وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب دواعيه منقادة راغبة، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية، فنسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين.

[القواعد الحسان (ص١٦٩ ـ ١٧٢)]

* * *

أسباب حفظ الله العبد من الشرور الباطنة والظاهرة

وقال رحمه الله تعالى:

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة يوسف: ٢٤] وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة يوسف: ٣٤].

هذان الأمران من ألطاف حفظ الباري لخواص أنبيائه وأصفيائه صرف أسباب السوء والفحشاء الداخلية، وصرف الأسباب الخارجية، ومن أراد الله به خيراً صرف عنه الأمرين اللّذين هما مجموع الفتن، وذكر الله لهٰذا الصرف الذي هو من أجل نعمه سببين:

أحدهما: قوة الإخلاص من العبد واستخلاص الله له.

والثاني: اللهج بالتضرع والدعاء فمن أخلص لله؛ استخلصه الله ووفقه

لفعل الخيرات، وصرف عنه السوء والمكروهات، ومن تضرع له وألح بالدعاء؛ استجاب الله له فصرف عنه شر شياطين الإنس والجن، وكفاه كيد الكائدين ومكر الماكرين.

فيوسف ﷺ لما كمل الأمرين الإخلاص لله والتضرع له والالتجاء إليه والاعتصام به؛ حفظه الله حفظاً كاملاً من الشرور الباطنة والظاهرة، الداخلية والخارجية، والله تعالى يقص علينا قصص أنبيائه ليكون ذلك عبرة لنا، والعبرة هنا أن كل من له حظ من الإخلاص والدعاء والتضرع؛ فله خط من حفظ الله وصيانته بحسب ما قام به من قوة الأمرين أو ضعفهما، ومن فاته الأمران؛ وكل إلى نفسه، ولم يحصل له حفظ ولا صيانة، ووقع في فتن الشهوات والشبهات.

فنسأل الله العصمة، وأن لا يكلنا إلى حولنا وقوتنا طرفة عين، إنه جواد كريم.

وقد تضمن هذه المعاني الجليلة الدعاء الذي أرشد النبي ﷺ إليه أمته بفعله وقوله، وهو: **«اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه، وأن لا أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم»**[1]، فتضمن الاستعاذة من الشر الداخلي وهو شر النفس، والشر الخارجي وهو شر الشيطان وحبائله وأشراكه، ومن غايتي الشر وهما أن يقترف العبد سوءاً يجره إلى نفسه أو يجره إلى أخيه المسلم، فمن أعاذه الله من هذه الشرور فقد أعاذه من أسباب الشرور ومن غاياتها وألبسه ملابس العافية والسلامة والتوفيق.

[مجموع الفوائد (ص ٢٥٦ـ ٢٥٨)]

* * *

---

(١) والحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٩)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (١٢٠٤)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (٢٧٦٣).

الفصل الرابع

خطب شيخنا السعدي
في الحث على الدعاء

خطبة

في الحثِّ على الدعاء

الحمْدُ للهِ الذي أمرَ بالدعاءِ ووعَدَ عليْه الإجابةَ. وحثَّ على أفْعالِ الخيرِ كلِّها وجعَلَ جزاءها القبُولَ والإثابة. فسبحانَهُ من كريم جوادٍ رؤوفٍ بالعبادِ. يأمرُ عبادَهُ بالتقرُّبِ إليْهِ بالدعاءِ ويخبرهُمْ أنَّ خزائِنَه ليْس لَها نفادٌ. وأشْهدُ أن لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريك لهُ ولا نِدَّ ولا مضادَّ. وأشْهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ سيِّدُ الرُّسُلِ وخلاصةُ العبادِ. اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ عَلَى محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ العلماءِ العُبَّادِ وعلى التَّابعين لهُم بإحْسانٍ إلى يومِ التَّنادِ.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ؛ اتَّقوا الله تعالى. وتعَرَّضوا لِنفحاتِ المَوْلى في جميعِ الأوقاتِ بالدُّعاءِ والرجا. واعلمُوا أنَّ الدُّعاءَ يجلبُ الخيراتِ ويُستدفعُ به البلا. وأنَّهُ ما دعا اللهَ داعٍ إلاَّ أعْطاهُ ما سألَهُ مؤجَّلاً أو ادّخرَ لهُ خيراً منْهُ ثواباً مؤجَّلاً. وصرَفَ عنْهُ مِنَ السوءِ أعْظَم مِنْهُ، كرماً مِنْهُ وإحْساناً وتفَضّلاً. وفي الصَّحيحِ مَرْفوعاً: «**يُسْتَجابُ للْعَبدِ ما لمْ يدعُ بإثْمٍ أو قطيعَةِ رَحمٍ ما لمْ يعجِّلْ**» قيلَ: يا رسُولَ اللهِ، ما الاستِعْجالُ؟ قال: «**يقولُ: قدْ دعوتُ وقدْ دعوتُ فلمْ أرَ يُسْتَجابُ لي، فَيتحسر عنْدَ ذلك ويَدَعُ الدُّعاءَ**»[1]. وفي حديثٍ: «**منْ فتحَ اللهِ لهُ باب الدُّعاءِ فُتحَتْ لهُ أبوابُ الرَّحمة، ولَيْسَ شيءٌ أكرمَ على اللهِ من الدُّعاءِ، هُو العبادةُ**» ثمَّ قرأ قولَهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2] [سورة غافر: ٦٠]، إنَّ الدُّعاءَ ينفعُ ممَّا نزَلَ وممَّا لم ينزِلْ؛ فعَليكُمْ عبادَ اللهِ بالدُّعاءِ. ليَسْألْ أحدُكمْ ربَّه حاجتَه كلَّها. وكيفَ لا يكونُ الدُّعاءُ مخَّ العبادةِ وخالِصَها وهو مِنْ

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٨٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣٧٩٧)، وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن الترمذي رقم (٧٠٨).

أعظمِ القُرَبِ لربِّ العالمينَ؟ وبه يُدرِكُ العَبْدُ الدُّنْيَا والدِّين؟ وبكثرةِ الإلحاحِ فيه على اللهِ يَنْقطعُ الرجاءُ من المخلوقينَ. ويكمُلُ رجاؤهُ وطمَعُهُ في رحمةِ أرحمِ الراحمين.. ألا وإنَّ الدُّعاءَ ينبِىءُ عن حقيقةِ العبُوديةِ وقوةِ الافْتقارِ، ويوجبُ للعبْدِ خضوعَهُ وخشوعه لربِّهِ وشِدةَ الانكسار، فكمْ مِنْ حاجةٍ دينيَّةٍ ودُنَيويَّه ألجأتْك إلى كثرةِ التضرُّعِ واللَّجاءِ إلى اللهِ والاضطرار، وكمْ مِنْ دعوة رفع الله بها المكارهَ وأنواعَ المضارِّ، وجَلَبَ بها الخيراتِ والبركاتِ والمسارَّ، وكمْ تعرَّضَ العبْدُ لنفحاتِ الكريم في ساعاتِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، فأصابه نفحةٌ منها في ساعةِ إجابةٍ فسعِدَ بها وأفلحَ والتحَقَ بالأبْرار، وكمْ تضرَّع تائبٌ فتابَ عليْه وغفرَ لهُ الخطايا والأوزار، وكم دعاهُ مضْطرٌّ فكشَفَ عنْهُ السوءَ وزالَ عنه الاضطرار، وكم لجأ إليْه مستغيثٌ فأغاثَهُ بخيره المدرار، فمن وفِّقَ لكثرةِ الدّعاءِ فليُبشِر بقربِ الإجابة، ومن أنزلَ حوائجه كلّها بربه فليطمئن بحصولها من فضله وثوابِه، فحقيقٌ بك أيُّها العبدُ أنْ تلحَّ بالدُّعاءِ ليلاً ونهاراً، وأن تلجأ إليْه سِرًّا وجهاراً، وأنْ تعلمَ أنَّهُ لا غنىً لك عنه طرفَةَ عينٍ في دينكَ ودُنْياكَ، فإنَّهُ ربُّكَ وإلٰهُكَ ونَصيرُكَ ومولاكَ.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦].

خطبة

في التوسل إلى الله بالوسائل النافعة

الحمْدُ للهِ الرَّبِّ العظيم، الرَّؤوفِ الرَّحيم، ذي الفضْلِ العظيم والإحْسانِ العميم. وأشْهدُ أن لا إله إلاَّ اللَّهُ وحدَه لا شريكَ لهَ الملكُ الكريمُ، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ الذي قال اللَّهُ فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [سورة القلم: ٤]، اللَّهمَّ صلِّ وسَلِّم وبارِكْ على محمَّد وعلى آلِهِ وأصحابِه ومن تبِعَهُم في هديهمْ القويم.

أما بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٥﴾ [سورة المائدة: ٣٥].

أمَّا التَّقْوى هُنا فهي اجتنابُ الكُفرِ والفسوقِ والعصيانِ، وأمَّا الجهادُ في سبيلِهِ فهو بذْلُ الجُهْدِ في مقاومَةِ أهْلِ الانحرافِ والإلحادِ والكفرانِ، وأمَّا ابتغاءُ الوسيلةِ إليه فهي التقرُّب إليه بأصول الإيمان وشرائِع الإسْلام وحقائِق الإحْسانِ، من تعبَّد لهُ أو دعاهُ بأسمائِه وصفاتِه فذاكَ أفْضلُ الوسائِلِ، ومن توسَّلَ إليه بإحْسانِه ونِعَمِهِ وجودِه وكرمِهِ فقدْ سلَكَ مَسْلَك الأصفياءِ الأفاضل، ومن تقرَّبَ إليْه بتركِ معاصِيهِ والعملِ بما يُرضيهِ فهو الذي لا شَكَّ إلى كلِّ خيرٍ واصلٌ، ومن توسَّلَ إليْه بحاجتِه وفقرِه وضرورَته فقدْ توسَّل إليه بخير الوسائِلِ، ومن توسَّلَ إليْه بذواتِ المخلوقينَ وجاهِهِمْ فهو مُبْتدعٌ ظالمٌ، ومن دعا مخلوقاً أو استغاثَ به وزَعَمَ أنَّهُ يتوسَّلُ به إلى الله فهو مشركٌ آثِم، فتوسَّلوا إلى ربِّكُمْ بكثرة السُّجودِ والرُّكُوعِ، وتوسَّلوا إليه بتلاوةِ كلامِه بتدبُّرٍ وخشوعٍ، وتوسَّلوا إليهِ بالإحْسانِ إلى الخَلقِ، إن الله يُحبُّ المحسنين، وببرِّ الوالدين وصِلةِ الأرحامِ فإنَّ الله يَصِلُ الواصِلينَ، ويقطعُ القاطعينَ، توسَّلوا إليْهِ باللَّهْجِ بذِكرِه واستغفارِه فيا سعادةَ الذَّاكرين، توسَّلوا إليه بمحَبَّة نَبِيكُمْ، وكثْرةِ الصَّلاةِ والسَّلامِ عليه، فمَنْ أكثرَ الصَّلاة عليه كفاهُ اللَّهُ همَّهُ وقضى حاجتهُ، ومنْ صلى عليهِ صلى الله عليْه عشر أضعافها ونالَ حُبَّهُ وشفاعَتَهُ. توسَّلوا إليهِ بالحُنُوِّ على اليتامى والضُّعفا، وتقرَّبوا إليه بِرَحْمَةِ البهائمِ فإنَّما يَرْحَمُ الله مِنْ عبادِه الرُّحما، توسَّلوا إليه بسلامَةِ الصُّدورِ من الفِسقِ والغلِّ والحقْدِ على المسلمين، وبالنَّصيحةِ والشَّفَقَةِ على الخلقِ أجمعين، توسَّلوا إلى اللَّهِ بتركِ ما تدعو لهُ النَّفْسُ الأمّارةُ بالسوء من الهوى والتَّبعاتِ، وبغضِّ الأبْصارِ وصيانَةِ اللِّسانِ والبعدِ عن جميعِ المحرَّماتِ، توسّلوا إلى اللهِ بكمالِ الإخْلاص للمعبود والمتابَعَةِ للرّسول، لِتُدْرِكُوا كلَّ مطلوبٍ ومرغوبٍ ومأمولٍ. بَارَكَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

* * *

اللآلىء والدرر السعدية

(الصبر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾. [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠ـ ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. وبعد:

«فإن الله سبحانه جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجنداً غالباً لا يهزم، وحصناً حصيناً لا يُهدم ولا يُثلم، فهو والنصر أخوان شقيقان.

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما ... بأسحم داج عوض لا نتفرق

فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد، ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد.

ولقد ضمن الله سبحانه لأهله، من محكم الكتاب أن يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأخبرهم أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦] فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمته الباطنة والظاهرة. وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين فقال تعالى ـ وبقوله اهتدى المهتدون ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة السجدة: ٢٤]، وأخبر أن مع الصبر خير لأهله، مؤكداً باليمين، فقال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٦] وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو، ولو كان ذا تسليط، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٠].

وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه وصّلاه إلى محل العز والتمكين فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ٩٠].

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى فعقل عنه ذلك المؤمنون فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠]. وأخبر عن محبته لأهله وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦].

ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة البقرة: ١٥٥ـ ١٥٧].

وأوصى عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة، على نوائب الدنيا والدين فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة البقرة: ٤٥].

وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار، لا يحظى به إلا الصابرون فقال تعالى:

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴿١١١﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١١١].

وأخبر أن الرغبة في ثوابه، والإعراض عن الدنيا وزينتها لا ينالها إلا أولو الصبر المؤمنون، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴿٨٠﴾﴾ [سورة القصص: ٨٠].

وأخبر تعالى أن دفع السيئة بالتي هي أحسن، تجعل المسيء كأنه ولي حميم فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴿٣٤﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٤].

وأن هذه الخصلة: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥].

وأخبر سبحانه خبراً مؤكداً بالقسم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر: ٢ـ ٣].

وقسم خلقه قسمين: أصحاب ميمنة. وأصحاب مشأمة، وخص أصحاب الميمنة أهل التواصي بالصبر والمرحمة، وخص بالانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكر تمييزاً لهم بهذا الحظ الموفور، فقال في أربع آيات من كتابه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة لقمان: ٣١]. وعلق المغفرة والأجر بالعمل الصالح والصبر وذلك على من يسره عليه يسير فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴿١١﴾﴾ [سورة هود: ١١]. وأخبر أن الصبر والمغفرة من العزائم التي تجارة أربابها لا تبور، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الشورى: ٤٣].

وأمر رسوله بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره إنما هو به، وبذلك جميع المصائب تهون فقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة الطور: ٤٨] وقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة النحل: ١٢٧ـ ١٢٨].

والصبر آخِية[1] المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، وساقُ إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل من غاية الضعف، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلبَ على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ولم يحط منهما إلا بالصفقة الخاسرة.

فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[2].

وهذا الكتاب الذي بين يديك، يحتوي على لآلىء غالية ودرراً نفيسة، وفوائد جمة في الكلام على الصبر[3] وجزاء الصابرين، لإمام فاضل من أئمة

---

(١) أي العروة التي تشد إليها الدابة.

(٢) من مقدمة الإمام الفذ شيخ الإسلام ابن القيم ـ رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح الجنة ـ لكتابه «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين».

(٣) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
الصبر لغة: الحبس.
وشرعاً: حبس النفس على ثلاثة أمور:
الأول: طاعة الله. الثاني: عن محارم الله. الثالث: على أقدار الله المؤلمة. هذه أنواع الصبر التي ذكرها أهل العلم.
الأمر الأول: أن يصبر الإنسان على طاعة الله لأن الطاعة ثقيلة على النفس تصعب على الإنسان، وكذلك ربما تكون ثقيلة على البدن بحيث يكون مع الإنسان شيء من العجز والتّعب، وكذلك أيضاً يكون فيها مشقة من النّاحية المالية كمسألة الزكاة ومسألة الحج.
المهم أن الطاعات فيها شيء من المشقة على النفس والبدن فتحتاج إلى صبر وإلى معاناة.
قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].
الأمر الثاني: الصبر عن محارم الله بحيث يكف الإنسان نفسه عما حرم الله عليه. لأن النفس الأمارة بالسُّوء تدعو إلى السوء فيُصَبِّر الإنسان نفسه. مثل الكذب والغش في المعاملات وأكل المال بالباطل بالربا أو غيره والزّنى وشُرب الخمر والسَّرقة وما أشبه ذلك من المعاصي الكثيرة.
فيحبس الإنسان نفسه عنها حتى لا يفعلها وهذا يحتاج أيضاً إلى معاناة ويحتاج إلى كف النّفس والهوى. =

المسلمين - قضى عمره في الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ هذا الذين وتبصير

= **أما الأمر الثَّالث**: فهو الصَّبر على أقدار الله المؤلمة لأن أقدار الله عز وجل على الإنسان ملائمة ومؤلمة.

الملائمة: تحتاج إلى الشُّكر، والشكر من الطاعات فالصَّبر عليه من النَّوع الأول.

ومؤلمة: بحيث لا تلائم الإنسان، فيبتلى الإنسان في بدنه يُبتلى في ماله يفقده. يُبتلى في أهله ويُبتلى في مجتمعه، المهم أن أنواع البلايا كثيرة تحتاج إلى صبر ومُعاناة. فيصبر الإنسان نفسه عمَّا يَحْرم عليه من إظهار الجزع باللِّسان أو بالقلب أو بالجوارح. لأن الإنسان عند حلول المصيبة له أربع حالات:

الحال الأولى: أن يتسخَّط، **والحالة الثانية**: أن يصبر، **والحالة الثالثة**: أن يرضى، **والحالة الرابعة**: أن يشكر.

هذه أربع حالات تكون للإنسان عندما يُصاب بالمصيبة.

أما الحال الأولى: أن يتَسخَّط إمَّا بقَلْبِه أو بِلسَانه أو بجوارحه.

التَّسَخُّط بالقلب أن يكون في قَلْبه شيء على رَبِّه من السُّخط والشرَه على الله والعياذ بالله وما أشبهه، ويشعر وكأن الله قد ظلمه بهذه المصيبة.

- وأما باللِّسان فأن يدعو بالويل والثُّبور، يا ويلاه يا ثبوراه وأن يَسُب الدَّهر فيؤذي الله عز وجل وما أشبهه.

- التسخط بالجوارح مثل أن يلطم خدّه أو يصفع رأسه أو ينتف شعره أو يشق ثوبه وما أشبه هذا.

هذا حال السخط حال الهلعين الذين حرموا من الثواب ولم ينجوا من المصيبة بل الذين اكتسبوا الإثم. فصار عندهم مصيبتان في الدِّين بالسخط ومصيبة في الدُّنيا لما أتاهم ممَّا يؤلمهم.

أما الحال الثانية: فالصبر على المصيبة بأن يحبس نفسه، هو يكره المصيبة ولا يحبها ولا يحب أن وقعت لكن يصبر نفسه لا يتحدث باللسان بما يُسخِطُ الله ولا يفعل بجوارحه ما يُغضب الله ولا يكون في قلبه على الله شيء أبداً. صابر لكنه كاره لها.

والحال الثالثة: الرِّضى بأن يكون الإنسان منشرحاً صدره بهذه المصيبة ويرضى بها رضاءً تاماً وكأنه لم يصب بها.

والحال الرابعة: الشُّكر فيشكر الله عليها، وكان الرسول عليه الصَّلاة والسلام إذا رأى ما يكره قال: الحمد لله على كل حال.

فيشكر الله من أجل أن الله يُرتِّب لهُ من الثواب على هذه المصيبة أكثر ممَّا أصابه.

ولهذا يُذكر عن بعض العَابدات أنها أُصيبت في أصبعها فحمدت الله على ذلك، فقالوا =

الناس بالعقيدة الصحيحة والمنهج الحق ـ ألا وهو الإمام العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، جمعتها واقتطفتها من كتبه الثمينة، وتفسيره القيم، ورتبتها ودونتها في هذا الكتاب لتسهل قراءتها ومدارستها والرجوع إليها فيعم نفعها بإذن الله تعالى.

وقد أضفت لها درراً أخرى من كلام أئمتنا ومشايخنا، كالإمام ابن القيم رحمه الله تعالى وشيخنا الغالي سماحة الوالد الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنة.

وقد قسمت الكتاب إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: الآيات التي تحض على الصبر وتفسير شيخنا السعدي لها.

الفصل الثاني: شرح شيخنا السعدي لبعض الأحاديث التي تحث على الصبر والرضى بقضاء الله وقدره.

الفصل الثالث: فصول ومباحث وفوائد من كلام شيخنا السعدي حول فضل الصبر والرضى بقضاء الله وقدره.

الفصل الرابع: بعض خطب شيخنا السعدي حول الحث على الصبر وانتظار الفرج.

هذا وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني عملي هذا، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه، وأن يغفر لشيخنا عبد الرحمن السعدي، ولجميع مشايخنا وعلمائنا، وأن يحشرنا وإياهم وجميع المسلمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه آجمعين

وكتب

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

= لها: كيف تحمدين الله والأصبع قد أصابه ما أصابه قالت إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها. والله الموفق.

[شرح رياض الصالحين (١/ ١٢٠)]

الآيات التي
تحث على الصبر
وتفسير شَيخنا السعدي لها

الآية الأولى:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1][سورة البقرة: ١٥٣ ـ ١٥٧].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
وأما قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥]، هذه الآية فيها قَسَمٌ من الله عز وجل أن يختبر العباد بهذه الأمور.

فقوله: ﴿**لنبلُونَّكم**﴾ أي: لنختبركم.
﴿**بشيءٍ من الخَوْفِ**﴾ لا الخوف كله بل بشيء منه لأن الخوف كله مهلك ومدمر. لكن بشيء منه.
﴿**الخوف**﴾: هو فَقْدُ الأمن وهو أعْظَمُ من الجوع. ولهذا قدَّمه الله عليه، لأن الإنسان الجائع ربما يتعلل ويذهب يطلب ولو كان لِحَاءَ شجر. لكن الخائف والعياذ بالله لا يستقر لا في بيته ولا في سوقه. وأخوف ما نخاف منه ذُنوبنا لأن الذُّنوب سَبَبٌ لكل الوَيلات وسببٌ للمخاطر والمخاوف والعقوبات الدِّينية والدنيوية.
و﴿**الجوع**﴾ أي: يبتلى بالجوع.
والجوع يحتمل معنيين:
المعنى الأول: أن يحدث الله سبحانه في العباد وباءً هو وباء الجوع بحيث يأكل الإنسان ولا يشبع وهذا يمر على الناس وقد مر بهذه البلاد سنة معروفة عند العامة تسمَّى سنة الجوع. يأكل الإنسان الشَّيء الكثير ولكنه لا يشبع والعياذ بالله أبداً.
نُحدث أن الإنسان يأكل من التمر محفراً كاملاً في آن واحد ولا يشبع والعياذ بالله. ويأكل الخبز الكثير ولا يشبع لمرض فيه.
النَّوع الثاني: الجدب والسِّنين الممحلة التي لا يدر فيها ضرع ولا ينمو فيها زرع هذا من الجوع.
وقوله: ﴿ونَقْصٍ من الأموالِ﴾ يعني نقْص الاقتصاد بحيث تُصاب الأمة بقلة المادة =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

أمر الله تعالى المؤمنين، بالاستعانة على أمورهم الدنيوية **﴿بالصبر**

= والفقر ويتأخر اقتصادها وترهق حكومتها بالديون التي تأتي نتيجة لأسباب يقدرها الله عز وجل ابتلاءً وامتحاناً.

وقوله: **﴿والأنفُسِ﴾** أي: الموت بحيث يحِلُّ في الناس أوْبئة تهلكهم وتقْضي عليهم.

وهذا أيضاً يحدث كثيراً، ولقد حُدِّثنا أنَّه حدث في هذه البلاد ـ أي البلاد النجدية ـ حدث فيها وباء عظيم تُسمَّى سَتُّه عند العامة سنة الرحمة!! إذا دخل الوباء في البيت لم يبق منهم أحد إلاَّ دُفِن والعياذ بالله.

يدخل في البيت فيه عشرة أنفس أو أكثر فيُصاب هذا بعرض ومن غدٍ الثاني والثالث والرابع حتى يموتوا عن آخرهم. وحدثنا أنه قدم في هذا المسجد ـ مسجد الجامع الكبير بعنيزة ـ وكان الناس بالأول في قرية صغيرة ما فيها ناس كثير كما هو الحال اليوم.

يُقدَّم أحياناً في فَرْض الصَّلاة الواحد سبع إلى ثمان جنائز نعوذ بالله من الأوبئة.

وقوله: **﴿الثمرات﴾** أي: أن لا يكون هناك جوع ولكن تنقص الثمرات تنزع بكرتها في الزروع والنخيل وفي الأشجار الأخرى والله عز وجل يبتلي العباد بهذه الأمور ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون.

فيقابل الناس هذه المصائب بدرجات متنوعة بالتسخط، بالصَّبر، وبالرِّضى بالشكر كما قلناه فيما سبق، والله الموفق.

ولما ذكر الله هذا الابتلاء قال: **﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾** والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يبلغه هذا الخطاب.

يعني بَشِّر يا محمد وبَشِّر يا من يَبْلغُهُ هذا الكلام الصَّابرين الذين يصبرون على هذه البلوى فلا يقابلونها بالتَّسخط وإنما يقابلونها بالصَّبر.

وأكمل من ذلك أن يُقابلوها بالرِّضى وأكمل من ذلك أن يقابلوها بالشُّكر كما مرّ علينا في مراتب التحمل في أقدار الله المؤلمة.

وقوله: **﴿قالُوا إنَّا لله﴾** إذا أصابتهم مصيبة اعترفوا لله عز وجل بعموم ملكه، وأنهم ملك لله ولله أن يفعل في ملكه ما شاء، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام لإحدى بناته قال: **«فإنَّ لله ما أخَذَ ولَهُ ما أبْقَىٰ»** [رواه البخاري]، فأنت ملك لربِّك عز وجل يفعل بك مَا يَشاء حَسَب ما تقتضيه حكمته تبارك وتعالىٰ.

ثم قال: **﴿وإنَّا إلَيْهِ راجِعُون﴾** يعترفون بأنهم لا بد أن يرجعوا إلى الله فيجازيهم. إن تسخّطوا جازَاهم على سخطهم وإن صبروا كما هو شأن هؤلاء القوم فإنَّ الله يجازيهم=

والصلاة﴾. فالصبر هو: حبس النفس وكفها عما تكره، هو ثلاثة أقسام:

صبرها على طاعة الله، حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار لله المؤلمة فلا تتسخطها. فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر، أن يدرك مطلوبه، وخصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار، إلى تحمل الصبر، وتجرع المرارة الشاقة. فإذا لازم صاحبها الصبر، فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة، عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئاً، وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد. فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم، وكف لدواعي قلبه ونوازعها، لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار. وكذلك البلاء الشاق، خصوصاً إن لم

= على صبرهم على هذه المصائب فيبتلي عز وجل بالبلاء ويثيب الصابر عليه.
قال الله عز وجل: **﴿أولئكَ علَيهِم صلَوَاتٌ من رَبِّهم ورَحْمة﴾** أولئك يعني الصَّابرين، والصَّلوات جمع صلاة وهي ثناء الله عليهم في الملأ الأعلىٰ عند الملائكة.
وقوله: **﴿وأولَئكَ هُمُ المُهْتدُون﴾** الذين هداهم الله عز وجل عند حلول المصائب فلم يتسخطوا ولكن صبروا على ما أصابهم. وفي هذه الآية دليل على أن صلاة الله عز وجل ليست هي رحمة بل هي أخص وأكمل وأفضل ومن فسرها من العلماء بأن الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الدُّعاء ومن الآدميين الاستغفار، إن هذا لا وجه له بل الصَّلاة غير الرَّحمة لأن الله عطف الرحمة على الصَّلوات والعطف يقتضي المغايرة. ولأن العلماء مجمعون على أنك يجوز لك أن تقول لأي شخص من المؤمنين اللَّهُمَّ ارحم فلاناً.
واختلفوا هل يجوز أن يُصلى عليه أو لا يجوز على أقوال ثلاثة:
ـ فمنهم من أجازها مطلقاً، ومنهم من مَنَعها مطلقاً ومنهم من أجازها إذا كان تبعاً.
والصحيح أنها تجوز إذا كانت تبعاً كما في قوله: **«اللَّهُمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد»** أو لم تكن تبعاً ولكن لها سبب كما قال الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣] فإذا كان لها سبب ولم تتخذ شعاراً فإنه لا بأس به. فلا بأس أن تقول اللَّهُمَّ صَلِّ على فلان، فلو جاءك رجل وقال لك: خذ زكاتي وفرقها على الفقراء فلك أن تقول صلى الله عليك! تدعو له بأن الله يصلي عليه كما أمر الله نبيه ﷺ بذلك.

[شرح رياض الصالحين (١/ ١٢٤ ـ ١٣٣)]

يقاومها صاحبها بالصبر لله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، والافتقار على الدوام. فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر إليه في كل حالة من أحواله.

فلهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه: ﴿**مع الصابرين**﴾ أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً، وصفة، وملكة ـ بمعونته وتوفيقه، وتسديده. فهانت عليهم بذلك، المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة. وهذه معية خاصة، تقتضي محبته ومعونته، ونصره وقربه، وهذه منقبة عظيمة للصابرين. فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلاً وشرفاً. وأما المعية العامة، فهي معية العلم والقدرة، كما في قوله تعالى: ﴿**وهو معكم أينما كنتم**﴾ وهذه عامة للخلق. وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه. فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها، وما يسن، وحصل فيها حضور القلب، الذي هو لبها فصار العبد إذا دخل فيها، استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه، موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه ـ لا جرم أن هذه الصلاة، من أكبر المعونة على جميع الأمور فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه، وصفاً، وداعياً يدعوه إلى امتثال أوامر ربه، واجتناب نواهيه. هذه هي الصلاة التي أمر الله، أن نستعين بها على كل شيء.

ولما ذكر تبارك وتعالى، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال، ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية، وأشقها على النفوس، لمشقته في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل، وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها. فكل ما يتصرفون به، فإنه سعي لها، ودفع لما يضادها. ومن المعلوم، أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم.

فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل، مما تظنون وتحسبون.

فالشهداء: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾. فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني في المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي، وهو الفرح. وهو الاستبشار، وزوال كل خوف وحزن. وهذه حياة برزخية، أكمل من الحياة الدنيا. ،بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وفي هذه الآية، أعظم حث على الجهاد في سبيل الله، وملازمة الصبر عليه. فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب، لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام، هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد ﴿. . . ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾. فوالله لو كان للإنسان ألف نفس، تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله، لم يكن عظيماً في جانب هذ الأجر العظيم. ولهذا لا يتمنى الشهداء - بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه - إلا أن يردوا إلى الدنيا، حتى يقتلون في سبيله مرة بعد مرة. وفي الآية، دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص.

(ثم) أخبر تعالى، أنه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده. لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين.

فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده: **﴿بشيء من الخوف﴾** من الأعداء **﴿والجوع﴾** أي: بشيء يسير منهما. لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله، أو الجوع، لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك. **﴿ونقص من الأموال﴾** وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال، من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك.

﴿**والأنفس**﴾ أي ذهاب الأحباب، من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه.

﴿**والثمرات**﴾ أي الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر ببرد، أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه. فهذه الأمور، لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير، أخبر بها، فوقعت كما أخبر. فإذا وقعت، انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع، حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر. ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان. وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له السخط الدال على شدة النقصان. وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخط، قولاً وفعلاً، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه. من الأجر بصبره، أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثواب.

فلهذا قال تعالى: ﴿**وبشر الصابرين**﴾ أي: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون، هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة.

ثم وصفهم بقوله: ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة**﴾ وهي كل ما يؤلم القلب، أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره.

﴿**قالوا إنا لله**﴾ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء. فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين، بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه. بل من كمال عبودية العبد، علمه، بأن وقوع البلية من المالك الحكيم، الذي هو أرحم بعبده من نفسه. فيوجب له ذلك، الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك. ومع أننا مملوكون لله، فإنا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله. فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفوراً عنده. وإن جزعنا وسخطنا، لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر. فكون العبد لله، وراجعاً إليه، من أقوى أسباب الصبر.

﴿أولئك﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عليهم صلوات من ربهم﴾ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿ورحمة﴾ عظيمة. ومن رحمته إياهم، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر.

﴿وأولئك هم المهتدون﴾ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع، علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله. ودلت هذه الآية، على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة، والضلال والخسارة. فما أعظم الفرق بين الفريقين: «وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين». فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل، إذا وقعت. وبيان ما تقابل به، إذا وقعت، وهو الصبر. وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابرين من الأجر. ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر. وأن هذا الابتلاء والامتحان، سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وبيان أنواع المصائب.

[تيسير الكريم الرحمن (ص ١١٦- ١٢١)]

الآية الثانية:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل: ٩٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿ولنجزين الذين صبروا﴾ على طاعة الله وعن معصيته وفطموا أنفسهم من الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٨٢)]

الآية الثالثة:

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ٩٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**إنه من يتق ويصبر**﴾ أي يتقي فعل ما حرم الله ويصبر على الآلام والمصائب وعلى الأوامر بامتثالها ﴿**فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٣٤)]

الآية الرابعة:

يقول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1] [سورة البقرة: ٤٥].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية:
يأمر الله سبحانه وتعالى بالاستعانة بأمرين: الصبر والصلاة، فالصبر حبس النفس عن التشكي والتسخط، والصلاة هي التعبد لله عزَّ وجلَّ بالعبادة المعروفة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم، ويبين أن الاستعانة بالصبر والصلاة كبيرة إلاَّ على الخاشعين، أو أن الصلاة نفسها كبيرة إلاَّ على الخاشعين، والخشوع هو الذل، بل هو أعظم الذل وأكمله، والمراد بذلك الخشوع لله عز وجل.
أحكام وفوائد هاتين الآيتين:
ـ طلب الاستعانة بالصبر في مكابدة الأمور، لأن الإنسان الذي لا يصبر لا يتم له مطلوبه، فإن كثيراً من الأمور لا تأتي الإنسان بسهولة، بل تحتاج إلى تحمل وصبر.
وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. فأما الصبر على طاعة الله فهو أن يقوم الإنسان بأوامر الله عزَّ وجلَّ غير متضجر ولا ضائق بها صدره، بل يتقبلها بانشراح وسرور حتى يقوم بالعبادة وهو يحب أن يقوم بها، وأما الصبر عن محارم الله فهو الكف عما حرم الله عليه سواء أكان مما يتعلق بحقوق الله أو ما يتعلق بحقوق العباد، فيكف نفسه عن العدوان والظلم والكذب وعما هو أعظم من ذلك من الشرك والكفر ونحو هذا، والثالث: الصبر =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أمرهم أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه وهو الصبر عن معصية الله حتى يتركها والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه، معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور **﴿وإنها﴾** أي الصلاة **﴿لكبيرة﴾** أي شاقة **﴿إلا على الخاشعين﴾** فإنها سهلة عليهم خفيفة لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، منشرحاً صدره لترقبه الثواب وخشيته من العقاب. بخلاف من لم يكن كذلك فإنه لا داعي له يدعوه إليها،

= على أقدار الله المؤلمة، لأن أقدار الله تعالى قد تكون ملائمة للإنسان يفرح بها، ويطمئن إليها، ويُسرُّ بها، وهذه لا تحتاج إلى صبر، اللهم إلاّ إذا صبر على شكرها.

والثانية: أقدار مؤلمة شاقة على الإنسان يتعب منها، فهذه تحتاج إلى مصابرة وإلى عناء، فكلما مرّن الإنسان نفسه على الصبر والتحمل ازداد ثباتاً، وحصل له من مطلوبه ما لم يحصل له لو تضجر، وهذا شيء مجرب، أن الإنسان إذا تمرّن على الصبر والتحمل صار عنده من مدافعة الأمور ما ليس عند غيره.

ـ الاستعانة بالصلاة على مكابدة الأمور أيضاً، وقد ذكر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر (يعني كربه أو شق عليه) فزع إلى الصلاة، وذلك لأن الصلاة تنسي الإنسان الدنيا إذا كان مخلصاً فيها، فإن الإنسان يقف بين يدي الله عز وجل يناجيه ويتقرب إليه بتعظيمه وتلاوة كتابه ويناجيه بالدعاء يقول: رب اغفر لي، ارحمني، وما أشبه ذلك فيتسلى بها الإنسان عن أمور الدنيا، وحينئذ يتحمل المشاق، ولهذا قال النبي ﷺ: **«حُبِّبَ إليَّ من دنياكُم النساءُ والطيبُ، وجُعلت قُرَّة عيني في الصلاة»**. فهي قرة عين المؤمن. ويُذكر عن عروة بن الزبير رحمه الله وهو من الفقهاء السبعة الذين اشتهروا في زمن التابعين أنه أصابته آكلة في رجله وقرر الأطباء أنه لا بد من قطعها ولم يكن في ذلك الوقت بِنْجٌ يُبَنَّجُ به الإنسان فقال لهم: إذا دخلت في الصلاة فأتوا واقطعوها، لأنه إذا دخل في الصلاة اشتغل بها عما سواها فتقطع رجله وهو لا يشعر لشدة تعلقه بالله سبحانه وتعالى.

ـ ومن فوائدهما أن الخاشع المطمئن لأمر الله المُخبت له تسهل عليه الصلاة ويسهل عليه الصبر، ولا يكون أمراً شاقاً عليه؛ لقوله تعالى: **﴿وإنَّهَا لكبيرةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشِعِين﴾**.

[أحكام من القرآن الكريم (ص ٢٠٤ـ ٢٠٦)]

وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه، والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالى وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً وإيماناً به وبلقائه.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٥٧)]

الآية الخامسة:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾[1] [سورة آل عمران: ٢٠٠].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

وقوله الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فأمر الله المؤمنين بمقتضى إيمانهم وبشرف إيمانهم بهذه الأوامر الثلاثة بل أربعة:

اصبروا، وصَابروا، ورابطوا، واتّقوا الله.

فالصبر عن المعصية والمصابرة على الطّاعة والمرابطة كثرة الخير وتتابع الخير والتقوى تعمُّ ذلك كله.

فاصبروا عن محارم الله: لا تفعلوها، تجنبوها ولا تقربوها.

ومن المعلوم أن الصّبر عن المعصية لا يكون إلاّ حيث دَعَتْ إليه النّفس، أما الإنسان الذي لم تطرأ على باله المعصية فلا يقال إنه صبر عنها ولكن إذا دعتك نفسك إلى المعصية فاصبر واحبس النفس.

وأما المصابرة فهي على الطّاعة لأن الطاعة فيها أمران:

الأمر الأول: فعل يتكلف به الإنسان ويلزم نفسه به.

الأمر الثاني: ثقل على النّفس لأن فعل الطاعة كترك المعصية ثقيلة على النفوس الأمارة بالسوء.

فلهذا كان الصبر على الطّاعة أفضل من الصّبر على المعصية، ولهذا قال الله تعالى: ﴿صَابِرواْ﴾ كأن أحداً يُصَابرك كما يُصابر الإنسان عدوه في القتال والجهاد.

وأما المرابطة فهي كثرة الخير والاستمرار عَليه، ولهذا جاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إسْباغُ الوُضوء عَلى المَكارِه، وكَثْرة الخطىٰ إلى المَسَاجد، وانْتِظارُ الصَّلاة بعْد الصَّلاةِ، فذَلِكُم الرِّباطُ فَذَلِكُم الرِّبَاطُ**» [رواه مسلم] لأن فيه استمراراً في الطاعة وكثرة لفعلها.

وأما التّقوىٰ فإنها تشمل ذلك كله، لأن التّقوى اتخاذ ما يَقي من عِقاب الله وهذا يكون بفعل =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

حض الله المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح وهو الفوز بالسعادة والنجاح وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر الذي هو حبس النفس على ما يكرهه من ترك المعاصي ومن الصبر على المصائب وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.

والمصابرة هي: الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال. والمرابطة وهو: لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه وأن يراقبوا أعداءهم ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم. لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والآخروي وينجون من المكروه كذلك.

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات. فلم يفلح من أفلح إلا بها ولم يفت أحد الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها. والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٠٨)]

الآية السادسة:

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة القصص: ٨٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**وقال الذين أوتوا العلم**﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء ونظروا إلى باطن

= الأوامر واجتناب النَّواهي.

وعلى هذا فعطفها على ما سَبق من باب عَطف العام على الخاص ثم بيَّن الله تعالى أن القيام بهذه الأوامر الأربعة سَببٌ للفلاح فقال: ﴿لَعَلَّكُم تُفْلِحُون﴾.

والفلاح كلمة جامعة تدور على شيئين: على حُصُول المطلوب وعلى النَّجاة من المرهوب. فمن اتَّقى الله عز وجل حَصَل له مَطْلوبه ونجا من مرهوبه.

[شرح رياض الصالحين (١/ ١٢٢)]

الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿ويلكم﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم راثين لحالهم منكرين لمقالهم. ﴿ثواب الله﴾ العاجل من لذة العبادة ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه. والآجل من الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه فهذه حقيقة الأمر.

ولكن ما كل من يعلم ذلك يقبل عليه فما يُلقى ذلك ويوفق له ﴿إلا الصابرون﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلفوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٢)]

الآية السابعة:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] [سورة الزمر: ١٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وهذا عام من جميع أنواع الصبر: الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر على معاصيه فلا

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿يُوَفَّى الصَّابرون﴾، أي: يُعطى الصَّابرون، ﴿أجرهم﴾: ثوابهم.

وقوله: ﴿بغير حِساب﴾ لأن الأعمال الصَّالحة مضاعفة الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.
أما الصبر فإن مضاعفته تأتي بغير حساب من عند الله عز وجل وهذا يدلُّ على أن أجره عظيم، وأن الإنسان لا يمكن أن يتصور هذا الأجر لأنه لم يقابل بعدد بل هو أمر معلوم عند الله ولا حساب فيه، لا يُقال مثلاً الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف بل يقال إنَّه يُوفى أجره بغير حساب. وفي هذه الآية من الترغيب في الصَّبر ما هو ظاهر.
[شرح رياض الصالحين (١/ ١٢٦)]

يرتكبها والصبر على طاعته حتى يؤديها. فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي بغير حد، ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله وأنه معين على كل الأمور.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣١٣)]

الآية الثامنة:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿وما يلقاها﴾ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة (مقابلة الإساءة بالإحسان) **﴿إلا الذين صبروا﴾** نفوسهم على ما تكره وأجبروها على ما يحبه الله. فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه فكيف الإحسان؟

فإذا صبر الإنسان نفسه، وامتثل أمر به، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله لا تفيده شيئاً، ولا تزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر وفعل ذلك متلذذاً مستحلياً له.

﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ لكونها من خصال خواص الخلق التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة التي هي أكبر خصال مكارم الأخلاق.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٩٩)]

الآية التاسعة:

يقول الله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[سورة الرعد: ١٩ـ ٢٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يقول تعالى: مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم:

﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ ففهم ذلك، وعمل به.

﴿كمن هو أعمى﴾ لا يعلم الحق، ولا يعمل به، فبينهما من الفرق، كما بين السماء والأرض. فحقيق بالعبد، أن يتذكر ويتفكر، أيُّ الفريقين، أحسن حالاً، وخير مآلا، فيؤثر طريقها، ويسلك خلف فريقها. ولكن ما كل أحد، يتذكر ما ينفعه ويضره. **﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾** أي: أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة، الذين هم، لُبُّ العالم، وصفوة بني آدم. فإن سألت عن وصفهم، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله:

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ الذي عهده إليهم، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة، فالوفاء بها، توفيتها حقها، من التنمية لها، والنصح فيها.

﴿و﴾ تمام الوفاء بها، أنهم **﴿لا ينقضون الميثاق﴾** أي: العهد الذي عاهدوا الله عليه. فدخل في ذلك، جميع المواثيق والعهود، والأيْمَانُ والنذور، التي يعقدها العباد. فلا يكون العبد من أولي الألباب، الذين لهم الثواب العظيم، إلا بأدائها كاملة، وعدم نقضها وبخسها.

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله، من الإيمان به، وبرسوله، ومحبته، ومحبة رسوله، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له، ولطاعة رسوله. ويصلون آباءهم وأمهاتهم، ببرهم بالقول والفعل، وعدم عقوقهم. ويصلون الأقارب والأرحام، بالإحسان إليهم، قولاً وفعلاً ويصلون ما بينهم وبين الأزواج، والأصحاب، والمماليك، بأداء حقهم، كاملاً موفراً، من الحقوق الدينية والدنيوية. والسبب الذي يجعل العبد واصلاً ما

أمر الله به، أن يوصل خشية الله، وخوف يوم الحساب، ولهذا قال:

﴿**ويخشون ربهم**﴾ أي: يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه، ومن القدوم عليه يوم الحساب، أن يتجرأوا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به، خوفاً من العقاب، ورجاءً للثواب.

﴿**والذين صبروا**﴾ على المأمورات بامتثالها، وعن المنهيات بالانكفاف عنها، والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة، بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿**ابتغاء وجه ربهم**﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا هو الصبر النافع، الذي يحبس به العبد نفسه، طلباً لمرضاة ربه، ورجاء للقرب منه. والحظوة بثوابه، هو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان. وأما الصبر المشترك، الذي غايته التجلد، ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح، على الحقيقة.

﴿**وأقاموا الصلاة**﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها، ظاهراً وباطناً.

﴿**وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية**﴾ دخل في ذلك، النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون، حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سرّاً وعلانية.

﴿**ويدرؤون بالحسنة السيئة**﴾ أي: من أساء إليهم، بقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه. فيعطون من حرمهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم. وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!

﴿**أولئك**﴾ الذين وصفت صفاتهم الجلية، ومناقبهم الجميلة ﴿**لهم عقبى الدار**﴾. فسرها بقوله: ﴿**جنات عدن**﴾ أي: إقامة، لا يزولون منها، ولا يبغون عنها حِوَلاً، لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم، أنهم ﴿**يدخلونها ومن صلح من آبائهم**

﴿وأزواجهم وذرياتهم﴾ من الذكور والإناث وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب، والأحباب، فإنهم من قبيل أزواجهم وذرياتهم.

﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ يهنئونهم بالسلامة، وكرامة الله لهم ويقولون: **﴿سلام عليكم﴾** أي: حلَّت عليكم السلام والتحية من الله، حصلت لكم. وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

﴿بما صبرتم﴾ أي: بسبب صبركم، وهو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان الغالية.

﴿فنعم عقبى الدار﴾ فحقيق بمن نصح نفسه، وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب، ولعلها تحظى بهذه الدار، التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح، الجامعة لجميع اللذات والأفراح.

فلمثلها، فليعمل العاملون، وفيها، فليتنافس المتنافسون.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٦٧ـ ٤٦٩)]

الآية العاشرة:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النحل: ٤١ ـ ٤٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿ولأجر الآخرة﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله خير و**﴿أكبر﴾** من أجر الدنيا كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة التوبة: ٢٠ ـ ٢٢].

وقوله: ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ أي لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وجاهد في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿**الذين صبروا**﴾ على أوامر الله وعن نواهيه وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية فيه، والمحن ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ أي يعتمدون عليه في تنفيذ محابه، لا على أنفسهم، وبذلك تنجح أمورهم، وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها. فما فات أحد شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٦١)]

الآية الحادية عشر:

يقول الله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾[1] [سورة مريم: ٦٥].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

قوله: ﴿**فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ**﴾: الفاء مفرعة على ما سبق، وهو قوله: ﴿**رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ [مريم: ٦٥]؛ فذكر سبحانه وتعالى الربوبية: ﴿**رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ وفرّع على ذلك وجوب عبادته؛ لأن كل من أقر بالربوبية؛ لزمه الإقرار بالعبودية والألوهية، وإلاّ؛ صار متناقضاً.

فقوله: ﴿**فَاعْبُدْهُ**﴾؛ أي: تذلل له محبة وتعظيماً، والعبادة؛ يراد بها المتعبَّد به، ويراد بها التعبُّد الذي هو فعل العبد، كما سبق في المقدمة.

وقوله: ﴿**وَاصْطَبِرْ**﴾: اصطبر؛ أصلها في اللغة: اصتبر، فأبدلت التاء طاء لعلة تصريفية. والصبر حبس النفس. وكلمة (اصطبر) أبلغ من (اصبر)؛ لأنها تدل على معاناة؛ فالمعنى اصبر، وإن شق عليك ذلك، واثبت ثبات القرين لقرينة في القتال.

وقوله: ﴿**لِعِبَادَتِهِ**﴾؛ قيل: إن اللام بمعنى (على)؛ أي: اصطبر عليها؛ كما قال تعالى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ [طه: ١٣٢]. وقيل: بل اللام على أصلها؛ أي اصطبر لها؛ أي: كن مقابلاً لها بالصبر؛ كما يقابل القرين قرينه في ميدان القتال.

وقوله: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾: الاستفهام للنفي، وإذا كان الاستفهام بمعنى النفي؛ كان =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

علل سبحانه إحاطة علمه وعدم نسيانه بأنه **﴿رب السموات والأرض﴾** فربوبيته للسموات والأرض وكونها على أحسن نظام وأكمله ليس فيه غفلة ولا إهمال ولا سدى ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل. فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما ينفعك ويعود عليك طائله وهو عبادته وحده لا شريك له. **﴿واصطبر لعبادته﴾** أي اصبر نفسك عليها وجاهدها وقم عليها أتم القيام وأكمله بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشبهات كما قال تعالى: **﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾** إلى أن قال: **﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾** الآية.

﴿هل تعلم له سمياً﴾ أي هل تعلم لله مسامياً ومشابهاً ومماثلاً من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى النفي، المعلوم بالعقل.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢١٣)]

الآية الثانية عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [سورة طه: ١٣٢].

= مشرباً معنى التحدي؛ يعني: إن كنت صادقاً؛ فأخبرنا: **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾**؟
و(السمي): الشبيه والنظير. يعني: هل تعلم له مسامياً أو نظيراً يستحق مثل اسمه؟
والجواب: لا.
فإذا كان كذلك؛ فالواجب أن تعبده وحده.
وفيها من الصفات: قوله: **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾**، وهي من الصفات السلبية.
فما الذي تتضمنه من صفات الكمال (لأننا ذكرنا فيما سبق أن الصفات السلبية لا بد أن تتضمن ثبوتاً) فما هو الثبوت الذي تضمنه النفس هنا؟
الجواب: الكمال المطلق، فيكون المعنى: هل تعلم له سمياً لثبوت كماله المطلق الذي لا يساميه أحد فيه؟

[شرح العقيدة الواسطية (١/ ٢٩٦)]

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**وأمر أهلك بالصلاة**﴾ أي حث أهلك على الصلاة وازعجهم إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمراً بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

﴿**واصطبر عليها**﴾ أي على الصلاة بإقامتها بحدودها وأركانها وخشوعها فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع.

ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه فقال: ﴿**نحن نرزقك**﴾ أي رزقك علينا قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم. فكيف لمن قام بأمرنا واشتغل بذكرنا؟ ورزق الله عام للمتقي وغيره فينبغي الإهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿**والعاقبة**﴾ في الدنيا والآخرة ﴿**للتقوى**﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي فمن قام بها كان له العاقبة كما قال تعالى: ﴿**والعاقبة للمتقين**﴾.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٦١)]

الآية الثالثة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] [سورة الأنفال: ٤٦].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
سبق لنا أن الصبر حبس النفس على طاعة الله، وحبسها عن معصية الله، وحبسها عن التسخط على أقدار الله؛ سواء باللسان أو بالقلب أو بالجوارح.
وأفضل أنواع الصبر: الصبر على طاعة الله، ثم عن معصية الله لأن فيهما اختياراً: إن شاء الإنسان فعل المأمور، وإن شاء لم يفعل، وإن شاء ترك المحرم وإن شاء ما تركه، ثم على أقدار الله؛ لأن أقدار الله واقعة شئت أم أبيت؛ فإما أن تصبر صبر الكرام وإما أن تسلو سلو البهائم.
والصبر درجة عالية لا تنال إلاّ بشيء يصبر عليها، أما من فرشت له الأرض وروداً، وصار الناس ينظرون إلى ما يريد؛ فإنه لا بد أن يناله شيء من التعب النفسي أو البدني الداخلي أو الخارجي. =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**واصبروا**﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾ بالعون والنصر والتأييد واخشعوا لربكم، واخضعوا له.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٠٧)]

الآية الرابعة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحديد: ٢٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم**﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر وكلها قد كتب في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب ولكنه على الله يسير. وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٨٣)]

الآية الخامسة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[1] [سورة الشورى: ٤٣].

= ولهذا جمع الله لنبيه عليه الصلاة والسلام بين الشكر والصبر.

فالشكر؛ كان يقوم حتى تتورم قدماه، فيقول: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**».

والصبر: صبر على ما أوذي، فقد أوذي من قومه ومن غيرهم من اليهود والمنافقين، ومع ذلك؛ فهو صابر.

[شرح العقيدة الواسطية (١/ ٣٥٣)]

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣] أي: أن الذي =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿**ولمن صبر**﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿**وغفر**﴾ لهم بأن سمح لهم عما صدر منهم ﴿**إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾ أي الأمور التي حث الله عليها وأكدها وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولوا العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر، فإن ترك الانتصار للنفس، بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها. والصبر على الأذى والصفح عنه ومغفرته ومقابلته الإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٣١)]

= يصبر على أذى النَّاس ويحتملهم ويغفر لهم سيئاتهم التي يُسيئون بها إليه فإنَّ ذلك من عزم الأمور أي: من مَعْزُوماتها وشدائدها التي تحتاج إلى مُقابلة ومُصابَرة. ولا سيما إذا كان الأذى الذي ينال الإنسان بسبب جهاده في الله عزَّ وجلَّ وبسبَب طاعته لأن أذية الناس لك لها أسباب متعددة متنوعة. فإذا كان سببها طاعة الله عز وجل والجهاد في سبيله والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر فإنَّ الإنسان يُثاب على ذلك من وجهين:

الأول: من الأذية التي تَحصُل له.

الثاني: صبره على هذه الطاعة التي أُذي في الله من أجلها.

وفي هذه الآية حثٌّ على صبْر الإنسان على أذية الناس ومغفرة لهم ما أساؤوا لهم فيه.

ولكن ينبغي أن يعلم أن المغفرة لمن أساء إليكَ ليست محمودة على الإطلاق فإن الله قيَّد هذا بأن يكون العفو مقروناً بالإصلاح فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. أما إذا لم يكن في العفو والمغفرة إصلاح فلا تعفُ ولا تغفر.

مثاله: لو كان الذي أساءَ إليك شخصاً معروفاً بالشَّر والفَساد وأنك لو عفوت عنه لكان في ذلك زيادة في شره.

ففي هذه الحال الأفضل أن لا تعفو عنه بل تأخذ بحقك من أجل الإصلاح. أما إذا كان الشَّخص إذا عفوت عنه لم يترتَّب على العفو عنه مَفْسدة فإن العفو أفضل وأحسن لأن الله يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وإذا كان أجرك على الله كان خَيْراً لَك من أنْ يكون ذلك بِمُعاوضَة تأخذ من أعمال صاحبك الصَّالحة.

[شرح رياض الصالحين (١/ ١٢٦)]

الفصل الثاني

شرح الشيخ السعدي لبعض الأحاديث التي تحث على الصبر والرضى بقضاء اللَّه وقدره

الحديث الأول

عن «أبي سعيد» رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، ومن يستَغْنِ يُغْنِهِ الله، ومَن يَتَصَبَّرْ يصَبِّرْهُ الله، وما أُعْطِيَ أحدٌ عطاءً خيراً وأوسَعَ من الصَّبْرِ»**[1]. . . . . .

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

حَثَّ الرسول عليه الصلاة والسلام على الاستعفاف والاستغناء والصبر، فقال: **«ومَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّه الله ومَنْ يَسْتغْنِ يُغْنِه الله ومَنْ يتصبَّر يُصبِّرهُ الله»**.

هذه ثلاثة أمور:

أولاً: من يَسْتعفف يعفه الله، فمن يَسْتعفف عمَّا حرَّم الله عليه من النِّساء يُعفُّه الله عز وجل. والإنسان الذي يُتْبِعُ نفْسَهُ هواها فيما يتعلَّق بالعِفَّة فإنَّه يهلك والعياذ بالله. لأنه إذا أتْبَع نفسه هواها وصار يَتَتَبَّع النِّساء فإن يهلك.

تَزْني العين وتَزْني الأذُن وتَزْني اليد وتَزْني الرِّجل ثم يَزْني الفرج وهو الفاحشة والعياذ بالله.

فإذا استَعَفَّ الإنسان عن هذا المحرم أعفَّه الله عز وجل وحَماهُ وحَمى أهْله أيضاً.

ثانياً: من يَسْتَغْنِ يُغْنِه الله أي: من يَسْتَغْنِ بما عند الله عما في أيدي الناس يُغْنِه الله عز وجل. وأمَّا من يسأل الناس ويحتاج لما عندهم فإنه سيَبقى قلبه فقيراً والعياذ بالله ولا يستغني.

والغنى غنىٰ القلب، فإذا اسْتغنىٰ الإنسان بما عند الله عمَّا في أيْدي النَّاس أغناه الله عن النَّاس وجَعَله عزيز النَّفس بعيداً عن السُّوال.

ثالثاً: من يتصبّر يُصَبِّره الله أي يُعْطِه الله الصَّبر.

فإذا حَبَسْت نَفْسك عمَّا حرّم الله عليك وصَبرت على ما عندك من الحاجة والفقر ولم تلح على الناس بالسُّؤال فإنَّ الله تعالى يُصبِّرك ويُعينُك على الصَّبر. وهذا هو الشَّاهد من الحديث لأنه في باب الصبر.

ثم قال الرسول ﷺ: **«ومَا أُعْطِي أحَدٌ عَطاءً خَيراً وأوْسَع مِن الصَّبر»** أي: ما مَنَّ الله على أحد بعطاء من رزق أو غيره خيراً وأوسع من الصبر لأن الإنسان إذا كان صبوراً تحمّل كل شيء. إنْ أصابته الضرَّاء صبَر وإن عرض له الشَّيطان بفعل المحرَّم صبر، وإن خَذَله الشَّيطان عن ما أمر الله صبر.

فإذا كان الإنسان قد منَّ الله عليه بالصَّبر فهذا خير ما يُعطاه الإنسان وأوْسَع مَا يُعطاه ولذلك تجد الإنسان الصَّبور لو أوذي من قِبل الناس لو سمع منهم ما يَكْرَه لَو حَصَل منهم اعتداءٌ عليه تجده هَادىء البال، لا يَتصلَّب ولا يغضب لأنَّه صابر على ما =

متفق عليه[1].

هذا الحديث اشتمل على أربع جمل جامعة نافعة:

إحداها: قوله: «**ومن يستعفف يعفه الله**».

والثانية: قوله: «**ومن يستغن يغنه الله**».

وهاتان الجملتان متلازمتان، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة وتعلقاً به دون المخلوقين، فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك، حتى يكون عبداً لله حقًّا، حرًّا من رق المخلوقين. وذلك بأن يجاهد نفسه على أمرين: انصرافها عن التعلق بالمخلوقين، بالاستعفاف عما في أيديهم. فلا يطلبه بمقاله، ولا بلسان حاله. ولهذا قال ﷺ لـ«عمر»: «**ما أَتاك من هٰذا المالِ وأنتَ غيرُ مُشْرِفٍ ولا سائلٍ فَخُذْهُ. وما لا فلا تُتْبِعْه نفْسَك**»[2].

فقطع الإشراف في القلب والسؤال باللسان، تعففاً وترفعاً عن مِنن الخلق، وعن تعلق القلب بهم: سبب قوي لحصول العفة.

وتمام ذلك: أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني: وهو الاستغناء بالله، والثقة بكفايته، فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه. وهذا هو المقصود، والأول وسيلة إلى هذا. فإن من استعف عما في أيدي الناس وعما يناله منهم: أوجب له ذلك أن يقوي تعلقه بالله، ورجاؤه وطمعه في فضل الله وإحسانه، ويحسن ظنه وثقته بربه. والله تعالى عند حسن ظن عبده به: إن ظن خيراً فله، وإن ظن

= ابتلاه الله به فلذلك تجد قلبه دائماً مطمئناً ونفسه مستريحة.

ولهذا قال الرسول ﷺ: «**مَا أُعْطِي أحدٌ عطاءً خَيراً وأوْسعَ من الصَّبر**» والله الموفق.

[شرح رياض الصالحين (١/ ١٤١)]

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٣٥، ١١/ ٣٠٣ فتح)، ومسلم في صحيحه (٣/ ٧٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٣٧، ١٣/ ١٥٠ فتح)، ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٢٣).

غيره فله. وكل واحد من الأمرين يمد الآخر فيقويه. فكلما قوي تعلقه بالله، ضعف تعلقه بالمخلوقين، وبالعكس.

ومن دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إني أَسأَلُك الهُدَى والتُّقَى، والعفافَ والغِنَى**»[1]. فجمع الخير كله في هذا الدعاء.

فالهدى: هو العلم النافع. والتقى: العمل الصالح، وترك المحرمات كلها. هذا صلاح الدين.

وتمام ذلك بصلاح القلب وطمأنينته، بالعفاف عن الخلق، والغنى بالله. ومن كان غنيًا بالله فهو الغني حقّاً، وإن قلت حواصله. فليس الغنى عن كثرة العَرَض، إنما الغنى غنى القلب.

وبالعفاف والغنى يتم للعبد الحياة الطيبة، والنعيم الدنيوي، والقناعة بما آتاه الله.

والثالثة: قوله: «**ومن يتصبر يصبره الله**».

ثم ذكر في الجملة الرابعة: أن الصبر إذا أعطاه الله العبد فهو أفضل العطاء وأوسعه، وأعظمه إعانة على الأمور.

قال تعالى ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة البقرة: ٤٥]. أي على أموركم كلها.

والصبر كسائر الأخلاق يحتاج إلى مجاهدة للنفس وتمرينها. فلهذا قال: «**ومن يتصبَّر**» أي: يجاهد نفسه على الصبر «**يصبِّره الله**» ويعينه.

وإنما كان الصبر أعظم العطايا، لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته. وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر. فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله، حتى يقوم بها ويؤديها. وإلى صبر عن معصية الله حتى يتركها لله. وإلى صبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخطها. بل إلى صبر على نعم الله ومحبوبات

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢٠٨٧).

النفس، فلا يدع النفس تمرح وتفرح الفرح المذموم، بل يشتغل بشكر الله. فهو في كل أحواله يحتاج إلى الصبر. وبالصبر ينال الفلاح. ولهذا ذكر الله أهل الجنة فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الرعد: ٢٣ـ ٢٤] وكذلك قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [سورة الفرقان: ٧٥]. فهم نالوا الجنة بنعيمها، وأدركوا المنازل العالية بالصبر، ولكن العبد يسأل الله العافية من الابتلاء الذي لا يدري ما عاقبته، ثم إذا ورد عليه فوظيفته الصبر. فالعافية هي المطلوبة بالأصالة في أمور الابتلاء والامتحان. والصبر يؤمر به عند وجود أسبابه ومتعلقاته. والله هو المعين.

وقد وعد الله الصابرين في كتابه وعلى لسان رسوله أموراً عالية جليلة: وعدهم بالإعانة في كل أمورهم، وأنه معهم بالعناية والتوفيق والتسديد، وأنه يحبهم ويثبت قلوبهم وأقدامهم، ويلقي عليهم السكينة والطمأنينة، ويسهل لهم الطاعات، ويحفظهم من المخالفات، ويتفضل عليهم بالصلوات والرحمة والهداية عند المصيبات والله يرفعهم إلى أعلى المقامات في الدنيا والآخرة. وعدهم النصر، وأن ييسرهم لليسرى، ويجنبهم العُسْرى. ووعدهم بالسعادة والفلاح والنجاح، وأن يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأن يخلف عليهم في الدنيا أكثر مما أخذ منهم من محبوباتهم وأحسن، يعوضهم عن وقوع المكروهات عوضاً عاجلاً يقابل أضعاف أضعاف ما وقع عليهم من كريهة ومصيبة.

وهو في ابتدائه صعب شديد. وفي انتهائه سهل حميد العواقب. كما قيل:

والصبر مثلُ اسمه: مُرٌّ مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل

[بهجة قلوب الأبرار (ص ٦٨ـ ٧٠)]

الحديث الثاني

قوله ﷺ: «احرِصْ عَلى ما يَنفَعُكَ، وَاستَعِنْ بالله، ولا تَعجز، وَإنْ أصابَكَ شَيءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أنّي فَعَلْتُ كَذا، لكَانَ كَذَا... فَإنَّ «لَوْ» تَفْتَحُ عَمَل

الشَّيطانِ»[1].

ما أجلَّ هذ الحديث وأغزر فوائده، وأجمعه لِخَيْرَي الدنيا والآخرة؛ فإن مجموع سعادة الدنيا والآخرة: في حِرص العبد على كل عمل ينفعه في دينه ودنياه، مع استعانته بالله.

فمتى حَرَص العبد على الأمور النافعة، واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطُرُقَها، واستعان بربه في حصولها وتكميلها، كان ذلك كماله وعنوان توفيقه.

ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة، فاته من الخير بحسبها. فمن لم يكن حريصاً على الأمور النافعة؛ بل كان كسلاناً عن النافع له في أُمور دينه ودنياه، لم يدرك شيئاً، فالكسل أصل الخَيْبَة والفشل.

فالكسلان لا يُدرك خيراً، ولا ينال مَكرُومَةً، ولا يحظى بدين ولا دنيا. وإن كان حريصاً، لكن على غير الأمور النافعة، إما على أمور ضارّة، أو أُمور مُفَوِّتةً للمنافع والكمال ـ كان ثمرة حرصه الخيبة وفوات الخيرات، وحصول الشُّرور والمَضرَّات. فكم من حريص على سلوك طرق وأحوال غير نافعة لم يستفد من حرصه إلا التعب والعناء والشقاء. ثم إذا سلك العبد الطرق النافعة، وحرص عليها واجتهد، لم تتم إلا بصدق اللَّجَإِ والاستعانة بالله على إدراكها وتكميلها، وأن لا يتَّكِلَ على حَوْلِه وقُوَّتِهِ، بل يكون اعتماده التام ـ بقلبه وباطنه ـ على ربِّه.

فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأمور، وتحصل له الثمرات الطيبة في أمر الدين، وأمر الدنيا. ولكنه في هذه الأحوال مُحتاج، بل مُضطر، إلى معرفة الأمور النافعة التي ينبغي الحرص عليها، والجد في طلبها.

إذا تقرر ذلك، فالأُمور النافعة في الدِّين ترجع إلى أمرين: علم نافع، وعمل صالح.

أما العلم النافع، فهو العلم المُزَكِّي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه برقم (٢٦٦٤).

الدَّارين. وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفِقْهِ، وما يُعين على ذلك من علوم العربية، بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان.

وتعيين ما يشتغل به من الكتب يختلف باختلاف الأحوال والبلدان. والحالة التقريبية في نظرنا هذا: أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصرات الفن الذي يشتغل به، فإن تعذَّر أو قصر عليه حفظه لفظاً، فليكرره كثيراً حتى ترسخ معانيه في قلبه.

ثم تكون باقي كتب الفن كالتوضيح والتفسير لذلك الأصل الذي أدركه وعرفه. فلو حفظ طالب العلم: «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«الثلاثة الأصول» و«كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وفي الفقه: «مختصر الدليل» و«مختصر المقنع»، وفي الحديث: «بلوغ المرام»، وفي النحو: «الآجُرُومِيَّة»، واجتهد في فهم هذه المُتُون، وراجع عليها ما تيسر من شروحها، أوْ كُتُب فَنِّها، فإنها كالشروح لها، لأن طالب العلم إذا حفظ الأُصول، وصار له مَلَكةٌ تامة في معرفتها ـ هانت عليه كتب الفن كلها، الصغار والكبار. ومن ضيع الأصول حُرم الوصول. فمن حرص على هذه العلوم النافعة، واستعان بالله، أعانه وبارك له في علمه وطريقه الذي سلكه. ومن سلك في طلبه للعلم غير الطريقة النافعة، فاتت عليه الأوقات، ولم يدرك إلا العناء كما هو معروف بالمشاهدة والتجربة.

أما الأمر الثاني فهو العمل الصالح؛ فالعمل الصالح هو الذي جمع الإخلاص لله، والمتابعة للرسول، وهو التقرب إلى الله بما يحبُّ، باعتقاد ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحقه على عباده من العبودية، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وتصديقه، وتصديق رسوله في كل خبر أخبر به.

ثم يسعى في أداء ما فرض الله على العباد من حقوقه وحقوق عباده، [ويكمِّل] ذلك بالنوافل والتطَوُّعات، وخصوصاً المؤكدة في أوقاتها، مستعيناً بالله على فعلها وتكميلها ظاهراً وباطناً. ثم [يتقرب] إلى الله بترك المحرمات، وخصوصاً التي تدعو إليها النفوس الأمَّارة بالسوء. فيتقرب العبد إلى الله بتركها، كما يتقرب إليه بفعل المأمورات.

فمتى وُفِّق العبد لسلوك هذا الطريق في العمل، واستعان الله على ذلك، أفلح وأنجح، وكان كماله بحسب ما قام به من هذه الأمور، ونقصه بحسب ما فاته منها.

وأما الأمور النافعة في الدنيا، فالعبد لا بد له من طلب الرزق، فينبغي أن ينظر أنفع الأسباب الدنيوية اللائقة بحاله، فيسلكها، ويعمل عليها، وذلك يختلف باختلاف الناس.

ويقصد بطلبه وسعيه القيام بواجب نفسه، وواجب عائلته، ومن يقوم بمؤونته، ويَنْوي الكَفاف والاستغناء بسببه عن الخلق. وكذلك ينوي القيام بالعبوديات اللائقة بالمال من زكاة وكفارة، ونذر ونفقات، ونحوها من كل ما يتوقف على المال. فمتى كان طلبُ العبد وسعيُه في الدنيا لهذه المقاصد الجليلة، وسلك أنفع طريق يراه مناسباً لحاله، وسلِمَ من المعاملات الرديئة والغش وتوابعها، كانت حركاته قُرْبَةً يتقرّب بها إلى الله عز وجل. ولا يتم ذلك إلا بالتوكل على الله وحده، راجياً منه أن ييسره لأيسر الأمور وأنجحها، وأقربها تحصيلاً لمراده، ويسأل الله أن يبارك له في رزقه، فأول بركة الرزق: أن يكون مؤسساً على التقوى، والنية الصالحة.

ومن بركة الرزق: أن يُوَفّقَ العبدُ لوضعِه في مواضعه الواجبة والمستحبة. ومن بركة الرزق والمعاملة: أن لا ينسى العبدُ الفضل. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧].

وذلك بالتيسير على المُوسِرين، وإنظار المُعْسِرين، والمحاباة عند البيع والشراء بما تيسر من قليل وكثير، وإقالة المستقيل، والسماحة في البيع والشراء. فمن وُفِّق لهذا أدرك خيراً كثيراً.

فإن قيل: أيُّ المكاسب أولى وأفضل؟

قيل: قد اختلف العلماء فمنهم من فضّل الزراعة والحِراثة، لما فيها من قوة التوكل، وتعلُّق الرجاء بالله في إنزال الغيث، ولما فيها من النَّفع المتعدّى.

ومنهم من فَضَّل البيع والشراء، لما فيه من الشرف، وحُسن الاعتبار،

وتوسُّع المعرفة والبركة. ومنهم من فضّلَ الصناعة، لما فيها من القيام بالمنافع الكلية.

ولكن هذا الحديث هو الفاصل للنزاع في هذه المسألة، إذ قال [ﷺ]: **«اِحرِصْ على ما ينفعك، واستعن بالله»**.

والنافع من ذلك، معلوم أنه يختلف باختلاف الناس: فقد يكون بعض المذكورات أفضل في حق شخص، ويكون الآخر أفضل في حق الآخر.

ولكن السبب الذي يأتيك براحة وطمأنينة، ويكون فيه معونة على أمور دينك: لا ريب أنه أفضل الأسباب على الإطلاق. ثم إنه ﷺ، في آخر الحديث، حضَّ على الرِّضا بقضاء الله وقدَره بعد بذل الجهد، واستِفراغ الوُسع في الحرص على النافع، فإذا أصاب العبد ما يكره، فلا يَنسُبه إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها، بل يُخلِدُ إلى قضاء الله وقدره، ليزداد إيمانه، ويسكن قلبه، فإن «لو» في هذه الحال تفتح عمل الشيطان، وهو نقص الإيمان، وعدم الرضا بقدر الله وقضائه. وتفتح «لو» باب القلق والحزن من تشوش الأسباب. وهذه الحال التي أرشد إليها ﷺ هي الطريق الوحيد لراحة العبد في دنياه، كما أنها خير له في دينه وأُخراه، فإن مَدار سعادة الدنيا على راحة القلب وسكونه، وقناعته بما قسم الله، وذلك بما دلَّ عليه هذا الحديث من الحرص على كل أمر نافع، وسيلةً ومقصداً، مع الاستعانة بالله وقت حصوله، والرضا بالله وبقدره بعد حصوله. والله أعلم.

[الفتاوى السعدية (ص ٢٧ـ ٣٠)]

* * *

فصول ومباحث وفوائد
من كلام شَيخنا السعدي
حول فضل الصبر
والرضى بقضاء اللَّه وقدره

الفائدة الأولى

في فضل الصبر على المكاره

والشكر على المحابّ

قال رحمه الله:

العبد لا يخلو في تنقّلاته في الحياة، وأطواره فيها، من حالتين، لا ثالث لهما:

إما أن يحصل له ما يحب، ويندفع عنه ما يكره.

وهذا حبيب للنفوس، ملائم للقلوب، مطلوب لكل عاقل. وهو من أعظم نعم الله على العبد، فوظيفته في هذه الحال: الشكر والاعتراف أن ذلك من نعم الله عليه، فيعترف بها، متحدّثاً بها، مستعيناً بها على طاعة المنعِم.

وهذا هو: الشاكر. فإن ألهته النعمة وأبطرته، وأوصلته إلى الأشَر والبطَر، وغفل عن الشكر، فهذا الذي كفر نعمة الله، أو استعمل مِنَن الله في غير واجبها وطريقها.

الحالة الثانية: أن يحصُل للعبد المكروه، أو يفقد المحبوب؛ فيُحدث له همًّا وحزناً وقلقاً.

فوظيفته الصبر لله، فلا يتسخّط ولا يضجر، ولا يشكو للمخلوق ما نزل به؛ بل تكون شكواه لخالقه.

ومن كان في الضّرّاء صبوراً، وفي السَّرّاء شكوراً، لم يزل يغنم على ربّه الثواب الجزيل، ويكتسب الذكر الجميل.

قال ﷺ: **«عَجَباً لأَمْرِ المُؤْمِنِ! إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ: إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، [فكان] خَيراً لَهُ! وَإن أصابتْهُ ضَرَّاءُ صَبَر، فَكَانَ خَيراً لَهُ! وَلَيسَ ذٰلِكَ إلاَّ**

لِلمُؤمِنِ»[1].

النِّعَم والنِّقَم، والمحابُّ والمكاره: أضْياف.

فأكرِمْ قِراها، بالقيام بوظيفتها، ليستريح قلبك، وتُرضي ربك، وينقلب ضيفك شاكراً، ولمعروفك ذاكراً.

متى حصل لك محبوب من رياسة أو مال، أو زوجة أو ولد، أو صحة أو رزق، أو توابع ذلك، أو اندفع عنك مكروه: فاعلم أن هذه نِعَم من الله، فاعترِفْ بها بقلبك، واخضع لربِّك الذي أوصلها إليك، وازدد له حبًّا وثناءً؛ فإن النفوس مجبولة على محبة من أحسن إليها، فكيف بمن منه جميع الإحسان؟!

وأكثِر من الثناء على الله بها، جملة وتفصيلاً:

أما الإجمال، فأن تقول:

اللّهُمَّ ما أصبح ـ أو ما أمسى ـ بي من نِعمة أو بأحدٍ من خَلْقِك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر.

وأما تفصيلاً، فقل: أنعم الله عليّ بالنعمة الفلانية ـ دينية أو دنيوية ـ وصرَف عني كذا وكذا. وتوسّلْ بها إلى طاعة المنعِم، وسَلْه أن يجعلها معونة على الخير، وأن يُعيذك من صرفها في غير ما يحبه الله ويرضاه، واحمد الذي وفّقك لشكرها، فالتوفيق للشكر نعمة أخرى.

ومتى أصابك مكروه في بدَنك، أو مالك، أو حبيبك، فاعلم أن الذي قدّره حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا يُقدّر شيئاً سدى. وأنه رحيم، قد تنوّعت رحمته على عبده: يرحمه فيعطيه. ثم يرحمه فيوفّقه للشكر، ويرحمه فيبتليه، ثم يرحمه فيوفّقه للصبر.

فرحمة الله عليك متقدمة على التدابير السَّارّة والضّارّة. ومتأخرة عنها.

ويرحمه أيضاً، بأن يجعل ذلك البلاء لذنوبه كفّارات؛ ولمقامه خيراً ورِفعة [درجات].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزهد، برقم (٧٤٢٥).

ويرحمه بأن يجعل المكروه مُنَمِّياً لأخلاقه الجميلة، مُرْبِياً على الأعمال والأقوال الزَّكِيَّة.

فإذا فهم العبد في التقدير هذه الرحمات، ولحَظ هذه الألطاف المتنوعات، لم تتأخّر نفسه - إن كانت نفساً حُرّة - عن الصبر على المكاره والاحتساب، ورجاء الأجر والارتقاب، ثم رجاء السلامة والفرج من الملك الوهاب.

استكمل مراتب الصبر والشكر، فهو الكامل في كل أحواله، فإن الصبر آلة عظيمة تُعين العبد على جميعِ الأمور الصعبة.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1][سورة البقرة: ٤٥].

أي على جميع أموركم.

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
وقوله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، أمَر الله سبحانه وتعالى أن نستعين على الأمور بالصَّبر عليها. لأن الإنسان إذا صبر وانتظر الفرج من الله سهلت عليه الأمور.

فأنت إذا أصبت بشيء يحتاج إلى صبر فاصبر وتحمَّل «واعْلم أنّ النَّصر معَ الصَّبر، وأنَّ الفرجَ مع الكَرب، وأنَّ معَ العُسْر يُسْراً».
وأما الصَّلاة فإنها تعين على الأمور الدِّينية والدنيوية حتى إن الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام ذكر عنه «أنَّه إذا حَزَبَهُ أمْرٌ فَزِعَ إلى الصَّلاة».
وبيَّن الله في كتابه أنَّ الصَّلاة تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر، فإذا استعان الإنسان بالصَّلاة على أمُوره يسَّر الله له ذلك، لأن الصَّلاة صِلةٌ بين العبد وبيْن ربِّه، فيقف الإنسان فيها بين يدي الله ويُناجيه ويدْعوه ويتقرَّب إليه بأنواع القُربات التي تكون في هذه الصلاة فكانت سبباً للمعونة.
قوله: ﴿إنَّ الله معَ الصَّابرينَ﴾ يعني بذلك المعيَّة الخاصة لأن معية الله سبحانه تنقسم إلى قسمين:
١ - معيَّة عامة شاملة لكل أحد وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وفي قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]. =

فمن شرع في عمل من أعمال، وصبر عليه وثابر، رُجِيَ له النجاح، ومن ضعف صبره وثباته، لم يتم له فلاح.

إذا أصيب العبد بمصيبة، فلجأ إلى الصبر والاحتساب، خفّت وطأتها، وهانت مشقتها، وتمّ له أجرها، وكان من الفُضَلاء الكرام. ومن ضعف [صبره]، وحضر جزعه، اشتدت مصيبته، وتضاعفت آلامه القلبية والبدنية، وفاته الثواب، واستحقّ العقاب. ولا بد أن يعود في آخر أمره فيسلو سُلُوَّ البهائم، وذلك من أخلاق اللئام.

بَشِّر الصابرين على مشقة الطاعات، وترك المخالفات، وآلام المصيبات، بتَوْفِيَة أجرهم بغير حساب.

وأنذِر الجازِعين المتسخّطين لأقدار الله، بتضاعُف المكاره، وفوات الأجر، وحُلول الوِزر والعقابِ. إن الجزع لا يردّ الفائت، ولكنه يُحزن الصديق ويسرّ الشامت.

= وهذه المعيَّة العامَّة شاملة لجميع الخلق فمَا من مخلوق إلاَّ والله معه يعْلَمُه ويُحيط به سُلطاناً وقدرة وسَمْعاً وبصراً وغير ذلك.

٢ ـ أما المعيَّة الخاصَّة فهي المعيّة التي تقتضي النَّصر والتَّأييد وهذه خاصَّة بالرُّسل وأتباعهم ليست لكل أحد، فـ ﴿إن الله مع الَّذين اتَّقوا والَّذين هم مُحسنون﴾ ﴿والله مع الصابرين﴾، وما أشبه ذلك من الآيات الدَّالة على هذه المعيَّة الخاصة.

ولكن هاتين المعيتين كلتيهما لا تدلان على أن الله سبحانه مع الناس في أمكنتهم بل هو مع النَّاس وهو فوق سماواته على عرشه ولا مانع من ذلك لأن الشيء يكون فوق وهو معك، والعرب يقولون: ما زلنا نسير والقمر معنا.

وكلٌّ يعلم أن القمر في السَّماء، ويقولون مَا زِلنا نَسير وسهيل معنا وهو نجم معروف وهو في السَّماء. فما بالك بالخالق عز وجل هو فوق كل شيء استوى على عرشه ومع ذلك هو محيطٌ بكل شيء مع كل أحد. مهما انفردت فإن الله تعالى محيط بك علماً وقُدرة وسُلطاناً وسَمْعاً وبصراً وغير ذلك.

وفي قوله: ﴿إنَّ الله معَ الصَّابرين﴾ دليلٌ على أنه مُعان من قِبل الله، وأنَّ الله يُعين الصَّابر ويُؤيِّده ويَكْلؤه حتى يتم له الصَّبر على ما يحبُّه الله عز وجل.

[شرح رياض الصالحين (١/ ١٢٧ ـ ١٢٩)]

الصبر مُؤذن بالقوة والشجاعة والثبات والإيمان.

والجزع عُنوان الجبن والضعف والهلع والخُسران.

ما نال من نال من خير الدنيا والآخرة إلا بالصبر، ولا حُرم من حرم إلا بفقده. قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [سورة الرعد: ٢٣ـ ٢٤].

بالصبر يرتقي العبد إلى أعلى المقامات؛ وهو مقام الشاكرين الذين يشكرون الله على السراء والضراء واليُسر والعُسر.

يشكرون الله في كل أحوالهم.

يشكرونه على نعمة العافية والصحة، وسلامة الأبدان؛ ويشكرونه على نعمة الأسماع والأبصار والعقول والبيان، ويشكرونه على تيسير الرزق والأسباب المتنوّعة التي بها تكتسب الأرزاق، وخصوصاً إذا يسّر الله للعبد سبباً مريحاً لقلبه، مُعيناً على الخير، فإن هذا من بركة الرزق وكماله. ويحمدون الله على دفع المكاره والمُلِمّات.

وكذلك يحمدون الله أبلغ حمد، على نعمة الإسلام والإيمان، والهداية إلى الخير، والتوفيق للإحسان.

نعمةُ الله بالتوفيق للتقوى، أجلّ النِّعم وأعلاها:

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [سورة آل عمران: ١٦٤].

من حصلت له نعمة العلم والإيمان، فقد تمّت عليه النعمة من جميع الوجوه، وقد نال من ربّه كل ما يُؤمّله ويرجوه.

فيا من توالت عليه النِّعَم، وصرفت عنه النِّقَم، اشكر الله على ذلك، لتبقى وتكمُل. فالشكر مقرون بالمزيد، وكفران النعم مقرون بالمَحْق والعذاب الشديد.

وشكرانُك للنِّعَم: نَعَم أخرى، تحتاج إلى شكر آخر وتجديد. ولكن الله تعالى رضي منا بالاعتراف بالعجز عن شكره، وأن نفعل ما نستطيعه من الثناء والتمجيد.

الشاكرون أطيب الناس نفوساً، وأشرحهم صدوراً، وأقرّهم عُيوناً، فإن قلوبهم ملآنة من حمده، والاعتراف بنعمه، والاغتباط بكرمه، والابتهاج بإحسانه، وألسنتهم رطبة في كل وقت بشكره وذِكره، وذلك أساس الحياة الطيبة ونعيم الأرواح، وحصول جميع اللذائذ والأفراح. وقلوبهم في كل وقت متطلعة للمزيد، وطمعهم [ورجاؤهم] في كل وقت بفضل ربهم يقوَى ويزيد.

لو علم العباد: ماذا أُعدّ للشاكرين من الخيرات، لاستبَقوا إلى هذه الفضيلة العليا، ولو شاهدوا أحوالهم في السرور والابتهاج، لعلموا أنهم في جنة الدنيا.

إذا قضيت المصائب والمكاره على الخلق، انقسموا فيها أربعة أقسام:

[أحداها]: الظالمون، وهم أهل الجزع والسخط.

والثاني: الصابرون، وهم الذين حبسوا قلوبهم عن التسخُّط على المقدور، وألسنتهم عن الشكوى، وجوارحهم عن أفعال الساخطين؛ فهؤلاء لهم أجرهم بغير حساب.

والثالث: الرَّاضون عن الله، الذين كمَّلوا مراتب الصبر، واطمأنت قلوبهم لأقدار الله المؤلمة، ورضوا بها، ولم يودّوا أنهم لم يصابوا بها، بل رضوا بما رضي الله به لهم، فرضوا عن الله، ورضي الله عنهم.

والرابع: الشاكرون، وهم من ارتفعت على هؤلاء كلهم درجاتهم، فصبروا لله، ورضوا بقضاء الله، ولكنهم شكروا الله على الضراء، كما شكروه على السراء، وحمدوه على المصائب والمضارّ. كما حمدوه على المحابّ والمسارّ. فهؤلاء: الشاكرون الأصفياء الأبرار، وهم الأقلُّون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً.

قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: ١٣].

وقد ورد عن النبي ﷺ حديثان صحيحان، فيهما بِشارة وخير عظيم للصابرين والشاكرين:

أحدهما قوله: «**ما مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ. فَيَقُولُ ما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ: إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ اءْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، واخْلُفْ لِي خَيْراً مِنْهَا ـ إِلاَّ أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وأَخْلَفَ لَهُ خَيْراً مِنْهَا**»[1].

فهذا يشمل أيّ مُصيبة كانت، وأنّ من قال هذا القول بِصدق، جمع الله له بين الخَلَف العاجِل، والثواب العاجل والآجل.

والثاني: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ، يَأْكُلُ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا؛ ويَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا**»[2].

فهذا وعد بأن من حمد الله بعد الأكل والشُّرب، حصل له من الله الرِّضا، الذي هو أكبر من نعيم الجنّات.

وعموم العِلّة يقتضي أن جميع النعم، إذا حصلت للعبد، فحمد الله عليها، حصل له هذا الثواب، فاجتمع له نعمة الدنيا والدين.

ومن لُطفه أن العبد إذا استغنى بما أحله الله له عما حرّمه، وتناول الحلال الملائم للنفوس بهذه النية، كان له حسنات، كما قال ﷺ حين ذكر أنواعاً من الصّدقات، حتى قال: «**وَفِي بُضْعِ[3] أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**».

قالوا: يا رسول الله. أيأتي أحدُنا شهوتَه، ويكون له أجر؟

قال: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرامٍ، أكانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذٰلِكَ إِذا وَضَعَهَا فِي الْحَلالِ، كانَ لَهُ أَجْرٌ**»[4].

فتبارك الكريم الوهاب.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنائز برقم (٢١٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٨٧)، والترمذي في سننه (١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥)، وأحمد في المسند (٣/ ١٠٠ و١١٧).

(٣) يطلق على الجماع، وعلى الفرج نفسه. وكلاهما تصح إرادته هنا. (نووي).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٠٠٦).

الفائدة الثانية

قال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة مريم: ٦٥].

اشتملت على أصول عظيمة:

١ـ **على توحيد الربوبية** وأنه تعالى رب كل شيء وخالقه ورازقه ومدبره.

٢ـ **وعلى توحيد الألُوهية والعبادة** وأنه تعالى الإله المعبود. وعلى أن ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده ولهذا أتى فيه بإلغاء قوله فاعبده الدالة على السبب أي فكما أنه رب كل شيء فليكن هو المعبود حقّاً فاعبده.

٣ـ **ومنه الاصطبار لعبادته تعالى** وهو جهاد النفس وتمرينها وحملها على عبادة الله تعالى فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر وهو: الصبر على الواجبات والمستحبات والصبر عن المحرمات والمكروهات، بل يدخل في ذلك الصبر على البليات فإن الصبر عليها، وعدم تسخطها، والرضى عن الله بها، من أعظم العبادات الداخلة في قوله: **﴿واصطبر لعبادته﴾**.

٤ـ **واشتملت على أنّ الله تعالى كامل الأسماء والصفات**، عظيم النعوت، جليل القدر وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي، بل قد تفرد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات. ودل على هذا أكبر الأدلة على أنه الذي لا تنبغي العبادة الظاهرة والباطنة القلبية والبدنية والمالية إلا لوجهه الكريم خالصة مُخْلَصة كما خَلُصَ له الكمال والعظمة والكبرياء والمجد والجلال.

٥ـ **ومنها بطلان الشرك عقلاً ونقلاً**، فكيف يليق بالعاقل أن يجعل المخلوق الناقص الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نَفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً نِدّاً لمن لا كُفْء له ولا سمي ولا مشابه بوجه من الوجوه؟! فهل هذا إلا من السفه والضلال والجهل المفرط والضرر من كل الوجوه!!.

٦ـ **ودلت على أنّ الشرك قد تقرر في العقل قبحه وأنّ التوحيد قد تقرر**

في العقل حسنه، فكما لا سميَّ لله فلا أحسن من عبادته وإخلاص العمل له، ولا أنفع للعبد من ذلك ولا أصلح ولا أزكى. ومن المتقرر شرعاً أنَّ الإحسانَ في عبادة الله تعالى الذي هو سبب كل خير عاجل وآجل بل سبب لأعلى المراتب وأكمل الثواب، هو كما قال النبي ﷺ: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[1] فكلما حقق العبد هذا الأمر كان له نصيب وافر من العبادة بل هو أهم الأمور، ولهذا أمر النبي ﷺ معاذ بن جبل أن يسأل الله تعالى أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته[2]، وهذا أمر يَقِلُّ من الخلق من يحققه ويتصف به على وجه الكمال لمشقة ذلك على النفوس، فإذا امتثل العبد لأمر ربه بالاصطبار لعبادته وحبس النفس وتوطينها على إحسان العبادة، خصوصاً أفضل العبادات وأعظمها وهي الصلاة، كما أمر الله بالاصطبار عليها خصوصاً فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [سورة طه: ١٣٢] استنار قلبه بالإيمان وباشر حلاوته، فانجذب إلى عبادة الله وإخلاص العمل له، وعلم أنّ هذا هو الفلاح الدائم والربح المتضاعف الذي لا خسارة فيه فَصَبَّر نفسه قليلاً ليستريح بأعظم اللذات طويلاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

[المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ٦٠ ـ ٦٢)]

---

(١) جزء من حديث جبريل الطويل المشهور، أخرجه مسلم في صحيحه (برقم ٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٩٠)، وأحمد في المسند (١/ ٢٤٤ـ ٢٤٧)، وأبو داود في سننه (١٥٢٢)، والنسائي في سننه (٣/ ٥٣)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في تخريجه للأدب المفرد.

الفائدة الثالثة

قال رحمه الله في كتابه القواعد الحسان:

قاعدة:

الصبر أكبر عون على كل الأمور

والإحاطة بالشيء علماً وخبراً هو الذي يعين على الصبر

وهذه القاعدة عظيمة النفع قد دل القرآن عليها صريحاً وظاهراً في أماكن كثيرة، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة البقرة: ٤٥] أي استعينوا على جميع المطالب وفي جميع شؤونكم بالصبر، فإن الصبر يسهل على العبد القيام بوظيفة الطاعات وأداء حقوق عباده، وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات فينهاها عن هواها، حذر شقاها، وطلباً لرضى مولاها، وبالصبر تخف عليه الكريهات، ولكن هذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبني عليها ولا يمكن وجودها بدونه هو معرفة الشيء المصبور عليه، وما فيه من الفضائل، وما يترتب عليه من الثمرات، فمتى عرف العبد ما في الطاعات من صلاح القلوب وزيادة الإيمان واستكمال الفضائل، وما تثمره من الخيرات والكرمات وما في المحرمات من الضرر والرذائل، وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة، وما لمن قام بوظيفه فيها من الأجور، هان عليه الصبر على جميع ذلك، وبهذا يعلم فضل العلم وأنه أصل العمل والفضائل كلها، ولهذا يذكر الله كثيراً في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة ما انحرفوا إلا لقصور علمهم وعدم إحاطتهم التامة بها، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: ٢٨]. وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [سورة النساء: ١٧]. ليس معناه أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء وإنما قصر علمهم وخبرتهم بما توجبه الذنوب من العقوبات، وأنواع المضرات، وزوال المنافع، وقال تعالى مبيناً أنه متقرر أن الذي لا يعرف ما يحتوي عليه الشيء ليعذر عليه الصبر، فقال عن الخضر لما قال له موسى وطلب منه أن يتبعه ليتعلم مما علمه الله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ

تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الكهف: ٦٧ـ ٦٨] فعدم إحاطته به خبراً يمتنع معه الصبر ولو تجلد ما تجلد فلا بد أن يعال صبره.

وقال تعالى مبيناً عظمة القرآن وما هو عليه من الجلال والصدق الكامل ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [سورة يونس: ٣٩] فأبان أن الأعداء المكذبين به إنما تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه وأنهم لو أدركوه كما هو لألجأهم واضطرهم إلى التصديق والإذعان، فهم وإن كانت الحجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه ولم يعرفوه حق معرفته، وقال في حق المعاندين الذين بان لهم علمه وخبأوا صدقه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤] ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٣٣] والمقصود أن الله أرشد العباد إلى الاستعانة على أمورهم بملازمة الصبر وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور ومعرفة حقائقها وما فيها من الفضائل أو الرذائل، والله أعلم.

[القواعد الحسان (ص ٢٠٣ـ ٢٠٥)]

* * *

الفائدة الرابعة

حكم الرضى بقضاء الله وقدره

قال رحمه الله:

سئلت عن حكم الرضى بقضاء الله وقدره؛ فأجبت بأن ذٰلك نوعان:

أحدهما: فعل الرب وتقديره وحكمه.

الثاني: فعل العبد.

ويختلف الحكم فيها، أما فعل الرب تعالى؛ فهو أنواع:

أحدها: قضاؤه الديني، وحكمه الشرعي؛ فهٰذا الرضى به واجب، من أفرض الفروض، بل لا يتم الإيمان إلا به، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا

مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٦] ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾ إلى آخر الآية [سورة النساء: ٦٥]؛ فيجب على كل مؤمن أن يرضى بأحكام الله الشرعية ويتلقاها بالقبول والسمع والطاعة، ولهٰذا قال المؤمنون ملتزمين لها: سمعنا وأطعنا.

الثاني: قضاؤه على عبده فيما يحب للعبد من صحة بدنه، وسعة رزقه، وحصول منافعه، واندفاع مضاره، فهٰذا لا بد له فيه من الرِّضى طبعاً لأنه من مطالب النفوس، ولٰكن يجب في هٰذا النوع الشكر لله والثناء عليه بما أدلى، والحذر من الأشر والبطر والطغيان.

الثالث: قضاؤه على عبده المكاره والمصائب؛ فبعض العلماء يرى وجوب الرِّضى بها، وأكثر العلماء ـ وهو الصحيح ـ أن الرِّضى مستحب.

والرضى فيها غير الصبر، فإن الصبر واجب بالاتفاق، فالصبر أن لا يتسخطها بقلبه ولا بلسانه ولا بجوارحه، فإذا صبر نفسه عن هذا السخط، فهو صابر، ولو كان قلبه يحب أن لا يكون المصيبة، وأما الرضى فهو على ذلك قلبه راض بها وبما قسم الله غير مختار على ربه، وهذا أعلى، لأنه متضمن الصبر وزيادة طمأنينة القلب، وأن لا يكون له إرادة تخالف ما قضاه الله عليه، وأما فعل العبد وهي الطاعات والمعاصي، فيجب الرضى بالطاعات الواقعة منه ومن غيره ومحبتها، وكراهة المعاصي الواقعة منه ومن غيره، فالرضى والكراهة في هذين النوعين يرجعان إلى فعل العبد، وذلك راجع إلى موافقة الرب في محبته للطاعات وكراهته للمعاصي، وحكمه بالتفريق بينهما في أحكام الدنيا والآخرة، فعلينا أن نوافق الله في ذلك، وأما من جهة تقدير الله لها وفعل الرب التي نشأت عنه، فعلينا أن نرضى بها من هذه الجهة موافقين لربنا في ذلك، فإنه قضى الخير والشر، وأحب الخير وكره الشر الواقع بالعباد، فبهذا التفصيل يزول الإشكال في هذه المسألة العظيمة التي تحتاج إلى فرقان عملي، ومن لم يفرق هذا التفريق وقع في أنواع من الخطأ والجهالات، والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد ٤٠ ـ ٤٢)]

* * *

الفائدة الخامسة

المصيبة التي يثاب عليها العبد

قال رحمه الله:

المصيبة التي تصيب العبد ويؤمر بالصبر عليها ويثاب على ذٰلك نوعان:

ـ مصيبة تأتيه بغير اختياره وعمله؛ كفقد الأحباب، والمكاره التي تصيبه في بدنه، أو قلبه، أو ماله، أو حبيبه؛ فمن نعمة الله على المؤمن أنه إذا قام بوظيفة الصبر والرّضى واحتساب الأجر؛ أعطاه الله أجره بغير حساب.

ـ والنوع الثاني: المصيبة التي تنال المؤمن بأسباب عمله الصالح، كالجهاد، والحج، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهٰذه تشارك الأولى في ثوابها والصبر عليها، وتزيد عليها بشرف سببها؛ حيث نشأت عن طاعة الله؛ فكانت أسبابها خير الأسباب، وثمرتها خير الثمار، وكانت مع ذٰلك تابعة لتلك الطاعة والعبادة التي قام بها العبد.

قال تعالى في المجاهدين بأنهم: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. . .﴾ الآية [سورة التوبة: ١٢٠].

وقال: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: ١٠٤].

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٥٧].

وهذه أيضاً يعان عليها العبد ما لا يعان على الأخرى؛ فإن الله تعالى شكور يشكر عبده الذي قام بمراضيه بأنواع من الثواب في قلبه وإيمانه وثوابه والتحمل عنه، وربما استحلاها المؤمن بحسب إيمانه، وهنا مصيبة ثالثة تكون من أسباب عمله بالمعاصي؛ فهٰذه إذا اقترن بها الصبر والاحتساب؛ كانت من مكفرات الخطايا، وإلا فهي تابعة للسيئات ونموذج للعقوبات. والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٧٠ ـ ٧١)]

الفائدة السادسة

في تكرار الأجر بتذكر المصيبة

قال رحمه الله:

روى الإمام أحمد عن الحُسَيْن بن عليٍّ مرفوعاً: «ما من مُسْلِم ولا مُسْلِمَةٍ يُصاب بمصيبةٍ، فيذْكُرها وإنْ طالَ عهدُه، فَيُحْدِث عِند ذلكَ اسْتِرْجاعاً، إلاّ جَدَّدَ الله لهُ عِنْدَ ذلك، فأَعْطاهُ مِثْلَ أَجْرِها يَوْمَ أُصِيبَ بها»[1].

هذا من مِنَنِ الله على المؤمنين، وفوائد المصائب!.

والحِكمةُ في هذا واضِحة، فإنه إذا ذكرها، جدّد صبراً لله، وثَناء عليه، ورضاً بقدَره، وتسليماً بأمر الله، وتلك عُبوديات قلْبِية وقوْلِيّة مُتَجَدِّدة. كما أن العبد إذا ذكر الله، أو قرأ، أو صلّى، أو صام، أو عامَل الله مُعاملة ظاهرَة أو باطنة، جدّد الله له ثواباً مهما تكرّرت، إذا اقْترن بها شَرْطُها، وهو الإخلاص لله.

وكذلك النِّعَمُ؛ إذا أنْعم الله بها على العبْد، فشكر الله عليها، أثابه على ذلك. ثم كلّما ذكرها، وتحدّث بها، واعْترف لله بها، ضاعفَ الله له الثّواب.

فالمؤمن لا يزال يَغْنَمَ من ربِّه، ويكسب خيراً كثيراً.

[الفتاوى السعدية (ص ٥٦)]

الفائدة السابعة

تفاوت الناس عند المصائب

الناس إذا مات لهم حبيب أو أصابتهم مصيبة متفاوتون؛ فأعلاهم منزلة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم (١٧٣٤)، وابن ماجه في سننه برقم (١٦٠٠)، وقال شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن ابن ماجه رقم (٣٤٩): ضعيف جداً. وانظر الضعيفة برقم (٤٥٥١).

من يقول: إن لله علي حقاً في هٰذه المصيبة ولحبيبي عليّ حق؛ فأشتغل بتحقيق أداء الحقين عن الاشتغال بفوات حظي من حبيبي؛ فلله عليّ حق الصبر الذي لا بد منه، ولا يتم الإيمان إلا به، فإن أمكن مع ذلك الارتقاء إلى مقام الرضى والشكر اللذين هما أعلى المقامات؛ كان هو المغنم الأعلى والحظ العظيم، فيشتغل بهٰذا الحق، ويعلم أنه إذا قام به أثابه الله من الخير العاجل والآجل أعظم مما فاته بأضعاف مضاعفة، وأما حق حبيبي عليَّ من والد وقريب وصديق ونحوه؛ فالاشتغال به أن أعمل ما أقدر عليه من الأسباب التي يغتبط بها بعد موته من الاستغفار له، والدعاء، والصدقة، وتنفيذ وصيته، وقضاء دينه، ونشر ما تسبب في حياته من مشروع ديني وغيره، فمن كان كذٰلك؛ فهو الرجل الحازم، وهو الرجل الذي وُفِّقَ للقيام بالحقوق وبالوفاء بحق الحبيب، وأما من كان إذا أصيب بمثل هٰذه المصيبة لحظ فوات حظه فقط؛ فإنه تحضره الهموم والغموم والسخط وفوات الثواب وحصول العقاب.

فسبحان من فاوت بين العباد هٰذا التفاوت الذي لا ينضبط طرفاه! والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٤٧ ـ ٤٨)]

الفائدة الثامنة

قال رحمه الله في شرحه لكتاب التوحيد:

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله[1]

أما الصبر على طاعة الله والصبر على معصيته فهو ظاهر لكل أحد أنها من

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:

باب من الإيمان الصبر على أقدار الله

«الصبر». في اللغة: الحَبس، ومنه قولهم: «قتل صبراً»؛ أي: محبوساً مأسوراً.

وفي الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء، وهو ثلاثة أقسام:

الأول: الصبر على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: =

الإيمان بل هما أساسه وفرعه. فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه، وصبر عن محارم الله.

= ٢٣، ٢٤]، وهذا من الصبر على الأوامر؛ لأنه إنما نزل عليه القرآن ليُبلِّغه؛ فيكون مأموراً بالصبر على الطاعة، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، وهذا صبر على طاعة الله.

الثاني: الصبر عن معصية الله؛ كصبر يوسف عليه السلام عن إجابة امرأة العزيز حيث دعته إلى نفسها في مكانة لها فيها العز والقوة والسلطان عليه، ومع ذلك صبر وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]؛ فهذا صبر عن معصية الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤]، فيدخل في هذه الآية حكم الله القدري، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذى قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدى بناته: «**مرها؛ فلتصبر ولتحتسب**» [رواه البخاري ومسلم].

إذا الصبر ثلاثة أنواع، أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلاَّ؛ فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة إذا فُتن الإنسان مثلاً بامرأة جميلة تدعوه إلى نفسها في مكان خال لا يطلع عليه إلاَّ الله وهو رجل شاب ذو شهوة؛ فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، قد يصلي الإنسان مئة ركعة وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يُصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة؛ فقد يموت له مثلاً قريب أو صديق أو عزيز عليه جداً، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

وبهذا يندفع الإيراد الذي يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر؛ إذ بعض المعاصي يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق؛ فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هي بقطع النظر عن الصابر.

وكان الصبر على الطاعة أعلى؛ لأنه يتضمن إلزاماً وفعلاً، فتلزم نفسك الصلاة فتصلي، والصوم فتصوم، والحج فتحج... ففيه إلزام وفعل وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر على المعصية لأن فيه كفّاً فقط؛ أي: إلزاماً للنفس بالترك، أما الصبر على =

فإن الدين يدور على ثلاثة أصول:

تصديق خبر الله ورسوله وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما، فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل من هذا العموم ولكن خص الذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به.

فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله وأن الله أتم الحكمة في تقديرها وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد، رضي بقضاء الله وسلم لأمره وصبر على المكاره، تقرباً إلى الله، ورجاء لثوابه وخوفاً من عقابه، واغتناماً لأفضل الأخلاق فاطمأن قلبه وقوي إيمانه وتوحيده.

[القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص ٩٨)]

= الأقدار، فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فعلاً ولا تركاً، وإنما هو من قدر الله المحض.

وخَصَّ المؤلف رحمه الله في هذا الباب الصبر على أقدار الله؛ لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية؛ لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية الله تعالى.

قوله: **«على أقدار الله»**. جمع قَدَر، وتطلق على المقدور وعلى فعل المقدِّر، وهو الله تعالى، أما بالنسبة لفعل المقدر، فيجب على الإنسان الرضا به والصبر، وبالنسبة للمقدور؛ فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا.

مثل ذلك: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدَّر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به؛ لأنه من تمام الرضا بالله ربّاً.

وأما بالنسبة للمقدور الذي هو احتراق السيارة؛ فالصبر عليه واجب، والرضا به مستحب وليس بواجب على القول الراجح.

والمقدور قد يكون طاعات، وقد يكون معاصي، وقد يكون من أفعال الله المحضة؛ فالطاعات يجب الرضا بها، والمعاصي لا يجوز الرضا بها من حيث هي مقدور، أما من حيث كونها قدر الله؛ فيجب الرضا بتقدير الله بكل حال، ولهذا قال ابن القيم:

فَلِذَاكَ نَرضَى بالقَضَاءِ وَنَسخَطَ الـ ـمَقضيّ حين يكونُ بالعصيان

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية؛ فعليه الرضا لأن الله هو الذي قَدَّر هذا، وله الحكمة في تقديره، وإذا نظر إلى فعله؛ فلا يجوز له أن يرضى به لأنه معصية، وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور.

[شرح كتاب التوحيد (٢/ ٦٨٩)]

الفائدة التاسعة

قال رحمه الله:

الحازم هو الذي ينازع ويدافع الأقدار المؤلمة بما يدفعها قبل نزولها أو يرفعها بعد نزولها، أو يخففها بالطرق المباحة أو المأمور بها، فإن أعياه ذلك استسلم للقدر، ورضي بقضاء الله، وسلم لأمره، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: (نفر من قدر الله إلى قدر الله) رواه البخاري[1]. كذلك يفر العبد مما يكرهه الله باطناً وظاهراً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠] ويفر من أسباب الهلاك والعطب والضرر إلى أسباب النجاة والسلامة وحصول النفع، ولكن الشأن في معرفة الأسباب النافعة والضارة، ثم في سلوك خير الأمرين ومدافعة أشد الضررين. والله الموفق وحده.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٣١)]

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٧٢٩).

بعض خطب شَيخنا السعدي
حول الحث
على الصبر وانتظار الفرج

خطبة

في الحث على الصبر

الحمد لله الذي وعد الصابرين أجرهم بغير حساب، وجعل لهم العواقب الحميدة في هذه الدنيا ويوم المآب؛ وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الرحيم التوّاب، الكريم الودود الوهّاب؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله، الذي أنزل عليه الحكمة وفصل الخطاب، اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه صفوة الصفوة ولب اللباب، وسلّم تسليماً.

أما بعد: أيها الناس، اتّقوا الله تعالى واعلموا أن الصبر من الإيمان، بمنزلة الرأس من الجثمان، فمن لا صبر له فليس له يقين ولا إيمان؛ وقد أمر الله بالاستعانة بالصبر والصلاة على جميع الأمور، وأخبر أن الصابرين لهم الدرجات العالية والخير والأجور، فقال مخبراً عن أهل دار القرار: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الرعد: ٢٣ - ٢٤].

فإن سألتم عن حقيقة الصبر، فإنه حبس النفس وإلزامها ما يشق عليها ابتغاء وجه الله، وتمرينها على الطاعة وترك المحارم، وعلى الأقدار المؤلمة رضى بقدر الله. فمن عرف ما في طاعة الله من الخير والسعادة هان عليه الصبر والمداومة عليها. وما في معصية الله من الضرر والشقاء، سهل عليه إرغام النفس والإقلاع عنها. ومن علم أن الله عزيز حكيم، وأن المصائب بتقدير الرؤوف الرحيم، أذعن للرضى ورضي عنه الله وهدى الله قلبه للإيمان والتسليم.

فيا من انتابته الأمراض وتنوعت عليه الأوصاب، أذكر ما جرى على أيوب وكيف أثنى الله عليه بالصبر وحصول الزلفى حيث قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: ٤٤].

ويا من فَقَدَ سمعَه أو أخذ الله عينيه: أما علمت أن الله لا يرضى بعوض سوى الجنة لمن صبر حين يأخذ حبيبتيه؟

ويا من فجع بأحبته وقرة عينه وأولاده وأخدانه، أما علمت أن من حَمِد وٱسترجع بَنَى الله له بيت الحمد في دار كرامته، وكان زيادة في إيمانه وثقلاً في ميزانه، وأن من مات له ثلاثة من الولد أو اثنان أو واحد فصبر واحتسب كان حجاباً له من النار ورفعةً له في دار القرار؟ أما سمعت أنَّ من صبر على الفقر والجوع والخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات فإنّ له البشارة بالهداية والرحمة من ربه والثناء والصلوات؟.

ويا من أصيب بآلام أو جروح أو أمراض تعتري بدنه وتغشاه، أما سمعت قوله ﷺ: **«لا يصيب المؤمن من همٍّ ولا غمٍّ ولا أذىً حتى الشوكة يشاكُها إلا كَفَّر الله بها من خطاياه»**[1] **«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كلُّه خير: إن أصابته سرَّاء شَكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صَبَر فكان خيراً له؛ وليس ذلك إلا للمؤمن»**[2].

فعليكم بالصبر على ما أصابكم والاحتساب، فإن ذلك يخفف المصيبة ويجزل لكم عند ربكم الثواب؛ أَلاَ وإنّ الجزع يزيد في المصيبة ويحبط الأجر ويوجب العقاب؛ فيا سعادة من رضي بالله ربًّا، فتمشى مع أقداره، بطمأنينة قلب وسكون، وعلم أن الله أرحم به من والديه فلجأ إليه وأنزل به جميع الحوائج والشؤون ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ...﴾ [إلى آخر الآيات] [سورة البقرة: ١٥٥].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠/ ١١٠ فتح)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٧١).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٧٤٢٥).

خطبة

في انتظار الفرج وقتَ الشِّدّة

الحمْدُ للهِ الحميدِ في وصفِه وفعله، الحكيم في خلقِهِ وأمرِه، الرَّحيم في عطائِه ومنعه، المحمود في خفْضِهِ ورفعهِ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريك لهُ في كمالهِ وعظمتِه ومجدهِ، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ أفضلُ مرسلٍ من عندِه، اللَّهمَّ صلِّ وسَلِّم على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحْبهِ وجنْدِه.

أمَّا بعد: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللهَ تعالى، وتفَكَّروا في حُكْمِ المولى في تصريفِ الأمورِ، وأنَّهُ المحمودُ على ذلك المُثْني عليه المشكورُ، واعلموا أنَّ ما أصابكُمْ من مُصيبةٍ فبما كَسبتْ أيديكُمْ ويعْفُو عن كثيرٍ، وأنَّ هذه الشِّدَّة واللأواءَ لا بدَّ أنْ يفرِّجها منْ هو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ولا بدَّ أنْ يُبدِّلَ الشِّدَّة بِضِدِّهَا والعُسْرَ بالتَّيسيرِ، بذلك وَعَدَ وهو الصادِقُ السميعُ البصيرُ، فعُودوا على أنفسِكُمْ بالاعْترافِ بِمعاصيكُمْ وعيوبِكُمْ، وتوبوا إليه توبةً نصوحاً من جميعِ ذنوبكُمْ، وقوموا بما أمرَكُم اللهُ بِهِ وهو الصبرُ عندَ المصائبِ، واحتسِبوا الأجرَ والثَّوابَ إذا أنابتْكُم المكارِه والنوائِب، وكونوا في أوقاتكُمْ كلِّها خاضعينَ لرَبِّكُمْ مُتضرِعينَ، وفي كلِّ أحوالكُم سائلينَ لهُ كشْفَ ما بكُمْ ولكرَمِهِ مُستعرِضين، ووجِّهوا قلوبكُمْ إلى مَنْ بيدِه خزائنُ الرَّحمةِ والأرزاقِ. وانتظروا الفرَجَ وزَوَالَ الشِّدَّةِ من الرؤوفِ الرحيم الخلاَّقِ. فإنَّ أفضلَ العبادةِ انتظارُ الفرجِ من الرَّحيم الرزَّاقِ، وإيَّاكُم أن يسْتولي على قلوبِكُم القُنُوطُ واليأسُ، أو تفوهوا بالكلامِ الدَّالِّ على التَّضجُّرِ والتَّسخُّط والإبْلاسِ، فإنَّ المؤمنَ لا يزالُ يسْأل ربَّهُ ويطْمَعُ في فضْلهِ ويرجُوهُ، ولا يزالُ مغْتفراً إليه في جلب المنافع ودفْع المضارِّ في جميعِ الوجوهِ، إن أصابتْهُ السرَّاءُ كان في مقدمةِ الشاكرين، وإن نالتْه الضرَّاءُ فهو من الصابرين، يعلم أنَّهُ لا رَبَّ لهُ غيرُ اللهِ يقصدُه ويدعوهُ، ولا إلهَ لهُ سواه يؤمِّلهُ ويرجُوهُ، ليْسَ لهُ عن بابِ مولاهُ تحوُّلٌ ولا انصراف ولا لقَلْبِهِ تلفُّتٌ إلى غيرِهِ ولا تعلقٌ ولا انحرافٌ. لا تخرجُه السراءُ والنِعمُ إلى الطغيانِ والبطرِ، ولا يكونُ هلوعاً

عند مس الضرّاءِ مُتسخِّطاً للقضاءِ والقدرِ. يتمشَّى مع الأقدارِ السارَّة والمحزنةِ بطُمأنينة وسكونٍ. ويهدي اللَّهُ لها قلبَهُ لِعلمه أنها تقديرُ من يقولُ للشَّيء كُنْ فيكُون.

فهذا عبدٌ مُوفقٌ قد ربحَ على ربِّه، وقام بعبوديَّتهِ في جميع التقلبات. وقد نالَ السعادتين: راحةَ البال وحُسنَ الحالِ والمآل، واكتسَبَ الخيراتِ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة التغابن: ١١].

بارك الله لي ولكُم في القرآنِ العظيم.

* * *

اللآلىء والدرر السعدية

(التقوى)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

ففي مثل هذا الزمان الغابر الذي استولت فيه الغفلة على القلوب، وانغمست فيه الأنفس في دنيا غرارة، وشهوات خادعة، وقلت فيه الأعين التي تخاف من ربها، والتي تتطلع إلى ما عند الله تعالى من النعيم المقيم في الجنان، وما ذاك إلاَّ لظنهم أن السعيد من فاز بهذه الدنيا وملذاتها وشهواتها، وظفر بزخرفاتها وملهياتها والشقي من حرم ذلك!

وهذا والله من الغفلة العظيمة، والجهل الكبير، الذي سيطر على قلوب

وعقول هؤلاء فأدى بهم إلى ما هم عليه من الضياع والتيه، فجهلوا الحقيقة، وغاب عن أذهانهم أن هذه الدنيا بكل ما فيها من ملذات وملهيات وزخرفات ستفنى وتزول وتذهب، وأن البقاء الأبدي هو للدار الآخرة، فإما جنة أعدها الله للمتقين من عباده، وإما نار أعدها الله للعاصين الكافرين، نسأل الله تعالى السلامة من ذلك.

فالتقوى كنزٌ عظيم، ولئن ظفر به الإنسان فسيجد الجوهر الشريف والخير الكثير، والرزق الكريم، والفوز العظيم في هذه الدنيا وفي الآخرة.

فأهل التقوى هم ملوك الدنيا كما أنهم ملوك الآخرة، وهم أهل السعادة الحقيقية والشرف العظيم، والرتب العالية في الدنيا والآخرة كما قال الحق سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة طه: ١٣٢]، وكما قال أيضاً: ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الزخرف: ٣٥].

وبين يديك أخي الكريم درراً ولآلىء وجواهر قيمة، اقتطفتها من كلام الإمام العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله رحمةً واسعة وأدخله فسيح الجنة ـ في كتبه القيمة حول التقوى[1] ـ مفهومها وحقيقتها وأهلها

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
التّقوى اسم مأخوذ من الوقاية وهو أن يتخذ الإنسان ما يَقِيه من عذاب الله. والذي يقيك من عذاب الله فعل أوامر الله واجتناب نواهيه، فإن هذا هو الذي يقي من عذاب الله عز وجل.
واعلم أن التقوى أحياناً تقترن بالبرّ فيقال بر وتقوى كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

وتارة تذكر وحدها فإن قُرِنت بالبر صار البر فعل الأوامر والتقوى ترك النواهي. وإذا أُفردت صارت شاملة تعم فعل الأوامر واجتناب النّواهي، وقَد ذكر الله في كتابه، أن الجنة أُعِدَّت للمتقين، فأهل التّقوى هم أهل الجنة ـ جعلنا الله وإياكم منهم ـ ولذلك يجب على الإنسان أن يتّقي الله عز وجل امتثالاً لأمره وطَلباً لثوابه والنّجاة من عقابه.
قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وهذه الآية مبينة للمراد من الأولى. وقال الله=

وجمعتها ورتبتها، ثم دونتها في هذا الكتاب ليسهل قراءتها والانتفاع بها إن شاء المولى تبارك وتعالى.

وقد قسمت الكتاب إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: الآيات الدالة على التقوى وتفسير شيخنا السعدي لها.

الفصل الثاني: شرح شيخنا السعدي لبعض الأحاديث الدالة على التقوى.

الفصل الثالث: فوائد ودرر من كلام شيخنا السعدي على التقوى.

الفصل الرابع: بعض خطب شيخنا السعدي التي تحث على التقوى.

هذا وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني عملي هذا، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه وأن يغفر لشيخنا السعدي ولجميع علمائنا وأئمتنا وأن يجمعنا وإياهم وجميع المسلمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

والحمد لله الذي بنعمته تتمة الصالحات.

وكتب

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

عامله الله بلطفه الخفي

= تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠]، والآيات في الأمر بالتقوى كثيرة معلومة، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩] والآيات في الباب كثيرة معلومة.

[شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٧٤)]

الفصل الأول

الآيات الدالة على التقوى وتفسير شَيخنا السعدي لها

الآية الأولى:

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [سورة النساء: ١٣١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره، بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف، قدراً، وشرعاً. فتصرفه الشرعي، أن وصى الأولين والآخرين، أهل الكتب السابقة واللاحقة ـ بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية، بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها، بأليم العذاب. ولهذا قال: **﴿وإن تكفروا﴾** بأن تتركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضرون بذلك، إلاَّ أنفسكم، ولا تضرون الله شيئاً، ولا تنقصون ملكه. وله عبيد خير منكم، وأعظم، وأكثر، مطيعون له، خاضعون لأمره.

ولهذا رتب على ذلك قوله: **﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾** له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته، التي لا ينقصها الإنفاق، ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. لو اجتمع أهل السماوات، وأهل الأرض، أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم، ما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئاً. ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام إنما أمره لشيء إذا أراد شيئاً، أن يقول له كن فيكون. ومن تمام غناه، أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها. ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً في ملكه، ولا ظهيراً، ولا معاوناً له على شيء، من تدابير ملكه. ومن كمال غناه، افتقار العالم العلوي والسفلي، في جميع أحوالهم وشؤونهم، إليه، وسؤالهم إياه، جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة.

فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم، ومنّ عليم بلطفه، وهداهم. وأما الحميد، فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه هو المستحق لكل حمد، ومحبة، وثناء وإكرام. وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال. وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين: **﴿الغني الحميد﴾**.

فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر. ثم كرر إحاطة ملكه، لما في السموات والأرض، وأنه على كل شيء وكيل.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٢١)]

الآية الثانية:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [سورة النساء: ١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

افتتح تعالى هذه السورة، بالأمر بتقواه، والحث على عبادته، والأمر بصلة الأرحام، والحث على ذلك. وبيّن السبب الداعي، الموجب لكل من ذلك، وأن الموجب لتوقاه أنه **﴿ربكم الذي خلقكم﴾** ورزقكم، ورباكم بنعمه العظيمة، التي من جملتها خلقكم **﴿من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾** ليناسبها، فيسكن إليها، وتتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور. وكذلك، من الموجب الداعي لتقواه، تساؤلكم به، وتعظيمكم. حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم، توسلتم بها، بالسؤال. فيقول من يريد ذلك لغيره: أسألك بالله، أن تفعل الأمر الفلاني، لعلمه بما قام في قلبه، من تعظيم الله الداعي، أن لا يرد من سأله بالله. فكما عظمتموه بذلك، فلتعظموه بعبادته وتقواه. وكذلك الإخبار بأنه رقيب، أي: مطلع على العباد، في حال حركاتهم وسكونهم، وسرهم

وعلنهم، وجميع الأحوال، مراقباً لهم فيها، مما يوجب مراقبته، وشدة الحياء منه، بلزوم تقواه.

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد ـ ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض وقرن الأمر بتقواه، بالأمر ببر الأرحام، والنهي عن قطيعتها، ليؤكد هذا الحق. وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم، هو من حق الله الذي أمر به.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٠٩)]

الآية الثالثة:

يقول الله تعالى:

﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [سورة النساء: ٧٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾ أي اتقى الشرك وسائر المحرمات **﴿ولا تظلمون فتيلا﴾** أي فسعيكم للدار الآخرة ستجدونه كاملاً موفراً غير منقوص منه شيئاً.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٧٣)]

الآية الرابعة:

يقول الله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾[1] [سورة البقرة: ١ـ ٥].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين في تفسير هذه الآيات:
في هذه الآيات يقول عزَّ وجلَّ: **﴿ذلك الكتاب﴾** وهو القرآن الكريم، وأشار الله سبحانه =

قال شيخنا السعدي رحمه الله:

وأما الحروف المقطعة في أوائل السور، فالأسلم فيها، السكوت عن

= وتعالى إليه بإشارة البعيد لعلو مرتبته، وعظيم منزلته، فإنه كرم الله الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وقد وصفه الله تعالى في القرآن بأوصاف عظيمة بالغة، وسمَّاه الله كتاباً، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدينا.

وقوله: **﴿لا ريب﴾** أي ليس فيه ريب ولا شك؛ لأنه حق نازل من عند الله. وفي قوله: **﴿هدى للمتقين﴾** أي الذين اتقوا عذاب الله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

وقوله: **﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾** أي الذين يؤمنون بما غاب عنهم، لإخبار الله تعالى به ورسوله. **﴿ويقيمون الصلاة﴾** أي يأتون بها قائمة مستقيمة على وفق الشريعة، وينفقون مما رزقهم الله من الزكوات الواجبة، والصدقات المستحبة، والنفقات اللازمة.

﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ أي من الكتب المنزلة على الرسل مثل التوراة والإنجيل والزبور **﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾** إيقاناً كاملاً لا مرية فيه.

﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي على صراط مستقيم، وعلم نافع. **﴿وأولئك هم المفلحون﴾** أي الذين اهتدوا بهداية الله عز وجل واتبعوا ما أنزل الله، فأصبح مآلهم هو الفلاح، والفلاح هو حصول المطلوب والنجاة من المرهوب.

فوائد وأحكام هذه الآيات الكريمة:

- في هذه الآيات إشارة إلى الصنف الأولى والأعلى من أصناف بني آدم نحو هذا الكتاب العزيز، فإن الناس انقسموا في هذا الكتاب العزيز إلى ثلاثة أقسام: قسم آمنوا به ظاهراً وباطناً، وقسم آمنوا به ظاهراً وكفروا به باطناً، وقسم كفروا به ظاهراً وباطناً، فبدأ الله تعالى بالذين آمنوا به ظاهراً وباطناً، ثم ثنَّى بالذين كفروا به باطناً وظاهراً، ثم ثلَّثَ بالذين آمنوا به ظاهراً وكفروا به باطناً، وهذا التقسيم من أحسن التقاسيم وأجملها وأوضحها، فبدأ بالأعلى ثم بما يقابله تماماً، ثم بما هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وأخَّرَ الكلام عليهم لطوله، ولبيان أوصافهم حتى يحترز منهم. ففي قوله تعالى: **﴿الٓمٓ﴾** إشارة إلى هذا القرآن العظيم الذي أعجز أمراء الفصاحة والبلاغة لم يكن بأحرف خارجة عن الأحرف التي كانوا يتحدثون بها، ومع ذلك أعجزهم فعجزوا بالقرآن، بمثله كله، قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤]. وهذا يشمل ما يكون به الإعجاز، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ=

التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً بل لحكمة لا نعلمها.

= مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]. وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]. هذا القرآن الذي أعجزكم أيها البلغاء والفصحاء لم يأتِ بحروف جديدة حتى تقولوا ليست هذه الحروف معلومة لنا فلا نستطيع، هذا هو الأصح في الحكمة من ذكر الحروف الهجائية في أوائل بعض السور. أما الحروف نفسها فليس لها معنى، لأن الله تعالى أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين. وهذه الحروف الهجائية ليس لها معنى في اللغة العربية.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾ دليل على علو مرتبة القرآن، وهو كذلك، لأن القرآن كلام الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو أعلى الكلام في الفصاحة والبلاغة وما يحتوي عليه من العلوم النافعة.

وفي قوله: ﴿الكتاب﴾ دليلٌ على أن هذا القرآن مكتوب وهو كذلك، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١ و ٢٢]. وقال الله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٢ـ ١٦]. وهو كذلك مكتوب في الصحف التي بأيدينا.

ـ وفي قوله: ﴿ذلك الكتاب﴾ «ال» دليل على أن هذا الكتاب معروف معهود، وهو كذلك. فإن كتاب الله عز وجل كان معروفاً معهوداً بين الصحابة، لم يفتقد منه شيء، وقد ذكر أهل العلم أن من أنكر حرفاً واحداً اتفق القرّاء على إثباته فهو كافر.

وأما اختلاف القراءات السبع فإن هذا مما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام، لأن هذه القراءات السبع كلها حق تجوز القراءة بها.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ دليل على أن الاهتداء بالقرآن مربوط بالتقوى. فكلما كان الإنسان أتقى لله كان أهدى بكتاب الله.

وفي قوله: ﴿هدى للمتقين﴾ دليلٌ على أن غير المتقي لا يهدى بالقرآن وهو كذلك، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ [المطففين: ٧ـ ٩]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٠ـ ١٤]. فأخبر الله تعالى أن هذا تتلى عليه=

وقوله: ﴿ذلك الكتاب﴾ أي هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين، من العلم العظيم، والحق المبين.

فهو: ﴿لا ريب فيه﴾ ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه، يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك، اليقين. فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب.

وهذه قاعدة مفيدة، أن النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمناً لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض، لا مدح فيه. فلما

= آيات الله ولم ينتفع بها ولم تصل إلى قلبه، بل يقول: ﴿أساطير الأولين﴾ يعني مثل الحكايات التي تُحكى عن الأولين، ويُتحدَّث بها، لماذا؟ لأنه ران على قلبه ما كان يكسبه من الآثام، فلم ينتفع بالقرآن وكلما كان الإنسان أتقى لله كان أهدى بكتاب الله، ويدل على ذلك آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وكلما نقص الإنسان من التقوى نقص من اهتدائه بكتاب الله بقدر ما نقص من تقواه.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة: ٣، ٤].

هنا بيَّن الله تعالى أوصاف هؤلاء المتقين، فوصفهم سبحانه بأنهم يؤمنون بالغيب، أي بما غاب عنهم مما أخبر الله به ورسله، لأنهم يصدقون بما أخبر الله به ورسله أكثر مما يصدقون بما شاهدوه بأعينهم أو سمعوه بآذانهم، وأمور الغيب التي أخبر الله بها ورسله كثيرة معروفة في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ، ومن أوصافهم أنهم يقيمون الصلاة أي يأتون بها قائمة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها، ويتممون ذلك بمتمماتها من المستحبات، ومن أوصافهم أيضاً أنهم ينفقون مما رزقهم الله عز وجل على حسب ما تقتضيه الشريعة إنفاقاً دائراً بين الإفراط والتفريط كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧].

وفي قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٥]، بيَّن الله ما لهم وهو حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

[أحكام من القرآن الكريم (ص ٥٣ ـ ٥٧)]

اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلاَّ باليقين قال: ﴿هدى للمتقين﴾. والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة. وقال: ﴿هدى﴾ وحذف المعمول، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين. فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبيّن للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبيّن لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم، في دنياهم وأخراهم. وقال في موضع آخر: ﴿هدى للناس﴾ فعمم. وفي هذا الموضع وغيره ﴿هدى للمتقين﴾ لأنه في نفسه هدى لجميع الناس. فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم.

وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر، لحصول الهداية، وهو التقوى التي حقيقتها: إتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾.

فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق.

فالمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق.

وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها، ليست هداية حقيقية تامة.

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة، والأعمال الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك فقال: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾.

حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح. وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر. إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله. فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله.

فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه. بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك. فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: **﴿ويقيمون الصلاة﴾** لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة. فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهراً، بإتمام أركانها، وواجباتها، وشروطها. وإقامتها باطناً، بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها. فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: **﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** وهي التي يترتب عليها الثواب. فلا ثواب للعبد من صلاته، إلاَّ ما عقل منها. ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: **﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾** يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب، والمماليك ونحو ذلك. والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير. ولم يذكر المنفق عليهم، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي، قربة إلى الله. وأتى بـ «من» الدالة على التبعيض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلاَّ جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم.

وفي قوله: **﴿رزقناهم﴾** إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق الله، الذي خولكم، وأنعم به عليكم. فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة، متضمنة للإحسان على عبيده. فعنوان سعادة العبد، إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق. كما أن عنوان شقاوة العبد، عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

ثم قال: ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك**﴾ وهو القرآن والسنة. قال تعالى: ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة**﴾. فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده أو تأويله، على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً.

وقوله: ﴿**وما أنزل من قبلك**﴾ يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة. ويتضمن الإيمان بالكتب، الإيمان بالرسل وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزبور. وهذه خاصية المؤمنين، يؤمنون بالكتب السماوية كلها، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿**وبالآخرة هم يوقنون**﴾. و «الآخرة» اسم لما يكون بعد الموت. وخصه بالذكر بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان. ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل. و «اليقين» هو العلم التام، الذي ليس فيه أدنى شك، والموجب للعمل.

﴿**أولئك**﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿**على هدى من ربهم**﴾ أي: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم. وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة؟!!. وهل الهداية في الحقيقة، إلاَّ هدايتهم وما سواها مما خالفها، فهي ضلالة. وأتى بـ «على» في هذا الموضوع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ «في» كما في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

ثم قال: ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة

من المرهوب. حصر الفلاح فيهم، لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلاَّ بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل، فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار، التي تفضي بسالكها إلى الهلاك. فلهذا، لما ذكر صفات المؤمنين حقّاً، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم المعاندين.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣١ ـ ٣٤)]

الآية الخامسة:

يقول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

. . .وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار وهو الموصل لأكمل لذة وأجل نعيم دائماً أبداً ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر وممنوع من الوصول إلى دار المتقين فهذا مدح للتقوى.

ثم أمر بها أولي الألباب فقال: **﴿واتقونِ يا أولي الألباب﴾** أي: يا أهل العقول الرزينة اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٥٨)]

الآية السادسة:

يقول الله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾** أي:

ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال، من العناء الذي ليس تحته إلاَّ الشقاق والخلاف. وهذا نظير قوله ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[1] ونحو ذلك.

﴿**ولكن البر من آمن بالله**﴾ أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص.

﴿**واليوم الآخر**﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول، مما يكون بعد الموت.

﴿**والملائكة**﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ.

﴿**والكتاب**﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسوله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام.

﴿**والنبيين**﴾ عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

﴿**وآتى المال**﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً.

أي: أعطى المال [على حبه] أي: حب المال بين به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرجه العبد. فمن أخرجه مع حبه له، تقرباً إلى الله تعالى، كان هذا برهاناً لإيمانه.

ومن إيتاء المال على حبه، أن يتصدق وهو شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر. وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة، كان أفضل، لأنه في هذه الحال، يحب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر. وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالى:

﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾. فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه. ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦١١٤)، ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة برقم (٢٦٠٩).

من: ﴿**ذوي القربى**﴾ الذين تتوجع لمصابهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون. فمن أحسن البر وأوفقه، تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجاتهم.

﴿**واليتامى**﴾ الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها.

وهذا من رحمته تعالى بالعباد، الدالة على أنه تعالى، أرحم بهم من الوالد بولده. فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم، الإحسان إلى من فقد آباؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه. ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رحم يتيم غيره، رحم يتيمه.

﴿**والمساكين**﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة، وأذلهم الفقر فلهم حق على الأغنياء، بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدروا عليه، وبما يتيسر.

﴿**وابن السبيل**﴾ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده. فحث الله عباده على إعطائه من المال، ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف. فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته، وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب، الذي بهذه الصفة، على حسب استطاعته، ولو بتزويده، أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها.

﴿**والسائلين**﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج، توجب السؤال. كمن ابتلى بأرش جناية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد، والمدارس، والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له الحق، وإن كان غنياً ﴿**وفي الرقاب**﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة عليه، وبذل مال للمكاتب، ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار، أو عند الظلمة.

﴿**وأقام الصلاة وآتى الزكاة**﴾ قد تقدم مراراً، أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات، عبادات قلبية، وبدنية، ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان.

﴿**والموفون بعهدهم إذا عاهدوا**﴾ والعهد، وهو، الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده

والتزموها، ودخلوا تحت عهدتها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد، التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور، ونحو ذلك.

﴿**والصابرين في البأساء**﴾ أي: الفقر، لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة، ما لا يحصل لغيره. فإن تنعم الأغنياء، بما لا يقدر عليه، تألم. وإن جاع، أو جاعت عياله. تألم. وإن أكل طعاماً، غير موافق لهواه، تألم. وإن عري، أو كاد، تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه، تألم. فكل هذه ونحوها، مصائب، يؤمر بالصبر عليها، والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

﴿**والضراء**﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى، وقروح، ورياح، ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك. لأن النفس تضعف، والبدن، يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر، احتساباً لثواب الله تعالى.

﴿**وحين البأس**﴾ أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجهاد، يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل، أو الجراح، أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك، احتساباً، ورجاء لثواب الله تعالى، الذي منه النصر والمعونة، التي وعدها الصابرين.

﴿**أولئك**﴾ أي: المتصفون بما ذكر، من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان، وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية.

فأولئك: ﴿**الذين صدقوا**﴾ في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم.

﴿**وأولئك هم المتقون**﴾ لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور. لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير، تضمناً ولزوماً، لأن الوفاء بالعهد، يدخل فيه الدين كله. ومن قام بها، كان بما سواها أقوم، فهؤلاء الأبرار الصادقون المتقون.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٣٦ـ ١٣٩)]

الآية السابعة:

يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [سورة الليل: ٥- ٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

. . . ولهذا فضل الله العاملين ووصف أعمالهم فقال: **﴿فأما من أعطى﴾** أي: ما أمر به من العبادات المالية كالزكوات والنفقات والكفارات والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير. والعبادات البدنية: كالصلاة والصوم، وغيرهما. والمركبة من ذلك: كالحج والعمرة ونحوهما. **﴿واتقى﴾** ما نهى عنه من المحرمات والمعاصي على اختلاف أجناسها.

﴿وصدق بالحسنى﴾ أي صدق بـ «لا إله إلاَّ الله» وما دلت عليه من العقائد الدينية، وما ترتب عليها، من الجزاء.

﴿فسنيسره لليسرى﴾ أي: نيسر له أمره ونجعله مسهلاً عليه كل خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٢٦)]

الآية الثامنة:

يقول الله تعالى: ﴿. . . وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿واتقوا الله﴾ هذا هو البر الذي أمر الله به وهو لزوم تقواه على الدوام بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فإنه سبب للفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٥٠)]

الآية التاسعة:

يقول الله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

...فذكر الله في هذه الآيات، أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى. ويدل على ما قلنا، أن الله ذكر لفظ «التقوى» في هذه الآيات، ثلاث مرات: مرة مطلقة وهي قوله: **﴿أعدت للمتقين﴾**. ومرتين مقيدتين فقال: **﴿واتقوا الله﴾**، **﴿واتقوا النار﴾**.

فقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** كل ما في القرآن من قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان، هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي. لأن الإيمان هو: التصديق الكامل، بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح. فنهاهم عن أكل الربا، أضعافاً مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية. من أنه إذا حل الدين على المعسر، ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن نزيد في المدة، وتزيد ما في ذمتك. فيضطر الفقير، ويستدفع غريمه، ويلتزم ذلك، اغتناماً لراحته الحاضرة. فيزداد ـ بذلك ـ ما في ذمته أضعافاً مضاعفة، من غير نفع وانتفاع.

ففي قوله: **﴿أضعافاً مضاعفة﴾** تنبيه على شدة شناعته بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه. وأن تحريم الربا، حكمته: أن الله منع منه، لما فيه من الظلم.

وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر، وبقاء ما في ذمته من غير زيادة. فإلزامه بما فوق ذلك، ظلم متضاعف. فيتعين على المؤمن المتقي، تركه، وعدم قربانه، لأن تركه، من موجبات التقوى. والفلاح، متوقف على التقوى، فلهذا قال: **﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾**، **﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾** بترك ما يوجب دخولها، من الكفر، والمعاصي، على اختلاف درجاتها. فإن المعاصي كلها ـ وخصوصاً المعاصي الكبار ـ تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر، الذي أعد الله النار لأهله. فترك المعاصي، ينجي من النار، ويقي من سخط الجبار. وأفعال الخير والطاعة، توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وحصول الرحمة ولهذا قال: **﴿وأطيعوا الله والرسول﴾** بفعل الأوامر وامتثالها، واجتناب النواهي **﴿لعلكم ترحمون﴾** فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة، كما قال تعالى: **﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة﴾** الآيات.

ثم أمرهم تعالى، بالمسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته، التي عرضها السموات والأرض، فكيف بطولها التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها. ثم وصف المتقين وأعمالهم فقال: **﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾** أي: في عسرهم ويسرهم. إن أيسروا، أكثروا من النفقة. وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم ـ وهو امتلاء قلوبهم من الحنق، الموجب للانتقام بالقول والفعل ـ هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿والعافين عن الناس﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول، أو فعل. والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة، مع السماحة عن المسيء. وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله، رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون

أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن، وأعلى، وأجل، وهي الإحسان.

فقال تعالى: **﴿والله يحب المحسنين﴾** والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق. فالإحسان في عبادة الخالق، فسرها النبي ﷺ بقوله: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[1]. وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم. فيدخل في ذلك، أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم. وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم، وتباين أوصافهم. فيدخل في ذلك. بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات. فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده. ثم ذكر اعتذارهم لربهم، من جناياتهم وذنوبهم فقال: **﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾** أي: صدر منهم أعمال سيئة كبيرة أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعد به العاصين، ووعد به المتقين.

فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها، وندمهم عليها.

فلهذا قال: **﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾**.

﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات **﴿جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾** تزيل عنهم كل محذور.

﴿وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها من النعيم المقيم، والبهجة والحبور والبهاء، والخير والسرور، والقصور، والمنازل الأنيقة العاليات،

---

(١) جزء من حديث جبريل المشهور، أخرجه مسلم من صحيحه كتاب الإيمان برقم (٨).

والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجاريات في تلك المساكن الطيبات.

﴿خالدين فيها﴾ لا يحولون عنها، ولا يبغون بها بدلاً، ولا يغير ما هم فيه من النعيم.

﴿ونعم أجر العاملين﴾ عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً فـ «عند الصباح يحمد القوم السرى»، وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملاً موفراً.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٧٠ـ ٢٧٢)]

الآية العاشرة:

يقول الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٩٦ـ ١٩٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

وهذه الآية، المقصود منها، التسلية عما يحصل للذين كفروا، من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد، بأنواع التجارات، والمكاسب، واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿متاع قليل﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً، ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه. وأما المتقون لربهم، المؤمنون به ـ فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾. فلو قدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كل بؤس، وشدة، وعناء، ومشقة ـ لكان هذا ـ بالنسبة إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، والسرور والحبور، والبهجة ـ نزراً يسيراً، ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم. فأثابهم البر الرحيم من بره، أجراً عظيماً، وعطاءً جسيماً، وفوزاً دائماً.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٠٦ـ ٣٠٧)]

الآية الحادية عشر:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾[1] [سورة الأنفال: ٢٩].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

هذه ثلاث فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ أي يجعل لكم ما تُفَرِّقُون به بين الحق والباطل وبين الضَّار والنَّافع وهذا يدخل فيه العلم بحيث يفتح الله على الإنسان من العلوم ما لا يَفْتَحُها لغيره، فإن التَّقوى يَحْصُل بها زيادة الهُدَىٰ وزيادة العلم وزيادة الحفظ، ولهذا يذكر عن الشَّافعي رحمه الله أنه قال:

شَكَوتُ إلى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظي ... فَأَرْشَدَنِي إلى تَرْكِ المَعَاصِي

وَقَالَ اعْلَم بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ الله لاَ يُؤْتَاهُ عَاصِي

ولا شك أن الإنسان كلما ازداد علماً ازداد مَعْرِفة وفُرقاناً بين الحق والباطل، والضَّار والنَّافع، وكذلك يدخل فيه ما يفتح الله على الإنسان من الفهم، لأن التقوى سبب لقوة الفهم وقوة الفهم يَحْصُل بها زيادة العلم فإنك ترى الرَّجلين يحفظان آية من كتاب الله يستطيع أحدهما أن يستخرج منها ثلاثة أحكام، ويستطيع الآخر أن يستخرج أكثر من هذا بحسب ما آتاه الله من الفهم.

فالتقوى سبب لزيادة الفَهم ويدخل في ذلك أيضاً الفراسة، أن الله يعطي المُتَّقي فراسة يميز بها حتى بين الناس.

فبمجرد ما يرى الإنسان يَعْرف أنَّه كاذب أو صادق أو بر أو فاجر، حتى أنه ربما يحكم على الشخص وهو لم يُعاشره ولم يعرف عنه شيئاً بسبب ما أعطاه الله من الفراسة.

ويدخل في ذلك أيضاً: مَا يحصل للمُتَّقين من الكَرَامات التي لا تحصل لغيرهم، ومن ذلك: ما حصل لكثير من الصَّحابة والتابعين رضي الله عنهم فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم يخطب على المنبر في المدينة فَسَمِعُوه يقول في أثناء الخطبة: «يا سَارية الجبل يا سارية الجبل»، فتعجبوا من يخاطب وكيف يقول هذا الكلام في أثناء الخطبة، فإذا الله سبحانه وتعالى قد كشف له عن سرية في العراق كان قائدها =

. . . . . .

= سَارية بن زَنيم وكان العدو قد حصرهم فكشف الله لعمر عن هذه السَّرية كأنما يشاهدها رأى عين فقال لقائدها: «يا سارية الجبل» أي تحصَّن بالجبل فسمعه سَارِية وهو القائد وهو في العراق ثم اعتصم بالجبل.

هذه من التقوى، لأنَّ كرامات الأولياء كلها جزاءٌ لهم على تقواهم لله عز وجل. فالمهم أن من آثار التَّقوى أنَّ الله يجعل للمتقين فُرقاناً يفرق به بين أشياء كثيرة لا تحصل إلاَّ للمتقي.

الفائدة الثانية: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]. وتكفير السَّيِّئات يكون بالأعمال الصالحة، فإن الأعمال الصالحة تكفر الأعمال السيِّئة كما قال النبي ﷺ: **«الصَّلَواتُ الخَمْسُ والجُمُعةِ إلى الجُمُعة، وَرَمَضانِ إلى رَمَضَان ،كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنهما مَا اجْتنبت الكَبَائر»**.

وقال الرسول ﷺ: **«العمرة إلى العُمْرة كَفَّارَةٌ لِما بَيْنَهما»**. فالكفارة تكون بالأعمال الصَّالحة، وهذا يعني أن الإنسان إذا اتقى الله سهَّل له الأعمال الصالحة التي يُكَفِّر الله بها عنه.

الفائدة الثالثة: قوله: **﴿ويغفر لكم﴾** بأن يُيَسِّركم للاستغفار والتوبة فإن هذا من نعمة الله على العبد أن يُيَسِّره للاستغفار والتَّوبة.

ومن البلاء للعبد، أن يظنَّ أن ما كان عليه من الذُّنوب ليس بذنب فيصر عليه والعياذ بالله كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، فكثير من الناس لا يقلع عن الذَّنب لأنَّه زُين له والعياذ بالله فألِفَهُ وصَعُبَ عليه أن ينتشل نفسه منه، لكن إذا كان مُتَّقياً لله عز وجل سهل الله له الإقلاع عن الذنوب حتى يغفر له وربما يغفر الله لَه بسبب تقواه فتكون تقواه مُكَفِّرة لسيئاته.

كما حصل لأهل بدر رضي الله عنهم **«فإنَّ الله اطَّلَعَ عَلَى أهْل بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتم فَقَد غَفَرْتُ لَكُمْ»** فتقع الذنوب منهم مغفورة لما حَصَل لَهم فيها، أي في الغزوة من الأجر العظيم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩] أي صاحب الفضل العظيم الذي لا يَعْدِلُه شيء ولا يوازيه شيء، فإن كان الله موصوفاً بهذه الصفة فاطلب الفضل منه سبحانه وتعالى، وذلك بتقواه والرجوع إليه، والله أعلم.

[شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٨٠)]

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

امتثال العبد لتقوى ربه، عنوان السعادة، وعلامة الفلاح. وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة، شيئاً كبيراً، فذكر هنا: أن من اتقى الله، حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها، الأول: الفرقان، وهو: العلم والهدى، الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة وأهل الشقاوة. الثاني والثالث: تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، وكل واحد منها داخل في الآخرة، عند الإطلاق وعند الاجتماع. يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر. الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه، وآثر رضاه على هوى نفسه **﴿والله ذو الفضل العظيم﴾**.

الآية الثانية عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1] [سورة الطلاق: ٢، ٣].

---

(١) قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية:
قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. يتق الله بأن يفعل ما أمَر الله به ويترك ما نَهَى عنه ويجعل له مخرجاً من كل ضيق، فكلما ضاق عليه الشَّيء وهو مُتَّقي الله عزَّ وجل جَعَلَ لَهُ مخرجاً سواء كَانَ في معيشة أو في أموال أو في أولاد أو في مجتمع أو غير ذلك. إذا كنت مُتَّقِي الله فَثِق أنَّ الله سيجعل لك مخرجاً من كل ضيق، واعتمد ذلك لأنَّه قول من يقول للشَّيء كن فيكون.

وما أكثر الذين اتقوا الله فجعل لهم مخرجاً، من ذلك قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار فنزلت صخرة على باب الغار فَسَدته فأرادوا أن يُزيحوها فعجزوا فتوسَّل كل واحد منهم بصالح عمله إلى الله عز وجل ففرج الله عزَّ وجل عنهم وزَالَت الصخرة. [متفق عليه] والأمثلة على هذا كثيرة.

وقوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]، هذه أيضاً فائدة عظيمة أن الله يَرْزُقك من حيث لا تحتسب. =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

فكل من اتقى الله ولازم مرضاته في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة، ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة. وكما أن من اتقى الله جعل له فرجاً ومخرجاً، فمن لم يتق الله يقع في الأرصاد والأغلال التي لا يقدرون على التخلص منها والخروج من تبعتها.

وقوله: ﴿**ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ أي يسوق الله الرزق للمتقي من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٢)]

الآية الثالثة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [سورة الطلاق: ٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي من اتقى الله يسر له الأمور وسهل عليه كل عسير.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٣)]

= فمثلاً لو فرضنا أن رجلاً يكتسب المال من طريق محرم كطريق الغش أو الرِّبا وما أشبهه ونصح في هذا وتركه لله فإن الله سيجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ولكن لا تتعجل ولا تَظُن أن الأمر إذا تأخر فلن يكون ولكن قد يبتلي الله العبد فيؤخر عنه الثَّواب ليختبره هل يرجع إلى الذنب أم لا، فمثلاً إذا كنت تتعامل بالرِّبا وَوَعَظك من يعظك من الناس وتركت ذلك، ولكنك بقيت شهراً أو شهرين ما وجدت ربحاً، فلا تيأس وتقول أين الرِّزق من حيث لا أحتسب؟ بل انتظر وثق بوعد الله وصدق به وستجده ولا تتعجل ولهذا جاء في الحديث: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدكم** ـ أي إذَا دَعَا ـ **مَا لَم يُعَجِّل، يقول: دَعَوْتُ ثُمَّ دَعَوْتُ ثم دَعَوْتُ فلم يُستَجَب لي**» [متفق عليه]. اصبر واترك ما حرَّم الله عليك وانتظر الفرج والرِّزق من حيث لا تحتسب.

[شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٧٩)]

الآية الرابعة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [سورة الطلاق: ٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ أي يندفع عنه المحذور ويحصل له المطلوب.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٣)]

الآية الخامسة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الحشر: ١٨ـ ٢٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان، ويقتضيه من لزوم تقواه، سرّاً وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به، من أوامره وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه، من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم، في يوم القيامة. فإنهم إذا جعلوا الآخرة، نصب أعينهم، وقبلة قلوبهم، واهتموا للمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق، التي توقفهم عن السير، أو تعوقهم أو تصرفهم. وإذا علموا أيضاً، أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه، ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد. وهذه الآية الكريمة، أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها. فإن رأى زللاً، تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة

إليه. وإن رأى نفسه مقصراً، في أمر من أوامر الله، بذل جهده، واستعان بربه في تتميمه، وتكميله، وإتقانه. ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه، وبين تقصيره، فإن ذلك، يوجب له الحياء لا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله، وغفلوا عن ذكره، والقيام بحقه. وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل. بل أنساهم الله مصالح أنفسهم وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً، لا يمكن تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم، وأوضعوا في معاصيه. فهل يستوي من حافظ على تقوى الله، ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين - ومن غفل عن ذكره، ونسي حقوقه فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة. فالأولون، هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٢- ٢١٣)]

الآية السادسة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة المائدة: ٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله، وحقوق الآدميين. والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع، لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره عليها من إخوانه المؤمنين، بكل قول يبعث عليها، وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿وتعاونوا على الإثم﴾ وهو التجري على المعاصي، التي يأثم صاحبها، ويجرح.

﴿والعدوان﴾ وهو: التعدي على الخلق، في دمائهم وأموالهم، وأعراضهم. فكل معصية وظلم، يجب على العبد، كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من عصاه، وتجرأ على محارمه. فاحذروا المحارم، لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٥٣)]

الآية السابعة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة المائدة: ٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أحوالكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: ما تنطوي عليه، من الأفكار، والأسرار، والخواطر. فاحذروا أن يطلع، من قلوبكم، على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم، بمعرفته، ومحبته، والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٦٤)]

الآية الثامنة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة المائدة: ٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم،

الظاهرة والباطنة. وأن يكون ذلك القيام، لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية.

وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا في أفعالكم. وقوموا بذلك. على القريب، والبعيد، والصديق والعدو **﴿ولا يجرمنكم﴾** أي لا يحملنكم **﴿شنآن قوم﴾** أي: بغضهم.

﴿على أن لا تعدلوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط.

بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم، فاشهدوا له، فلو كان كافراً أو مبتدعاً. فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لا لأنه قاله. ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي: كلما حرصتم على العدل، واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل، كملت التقوى.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها، وشرها، صغيرها، وكبيرها، جزاء عاجلاً، وآجلاً.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٦٥)]

الآية التاسعة عشر:

يقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة المائدة: ١٠٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾. فأمر أولي الألباب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب. وهم: الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير. ثم أخبر أن الفلاح، متوقف على التقوى، التي هي موافقة الله، في أمره ونهيه. فمن اتقاه، أفلح كل الفلاح. ومن ترك تقواه حصل له الخسران وفاتته الأرباح.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٥٢١)]

الآية العشرون:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأنعام: ٣٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

. . .أما حقيقة الدنيا، فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان. وأما الآخرة فإنها **﴿خير للذين يتقون﴾** في ذاتها وصفاتها وبقائها ودوامها. وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح وكثرة السرور والأفراح. ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين الذين يفعلون أوامر الله ويتركون نواهيه وزواجره. **﴿أفلا تعقلون﴾** أي: أفلا يكون لكم عقول بها تدركون أي الدارين أحق بالإيثار.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٧)]

الآية الحادية والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [سورة الأعراف: ٢٠١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

. . . ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان الذي لا يزال مرابطاً، ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين وأن المتقي - إذا أحس بذنب ومسه طائف من الشيطان فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي باب أتِيَ، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه وتذكر ما أوجب الله عليه وما عليه من لوازم الإيمان فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة فرد شيطانه خاسئاً حسيراً وقد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٨٣)]

الآية الثانية والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة التوبة: ١١٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بالله وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان وهو القيام بتقوى الله باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿وكونوا مع الصادقين﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلاَّ صدقاً خالية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٩٥)]

الآية الثالثة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة يونس: ٦٢-٦٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم. فقال: **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم﴾** فيما يستقبلونه، مما أمامهم، من المخاوف والأهوال. **﴿ولا هم يحزنون﴾** على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلاَّ صالح الأعمال.

وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير، الذي لا يعلمه إلاَّ الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿**الذين آمنوا**﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر، خيره وشره، وصدقوا إيمانهم، باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

فكل من كان مؤمناً تقيّاً، كان لله تعالى وليّاً، لذلك كانت ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾. أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوىء الأخلاق. وأما في الآخرة، فأولها: البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾. وفي القبر، ما يبشر به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم. وفي الآخرة، تمام البشرى، بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿**لا تبديل لكلمات الله**﴾ بل ما وعد الله، فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

﴿**ذلك هو الفوز العظيم**﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب. وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب، رتبه الله في الدنيا والآخرة، على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك، فلم يقيده.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٢٨ـ ٣٢٩)]

الآية الرابعة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ٩٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿إنه من يتق ويصبر﴾ أي يتقي فعل ما حرم الله ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها **﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٣٤)]

الآية الخامسة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة النحل: ١٢٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

... والله مع المتقين المحسنين بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه. نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٩٤)]

الآية السادسة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الرعد: ٣٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: **﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾** الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي صفتها وحقيقتها **﴿تجري من تحتها الأنهار﴾** أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود. فتسقى تلك البساتين، والأشجار، فتحمل جميع أنواع الثمار.

﴿أكلها دائم وظلها﴾ دائم أيضاً.

﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ أي: مآلهم وعاقبتهم، التي إليها يصيرون.

﴿وعقبى الكافرين النار﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!!

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٧٤)]

الآية السابعة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحجر: ٤٥ـ ٤٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يقول تعالى: ﴿إن المتقين﴾ الذين اتقوا طاعة الشيطان، وما يدعوهم إليه، من جميع الذنوب والعصيان ﴿في جنات وعيون﴾ قد احتوت على جميع الأشجار، وأينعت فيها جميع الثمار، في جميع الأوقات.

ويقال لهم حال دخولها: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ من الموت، والنوم والنصب، واللغوب، وانقطاع شيء من النعيم، الذي هم فيه أو نقصانه، ومن المرض، والحزن، والهم، وسائر المكدرات.

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ فتبقى قلوبهم سالمة، من كل غل، وحسد، متصافية متحابة ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾. دل ذلك على تزاورهم، واجتماعهم، وحسن أدبهم فيما بينهم، في كون كل منهم مقابلاً للآخر، لا مستدبراً له، متكئين على تلك السرر المزينة، بالفرش واللؤلؤ، وأنواع الجواهر ﴿لا يمسهم فيها نصب﴾ لا ظاهر ولا باطن. وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة، لا تقبل شيئاً من الآفات. ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ على سائر الأوقات.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٧)]

الآية الثامنة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة مريم: ٧١، ٧٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

هذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد، إلاَّ سيرد النار، حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه. واختلف في معنى الورود فقيل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بَعْدُ، ينجي الله المتقين.

وقيل: ورودها، دخولها وحضورها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً.

وقيل: الورود، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم. فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب. ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كُلٌّ بحسب تقواه، ولهذا قال:

﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحظور.

﴿ونذر الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي **﴿فيها جثياً﴾** وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢١٥)]

الآية التاسعة والعشرون:

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [سورة مريم: ٨٥ - ٨٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات:

يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين، المتقين والمجرمين.

وأن المتقين له ـ باتقاء الشرك والبدع والمعاصي ـ يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين. وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفداً إليه. والوافد لا بد أن يكون في قلبه، من الرجاء، وحسن الظن بالوافد إليه، ما هو معلوم.

فالمتقون: يفدون إلى الرحمن، راجين من رحمته، وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مراضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب، على ألسنة رسله فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله. وأما المجرمون: فإنهم يساقون إلى جهنم ورداً، أي: عطاشا. وهذا أبشع ما يكون من الحالات سوقهم على وجه الذل والصغار، إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمأهم ونصبهم، ويستغيثون، فلا يغاثون، ويدعون، فلا يستجاب لهم، ويستشفعون، فلا يشفع لهم، ولهذا قال:

﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى: **﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾**. وقد أخبر أنه، لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم لم يتخذوا عنده عهداً بالإيمان به وبرسله. وإلاَّ، فمن اتخذ عنده عهداً فآمن به وبرسله، واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى: **﴿ولا يشفعون إلاَّ لمن ارتضى﴾** وسمى الله الإيمان به، واتباع رسله، عهداً، لأنه عهد في كتبه، وعلى ألسنة رسله، بالجزاء الجميل، لمن اتبعهم.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢١٩ـ ٢٢٠)]

الآية الثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة النور: ٥١، ٥٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

أي ﴿**إنما كان قول المؤمنين**﴾ حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿**إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم**﴾ سواء وافق أهواءهم أو خالفها. ﴿**أن يقولوا سمعنا وأطعنا**﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله وأجبنا من دعانا إليه وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج.

﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ حصر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب والنجاة من المكروه ولا يفلح إلاَّ من حكم الله ورسوله وأطاع الله ورسوله. ولما ذكر فضل الطاعة من الحكم خصوصاً ذكر فضلها عموماً في جميع الأحوال. فقال: ﴿**ومن يطع الله ورسوله**﴾ فيصدق خبرهما ويمثل أمرهما ﴿**ويخشى الله**﴾ أي: بحقه خوفاً مقروناً بمعرفة فيترك ما نهى عنه ويكف نفسه عما تهوى. ولهذا قال: ﴿**ويتقه**﴾ بترك المحظور لأن التقوى ـ عند الإطلاق ـ يدخل فيها فعل المأمور وترك المنهي عنه وعند اقترانها بالبر أو الطاعة ـ كما في هذا الموضع ـ تفسر بتوقي عذاب الله بترك معاصيه.

﴿**فأولئك**﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله وخشية الله وتقواه ﴿**هم الفائزون**﴾ بنجاتهم من العذاب فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة.

واشتملت هذه الآية على الحق المشترك بين الله وبين رسوله وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو: الخشية والتقوى. وبقي الحق الثالث المختص بالرسول وهو التعزير والتوقير كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٠ـ ٤١١)]

الآية الحادية والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ

حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [سورة الحج: ١، ٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات:

يخاطب الله الناس كافة، بأن يتقوا ربهم، الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة. فحقيق بهم، أن يتقوه، بترك الشرك، والفسوق، والعصيان، ويمتثلوا أوامره، مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو: الإخبار بأهوال القيامة، فقال: **﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾** لا يقدره قدره، ولا يبلغ كنهه. ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض، وزلزلت زلزالها، وتصدعت الجبال، واندكت، وكانت كثيباً مهيلاً، ثم كانت هباء منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج:

فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويكون من القلاقل والبلابل، ما تنصدع له القلوب، وتوجل منه الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال:

﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال، التي لا يعيش إلاَّ بها.

﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ من شدة الفزع والهول.

﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ أي: تحسبهم - أي الرائي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى.

﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار.

في ذلك اليوم، لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ويومئذ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس:

٣٤-٣٦]. وفصيلته التي تؤويه ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

وهناك ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾، وتسود حينئذ وجوه وتبيض وجوه. وتنصب الموازين، التي يوزن بها مثاقيل الذر، من الخير والشر. وتنشر صحائف الأعمال، وما فيها من جميع الأعمال والأقوال، والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم. وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين. ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾.

ويقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

وإذا نادوا ربهم، ليخرجهم منها، قال: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. قد غضب عليهم الرب الرحيم وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها نقيراً ولا قطميراً.

هذا، والمتقون في روضات الجنات يحبرون، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتهت أنفسهم خالدون. فحقيق بالعاقل، الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يُعدَّ له عُدَّتَهُ، وأن لا يلهيه الأمل، فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله، وذكره، روح أعماله.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٠٥ـ ٣٠٦)]

الآية الثانية والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة لقمان: ٣٣].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي: امتثال أوامره، وتركه زواجره.

ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كل أحد، لا يهمه إلاَّ نفسه **﴿واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾** يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد، عمله، وتحقق عليه جزاؤه. فلفت النظر لهذا اليوم المهول، مما يقوي العبد، ويسهل عليه تقوى الله. وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزجرهم عنه بالمواعظ والمخوفات. فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿إن وعد الله حق﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال: **﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾** بزينتها وزخارفها، وما فيها من الفتن والمحن، **﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾** الذي هو الشيطان، ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات.

فإن لله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه، أن قصروا فيه. وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته، التي يسعى إليها. ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتانة، والشيطان الموسوس المُسَوِّل. فنهى تعالى عباده، أن تغرهم الدنيا، أو يغرهم بالله الغرور **﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلاَّ غروراً﴾**.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/١١٨)]

الآية الثالثة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[1] [سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١].

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية:
وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]. =

قال شيخنا السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات:

يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق يوصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه. ومن القول السديد، لين الكلام ولطفه، في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة، بما هو الأصلح.

= فأمر الله بأمرين بتقوى الله وأن يقول الإنسان قولاً سديداً أي صواباً. وقد سبق الكلام على التّقوى.

أمّا القول السّديد فهو القول الصّواب وهو يشمل كل قول فيه خير سواء كان من ذكر الله أو من طلب العلم، أو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو من كلام الحسن الذي يستجلب به الإنسان مودة النّاس ومحبتهم أو غير ذلك.

يجمعه قول النبي ﷺ: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخِرِ فَلْيَقُل خَيراً أوْ لِيَصْمت»** [رواه البخاري]. وضد ذلك القول غير السّديد وهو القول الذي ليس بِصَواب، بل خطأ إما في مَوْضوعه وإما في محله.

أما في موضوعه بأن يكون كلاماً فاحشاً يشتمل على السّب والشّتم والغيبة والنّميمة وما أشبهه. أو في محله أي أن يكون هذا القول في نفسه هو خير لكن كونه يقال في هذا المكان ليس بخير، لأنَّ لكل مقام مقالاً ففي هذا الموضوع لا يكون قولاً سديداً، بل خطأ وإن كان ليس حراماً بذاته.

فمثلاً لو فرض أن شخصاً رأى إنساناً على مُنكر ونهاه عن المنكر لكن نهاه في حال لا ينبغي أن يقول له فيها شيئاً، أو أغلظ له في القول أو ما أشْبَهه لعُدَّ هذا قولاً غير سَديد.

فإذا اتقى الإنسان ربه وقال قولاً سَديداً حَصَل على فائدتين: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١]، فبالتقوى صلاح الأعمال ومغفرة الذُّنوب، وبالقول السّديد صلاح الأعمال ومغفرة الذُّنوب. وعلم من هذه الآية أن من لم يتّق الله ويقل قولاً سديداً فإنَّه حَرِيٌ بأن لا يُصلح الله لَهُ أعماله ولا يغفر له ذنبه، ففيه الحثُّ على تقوى الله وبيان فوائدها.

[شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٧٦)]

ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقول القول السديد فقال:

﴿**يصلح لكم أعمالكم**﴾ أي يكون ذلك سبباً لصلاحها، وطريقاً لقبولها، لأن استعمال التقوى، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى: ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾. ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال أيضاً، بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته. كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم تَرَتُّب آثارها عليها.

﴿**ويغفر لكم**﴾ أيضاً ﴿**ذنوبكم**﴾ التي هي السبب في هلاككم.

فبالتقوى تستقيم الأمور، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال: ﴿**ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً**﴾.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٧٣)]

الآية الرابعة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الزمر: ١٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي: قل منادياً لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمراً لهم بأفضل الأوامر، وهي: التقوى ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما مَنَّ الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى. كما تقول: أيها الكريم تصدق، وأيها الشجاع، قاتل.

وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا فقال: ﴿**للذين أحسنوا في هذه الدنيا**﴾ بعبادة ربهم ﴿**حسنة**﴾ ولهم رزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح. كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

﴿**وأرض الله واسعة**﴾ إذا منعتم من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها،

تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

ولما قال: ﴿**للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة**﴾ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضع وهو أن النص عام، أنه كل من أحسن، فله في الدنيا حسنة، فما بال من آمن في أرض يضطهد فيها ويمتهن، لا يحصل له ذلك؟

دفع هذا الظن بقوله: ﴿**وأرض الله واسعة**﴾ وهنا بشارة، نص عليها النبي ﷺ، بقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(١).

تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى، أخبر أن أرضه واسعة. فمهما منعتم من عبادته في موضع، فهاجروا إلى غيرها. وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿**إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر: الصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخطها. والصبر عن معاصيه، فلا يرتكبها، والصبر على طاعته، حتى يؤديها. فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد، ولا عد، ولا مقدار. وما ذاك إلاَّ لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣١٢، ٢١٣)]

الآية الخامسة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الزمر: ٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب قول النبي ﷺ: «**لا تزال أمتي ظاهرين على الحق**» وهم أهل العلم حديث رقم (٧٣١١) وفي غير موضع، ومسلم في صحيحه كتاب الإمارة/ باب قوله ﷺ: **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم**» حديث رقم (٤٩٢٧) وغيرهما.

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه، وعناده، وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر أن تنقذ من في النار لا محالة. لكن الغنى، والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم، ما لا يقادر قدره.

﴿لهم غرف﴾ أي: منازل عالية مزخرفة، من حسنها، وبهائها، وصفائها، أنه يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها. ومن علوها وارتفاعها، أنها ترى كما يرى الكوكب الغابر، في الأفق الشرقي أو الغربي.

ولهذا قال: **﴿من فوقها غرف﴾** أي: بعضها فوق بعض **﴿مبنية﴾** بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر.

﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ المتدفقة، التي تسقي البساتين الزاهرة، والأشجار الطاهرة. فتغل أنواع الثمار اللذيذة، والفاكهة النضيجة.

﴿وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى، ليوفيهم أجورهم.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣١٦)]

الآية السادسة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الزمر: ٧٣، ٧٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

. . . ثم قال عن أهل الجنة: **﴿وسيق الذين اتقوا ربهم﴾** بتوحيده، والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفداً على النجائب.

﴿**إلى الجنة زمراً**﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة، التي تناسب عملها، وتشاكله.

﴿**حتى إذا جاءوها**﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة، والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها، وآن خلودها ونعيمها.

﴿**وفتحت**﴾ لهم ﴿**أبوابها**﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها.

﴿**وقال لهم خزنتها**﴾ تهنئة لهم وترحيباً: ﴿**سلام عليكم**﴾ أي: سلام عليكم من كل آفة، وشر حال.

﴿**طبتم**﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته، وخشيته، وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته.

﴿**فـ**﴾ بسبب طيبكم ﴿**ادخلوها خالدين**﴾ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها، إلاَّ الطيبون.

﴿**وقالوا**﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم حامدين ربهم على ما آواهم ومنّ عليهم وهداهم.

﴿**الحمد لله الذي صدقنا وعده**﴾ أي: وعدنا الجنة على ألسنة رسله، إن آمنا وصلحنا فوفى لنا بما وعدنا وأنجز لنا ما منّانا.

﴿**وأورثنا الأرض**﴾ أي أرض الجنة. ﴿**نتبوأ من الجنة حيث نشاء**﴾ أي ننزل منها أي مكان شئنا ونتساءل منها أي نعيم أردنا، ليس ممنوعاً عنّا شيء نريده.

﴿**فنعم أجر العاملين**﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمراً. وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة التي يكرم الله فيها خواص خلقه. ورضيها الجواد الكريم لهم نزلاً، وبنى أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته، ما ببعضه، يفرح الحزين، ويزول الكدر، ويتم الصفاء.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٤١، ٣٤٢)]

الآية السابعة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الدخان: ٥١ـ ٥٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

هذا جزاء المتقين لله الذين اتقوا سخطه وعذابه، بتركهم المعاصي، وفعلهم الطاعات. فلما انتفى السخط عنهم والعذاب، ثبت لهم الرضا من الله، والثواب العظيم، في ظل ظليل، من كثرة الأشجار والفواكه والعيون، تجري من تحتهم الأنهار، يفجرونها تفجيراً في جنات النعيم. فأضاف الجنات إلى النعيم، لأن ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور، كامل من وجه، ما فيه منغص ولا مكدر، بوجه من الوجوه. ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق، أي: غليظ الحرير ورقيقه، مما تشتهيه أنفسهم.

﴿**متقابلين**﴾ في قلوبهم ووجوههم، في كمال الراحة، والطمأنينة، والمحبة والعشرة الحسنة، والآداب المستحسنة.

﴿**كذلك**﴾ النعيم التام والسرور الكامل ﴿**وزوجناهم بحور**﴾ أي: نساء جميلات من جمالهن وحسنهن، أي: يحار الطرف في حسنهن، وينبهر العقل بجمالهن، وينخلب اللب لكمالهن ﴿**عين**﴾ أي: واسعات الأعين، حسانها.

﴿**يدعون فيها**﴾ أي: الجنة ﴿**بكل فاكهة**﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا. فمهما طلبوه، من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة.

﴿**آمنين**﴾ من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرته، وآمنين من كل مكدر،

وآمنين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿**لا يذوقون فيها الموت إلاَّ الموتة الأولى**﴾ أي: ليس فيها موت بالكلية. ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب.

﴿**ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك**﴾ أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى، هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضاً، ما لم تبلغه أعمالهم.

﴿**ذلك هو الفوز العظيم**﴾ وأي فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٧١-٤٧٢)]

الآية الثامنة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الزمر: ٣٣ - ٣٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

... ولما ذكر الكاذب المكذب، وجنايته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق، وثوابه. فقال: ﴿**والذي جاء بالصدق**﴾ في قوله وعمله، فدخل في ذلك، الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيم فعله من خصال الصدق.

﴿**وصدق به**﴾ أي: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن لا يصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله، وأتى به، فلا بد في المدح، من الصدق والتصديق، فصدقه، يدل على علمه، وعدله وتصديقه، يدل على تواضعه، وعدم استكباره.

﴿**أولئك**﴾ أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿**هم المتقون**﴾، فإن جميع خصال التقوى، ترجع إلى الصدق بالحق، والتصديق به.

﴿**لهم ما يشاءون عند ربهم**﴾ من الثواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيئتهم، من أصناف اللذات والمشتهيات، فإنه حاصل لهم، معد مهيأ.

﴿**ذلك جزاء المحسنين**﴾ الذين يعبدون الله، كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم ﴿**المحسنين**﴾ إلى عباد الله.

﴿**ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون**﴾.

وعمل الإنسان، له ثلاث حالات: إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ، ولا أحسن.

والقسم الأخير، قسم المباحات، وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب. والأسوأ، المعاصي كلها، والأحسن، الطاعات كلها.

فبهذا التفصيل، يتبين معنى الآية، وأن قوله: ﴿**ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا**﴾. أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم.

﴿**ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون**﴾ أي: بحسناتهم كلها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٢٢، ٣٢٣)]

الآية التاسعة والثلاثون:

يقول الله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الزمر: ٦١].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

. . .ولما ذكر الله سبحانه حالة المتكبرين ذكر حالة المتقين، فقال: **﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾** أي بنجاتهم وذلك لأن معهم آلة النجاة وهي تقوى الله تعالى التي هي العدة عند كل هول وشدة.

﴿لا يمسهم السوء﴾ أي العذاب الذي يسوؤهم **﴿ولا هم يحزنون﴾** فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه وهذا غاية الأمان. فلهم الأمن التام يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام. فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه وتجري عليهم نضرة النعيم ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)]

الآية الأربعون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحجرات: ٣].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

. . . ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى. ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه، وحصول الأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلاَّ الله تعالى، وفيه حصول كل محبوب. وفي هذا، دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر، والنهي، والمحن.

فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً. ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٦٨)]

الآية الحادية والأربعون:

يقول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [سورة محمد: ١٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي: التي أعدها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أنها من نعتها، وصفتها الجميلة.

﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ أي: غير متغير، لا بوخم، ولا بريح منتنة، ولا بحرارة. ولا بكدورة بل هو أعذب المياه، وأصفاها، وأطيبها ريحاً، وألذها شرباً.

﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ بحموضة ولا غيرها.

﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ أي: يلتذ بها، لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا، التي يكره مذاقها، وتصدع الرأس، وتغول العقل.

﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ من شمعه، وسائر أوساخه.

﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾ من نخيل، وعنب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك، مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم.

ثم قال: **﴿ومغفرة من ربهم﴾** يزول بها عنهم المرهوب.

فهؤلاء خير، أم **﴿كمن هو خالد في النار﴾** التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها.

﴿وسقوا﴾ فيها **﴿ماء حميماً﴾** أي: حارّاً جدًّا **﴿فقطع أمعاءهم﴾**.

فسبحان من فاوت بين الدارين، والجزاءين، والعاملين، والعملين.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٨، ٢٩)]

الآية الثانية والأربعون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الذاريات: ١٥ـ ١٩].

قال شيخنا السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات:

يقول تعالى ـ في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم، التي وصلوا بها إلى ذلك الجزاء:

﴿إن المتقين﴾ أي: الذين كانت التقوى شعارهم، وطاعة الله دثارهم.

﴿في جنات﴾ مشتملات على جميع أصناف الأشجار، والفواكه، التي يوجد لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم يخطر على قلب بشر.

﴿وعيون﴾ سارحة، تشرب منها تلك البساتين، ويشرب بها عباد الله، يفجرونها تفجيراً.

﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم، من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك، راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلاً، ولا يبغون عنه حولاً، وكل قد ناله من النعيم، ما لا يطلب عليه المزيد. ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله، من الأوامر والنواهي، أي: قد تلقوها بالرحب، وانشراح الصدر، منقادين لما أمر الله به، بالامتثال على أكمل الوجوه. ولما نهى عنه، بالانزجار عنه لله، على أكمل وجه، فإن الذين أعطاهم الله من الأوامر والنواهي، هو أفضل العطايا، التي حقها، أن تتلقى بالشكر لله عليها، والانقياد.

والمعنى الأول، ألصق بسياق الكلام، لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم بقوله: **﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾** الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم **﴿محسنين﴾**. وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم، أن يعبدوه كأنهم يرونه، فإنه

لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم. وللإحسان إلى عباد الله ببذل النفع، والإحسان، من مال، أو علم، أو جاه أو نصيحة، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو غير ذلك من وجوه البر، وطرق الخيرات. حتى إنه يدخل في ذلك، الإحسان بالقول، والكلام اللين والإحسان إلى المماليك، والبهائم المملوكة، وغير المملوكة. ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق، صلاة الليل، الدالة على الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان.

ولهذا قال: **﴿كانوا﴾** أي: المحسنون **﴿قليلاً من الليل ما يهجعون﴾** أي: كان هجوعهم أي: نومهم بالليل، قليلاً. وأما أكثر الليل، فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة، وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع.

﴿وبالأسحار﴾ التي هي قبيل الفجر **﴿هم يستغفرون﴾** الله تعالى. فمدوا صلاتهم إلى السحر. ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه. وللاستغفار بالأسحار، فضيلة وخصيصة، ليست لغيره، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

﴿وفي أموالهم حق﴾ واجب ومستحب **﴿للسائل والمحروم﴾**. أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يسألونهم.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٩٣، ٩٤)]

الآية الثالثة والأربعون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الطور: ١٧ـ ٢٠].

قال شيخنا السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات:

لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين، ذكر نعيم المتقين ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: **﴿إن المتقين﴾** لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

﴿في جنات﴾ أي: بساتين، قد اكتسب رياضها من الأشجار الملتفة، والأنهار المتدفقة، والقصور المحدقة، والمنازل المزخرفة.

﴿ونعيم﴾ وهذا شامل لنعيم القلب، والروح، والبدن.

﴿فاكهين بما آتاهم ربهم﴾ أي: معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور، بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين.

﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾ فرزقهم المحبوب، ونجاهم من المرهوب لما فعلوا ما أحبه، وجانبوا ما يسخطه.

﴿كلوا واشربوا﴾ أي: مما تشتهيه أنفسكم، من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة.

﴿هنيئاً﴾ أي: متهنئين بذلك على وجه البهجة والفرح، والسرور والحبور.

﴿بما كنتم تعملون﴾ أي: نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقوالكم المستحسنة.

﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ الاتكاء هو: الجلوس على وجه التمكن. والراحة والاستقرار. والسرر هي: الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية. ووصف الله السرر بأنها مصفوفة، ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، وملاطفة بعضهم بعضاً. فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن، ما لا يخطر بالبال ولا يدور في الخيال من المآكل، والمشارب اللذيذة، والمجالس الحسنة الأنيقة لم يبق إلاَّ التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور إلاَّ بهن.

فذكر تعالى، أن لهم من الأزواج، أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً ولهذا قال: ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن جمال الصور الظاهرة وبهاءها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يحيرن بحسنهن

الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطير شوقاً إليهن ورغبة في وصالهن. والعين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١١٠، ١١١)]

الآية الرابعة والأربعون:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الحديد: ٢٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

وهذا الخطاب، يحتمل أنه خطاب لأهل الكتاب، الذين آمنوا بموسى وعيسى، عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله، فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك، أعطاهم الله **﴿كفلين من رحمته﴾** أي: نصيبين من الأجر. نصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ. ويحتمل أن يكون الأمر عامّاً، يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا هو الظاهر. وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى، الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم **﴿كفلين من رحمته﴾** لا يعلم قدرهما ولا وصفهما إلاّ الله تعالى. أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، وأجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي. أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء، مرة بعد أخرى.

﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ أي يعطيكم علماً وهدى ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل ويغفر لكم السيئات.

﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فلا يستغرب كثرة هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم الذي عم فضله أهل السموات والأرض فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٨٧، ١٨٨)]

الآية الخامسة والأربعون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة القمر: ٥٤، ٥٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿إن المتقين﴾ لله بفعل أوامره وترك نواهيه الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر. **﴿في جنات ونهر﴾** أي في جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اليانعة والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان والروضات البهية في الجنان، ورضا الملك الديان، والفوز بقربه، ولهذا قال: **﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾** فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده ويمدهم به من إحسانه ومنته. جعلنا الله منهم ولا حرمنا خير ما عنده، بشر ما عندنا.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٦)]

الآية السادسة والأربعون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة المرسلات: ٤١ـ ٤٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات:

لما ذكر عقوبة المكذبين، ذكر مثوبة المحسنين فقال: **﴿إن المتقين﴾** أي: للتكذيب، المتصفين بالتصديق، في أقوالهم وأفعالهم، وأعمالهم. ولا يكونون كذلك، إلاَّ بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات.

﴿في ظلال﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهرة البهية.

﴿وعيون﴾ جارية من السلسبيل، والرحيق وغيرهما.

﴿وفواكه مما يشتهون﴾ أي: من خيار الفواكه وأطيبها.

ويقال لهم: ﴿كلوا واشربوا﴾ من المآكل الشهية، والأشربة اللذيذة ﴿هنيئاً﴾ أي: من غير منغص ولا مكدر. ولا يتم هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب، من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع، ولا زائل.

﴿بما كنتم تعملون﴾ فأعمالكم، هي السبب الموصل لكم إلى جنات النعيم المقيم.

وهكذا كل من أحسن في عبادة الله، وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين * ويل يومئذ للمكذبين﴾ ولو لم يكن من هذا الويل، إلاَّ فوات هذا النعيم، لكفى به حزناً وحرماناً.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٥٧)]

الآية السابعة والأربعون:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [سورة النبأ: ٣١ـ ٣٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿إن للمتقين مفازاً﴾ أي: الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عن معصيته فلهم مفاز، ومنجى، وبُعْدٌ عن النار.

وفي ذلك المفاز، لهم ﴿حدائق﴾ وهي: البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثمار.

﴿وأعناباً﴾ تتفجر خلالها الأنهار، وخص العنب، لشرفه، وكثرته، في تلك الحدائق.

ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس: ﴿كواعب﴾ وهي: النواهد، اللاتي لم ينكسر ثديهن، من شبابهن، وقوتهن، ونضارتهن.

﴿أتراباً﴾ أي: على سن واحد متقارب. ومن عادة الأتراب، أن يكن متآلفات، متعاشرات، وذلك السن، الذي هن فيه، ثلاث وثلاثون سنة، أعدل ما يكون من الشباب.

﴿وكأساً دهاقاً﴾ أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين.

﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي: كلاماً لا فائدة فيه ﴿ولا كذاباً﴾ أي: إثماً.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾. وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل، من فضله وإحسانه.

﴿جزاء من ربك عطاء حساباً﴾ أي: بسبب أعمالهم، التي وفقهم الله لها، وجعلها سبباً للوصول إلى كرامته.

(ثم بيّن سبحانه وتعالى أن) الذي أعطاهم هذه العطايا، هو ربهم: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ الذي خلقها ودبرها ﴿الرحمن﴾ الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم، ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوا ما أدركوا.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٦٢، ٣٦٣)]

* * *

الفصل الثاني

شرح شيخنا السعدي لبعض الأحاديث الدالة على التقوى

الحديث الأول

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»** رواه أحمد والترمذي[1].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث:

هذا حديث عظيم، جمع فيه رسول الله ﷺ بين حق الله وحقوق العباد.

فحق الله على عباده: أن يتقوه حق تقاته. فيتقوا سخطه وعذابه باجتناب المنهيات وأداء الواجبات.

وهذه الوصية هي وصية الله للأولين والآخرين[2]، ووصية كل رسول لقومه أن يقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [سورة العنكبوت: ١٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (١٩٨٧)، وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم (١٦١٨).

(٢) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
ومن الأسباب المعينة على طلب العلم:
التقوى: وهي وصية الله للأولين والآخرين من عباده، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

وهي أيضاً وصية الرسول لأمته فعن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال: **«اتقوا ربكم، وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدُّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم تدخلوا جنة ربكم»**، وكان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً. ولم يزل السَّلف الصالح يتواصون بها في خطبهم ومكاتباتهم ووصاياهم عند الوفاة: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله: (أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإن من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده) وأوصى علي رضي الله عنه رجلاً فقال: (أوصيك بتقوى الله عز وجل =

وقد ذكر الله خصال التقوى في قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

وفي قوله: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣].

ثم ذكر خصال التقوى فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٣٤].

فوصف المتقين بالإيمان بأصوله وعقائده وأعماله الظاهرة والباطنة، وبأداء

= الذي لا بد لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه وهو يملك الدنيا والآخرة)، وكتب أحد الصالحين إلى أخ له في الله تعالى: (أما بعد... أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حال في ليلك ونهارك. وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك واعلم أنك بعينه لا تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره. فليعظم منه حذرك وليكثر وجلك والسلام).

ومعنى التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه وقاية تقيه منه. وتقوى العبد ربه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضبه وسخطه وقاية تقيه من ذلك بفعل طاعته واجتناب معاصيه.

واعلم أن التقوى أحياناً تقترن بالبرّ فيقال بر وتقوى كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٢].

وتارة تذكر وحدها، فإن قُرنت بالبر صار البر فعل الأوامر، والتقوى ترك النَّواهي.

وإذا أفردت صارت شاملة تعم فعل الأوامر واجتناب النواهي وقد ذكر الله في كتابه أن الجنة أعدَّت للمتقين فأهل التَّقوى هم أهل الجنة ـ جعلنا الله وإياكم منهم ـ ولذلك يجب على الإنسان أن يتَّقي الله عز وجل امتثالاً لأمره وطَلباً لثوابه والنَّجاة من عقابه.

[كتاب العلم (ص ٥٧ ـ ٥٨)]

العبادات البدنية والعبادات المالية، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وبالعفو عن الناس، واحتمال أذاهم، والإحسان إليهم، وبمبادرتهم - إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم - بالاستغفار والتوبة. فأمر ﷻ ووصَّى بملازمة التقوى حيثما كان العبد، في كل وقت وكل مكان، وكل حالة من أحواله، لأنه مضطر إلى التقوى غاية الاضطرار، لا يستغني عنها في كل حالة من أحواله.

ثم لما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق التقوى وواجباتها، أمر ﷻ بما يدفع ذلك ويمحوه، وهو أن يُتْبع الحسنة السيئة.

و «الحسنة» اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله تعالى: وأعظم الحسنات الدافعة للسيئات: التوبة النصوح والاستغفار والإنابة إلى الله بذكره، وحبه، وخوفه ورجائه، والطمع فيه وفي فضله كل وقت. ومن ذلك الكفارات المالية والبدنية التي حددها الشارع.

ومن الحسنات التي تدفع السيئات العفو عن الناس، والإحسان إلى الخلق من الآدميين وغيرهم، وتفريج الكربات، والتيسير على المعسرين، وإزالة الضرر والمشقة عن جميع العالمين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [سورة هود: ١١٤].

وقال ﷺ: **«الصَّلَوات الخمسُ، والجمُعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضانَ: مكفِّراتٌ لِمَا بينَهُنَّ ما اجْتُنِبَتِ الْكبائِرُ»**[1].

وكم في النصوص من ترتيب المغفرة على كثير من الطاعات.

ومما يكفر الله به الخطايا: المصائب؛ فإنه لا يصيب المؤمن من هَمٍّ ولا غم ولا أذى، حتى الشوكة يُشاكُها، إلاَّ كفّر الله عنه بها خطاياه. وهي إما فوات محبوب، أو حصول مكروه: بدني، أو قلبي، أو مالي، داخلي أو خارجي. لكن المصائب بغير فعل العبد، فلهذا أمره بما هو من فعله، وهو أن يتبع الحسنة السيئة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٥٥٠).

ثم لما ذكر حق الله ـ وهو الوصية بالتقوى الجامعة لعقائد الدين وأعماله الباطنة والظاهرة ـ قال: **«وخالق الناس بخلق حسن»**.

وأول الخُلق الحسن: أن تكف عنهم أذاك من كل وجه، وتعفو عن مساوئهم وأذيتهم لك، ثم تعاملهم بالإحسان القولي والإحسان الفعلي. وأخص ما يكون بالخلق الحسن سعة الحلم على الناس، والصبر عليهم، وعدم الضجر منهم، وبشاشة الوجه، ولطف الكلام، والقول الجميل المؤنس للجليس، المدخل عليه السرور، المزيل لوحْشته، ومشقة حشمته.

وقد يحسن المزح أحياناً إذا كان فيه مصلحة، لكن لا ينبغي الإكثار منه، وإنما المزح في الكلام كالملح في الطعام، إن عدم أو زاد على الحد فهو مذموم.

ومن الخلق الحسن: أن تعامل كل أحد بما يليق به، ويناسب حاله من صغير وكبير، وعاقل وأحمق، وعالم وجاهل.

فمن اتقى الله، وحقق تقواه، وخالق الناس على اختلاف طبقاتهم بالخلق الحسن، فقد حاز الخير كله، لأنه قام بحق الله وحقوق العباد. ولأن كان من المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ٣٩ـ ٤١)]

* * *

الحديث الثاني

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يَدْعُو، فَيَقُولُ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى والتُّقَى، والعَفافَ والغِنَى»**[1] . . . . . .

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث:
كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو الله عز وجل بهذا الدعاء: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى والتُّقَىٰ والعَفَافَ والغِنَىٰ»**.
«الهدى» هنا بمعنى العلم والنبي ﷺ محتاج إلى العلم كغيره من الناس، لأنَّ الله سبحانه =

. . . . . .

= قال له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال الله له: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. فهو عليه الصلاة والسَّلام مُحتَاجٌ إلى العلم فيسأل الله الهدى.

والهُدى إذا ذكر وحده يشمل العلم والتَّوفيق للحق، أمَّا إذا قُرِن معه ما يدلُّ على التَّوفيق للحق فإنَّه يُفَسَّر بمعنى العِلم، لأنَّ الأصل في اللغة العربية أنَّ العطف يقتضي المغايرة فيكون الهدى له مَعْنًى ومَا بَعْدَهُ مِمَّا يدل على التَّوفيق له معنى آخر.

وأمَّا قوله: «والتُّقى» فالمراد بالتُّقوى: تقوى الله عز وجل فسأل النَّبي ﷺ ربه التُّقى أي أن يُوفِّقه إلى تقوى الله، لأنَّ الله هو الذي بيده مَقَاليد كل شيء فإذا وُكِل العَبْدُ إلى نفسه ضَاعَ ولم يحصل على شيء، فإذا وفَّقَهُ الله عز وجل ورزقه التُّقى صار مستقيماً على تقوى الله.

وأما قوله: «العَفَاف» فالمراد به أن يَمُنَّ الله عليه بالعفاف والعفة عن كل ما حرَّم الله عليه فيكون عطفه على التقوى من باب عطف الخاص على العام إن خصصْنا العَفَاف بالعَفَاف عن شيء مُعَيَّن وإلاَّ فهو من باب عطف المُتَرادفين.

فالعفاف أن يعف عن كل ما حرَّم الله عليه فيما يتعلق بجميع المحارم التي حرَّمها الله عز وجل.

وأما «الغِنى» فالمراد به الغنى عما سوى الله أي: الغنى عن الخلق بحيث لا يفتقر الإنسان إلى أحد سوى ربه عز وجل.

والإنسان إذا وفَّقه الله ومنَّ عليه بالاستغناء عن الخلق صار عزيز النَّفس غير ذليل، لأنَّ الحاجة إلى الخلق ذل ومَهَانة والحاجة إلى الله عِزٌّ وعبادة فهو يسأل عليه الصَّلاة والسلام الغنى.

فينبغي لنا أن نقتدي بالرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الدعاء وأن نسأل الله الهُدى والتُّقى والعَفَافَ والغِنى. وفي هذا دليل على أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً وأن الذي يملك ذلك هو الله.

وفيه دليل: على إبطال من تعلَّقُوا بالأولياء والصَّالحين في جَلْب المنافع ودفع المَضَار كما يفعل بعض الجهال الذي يدعون الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام إذا كانوا عند قبره أوْ يدعون من يزعمونهم أولياء من دون الله فإن هؤلاء ضَالُّون في دينهم سُفهاء في عقولهم، لأنَّ هؤلاء المدعوين هم بأنفسهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً قال الله لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال له: =

[رواه مسلم][1].

هذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها. وهو يتضمن سؤال خير الدين، وخير الدنيا؛ فإن «الهدى» هو العلم النافع. و «التقى» العمل الصالح، وترك ما نهى الله ورسوله عنه. وبذلك يصلح الدين. فإن الدين علوم نافعة، ومعارف صادقة، فهي الهدى، وقيام بطاعة الله ورسوله، فهو التقى.

و «العفاف والغنى» يتضمن العفاف عن الخلق، وعدم تعليق القلب بهم. والغنى بالله وبرزقه، والقناعة بما فيه، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية. وبذلك تتم سعادة الحياة الدنيا، والراحة القلبية، وهي الحياة الطيبة.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال له: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

فالإنسان يجب أن يعلم أنَّ البشر مهما أوتوا من الوَجَاهة عند الله عز وجل ومن المنزلة والمرتبة عند الله فإنهم ليسوا بمستحقين أن يدعوا من دون الله، بل إنهم يتبرؤون تبرؤا تامًا ممن يدعونهم من دون الله عز وجل. قال عيسى عليه الصلاة والسلام لما قال له الله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: ١١٦]، ليس من حق عيسى ولا غيره أن يقول للناس اتخذوني إلهاً من دون الله: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

فالحاصل أن ما نسمع عن بعض جهال المسلمين في بعض الأقطار الإسلامية الذين يأتون إلى قبور من يزعمونهم أولياء فيدعون هؤلاء الأولياء فإن هذا العمل سَفَه في العَقْل وضَلالٌ في الدِّين. وهؤلاء لن ينفعوا أحداً أبداً فهم جثث هامدة، والله الموفق.

[شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٩٠)]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٦٨٤٢).

فمن رزق الهدى والتقى، والعفاف والغنى: نال السعادتين، وحصل له كل مطلوب، ونجا من كل مرهوب.

والله أعلم.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ١٦٥)]

* * *

الفصل الثالث

فوائد ودرر من كلام
شيخنا السعدي على التقوى

الفائدة الأولى

في الوسائل إلى أهم المقاصد

قال رحمه الله:

قد جعل الله لكل مطلوب طريقاً وسبباً، متى سلكه العبد أوصله بإذن الله ومشيئته إلى ذلك المطلوب.

وبهذا يعلم افتقار الإنسان إلى معرفة الأسباب، والوقوف عليها، ثم يستعينُ الله على سُلوكها ليتم لها المطلوب.

فمتى بذل المجهود، واستعان بالمعبود، وأتى الأمور من أبوابها: أفلح وأنجح.

والخلل والنقص يأتي من فوات هذه الأمور الثلاث، أو أحدها.

الإيمان بالله حقيقة، والتقوى

جعل الله هذين الأمرين سببين وطريقين تنال بهما خيرات الدنيا والآخرة، ويعصمان من شرورهما، ومن كل مكروه.

وكم لهذين الأمرين من الثمرات والفوائد والنتائج الطيبة التي لا تعدّ ولا تحصى.

ومن تدبّر الكِتاب والسُّنَّة، رأى الشارع رتّب عليهما أُموراً كثيرة، وخيرات غزيرة، ورتّب على فقدهما ضدّ ذلك.

حُسن السؤال، وحسن الإصغاء، والتفكّر، وكثرة التأمل: مفاتيح للعلوم كلها.

السعي في طلب الرزق في السبب المناسب لحال العبد، مع الاتِّكال على الله، والثقة به، سبب لحصول الرزق وبركته.

الإلحاح في الدعاء كل وقت، مع قوة الرجاء، سبب لحصول مطالب الدنيا والآخرة.

الجزاء من جنس العمل:

فمن أحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه.

ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته.

ومن نفّس عن مسلم كُرْبة من كُرَب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة.

ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة.

ومن شاقّ: شاقّ الله به، ومن ضارّ: ضارّ الله به.

ومن تفرّغ لعيوب الناس، تفرغ الناس لعيوبه.

ومن يستعفِف يُعِفّهُ الله، ومن يستغن يُغنه الله، ومن يتصبّر يصبِّره الله.

ومن قوِيَ توكله على الله، كفاه أمر دينه ودنياه.

ومن توكَّل على نفسه أو على غيره، وكله الله إلى ما توكّل عليه، وخذله ولم يتمّ له مطلوبه.

ومن نوى الخير والنصيحة للخَلق، يسّر الله أمْره، وأثابه بالجزاء الجزيل.

ومن نوى الشرّ والغش للخَلق، تعسّرت عليه أُموره، وجوزِيَ بالعِقاب الوبيل.

التواضع وحُسن الخُلق يُنالان بالرغبة في مكارم الأخلاق، ومعرفة ما لها من الثمرات الجليلة. ومعرفة النفس ومجاهدتها وتمرينها على ذلك، يُدرك به كل خُلق جميل. كما أن إعجاب الإنسان بنفسه، وسُكر الرِّياسة، والحمق: جالِبات لسوء الخُلق.

المُثابرة على الأعمال، والصبر عليها، والثبات، وعدم اليأس: أسباب لحصول نتائج الأعمال وثمراتها. وضد ذلك سبب للخيبة.

[الرياض الناضرة (ص ١٧٠- ١٧١)]

الفائدة الثانية

تأييد الله لخواص عباده

قال رحمه الله:

قوله تعالى في حق خواص المؤمنين: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢].

هذا التأييد من الله لهم من تأييدهم بالأسباب التي نالوا بها مراتب الإيمان؛ فأيدهم بقوة نالوا بها العلم، وبقوة نالوا بها اليقين والإيمان، وبقوة نالوا بها الصبر والتوكل والخوف والرجاء والإنابة، وبقوة قاموا بها بالجهاد؛ فالله تعالى هو المتفضل (عليهم) بالسبب وسبب السبب، كما أنه هو المتفضل عليهم بالجزاء على ذلك؛ فمنه الفضل السابق واللاحق، وبتأييده لهم بالأسباب ومسبباتها تمت عليهم النعمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحجرات: ٧، ٨]. وبهذا وبقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [سورة المائدة: ١٦]. تعرف حكمة الله في تأييده هؤلاء الخواص بمعالي الأخلاق ومحاسن الأعمال، كما أن مثل قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ. . .﴾ الآية [سورة الأعراف: ٣٠]. يعرف بها حكمة الله في عدم هداية الذين اختاروا الشقاء والضلالة على السعادة والهدى وولاية الشياطين على ولاية رب العالمين؛ فكان من الحكمة الربانية التي يحمد الله عليها أكمل حمد أنه ولى هؤلاء الأشقياء ما تولوه واختاروه لأنفسهم، وأنهم حين جاءهم الهدى والحق فردوه ولم يؤمنوا به؛ قلب الله قلوبهم وختم عليها؛ فله الحمد على ذلك كما له الحمد على فضله وإحسانه.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ١١٢)]

* * *

الفصل الرابع

بعض خطب شيخنا السعدي التي تحث على التقوى

خطبة

في الحث على التقوى وبيان حدّها وفوائدها

الحمدُ للَّهِ المتَفَرِّدِ بعظمَتِهِ وكبريائه ومجدِه، المدبِّرِ للأمور بمشيئته وحكمته وحمده، وأشهدُ أن لا أله إلاَّ الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ في ألوهيتِه وربوبيتِهِ وفضلِهِ ورِفدِهِ، وأشهدُ أن محمداً عبدُهُ ورسُولُه خيرُ داعٍ إلى هداهُ ورشدِه، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارك على محمدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ وأتباعِهِ وجندِهِ، أما بعدُ:

أيها الناسُ، اتقوا اللَّهَ تعالى، فإنَّ تقوى اللَّهِ خيرُ لباسٍ وزادٍ، وأفضَلُ وسيلةٍ إلى رِضى ربِّ العباد. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق: ٢، ٣].

فَوعَدَ المتَّقي بالفرجِ والخروجِ من كلِّ همٍّ وضيقٍ، وبالرِّزق الواسع المتيسِر من كل طريقٍ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾ [سورة الطلاق: ٤، ٥].

فوعدَ من اتَّقاهُ أن يُيَسِّرَهُ لليُسْرى في كلّ الأمورِ، وأن يُكَفِّر عنهُ السيئاتِ ويُعْظمَ لهُ الأجورَ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [سورة الأنفال: ٢٩].

فبشّرَ المؤمنين إذا اتَّقَوْه بالفُرقان، وهو العلمُ النافعُ المفرِّقُ بين الحلالِ والحرام، وبتكْفيرِ السيئَاتِ ومغْفِرَةِ الآثام، وبالفضلِ العظيم من الملكِ العلاّم، فإن سألتمْ عن تفسير التَّقوى الَّتي هذِه آثارُها وهذه ثمراتها وفوائِدُها، فإنَّ أسَاسها التَّوبةُ النصُوحُ من جميعِ الذُّنوبِ ثم الإنابةُ منكمْ كلَّ وقتٍ إلى علاّمِ الغيوبِ، وذلك بالقصدِ الجازمِ إلى أداءِ الفرائض والواجباتِ، وتركِ جميعِ المناهي والمحرَّماتِ، وهوَ القيامُ بحقوقِ اللَّهِ وحقوقِ المخلوقينَ، والتَّقرُّبُ بذلك إلى رب العالمينَ.

علامةُ المتَّقي أن يكونَ قائماً بأصولِ الإيمان، مقيماً لشرائعِ الإسلام وحقائِق الإحْسانِ، محافظاً على الصلواتِ في أوقاتها، مؤدِّياً للزكاة لمستحقِّيها وجهاتِها، قائماً بالحج والصِّيام، بارًّا بوالديه واصلاً للأرحام، محسناً إلى الجيرانِ والمساكين، صادقاً في مَعامَلتِه مع جميع المعامِلِينَ، سَليمَ القلبِ منَ الكبرِ والغِلِّ والحقدِ والحسدِ، مملوءاً من النصيحةِ ومحبةِ الخيرِ لكلِّ أحدٍ، لا يسألُ إلاَّ اللَّهَ، ولا يستعينُ إلاَّ باللهِ، ولا يرجُو ولا يخشى أحداً سواهُ، وقَدْ وصفَ اللَّهُ المتقي وبيَّنَ ثَوابهُ في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣ـ ١٣٦].

منَّ اللَّهُ عليَّ وعليكمْ بتحقيقِ التَّقْوى، وجَعَلْنَا وإيَّاكم ممَّن اسْتَمسكَ بالعروةِ الوُثْقَى، وبارَكَ لي ولكمْ في القرآن العظيم.

خطبة

في التقوى

الحمدُ للَّهِ الذي فاوت بيْنَ عباده في العُقُول والهمَم والإراداتِ، ورفعَ بعْضَهُم فوقَ بعْضٍ بالإيمانِ والعلمِ ولوازمهما درجاتٍ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في الذَّات، ولا سميَّ لهُ في الأسماء ولا مثيلَ لهُ في الصِّفاتِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُهُ أشرفُ البريَّات، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومَنْ تبعَهُم في كلِّ الحالات.

أما بعْدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى فتقْوى الله وقايةٌ من الشَّرِّ والعذابِ، وسببٌ موصلٌ للخيْرِ والثَّواب، عبادَ اللَّهِ قد بيَّن اللَّهُ مراتِبَ الخيرِ وثوابَهُ، وحضَّكمْ على ذلك وسهَّل لكُمْ طُرُقَهُ وأسبابَهُ. فقالَ تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إلى قوله ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣ـ ١٣٦].

فوصَفَ المتَّقينَ بالقيام بحُقوقِهِ وحقوقِ عبادِهِ وبالتَّوبةِ والاستغفارِ. ونفى عنهُم الإقامةَ على الذُّنوبِ والإصرارِ. وقالَ معاذُ بنُ جبل رضي اللَّهُ عنهُ: يا رسولَ الله أخبرني بعملٍ يدخِلُني الجنَّة، ويُنجيني من النَّار. قال ﷺ: **«لقد سألْتَ عن عظيمٍ وإنَّهُ ليسيرٌ على منْ يسَّرَهُ اللَّهُ عليهِ: تعبُدُ اللَّهَ لا تُشرِكُ به**

شيئاً، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزَّكاة، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيتَ». أيْ فَمن قامَ بهذهِ الشَّرائعِ الخمسِ حقَّ القيام. استحقَّ النجاة من النارِ ودخولَ دار السلام. ثمَّ لما رآهُ شديدَ الرغبةِ في الخَيرِ وضَّحَ لهُ ولِلأمَّةِ الأسبابَ التي تُوصِلُ إلى خيرِ الدُّنيا والآخرةِ. والأبوابَ التي تُفضي إلى النِّعمِ الباطِنَةِ والظاهرةِ. فقالَ: **«ألا أدُلُّكَ على أبوابِ الخيرِ؟ الصومُ جُنَّةٌ»** [أي] وقايةٌ في الدُّنيا من الذُّنوبِ. ووقايةٌ في الآخرةِ من جميع الكروب. **«والصَّدقةُ تطفىءُ الخطيئة كما يطفىء الماءُ النَّارَ، وصلاةُ الرَّجُلِ في جوفِ اللَّيلِ»** [ثم تلا قولَهُ تعالى]: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [سورة السجدة: ١٦ـ ١٩].

ثم قالَ: **«ألا أخبرُكَ برأس الأمر وعمودِهِ وذروةِ سنامِهِ؟ رأسُ الأمرِ الإسلامُ وعمودُهُ الصلاةُ وذروةُ سنامِهِ الجهادُ في سبيلِ اللَّهِ»**. ثم قالَ: **«ألا أخبرُك بملاكِ ذلكَ كلهِ؟»** قلتُ: بلى يا رسولَ اللَّهِ، فأخذَ بلسانِ نفسِهِ وقال: **«كُفَّ عليكَ هذا»**. قلت: يا رسولَ اللَّهِ، وإنَّا لمؤاخذونَ بما نتكلَّم به؟ قال: **«ثَكلَتْكَ أُمُّكَ يا معاذُ، وهلْ يَكِبُّ النَّاسَ في النَّارِ على مناخيرِهِمْ إلاَّ حصائدُ ألسنتِهِم؟»**[1] فَمنْ ملَك لسانَهُ فأشْغَلَهُ بما يُقَرِّبُهُ إلى اللَّهِ مِنْ علمٍ وقراءةٍ وذكرٍ ودعاء واستغفار. وحَبَسَهُ عن الكلامِ المحرَّمِ منْ غيبةٍ ونميمةٍ وكذبٍ وشتمٍ وكلِّ ما يُسخِطُ الجبَّارَ. فقَدْ ملَكَ أمرَهُ كلَّهُ واستقامَ على الصِّراطِ المستقيم. ومَنْ أطْلَقَ لِسانَهُ فيما يَضُرُّهُ استَحقَّ العذاب الأليم. فانظرُوا، رحِمَكُم اللَّهُ، مَا أسهَلَ هذه الشرائعَ وأيسرها. وما أعظَمَ ثوابَها عندَ اللَّهِ وأكْمَلَهَا، فجاهدُوا نفوسَكم على تحقيقِها وإكمالِها، وسَلوا رَبَّكُمُ الإعانَةَ على أقوالِها وأفعالِها.

باركَ اللَّهُ لي ولكُمْ في القرآنِ العظيمِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٣١)، والترمذي في سننه برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه في سننه برقم (٣٩٧٣)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم (٢١١٠).

خطبة في معنى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾

[سورة الأحزاب: ٧٠]

الحمد لله الولي الحميد، الواسع المجيد، المطلع على خفايا الأمور وأسرار العبيد، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحدَه لا شريك له ولا نديد.

وأشهد أن محمداً عبده المصطفى، ورسوله المقتفى، ونبيه المجتبى. اللَّهم صلِّ وسلِّمْ على نبينا محمد وعلى آله الشرفا، وأصحابه البررة النجبا، وعلى كل من بهديه اقتدى.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١].

لقد أمركم الله في هذه الآية بتقواه وبالقول السديد ووعدكم على ذلك المغفرة وإصلاح الأحوال والتوفيق والتسديد، فمن اتَّقاه بفعل الأوامر واجتناب النواهي فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن ضَيَّع تقواه واتبع هواه بغير هدى من الله أعدَّ له عذاباً أليماً، من استقام على التقوى ولزم في منطقه القولَ السَّديد، هُدِي إلى الطيب من القول وإلى صراط الحميد، لقد رتَّب الله على هذين الأمرين خير الدنيا والآخرة، وأنعم على من قام بهما بالنعم الباطنة والظاهرة، من اتقى الله وأعمل لسانه بذكر الله، واستعمل الخُلُق الجميل مع عباد الله، جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب.

ومن اتَّقى الله ولزم القول السديد يَسَّره الله لليسرى، وجنَّبه السوء والعسرى، وغفر له في الآخرة والأولى.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [سورة الطلاق: ٥].

من اتقى الله زاده الله علماً وفرقاناً، وملأ قلبه طمأنينة إليه وثقة به وأمناً

وإيماناً، وأسبغ عليه آلاءه فضلاً منه وإحساناً. كيف يكون متقياً لله من أهمل فرائض الله وضيعها. وتجرَّأ على محارمه وانتهكها؟!، كيف يكون متقياً من تجرأ على الرِّبا والغِش والبَخْس وأكل الحرام، وأطلق لسانه في الغيبة والنميمة والكذب والآثام؟! كيف يكون متَّقياً من لا يخفى له طمع إلاَّ خانه، ومن لا يراعي العهود ويؤدي الأمانة؟! لقد عُرِضَت الأمانة التي هي القيام بحقوق الله وحقوق خلقه على السموات والأرض والجبال، فأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشفقن من هذه الحال، وطلبن العافية وتضرَّعْن إلى ذي العظمة والجلال، وحملها الإنسان على ظلمه وجهله وتلقَّى ما فيها من الأوامر والأثقال، فمنهم من سعد بحملها وبلغ بالقيام بها الآمال، ومنهم من ضيَّعها فباء بالخسران والنكال، أعانني الله وإياكم على القيام بالواجبات والسنن، وهدانا إلى أقوم طريق وأوضح سنن، وأعاذنا من مضلات الفتن، ما ظهر منها وما بطن. قال الله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢] إلى آخر السورة.

* * *

اللآلىء والدرر السعدية

(الحياة الطيبة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

فكل الناس على اختلاف مذاهبهم وأعراقهم، وعلى اختلاف مبادئهم وأهدافهم، يبحثون عن أمر واحد في هذه الدنيا، ويطلبون أمراً واحداً في هذه الحياة، ألا وهو السعادة.

فما هي السعادة؟ وأين توجد هذه السعادة؟ ومن أين يحصل الإنسان عليها؟

هل السعادة في المال الوفير، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة؟

هل السعادة في المنصب والجاه والسلطان؟

هل السعادة في صحة الجسم والعافية وقوة العضلات؟... لا والله، إنما السعادة الحقيقية، هي في طاعة الله سبحانه.

السعادة الحقيقية هي في مرضات الله سبحانه.

فهذه هي السعادة الحقيقية، سعادة آخروية دائمة، لا انقطاع لها أبداً، في حياة طيبة خالدة، في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

فتلك والله هي الحياة الطيبة، تلك والله هي الحياة الحقيقية، عندما يفوز العبد برضى الله جل وعلا، عندما يفوز العبد بمغفرة الله سبحانه، عندما يفوز العبد بجنات الرحمن جل وعلا، عندما يتنعم العبد بنعيم الجنة الباقي، ويلتقي هناك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فيالله ما أجملها من حياة، ويالله ما أجملها من سعادة.

فتلك سعادة أخروية أبدية خالدة في جنات ونهر. وهناك أيضاً سعادة في الدنيا، سعادة مقرونة بتلك السعادة الحقيقية الأخروية الأبدية، هذه السعادة تكون للمؤمنين والمؤمنات، للطيبين والطيبات، للعابدين والعابدات، للقانتين والقانتات، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل: ٩٧].

فالحياة الطيبة هي الحياة السعيدة، وإن كان صاحبها فقيراً معدوماً لا يملك من حطام الدنيا الفاني شيئاً، ورحم الله من قال:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد

فالسعادة كلها في طاعة الله جل وعلا، والسعادة كلها في السير على منهج الله جل وعلا، والسعادة كلها في التمسك بسنة رسول الله ﷺ، فالله سبحانه يقول:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [سورة النساء: ١٣].

وهذا الكتاب يحتوي درراً ولآلىء وجواهر، قيدها وكتبها شيخ لطالما قضى عمره في الدعوة إلى الله تعالى، وتبصير الناس أمور دينهم، ألا وهو شيخنا الفاضل عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عنا وعن المسلمين خير الجزاء في الدار الآخرة، بيّن من خلالها حقيقة الحياة الطيبة السعيدة، وأين توجد هذه الحياة؟ وما هي السبل التي توصل إلى هذه الحياة الطيبة؟

وهذه الجواهر والدرر منثورة في كتبه رحمه الله تعالى وأجزل له المثوبة، فرأيت جمعها في كتاب مستقل ليسهل تناوله والانتفاع به إن شاء الله تعالى، وسميته:

اللآلىء والدرر السعدية (الحياة الطيبة)

وأضفت له كلاماً نفيساً لشيخنا الغالي محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه الفردوس الأعلى في الجنان.

وقد قسمت الكتاب إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الآيات الدالة على السبيل إلى الحياة الطيبة وشرح شيخنا السعدي لها.

القسم الثاني: في جواهر ودرر وفوائد من كلام شيخنا السعدي رحمه الله حول السبيل إلى الحياة الطيبة.

القسم الثالث: ويحتوي على رسالة شيخنا السعدي: **الوسائل المفيدة للحياة السعيدة**، وقد علقت عليها وأضفت لها كلاماً نفيساً لشيخنا السعدي أيضاً.

القسم الرابع: ويحتوي على خطب لشيخنا السعدي عن الحياة الطيبة.

هذا وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني عملي هذا، وأن يجعله في ميزان

حسناتي يوم ألقاه، كما أسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يرحم شيخنا السعدي رحمة واسعة، وأن يعلي درجته في الجنان إن شاء الله، وأن يجزيه عنا وعن المسلمين خير الجزاء، وأن يغفر ويرحم جميع مشايخنا وعلمائنا. إنه هو الرحمن الرحيم.

والله من وراء القصد، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وكتب

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

الفصل الأول

الآيات الدالة
على السبيل إلى الحياة الطيبة
وشرح شيخنا السعدي لها

الآية الأولى:

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل: ٩٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

. . . فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة، فقال: **﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾**، فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالاً صالحة، إلاَّ بالإيمان، والإيمان مقتضي لها، فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات. فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح: **﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾**[1] وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه، وعدم التفاته لما

---

(١) قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

ولهذا لا تجد أحداً أنعم بالاً ولا أشرح صدراً ولا أشد طمأنينة في قلبه من المؤمن أبداً حتى وإن كان فقيراً، فالمؤمن من أشد الناس انشراحاً، وأشد الناس اطمئناناً، وأوسع الناس صدراً، واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

ما هي الحياة الطيبة؟ الجواب: الحياة الطيبة هي انشراح الصدر وطمأنينة القلب حتى ولو كان الإنسان في أشد بؤس، فإنه مطمئن القلب منشرح الصدر، قال النبي ﷺ: **«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له»** [رواه مسلم].

الكافر إذا إصابته الضراء هل يصبر؟ الجواب: لا. بل يحزن ويضيق عليه الدنيا وربما انتحر وقتل نفسه، ولكن المؤمن يصبر ويجد لذة الصبر انشراحاً وطمأنينة، ولذلك تكون حياته طيبة، وبذلك يكون قوله تعالى: **﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾** حياة طيبة في قلبه ونفسه. . . فالمؤمن في خير مهما كان وهو الذي ربح الدنيا والآخرة. والكافر في شر وهو الذي خسر الدنيا والآخرة. . قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ـ ٣].

فالكفار والذين أضاعوا دين الله وتاهو في لذاتهم وترفهم فهم وإن بنوا القصور وشيدوها =

يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً من حيث لا يحتسب. ﴿ولنجزينهم﴾ في الآخرة ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من أصناف اللذات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيؤتيه الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٨٣)]

الآية الثانية:

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [سورة يونس: ٦٢- ٦٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يخبر الله تعالى عن أوليائه وأحبائه ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم. فقال: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم، من المخاوف والأهوال.

﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلاَّ صالح الأعمال.

وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى. ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الذين آمنوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

= وازدهرت لهم الدنيا، فإنهم في الحقيقة في جحيم، حتى قال بعض السلف: (لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف). أما المؤمنون فقد نعموا بمناجاة الله وذكره، وكانوا مع قضاء الله وقدره، فإن أصابتهم الضراء صبروا، وإن أصابتهم السراء شكروا، فكانوا في أنعم ما يكون، بخلاف أصحاب الدنيا فإنهم كما وصفهم الله بقوله: ﴿فَإِنْ أُعْطَوْا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

[كتاب العلم (ص ٤٧، ٤٨)]

فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله تعالى ولياً، لذلك كانت ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾، أما البشارة في الدنيا فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد، من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوىء الأخلاق، وأما من الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾، وفي القبر، ما يبشر به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم والنجاة من العذاب الأليم.

﴿**لا تبديل لكلمات الله**﴾ بل ما وعد الله فهو حق لا يمكن تغييره ولا تبديله لأنه الصادق في قيله الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

﴿**ذلك هو الفوز العظيم**﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرى شامله لكل خير وثواب، رتبه الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك، فلم يقيده.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٢٨)]

الآية الثالثة:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [سورة طه: ١٢٣- ١٢٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يخبر تعالى أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض وأن يتخذ آدم وبنوه الشيطان عدوّاً لهم فيأخذوا الحذر منه ويُعِدُّوا له عُدَّتَه ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتباً ويرسل إليهم رسلاً يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى

جنته ويحذرونهم من هذا العدو المبين. وأنهم أي وقت جاءهم ذلك الهدى الذي هو: الكتب والرسل فإن من اتبعه اتبع ما أمر به واجتنب ما نهى عنه، فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما بل قد هدي إلى صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ واتباع الهدى بتصديق الخبر وعدم معارضته بالشبه وامتثال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة.

﴿**ومن أعرض عن ذكري**﴾ أي كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية وأن يتركه على وجه الإعراض عنه أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون على وجه الإنكار له والكفر به ﴿**فإن له معيشة ضنكاً**﴾ أي فإن جزاءه أن نجعل معيشة ضيقة مشقة ولا يكون ذلك إلاَّ عذاباً، وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر وأنه يضيق عليه قبره ويحصر فيه ويعذب جزاء لإعراضه عن ذكر ربه... ﴿**ونحشره**﴾ أي هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿**يوم القيامة أعمى**﴾ البصر على الصحيح كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾.

قال على وجه الذل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة ﴿**رب لم حشرتني أعمى وقد كنت**﴾ في دار الدنيا ﴿**بصيراً**﴾ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة.

﴿**قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها**﴾ بإعراضك عنها ﴿**وكذلك اليوم تنسى**﴾ أي تترك في العذاب. فأجيب بأن هذا هو عين عملك والجزاء من جنس العمل وكما عميت عن ذكر ربك، وغشيت عنه ونسيته ونسيت حظك منه أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب.

﴿**وكذلك**﴾ أي: هذا الجزاء ﴿**نجزي**﴾ ﴿**من أسرف**﴾ بأن تعدى الحدود وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له، ﴿**ولم يؤمن بآيات ربه**﴾ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه. ﴿**ولعذاب الآخرة أشد**﴾ من عذاب

الدنيا أضعافاً مضاعفة ﴿وأبقى﴾ لكونه لا ينقطع بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٥٧)]

الآية الرابعة:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَٰتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سورة الشورى: ٢٢، ٢٣].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿**والذين آمنوا**﴾ بقلوبهم، بالله وبكتبه ورسله وجاءوا به ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ يشمل فيه كل عمل صالح من أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات.

فهؤلاء ﴿**في روضات الجنات**﴾ أي الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة والغياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة، بأكمل نصيب. رياض لا تزداد على طول المدى، إلاَّ حسناً وبهاءً، ولا يزداد أهلها إلاَّ اشتياقاً إلى لذاتها ووداداً.

﴿**لهم ما يشاءون**﴾ فيها أي: في الجنات ﴿**عند ربهم**﴾. فمهما أرادوا فهو حاصل ومهما طلبوا، حصل، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿**ذلك هو الفضل الكبير**﴾ وهل فضل أكبر من الفوز برضا الله تعالى والتنعم بقربه في دار كرامته؟

﴿**ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي: هذه البشرة العظيمة التي هي أكبر البشائر على الإطلاق يبشر بها الرحيم الرحمن على

يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها، أفضل الوسائل.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٢١، ٤٢٢)]

الآية الخامسة:

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٠ـ ٣٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يخبر تعالى عن أوليائه وفي ضمن ذلك، تنشيطهم، والحث على الاقتداء بهم، فقال: **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾** أي اعترفوا، ونطقوا، ورضوا بربوبية الله تعالى واستسلموا لأمره ثم استقاموا على الصراط المستقيم علماً وعملاً فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾ الكرام، أي يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار، **﴿أن لا تخافوا﴾** على ما يستقبل منه أمركم **﴿ولا تحزنوا﴾** على ما مضى فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل.

﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت وكان وعد الله مفعولاً.

ويقولون لهم أيضاً ـ مثبتين لهم، ومبشرين ـ: **﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾** يحثونهم على الخير ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها على الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم ويدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

ويقولون لهم أيضاً ﴿**ولكم فيها**﴾ أي في الجنة ﴿**ما تشتهي أنفسكم**﴾ قد أعد وهيء ﴿**ولكم فيها ما تدعون**﴾ أي تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿**نزلاً من غفور رحيم**﴾ أي هذا الثواب الجزيل والنعيم المقيم نزل وضيافة ﴿**من غفور**﴾ غفر لكم السيئات. ﴿**رحيم**﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم قبلها منكم فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٩٦ـ ٣٩٧)]

الآية السادسة:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النحل: ٤١، ٤٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين ﴿**الذين هاجروا في الله**﴾ أي في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿**من بعد ما ظلموا**﴾ بالأذية والمحنة من قومهم الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك فتركوا الأوطان والخلان وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن. فذكر لهم ثوابين، ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رأوه عياناً، بعدما هاجروا وانتصروا على أعدائهم وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا، وآتاهم الله في الدنيا حسنة.

﴿**ولأجر الآخرة**﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله خير و ﴿**أكبر**﴾ من أجر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة التوبة: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ أي: لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿**الذين صبروا**﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة وعلى الأذية فيه والمحن ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ أي يعتمدون عليه في تنفيذ محابِّه لا على أنفسهم، وبذلك تنجح أمورهم، وتستقيم أحوالهم فإن الصبر والتوكل، ملاك الأمور كلها.

فما فات أحداً شيء من الخير إلاَّ لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله، واعتماده على الله.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٦١)]

الآية السابعة:

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة التوبة: ٢٠ـ ٢٢].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿**الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل بأموالهم**﴾ النفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة ﴿**وأنفسهم**﴾ بالخروج بالنفس ﴿**أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون**﴾ أي لا يفوز بالمطلوب، ولا ينجو من المرهوب، إلاَّ من اتصف بصفاتهم وتخلق بأخلاقهم.

﴿**يبشرهم ربهم**﴾ رحمة منه وكرماً، وبرّاً بهم، واعتناء ومحبة لهم.

﴿**برحمة منه**﴾ أزال بها عنهم الشرور وأوصل إليهم بها كل خير.

﴿**ورضوان**﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

﴿وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾، من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلاَّ الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله، مائه درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم ﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا ينتقلون عنها ولا يبغون عنها حِوَلاً.

﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ لا تستغرب كثرته على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه، على من يقول للشيء كن فيكون.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٣٢ـ ٢٣٣)]

الآية الثامنة:

قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الشورى: ٣٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها، فقال: ﴿فما أوتيتم من شيء﴾ من ملك ورياسة وأموال وبنين وصحة وعافية بدنية.

﴿فمتاع الحياة الدنيا﴾ لذة منغصة منقطعة. ﴿وما عند الله﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل والنعيم المقيم ﴿خير﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وأبقى﴾ لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر ولا انتقال.

ثم ذكر لمن هذا الثواب فقال: ﴿للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي جمعوا بين الإيمان الصحيح المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل. وكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام، وهو (أي التوكل) الاعتماد بالقلب على الله. في جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٢٧ـ ٤٢٨)]

الآية التاسعة:

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾[1] [سورة إبراهيم: ٢٧].

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في أعلام الموقعين (١/ ٢٣٠، ٢٣١):

تحت هذه الآية كنز عظيم، من وُفِّق لمظنته وأحسن استخراجه واقتنائه وأنفق منه، فقد غنم، ومن حرمه فقد حُرم.

وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين. فإن لم يثبته، وإلاَّ زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما. وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]. وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]. وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: «وهو يسألهم ويثبتهم». وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت.

ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أُمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده. فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

فأثبت الناس قلباً: أثبتهم قولاً.

والقول الثابت: هو القول الحق والصدق. وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له.

وأثبت القول: كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة، ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلباً، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلوناً، وأقلهم ثباتاً. وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلاَّ على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئاً إلاَّ أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل.

فما منح العبد منحة أفضل من منحه القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم، ويوم معادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ: أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر.

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يخبر تعالى: أنه يثبت عباده المؤمنين أي الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبي التام الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها فيثبتهم الله في الحياة الدنيا، عن ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين. وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها. وفي الآخرة عند الموت، بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة. وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: «الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبي».

﴿ويضل الله الظالمين﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم **﴿ويفعل الله ما يشاء﴾**.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/١٨)]

* * *

الفصل الثاني

جواهر ودرر وفوائد
من كلام
العلامة السعدي رحمه اللّه
حول السبيل
إلى الحياة الطيبة

الفائدة الأولى

قال شيخنا السعدي رحمه الله:

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1].

---

(١) قال سماحة الوالد الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جنانه ـ:

«أرشد الله سبحانه العباد في هذه الآية إلى أن الحياة الطيبة والراحة والطمأنينة إنما تحصل لمن استجاب لله ولرسوله واستقام على ذلك قولاً وعملاً، وأما من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام واشتغل عنهما بغيرهما، فإنه لا يزال في العذاب والشقاء والهموم والغموم والمعيشة الضنك، وإن ملك الدنيا بأسرها ثم ينقل إلى ما هو أشد وأفظع وهو عذاب النار عياذاً بالله من ذلك».

قلت: فتأمل يا رعاك الله في ذلك الكلام النفيس، فالسعادة لا تكون إلاَّ بالالتزام بطريق الله تعالى لا غير، ألا فليسمع ذلك من يبحث عن السعادة إن كان يريد السعادة حقّاً.

وقال الإمام ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته ـ:

هذا خبر أصدق الصادقين، ومخبره عند أهله عين اليقين، بل هو حق اليقين، ولا بد لكل من عمل صالحاً أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات. ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلاَّ اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادي عليه من مكان بعيد، ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو متحل بهذا منشرح الصدر به، يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول: فزت ورب الكعبة ويستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده، ويقول إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً، ويقول الآخر مع فقره: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما =

وعد الله ـ ومن أصدق من الله قيلاً ـ من جمع بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح أن يحييه في هذه الدنيا حياة طيبة وأن يجزيه في الآخرة أفضل الجزاء وخيره.

فالحياة الطيبة، اسم جامع لما يحصل به سرور القلب وراحته وطمأنينته، وعدم قلقه واضطرابه في جميع مقامات الحياة. والبدن بالطبع تابع للقلب في راحته وضدها، فمن آمن إيماناً صحيحاً بأن آمن بوحدانية الله، وتوحده في الربوبية والألوهية وانفراده بالخلق والرزق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة، واطمأن لخير الله وخير رسله، اعترافاً وتصديقاً، ولأمره ونهيه، إذعاناً وانقياداً وعملاً، وذلك يتضمن تصديق الخبر وامتثال الأمر، واجتناب النهي..

من قام بذلك حق القيام فلا بد أن يتحقق له هذا الوعد ومن فاته ذلك أو بعضه فاته من هذه الحياة الطيبة بحسب ما ضيعه ونقصه، واعتبر ذلك بجميع مقامات هذه الحياة وتنقلات العبد فيها من غنى وفقر، وسراء وضراء ومرض وصحة، وحصول محبوبات ووقوع مكاره ومصيبات، وقيام بعبوديات وحقوق ومعاملات وجميع ما يعرض للعبد من التصرفات.

فإن المرء إذا استصحب الإيمان الكامل تنقل من هذه المقامات بسكون وطمأنينة وقناعة واحتساب للثواب وخوف من العقاب. وكان عند النعماء والمحبوبات من الشاكرين وعند المكاره والمصائب من الصابرين المحتسبين المرتقبين من الله أعظم الثواب، وكان ساعياً في المغنم في سرائه وضرائه.

= نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف، ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات ليرقص فيها طرباً، وقال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال رحمه الله:

فأخبر سبحانه عن فلاح ما تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة.

[مفتاح دار السعادة (ص ٣٨ و٤٧)]

وإن قام بالعبادة التي بينه وبين الله كان داخلاً في سرور قلبه ونعيم روحه، ورأى أن قطع أوقاته ونفاد ساعاته في كل ما يقربه إلى رب العالمين خير ما تنافس فيه المتنافسون.

وأن هذا هو حقيقة الحياة التي من حرمها فهو مغبون غبناً لا ربح بعده وإن قام بحقوق من له حق عليه من والدين وأولاد وأهل ومماليك وأقارب وجيران وأصحاب ونحوهم كان الداعي له إلى ذلك طلب القرب من ربه واحتساب الأجر عنده واكتساب الفضائل، والسلامة من الرذائل، فكان في قيامه بها مسرور القلب، مطمئن النفس، لا يبالي بتعب بدنه ولا بنفقة ماله لأنه يعتقد بذلك أنه تاجر مع الله، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وإن تناول لذاته وشهواته المباحة وقام بالكسب المباح مما يسره الله له نوى بذلك الاستعانة على طاعة المولى المنعم والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، فهو ينتقل في هذه الأمور، وروح التقرب ورجاء الثواب والأجر، وارتقاب الخير العاجل والآجل؛ ملء قلبه وحشو فؤاده. ومع ذلك، فهو يطمع في آخرته بكل خير عظيم وثواب جسيم.

فهذه الحياة لا يمكن التعبير عن كنهها ولذاتها وطيبها، فقس بها حياة فاسد الإيمان والعمل الصالح، الذي لا هم له إلاَّ ما أكل وشرب وكسب، لا غاية له يرجوها ولا أصل له يبني عليه، فهذا من أين له الراحة والطمأنينة، والفرح والسرور، وعيشته أدنى من عيشة البهائم السالمة من الهموم القلبية والآلام الروحية!.. فهذا قد خسر الدنيا والآخرة وحصلت له الصفقة الخاسرة.

[الفتاوى السعدية (ص ٥٧)]

الفائدة الثانية

وقال شيخنا السعدي رحمه الله:

...ومما يعين على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، ما رتب على ذلك من الثواب واندفاع العقاب العاجل والآجل: الديني والدنيوي والأخروي، ولهذا يذكر الله هذا المعنى في طاعته وطاعة رسوله عموماً، وفي بعض الشرائع المهمة

خصوصاً. فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٣٢].

فأخبر أن الرحمة والخير والمنافع العاجلة والآجلة ناشئة عن طاعته وطاعة رسوله، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

فبين أن هذه الأمور التي تحتوي على الشريعة كلها، سيكتب الله لأهلها رحمته المتصلة بالسعادة الأبدية.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٦].

أي في عبادة الله، وإلى عباد الله.

وأخبر أنه يحب المؤمنين والصابرين والمتقين.

وحين ذكر أوصاف المسلمين عامة في قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥] ثم عددها. ثم قال في ثوابهم: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1] [سورة الطلاق: ٢، ٣].

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق: ٤-٥].

---

(١) قال شيخنا السعدي ـ رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح الجنة ـ:
فكل من اتقى الله ولازم مرضاته في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة. ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله، جعل له فرجاً ومخرجاً، فمن لم يتق الله يقع في الآصار والأغلال، التي لا يقدرون على التخلص منها، والخروج من تبعتها.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٢)]

فهذا صريح في أن القيام بفرائض الله وترك محارمه، الذي هو التقوى، سبب لتفريج الكربات، والمخارج من كل ضيق وشدّة، وسبب لتيسير الأمور كلها، وتيسير الأرزاق المتنوعة وتكفير السيئات، وتعظيم الأجور.

فخيرات الدنيا والآخرة، سببها الوحيد الذي لا سبب لها سواه: القيام بالتقوى والشريعة الدينية.

[الرياض الناضرة (ص ١٠٤)]

الفائدة الثالثة

قال شيخنا السعدي رحمه الله:

الزهد في الدنيا[1] وتوابعها ليس مقصوداً لنفسه بل مقصوداً لغيره، فإن كان ذلك مما يستعان به على طاعة الله وقيام دينه والنفع المتعدي والقاصر، كان محموداً، وإن كان لا يتوسل به إلى شيء من ذلك، أو يتوسل به إلى أغراض

---

(١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا لأحبابهم فاجعل أنسك الله، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله وتودد إليه، تنل بذلك غاية العز والرفعة.

[فوائد الفوائد (ص ٣٨٨)]

وقال رحمه الله:

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلاّ بحبسين: حبس قلبه في صلبه ومطلوبه وحبسه عن الالتفات إلى غيره وحبس لسانه عما لا يفيد وحبسه على ذكر الله، وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه، فَيُخَلِّصَه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه.

ومن لم يصبر على هذين الحبسين وفر منهما إلى قضاء الشهوات، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس، وبالله التوفيق.

[فوائد الفوائد (ص ٤٢٧)]

نفسية وشهوات دنية، أو يطلب به الراحة الحاضرة فقط، لم يكن محموداً، فهو وسيلة محضة لا غاية مقصودة، وإنما الغايات المطلوبة تتبع أوامر الله ورسوله، وعلمها وتنفيذها في نفسه وفي غيره بكل وسيلة وطريقة توصل إليها.

والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٨٢)]

الفائدة الرابعة

وقال شيخنا السعدي رحمه الله:

لذات الدنيا ثلاثة أقسام:

أحدها: لذة تعقب ألماً أعظم منها، أو تفوت لذة أكبر منها، وهذه لذات العصاة الغافلين على اختلاف طبقاتهم، وهم الذين يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا . . .﴾ الآية [سورة الأحقاف: ٢٠].

الثانية: لذة لا تعقب ألماً أكبر منها ولا تفوت لذة أكبر منها، وهي لذات الغافلين المباحة التي لا يستعينون بها على الخير ولا يرون القيام بالواجب.

الثالثة: لذة يثاب العبد عليها، وهي لذة خواص المؤمنين الذين يتمتعون بها على وجه القيام بواجب النفس وعلى وجه الاستعانة بها على طاعة الله، وعلى وجه الانكفاف بها عن معاصي الله.

وبهذه المقاصد الجليلة تكون من قسم الطاعات، وهي التي قال فيها النبي ﷺ: **«إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»**[(١)].

وقال فيها: **«وفي بضع أحدكم صدقة»**. قالوا يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: **«أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»**[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٣٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٠٠٦).

فبيّن في الحديث أن التمتع بهذه الشهوات على وجه الحمد لله والاعتراف بفضله وقصد الانكفاف بها عن الحرام، أجر وثواب عند الله، فللّه الحمد على منته.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٢٣٤)]

الفائدة الخامسة

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قيلَ: يا رسولَ الله، أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ ـ أو يُحِبُّه ـ الناسُ عليْه؟ قالَ: **«تِلْكَ عاجِلُ بُشْرَى المؤْمِنِ»** رواه مسلم(١).

أخبر ﷺ في هذا الحديث: أن آثار الأعمال المحمودة المعجلة أنها من البشرى؛ فإن الله وعد أولياءه ـ وهم المؤمنون المتقون ـ بالبشرى في هذه الحياة وفي الآخرة.

و «البشارة» الخبر أو الأمر السار الذي يعرف به العبد حسن عاقبته، وأنه من أهل السعادة، وأن عمله مقبول.

أما في الآخرة: فهي البشارة برضا الله وثوابه، والنجاة من غضبه وعقابه، عند الموت، وفي القبر، وعند القيام إلى البعث. يبعث الله لعبده المؤمن في تلك المواضع بالبشرى على يدي الملائكة، كما تكاثرت بذلك نصوص الكتاب والسنة، وهي معروفة.

وأما البشارة في الدنيا التي يعجلها الله للمؤمنين؛ نموذجاً وتعجيلاً لفضله، وتعرفاً لهم بذلك، وتنشيطاً لهم على الأعمال: فأهمها: توفيقه لهم للخير، وعصمته لهم من الشر، كما قال ﷺ: **«أَمَّا أَهْل السعادةِ فَيُيَسَّرُون لِعَمَلِ أَهلِ السَّعادة»**(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٢٥، ٨/ ٧٠٩ فتح)، ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٣٩، ٢٠٤٠).

فإذا كان العبد يجد أعمال الخير ميسرة له، مسهلة عليه، ويجد نفسه محفوظاً بحفظ الله عن الأعمال التي تضره: كان هذا من البشرى التي يستدل بها المؤمن على عاقبة أمره؛ فإن الله أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين. وإذا ابتدأ عبده بالإحسان أتمه.

فأعظم منة وإحسان يمن به عليه: إحسانه الديني؛ فيسرّ المؤمن بذلك أكمل سرور: سرور بمنة الله عليه بأعمال الخير، وتيسيرها؛ لأن أعظم علامات الإيمان محبة الخير، والرغبة فيه والسرور بفعله. وسرور ثانٍ بطمعه الشديد في إتمام الله نعمته عليه، ودوام فضله.

ومن ذلك: ما ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث: إذا عمل العبد عملاً من أعمال الخير ـ وخصوصاً الآثار الصالحة والمشاريع الخيرية العامة النفع، وترتب على ذلك محبة الناس له، وثناؤهم عليه، ودعاؤهم له ـ كان هذا من البشرى: أن هذا العمل من الأعمال المقبولة، التي جعل الله فيها خيراً وبركة.

ومن البشرى في الحياة الدنيا:

محبة المؤمنين للعبد: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [سورة مريم: ٩٦]. أي محبة منه لهم، وتحبيباً لهم في قلوب العباد.

ومن ذلك: الثناء الحسن، فإن كثرة ثناء المؤمنين على العبد شهادة منهم له. والمؤمنون شهداء الله في أرضه.

ومن ذلك: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو تُرى له؛ فإن الرؤيا الصالحة من المبشرات.

ومن البشرى: أن يقدر الله على العبد تقديراً يحبه أو يكرهه، ويجعل ذلك التقدير وسيلة إلى صلاح دينه، وسلامته من الشر.

وأنواع ألطاف الباري سبحانه وتعالى لا تعدّ ولا تحصى، ولا تخطر بالبال، ولا تدور في الخيال.

والله أعلم.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ١٧٢ وما بعدها)]

الفصل الثالث

رسالة العلامة السعدي
الوسائل المفيدة
للحياة السعيدة

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي له الحمد كله، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم.

أما بعد: فإن راحة القلب، وطمأنينته وسروره وزوال همومه وغمومه، هو المطلب لكل أحد، وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج، ولذلك أسباب دينية، وأسباب طبيعية، وأسباب عملية، ولا يمكن اجتماعها كلها إلاَّ للمؤمنين، وأما من سواهم، فإنها وإن حصلت لهم من وجه وسبب يجاهد عقلاؤهم عليه، فاتتهم من وجوه أنفع وأثبت وأحسن حالاً ومآلاً.

ولكني سأذكر برسالتي هذه ما يحضرني من الأسباب لهذا المطلب الأعلى، الذي يسعى له كل أحد.

فمنهم من أصاب كثيراً منها فعاش عيشة هنيئة، وحي حياة طيبة ومنهم من أخفق فيها كلها فعاش عيشة الشقاء وحيي حياة التعساء. ومنهم من هو بين بين، بحسب ما وفق له. والله الموفق المستعان به على كل خير، وعلى دفع كل شر.

فصل

١ ـ وأعظم الأسباب لذلك وأصلها وأسها هو الإيمان والعمل الصالح قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1] [سورة النحل: ٩٧].

فأخبر تعالى ووعد من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، بالحياة الطيبة في هذه الدار، وبالجزاء الحسن في هذه الدار وفي دار القرار.

---

(١) انظر شرح الآية في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وسبب ذلك واضح، فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح، المثمر للعمل الصالح المصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة، معهم أصول وأسس يتلقون فيها جميع ما يرد عليها من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهم والأحزان.

يتلقون المحاب والمسار بقبول لها، وشكر عليها واستعمال لها فيما ينفع، فإذا استعملوها على هذا الوجه. أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين، أموراً عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التي هذه ثمراتها.

ويتلقون المكاره والمضار والهم والغم بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم منه بد وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة، والتجارب والقوة، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب أمور عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار والآمال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه، كما عبر النبي ﷺ عن هذا في الحديث الصحيح أنه قال: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن**»[1] رواه مسلم[2].

---

(١) قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى، بعد شرحه لهذا الحديث:
وفي هذا الحديث الحث على الإيمان وأن المؤمن دائماً في خير ونعمة.
وفيه الحث على الصبر على الضراء وأن ذلك من خصال المؤمنين. فإذا رأيت نفسك عند إصابة الضراء صابراً محتسباً تنتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى وتحتسب الأجر على الله، فذلك عنوان الإيمان، وإن رأيت بالعكس فلُم نفسك وعدِّل مسيرك وتب إلى الله.
وفي هذا الحديث الحث على الشكر عند السراء لأنه إذا شكر الإنسان ربه على نعمة، فهذا من توفيق الله له وهو من أسباب زيادة النعم كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧]. وإذا وفق الله العبد لشكره، فهذه نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثانية فإذا وفق فهي نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثالثة، وهكذا لأن الشكر قلَّ من يقوم به فإذا مَنَّ الله عليك وأعانك عليه فهذه نعمة.

[شرح رياض الصالحين (١/ ١٤٥)]

(٢) تقدم تخريجه قبل قليل.

فأخبر ﷺ أن المؤمن يتضاعف غنمه وخيره وثمرات أعماله في كل ما يطرقه من السرور والمكاره.

لهذا تجد اثنين تطرقهما نائبة من نوائب الخير أو الشر. فيتفاوتان تفاوتاً عظيماً في تلقيها، وذلك بحسب تفاوتهما في الإيمان والعمل الصالح.

هذا الموصوف بهذين الوصفين يتلقى الخير والشر بما ذكرناه من الشكر والصبر وما يتبعهما، فيحدث له السرور والابتهاج، وزوال الهم والغم، والقلق، وضيق الصدر، وشقاء الحياة وتتم له الحياة الطيبة في هذه الدار.

والآخر يتلقى المحاب بأشر وبطر وطغيان. فتنحرف أخلاقه ويتلقاها كما تتلقاها البهائم بجشع وهلع، ومع ذلك فإنه غير مستريح القلب، بل مشتته من جهات عديدة، مشتت من جهة خوفه من زوال محبوباته ومن كثرة المعارضات الناشئة عنها غالباً، ومن جهة أن النفوس لا تقف عند حد بل لا تزال متشوقة لأمور أخرى، قد تحصل وقد لا تحصل، وإن حصلت على الفرض والتقدير فهو أيضاً قلق من الجهات المذكورة ويتلقى المكاره بقلق وجزع وخوف وضجر، فلا تسأل عن ما يحدث له من شقاء الحياة، ومن الأمراض الفكرية والعصبية، ومن الخوف الذي قد يصل به إلى أسوأ الحالات وأفظع المزعجات، لأنه لا يرجو ثواباً. ولا صبر عنده يسليه ويهون عليه.

وكل هذا مشاهد بالتجربة، ومثل واحد من هذا النوع، إذا تدبرته ونزلته على أحوال الناس، رأيت الفرق العظيم بين المؤمن العامل بمقتضى إيمانه، وبين من لم يكن كذلك[1]، وهو أن الدين يحث غاية الحث على القناعة

---

(١) قال شيخنا السعدي رحمه الله في كتاب الرياض الناضرة (ص ٧٨):
بشر الصابرين على مشقة الطاعات، وترك المخالفات، وآلام المصيبات بتوفية أجرهم بغير حساب.
وأنذر الجازعين المتسخطين لأقدار الله بتضاعف المكاره وفوات الأجر وحلول الوزر والعقاب.
إن الجزع لا يرد الفائت ولكنه يُحزن الصديق ويسر الشامت.
الصبر مؤذن بالقوة والشجاعة والثبات والإيمان. =

برزق الله، وبما آتى العباد من فضله وكرمه المتنوع.

فالمؤمن إذا ابتلي بمرض أو فقر، أو نحوه من الأعراض التي كل أحد عرضة لها، فإنه بإيمانه وبما عنده من القناعة والرضى بما قسّم الله له، تجده قرير العين، لا يتطلب بقلبه أمراً يقدر له، ينظر إلى من هو دونه، ولا ينظر إلى من هو فوقه، وربما زادت بهجته وسروره وراحته على من هو متحصل على جميع المطالب الدنيوية، إذا لم يؤت القناعة.

كما تجد هذا الذي ليس عنده عمل بمقتضى الإيمان، إذا ابتلي بشيء من الفقر، أو فقد بعض المطالب الدنيوية، تجده في غاية التعاسة والشقاء.

ومثل آخر: إذا حدثت أسباب الخوف وألمت بالإنسان المزعجات، تجد صحيح الإيمان ثابت القلب، مطمئن النفس، متمكناً من تدبيره وتسييره لهذا الأمر الذي دهمه بما هو في وسعه من فكر وقول وعمل، قد وطن نفسه لهذا المزعج الملم، وهذه أحوال تريح الإنسان وتثبت فؤاده.

كما تجد فاقد الإيمان بعكس هذه الحال إذا وقعت المخاوف انزعج لها ضميره، وتوترت أعصابه، وتشتت أفكاره وداخله الخوف والرعب، واجتمع عليه الخوف الخارجي، والقلق الباطني الذي لا يمكن التعبير عن كنهه، وهذا النوع من الناس، إن لم يحصل لهم بعض الأسباب الطبيعية التي تحتاج إلى تمرين كثير، انهارت قواهم وتوترت أعصابهم، وذلك لفقد الإيمان الذي يحمل على الصبر، خصوصاً في المحال الحرجة، والأحوال المحزنة المزعجة.

= والجزع عُنوان الجبن والضعف والهلع والخسران.

ما نال من نال من خير الدنيا والآخرة إلاّ بالصبر، ولا حُرم من حرم إلاّ بفقده.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

بالصبر يرتقي العبد إلى أعلى المقامات، وهو مقام الشاكرين الذين يشكرون الله على السراء والضراء واليُسر والعسر.

فالبر والفاجر، والمؤمن والكافر يشتركان في جلب الشجاعة الاكتسابية، وفي الغريزة التي تلطف المخاوف وتهونها ولكن يتميز المؤمن بقوة إيمانه وصبره وتوكله على الله واعتماده عليه، واحتسابه لثوابه ـ أموراً تزداد بها شجاعته، وتخفف عنه وطأة الخوف، وتهون عليه المصاعب، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: ١٠٤]. ويحصل لهم من معونة الله ومعينه الخاص ومدده ما يبعثر المخاوف. وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦].

٢ ـ ومن الأسباب التي تزيل الهم والغم والقلق، الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل، وأنواع المعروف، وكلها خير وإحسان، وبها يدفع الله عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه فيهون الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه، قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة النساء: ١١٤].

فأخبر تعالى أن هذه الأمور كلها خير ممن صدرت منه. والخير يجلب الخير، ويدفع الشر. وأن المؤمن المحتسب يؤتيه الله أجراً عظيماً ومن جملة الأجر العظيم: زوال الهم والغم والأكدار ونحوها.

فصل

٣ ـ ومن أسباب دفع القلق الناشىء عن توتر الأعصاب، واشتغال القلب ببعض المكدرات: الاشتغال بعمل من الأعمال أو علم من العلوم النافعة[1].

---

(١) قال شيخنا السعدي رحمه الله تعالى:

العلم هو معرفة الهدى بدليله فهو معرفة المسائل المطلوبة ومعرفة أدلتها وطرقها التي تهدى إليها. والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به وضده الجهل.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٨٣)]

فإنها تلهي القلب عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقه. وربما نسي بسبب ذلك الأسباب التي أوجبت له الهم والغم، ففرحت نفسه، وازداد نشاطه، وهذا السبب أيضاً مشترك بين المؤمن وغيره. ولكن المؤمن يمتاز بإيمانه وإخلاصه واحتسابه في اشتغاله بذلك العلم الذي يتعلمه أو يعلمه، وبعمل الخير الذي يعمله، إن كان عبادة فهو عبادة وإن كان شغلاً دنيوياً أو عادة دنيوية أصحبها النية الصالحة.

وقصد الاستعانة بذلك على طاعة الله، فلذلك أثره الفعال في دفع الهم والغموم والأحزان، فكم من إنسان ابتلي بالقلق وملازمة الأكدار، فحلت به الأمراض المتنوعة فصار دواؤه الناجع (نسيانه السبب الذي كدره وأقلقه، واشتغاله بعمل من مهماته).

وينبغي أن يكون الشغل الذي يشتغل فيه مما تأنس به النفس وتشتاقه؛ فإن هذا أدعى لحصول هذا المقصود النافع، والله أعلم.

٤ ـ ومما يدفع به الهم والقلق اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر، وقطعه عن الاهتمام في الوقت المستقبل، وعن الحزن على الوقت الماضي، ولهذا استعاذ النبي ﷺ من الهم والحزن[1]، فالحزن على الأمور الماضية التي لا يمكن ردها ولا استدراكها والهم الذي يحدث بسبب الخوف من المستقبل، فيكون العبد ابن يومه، يجمع جده واجتهاده في إصلاح يومه ووقته الحاضر، فإن جمع القلب على ذلك يوجب تكميل الأعمال، ويتسلى به العبد عن الهم والحزن والنبي ﷺ إذا دعا بدعاء أو أرشد أمته إلى دعاء فهو يحث مع الاستعانة بالله والطمع في فضله على الجد والاجتهاد في التحقق لحصول ما يدعو بحصوله. والتخلي عما كان يدعو لدفعه لأن الدعاء مقارن للعمل، فالعبد يجتهد فيما ينفعه في الدين والدينا، ويسأل ربه نجاح مقصده. ويستعينه على ذلك كما قال ﷺ: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإذا أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل**

---

(١) وذلك في الحديث المتفق عليه.

قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1]. فجمع ﷺ بين الأمر بالحرص على الأمور النافعة في كل حال. والاستعانة بالله وعدم الانقياد للعجز الذي هو الكسل الضار. وبين الاستسلام للأمور الماضية النافذة؛ ومشاهدة قضاء الله وقدره.

وجعل الأمور قسمين: قسماً يمكن العبد السعي في تحصيله أو تحصيل ما يمكن منه، أو دفعه أو تخفيفه فهذا يبدي فيه العبد مجهوده ويستعين بمعبوده. وقسماً لا يمكن فيه ذلك، فهذا يطمئن له العبد ويرضى ويسلم، ولا ريب أن مراعاة هذا الأصل سبب للسرور وزوال الهم والغم.

فصل

٥ ـ ومن أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته (الإكثار من ذكر الله)[2]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٦٤).
قال شيخنا السعدي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث:
. . . وقوله ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله**» كلام جامع نافع محتو على سعادة الدنيا والآخرة.
والأمور النافعة قسمان أمور دينية وأمور دنيوية، والعبد محتاج إلى الأمور الدنيوية كما أنه محتاج إلى الدينية فمدار سعادته وتوفيقه على الحرص والاجتهاد في الأمور النافعة منهما مع الاستعانة بالله تعالى، فمتى حرص العبد على الأمور النافعة واجتهد فيها وسلك أسبابها وطرقها واستعان بربه في حصولها وتكميلها: كان ذلك كماله وعنوان فلاحه، ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة فاته من الخير بحسبها. فمن لم يكن حريصاً على الأمور النافعة بل كان كسلاناً لم يدرك شيئاً. . . ثم إذا سلك العبد الطرق النافعة وحرص عليها واجتهد فيها: لم تتم له إلاَّ بصدق اللجإ إلى الله، والاستعانة به على إدراكها وتكميلها، وأن لا يتكل على نفسه وحوله وقوته بل يكون اعتماده التام بباطنه وظاهره على ربه فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأحوال، وتتم له النتائج الطيبة في أمر الدين وأمر الدنيا. . .
[بهجة قلوب الأبرار (ص ٢٧)]

(٢) قال ابن القيم رحمه الله في فوائد الفوائد (ص ٤١٤):
مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال النبي ﷺ لمعاذ: «**والله إني لأحبك فلا تنسى أن تقول =**

فإن لذلك تأثيراً عجيباً في انشراح الصدر وطمأنينته. وزوال همه وغمه، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد: ٢٨]. فلذكر الله أثر عظيم في حصول هذا المطلوب لخاصيته، ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره.

٦ ـ وكذلك التحدث بنعم الله الظاهرة والباطنة[1]، فإن معرفتها والتحدث بها يدفع الله به الهم والغم، ويحث العبد على الشكر الذي هو أرفع المراتب وأعلاها حتى ولو كان العبد في حالة فقر أو مرض أو غيرهما من أنواع البلايا. فإنه إذا قابل بين نعم الله عليه التي لا يحصي لها عد ولا حساب. وبين ما

= دبر كل صلاة: **اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»** [رواه أبو داود وأحمد والنسائي وصححه شيخنا الألباني رحمه الله تعالى].

وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر القلبيّ واللسانيّ، وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به، وبصفات كماله، ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح وذلك لا يتم إلاّ بتوحيده فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمة وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً.

وهذان الأمران هما جماع الدين فذكره مستلزم لمعرفته وشكره متضمن لطاعته وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس، والسموات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب وأنزل الكتب وأرسل الرسل. . .

(١) قال شيخنا السعدي رحمه الله تعالى:

إذا أنعم الله على عبد نعمة فإن هو أحسن تصريفها وتدبيرها، كانت نعمة أخرى وتمت عليه فيه النعمة وإن هو لم يحسن تصريفها بأن لم يستعملها أو استعملها فيما لا ينفع أو فيما يضر، كانت عليه نقمة وحجة. فكم من أوتوا قوة من عقولهم وأبدانهم فصرفوها فيما ينفعهم دنيا أو ديناً فانتفعوا وارتفعوا؟!

وكم من صرفوها فيما لا يعود عليهم بخير أو اهملوها فصار اللوم عليهم أعظم والمصيبة في حقهم أكثر؟!

وكم ممن أوتوا مالاً وجاهاً أو رئاسة فلم ينتفعوا بها فيما جعلت له وكانت عليهم وبالاً؟!

وكم ممن كانت هذه الأشياء زاداً يتزودون بها إلى الخير العاجل والثواب الآجل؟!

وهذه الأمور ونحوها من محالّ الفتن والاختبار وبها يتميز الأخيار من الأشرار.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٦٤)]

أصابه من مكروه، لم يكن للمكروه إلى النعيم نسبة.

بل المكروه والمصائب إذا ابتلى الله بها العبد، وأدى فيها وظيفة الصبر والرضى والتسليم، هانت وطأتها، وخفت مؤنتها، وكان تأميل العبد لأجرها وثوابها والتعبد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضى، يدع الأشياء المرة حلوة فتنسيه حلاوة أجرها مرارة صبرها.

٧ ـ ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع استعمال ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح حيث قال: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»[1]. فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل، رآه يفوق جمعاً كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمه وغمه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها.

وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، رأى ربه قد أعطاه خيراً كثيراً ودفع عنه شروراً متعددة، ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم، ويوجب الفرح والسرور.

فصل

٨ ـ ومن الأسباب الموجبة للسرور وزوال الهم والغم. السعي في إزالة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٦٣) (٩).

قال شيخنا السعدي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث:

يا لها من وصية نافعة وكلمة شافية وافية، فهذا يدل على الحث على شكر الله بالاعتراف بنعمه والتحدث بها والاستعانة بها على طاعة المنعم، وفعل جميع الأسباب المعينة على الشكر، فإن الشكر لله هو رأس العبادة وأصل الخير، وأوجبه على العباد فإنه ما بالعباد من نعمة ظاهرة ولا باطنة خاصة أو عامة إلاَّ من الله، وهو الذي يأتي بالخير والحسنات، ويدفع السوء والسيئات فيستحق أن يبذل له العباد من الشكر ما تصل إليه قواهم وعلى العبد أن يسعى لكل وسيلة توصله وتعينه على الشكر...

[بهجة قلوب الأبرار (ص ٤٤)]

الأسباب الجالبة للهموم وفي تحصيل الأسباب الجالبة للسرور، وذلك بنسيان ما مضى عليه المكاره التي لا يمكنه ردها، ومعرفته أن اشتغال فكره فيها من باب العبث والمحال، وأن ذلك حمق وجنون، فيجاهد قلبه عن التفكر فيها وكذلك يجاهد قلبه عن قلقه لما يستقبله، مما يتوهمه من فقر أو خوف أو غيرهما من المكاره التي يتخيلها في مستقبل حياته. فيعلم أن الأمور المستقبلة مجهول ما يقع فيها من خير وشر وآمال وآلام، وأنها بيد العزيز الحكيم، ليس بيد العباد منها شيء إلاَّ السعي في تحصيل خيراتها، ودفع مضراتها، ويعلم العبد أنه إذا صرف فكره عن قلقه من أجل مستقبل أمره، واتكل على ربه في إصلاحه، واطمأن إليه في ذلك إذا فعل ذلك اطمأن قلبه وصلحت أحواله، وزال عنه همه وقلقه.

٩ ـ ومن أنفع ما يكون في ملاحظة مستقبل الأمور استعمال هذا الدعاء الذي كان النبي ﷺ يدعو به: **«اللَّهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر»**[(١)].

وكذلك قوله: **«اللَّهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله، لا إله إلاَّ أنت»**[(٢)].

فإن لهج العبد بهذا الدعاء الذي فيه صلاح مستقبله الديني والدنيوي بقلب حاضر، ونية صادقة، مع اجتهاده فيما يحقق ذلك، حقق الله له ما دعاه ورجاه وعمل له وانقلب همه فرحاً وسروراً.

فصل

١٠ ـ ومن أنفع الأسباب لزوال القلق والهموم إذا حصل على العبد من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٦٨٤١).

(٢) رواه أبو داود في سننه برقم (٥٠٩٠) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله تعالى في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٤٢٤٦).

النكبات، أن يسعى في تخفيفها بأن يقدر أسوأ الاحتمالات التي ينتهي إليها الأمر، ويوطن على ذلك نفسه، فإذا فعل ذلك فليسع إلى تخفيف ما يمكن تخفيفه بحسب الإمكان، فبهذا التوطين وبهذا السعي النافع، تزول همومه وغمومه، ويكون بدل ذلك السعي في جلب المنافع، وفي دفع المضار الميسورة للعبد.

فإذا حلت به أسباب الخوف، وأسباب الأسقام، وأسباب الفقر والعدم لما يحبه من المحبوبات المتنوعة، فليتلق ذلك بطمأنينة وتوطين للنفس عليها، بل على أشد ما يمكن منها فإن توطين النفس على احتمال المكاره، يهونها ويزيل شدتها، وخصوصاً إذا أشغل نفسه بمدافعتها بحسب مقدوره، فيجتمع في حقه توطين النفس مع السعي النافع الذي يشغل عن الاهتمام بالمصائب، ويجاهد نفسه على تجديد قوته المقاومة للمكاره، مع اعتماده في ذلك على الله وحسن الثقة به، ولا ريب أن لهذه الأمور فائدتها العظمى في حصول السرور وانشراح الصدور، مع ما يؤمله العبد من الثواب العاجل والآجل، وهذا مشاهد مجرب، ووقائعه ممن جربه كثيرة جداً.

فصل

١١ ـ ومن أعظم العلاجات لأمراض القلب العصبية، بل وأيضاً للأمراض البدنية: قوة القلب وعدم انزعاجه وانفعاله للأوهان والخيالات التي تجلبها الأفكار السيئة؟ لأن الإنسان متى استسلم للخيالات وانفعل قلبه للمؤثرات: من الخوف من الأمراض وغيرها، ومن الغضب والتشوش من الأسباب المؤلمة، ومن توقع حدوث المكاره وزوال المحاب، أوقعه ذلك في الهموم والغموم والأمراض القلبية والبدنية، والانهيار العصبي الذي له آثاره السيئة التي قد شاهد الناس مضارها الكثيرة.

١٢ ـ ومتى اعتمد القلب على الله، وتوكل عليه، ولم يستسلم للأوهام ولا ملكته الخيالات السيئة، ووثق بالله وطمع في فضله، اندفعت عنه بذلك الهموم والغموم، وزالت عنه كثير من الأسقام البدنية والقلبية، وحصل للقلب

من القوة والانشراح والسرور ما لا يمكن التعبير عنه فكم ملئت المستشفيات من مرضى الأوهام والخيالات الفاسدة، وكم أثرت هذه الأمور على قلوب كثير من الأقوياء، فضلاً عن الضعفاء، وكم أدت إلى الحمق والجنون، والمعافى من عافاه الله ووفقه لجهاد نفسه لتحصيل الأسباب النافعة المقوية للقلب، الدافعة لقلقه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق: ٣]. أي كافية جميع ما يهمه من أمر دينه ودنياه[١].

فالمتوكل على الله قوي القلب لا تؤثر فيه الأوهام، ولا تزعجه الحوادث لعلمه أن ذلك من ضعف النفس، ومن الخور والخوف الذي لا حقيقة له، ويعلم مع ذلك أن الله قد تكفل لمن توكل عليه بالكفاية التامة، فيثق بالله ويطمئن لوعده، فيزول همه وقلقه، ويتبدل عسره يسراً، وترحه[٢] فرحاً، وخوفه أمناً، فنسأله تعالى العافية وأن يتفضل علينا بقوة القلب وثباته بالتوكل الكامل الذي تكفل الله لأهله بكل خير ودفع كل مكروه وضير[٣].

---

(١) قال شيخنا السعدي رحمه الله في ختام كتابه (بهجة قلوب الأبرار):
فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله ولا ييأس من روح الله، ولا يكون نظره مقصوراً على الأسباب الظاهرة بل يكون ملتفتاً في قلبه كل وقت إلى مسبب الأسباب الكريم الوهاب ويكون الفرج بين عينيه، ووعده الذي لا يخلفه، بأنه سيجعل له بعد عسر يسراً، وأن الفرج مع الكرب، وأن تفريج الكربات مع شدة الكربات وحلول المفظعات.
فالمؤمن من يقول في هذه الأحوال: (لا حول ولا قوة إلاَّ بالله) و (حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا، اللهم لك الحمد، وإليك المشتكي وأنت المستعان وبك المستغاث ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم). ويقوم بما يقدر عليه من الإيمان والنصح والدعوة ويقنع باليسير إذا لم يمكن الكثير، وبزوال بعض الشر وتخفيفه، إذا تعذر غير ذلك.
﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].
﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].
﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

(٢) الترح: الحزن.
(٣) الضير: الضرر.

فصل

١٣ ـ وفي قول النبي ﷺ: **«لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر»**[١] فائدتان عظيمتان.

إحداهما: الإرشاد إلى معاملة الزوجة والقريب والصاحب والمعامل، وكل من بينك وبينه عَلَقَة واتصال، وأنه ينبغي أنه توطن نفسك على أنه لا بد أن يكون فيه عيب أو نقص أو أمر تكرهه؛ فإذا وجدت ذلك، فقارن بين هذا وبين ما يجب عليك أو ينبغي لك من قوة الاتصال والإبقاء على المحبة، بتذكر ما فيه من المحاسن، والمقاصد الخاصة والعامة، وبهذا الإغضاء عن المساوىء وملاحظة المحاسن، تدوم الصحبة والاتصال وتتم الراحة وتحصل لك.

الفائدة الثانية: وهي زوال الهم والقلق، وبقاء الصفاء والمداومة على القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة: وحصول الراحة بين الطرفين، ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبي ﷺ بل عكس القضية فلحظ المساوىء، وعمي عن المحاسن، فلا بد أن يقلق، ولا بد أن يتكدر ما بينه وبين من يتصل به من المحبة، ويتقطع كثير من الحقوق التي على كل منهما المحافظة عليها.

وكثير من الناس ذوي الهمم العالية يوطنون أنفسهم عند وقوع الكوارث والمزعجات على الصبر والطمأنينة. لكن عند الأمور التافهة البسيطة يقلقون، ويتكدر الصفاء، والسبب في هذا أنهم وطنوا نفوسهم عند الأمور الكبار، وتركوها عند الأمور الصغار فضرتهم وأثرت في راحتهم فالحازم يوطن نفسه على الأمور القليلة والكبيرة ويسأل الله الإعانة عليها، وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين فعند ذلك يسهل عليه الصغير، كما سهل عليه الكبير. ويبقى مطمئن النفس ساكن القلب مستريحاً.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٣٦٣٣)، وانظر شرح الحديث في كتاب شيخنا السعدي بهجة قلوب الأبرار (ص ٩٧).

فصل

١٤ ـ العاقل يعلم أن حياته الصحيحة حياة السعادة والطمأنينة وأنها قصيرة جدّاً، فلا ينبغي له أن يقصرها بالهم والاسترسال مع الأكدار فإن ذلك ضد الحياة الصحيحة، فيشح بحياته أن يذهب كثير منها نهباً للهموم والأكدار ولا فرق في هذا بين البر والفاجر، ولكن المؤمن له من التحقق بهذا الوصف الحظ الأوفر، والنصيب النافع العاجل والآجل.

١٥ ـ وينبغي أيضاً إذا أصابه مكروه أو خاف منه أن يقارن بين بقية النعم الحاصلة له دينية أو دنيوية. وبين ما أصابه من مكروه فعند المقارنة يتضح كثرة ما هو فيه من النعم، واضمحلال ما أصابه من المكاره.

وكذلك يقارن بين ما يخافه من حدوث ضرر عليه، وبين الاحتمالات الكثيرة في السلامة منها فلا يدع الاحتمال الضعيف يغلب الاحتمالات الكثيرة القوية وبذلك يزول همه وخوفه، ويقدر أعظم ما يكون من الاحتمالات التي يمكن أن تصيبه، فيوطن نفسه لحدوثها إن حدثت، ويسعى في دفع ما لم يقع منها وفي رفع ما وقع أو تخفيفه.

١٦ ـ ومن الأمور النافعة أن تعرف أن أذية الناس لك وخصوصاً في الأقوال السيئة، لا تضرك، بل تضرهم، إلاّ إن أشغلت نفسك في الاهتمام بها، وسوغت لها أن تملك مشاعرك، فعند ذلك تضرك كما ضرتهم، فإن أنت لم تضع لها بالاً لم تضرك شيئاً.

١٧ ـ واعلم أن حياتك تبع لأفكارك، فإن كانت أفكاراً فيما يعود عليك نفعه في دين أو دنيا فحياتك طيبة سعيدة، وإلاّ فالأمر بالعكس.

١٨ ـ ومن أنفع الأمور لطرد الهم أن توطن نفسك على أن لا تطلب الشكر إلاّ من الله، فإذا أحسنت إلى من له حق عليك أو من ليس له حق، فاعلم أن هذه معاملة منك مع الله. فلا تبال بشكر من أنعمت عليه كما قال تعالى في حق خواص خلقه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [سورة الإنسان: ٩].

ويتأكد هذا في معاملة الأهل والأولاد ومن قوي اتصالك بهم فمتى وطنت نفسك على إلقاء الشر عنهم، فقد أرحت واسترحت ومن دواعي الراحة أخذ الفضائل والعمل عليها بحسب الداعي النفسي دون التكلف الذي يقلقك، وتعود على أدراجك خائباً من حصول الفضيلة، حيث سلكت الطريق الملتوي، وهذا من الحكمة، وأن تتخذ من الأمور الكدرة أموراً صافية حلوة وبذلك يزيد صفاء اللذات، وتزول الأكدار.

١٩ ـ اجعل الأمور النافعة نصب عينيك واعمل على تحقيقها[١]، ولا تلتفت إلى الأمور الضارة لتلهو بذلك عن الأسباب الجالبة للهم والحزن واستعن بالراحة وإجماع النفس على الأعمال المهمة.

٢٠ ـ ومن الأمور النافعة حسم الأعمال في الحال والتفرغ في المستقبل لأن الأعمال إذا لم تحسم اجتمع عليك بقية الأعمال السابقة، وانضافت إليها الأعمال اللاحقة، فتشتد وطأتها، فإذا حسمت كل شيء بوقته أتيت الأمور المستقبلة بقوة تفكير وقوة عمل.

٢١ ـ وينبغي أن تتخير من الأعمال النافعة الأهم فالأهم، وميز بين ما تميل نفسك إليه وتشتد رغبتك فيه، فإن ضده يحدث السآمة والملل والكدر، واستعن على ذلك بالفكر الصحيح والمشاورة، فما ندم من استشار، وادرس ما تريد فعله درساً دقيقاً، فإذا تحققت المصلحة وعزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين.

والحمد لله رب العالمين.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في فوائد الفوائد (ص ٤٥٨):
«أعظم الربح في الدنيا أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها وأنفع لها في معادها». وقال رحمه الله (ص ٤٧٠): «أعلى الهمم همة من استعد صاحبها للقاء الحبيب، وقدم التقادم بين يدي الملتقى فاستبشر الرضا عند القدوم، ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]».

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الفصل الرابع

من خطب الشيخ السعدي عن الحياة الطيبة

خطبة

في الحياة الطيبة

الحَمْدُ للَّهِ الربِّ الغفورِ، العفوِّ الرؤوفِ الشكورِ، الذي وفَّقَ مَنْ شاءَ من عبادِهِ لتَحْصيل المكاسِبِ والأجورِ، وجعَلَ شُغْلَهُمْ بتحقيقِ الإيمانِ والعمَلِ الصالح يرجون تجارةً لنْ تبورَ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلاَّ الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ الذي بيدِه تصاريف الأمورِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُهُ أفضلُ آمرٍ وأجلُّ مأمورٍ، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارِكْ على محمدٍ وعلى آله وأصحابِه والتابعينَ لهُم بإحْسانٍ إلى يومِ البعثِ والنُّشور.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناس اتَّقوا اللَّهَ تعالى وذلك بالقيام بحقوقِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ فرضِها ونفْلِها. قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1] [سورة النحل: ٩٧].

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

ضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا الحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين.

[الجواب الكافي (ص ١٧٧)]

وقال رحمه الله تعالى:

ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، ومن طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفة، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة، فهو =

فوعَدَ مَنْ جَمعَ بَيْنَ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ بالحياةِ الطَّيِّبةِ في هذه الدارِ، وبالأجْرِ العظيمِ والثوابِ الجزيلِ في دارِ القرارِ، أمَّا الإيمان فهو الإقرارُ والاعترافُ بأصولِهِ المبْني على العِلْمِ واليَقينِ، والإذعانِ المقْتضي للعَمَلِ الصَّالحِ وهو القيامُ بحقوقِ اللَّهِ أو حقوقِ الوالدينِ والأقاربِ والأصحابِ وذوي الحقوقِ والجيرانِ، فكلُّ واجبٍ ومُسْتَحبٌّ فهو داخلٌ في العمل الصَّالح، ويدخل في ذلك تركُ الفسوقِ وجميعِ القبائحِ؛ فمَنْ قامَ بذلك فَلْيَبشر بالحياةِ الطَّيِّبةِ فهو المفلحُ النَّاجحُ، لا تحسبنَّ الحياةَ الطَّيِّبَةَ مجرَّدَ التمتُّعِ بالشَّهواتِ، ولا الإكثارَ من عَرَضِ الدُّنيا وتشييدِ المنازِلِ المزخرفاتِ، إنما الحياة الطَّيِّبة راحةُ القلوبِ وطمأنينتُها، والقناعةُ التَّامَّةُ برزقِ اللَّهِ وسُرورُها بذكرِ اللَّهِ وبهجتُها، وانصباغُها بمكارم الأخْلاقِ وانشراحِ الصدورِ وسعتِها، لا حياةَ طيِّبةً لغيرِ الطائعينَ، ولا لذَّةَ حقيقةً لغير الذاكرينَ، ولا راحةَ ولا طمأنينة قلبٍ لغيرِ المكتفينَ لرزْقِ اللَّهِ القانعينَ، ولا نعيماً صحيحاً لغيرِ أهْلِ الخُلُقِ الجَّميلِ والمحسنينَ، لقدْ قالَ أمثال هؤلاء الأخيارِ: لو علِمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه من لذَّة الأنسِ باللَّهِ لجالدُونا بالسيوفِ عليه، ولو ذاقَ أربابُ الدُّنيا ما ذقناهُ مِنْ حلاوةِ الطَّاعةِ لغَبَطونا وزاحمُونا عليه، ما ظنك بِمَنْ يُمْسي ويُصبحُ ليس لَهُ همٌّ سوى طاعَةِ مولاهُ، ولا يخشى ولا يرجُو ولا يتعَلَّقُ بأحدٍ سواهُ، إنْ أُعطي شكرَ، وإنْ مُنِعَ صبَر، وإذا أذْنبَ استغْفَر وتابَ مما جناهُ، هذا واللَّهِ النعيمُ الذي مَنْ فاتَهُ فهو المغبون، وهذه الحياةُ الطَّيِّبةُ الَّتي لمثْلها يَعْملُ العاملون، أيُّ نعيم لمن قلبُه يغلي بالخطايا والشهوات؟ وأيّ سرورٍ لمن يَتَلَهَّبُ فؤادُه بِحُبّ الدُّنيا وهو ملآنُ من الحسراتِ؟ وأيُّ راحةٍ لمنْ فاتَهُ عيشُ القانعينَ؟ وأيُّ حياةٍ لِمَنْ تعلَّقَ قلبُهُ بالمخلوقينَ؟ وأيُّ

= صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هماً واحداً في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش وبه يمشي وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث.
[الجواب الكافي (ص ٢٧٧، ٢٧٨)]

عاقبةٍ وفلاح لِمن انقطَعَ عن ربِّ العالمين؟ ومعَ ذلك لا يرجُو العقْبى وثواب العامِلينَ باللهِ. لقدْ فازَ الموفقُون بعزِّ الدُّنيا والآخرة، ورجعَ أهْلُ الدَّناءةِ بالصَّفْقَةِ الخاسرةِ.

خطبة

في صفة السابقين إلى الخيرات

الحمد لله الذي مَنَّ على من شاء من عباده بفعل الخيرات وترك المنكرات.

وأشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وحدَه، لا شريك له، كامل الأسماء والصفات.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه أشرفُ المخلوقات.

اللَّهم صَلِّ وسلِّم على محمدٍ وعلى آله وأصحابه، والتابعينَ لهم في الأقوال والأفعال والاعتقادات.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله بتصديق خبره وامتثال أمره واجتناب نهيه، فقد وصف الله الأخيار من خلقه بهذه الصفات. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٥٧-٦١].

وَصَفَهم بكمال الإيمانِ به وبآياته، وبالإخلاص الكاملِ وتركِ الشِّرك من جميعِ جهاته، وبالوَجَل والخَشْية من علاَّم الغيوب، به يُؤَدُّون الحقوق وَيَدَعُونَ الذنوب؛ أولئك الذين سارَعوا إلى كل خَيرٍ فَسَبقوا، وأولئك الذين نافَسُوا في كل فضيلة فأدركوا. قال رسول الله ﷺ حين سئل عنهم: «**هم الذين يُصَلُّون ويصومون ويَتَصَدَّقون ويحجُّون ويُعْتِقُون ويخافون أن لا يُتَقَبَّلَ منهم**»[1] فقد

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣٤٠١)، وابن ماجه في سننه برقم (٤١٩٨)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي رقم (٣٥٣٧).

جمعوا بين القيام بأحسن الأعمال وبين الوَجَل والخَشْية من ذي الجلال، أولئك الذين آمنوا بربهم وعرفوا ما له من الحقوق والواجبات، فاجتهدوا في أَدَائها وتحقيقها، وحَذِرُوا من التقصير والهفوات، وقاموا بشروط التوبة من الندم على ما مضى والإقلاع عن المحارم، وعزموا عزماً جازماً على ترك المآثم والمظالم، وسارعوا إلى ربهم بين الخوف من عقابه وعدله، وبين الرجاء والطمع في ثوابه وفضله، فالخوف يَرْدَعُهم عن المعاصي، والتقصير والرَّجاء يحثُّهم على الطاعة ويطيب لهم المسير، والله مرادُهم ومقصودُهم، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، والرسول إمامهم وقائدهم وهو البشير النذير والسراج المنير، فهؤلاء هم السادة الأبرار، وأولئك هم المتقون الأخيار. مَنَّ الله عليَّ وعليكم بهذه الصفات الجميلة، وحَفِظَنَا من كل خصلة رذيلة، إنه جواد كريم، رؤوف رحيم.

اللآلىء والدرر السعدية

(الدعوة)

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

«فإن الدعوة إلى الله تعالى دعوة خير وحق لأنها دعوة إلى العدل والإحسان، دعوة إلى ما تقتضيه الفطر السليمة وتستحسنه العقول الخالصة وتركن إليه النفوس الزكية.

فهي دعوة إلى الإيمان بالله تعالى وإلى كل عقيدة سليمة يطمئن إليها القلب وينشرح بها الصدر، دعوة إلى توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

دعوة إلى اليقين بأنه سبحانه واحد في ربوبيته لا شريك له فلا خالق ولا مدبر ولا متصرف في هذا الكون تصرفاً مطلقاً إلاَّ الله وحده، وبهذا اليقين ينقطع تعلق القلب بغير الله تعالى، ويكون الخوف والرجاء والتوكل خاصّاً بالله عز وجل.

دعوة إلى اليقين بأنه لا حاكم على العباد ولا بين العباد إلاَّ الله وحده فيما يقضي به من أقدار وما ينزله من شرائع. وبهذا اليقين ينقطع التحاكم إلى غير شرع الله وينبذ كل حكم خالف حكم الله ورسوله، لأن كل حكم خالف ذلك فهو ظلم وباطل نتيجته فساد البلاد والعباد ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: ٥٠].

وبهذا اليقين يذعن العباد لأحكام الله الشرعية وينفذونها على ما أراد الله بها سواء وافقت أهواءهم أم خالفتها، كما أنهم مذعنون لأحكام الله القدرية فقضاؤه نافذ فيهم، وهم مستسلمون له رضوا ذلك أم كرهوه: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة آل عمران: ٨٣].

والدعوة إلى الله تعالى دعوة إلى عبادة الله وحده إيماناً ويقيناً بأنه لا يستحق العبادة أحد سواه لا ملك ولا نبي ولا ولي ولا غيرهم، لأن الله هو الخالق وحده، فيجب أن يكون هو المعبود وحده.

والدعوة إلى الله دعوة إلى الإيمان الحازم بكل ما ثبت لله تعالى من أسماء أو صفات من طريق كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ وأنها كلها صفات حقيقية ثابتة له على الوجه اللائق به من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١].

والدعوة إلى الله تعالى دعوة إلى اتباع الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، صراط الله الذي وضعه لعبادة موصلاً إليه ومصلحاً لأمر دينهم ودنياهم، وبهذا الاتباع تنقطع طرق الابتداع التي يضلل مبتدعوها بعضهم بعضاً وتتفرق بهم الأهواء عن

دين الله، ويتبعون غير ما أمرهم به مولاهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣]. ويقعون فيما نهاهم الله عنه من التفرق حيث يقول سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [سورة الشورى: ١٣].

والدعوة إلى الله تعالى دعوة إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، وحفظ الحقوق، وإقامة العدل بين الناس بإعطاء كل ذي حق حقه وتنزيله من المنازل فيما استحقه، وبذلك يتحقق الإخاء والمودة بين المؤمنين، ويستتب الأمن التام والنظام الكامل داخل إطار شريعة الله سبحانه وتعالى، وتضمحل كل الأخلاق السافلة والأعمال السيئة والنظم الجاهلية المستمدة من القوانين الوضعية والعقائد الباطلة، ويذل كل من قاموا بها ودعوا إليها وأرادوا صد عباد الله عن سبيله إليها.

ومن أجل هذه الأمور وأضعافها وأضعاف أضعافها من المصالح ودرء المفاسد، صار للدعوة إلى الله تعالى مقام عظيم في الإسلام، وصار القائمون بها وارثين للرسل الكرام في ذلك: وجاءت في الأمر بها وبيان فضلها نصوص الكتاب والسنة»[1].

وبين يديك أخي الكريم درراً نفيسة، ولآلىء غالية، وجواهر قيمة من لسان وقلم شيخ لطالما قضى عمره في الدعوة إلى الله تعالى نصحاً وإرشاداً وتبليغاً وتدريساً... إلخ - في بلده القصيم خاصة وفي المملكة كلها عامة، ألا وهو الشيخ العلامة الفقيه الأصولي عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله رحمةً واسعة ونور عليه قبره وجعل الفردوس مثواه - حول الدعوة إلى الله تعالى وفضلها وآدابها، وتوجيهات ونصائح للدعاة إلى الله تعالى، وقد جمعتها من

---

(١) هذه الكلمات الذهبية من كلام والدنا وشيخنا والعزيز على قلوبنا سماحة الوالد الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنة - من كتابه القيم الصحوة الإسلامية (ص ٨٥ - ٨٧).

كلام فضيلته رحمه الله تعالى في كتبه المنوعة، وجعلتها في كتاب يسهل تناوله والانتفاع به إن شاء الله تعالى، وأسميته:

اللآلىء والدرر السعدية

(الدعاء)

وأضفت إليه تعليقات نفيسة من كلام شيخنا سماحة الوالد العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنة.

هذا وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني عملي هذا، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه، كما أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يرحم شيخنا السعدي وعلماءنا رحمة واسعة، وأن يجعل مثواه ومثواهم الجنة وأن يغفر لجميع المسلمين والمسلمات، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

عامله الله بلطفه الخفي

الفصل الأول

الآيات التي تحث على الدعوة إلى اللَّه تعالى وآدابها وتفسير شَيخنا السعدي لها

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الآية الأولى:

يقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾(١) [سورة النحل: ١٢٥].

---

(١) قال شيخنا سماحة الوالد الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنة:

من الأمور المهمة جدّاً أيضاً مسألة الحكمة في الدعوة إلى الله، وأخص بها شباب الصحوة الإسلامية. وما أمرّ الحكمة على غير ذي الحكمة.

والدعوة إلى الله تكون على مراتب أربع: أولاً: بالحكمة. ثانياً: بالموعظة الحسنة. ثالثاً: بالجدال بالتي هي أحسن لغير الظالم. رابعاً: بالفعل الرادع للظالم.

والدليل على هذه المراتب قول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٦].

إن الحكمة: إتقان الأمور وإحكامها بأن تنزل الأمور منازلها وتوضع في مواضعها وليس من الحكمة أن تتعجل وتريد من الناس أن ينقلبوا عن حالهم التي هي عليها إلى الحال التي كان عليها الصحابة بين عشية وضحاها، ومن أراد ذلك فهو سفيه في عقله بعيد عن الحكمة؛ لأن حكمة الله عز وجل تأبى أن يكون هذا الأمر، ويدلك لهذا أن محمداً رسول الله ﷺ وهو الذي ينزل عليه الكتاب نزل عليه الشرع متدرّجاً حتى استقر في النفوس وكمل.

فرضت الصلاة في المعراج قبل الهجرة بثلاث سنوات، وقيل سنة ونصف، وقيل خمس سنين، على خلاف بين العلماء في هذا.. ومع هذا لم تفرض على وضعها الآن، أوّل ما فرضت كانت ركعتين للظهر والعصر والعشاء والفجر، وكانت المغرب ثلاثاً لأجل أن تكون وتراً للنهار، وبعد الهجرة، وبعد أن أمضى رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة زيدت صلاة الحضر فصارت أربعاً في الظهر والعصر والعشاء، وبقيت صلاة الفجر على ما هي عليه؛ لأنها تطول فيها القراءة وبقيت المغرب ثلاثاً؛ لأنها وتر النهار.

والزكاة فرضت في السنة الثانية من الهجرة وفرضت في مكة، لكنها لم تقدر تقديراً في انصبائها وواجبها، ولم يبعث النبي ﷺ السعاة لأخذ الزكاة إلاّ في السنة التاسعة من الهجرة، فكان تطور الزكاة على ثلاث مراحل: =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أي ليكن دعاؤك للخلق، مسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح. ﴿**بالحكمة**﴾ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده.

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبَدْأَة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة وإلاَّ فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل.

فإن كان المدعو، يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل

= **المرحلة الأولى**: في مكة ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ولم يبين الواجب ولا مقدار ما يجب فيه ذلك الواجب، وجعل الأمر موكولاً إلى الناس.

المرحلة الثانية: وفي السنة الثانية من الهجرة بُيِّنت الزكاة بأنصبائها.

المرحلة الثالثة: وفي السنة التاسعة من الهجرة صار النبي ﷺ يبعث السُّعاة إلى أهل المواشي والثمار لأخذها.

فتأمل مراعاة أحوال الناس في تشريع الله عز وجل وهو أحكم الحاكمين.

وكذلك في الصيام لا يخفى علينا أنه تطور في تشريعه، فكان أول ما فرضه الله، يخيِّر الإنسان بين أن يصوم أو يطعم، ثم تعين الصيام وصار الإطعام لمن لا يستطيع الصوم على وجه مستمر.

أقول: إن الحكمة تأبى أن يتغير العالم بين عشية وضحاها، فلا بد من طول النفس، وتقبل من أخيك الذي تدعوه ما عنده اليوم من الحقّ، وتدرّج معه شيئاً فشيئاً حتى تنتشله من الباطل، ولا يكن الناس عندك على حدّ سواء، فهناك فرق بين الجاهل والمعاند.

[الصحوة الإسلامية (ص ٣٥، ٣٧)]

فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المطالبة ونحوها.

وقوله: **﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾**، أي أعلم بالسبب الذي أداه إلى الضلال ويعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها.

﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم، ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٩٢)]

الآية الثانية:

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[1] [سورة يوسف: ١٠٨].

---

(١) قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى:
إن الدعوة إلى الله تعالى على غير علم خلاف ما كان عليه النبي ﷺ، ومن اتبعه واستمعوا إلى قول الله تعالى آمراً نبيه ﷺ حيث قال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]. فقال: أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني إلى أن من اتبعه ﷺ فإنه لا بد أن يدعو إلى الله على بصيرة لا على جهل. وتأمل أيها الداعية إلى الله قوله تعالى: ﴿على بصيرة﴾ فيجب على الداعية أن يكون على بصيرة في ثلاثة أمور:

أولاً: أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه:
بأن يكون عالماً بالحكم الشرعي في الذي يدعو إليه، لأنه قد يدعو إلى شيء يظنّ أنه واجب وهو في الشرع غير واجب، فَيُلْزِمَ عباد الله بما لم يلزمهم الله به، وقد يدعو إلى ترك شيء يظن أنه محرم، وهو في دين الله غير محرم، فَيُحَرِّمَ على عباد الله ما أحله الله لهم. =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ للناس ﴿هذه سبيلي﴾ أي طريقتي

= لقد سمعنا من يدعو الناس إلى نبذ كل جديد، ولو كان هذا الشيء الجديد مما تدعو الحاجة إليه، وليس فيه مضرّة شرعية.

فمثلاً يقول: لا تستمع إلى القرآن من المسجل؟! لماذا؟

قال: لأنّ هذا لم يكن معروفاً في عهد النبي ﷺ وأصحابه، فيكون بدعة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**كلّ بدعة ضلالة**» [جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (٨٦٧)].

فهذا دعا إلى الله، ولكن على غير بصيرة فيما يدعو إليه، لأنّ هذا المسجل وسيلة لحفظ القول المسموع والوسائل ليست كالمقاصد، الوسائل لها أحكام المقاصد.

ولهذا: هل كان في عهد النبي ﷺ مكتبات ومطابع تطبع الكتب، وَخِزَانَات ومستودعات للكتب؟ الجواب: لا. بل لم يكن في عهد النبي ﷺ تأريخ، فأوّل مَنْ وضع التأريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة السادسة عشرة، فهل نقول الآن: إنّ استعمال التأريخ بدعة ولا يجوز؟ لا.

وعلى العكس من ذلك، هناك من يغالي في مثل هذه الأمور، كأن يقول: ضعوا شريطاً مسجلاً فيه الأذان عند الميكرفون، ودعوه يؤذن، فهذا على العكس من الأول، فهذا لا يُريد منّا أن نتعبد لله تعالى بالأذان، وإنّما يُريد أن نجعل هذه الأسطوانة. ليسمع الناس صوت مؤذن قد يكون قد مات، فهذا خطأ أيضاً.

كذلك بعض الناس يتوهم أن شيئاً من الأمور واجب، وربما يعتقد ذلك بناء على اجتهاد خاطىء من عنده، وليته يقتصر على هذا، ولكنه يجعل من هذا الاعتقاد المبني على تأويل أو على شبهة لا أصل لها يجعل منه وسيلة للولاء، وهذه هي المشكلة!! فإذا لم يوافقه إنسان على رأيه. وإن كان رأيه خاطئاً بمقتضى أدلة الكتاب والسنة، كره هذا الرّجل وأبغضه، وإذا وافقه على رأيه أحبه، وإن كان عند هذا الرجل الذي وافقه على رأيه من البدع ما عنده، لكنه لمّا وافقه على رأيه صار محبوباً إليه، وهذه هي المشكلة!!

ولا أحبّ أن أضع النقط على الحروف في هذه المسألة بالذات، لكنها معلومة عند كثير من الشباب، فإن بعض الشباب صاروا يوالون فلاناً ويتبرأون من فلان، فيوالون فلاناً لأنه أفتاهم بما يعتقدون أنه الحق، ويتبرأون من فلان؛ لأنه أفتاهم بما يظنون أنه ليس هو الحقّ، وهذا خطأ.

فالإنسان المفتي لا يُفتي لأجل أن يُمدح عند الناس، أو يكون محبوباً عندهم أو مكروهاً، إنما يُفتي بحسب ما يظن أن هذا هو شرع الله؛ لأن المفتي يُعبر عن دين الله=

التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله، وإلى دار كرامته، والمتضمنة للعلم بالحق والعمل به، وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له.

= عز وجل وعن أحكامه، ولهذا يجب على المفتي أن يعرف أين يضع قدمه قبل أن يضعها، فيجب أن يعلم أن هذا هو الشّرع، قبل أن يفتي به، لأنه معبر عن شريعة الله.

ثانياً: أن يكون على بصيرة بحال المدعو:

لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن، قال له: **«إنك تأتي قوماً أهل كتاب»** [جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (١٣٩٥)]. أخبره بذلك ليعرف حالهم ويستعدّ لهم.

أتأتي لشخص تدعوه وأنت لا تعرف حاله؟

ربما يكون هذا الشخص عنده من العلم بالباطل ما يوقفك في أوّل الطريق، وإن كنت على حقّ.

إذاً لا بدّ أن تعلم حال هذا المدعو.. ما مستواه العلمي؟ وما مستواه الجدلي؟

حتى تتأهل له فتناقشه وتجادله، لأنك إذا دخلت مع مثل هذا في جدال، وكان الأمر عليك لقوة جدله، صار في هذا نكبة عظيمة على الحق، وأنت سببها، ولا تظنّ أن صاحب الباطل يخفق في كل حال، فإنّ الرسول ﷺ قال: **«إنكم تختصمون إلي، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»** [أخرجه البخاري برقم (٢٦٨٠)]. فهذا يدل على أن المخاصم وإن كان بباطل، قد يكون ألحن بحجته من الآخر، فيُقضى بحسب ما تكلّم به هذا المخصم، والحاصل أنه لا بد أن تكون أيها الداعية عالماً بحال المدعو.

ثالثاً: أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة:

وهذه يفقدها بعض الدعاة، تجد عنده من الغيرة والحماس والاندفاع شيئاً كثيراً لا يستطيع معه أن يمنع نفسه مما يريد أن ينفذه، فيدعو إلى الله بغير حكمة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

لكن هذا الإنسان الدّاعية الطيب الذي ملأ الله قلبه غيرة على دينه، لا يملك نفسه، فيجد المنكر فيهجم عليه هجوم الطير على اللحم، ولا يفكر في العواقب الناتجة عن ذلك، لا بالنسبة له وحده، ولكن بالنسبة له ولنظرائه من الدعاة إلى الحق، لأنكم تعرفون أن للحقّ أعداء، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]. فكل دعوة نبيّ لها عدوّ من المجرمين. =

﴿أدعو إلى الله﴾ أي أَحُثُّ الخلق والعباد على الوصول إلى ربهم، وأرغبهم في ذلك وأرهبُهُم مما يبعدهم عنه.

ومع هذا فأنا ﴿على بصيرة﴾ من ديني أي على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية ﴿أنا﴾ وكذلك ﴿من اتبعني﴾ يدعو إلى الله كما أدعوه على بصيرة من أمره. ﴿وسبحان الله﴾ عما ينسب إليه، مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله. ﴿وما أنا من المشركين﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله، مخلصاً له الدين.

[تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٤٠)]

الآية الثالثة:

يقول الله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الحج: ٦٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ أي لا ينازعنك المكذبون لك، ويعترضوا على بعض ما جئتهم به بعقولهم الفاسدة مثل منازعتهم في حل الميتة بقياسهم الفاسد يقولون: (تأكلون ما قتلتم ولا تأكلوه ما قتل الله)، وكقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، ونحو ذلك من اعتراضاتهم التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها بل لكل مقام مقال. فصاحب هذا الاعتراض المنكر لرسالة الرسول إذا زعم أنه يجادل ليسترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلاَّ فالاقتصاد على هذه، دليل على أن مقصوده، العنت والتعجيز.

= لذا يجب على الداعية قبل أن يتحرك، أن ينظر إلى النتائج، ويقيس الأمور، فقد يكون في تلك السَّاعة ما يطفيء لهيب غيرته فيما صنع، لكن بالتأني والحكمة سيخمد هذا الفعل نار غيرته وغيرة غيره في المستقبل، وقد يكون في المستقبل القريب دون البعيد.

[الصحوة الإسلامية (ص ٢٥ـ ٢٩)]

ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك سواء اعترض المعترضون أم لا.

وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء لأنك: ﴿**على هدى مستقيم**﴾ أي معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به فأنت على ثقة من أمرك ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك ولست على أمر مشكوك فيه، أو حديث مفترى، فتقف مع الناس، ومع أهوائهم، وآرائهم، ويوقفك اعتراضهم.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٣٨)]

الآية الرابعة:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٧٣، ٧٤].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿**وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم**﴾ أي أن الذي تدعوهم إليه صراط مستقيم سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود من قرب، حنيفية سمحة، حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم توجب لمن يريد الحق أن يتبعك. لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه وموافقته للمصالح فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك لأنهم ﴿**عن الصراط لناكبون**﴾ متجنبون منحرفون عن الطريق الموصل إلى الله وإلى دار كرامته ليس في أيديهم إلاَّ ضلالات وجهالات وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفاً في جميع أموره.

[تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٦٦)]

الآية الخامسة:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ

إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٣ـ ٣٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي: لا أحد أحسن قولاً، أي: كلاماً وطريقة، وحالة **﴿ممن دعا إلى الله﴾** بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله، بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه. خصوصاً من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ومن الدعوة إلى الله، تحبيبه إلى عباده، بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله، الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله، وسنة رسوله، والحث على ذلك، بكل طريق موصل إليه. ومن ذلك، الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين. ومن ذلك، الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم، والعوارض، والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك، مما لا تنحصر أفراده، بما تشمله الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: **﴿وعمل صالحاً﴾** أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح، الذي يُرْضِي ربه.

﴿وقال إنني من المسلمين﴾ أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه.

وهذه المرتبة، تمامها للصديقين، الذين عملوا على تكميل أنفسهم، وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل. كما أن من أشر

الناس، قولاً، من كان من دعاة الضلال السالكين لسبله. وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، اللتين ارتفعت إحداهما إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى، إلى أسفل سافلين، مراتب، لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

يقول تعالى: **﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾** أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات، لأجل رضا الله تعالى، وفعل السيئات والمعاصي، التي تسخطه ولا ترضيه. ولا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم أمر بإحسان خاص، له وقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك فقال: **﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾** أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً من له حق كبير عليك، كالأقارب، والأصحاب، ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه. فإن قطعك فَصِلْهُ، وإن ظلمك، فاعف عنه، وإن تكلم فيك ، غائباً أو حاضراً، فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين. وإن هجرك، وترك خطابك، فطَيِّبْ له الكلام، وابذل له السلام. فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة.

﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ أي: كأنه قريب شفيق.

﴿وما يلقاها﴾: أي وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة **﴿إلاَّ الذين صبروا﴾** نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله. فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان؟!!

فإذا صبر الإنسان نفسه، وامتثل أمر ربه، وعرف جزيل الثواب وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله، لا تفيده شيئاً، ولا تزيد العداوة إلاَّ شدة، وأن إحسانه إليه، ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك، متلذذاً مستحلياً له.

﴿وما يلقاها إلاَّ ذو حظ عظيم﴾ لكونها من خصال خواص الخلق، التي

ينال بها العبد، الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٩٧ـ ٣٩٩)]

الآية السادسة:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾ [سورة الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

هذه الأشياء، التي وصف بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من رسالته، وزبدتها وأصولها، التي اختص بها وهي خمسة أشياء:

أحدها: كونه ﴿**شاهداً**﴾ أي: شاهداً على أمته بما عملوه، من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [سورة البقرة: ١٤٣] ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [سورة النساء: ٤١] فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني، والثالث: كونه ﴿**مبشراً ونذيراً**﴾، وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر، وما يبشر به وينذر، والأعمال الموجبة لذلك.

فالمبشَّرون: المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي، لهم البشرى في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي وديني، رتب على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم. وذلك كله يستلزم، ذكر تفصيل المذكور، من تفاصيل الأعمال، وخصال التقوى، وأنواع الثواب.

والْمُنْذَرون، هم: المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية، المترتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى، بالعقاب الوبيل، والعذاب الطويل، وهذه الجملة تفصيلها، ما جاء به ﷺ، من الكتاب والسنة، المشتمل على ذلك.

الرابع: كونه ﴿**داعياً إلى الله**﴾ أي: أرسله الله، يدعو الخلق إلى ربهم، ويشوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته، التي خلقوا لها. وذلك يستلزم استقامته، على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم، بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام.

وذلك كله ﴿**بإذنه**﴾ تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه ﴿**سراجاً منيراً**﴾، وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدي به في ظلماتها، ولا علم، يستدل به في جهلاتها. حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضُلالا إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة، قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به، لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة وأحكامه الرشيدة.

الآية السابعة:

يقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[1] [سورة آل عمران: ١٠٤].

---

(١) قال شيخنا سماحة الوالد الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى:
مقام الداعي مقام قيادي هام ينبغي أن يقدره قدره، ويوليه عنايته، ولكي يتحقق ذلك فليراع ما يأتي:
١ ـ **الإخلاص لله تعالى في عمله**: بحيث يقصد بدعوته التقرب إلى الله عز وجل ونصر دينه وإصلاح عباده بإخراجهم من ظلمات الجهل والعصيان إلى نور العلم والطاعة، فتكون دعوته نابعة عن محبة لله ولدينه ومحبة الخير لكافة البشر، والدعوة النابعة عن إخلاص مع القوة والعزيمة والاعتماد على الله لا بد أن تؤثر وتعمل عملها.
ألا ترى إلى قصة موسى عليه الصلاة والسلام حين حشد الناس له ضحى يوم زينتهم، =

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

أمر الله المؤمنين بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية ﴿**يدعون إلى**

= وجمع له فرعون كيده ثم أتى بأبهته وعزته وكبريائه: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه: ٦١]. فماذا فعلت هذه الكلمة؟ إنها فرّقت كلمتهم وشتّتت شملهم في الحال بدون تأخير: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه: ٦٢].

والتنازع أكبر أسباب الفشل وذهاب الريح كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فإخلاص الداعي في دعوته لله تعالى أمرٌ مهم بالنسبة لنجاحه فيها وثوابه عليها.
أما إن قصد مراءاة الناس بذلك أو أراد شيئاً من الدنيا: مالاً أو جاهاً أو رئاسة فعمله حابط ونفعه قليل، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه** ـ فذكر الحديث وفيه ـ **ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلّمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**» [رواه مسلم].

٢ ـ **أن يعتقد أنه ـ بدعوته إلى الله تعالى ـ وارث لنبيه محمد ﷺ**: في نشر سنته وهديه ليكون حافزاً له على اتباعه في الدعوة إلى الله تعالى والصبر فيها ورجاء الثواب عليها والدخول في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

٣ ـ **أن يكون ثابتاً في دعوته إلى الله تعالى**: راسخ القدمين لا تزعزعه المضايقات ولا يحطمه اليأس، لأنه واثق من صحة طريقته، مؤمل لنتيجتها، فهو واثق من الحسنيين مؤمل للزيادة، واثق من بيان الحق وثواب الآخرة مع إخلاص النية وإصلاح العمل، مؤمل لصلاح الخلق بدعوته ولو بعد حين.

٤ ـ **أن يصبر ويصابر**: فيصبر على ما يناله من أذى الخلق لأن من قام بهذه المهمة فلا بد أن يناله أذى من شرار الخلق المناوئين لدعوته ـ وما أكثرهم ـ أذى قولي وأذى فعلي، إما =

الخير﴾ وهو الدين، أصوله وفروعه وشرائعه **﴿ويأمرون بالمعروف﴾** وهو ما

=بالنيل من دعوته، واعتبر ذلك بما جرى للنبي ﷺ ولمن سبقه من الرسل الكرام: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤].

والصبر درجة عالية لا تُنال إلاّ بالأسباب التي يتجرع بها العبد مرارة الصبر ويتحمل بها مشقته: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وليصابر في بيان الحق والدعوة إليه والمجادلة فيه، ويتسم بطول النفس وبعد النظر حتى تتحقق له الغاية المنشودة.

٥ ـ **أن يسلك طريق الحكمة في الدعوة إلى الله**: فيستعمل الأساليب المناسبة للحال والمقام، فليس الناس سواء في الفهم والعلم، وليسوا سواء في لين الجانب وغلظه، وليسوا سواء في التواضع للحق والاستكبار عنه، فليستعمل مع كل شخص ما يناسبه ويكون أقرب إلى قبوله وانقياده فإن هذا من الدعاء إلى الله بالحكمة، وليكن مرناً متحملاً فلا ينفرن من شخص رآه منحرفاً ويدعه في ميدان انحرافه للشيطان؛ بل يتصل به ويبين له الحق ويرغبه فيه، فكم من إنسان استبعد أن يهتدي ثم هداه الله عز وجل.

ومن الحكمة أن لا يجابه المدعو بإنكار ما هو عليه من باطل إذا كان ذلك يزيده نفوراً عن الحق وتوغلاً في المنكر، وقد أرشد الله إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. ولكن يذكر له الحق ويرغبه فيه حتى يتمكن من قلبه فيسهل عليه ترك ما ألفه من الباطل؛ فإن ترك المألوف صعب على النفوس وليس من السهل أن يدعه الإنسان إلاّ بمقاومة كبيرة.

وانظر إلى حكمة الله تعالى في تشريع تحريم الخمر حين كان مألوفاً عند الناس فكان تحريمه على مراحل بعد أن وقع السؤال من المؤمنين عنه:

المرحلة الأولى: في جواب سؤالهم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]. لم يقل منفعة بل قال منافع ليشمل كل ما يكون أو يتصور من منفعة في ذلك وأن كل هذه المنافع تتصاغر في جانب الإثم الكبير فيه، وهذا كشف لحقيقة الخمر وكل إنسان يتدبر في أمره فسوف يؤثر الإقلاع عنه وإن لم يكن محرماً عليه حيث علم أن إثمه أكبر من نفعه، ثم إن في هذا التعبير تلميحاً بتحريمه فإن من قاعدة الشريعة أن ما ترجحت مضرته على منفعته كان حراماً فتستشعر النفوس بأنه سيحرم، فإذا جاء التحريم صادف أنفساً مستعدة لذلك فسهل عليها=

عرف حسنه شرعاً وعقلاً ﴿وينهون عن المنكر﴾ وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً.

= قبوله.

المرحلة الثانية: المنع من قربان الصلاة في حال السكر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. وهذا على أقل تقدير يشمل اجتنابه في خمسة أوقات في اليوم والليلة فتعتاد النفوس على الامتناع منه في بعض الوقت ليسهل عليها الامتناع الكلي فيما بعد.

المرحلة الثالثة: المنع منه في جميع الأوقات والأحوال في قوله تعالى في سورة المائدة وهي من آخر ما نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]. فانتهى الصحابة عن ذلك بكل يسر وسهولة بعد تلك التمهيدات لتحريمه، فسبحانه الحكيم الرحيم.

وبايعت ثقيف رسول الله ﷺ بشرط أن لا صدقة عليها ولا جهاد فقبل منهم وقال: «**سيتصدقون ويجاهدون**» [أخرجه أبو داود برقم (٣٠٢٥). وأحمد في مسنده ٣/ ٣٤١ وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود رقم (٢٦١٤)]، وذلك لأن الإيمان إذا دخل في القلب استلزم قيام المؤمن بجميع شرائع الإسلام، وكلما كان الإيمان أقوى كان قيامه بواجبات الإيمان ومكملاته أتم.

٦ ـ **أن يكون الداعي عالماً بشريعة الله** التي يدعو إليها وعالماً بأحوال من يدعوهم النفسية والعلمية والعملية:

عالماً بشريعة الله ليدعو إلى الله على بصيرة وبرهان حتى لا يُضل أو يَضِلّ وليكون داخلاً في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وليستطيع أن يدافع عن دعوته ويقنع خصمه.

وكم من داع كان جاهلاً فحصل من المضرة عليه وعلى ما يدعو إليه شيء كبير لأنه يهزم أمام الباطل لقلة ما معه من العلم بالحق، ولهذا لا يجوز تمكين مثل هؤلاء الجهال من الدعوة كما لا يجوز تمكين الصبيان من الجهاد.

عالماً بأحوال من يدعوهم النفسية والعلمية والعملية ليستعد لهم ويسلك في دعوتهم ما يليق بأحوالهم، ولهذا لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له: «**إنك ستأتي أقواماً أهل** =

﴿وأولئك هم المفلحون﴾ المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل

= الكتاب»، فأخبره بحال من بُعث إليهم من أجل الغرضين السابقين، فإن الداعي إذا دعاهم وهو لا يعرف حالهم قد ينعكس عليه هدفه وقد يبدأ بغير المهم ويترك الأهم ويترك ما هو أولى منه.

٧ ـ **أن يكون الداعي على جانب كبير من الدين والأخلاق**: ليكون قدوة صالحة في العلم والعمل فيقوم بما يأمر به من طاعة أو فضيلة ويبتعد عما ينهى عنه من معصية أو رذيلة، فليس من الدين أن يأمر بشيء ولا يأتيه وأن ينهي عن شيء ثم يقع فيه.. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢، ٣].

وفي الصحيحين وغيرهما عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه ـ يعني أمعاءه ـ في النار فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**» [أخرجه البخاري برقم (٣٢٦٧)، ومسلم برقم (٢٩٨٩)]، وكما أن مخالفته لما أمر به ووقوعه فيما نهي عنه مخالفة للدين فهي مخالفة للعقل أيضاً، قال الله تعالى: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة: ٤٤].

وذلك أن دعوته إلى الشيء: إما أن تكون عن اقتناع بفائدته ومصلحته، فمخالفته حينئذ إما وقوع في ضرر إن كان مما ينهى عنه، أو تفويت لمصلحة إن كان مما يأمر به وكلاهما خلاف العقل، لأن العاقل لا يفوت على نفسه المصالح ولا يوقعها في المضار.

وإما أن تكون دعوته إليه لا عن اقتناع بفائدته ومصلحته، وهذا أعظم؛ لأنه أتعب نفسه فيما لا يراه مفيداً وتلبس بثوب ليس هو من أهله، وإذا كان قد دعا رياء فقد غرّ نفسه وخدعها لأن أمره سيضمحل وحاله ستنكشف، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٧]. وقال الشاعر:

ثوب الرياء يشف عما تحته ... فإذا اكتسيت به فإنك عار

وليعلم الداعي أن تهاونه بطاعة الله ليس كتهاون غيره لأنه قدوة للناس، فمتى رأوه متهاوناً صاروا مثله أو أشد تهاوناً منه، ولذلك قد يكون الشيء المستحب واجباً في حق الداعي إذا توقف ظهور السُّنة على فعله إياه، وكذلك تجرؤ الداعي على معاصي الله ليس كتجرّؤ غيره، لأن الناس يقتدون به فيها فيترتب على ذلك تعدد المعصية وشيوعها بين المسلمين=

مرهوب، ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة والقيام بشرائع الدين وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

[تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٦١)]

الآية الثامنة:

يقول الله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [سورة الشورى: ١٥].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿فلذلك فادع﴾ أي فللدين القويم والصراط المستقيم الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله فادع إليه أمتك، وحضهم عليه وجاهد عليه من لم يقبله **﴿واستقم﴾** بنفسك **﴿كما أمرت﴾** أي استقامة موافقة لأمر الله لا تفريط ولا إفراط بل امتثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه على وجه الاستمرار على ذلك. فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك.

= وإلْفَهُم إياها، فينقلب نكرها عرفاً بسبب تجرؤ هذا الداعي عليها.

ولذلك قد يكون الشيء المكروه حراماً في حق الداعي إذا كان فعله إياه يؤدي إلى اعتقاد الناس إباحته، فعلى الداعي أمانة ثقيلة ومسؤولية كبيرة نسأل الله أن يعيننا جميعاً على القيام بها على الوجه الذي يرضيه عنا إنه جواد كريم.

٨ ـ أن يكون الداعي وقوراً: في هيئته وقوله وفعله بدون جفاء، ليكون أهلاً للتوقير فلا يطمع فيه المبطلون ولا يستخفه المخلصون، يجدّ في موضع الجد ويمزح في موضع المزاح، يتكلم إذا كان الكلام خيراً ويصمت إذا لم يكن في الكلام خير، وإلى جانب وقاره ينبغي أن يكون واسع الصدر منبسط الوجه ليّن الجانب يألف الناس ويألفونه حتى لا ينفضوا من حوله فكم من سعة صدر وبساطة وجه ولين جانب أدخلت في دين الله أفواجاً من الناس.

[الصحوة الإسلامية (ص ١١٩ ـ ١٢٧)]

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمته إذا لم يرد تخصيص له.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤١٥)]

الآية التاسعة:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحديد: ٨].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان، والحال أن الرسول محمداً ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم.

فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين.

[تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٧٥)]

الآية العاشرة:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة القصص: ٨٧].

قال شيخنا السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ بل أبلغها وأنفذها ولا تبال بمكرهم ولا يخدعنك عنها ولا تتبع أهواءهم.

﴿وادع إلى ربك﴾ أي اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك، وغاية

عملك فكل ما خالف ذلك فارفضه من رياء أو سمعة أو موافقة أغراض أهل الباطل فإن ذلك داع إلى الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: **﴿ولا تكونن من المشركين﴾** لا في شركهم ولا في فروعه وشعبه، التي هي جميع المعاصي.

[تيسير الكريم الرحمن (٤/٤٦)]

* * *

بعض الأحاديث
التي تحث على الدعوة
إلى اللَّه تعالى وآدابها
وشرح شيخنا السعدي لها

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الحديث الأول

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن يُنقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»**[1] رواه مسلم[2].

هذا الحديث وما أشبهه من الأحاديث، فيه الحث على الدعوة إلى الهدى والخير، وفضل الداعي، والتحذير من الدعاء إلى الضلالة والغيّ، وعظم جرم الداعي وعقوبته.

والهدى: هو العلم النافع، والعمل الصالح.

فكل من علم علماً، أو وَجَّه المتعلمين إلى سلوك طريقة يحصل لهم فيها علم، فهو داع إلى الهدى.

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
«من دعا إلى هدى»: يعني بينه للناس ودعاهم إليه مثل أن يبين للناس أن ركعتي الضحى سنة وأنه ينبغي للإنسان أن يصلي ركعتين في الضحى، ثم تبعه الناس وصاروا يصلون الضحى، فإن له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، لأن فضل الله واسع.
«ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»، أي إذا دعا إلى وزر وإلى ما فيه الإثم، مثل أن يدعو الناس إلى لهو أو باطل أو غناء أو ربا أو غير ذلك من المحارم، فإن كل إنسان تأثر بدعوته فإنه يكتب له مثل أوزارهم لأنه دعا إلى الوزر والعياذ بالله.
واعلم أن الدعوة إلى الهدى والدعوة إلى الوزر تكون بالقول، كما لو قال افعل كذا افعل كذا، وتكون بالفعل خصوصاً من الذي يُقتدى به من الناس، فإنه إذا كان يُقتدى به ثم فعل شيئاً فكأنه دعا الناس إلى فعله، ولهذا يحتجون بفعله ويقولون فعل فلان كذا وهو جائز، أو ترك كذا وهو جائز. فالمهم أن من دعا إلى هدى كان له مثل أجر من تبعه، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه مثل وزر من تبعه.
[شرح رياض الصالحين (٤/ ٤٣٧)]

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٧٤).

وكل من دعا إلى عمل صالح يتعلق بحق الله، أو بحقوق الخلق العامة والخاصة: فهو داع إلى الهدى.

وكل من أبدى نصيحة دينية أو دنيوية، يتوسل بها إلى الدين: فهو داع إلى الهدى.

وكل من اهتدى في علمه أو عمله، فاقتدى به غيره: فهو داع إلى الهدى.

وكل من تقدم غيره بعمل خيري، أو مشروع عام النفع: فهو داخل في هذا النص.

وعكس ذلك كله: الداعي إلى الضلالة.

فالداعون إلى الهدى: هم أئمة المتقين، وخيار المؤمنين.

والداعون إلى الضلالة: هم الأئمة الذين يدعون إلى النار.

وكل من عاون غيره على البر والتقوى: فهو من الداعين إلى الهدى.

وكل من أعان غيره على الإثم والعدوان: فهو من الداعين إلى الضلالة.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ٢٣، ٢٤)]

الحديث الثاني

عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين»** متفق عليه[1].

هذا الحديث من أعظم فضائل العلم، وفيه:

أن العلم النافع علامة على سعادة العبد، وأن الله أراد به خيراً.

والفقه في الدين يشمل الفقه في أصول الإيمان، وشرائع الإسلام

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧ و ٧٣١٢)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٣٨٦ و٢٣٨٩).

والأحكام، وحقائق الإحسان. فإن الدين يشمل الثلاثة كلها، كما في حديث «جبريل» لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وأجابه ﷺ بحدودها. ففسر الإيمان بأصوله الستة، وفسر الإسلام بقواعده الخمس. وفسر الإحسان بـ **«أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[1]، فيدخل في ذلك التفقه في العقائد، ومعرفة مذهب السلف فيها، والتحقق به ظاهراً وباطناً، ومعرفة مذاهب المخالفين، وبيان مخالفتها للكتاب والسنة.

ودخل في ذلك: علم الفقه، أصوله وفروعه، وأحكام العبادات والمعاملات، والجنايات وغيرها.

ودخل في ذلك: التفقه بحقائق الإيمان، ومعرفة السير والسلوك إلى الله، الموافقة لما دل عليه الكتاب والسنة.

وكذلك يدخل في هذا: تعلُّم جميع الوسائل المعينة على الفقه في الدين، كعلوم العربية بأنواعها.

فمن أراد الله به خيراً فقهه في هذه الأمور، ووفقه لها.

ودل مفهوم الحديث على أن من أعرض عن هذه العلوم بالكلية، فإن الله لم يرد به خيراً، لحرمانه الأسباب التي تنال بها الخيرات، وتكتسب بها السعادة.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ٢٤ ـ ٢٥)]

الحديث الثالث

عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الدِّينُ النَّصيحةُ، الدينُ النصيحَة، الدِّينُ النَّصيحة. قالوا: لِمَنْ يا رسولَ الله؟ قال: لله، ولكتابِه، ولرسولِه، ولأئِمَّةِ المسلمين وعامَّتِهم»**[2] . . . . . .

---

(١) جزء من حديث جبريل المشهور، أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٨).

(٢) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
والنصيحة لله عز وجل تكون بالإخلاص لله تعالى، والتعبد له محبة وتعظيماً، لأن الله=

رواه مسلم[1].

كرر النبي ﷺ هذه الكلمة اهتماماً للمقام، وإرشاداً للأمة أن يعلموا حق

= عز وجل يتعبد له العبد محبة، فيقوم بأوامره طلباً للوصول إلى محبته عز وجل وتعظيماً، فيتهي عند محارمه خوفاً منه سبحانه وتعالى.

ثم قال ﷺ: «**ولكتابه**» يعني أيضاً من الدين النصيحة لكتاب الله عز وجل، وهذا يشمل كتاب الله الذي نزل على محمد ﷺ والذي أُنزل من قبل، والنصيحة لهذه الكتب بتصديق أخبارها، أي أن ما أخبرت به يجب أن نصدقه... ومن النصيحة لكتاب لله أن يدافع الإنسان عنه... وأن ينشر معناه بين المسلمين... وأن يؤمن بأن الله تعالى تكلم بهذا القرآن حقيقة... وأن يقوم باحترام هذا القرآن العظيم.

وأما الثالثة فقال النبي ﷺ: «**ولرسوله**» والنصيحة لرسول الله ﷺ تتضمن أشياء:

الأول: الإيمان التام برسالته وأن الله تعالى أرسله إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم بل إنسهم وجنهم... ومن النصيحة لرسول الله ﷺ تصديق خبره، وأنه صادق مصدوق، صادق فيما يخبر به، مصدوق فيما أخبر به من الوحي، فما كذب ولا كذب ﷺ، ومن النصيحة لرسول الله ﷺ صدق الاتباع له، بحيث لا تتجاوز شريعته ولا تنقص عنها... والذب عن شريعته وحمايتها... واحترام أصحابه وتعظيمهم ومحبتهم...

الرابع: قال: «**ولأئمة المسلمين**» الأئمة جمع إمام والمراد بالإمام من يقتدى به ويؤتمر بأمره، وينقسم إلى قسمين: إمامة في الدين وإمامة في السلطة، فالإمامة في الدين هي بيد العلماء... والنصح لهم هو أن يحرص الإنسان على تلقي ما عندهم من العلم فإنهم الواسطة بين الرسول ﷺ وبين أمته... وأن لا يتتبع عوراتهم وزلاتهم وما يخطئون فيه.

النوع الثاني من أئمة المسلمين: أئمة السلطة وهم الأمراء... والنصيحة لهم هي أن تكف عن مساوئهم وأن لا تنشرها بين الناس وأن نبذل لهم النصيحة ما استطعنا.

أما آخر الحديث فيقول: «**وعامتهم**» يعني النصح لعامة المسلمين... والنصيحة لهم بأن تحب لهم ما تحب لنفسك وأن ترشدهم إلى الخير وأن تهديهم إلى الحق إذا ضلوا عنه وأن تذكرهم به إذا نسوه، وأن تجعلهم لك بمنزلة الإخوة...

وليعلم أن النصيحة هي مخاطبة الإنسان سرّاً بينك وبينه، لأنك إذا نصحته سرّاً بينك وبينه أثرت في نفسه وعلم أنك ناصح، لكن إذا تكلمت أمام الناس عليه فإنه قد تأخذه العزة بالإثم فلا يقبل النصيحة، وقد يظن أنك تريد الانتقام منه وتوبيخه وحط منزلته بين الناس فلا يقبل، لكن إذا كان السر بينك وبينه صار لها ميزان كبير عنده وقيمة، وقبل منك.

[شرح رياض الصالحين (٤/ ٤٦٥ـ ٤٨٣)]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٩٤).

العلم أن الدين كله ـ ظاهره وباطنه ـ منحصر في النصيحة. وهي القيام التام بهذه الحقوق الخمسة.

فالنصيحة لله: الاعتراف بوحدانية الله، وتفرده بصفات الكمال على وجه لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً، والإنابة إليه كل وقت بالعبودية، والطلب رغبة ورهبة مع التوبة والاستغفار الدائم؛ لأن العبد لا بد له من التقصير في شيء من واجبات الله، أو التجرؤ على بعض المحرمات. وبالتوبة الملازمة والاستغفار الدائم ينجبر نقصه، ويتم عمله وقوله.

وأما النصيحة لكتاب الله: فبحفظه وتدبره، وتعلم ألفاظه ومعانيه، والاجتهاد في العمل به في نفسه وفي غيره.

وأما النصيحة للرسول: فهي الإيمان به ومحبته، وتقديمه فيها على النفس والمال والولد، واتباعه في أصول الدين وفروعه، وتقديم قوله على قول كل أحد، والاجتهاد في الاهتداء بهديه، والنصر لدينه.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين ـ وهم ولاتهم، من الإمام الأعظم إلى الأمراء والقضاة، إلى جميع من لهم ولاية عامة أو خاصة ـ: فباعتقاد ولايتهم، والسمع والطاعة لهم، وحث الناس على ذلك، وبذل ما يستطيعه من إرشادهم، وتنبيههم إلى كل ما ينفعهم وينفع الناس، وإلى القيام بواجبهم.

وأما النصيحة لعامة المسلمين: فبأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويسعى في ذلك بحسب الإمكان، فإن من أحب شيئاً سعى له، واجتهد في تحقيقه وتكمليه.

فالنبي ﷺ فسر النصيحة بهذه الأمور الخمسة التي تشمل القيام بحقوق الله، وحقوق كتابه، وحقوق رسوله، وحقوق جميع المسلمين على اختلاف أحوالهم وطبقاتهم.

فشمل ذلك الدين كله، ولم يبق منه شيء إلاَّ دخل في هذا الكلام الجامع المحيط. والله أعلم.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ١٤، ١٥)]

الحديث الرابع

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّما النَّاسُ كَالإبِلِ الْمِائَةِ، لا تَكادُ تَجِدُ فيها راحِلَةً»** متفق عليه[1].

هذا الحديث مشتمل على خبر صادق، وإرشاد نافع.

أما الخبر: فإنه ﷺ أخبر: أن النقص شامل لأكثر الناس، وأن الكامل ـ أو مقارب الكمال ـ فيهم قليل، كالإبل المائة، تستكثرها، فإذا أردت منها راحلة تصلح للحمل والركوب، والذهاب والإياب: لم تكد تجدها. وهكذا الناس كثير، فإذا أردت أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة، أو الولايات الكبار أو الصغار، أو للوظائف المهمة: لم تكد تجد من يقوم بتلك الوظيفة قياماً صالحاً. وهذا هو الواقع؛ فإن الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل سبب للنقائص، وهي مانعة من الكمال والتكميل.

وأما الإرشاد: فإن مضمون هذا الخبر: إرشاد منه ﷺ إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة: أن يسعوا ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات، والأمور الكلية العامة النفع.

وقد أرشد الله إلى هذا المعنى في قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: ١٢٢].

فأمر بالجهاد، وأن يقوم به طائفة كافية، وأن يتصدى للعلم طائفة أخرى؛ ليعين هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء. وأمره تعالى بالولايات والتولية أمر بها، وبما لا تتم إلاَّ به: من الشروط والمكملات.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٤٩٨) (١١/ ٣٤١) ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٧٣) برقم (٢٣٢/ ٢٥٤٧).

فالوظائف الدينية والدنيوية، والأعمال الكلية، لا بد للناس منها. ولا تتم مصلحتهم إلاَّ بها، وهي لا تتم إلاَّ بأن يتولاها الأكْفاء والأمناء. وذلك يستدعي السعي في تحصيل هذه الأوصاف، بحسب الاستطاعة. قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦]. والله أعلم.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ١٧٦، ١٧٧)]

الحديث الخامس

عن علي بن الحسين رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُه مَا لا يَعْنِيهِ**» [رواه مالك وأحمد، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه الترمذي عن علي بن الحسين، وعن أبي هريرة][(١)].

الإسلام ـ عند الإطلاق ـ يدخل فيه الإيمان والإحسان، وهو شرائع الدين الظاهرة والباطنة. والمسلمون منقسمون في الإسلام إلى قسمين، كما دل عليه فحوى هذا الحديث.

فمنهم: المحسن في إسلامه. ومنهم: المسيء.

فمن قام بالإسلام ظاهراً وباطناً فهو المحسن: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة النساء: ١٢٥].

فيشتغل هذا المحسن بما يعنيه، مما يجب عليه تركه من المعاصي والسيئات، ومما ينبغي له تركه، كالمكروهات وفضول المباحات التي لا مصلحة له فيها، بل تفوت عليه الخير.

فقوله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُه مَا لا يَعْنِيهِ**»: يعم ما ذكرنا.

ومفهوم الحديث: أَن من لم يترك ما لا يعنيه: فإنه مسيء في إسلامه.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤١٩) وابن ماجه في سننه برقم (٣٩٧٦) وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٢١١).

وذلك شامل للأقوال والأفعال، المنهي عنها نهي تحريم، أو نهي كراهة.

فهذا الحديث يُعدّ من الكلمات العامة الجامعة، لأنها قسمت هذا التقسيم الحاصر، وبينت الأسباب التي يتم بها حسن الإسلام، وهو الاشتغال بما يعني، وترك ما لا يعني من قول وفعل. والأسباب التي يكون بها العبد مسيئاً، وهي ضد هذه الحال، والله أعلم.

[بهجة قلوب الأبرار (ص ١٢٠، ١٢١)]

* * *

الفصل الثالث

فصول ومباحث ودرر
من كلام شَيخنا السعدي
حول الدعوة إلى اللَّه وآدابها

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المبحث الأول

في الصحيحين مرفوعاً:

«يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا»[1]

قال رحمه الله:

ما أجلّ هذا الحديث وأنفعه وأجمعه لكل خير، وهو يجمع جميع الأسباب التي تُنَشِّط العاملين، وتبعث عزائمهم على الخير.

وذلك أن الداعي إلى الخير لا تتمّ له الدعوة، ولا تحصل ثمراتها المطلوبة منها، إلاّ بترغيب المدعُوّين، وتذكيرهم بالأسباب المرغِّبة الداخلية والخارجية، وإبعاد الأسباب المثبِّطة حسب الإمكان.

وهي كلها مجتمعة في هذا الحديث الجليل. فإن التيسير لأعمال الخير، وتهوينها على العاملين، والاقتناع بما تيسّر، وسمحت به هِمَمهُم وعزائمهم، وأمر كلّ عبد ودعوته بما يناسب حاله، وتقتضيه نفسه وطبيعته ويهون عليه ـ لا ريب في نفعه، وسهولة الإجابة إليه، وخصوصاً إذا ضمّ إلى التيسير: التبشير بخيره وثمراته العاجلة والآجلة، ونفعه اللازم والمتعدّي، فسُلوك طُرُق التيسير والسهولة، وتبشير العاملين وترغيبهم: لا ريب في نفعه.

وأما سلُوك الطريق المضادّة لهذا، من التعسير، وتصعيب الأمور على الناس، وعدم قبول ما جاء منهم حتى يكمُل من كل وجه، فإنه أعظم مُنَفّر عن الخير، وأعظم مُثَبّط ومُكَسِّل عن الخير. والواقع والتجربة خير شاهد لهذا.

ألا ترى أن الصَّلاة، وهي أعظم شرائع الدّين، وهي العمل الذي يشترك فيه جميع المسلمين، قد أمر النبي ﷺ فيها بما يكون سهلاً، حتى على

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٩ و ٦١٢٥)، ومسلم في صحيحه برقم (٤٥٠٠ و ٤٥٠٣).

العاجزين، حيث قال:

«أَيُّها النَّاسُ: أَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ، فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ: الصَّغِيرَ، وَالْكَبِيرَ، وَالْمرِيضَ، وَالضَّعِيفَ، وذَا الْحَاجَةِ»[1].

وقال لإمام أمرَه بأحكام الصلاة، «وَاقْتَدِ بِأَضْعَفِهِمْ».

وقال أنس: (ما صلّيت وراء إمام قطّ، أخفّ صلاة، ولا أتم صلاة، من النبي ﷺ).

فالتخفيف الذي تتمّ به الصلاة، ولا يحصُل منه إخلال بشيء من أمورها؛ لا شك في نفعه، وترغيبه للمصلّي، ولمن يصلي خلفه، ويقتدي به. وقال ﷺ في الخطبة:

«إِنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ[2]، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ[3] مِنْ فِقْهِهِ. فَأَطِيلُوا الصَّلاةَ، وَقَصِّرُوا الْخُطْبَةَ»[4].

وكان ﷺ يتخوّل أصحابه بالموعظة، مخافة السآمة عليهم.

وقال ﷺ، مُنكراً على المتبتّلين، الذين يريدون استغراق زمانهم بالصلاة والصيام والخشونة:

«أَمَّا أَنَا: فَأُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَآكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي»[5].

وقال ﷺ:

«إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، فآتِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٨٣)، ومسلم في صحيحه (٢/ ٤٣) وغيرهما.
(٢) أي مع عدم التثقيل على الناس.
(٣) المئنة: العَلامة.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٦٢).
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٣٣٨٩).

كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»[1].

ولما بالَ الأعرابيُّ الجاهل في المسجد، وانتهره الناس، زجرهم ﷺ، وتركه حتى قضى بوْله، ثم دعاه وعلّمه بلطف ورفق، وقال:

«إِنَّ هٰذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هٰذَا الْقَذَرِ، إِنَّما بُنِيَتْ لِلصَّلاةِ وَالْقِرَاءَةِ، وَالذِّكْرِ وِالْعِبَادَةِ»[2].

ولما أغلظ له بعضُ الأعراب الجافين بالقول، وهمّ به الصحابة، رضي الله عنهم، قال ﷺ: «دَعُوهُ»[3].

ثمَّ ألان له القول، وبذل له شيئاً من المعروف؛ فانقاد إلى الحق، وحصل المقصود منه.

وقال ﷺ للناس:

«إِنَّما مَثَلِي ومَثَلُكُمْ: كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ راحِلَةٌ أَنْفَلَتَتْ مِنْهُ، فَذَهَبَ النَّاسُ فِي طَلَبِها سِراعاً مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فَلَم يَزِدْها ذلِكَ إلاَّ نُفُوراً، فَقَالَ صاحبُها لِلنَّاس: دَعُونِي وَراحلَتِي، فَلَمْ يَزَلْ يُنَادِيها، وَيَأْخُذُ مِنْ نَباتِ الأَرْضِ لِيُعْطِيهَا.. فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، حَتَّى أَخَذَ بِزِمَامِها».

وكان ﷺ في دعوته للخَلق يدعو كلّ أحد بما يناسب حاله، وبالطريق التي يعلم حُصول المقصود منه بها.

وأمر أصحابه أن [يدعوا] الناس بذلك.

وقال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٩٧٤ و١٩٧٥ و٦١٣٤ و٥١٩٩)، ومسلم في صحيحه رقم (٢٧٢٢)، والنسائي في سننه برقم (٢٣٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٦٧، ٤/ ١٤١)، ومسلم (١/ ١٦٣)، وأحمد في المسند (١١٠٣، ١١١، ١١٤، ١٦٧، ١٩١، ٢٢٦)، وابن ماجه في سننه برقم (٥٢٨)، والدارمي أيضاً (١/ ١٨٩).

(٣) انظر التخريج السابق.

«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهادَةِ: أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ الله، وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطاعُوا لِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. فَإِنْ هُمْ أَطاعُوك لِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً: تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»[1].

وهكذا شريعته كلها: مبنيّة على السهولة واليُسر في ذاتها، وأحكامها، وشرائعها، وفي دعوتها للخَلق، والأمر والنهي.

ومن النصوص الجامعة في هذا النّوع، قولُه تعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[2] [سورة النحل: ١٢٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣٩٥ و١٤٥٨ و٢٤٤٨ و٤٣٤٧ و٧٣٧١)، ومسلم في صحيحه برقم (١٢١)، وغيرهما.

(٢) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في هذه الآية: سبيل الله هي دينه وشريعته التي شرعها الله لعباده وأضافها إلى نفسه لسببين: السبب الأول: أنه هو الذي وضعها عز وجل للعباد ودلهم عليها، والثاني: أنها موصلة إليه، فلا شيء يوصل إلى الله إلاَّ سبيل الله التي شرعها لعباده على ألسنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم.
وقوله: «**بالحكمة والموعظة**»، الحكمة، قال العلماء: إنها من الإحكام وهو الإتقان وإتقان الشيء أن يضعه الإنسان في موضعه، فهي وضع الأشياء في مواضعها.
وأما الموعظة فهي التذكير المقرون بالترغيب أو الترهيب، فإذا كان الإنسان معه شيء من الأعراض فإنه يوعظ ويُنصح.
فإن لم يُفد فيه ذلك فيقول تعالى: ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ إذا كان الإنسان عنده شيء من المجادلة فيجادل، والمجادلة بالتي هي أحسن أي من حيث المشافهة، فلا تشدد عليه ولا تخفف عنه، انظر ما هو أحسن، بالتي هي أحسن أيضاً من حيث الأسلوب والإقناع وذكر الأدلة التي يمكن أن يقتنع بها لأن من الناس من يقتنع بالأدلة الشرعية أكثر مما يقتنع بالأدلة العقلية وهذا هو الذي عنده إيمان قوي.
ومن الناس من يكون بالعكس لا يقتنع بالأدلة الشرعية إلاَّ إذا ثبت ذلك عنده بالأدلة القطعية فتجده يعتمد على الأدلة العقلية أكثر مما يعتمد على الأدلة الشرعية بل ولا يقتنع بالأدلة الشرعية إلاَّ من حيث تؤيدها عنده الأدلة العقلية، وهذا النوع من الناس يخشى عليه من الزيغ والعياذ بالله إذا كان لا يقبل الحق إلاَّ بما عقله بعقله الفاسد فهذا خطر عليه، ولهذا كان أقوى الناس إيماناً أعظمهم إذعاناً للشرع أي للكتاب والسنة، فإذا رأيت من نفسك الإذعان للكتاب والسنة والقبول والانقياد، فهذا يبشر بخير، وإذا رأيت من=

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦].

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [سورة طه: ٤٣، ٤٤].

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [سورة البقرة: ٨٣].

وغيرها من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وعلى هذا، فعلى من أراد التعليم: أن يُراعي أذهان الطلبة، ويعطيهم من الدروس ما يتيسّر عليهم فهمه، ويربّيهم بصِغار العلم قبل كِباره، ولا يحمّل أذهانهم ما لا يتحمّلون، وكذلك تعليم الجُهّال، وإلقاء العلوم. وينبغي مراعاة الأمور التي يحتاجونها، وأن تشرح لهم شرحاً يسهُل عليهم فهمه.

وكذلك تمرين الصّغار من الأولاد: الذكور والإناث، على الصلاة، وأمور الخير: ينبغي [فيه] مراعاة قُواهُم ورغَباتهم، وترغيبهم بالقول والفعل، والاكتفاء بما تيسّر، مما سمحت به طبائعهم، وتدريجهم من شيء إلى آخر.

بل وكذلك دعوة المخالفين للدِّين، ينبغي مراعاة هذا الأصل فيها، لما يحصُل فيه من النفع العظيم.

= نفسك القلق على الأحكام الشرعية إلاّ حيث تكون مؤيدة عندك بالأدلة العقلية فاعلم أن في قلبك مرض، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. بحيث لا يمكن أن يختاروا شيئاً سوى ما قضاه الله ورسوله، ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله: **﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾**، وجاء في آية العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فهؤلاء لا تلينوا معهم إذا كانوا ظالمين، فقاتلوهم بالسيف حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وعلى هذا فتكون المراتب أربعة: الحكمة، الموعظة، المجادلة بالتي هي أحسن، المجالدة بالسيوف لمن كان ظالماً.

[شرح رياض الصالحين (٤/ ٤٢٠ وما بعدها)]

ولهذا أيضاً جاءت الترغيبات المتنوّعة على أعمال الخير، وأقوال الخير، وعلى ترك المحرّمات، لأنها من أقوى الدواعي إلى توجيه الخلق إلى طاعة الله ورسوله.

[الرياض الناضرة (ص ١٦٢ ـ ١٦٥)]

* * *

المبحث الثاني

أصول الفضائل ثلاثة:

العلم، والدين، والجهاد

قال رحمه الله:

أما العلم فهو الذي تقوم عليه الأدلة والبراهين: فكل ما دخل في هذا الحدّ الجامع، قيل له: علم.

فيدخل في ذلك: العلوم التي يتوسَّل بها إلى الدين، وإلى الدنيا، وإلى كل مقصود وحقيقة. ولكن النافع من هذا ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة، وما تفرَّع على ذلك؛ فلا تخرج العلوم النافعة عن الكتاب والسنة.

وأما الدِّين الصحيح، فهو طاعة الله وطاعة رسوله، بتصديق خبرهما، والاعتراف به، والتعبّد لله بذلك، وامتِثال أمرهما، واجتناب نهيهما. فكلُّ من كان أكمل طاعة لله ورسوله، كان أكمل ديناً.

والجهاد، وحدُّه: بذل الجهد القولي والفعليّ، بتنفيذ أمر الله وأمر رسوله في النَّفْس وفي الغير. وذلك تبَع القدرة والاستطاعة. فمن كان أكمل في هذه الصِّفات الثلاث: العلم، والدين، والجهاد، كان أكمل وأفضل وأرفع عند الله درجة.

وللصحابة منها النَّصيب الأوفر، والحظّ الأكمل. والآثار أكبر شاهد على ذلك، فإن الصحابة رضي الله عنهم هم الواسِطة بين الأمَّة وبين نبيِّهم في إيصال جميع العلوم النافعة، وفي تنفيذ دينه. فما وصل للأمة من علم ودين إلاَّ على أيديهم وبسببهم، ولا انتشر الدين في مشارق الأرض ومغاربها إلاَّ بعلمهم ودينهم وجهادهم. وهم في ذلك الفضل على مراتبهم، وكذلك من بعدهم من أئمة الدين والهدي، الذين كانت لهم الآثار الحميدة، والنفع الكثير، والفضائل الغزيرة.

وإنما ينبوع ذلك ومادته وأصله من هذه الفضائل الثلاث.

ووجه الحصر، ورجوع الفضائل كلها إلى هذه الثلاث: أن النقص الحاصل على الإنسان:

إما أن يكون لفقد العلم، وحصول الجهل، وذلك ضلال وفقد للهداية التي تُنير للعبد جميع الطرق الدينية والدنيوية، [فلا] يعرف الوسائل ولا المقاصد، ولا يهتدي إلى كيفية المنافع والمضارّ.

وإما أن يكون عارفاً بذلك، ولكن لا يعمل بمعرفته، يعرف الخير فيتركه، ويعرف الشر فيفعله، يرى المنافع الدينية والدنيوية فينحرف عنها، ويُشاهد المضارّ المحققة فلا تَدعُه الأغراض الضارة حتى يقتحمها.

فهذا حصل له النقص الكبير، لا لعدم معرفته، بل لعدم دينه، فإن الدين الصحيح هو الذي يُسَيِّر العبد في مسالك الخيرات والمنافع، ويمنعه من المضارّ والمهالك.

وإما أن يكون عارفاً بالأمور، سالكاً مقتضاها، عاملاً بعلمه؛ لكنه مقتصر على نفسه، لا يسعى في هِداية غيره ولا إصلاح سواه، قد ملَكه الكسل، واستولى عليه الجُبن والخَوَر، عن الجدِّ والاجتهاد في إصلاح الغير، والسعي في دفع الضَّائل.

فهذا نقصُه لفقد اتّصافه بالجهاد الصحيح.

فمن كَمُلت له هذه الأمور الثلاثة، فهو السابق إلى الخيرات، المستولي على كل الفضائل، حيث عرف الحق فاتبعه، والباطل فاجتنبه، وجاهد نفسه وغيره، للاستقامة على الصِّراط المستقيم، فأي فضيلة لم تحصل له؟ وأي خَصلة حميدة لم يدركها؟

من فاته العلم وقع في الجهل والضَّلالات، وفاتته الخيرات والمنافع التي لا تستقيم أموره إلاَّ بها.

من فاته العلم: كيف يهتدي إلى مصلحة؟ وكيف يتخلَّص من مضرة؟ من فاته العلم: كيف يتعبَّد؟ وكيف يُعامِل؟ وكيف يتمكَّن من إقامة الحقوق والقيام بها؟

وكما هو محمودٌ في أمور الدين، فهو محمود في أمور الدنيا.

أما المكاسب والتّجارات والحِراثة والزراعة والصناعات كلها، والأعمال [المفتقرة] إلى العلم، فهل يتوصَّل إليها وإلى وسائلها ومقاصدها إلاّ بالعلم؟ بالعلم يرفع العبد درجات، وبالجهل ينزل دركات. ثم العلم رُوحه وزينته وقِوامه وخيْره: الدين، فلا خير في علم لا دين معه، فأيُّ فضيلة فيمن يعرف الخير والمنافع فيتركها، ويعرف المضارّ فيتبعها؟

بالدِّين تحصُل السعادة والفلاح، وبالدين تُدرك المطالب الطيبة ويتمّ النجاح. اللهم أرِنا الحقّ حقًّا وارزقنا اتِّباعه، وأرِنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتِنابه.

من حصل له مقتضى هذا الدعاء، وأُجيبت دعوته، فقد تم علمه ودينه، ولا يتم ذلك ولا يكمل إلاّ بالجهاد.

أليس التعلُّم والتعليم والصبر على ذلك من أكبر الجهاد؟

أليس الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصيحة للخلق، من الجهاد؟

أليس تنفيذ الحق ونصْرُه، وردّ الباطل وقمْعُه من الجهاد؟

أليس تعليم الجاهلين، وتنبيه الغافلين، وإيقاظ المُعْرِضين، وموعظة المعارضين ومجادلتهم من الجهاد؟

هل تتمّ الأمور بدون الجهاد؟ وهل يستقيم الهدى والاهتداء، ويحصل الصُّعود والارتقاء إلاّ بالجهاد؟

طوبى لأهل العلم، والدِّين، والجهاد!

ويا هناءهم بما نالوا من الخيرات والمصالح والرَّشاد!

لقد نالوا شرف الدنيا وفوز الآخرة، وتمّت عليهم النعمة: الباطنة والظاهرة!

وإذا أردت أن تعرفَ فضلهم العظيم، وارتفاع منازلهم، فقسْ كل واحد بضِدِّه. اعرِف الفرق بين الجاهل والعالم، وبين المؤمن والجاحد، وبين المجاهد والمخلد إلى الكسل.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر: ٩].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [سورة الزمر: ٩].

أي كمَنْ ليس كذلك؟

كم بيْن من مُلىء قلبُه من معرفة الله ومحبَّته، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، وعمل بمقتضى ذلك من القيام بحقوق الله وحقوق عباده، وبين من قلبه من التقوى خراب، وأعماله كلها رِياء وسُمعة، قد [خلا] قلبُه من الإخلاص لله، ومن النصيحة لعباد الله؟

وكم بين من عرف الله، وعرف السبيل الموصِّلة إلى الله، وعرف كيف يهدي وينصح عباد الله، وجاهد في تحقيق ذلك، وبيْن الخالي من هذه المعارف التي لا صلاح للعبد ولا للخَلق إلاَّ بها!

إنك بمجرَّد ما [تتصوَّر] أحوالهم، وتعرف صِفاتهم، تعرف الفرق العظيم بين من أخذ من هذه الصفات الثلاث بأوفر حظ، وأكمل نصيب، [وبين من] ليس له منها حظّ ولا نصيب.

فنسأل الله أن يَمُنَّ علينا بالعلم النافع، والإيمان الصحيح، والجد والاجتهاد في معرفة الحق، والعمل به، والقيام بحقه وحق عباده.

[الرياض الناضرة (ص ١٦٢ ـ ١٦٩)]

المبحث الثالث

الحث على سلوك طريق الحكمة

والرفق في كل الأمور[1]

قال رحمه الله:

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩].

والشريعة كلها حكمة:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة النساء: ١١٣].

وأثنى على لقمان بالحكمة.

---

(١) قال سماحة والدنا العزيز شيخنا العلامة محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله تعالى: إن علينا أن نستعمل في دعوتنا إلى الله عز وجل الرفق واللين ما أمكن ذلك، لأن النبي ﷺ قال: «**يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطى على سواه**» [رواه مسلم (رقم ٢٥٩٣)]. وقد امتن الله سبحانه وتعالى على نبيه حيث جعله ليناً لعباد الله، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقس أنت بنفسك لو أن رجلاً خاطبك في أمر من الأمور بعنف لرأيت من نفسك داعياً يدعوك إلى أن تقابله بمثل ما تصرف به معك ولألقى الشيطان في قلبك أن هذا الرجل لا يريد النصح وإنما يريد الانتقاد. والإنسان إذا شعر بأن من خاطبه يريد الانتقاد فإنه لن ينصاع إلى توجيهه ولا دعوته لكن إذا جاء وتكلم مع الشخص بالرفق واللين، وقال له: إن هذا أمر لا يصلح، ثم إذا سد عليه الباب الحرام فتح باباً آخر حلالاً حتى ييسر عليه لحصل بذلك على خير كثير.

وهذا الذي قلته كان من توجيه الله سبحانه وتعالى، ومن توجيه النبي ﷺ، ومن حالات الرسول ومقاماته.

[الصحوة الإسلامية (ص ٦٣)]

ولما ذكر أصول الشرائع ومُهماتها. قال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [سورة الإسراء: ٣٩].

فما جاء به الرسول من الكتاب والسنة كله حكمة، بل هو أعلى أنواع الحكمة على الإطلاق، لأن الحكمة معرفة الحق والصواب، والعمل بذلك. والشريعة تدور على ذلك، لا تخرج عنه.

فمن عرف الحقّ فاتبعه، والباطل فاجتنبه، فهو حكيم.

والغرض هنا أخصّ من هذا، وهو حثّ الإنسان أن تكون أقواله وأفعاله وتدبيراته تابعة للحكمة، موافقة للصواب، غير متقدمة على أوانها ولا متأخرة، ولا فيها زيادة عما ينبغي، ولا نقص. وأن يكون في كل فرد من أفراد حركاته المذكورة، مجتهداً في معرفة نفعه وصلاحه، سالكاً أقرب طريق مُوصّل له إلى ذلك.

وبتحقيق هذا يعرف كمال عقل الإنسان ورزانته ولبّه، وبه تُدرك الأمور، وتنجح المقاصد.

قال تعالى: ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ [سورة البقرة: ١٨٩].

أي ائتوا كل أمر من طريقه الموصّل إليه، المسهلّ لحصوله.

وضِدّ ذلك أمران:

إما ترك للمنافع وإهمال لها، وإما سُلوك طُرق ضارّة في تحصيلها. إما تقصير عن بلوغ الغاية، أو التواء في الطريق، أو سلوك طرق وعرة، ومسالك صعبة، مع التمكن من سلوك ما هو أسهل منها.

واعلم أن طريق كل أمر ما يناسبه. قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

فالدعوة إلى الله أو إلى سبيله، [تشمل] تعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين، [وتشمل] النصيحة الخاصة لآحاد الناس وأفرادهم في الأمور الدينية والدنيوية. فإذا سلك الداعي فيها طريق الحكمة، كان أقرب وأرجى لحصول مقصوده.

ولهذا ينبغي تعليم كل أحد ما هو أنفع له، وبعبارة أو دلالة أقرب إلى ذهنه وفهمه. ولهذا قيل في تفسير «الرَّبَّانِيِّين»:

هم الذين يُعلمون الناس صِغار العلم قبل كِبار.

ومن الحكمة أن لا نُلقي على المتعلم العلوم المتنوعة التي لا يتحملها ذهنه، أو يضيع بعضها بعضاً، واتفق أهل المعرفة بطُرق التعليم: أن هذا ضار ومفوّت للعلم، وأن الطريق الأقرب أن يجعل للمتعلم من الدروس، ما يسهل عليه حفظها وفهمها [وعقلها]، والتفكر التام فيها، فإن هذا من الدعوة إلى الله بالحكمة التي هي الطريق الوحيد للنجاح.

ومن الحكمة: أن ترمُق المتعلم، وتقوّي رغبته في التعليم بكل طريق، فإن قوة الرغبة تزيد في الحفظ والفهم. وكلما كانت رغبة طالب العلم فيه أقوى، كان محصوله أكثر وأتمّ.

ومن الحكمة في تعليم العوامّ وإرشادهم: أن يعلّموا ما يحتاجونه بألفاظ وعبارات مناسبة لأذهانهم، قريبة من أفهامهم، فهذا فيه نفع كبير.

وكذلك ينبغي لأهل العلم في مجالسهم مع الناس العامة والخاصة أن يبحثوا بما يناسب الحال عند المناسبات من المسائل العلمية، فكم حصل فيها من منافع كثيرة من غير تشويش ولا قطع عن مقصودها. وهذا من الحكمة.

ومن الحكمة في حقّ الناصح: أن يكون رفيقاً متأنّياً، متوخّياً للحالة المناسبة للمنصوح بلين، قال تعالى: ﴿اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة طه: ٤٣، ٤٤].

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [سورة الأعلى: ٩].

ومما يعين المعلم والمذكر: معرفة طبائع الناس وأخلاقهم، والوسائل التي يؤتون من جهتها.

والرفق أصل كبير في هذا وغيره، قال ﷺ:

«مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ، وَلاَ كَانَ الْعُنْفُ فِي شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ»[1].

وكذلك تُسلَك الحكمة في تقوية الصداقات، وتخفيف العداوات، وما سُلِكت في شيء أبلغ ولا أنفع من قوله تعالى:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: ٣٤].

فإذا كان العفو والإحسان إلى العدو يصيّره صديقاً حميماً، فما ظنُّك بعمله مع الصديق والقريب والخليط الذين لهم الحقّ الأوكد، وعندهم من أسباب الروابط الودية ما هو أوثق؟

وكذلك تُسلَك الحكمة في معاملة الأولاد ومعاشرة الزوجات، فإنه يُراد منهم أمران عظيمان مهمان:

أحدهما: إصلاحهم وتقويمهم وتهذيبهم، لتقوية دينهم، وتربية أخلاقهم. فهؤلاء يُسلَك معهم كل طريق يسلك مع غيرهم، وطُرق خاصة تناسب [أحوالَهم]. ويوجّههم وليُهم فيه إلى كل خير، بترغيب ولين وحسن معاملة. وكل أحد يعرف من أحوال أولاده وأهله ما لا يعرفه غيره.

الأمر الثاني: [أنه] يراد منهم القيام بحقّ الوالدين، وبالعشرة الواجبة والمستحبّة بين الزوجين، وذلك أيضاً بدعوتهم إليه بالحال والمقال، وبالحكمة والرفق.

ومن أنجح ذلك: أن يكون الوالدان قائمين بحق الأولاد، والزوج قائماً بحق زوجته. فإذا طلب منهم القيام بما عليهم في هذه الحال، سهل عليهم، بخلاف ما إذا لم يقم الوالدان والزوج بحقوقهم، فإن تقويمهم يصعب جدّاً. وكيف تطلب ما لك، وأنت مانع الحق الذي عليك؟

وكذلك تُسلَك الحكمة في النفقات والتدبيرات البيتية التي رُوحها وقوامها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٦٥٤٥).

قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الفرقان: ٦٧].

فالاقتصاد في النفقات، وسُلوك طُرقه، له نفعه المعروف، ومحله الأكبر.

وألطف من ذلك كله: أن تسلك الحكمة مع نفسك، وتُراقبها في أعمالها، وتجتهد في تنمية وازع الرغبة إلى الخير، وإضعاف الدواعي إلى الشرّ، وتُلاطفها ملاطفة الطفل في تحصيل الأمور المطلوبة منها، وفي تنمية أخلاقها، وتُعطيها من الرّاحات والطيّبات ما يسهُل عليها معه القِيام بالطاعات، وتغتنم أوقات نشاطها، وتُريحها في فترات الكسل.

وإيّاك أن تجمح بك في الانهماك في اللذات التي تشغل عن الأمور النافعة؛ ولكن جاهِدها وحاسِبها، واعرض عليها الموازنة بين الإخلاد إلى الكسل وبين المطالب العالية التي تفوت بالكسل، ولا تدرَك إلاّ بالعمل. وعرِّفها ما أمامها من النعيم لمن آمن وعمل صالحاً وسلك الصراط المستقيم، وقل لها:

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الصافات: ٦١].

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [سورة المطففين: ٢٦].

قل لها: يا نَفْسُ أيُّما أوْلى: تقديم لذة قليلة حشوُها الأكدار، وطيّها الغُموم والهموم والخَسار، على لذّات متواصلات كاملات بلا كدر ولا منغصٍ في دار القرار؟

وأيما أولى: تحصيل لذة الإيمان، أو اللذات البهيميّة التي مآلها الخيْبة والحرمان؟

يا نفس: ابذُلي اليسير من القوة فيما يعود عليك بالخير والبركات، ولك مني أن أرضيك بما تحبين من اللذات المُباحات.

قومي بما عندك من الحقوق الواجبات والمستحبّات، أَقُم لك بما تحبين من الراحات، وتناوُل الطيبات.

يا نفس: قد أرشدك معلم الخير ﷺ إلى أعمال نافعة عظيمة النفع يسيرة على النفس، فقال:

«اسْتَعِينُوا بِالْغُدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا»[1].

وقال معاذ بن جبل، رضي الله عنه: يا رسول الله: أخبرني بعمل يُدخلني الجنة، ويباعدني عن النار؟

قال: **«لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيم، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِ: تَعْبُدُ الله وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ»**.

ثم قال: **«أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيرِ: الصَّوْمُ جُنَّة، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِىءُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِىءُ الماءُ النَّارَ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيلِ»**.

ثم تلا قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [سورة السجدة: ١٦ـ ١٩].

ثم قال:

«أَلا أُخبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنامِهِ؟ رَأْسُ الأَمْرِ: الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الْجِهَادُ».

ثم قال: **«أَلاَ أُخبِرُكَ بِملاكِ ذلِكَ كُلِّه؟»**.

قلت: بلى يا رسول الله.

فأخذ بلِسان نفسه وقال: **«كُفَّ عَلَيكَ هٰذا»**.

قلت: «وَإِنَّا لَمُؤاخذون بما نتكلم به؟».

---

(١) أخرجه البخاري من صحيحه بالأرقام (٣٩ و٥٦٧٣ و٦٤٦٣) وأحمد في المسند (٢/ ٥١٤).

قال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَناخِرِهِمْ إلاَّ حَصائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»[1].

انظُري إلى هذه الأعمال الموصّلة إلى غاية الغايات، وفوائدها الجليلة مع سُهولتها على النفس.

ثم اعلمي أن من قام بما عليه من حقوق الله، وحقوق عباده، لم يفت عليه نصيبه من الدنيا:

قال ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ، جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِناهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيا وَهِيَ راغِمَةٌ. وَمَنْ كانَتِ الدُّنْيا هَمَّهُ، شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيا إلاَّ ما كُتِبَ لَهُ»[2].

يـا نَـفْسُ مـا هِـيَ إلاَّ صَـبْـرُ أَيّـام ... كَـأَنَّ مُـدَّتَـهـا أَضْـغـاثُ أَحْـلامِ
يا نَفْسُ، جُوزِي عَنِ الدُّنْيا مُبادِرَةً ... وَخَـلِّ عَـنْـهَـا فَـإِنَّ الْـعَـيْـشَ قُـدَّامِي

فلا يزال الحكيم ـ مع نفسه ـ في مُلاطفة وتدريب، وترغيب وترهيب، وإنذار وتبشير، حتى يلين صعبُها، ويستقيم سيرها، وتتبدّل صِفاتها الرديئة بالصِّفات الطيّبة.

ولا يتمكّن من هذا إلاَّ بِسُلوك الحكمة.

الحكمة: جمال العِلم، وآلة العمل، وأقرب الوسائل لحصول المقاصد، الحكمة تُهوّن الصِّعاب، وبها تندفع العوائق. كم ندِم عَجول طائش، وكم أدرك المطلوب مُتَأنٍّ رفيق! لا تسلَس الولايات الكبار ولا الصغار بمثل الحكمة، ولا تختلّ إلاَّ باختلال طريقها.

الحكيم إذا لم يدرك جميع المطلوب، تنازل إلى بعضه. وإذا لم يحصّل

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٣١)، والترمذي في سننه برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه في سننه رقم (٣٩٧٣)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي برقم (٢١١٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٤١٠٥)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٣١٣).

ما قصده من الخير، قنع باندفاع الشر. وإذا لم يندفع كل الشر، دفع بعضه وخفّفه.

وإذا لم [يمكن دفع] الصَّعب الشديد وأمكنه تلطيفه لَطَّفه. يُساير الأمور والأحوال فينتهز فُرَصها، ويأتي الأمور مع كل باب ووسيلة. لا يملّ السعي، ولا يُدركه الضجر والسآمة.

قد تلقّى الأمور بصدر منشرح، وقلب ثابت؛ يُقلّبها بفكره على كل وجه، ويستعين برأي أهل الخبرة من الناصحين على ما يريده، لا تستفِزّه البدوات وأوائل الأمور، حتى ينفذ فكره إلى باطنها، ولا تغُرُّه الظواهر حتى يتغلغل في مطاويها وعواقِبها. ومع كثرة تفكيره وتقليبه الأمور من جميع وجوهها، ومُشاورته عند التوقّف والاشتباه: لا بد أن ينكشف له ما كان خافياً، ويتّضِحَ له ما كان مشتبهاً.

واعلم أن من عوّد نفسه هذه الأمور، ولازمها في أغلب أحواله، فلا بد أن يحصل له من التمرين والاختبار والتجارب، أصول يترقى بها عقلُه، وتتسِّع دائرة معارفه، وينمو ذكاؤه وفِطنته، وربما وصل إلى حالة يصير بها عَلماً يؤتمُّ به في متاهات العقول، مرجوعاً إليه في ذلك. والله أعلم.

[الرياض الناضرة (ص ٨٢ ـ ٨٨)]

* * *

المبحث الرابع

وجوب النصيحة وفوائدها

قال رحمه الله:

ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**». (ثلاثاً).

قالوا: لمن يا رسول الله؟

قال: «**لله، ولِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، وَأَئِمَّة الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(١).

أخبر ﷺ خبراً متضمناً للحَثّ على النصيحة والترغيب فيها: أن الدين كله مُنحصِر في النصيحة.

يعني: ومن قام بالنصيحة، فقد قام بالدِّين، وفسَّره تفسيراً يزيل الإشكال، ويعمُّ جميع الأحوال؛ وأن موضوع النصيحة خمسة أمور، باستكمالها يكمل العبد.

أما النصيحة لله: فهي القِيام بحقّه وعُبوديته التامة.

وعبوديته تعمُّ ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان كلّها، وأعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان من الفروض والنوافل، [و] فعل المقدور منها، ونِيّة القيام بما يعجز عنه.

قال تعالى في حقّ المعذورين:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [سورة النور: ٦١].

[وذلك]: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [سورة التوبة: ٩١].

فاشترط في نفي الحرج عن هؤلاء أن يكونوا ناصحين لله ورسوله، وذلك

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٩٤).

بالنِّيات الصادقة، والقيام بالمقدور لهم.

ومن أعظم النصيحة لله: الذَّبُّ عن الدِّين، وتفنيد شُبَه المُبطلين، وشرح محاسن الدين الظاهرة والباطنة؛ فإن شرح محاسن الدين، وخصوصاً في هذه الأوقات التي طغَت [فيها] المادِّيَّات، وجرَفت بزخازفها وبهرجتها أكثر البشر، وظنّوا بعقولهم الفاسدة أنها هي الغاية، ومنتهى الحسن والكمال، واستكبروا عن آيات الله وبيِّناته ودينِه.

ولم يخطر بقلوب أكثرهم أن محاسن الدِّين الإسلامي فاقت بكمالها وجمالها وجلالها كل شيء، وأن محاسن غيرها، إن فرض فيه محاسن، فإنه يتلاشى ويضمحِلّ، إذا قيس بنور الدين وعظمته وبهائه، وأنه الطريق الوحيد إلى صلاح البشر وسعادتهم، ومُحالٌ أن تحصل السعادة بدونه.

أما سعادة الدِّين [فواضحة] لكل أحد مُنصف. وأما سعادة الدنيا فإن الأمور المادية المحضة، إذا خلَت من رُوح الدين، فإنها شقاء على أهلها ودمار. والمشاهدة أكبر شاهد على هذا، فإن أمور المادة قد ارتقت في هذه الأوقات ارتقاء هائلاً، يعجز الفصيح عن التعبير عنه، ومع ذلك فهل عاش هؤلاء مع أنفسهم ومع غيرهم ومع بقية الأمم عيشة سعيدة هنيئة طيبة؟ أم الأمر بالعكس؟

ما يخرجون من طامَّة، إلاَّ تلقّتهم طامةٌ أكبر منها! ولا خلَصوا من كوارث وعذاب، إلاَّ دخلوا في عذاب أفظع منه!

ولا ـ والله ـ يُنجِّيهم من هذا غير الدين الصحيح، وسيعلمون ويعلم غيرهم عواقبهم الوخيمة.

وأما النصيحة لكتاب الله، فهي الإقبال بالكلية على تلاوته وتدبُّره، وتعلّم معانيه وتعليمها، والتخلّق بأخلاقه وآدابه، والعمل بأحكامه، واجتنابِ نواهيه، والدعوةِ إلى ذلك.

وأما النصيحة للرسول محمد ﷺ، [فهي] الإيمان الكامل به، وتعظيمه، وتوقيره، وتقديم محبته واتِّباعه على الخلق كلهم. وتحقيق ذلك وتصديقه باتباعه

ظاهراً وباطناً في العقائد والأخلاق والأعمال، قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ٣١].

والحِرص على تعلّم سنته وتعليمها، واستخراج معانيها وفوائدها الجليلة، وهي شقيقة الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [سورة النساء: ١١٣].

وجملة ما تقدم أن النصيحة لله ورسوله، هي الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله. وهذا يعمّ كل ما تقدم.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين، وهم ولاتهم ـ من السلطان الأعظم إلى الأمير، إلى القاضي، إلى جميع من لهم ولاية صغيرة أو كبيرة ـ:

فهؤلاء لما كانت مهماتهم وواجباتهم أعظم من غيرهم، وجب لهم من النصيحة بحسب مراتبهم ومقاماتهم، وذلك باعتقاد إمامتهم، والاعتراف بولايتهم، ووجوب طاعتهم بالمعروف، وعدم الخروج عليهم، وحَثّ الرعِية على طاعتهم، ولزوم أمرهم الذي لا يخالف أمر الله ورسوله، وبذل ما يستطيع الإنسان من نصيحتهم، وتوضيح ما خفي عليهم مما يحتاجون إليه في رعايتهم، كلّ أحد بحسب حالِه، والدّعاء لهم بالصلاح والتوفيق، فإن صلاحهم صلاح لرعيتهم، واجتناب سَبِّهم والقدح فيهم وإشاعة مثالبهم، فإن في ذلك شرًّا وضرراً وفساداً كبيراً.

فمن نصيحتهم: الحذر والتحذير من ذلك، وعلى من رأى منهم ما لا يحِلّ، أن ينبّههم سرًّا، لا علناً، بلطف، وعبارة تليق بالمقام، ويحصل بها المقصود، فإن هذا مطلوب في حقّ كل أحد، وبالأخص وُلاة الأمور، فإن تنبيههم على هذا الوجه فيه خير كثير، وذلك علامة الصدق والإخلاص.

واحذر ـ أيها الناصح لهم، على هذا الوجه المحمود ـ أن تُفسد نصيحتك بالتمدّح عند الناس، فتقول لهم: إني نصحتهم وقلت وقلت. فإن هذا عنوان الرِّياء، وعلامة ضعف الإخلاص، وفيه أضرار أُخَر معروفة.

وأما النصيحة لعامة المسلمين، فقد وضحها النبي ﷺ بقوله:

«لا يُؤْمِن أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[1].

وذلك بمحبّة الخير لهم، والسعي في إيصاله إليهم، بحسب الإمكان، وكراهة الشر والمكروه لهم، والسعي في دفع ذلك ودفع أسبابه، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، ونُصحهم في أمور دينهم ودنياهم، وكلّ ما تحب أن يفعلوه معك من الإحسان فافعله معهم، ومعاونتهم على البِرّ والتقوى، ومساعدتهم على كل ما يحتاجونه.

فمن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته.

والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه المسلم.

وهذه الأمور كلها بحسب القُدرة، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦].

فعلمت مما تقدم أن الأمر كما ذكره ﷺ: أن النصيحة تشمل الدين كله: أصوله وفروعه، حقوق الله وحقوق رسوله ﷺ، وحقوق الخلق كلهم، أهل الحقوق العامة والخاصة.

فمن قام بالنصيحة على هذا الوجه، فقد قام بالدين. ومن أخلَّ بشيء مما تقدَّم، فقد ضيَّع من دينه بقدر ما ترك.

فأين النصيحة ممن تهاون بحقوق ربِّه فضيّعها، وعلى محارِمه فتجرَّأ عليها؟

وأين النصيحة ممن قدَّم قول غير الرسول على قوله، وآثر طاعة المخلوق على طاعة الله ورسوله؟

وأين النصيحة من أهل الخيانات والغِش في المعاملات؟

وأين النصيحة ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذي آمنوا، وممن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣)، ومسلم في صحيحه برقم (٤٥).

يتبعون عورات المسلمين وعثَراتهم؟

أين النصيحة من أهل المكر والخداع؟

وأين النصيحة [ممن] يسعَى في تفريق المسلمين، وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم؟

وأين النصيحة ممن يتعلّقون عند اللقاء بالمدح والثناء، ويقولون خلاف ذلك في الغيبة عند الأعداء وعند الأصدقاء؟

وأين النصيحة ممن لا يحترم أعراض المسلمين، ولا يرقُب فيهم إلاً ولا ذمّة؟

وأين النصيحة من المتكبّرين على الحقّ، والمستكبرين على الخلق، المعجبين بأنفسهم، المحتقِرين لغيرهم؟

فهؤلاء كلّهم عن النصيحة بمعزِل، ومَنزِلهم فيها أبعد منزل. وكل هؤلاء قد اختلّ إيمانهم، واستحقّوا العقوبات المتنوعة، وحُرموا من الخير الذي رتّب على النُصح، حُرموا من الأخلاق الفاضلة، وابتلوا بالأخلاق السافِلة.

أولئك هم الخاسرون.

طُوبى للناصحين!

حقيقةً ما أعظمَ توفيقَهم، وما أهدى طريقهم!

لا تجد الناصِح إلاً مُشتغلاً بفرض يؤدّيه، وفي جهاد نفسه عن محارم ربّه ونواهيه، وفي دعوة غيره إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي التخلّق بالأخلاق الجميلة والآداب المستحسنة!

إن رأى من أخيه خيراً أذاعه ونشره، وإن اطّلع منه على عيب كتمه وستره! إن عاملته وجدته ناصحاً صَدُوقاً، وإن صاحبته رأيته قائماً بحقوق الصحبة على التمام، مأموناً في السر والعلانية، مباركاً على الجليس كحامل المِسك: إما أن يحذيك، أو تجد منه رائحة طيبة.

إذا وجدتَ الناصح فاغتنم صحبته، وإذا تشابهتْ عليك المسالك فاستعن

بمشاورته. جاهد نفسك على التخلّق بخلق النصح، تجد حلاوة الإيمان، [وتكن] من أولياء الرحمٰن، أهل البر والإحسان. لو اطّلعت على ضمير الناصح، لوجدته ممتلئاً نوراً وأمناً، ورحمة وشفقة، ولو شاهدت أفكاره لرأيتها تدور حول مصالح المسلمين، مجملة ومفصلة. ولو تأملت أعماله وأقواله، لرأيتها كلها صريحة متفقة.

أولئك السادة الأخيار، وأولئك الصفوة الأبرار لقد نالوا الخير الكثير، بالنيات الصالحة والعمل اليسير.

[الرياض الناضرة (ص ٤١ ـ ٤٦)]

* * *

المبحث الخامس

فضائل حسن الخلق[1]

قال رحمه الله:

وهو: خُلق فاضل عظيم النفع.

أساسه: الصبر والحِلم والرغبة في مكارم الأخلاق.

---

(١) قال سماحة الوالد الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى:
على الداعية أن يتمسك بأخلاق الداعية بحيث يظهر عليه أثر العلم في معتقده وفي عبادته، وفي هيئته وفي جميع مسلكه، حتى يمثل دور الداعية إلى الله عز وجل: أما أن يكون على العكس من ذلك فإن دعوته سوف تفشل وإن نجحت فإنما نجاحها قليل.
فما ظنكم برجل يحذر من المعاملات الربوية ويقول لمن يأكل الربا: إنك محارب لله ولرسوله، لأن الله عز وجل يقول في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]. وهذا الداعية يعظ الناس ويذكرهم ويخوفهم بالله ثم يذهب يتعامل بالربا!!!

هل هذا من أخلاق الداعية؟! أبداً.
وهذا رجل آخر: يحذر الناس من ترك الجماعة ويأمر بالصلاة مع الجماعة ويقول: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً**...، الحديث» [رواه البخاري برقم (٦٥٧)، ومسلم برقم (٦٥١)].
ثم نجده هو نفسه يتخلف عن صلاة العشاء والفجر.
هل هذا من أخلاق الداعية؟! أبداً!
ورجل ثالث يقول: يا عباد الله إياكم والغيبة فإن الغيبة من كبائر الذنوب، وقد شبه الله تعالى المغتاب برجل يأكل لحم أخيه وهو ميت ويحذر غاية التحذير من الغيبة. ولكنه يجد في مجالسه غيبة الناس فاكهة له!!
هل هذا من أخلاق الداعية؟؟ أبداً!!
ورجل رابع: يحذر الناس من النميمة، والنميمة هي نقل كلام الناس بعضهم في بعض من أجل الإفساد بينهم، فيحذر ويقول: إن النميمة من أسباب عذاب القبر، لأنه صح عن =

وآثاره: العفو والصفح عن المسيئين، وإيصال المنافع إلى الخلق أجمعين. فهو: احتمال الجنايات، والعفو عن الزلات، ومقابلة السيئات بالحسنات.

وقد جمع الله ذلك في آية واحدة، وهي قوله:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩].

أي خُذ ما عفا [وصفَا] لك من أخلاق الناس، واغتنم ما حصل منها، وغُضّ النظر عما تعذّر تحصيله منهم، وعن نقصها وكدَرها. ومعنى ذلك: أن تشكر الناس على ما جاء منهم من الخير والإحسان، وما سمحت به طِباعهم من الخُلق الطيِّب، ولا تطلب منهم ولا تُطالبهم بما زاد عما حصل، ولو كان لازماً لهم، فإنك بذلك تستريح وتريحهم.

أما من كان يريد من الناس أن يكونوا كاملين مكمّلين لكل ما يجب ويُستحبُّ، وإذا أخلّوا بشيء من ذلك عاتبهم وأهدر ما جاء منهم من الخير والإحسان؛ فهو عن حُسن الخلق بمعزِل، ولا يزال معهم في نزاع ولجاج وعتاب.

وإنما الحازم من يوطن نفسه على تقصير المقصّرين، ونُقصان الناقصين. وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا الخُلق الفاضل في معاملة الزوج لزوجته، فقال:

«لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً: إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقاً، رَضِيَ مِنْهَا خُلُقاً آخَرَ»[1].

= النبي ﷺ أنه مر بقبرين فقال: **«إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»** [رواه البخاري (برقم ٢١٦)، ومسلم (برقم ٢٩٢)]، ولكنه مع ذلك يسعى بين الناس بالإفساد بالنميمة ولا يبالي بذلك!!

هل هذا من أخلاق الداعية؟!! أبداً!!

فعلى الداعية أن يكون متخلقاً بما يدعو إليه من عبادات أو معاملات أو أخلاق وسلوك، حتى تكون دعوته مقبولة وحتى لا يكون من أول من تسعر بهم النار ـ والعياذ بالله ـ.

[الصحوة الإسلامية (ص ٥٧ ـ ٥٩)]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/١٠٩١).

فأمر بالإغضاء عما فيها من العيوب، وأن يكون نظره إلى ما فيها من المحاسن والمنافع، ويجعل هذا شفيعاً لهذا، لأنه بذلك تدوم الزوجيّة، وتتمُّ الصُحبة الطيبة والصّفاء، ويقِلّ النزاع والخصام.

وقِسْ على هذا الذي ذكره ﷺ: جميع المعاملات والحقوق. فالمعاملة بين الوالدين وأولادهم إذا كانت على هذا الوصف، حصل البر وأُدِّيت الحقوق. إذا وطّن الوالد نفسه على شكر ما حصل من ولده من البرّ، ولو قليلاً، و [عفا] عن تقصيره، ازداد البر، وحصل للوالدين راحة.

فرحم الله من أعان أولاده على برّه.

وكذلك الأولاد، عليهم القيام ببر والديهم، وأن يوطّنوا أنفسهم على ما ينالهم من الوالدين من سوء الخلق وشراسته، وسيىء الأقوال والأفعال التي تصدُر منهم، ليوطنوا أنفسهم على احتمالها، وأن يشكروهم على ما نالهم منهم من الإحسان، مهما كان.

فهذا من البر والصِّلَة التي لا يوفّق لها إلاّ ذو حظ عظيم.

وكذلك حقوق الأصحاب والجيران والمعاملين، ينبغي أن يسلك معهم هذا المسلك: القناعة بما جاء منهم، وتحمُّل ما لا يُوافق الإنسان من قول أو فعل أو معاملة، فبذلك تدوم الصُحبة وتقْوَى.

أما من كان إذا جاءه من أصحابه أو مُعامليه ونحوهم سيئة واحدة، أهدر بها ما سبقها من المحاسن؛ فهذا من أعظم الحمق، وقلة الوفاء، وعدم الإنصاف.

ومن كان بهذا الوصف فهو أبعد الناس من حسن الخلق.

والمقصود: أن المعاملة بين المختلطين والمرتبطين بحقّ من الحقوق:

إذا بنيت على قوله [تعالى]: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ فوطّن العبد نفسه على أخذ المنافع، والصّفح عن [ضِدِّها]، أوصلت صاحبها إلى كل خير، وسلم بها من شرور كثيرة.

وإذا بُنيت على الاستقصاء، وطلب جميع الحق مستوفًى؛ حصل النقص والخلل، وقوله [تعالى]: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

أي إذا جهل أحد عليك بقول أو فعل، فأعرض عن مقابلته بجهله، وقابِله بما تقابله به إذا كان محسناً. فتكسب السلامة والأجر، وحُسن الذكر، والاتّصاف بمكارم الأخلاق وأعاليها.

وكل من عصى الله، أو قصّر في حقه، أو تعدّى على أحد، فهو جاهل؛ سواء كان متعمداً أو غير متعمد.

وذلك أن العلم الذي يعمل الإنسان به هو العلم النافع، والذي لا يعمل به جهل وضلال.

وقد تعوذ ﷺ من علم لا ينفع.

وأما قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي لِيَكُن أمرك لغيرك موصوفاً بوصفين:

أحدهما: أن يكون برِفق وحكمة، وأقرب طريق يوصل إلى هذا المقصود، وذلك يختلف باختلاف العُرف.

والثاني: ليكُن مأمورك الذي تأمر به من الأمور المحبوبة شرعاً وعرفاً. وهو الأمر بالواجبات والمستحبّات من العقائد والأخلاق، والأعمال المتعلّقة بحقوق الله وحقوق خَلقه.

فمن قام بهذه الأمور، فقد اتصف بحسن الخُلق، الذي قال فيه النبي ﷺ:

«إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ، دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»[1].

وأعظم ما يُدخل الناس الجنة، تقوى الله وحسن الخلق.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٧٩٨)، وابن حبان في صحيحه برقم (١٩٢٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٠)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (٧٩٥).

وقد فسره ﷺ، بما يوافق هذه الآية، في قوله لمعاذ وغيره:

«اتَّقِ الله حَيثُمَا كُنتَ، وَأَتبِعِ [السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ] تَمْحُهَا، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(١).

حسن الخلق ومكارم الأخلاق تحبّب العبد إلى أعدائه، وسوء الخلق ينفِّر عنه أولاده وأصدقاءه.

من مزايا حسن الخلق: أن صاحبه يتمكن من إرضاء الناس على اختلاف طبقاتهم. كلٌّ من جالسه وخالطه أحبّه. لا يمله الجليس.

قال ﷺ: **«إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ؛ وَلَكِنْ لِيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ: بَسْطُ الْوَجْهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ»**(٢).

صاحِب الخُلق الحسن، يسهُل عليه إدراك المطالب، وتلين له برفقِه وتحبّبِه إلى الخَلق المصاعبُ.

كم فات سَيِّءَ الأخلاق من مطلوب، وكم جلب عليه الحمق من شرّ مرهوب!

كلّ أحد يودّ الاتّصاف بحسن الخلق، لما يُشاهده من ثمراته الجليلة. ولكن لا يُدركه إلاّ أهل الهِمم العالية النبيلة.

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق، وجَنِّبنا مساوِئها.

[الرياض الناضرة (ص ٧٢ ـ ٧٥)]

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (١٩٨٧)، وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح الجامع برقم (٩٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٣٣١) وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٤٢٨) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٥) وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع برقم (٢٠٤٣).

المبحث السادس

فيما ينبغي

سُلوكه في مُعاشرة المؤمنين

قال رحمه الله:

أصل ذلك قوله ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إيماناً: أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً**»[1].

وقوله ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبُّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[2].

واعلمْ أن الناس في معاشرة بعضهم لبعض، درجات في الخير والشر، لا تنضبِط.

وأغلب المعاشرات قليلة الجدوى، عديمة الفائدة، بل كثير منها مُؤدٍّ إلى الخسران والأضرار الدينية والدنيوية.

ونذكر في هذا الموضع أعلى الأقسام وأنفسها، وأبقاها ثمرة.

فإن أدركها المؤمن بتوفيق الله، وجدّه واجتهاده، فقد أدرك كل خير.

وإن لم تَقْوَ نفسُه على بلوغها، فليجاهدها، ولو على بعضها، وهي يسيرة على من يسرها الله عليه.

فأصل ذلك: أن تعقد عزماً جازماً، وعقيدة صادقة، على محبة جميع المؤمنين، والتقرّب إلى الله في هذه المحبة، وتجتهد على تحقيقها على وجه العموم، وعلى وجه الخصوص، وعلى قلع كل ما يُضادّها أو [يُنقضها]، فتعتقد أن تحقُّق القلب بمحبة المؤمنين عبادة من أجلّ العبادات، وأفضل الطاعات؛

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (١٠/٢١٧ ـ ٢١٨)، وأبو داود في سننه برقم (٤٦٨٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٥٠ و٤٧٢)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (٢٨٤).

(٢) تقدم تخريجه قبل قليل.

فتتخذ جميع المؤمنين إخواناً، تحبُّ لهم ما تحب لنفسك من الخير، وتكره لهم ما تكرهه لنفسك من الشر، [وتعقد] قلبك في تحقيق هذا الأمر الجليل، والاتّصاف به، والاحْتِراز من ضِدّه من الغِلّ والحقد والحسد والبغض لأحد منهم.

ومتى رأيت من قلبك شيئاً من ذلك، فبادر بقَلْعِه، وسَلِ الله أن لا يجعل في قلبك غِلاً على أحد من المؤمنين، خاصّتهم وعامتهم. وميِّز من له في الإيمان مقام جليل، كعلماء المسلمين وعبادهم بزيادة محبة بحسب مقاماتهم، لتكون موافقاً لله في محبته. وتعاهَدْ ذلك بالتحبُّب إلى المؤمنين، بطلاقة الوجه، وحُسن الخُلق، والمعاملة الجميلة، فإنها في نفسها عبادة، وهي جالبة لتحقُّق القلوب بينك وبين المؤمنين بالمودة والرحمة.

ووطِّن نفسك على ما ينالك من الناس من أذًى قَوْلِيّ، أو أذى فعلي، أو معاملة منهم بضِدّ ما عاملتهم به من الإحسان. فإن توطين النفس على ذلك يسهِّل عليك الأمر، وتتلقّى أذاهم بضده.

وليكُن التقرّب إلى الله عند ذلك على بالك، فإن التقرُّب إلى الله هو الذي يهوّن عليك هذا الأمر الذي هو شديد على النفس.

واعلم أن هذا الوصف من أوصاف الكُمَّل من أولياء الله وأصفيائه، فبادِر للاتِّصاف به، فمن أبغضك وعاداك وهجرك فعامِلْه بضِدِّ ذلك لتكسب الثواب، وتكتسب هذا الخُلق الفاضل، وتتعجّل راحة قلبك، وتخفّف عن نفسك همَّ المُعاداة، وربما انقلب العدوّ صديقاً، والمبغض محبًّا، كما هو الواقع.

واعْفُ عما صدر منهم لله، فإن من عفا عن عباد الله عفا الله عنه، ومن سامحهم سامحه الله، ومن تفضل عليهم تفضل الله عليه. والجزاء من جنس العمل.

ولينصبغ قلبُك كل وقت بالإنابة إلى الله، ومحبة الخير لعباد الله، فإن من كان كذلك فقد تأصّلت في قلبه أُصول الخير التي تُؤتي أُكلها وثمراتها كل حين بإذن ربها.

وبهذا يكون العبد أوّاباً. ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٢٥].

وإذا اجتمعتَ مع الناس، فخالِقهم على حسب درجاتهم: الصغير والكبير، والشريف والوضيع، والعالم والجاهل. كلّ أحد تكلمْ معه بالكلام الذي يُناسبه، ويليق بحاله، يُدخل السرور عليه، وبالكلام الذي له به ميدان، معلماً للجاهل متعلّماً ممن هو أعرف منك، متشاوراً مع نظيرك فيما هو الأحسن والأصلح من الأمور الدينية والدنيوية، آخذاً لخواطرهم، موافقاً لهم على مطالبهم التي لا محذور فيها، حريصاً على تأنيسهم وإدخال السرور بكل طريق، مُضمِّناً كلامك لكل أحد [ما] يناسبه من النصائح التي تنفع الدين والدنيا، ومن الآداب الجميلة.

وحُثَّهم على قيام كل منهم بما هو بصدَده من الحقوق التي لله والتي للخلق، موضِّحاً لهم الطُّرق المسهِّلة لفِعل الخير، والأسباب الصّارِفة عن الشر.

واقْنع بالقليل إذا عجزتَ عن الكثير.

واعلمْ أن قبولهم وانقيادهم، مع الرفق والسهولة، أبلغ بكثير من سُلوك طريق الشدة والعنف، إلاّ حيث تُلجِىء الضرورة إلى ذلك.

فللضرورة أحكام.

[الرياض الناضرة (ص ١٨٤ ـ ١٨٦)]

* * *

المبحث السابع

حَثّ الشارِع على الائتلاف والاتّفاق، ونهيه عن التّعادي والافتراق[1]

قال رحمه الله:

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

---

(١) قال شيخنا سماحة الوالد محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
يجب علينا في هذه الصحوة أن نكون في دين الله إخوة متآلفين متوادين لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، والنبي ﷺ قال: «**كونوا عباد الله إخواناً**» [رواه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩)].

ومقتضى هذه الأخوة ألا يعتدي بعضنا على بعض وألا يبغي بعضنا على بعض وأن نكون أمة واحدة غير متفرقة في دين الله من أهوائها وآرائها.
وبناء على هذا يجب أن ننظر فيما حدث بين الشباب، أو بالأصح بين بعض الشباب من نزعات، هي في الحقيقة يتسع لها دين الإسلام. نزعات في مسائل اجتهادية يسوغ فيها الاجتهاد والنصوص تسعها وتحتملها، ولكن بعض الناس يريد أن يلزم عباد الله بما يرى هو أنه الحق.
وإن كان غيره مخالفاً له بمقتضى أن ما خالفه فيه هو الحق. أقول يوجد في بعض الشباب اليوم الذين منّ الله عليهم بالهداية، وحرصوا كل الحرص على تطبيق الشريعة، يوجد فيهم شيء من التنافر على خلاف يسعهم الاختلاف فيه، لأنه محل اجتهاد، والنصوص تحتمل هذا وهذا، ولكن بعض الشباب يريد أن يكون جميع الناس تبعاً لرأيه، فإن لم يتبعوا رأيه فإنه يعتبرهم على خطأ وضلال.
وهذا خلاف ما كان عليه أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم من الأئمة وأنا أقول لكم من هذا المكان: لو تدبرتم كتب الخلاف لوجدتم أن الخلاف بين العلماء كثير ولكن كل واحد منهم لا يُضلل الآخر برأيه واجتهاده بل يرى أنه يجب على الإنسان أن يتبع الحق =

وقال ﷺ: «لا تَباغَضُوا ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ الله إخواناً. الْمُسْلِمُ أخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ، بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ: أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ الْمُسْلِمُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرامٌ: دَمُهُ، ومالُهُ، وَعِرْضُهُ» متفق عليه(١).

وفي الكتاب والسنة من الحث على هذا الأصل نصوص كثيرة. يأمر بكل ما يقوي الألفة، ويزيد في المحبة، ويدفع العداوة والبغضاء، وما ذاك إلاّ لما في الاجتماع والاتفاق من الخير الكثير، والثمرات الجليلة، والبركة والقوة، ولما في ضدّه من ضد ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦].

يعني: [تخيبوا] وتذهب روحكم الحقيقية ومعنويتكم النافعة.

وقد جمع الله في هذه الآية الأمر بالسعي لتحصيل القوة المعنوية بالإيمان والثبات والصبر، والاجتماع، وعدم التنازُع والتفرّق، وبالقوة المعنوية أيضاً والمادية في قوله:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠].

= وألا يحابي فيه أحداً، نعم، قل الحق، ولكن ادع الناس إليه باللين والتيسير والسهولة حتى تصل إلى النتيجة.

. . . إن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ويقول عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

إنني أدعوكم أيها الشباب إلى الألفة وإلى الوحدة على دين الله عز وجل وإلى التأني في الأمور وإلى الحكمة في الدعوة، وبهذا سيكتب لكم النصر إن شاء الله تعالى لأنكم على بينة من أمركم، وعلى بصيرة في دين الله.

[الصحوة الإسلامية (ص ٤٧ـ ٤٩)]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٦٤).

فمتى امتثل المسلمون أمر الله، فسعوا في حُصول الاتفاق، وإزالة العداوات وأسبابها، وكانوا يداً واحدة في السعي في مصالحهم المشتركة ومقاومة الأعداء؛ وبتحصيل القوة المادية بكل مقدور ومستطاع، وكان أمرهم شورى بينهم - متى عملوا على ذلك كله، حصل لهم قوة عظيمة يستدفِعون بها الأعداء، ويستجلِبون بها المصالح والمنافع، وعاد صلاح ذلك إلى دينهم وجماعاتهم وأفرادهم، ولم يزالوا في رقيٍّ مُطّرِد في دينهم ودنياهم.

ومتى أخلُّوا بما أمرهم به دينهم، عاد الضرر العظيم عليهم، فلا يلوموا إلاَّ أنفسهم. وقد وعد الله العزّ والنصر لمن قاموا بالتقوى، واعتصموا بحبله، وتمسكوا بدينه.

وأخبر أن هذا دين جميع المرسلين. قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [سورة الشورى: ١٣].

وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥].

أيها المسلمون: عليكم بلزوم ما حثكم عليه دينكم من المحبة والائتلاف، وإياكم والتفرّق والاختلاف. عليكم بعمل جميع الأسباب المقرّبة للقلوب، وإياكم والعداوات والضغائن التي لا تكسب إلاَّ شرًّا. احذروا سماسرة الأعداء الذي يُلقون بين المسلمين بُذور العداوة والشقاق، ويدّعون أنهم مسلمون، وإنما هو غلّ ونفاق.

المسلم هو الذي يسعى في جمع المسلمين واتفاقهم، ويحذّر غاية التحذير من تدابُرهم وافتراقهم.

ما طمع الأعداء وتسلّطوا إلاَّ بسلاح الفُرقة الفتّاك، ولا استعمروا أقطارَكم وسيطروا على مصالحكم إلاَّ بعد ما انحلت معنويتكم التي هي الحصن الحصين، الواقية من الوقوع في الأشراك.

يا أيها المسلمون: قُوا أنفسَكم وقومَكم مصارع الهلاك، وتسابقوا إلى استنقاذهم من هُوَّة الدمار.

أما علمتم أن الأعداء - إذ كنتم يداً واحدة - ينظرون إليكم نظر التعظيم والرهبة والإكبار.. فما زالوا يُلقون بينكم الشِّقاق والفُرقة، ويضربون بعضكم ببعض، حتى قضوا على معظم مقوّماتكم، وما بقي إلاَّ رمَق حياة!. إن أنتم عالجتموها، وسعيتم في تنميتها وتقويتها، رُجِيَت لكم السلامة والأمن على مستقبلكم. وقد آن الأوان للجِدّ، وشَدّ المئزر، والتعاضُد بين المسلمين وبين حكوماتهم وجماعاتهم على وجه الحكمة ورعاية المصلحة؛ فقد وقفوا على الدّاء، وعرفوا كيفية الطُّرق إلى العلاج والدواء. وقد تقارب ما بين حكومات المسلمين، واضطرّتهم الأحوال إلى انضمام بعضهم إلى بعض، وعرفوا أن هذا هو الطريق الوحيد لعِزّهم، ونرجو الله أن يوفقهم للعمل الناجح، والسعي النافع.

أيها المسلمون: أنتم الآن في مفترق الطُّرق بين الأمم. فإما تمسُّك بدينكم واجتماع به يحصُل الفَلاح، وإما إعراض وتفكّك لا يُرجى بعده عِزّ ولا نجاح.

أيها المسلمون: قُوموا لله، واعتصموا بحبل الله، واطمعوا واثقين بنصر الله؛ فالله مع الصابرين المتقين، وهو المولى، فنعم المولى ونعم النصير. طُوبى للرجال المخلصين، وواشوقاً إلى الألباء الصادقين، الذين يُنهضون همم المسلمين في أقوالهم وأفعالهم، ويحذّرون مسالك الشرّ في كل أحوالهم. يسعون في تقريب القلوب، ويجاهدون أحقّ الجهاد في هذا السبيل. دأبهم القيام بدين الله، والنصيحة لعباد الله، كل امرىء منهم بحسب مقدوره: هذا بتعليمه وكلامه، وهذا بوعظه وإرشاده، وهذا بقوّته وماله، وهذا بجاهه وتوجيهه إلى السبيل النافع، قد تعدّدت طُرقهم، واتّفقت مقاصِدُهم. أولئك هم المفلحون.

[الرياض الناضرة (ص ٥٩ - ٦١)]

* * *

المبحث الثامن

الحثّ على المشاورة في كلّ الأمور

قال رحمه الله:

قال تعالى مخبراً عن المؤمنين، مُثنياً عليهم: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1] [سورة الشورى: ٣٨].

وهذا يشمل جميع أمورهم الدينية والدنيوية، الداخلية والخارجية، العامة والخاصة.

وأمر رسولَ الله ﷺ مع كمال عقله، وسداد رأيه، وعلوّ مكانته، فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

وكان ﷺ يُشاور أصحابه في كلّ ما يحتاج إلى المشاورة من دقيق وجليل، ويأخذ برأيهم المصيب، وربما ابتدأُوه بالرأي الذي يرونه، فيرجع إليه إذا اتّضح له صوابه. وإنما كانت المشاورة لها هذا المقام الجليل لما يترتب عليها من المصالح الكلية العامة، في الشؤون الدينية، والشؤون الدنيوية، وأمور السياسة وتوابعها.

فمن فوائد المشاورة: امتثال أمر الله ورسوله، فإن طاعة الله ورسوله خير

---

(١) قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى:
قوله تعالى: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾، يعني أمرهم المشترك الذي هو للجميع، كالجهاد مثلاً، فإنه شورى بينهم. فإذا أراد ولي الأمر أن يجاهد أو أن يفعل شيئاً عاماً للمسلمين فإنه يشاورهم.
ولكن كيف تكون المشورة؟ المشورة تكون إذا حدث له أمر يتردد فيه، جمع الإمام من يرى أنهم أهل للمشورة برأيهم وصلاحهم، واستشارهم.
أما الاستخارة فهي مع الله عز وجل يستخير الإنسان ربه إذا هم بأمر وهو لا يدري عاقبته ولا يدري مستقبله، فعليه بالاستخارة. والاستخارة معناها طلب خير الأمرين...
[شرح رياض الصالحين (٧/ ١٦٧، ١٦٨)]

وسعادة، ولو فرض أننا لم نشعر بفائدتها، بل هذه الفائدة أعظم الفوائد وأساسها. ومن فوائدها: أنها تُقوِّي الأُلفة بين المسلمين، وتُوَثِّق الروابط بين المتشاورين، جماعاتٍ أو أفراداً.

فإن المتشاورين يشعرون أن مصلحتهم واحدة، وطريقهم إلى تحصيلها واحد؛ فيفكرون في هذا الطريق، وعلى أي وجه يسلكونه لتحقيق مصلحتهم. ومتى شعروا بارتباط المصالح، قوِيَت المحبّة، وتوثّقت الصداقة.

وهذا من الفوائد المحسوسة؛ فكم كان أناس مُتباينين متباعدين؛ فلما جمعتهم بعض الشؤون، وشعروا بوحدة مصلحتهم، تقاربوا بعد التباعُد، وتصادقوا بعد التعادي.

ومن فوائدها: أن مصلحة المشاورة محسوسة في العلوم والآراء والأعمال، وإصابة الصواب. فالرأي الواحد والعمل الواحد يعتريه النقص كثيراً. فإذا كثرت الآراء واتفقت، وحصل التعاون على الأعمال النافعة، أصابوا الصواب، وأدركوا النجاح.

ومنها: أن الآراء والأفكار تحتاج إلى رياضة وتمرين، فإن تمرين الذهن على التدبّر والتفكر، وتقليب الأمور على كل وجه ممكن، مما يُرَقِّي الذهن ويُنمِّيه، ويُوَسّع دائرة المعارف. وعدم ذلك أو قِلّته، مما يضعف القريحة، ويخمد الفكر، ويحدث البلادة. فكثرة المشاورات [هي] التمرين الوحيد والرياضة للأفكار، فإن تبادل المناظرات، واحتكاك الأفكار بعضها ببعض، واستعانة بعضها ببعض، وتعديل بعضها بعضاً، له فائدته العظيمة الملموسة.

فكما أن الأعمال العظيمة لا تُدرك إلاّ باجتماع قُوَى متعددة، بحسب تلك الأعمال، فكذلك الأمور المشكلة، والأحوال المشتبهة: لا يقوم بها فكر واحد، ونظر واحد، بل لا بد من عدة أفكار تتراود عليها، فإن العمل تابع للعلم. والله أعلم.

ومنها: أن الأعمال المشتركة التي لا يمكن قيام واحد [بها] من المشتركين فيها، سواء كانت أموراً دينية أو دنيوية، إذا بُنيت على المشاورة، ثم وزعت بينهم بما يُناسب أحوالهم، كان أرجَى لحصول النجاح، فإن كلاً منهم

يمدّ الآخر برأيه ومساعدته وعمله. ونفعُ هذا معروف.

ومنها: أن الإنسان إذا شاور في أموره وتأنّى، فوقعت على خلاف مُراده، لم يندم، لأنه أبدى المجهود، ولم يدّخر من أسباب النجاح شيئاً يقدِر عليه؛ فيوجب له الطمأنينة والسكون والرضا والتسليم، ويستدرك ما يمكن استدراكه، ويعرف الأسباب الناجحة والمحققة.

وإذا لم يُشاور، فوقعت على خلاف ما يجب، ندم ندامة شديدة، وجعل يقول: لولا، ولو ما.

ومنها: أن المشاورة تنفي عن العبد العُجْب والغرور بالنفس، فإن المعظِّم لنفسه، المعجَب برأيه، لا يكاد يُشاور أحداً، ولا يلين لمن ينصحه.

وهذا الخُلق رذيل جدّاً، وضرره كبير.

فالمعجَب برأيه، لا بد أن يضلّ، ويظنه على هدى؛ لأن خيالات الغُرور لا تدَع الإنسان ينظر إلى عُيوبه فيُصلحها، ولا إلى نقصه فيُكمله. فعُنوان العقل والتواضُع: كثرة المشاورة، وقبول قول الناصحين. وعنوان الجهل والغرور: الاستبداد، ورفض نُصح الناصحين.

واعلم: أن المشاورة تختلف باختلاف مواضيعها، فأمور السياسة يُشاوَر فيها أهلُ الحلّ والعَقد، والرجال [المتميزون] في عقولهم وآرائهم وكمال نصحهم.

وأمور العلم والدين يُشاوَر فيها أهلُ العلم والدِّين، [الجامعون] بين العلم والحلم، والعقل والدين.

والأمور الدنيوية يُشاوَر فيها أهلُ الخِبرة فيها والرأي بحسب أحوالها. ولا بد في ذلك كله من قصد النصح.

ومن ألطف أنواع المشاورات الخاصة وأنفعها للإنسان، الأمور المتعلقة بالعائلة وأمور البيت؛ فينبغي للوالد أن يُشاور أولاده في الأمور المتعلقة بهم، ويستخرج آراءهم، ويُعوّدهم على تربية أفكارهم وتنمية عقولهم؛ فإن هذا فيه نفع وتعليم، وتوسيع لدئرة معارفهم، وحمل لهم على النصيحة لوالدهم.

وكذلك يُشاور زوجته في أحوال البيت، وكيفية تدبيره.

وإذا رأى منها الأمانة والأهلية، جعل لها الاستقلال في تدبير مصارِف البيت، لتهتمّ وتشعرُ بمسؤوليتها، وتجتهد في الأعمال الاقتصادية، ويستفيد ربُّ البيت الراحة والطمأنينة. فمتى كانت الأُنثى أصيلة وأمينة، ورأت من زوجها هذه الثقة، بذلت النُّصح التامّ، وعزّ عليها أن يذهب شيء في غير محلّه.

ومتى أخذ على يدها، وحفِظ عليها، وقتّر قُوتَها وحوائجها الأصلية والعالية، لم يستفد بهذا العمل إلاّ العناء والتعب، وكثرة النزاع، وتكدر العيش!.

وكم رأينا، ورأى غيرنا، من هذا شيئاً كثيراً!

فالهناء، والسعادة، والخير العاجل، والآجل، تبع للدِّين وأخلاقه. والشقاء والشر، حيث فقد الدين، وفقدت آدابه.

المشاورة: تُنوّر الأفكار، وتحلّ الاشتباه والإشكال، وتُبلّغ العبد الآمال.

المشاورة: عنوان العقل. والاستبداد: من نتائج الجهل.

ما ندم من استعان بالله واستخارَه، وشاور الناصحين.

[الرياض الناضرة (ص ٦٢ ـ ٦٥)]

* * *

المبحث التاسع

إرشادات وتنبيهات على طريق الدعوة

(١) فوائد إشارة إلى إرشادات نافعة

ينبغي للإنسان أن يحب للناس ما يحب لنفسه ويعمل لهم كما يعمل لنفسه، وينبغي أن يستخير الله في أموره المشتبهة في نفعها وفي أيها يقدم، فإذا بان له الصواب؛ فليتوكل على الله وينجزها بهمة صادقة وعزيمة جازمة مستمرّة؛ فبذلك ينجح وتتم الأمور، وينبغي أن يكون عمل العبد الديني والدنيوي منظماً محكماً يأتيه في طمأنينة وتأنٍّ، وأن يكون معتدلاً لا يميل إلى أحد الطرفين الناقصين: الغلو أو التقصير، الإسراف أو البخل، وينبغي أن يكون مستمعاً أكثر مما يكون متكلماً إلاَّ إذا ترجحت المصلحة في أن يكون متكلماً لتعليم ونحوه، وينبغي أن يعود نفسه على الصبر والحلم وكظم الغيظ والعفو عن الناس ليحصل له الثواب، ويستريح باله.

وإياك والغل والحقد والحسد، وأكثر من الدعاء والتحقق بمعنى هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر: ١٠]، وعليك أن تصغي إلى الناصحين وتبدي لهم الشكر أصابوا أو أخطؤوا، وتكون سريع الرجوع عن أخطائك؛ فإن هذا عنوان الإخلاص والفضل.

وإياك أن تثني على نفسك وتقدح في غيرك؛ فإن هذا عنوان النقص والحمق، وإذا عاينت عملاً من الأعمال؛ فالزم الثبات عليه.

وإياك والملل والضجر؛ فإن هذا عنوان الفشل والخيبة، واحذر من الكبر والغرور واحتقار الخلق، وعليك بالتواضع والاهتمام بالخلق ورؤية فضل ذي الفضل منهم، واللين والبشاشة لكل أحد مع الإخلاص لله وإرادة إدخال السرور عليهم؛ ففي ذلك من المصالح والفوائد ما لا يعد ولا يحصى، وإذا غلبت في

أمر من الأمور؛ فلا يستول عليك الفشل، بل لا تزال قوي الإرادة إلى كل ما ينفعك في حالة الانتصار وحالة ضده.

وإياك والتحسر على الأمور الماضية التي لم تقدر لك من فقد صحة أو مال أو عمل دنيوي ونحوها، وليكن همك في إصلاح عمل يومك؛ فإن الإنسان ابن يومه لا يحزن لما مضى ولا يتطلع للمستقبل حيث لا ينفعه التطلع، وعليك بالصدق والوفاء بالعهد والوعد والإنصاف في المعاملات كلها، وأداء الحقوق كاملة موفرة بنفس مطمئنة وإيمان صادق خالص، واشتغل بعيوبك وشؤونك عن عيوب الناس وشؤونهم، وعامل كل أحد بحسب ما يليق بحاله من كبير وصغير وذكر وأنثى ورئيس ومرؤوس، وكن رقيقاً رحيماً لكل أحد حتى للحيوان البهيم؛ فإنما يرحم الله من عباده الرحماء، وكن مقتصداً في أمورك كلها، وافتح ذهنك لكل فائدة دينية أو دنيوية.

وإياك والتعصب الذميم وسوء الظن الذي لا يبنى على أساس، وحاسب نفسك، وسدد نقصك، واستغفر الله من تقصيرك وإفراطك.

[مجموع الفوائد (ص ٢٥٩ ـ ٢٦١)]

(٢) الدين النصيحة

قال رحمه الله:

النّصيحةُ لله: هي القِيام بعبوديته الظّاهِرة والباطِنَة، بإخلاص كامل، وتكميل تامّ لأجزاء العُبودية ظاهراً وباطِناً، وفِعْلٌ لما يَقْدِر عليه منها، وعَزْمٌ جازِم على فِعل ما لا قُدرة له عليْه لو قدَر.

والنّصيحة لكتاب الله: هي الجِدُّ في تعرُّف ألفاظه ومعانيه بحسب ما تصِل إليه القُدرة، والاجتهاد في العمل به، والدعوة إلى ذلك.

والنصيحة للرّسول: هي كَمال الإيمان به ومحبّته وطاعته، واتِّباعه، وتقديم قوله وهديه وسيرتِه على كلّ قوْل وهَدْي وسِيرَة، ونَصْرُ ما جاء به.

ونصيحة أئمة المسلمين ـ وهم سلاطينُهم وحُكّامهم وولاتهم ـ:

بالاعتراف بإمامتهم، والتديُّن بالسمع والطاعة لهم، ونصيحتهم وإعانتهم على الخير الذي قاموا به، قولاً وعملاً.

ونصيحةُ عُموم المسلمين: أن يحِبّ لهم من الخير ما يُحِبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويُعَلِّم جاهِلَهم، وينْصح من يراه مُخِلاً بواجِب، أو مُتجرِّئاً على محرّم. وإرشاد الناس على اختلاف طبقاتهم إلى ما فيه صلاح لهم في أمر دينهم وأمر دنياهم، والدعوة إلى ذلك كله، ومُجانبة غِشِّهم في الأقوال والأفعال، والمعاملات، وأداء الحُقوق لمن له حقّ على الإنسان.

[الفتاوى السعدية (ص ٤٩)]

(٣) محبة الأخيار والاتصال بهم

قال رحمه الله:

كتبت إلى بعض الفضلاء مكتوباً؛ قلت فيه: أخبرك يا أخي بما في قلبي لك من الود المبني على ما وصل إلي من أخلاقكم الجميلة وسيرتكم الحميدة والرغبة الأكيدة بالاتصال بأمثالكم من الأخيار؛ فإن في الاتصال بالأخيار فوائد عديدة أكبرها وأفضلها:

- أن هذه طاعة لله ورسوله، ومما يحبه الله ورسوله.

- ومنها: أن هذا تابع لمحبة الله ورسوله؛ فتمام محبة الله ورسوله محبة من يحبه الله ورسوله.

- ومنها: ما في ذلك من النصوص الحاثة على هذه المحبة، منها حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله، فذكر رجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه[1].

- ومنها: أنه ورد عن النبي ﷺ عدة أدعية في هذا الشأن، منها قوله:

---

(١) كما في صحيح البخاري برقم (٦٦٠)، وصحيح مسلم برقم (١٠٣١).

«**اللهم! إني أسألك حبك وحب من يحبك**»[1]، وكل مطلوب مسؤول كما عليك أن تسأله من الله؛ فعليك أن تسعى بجميع الأسباب الجالبة له المحصلة له؛ فالمؤمن يدعو الله بحصول المطالب الدينية والدنيوية، وفي دفع المكاره، ومن لازم ذلك السعي في تحصيل المطلوب وفي دفع المكروه؛ فيجمع بين الدعاء والسعي في نيل المطلوب، فالدعاء وحده من دون سعي قليل الجدوى.

ـ ومنها: أنه من أعظم المكاسب وأجل المغانم كسب صداقة الأخيار واغتنام أدعيتهم في الحياة وبعد الممات.

ـ ومنها: أنه بسبب ذلك رُبَّما حصل إفادة أو استفادة من الطرفين، أو نصيحة من أحد الجانبين.

ـ ومنها: أنه بسبب ذلك يحصل من الأدعية والتوجيهات القلبية ما ينتفع به كُلٌّ منهما من الآخر في الحياة وبعد الممات.

ـ ومنها: أن هذا من البشرى في الحياة الدنيا، فمتى وفق العبد لمحبة الصالحين وصحبتهم والاتصال بهم؛ رجي أن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [سورة مريم: ٩٦]؛ أي منه ومن دعاء الصالحين.

ـ ومنها: أن الله تعالى يجمع لأهل دار السعادة جميع المسرات التي من جملتها الاجتماع في الجنة والمنازل العالية بمن يحبهم ويتصل بهم، كما قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [سورة الرعد: ٢٣]. فالأزواج هم النظراء في العمل والمحبة، وإن دخلت فيه الزوجات بوجه آخر، فبعض هذه الفوائد تكفي في الترغيب في محبة الأخيار والاتصال بهم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ١٠٦ـ ١٠٨)]

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣٤٩٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٣٠)، وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في ضعيف سنن الترمذي رقم (٦٩١).

(٤) العفو عن الناس

قال رحمه الله:

العفو عن الناس إذا أساؤوا إليك كله محمود، وخصوصاً من لهم حق متأكد من ولادة وقرابة وصداقة ونحوها، وأخص من ذلك من كانت إساءتهم إليك صادرة عن مقصد حسن هو فيه غلط في أصله أو في مقداره، وكان بعضهم يقول: كل من أساء إلي بقول أو فعل أو اعتراض، وقصده بذلك وجه الله، أو كان قصده مشوباً بعضه لله وبعضه تبع لغرض النفس؛ فهو مني في حل، وقد سامحته لله الذي للمسيء إليّ نوع احتساب، وإن كان مخطئاً أو مزوراً عليه أو بانياً على قول الطائفة التي عرفت بالاعتراض علي؛ فكل هذه الأقسام قد سامحته لله علمت بإساءته أو جهلتها، وأما من ليس له من المقاصد إلاَّ الأغراض النفسية والعدوان المتمحض الذي يعلمه من نفسه؛ فهذا لا أقابله بإساءته وأمره إلى الله، ومن وصل إلى هذه الحالة؛ فليحمد الله على هذه النعمة الكبرى، وعلى راحة الضمير، وعلى كثرة ما يجني من الخير، وعلى ما يرجى له من جزاء ربه له ومعاملته له، وأنه يرجى أن يكمل الله له النواقص ويعفو عما مزج فيه العبد أغراضه وشهواته النفسية مع داعي الإخلاص ويستثنى من هذا الأصل العفو عن المجرم المفسد المتمرد الذي العفو عنه مما يزيده في عتوه وتمرده فالواجب في مثل هذا الردع والزجر بكل ممكن، ولعل هذا يؤخذ من القيد الذي ذكره الله بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [سورة الشورى: ٤٠].

فشرط الله أن يكون العفو فيه صلاح، فأما العفو الذي لا صلاح فيه بل فيه ضده فهو منهي عنه، والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٦٣، ٦٤)]

(٥) التحذير من الوقوع في أعراض الناس

قال رحمه الله:

إياك والوقوع في أعراض الناس؛ فإن في ذلك الهلاك وذهاب الحسنات وزيادة التبعات ونقص الإيمان والمروءة والاعتبار، والنزول من أعالي الأخلاق

إلى أسافلها، ومن ألقى نظرة صحيحة على المبتلى بالوقوع بأعراض الناس أخذه العجب الكثير؛ فإن الإنسان لا يعاني أمراً من الأمور إلاَّ لما يرى له من المنفعة الدينية والدنيوية أو المروءة الإنسانية أو اللذة الحقيقية، وهذا فاقد لهذه الأمور كلها؛ فالمضرة الدينية متحتمة لا محالة، وفيها تلك المضار المنبه عليها، وأما المصلحة الدنيوية؛ فأي مصلحة يصيبها من ذم من يبغضه والوقوع فيه؟! بل هذا يعبر عن نقصه وضعف عقله وحمقه؛ فإن العقل إنما يدعو إلى الاشتغال بما يحصل به نفع ديني أو دنيوي، وهذا ضرر فيهما، وهو حمق؛ إذ هو يذهب إلى أعز شيء عنده وأغلى مدخر ـ وهو الحسنات ـ، فيهديها إلى أبغض الناس إليه، وحمق من أخرى؛ فإنه يخيل له أنه يأخذ بثأره من عدوه وينتصر ممن يبغضه بكلام فيه وقدحه فيه، وهو في الحقيقة انتصار العاجزين وسلاح الجبناء؛ فإن أكبر معبر عن نقص القادح وعجزه وعجبه بنفسه، فمن عنده مسكة من عقل وشيء من حزم يربأ بنفسه من هذا المرتع الوخيم، والمورد الذميم، مهما يجلب عليه من تبعات اللسان وعثراته ورجوع ضرره عليه؛ فإنه معين لصاحبه عليه؛ فكم من باغٍ على غيره بالكلام أو غيره صرعه بغيه وعاجلته جرأته؟! وكم من حافرٍ لغيره حفرة هلاك وقع هو فيها؟! فيا عجباً للمبتلى بهذا الأمر وهو يرى بعض هذه المضار ويعلم هو وغيره أنه أكبر خزي عليه وعار!! و ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٨]؛ فيا من عرف من هذا البلاء الفتاك! احمد ربك على هذه النعمة العظمى، ولتهنك العافية والسلامة والراحة والغبطة والخير العاجل والآجل.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ١٩٧، ١٩٨)]

(٦) البشاشة المخلصة

قال رحمه الله:

قوله ﷺ في ذكره الإحسان: **«ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»**[(١)]، وذلك أن البشاشة المخلصة الصادرة بالقلب على الوجه تعبر عما يكنه من محبة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٩٤)، وابن حبان في صحيحه برقم (٥٥١).

ووداد، وأنه فيه برؤية أخيه واجتماعه به، وهي جذابة للقلوب كما هو مشاهد، وأي إحسان أبلغ من هذا؟! وأما مجرد البشاشة الخالية من الوجه المتطلق عن القلب؛ فإنها قليلة الجدوى.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٢٥٤)]

(٧) الأمر باللين والقول الحسن

قال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة طه: ٤٤]. وقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [سورة البقرة: ٨٣]، وقول النبي ﷺ: **«ما كان الرفق في شيء إلاَّ زانه، وما كان العنف في شيء إلاَّ شانه»**(١).

ما أعظم فوائد هذه الإرشادات الحكيمة والأمر باللين والقول الحسن لعموم الناس والرفق! فإن لها التأثير العظيم في حصول المراد المطلوب من أقوال وأفعال، ولهذا الوقع الأكبر في التحبب إلى الناس وإزالة ما في قلوبهم من بغض وغل وحقد وجلب خواطرهم إلى مطلوبك الديني والدنيوي.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٢٥٤، ٢٥٥)]

(٨) المجادلة بالتي هي أحسن

قال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]: فيها النهي عن المجادلة إلاَّ بالطريقة المثلى والحكمة العليا، وفيها أنه ينبغي لمن ناظر غيره أن يؤسس الأسس التي يتفق عليها المتناظران، ثم إذا حصل الاتفاق وتم الالتئام؛ انتقل منه إلى المواضع المختلف فيها بلطف ولين وهدوء.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٢٥٥)]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٢٦).

(٩) التثبت في سماع الأخبار

قال رحمه الله:

التثبت في سماع الأخبار وتمحيصها ونقلها وإذاعتها والبناء عليها أصل كبير نافع أمر الله به ورسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [سورة الحجرات: ٦]؛ فأمر بالتثبت، وأخبر الأضرار المترتبة على عدم التثبت، وأن من تثبت لم يندم، وأشار إلى الميزان في ذلك قوله: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، وأنه العلم والتحقق في الإصابة أو عدمه، فمن تحقق وعلم كيف يسمع، وكيف ينقل، وكيف يعمل، فهو الحازم المصيب، ومن كان بضد ذلك فهو الأحمق الطائش الذي مآله الندامة، وأحوج الناس إلى هذا الأمر الولاة على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم، وأهل العلم على تفاوت درجاتهم، وذلك يحتاج إلى اجتهاد وتمرين للنفس وتوطين لها على ملازمة التثبت مع الاستعانة بالله. والله الموفق المعين.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٣٢، ٣٣)]

(١٠) أحكام الظن

قال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [سورة الحجرات: ١٢]: نهى تعالى عن كثير من الظن، وأخبر أن بعضه إثم؛ فيدل على أن بعضه غير إثم وغير منهي عنه، وهذا تحويل على ما بينه الله ورسوله، وأمر بتطبيق الظنون على الأصول الشرعية، فالظن المستند على القرائن والأصول قد يجب، وقد يسن، وقد يباح، وقد يعذر فيه العبد، والظن الذي لا يستند على شيء من ذلك لا يغني من الحق شيئاً، والظن بمسلم ظاهره العدالة من باب ظن الإثم، وظن السوء بأهل الريب والمتظاهرين بالشر والاحتياط في أمرهم مأمور به، والتحرز من الأضرار التي يخشى من وقوعها يعد من الحزم والحذر. والله أعلم.

[مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ٣٣)]

(١١) نصيحة من القلب إلى القلب

قال رحمه الله:

الداعي إلى الله وإلى دينه له طريق ووسيلة إلى مقصوده، وله مقصودان. فطريقه: الدعوة بالحق إلى الحق للحق، فإذا اجتمعت هذه الثلاثة بأن كان يدعو بالحق أي: بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وكان يدعو إلى الحق وهو: سبيل الله تعالى وصراطه الموصل لسالكه إلى كرامته، وكانت دعوته للحق أي: مخلصاً لله تعالى قاصداً بذلك وجه الله؛ حصل له أحد المقصودين لا محالة، هو: ثواب الداعين إلى الله، وأجر ورثة الرسل بحسب ما قام به من ذلك. وأما المقصود الآخر وهو حصول هداية الخلق وسلوكهم لسبيل الله الذي دعاهم إليه، فهذا قد يحصل وقد لا يحصل، فليجتهد الداعي في تكميل الدعوة كما تقدم وليستبشر بحصول الأجر والثواب.

وإذ لم يحصل المقصود الثاني وهو هداية الخلق أو حصل منهم معارضة أو أذيَّة له بالقول أو بالفعل فليصبر ويحتسب، ولا يوجب له ذلك ترك ما ينفعه وهو القيام بالدعوة على وجه الكمال، ولا يضيق صدره بذلك فتضعف نفسه وتحضره الحسرات، بل يقوم بجد واجتهاد ولو حصل ما حصل من معارضة العباد. وهذا المعنى تضمنه إرشاد الله بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [سورة هود: ١٢]. فأمره بالقيام به بجد واجتهاد مكملاً لذلك غير تارك لشيء منه ولا حرج صدره لأذيتهم؛ وهذه وظيفته التي يُطالب بها فعليه أن يقوم بها، وأما هداية العباد مجازاتهم فذلك إلى الله الذي هو على كل شيء وكيل.

[المواهب الربانية (ص ٤٩، ٥٠)]

* * *

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الفصل الرابع

خطب الشيخ السعدي
حول الدعوة إلى الله تعالى

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

خطبة

في النصيحة

الحمدُ للَّهِ الذي أوجَبَ عَلى عبادِهِ النُّصْحَ في العباداتِ والمعاملاتِ، وحذَّرَهُمْ من الغِشِّ والغِلِّ والخياناتِ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلاَّ اللَّهُ المعروفُ بجَميلِ الهباتِ وعظيم الصفاتِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ سيِّدُ الرُّسُلِ الذي رفَعَهُ اللَّهُ درجاتٍ، اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ وبارك عَلَى محمَّدٍ وأصحابِهِ ومَنْ تبعَهُمْ في كُلِّ الحالاتِ.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ؛ اتَّقوا اللَّهَ بفعلِ أوامرِه واجتنابِ نواهيهِ، وبتركِ مساخطِهِ والإقبالِ على مراضيه، وتقرَّبوا إليْه بالنَّصيحةِ فيما يُظْهِرُهُ أحَدكمْ أو يُخْفِيهِ، قال ﷺ: **«الدينُ النصيحةُ»** ثلاثاً قالوا: (لِمَنْ يا رسول الله)؟ قال: **«للَّهِ ولكتابِه ولرسولِه ولأئمةِ المسلمين وعامَّتِهم»**[1] فأخبر ﷺ خبراً متضمِّناً للبحثِ على النَّصيحةِ والترغيبِ فيها أنَّ الدينَ كلَّهُ منحصرٌ في النَّصيحَةِ، أيْ ومَنْ قامَ بالنَّصيحَةِ كلِّها فقد قامَ بالدين، وفسَّرَهُ تفسيراً يزيلُ الإشكالَ، ويعمُّ جميعَ الأحوالِ.

أمَّا النَّصيحَةُ للَّهِ، فهي القيامُ بحقِّهِ وعبوديَّتِه، وذلك يشْملُ ما يجبُ اعتقادُهُ من أصولِ الإيمانِ، وما يتَعينُ القيامُ بهِ من شرائعِ الإسلامِ وحقائقِ الإحْسانِ، من أعمالِ القلوبِ والجوارحِ وأقوالِ اللسانِ. وهو فِعلُ المأمورِ مِنَ الفرائضِ والنوافِلِ ونِيَّةِ القيامُ بما يعْجزُ عنهُ منها. وأمَّا النَّصيحَةُ لِكتابِ اللَّهِ فهي الإقبالُ بالكُليةِ على تِلاوتِه وتدبُّرِهِ وتَعلُّمُ معانيه، وتعليمُها والتخلُّقُ بالأخلاقِ والأعمالِ التي دعا إليها القرآنُ، وأمَّا النَّصيحةُ للرَّسُولِ فهي الإيمانُ الكاملُ بِهِ وتعْظيمُهُ وتوقيرُه وتقديمُ محبَّتِه واتباعِه على كلِّ أحدٍ وتحقيقُ ذلك باتباعِه باطناً

---

(١) تقدم تخريجه قبل قليل.

وظاهراً والحرصِ على تعلُّمِ سنَّتِه وتعليمِها، وجملةُ ذلك وحاصِلُه هو الإيمانُ باللَّهِ ورسُوله وطاعةُ اللَّهِ ورسُولِه.

وأمَّا النَّصيحَةُ لأئِمَّةِ المسلمينَ وهمْ ولاتُهمْ مِنَ السلطانِ الأعظمِ إلى الأميرِ إلى القاضي إلى جميعِ مَنْ لهم ولايةٌ كبيرةٌ أو صغيرةٌ: فهؤلاء لما كانت مُهمَّتهُمْ وواجباتُهمْ أعظمَ من غيرِهم وجبَ لهُمْ مِنَ النَّصِيحَةِ بحسَبِ مراتبِهم ومقاماتِهم وذلك باعتقادِ إمامَتِهِمْ والاعترافِ بولايتِهِمْ، ووجوبِ طاعتِهم في المعروف، وحثِّ الرَّعيَّةِ على طاعتِهِمْ ولزومِ أمرهِمْ، وبذلِ ما يستطيعُهُ الإنسانُ من نصيحَتِهِم، وتوضيحِ ما خفي عليهمْ ممَّا يحتاجونَ إليه في رعايتِهِمْ كلَّ أحدٍ بحسَبِ مرتبَتِه والدعاء لهمْ بالتَّوفيقِ والصَّلاحِ. فإنَّ صلاحَهُمْ صلاحٌ للرَّعيَّةِ وصلاحٌ للأمورِ، واجتنابُ سَبِّهم والقدحِ فيهم وإشاعةِ مثالِبهمْ. فإنَّ في ذلك شرّاً وضرراً وفساداً كبيراً، ومنْ رأى مِنهم ما لا يَحِلُّ فعليه أن يُنَبِّهَهُم سِرًّا لا علناً، بلطْفٍ وعبارةٍ تليقُ بالمقام، فإنَّ هذا مطلوبٌ في حقِّ كُلِّ أحد وبالأخصِّ ولاةُ الأمورِ فتنبيهُهُم على هذا الوجهِ فيه خيرٌ كثير.

وأمَّا النَّصيحَةِ لعامةِ المسلمين فبمحبَّةِ الخيرِ لهُم وإيصالِه إليهم بحسَبِ الإمكان، وكراهة الشرِّ لهُم والسعي في دفعِه بحسبِ القدرة، وتعليمِ جاهِلِهم ووعْظِ غافِلِهم، ونصحِهِمْ وإرشادِهم في أمور دينهم ودُنْياهُم، وكما تحِبُّ أنْ يفعلوهُ معك في الإحْسانِ فافعلْهُ مَعهُمْ، ومعاونتِهم على البرِّ والتَّقوى، ومساعدتِهِمْ في كُلِّ ما يحتاجونَهُ فَمن كانَ في حاجةِ أخيهِ كانَ اللَّهِ في حاجتِه. فتبينَ بهذا أنَّ النَّصيحَةَ تشْملُ الدينَ كلَّهُ: أصولَهُ وفروعَهُ، وحقوقَ اللَّهِ وحقوق عبادِه. فأينَ النَّصيحةُ ممَّنْ تهاونَ بحقوقِ اللَّهِ فضيَّعها، وعلى محارمِه فتجرأ عليها؟ وأينَ النَّصيحَةُ من أهلِ الخياناتِ وأصحابِ الغِشِّ في المعاملاتِ؟ وأينَ النصيحَة ممَّنْ يحبُّونَ أنْ تشيعَ الفاحِشةُ في الذينَ آمنوا ومنْ يتتبَّعونَ عوراتِ المسلمين وعثراتِهم، فهؤلاء عن النَّصيحَةِ بمعزلٍ، ومنزلُهُمْ منها أبعدُ منزلٍ. طوبى للنَّاصحينَ. ويا خسارةَ الغشاشِين.

مَنَّ اللَّهُ عليَّ وعليكُمْ بالقيامِ بالنَّصيحَةِ، وحفظَنا من أسبابِ الخزْيِ والفضيحة.

أعوذُ باللَّهِ من الشيطانِ الرجيم.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [سورة الزلزلة: ٧، ٨].

باركَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

خطبة

في نصائح نبوية

الحمْدُ للَّهِ الذي مَنَّ على المؤمنينَ إذْ بعَثَ فيهم رسولاً مِنهم يتْلو عليهم آياتِه ويُزكِّيهمْ ويُعَلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قبلُ لفي ضلالٍ مُبينٍ، وخصَّهُ بجوامِعِ الكلمِ وغرر الحكم، وجعَلَ قبولَ وصاياهُ واتِّباعَ هديِه داعياً لمحبَّةِ ربِّ العالمين. وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ الملكُ الحقُّ المُبين، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدِ ورسُولُه الصادقُ الناصِحُ البارُّ الأمينُ، اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلِه الطَّيِّبينَ وأصحابِه الطَّاهرين، ومنْ تَبِعَهُمْ إلى يومِ الدِّين.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ وكونوا معَ الصادقين، وأطيعوا اللَّهَ ورسُولَهُ إنْ كُنتم مؤمنينَ، وكونوا مِمَّنْ يَسْتمعُ القولَ فيتَّبِعُ أحْسنَهُ أولئكَ الَّذِين هداهُمُ اللَّهُ وأُولئك هُمْ أُولو الألبابِ، فلقدْ جاءَكم رسُولٌ مِنْ أنفُسِكم عزيزٌ عليْه ما عَنِتُّم حريصٌ عليْكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ، فَمنْ قَبِلَ نصائحِه استقامَ على الصِّراطِ المستَقيم، وأوصَلهُ ذلكَ إلى جنَّاتِ النَّعيم فقد قالَ ﷺ: **«اتَّقِ اللَّهَ حيثما كنتَ وأَتبِعِ السَّيئةَ الحسنَةَ تمحُها، وخالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»**[1]، **«ثلاثٌ مُنجياتٌ وثلاثٌ مُهلِكاتٌ، فأَمَّا المُنجياتُ فتقْوى اللَّهِ في السِّرِّ والعلانِيةِ والقولُ بالحقِّ في الرِّضى والغَضَبِ والقصدُ في الغِنى والفقْرِ، أمَّا المُهلِكاتُ فهوىً مُتَّبعٌ وشُحٌّ مطاعٌ**

---

(١) تقدم تخريجه.

وإعجابُ المرءِ بنفسِه وهي أشدُّهُنَّ»[1] ومَنْ تواضعَ للَّهِ رفعَهُ فهو في نفسِه صغيرٌ وفي أعينِ النَّاسِ عظيمٌ، ومَنْ تكبَّر وضَعَهُ اللَّهُ فهو في أعينِ النَّاس صغيرٌ وفي نفسِه كبيرٌ، حتَّى لهُو أهونُ عليهمْ مِنْ كلبٍ وخنزيرٍ، بئسَ العبدُ عبدٌ تخيَّلَ واختالَ، ونَسيَ الكبيرَ المتعالَ، بئسَ العبدُ عبدٌ تجبَّر واعتدى، ونَسي الجبارَ الأعلى، بئسَ العبد عبدٌ سهى ولها ونَسي المقابِرَ والبلى، بئسَ العبد عبدٌ عتا وطغى ونسي المُبتَدأ والمُنتهى، بئس العبدُ عبدٌ يختلُ الدُّنيا بالدِّين، بئسَ العبدُ عبدٌ طَمَعٌ يقودُه، بئس العبدُ عبدٌ هوًى يُضِلُّهُ، بئسَ العبدُ عبدٌ رغَبٌ يُذلُّهُ.

مِنَ التَمَس رضى النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وكَلَهُ اللَّهُ إلى النَّاسِ. ومَن التَمَس رِضى اللَّه بِسَخَطِ النَّاسِ كفاهُ الله مؤنة النَّاسِ، الدواوينُ ثلاثةٌ: ديوانٌ لا يغفِرُهُ اللَّهُ وهو الإشراكُ بالله، يقولُ اللَّهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء: ٤٨]. وديوانٌ لا يتركهُ اللَّهُ وهو ظُلمُ العبادِ فيما بينهم حتَّى يقتَصَّ بعْضُهُمْ مِنْ بعضٍ، وديوانٌ لا يعْبَأُ اللَّهُ به ظُلمُ العبادِ فيما بينهُمْ وبينَ اللَّهِ فذاكَ إلى اللَّهِ: إنْ شاءَ عذَّبَهُ وإنْ شاءَ تجاوزَ عنْهُ.

مَنَّ اللَّهُ عليَّ وعليكم بِقَبولِ النَّصائحِ، وحمانا منْ جميعِ الشُّرور والقبائحِ.

﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [سورة لقمان: ١٣].

باركَ اللَّهُ لي ولكمْ في القرآنِ العظيم.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده رقم (٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٣) وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (١٨٠٢).

خطبة

في الحث على الإصلاح

الحمد لله الذي أمر بالتعاون على الخيرات، ونهى عن التفرق والاختلاف والمشاحنات، وأشهدُ أن لا إلٰه إلاَّ اللَّهُ، وحدَه لا شريك له، فاطرُ الأرض والسموات، وأشهد أن محمداً عبدُه وسولُه، سيد الرسل وأكمل المخلوقات، اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه أولي الفضائل والكرمات، وسلِّم تسليماً.

أما بعد، أيها الناس، اتَّقوا الله وأصلحوا ذات بَيْنِكم، وأطيعوا اللَّه ورسولَه إن كنتم مؤمنين، وقوموا بالنصيحة بين عباد الله فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، قال تعالى:

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة النساء: ١١٤].

وقال ﷺ: **«ألاَ أخبرَكم بأفضل مِن درجةِ الصلاةِ والصيام والصدقةِ؟ إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشَّعر، ولكن تحلق الدِّين»**[1] فرحم الله امرءاً رأى بين اثنين عداوة فقام بتقريب بعضهم إلى بعض بالتأليف والإصلاح؛ ويا ويح من أغرى بين الناس فلقح العداوة وغذّاها بالتفريق بين المتصافيين وراح. أما علمتم أن من أصلح بين الناس أصلح الله باله؟ ومن فَرَّق بينهم فَرَّق الله أمره وشتت أحواله؟ فطوبى لمن كان مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وويل لمن كان مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير. أما سمعتم بأن النَّمَّام عليه العقوبة الشنيعة يوم البعث والنشور؟ فإنه ينقل الكلام بين

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢/ ٨٣)، وأبو داود في سننه برقم (٤٩١٩)، وابن حبان في صحيحه برقم (١٩٨٢)، والإمام أحمد في المسند (٦/ ٤٤٤)، وصححه شيخنا الألباني رحمه الله في غاية المرام برقم (٤١٤).

الناس فيحدث البغضاء ويوغر الصدور؛ يجيء النَّمَّامُ إلى قلوبٍ متآلفة متفقة فيفرقها، وإلى صداقات وصلات بين الناس فيمزِّقها؛ قد انسلخ من أعمال أهل الصلاح المصلحين، ورضي لنفسه أن يكون من المفسدين.

ألاَ وإنَّ المُصْلحين بين عبادِ الله لهم الرُّتَب السامية والمحل الأعلى، وقد حازوا الشرف والأجور الكثيرة ورِضَى المولى؛ يأتون إلى المتباعدين فيقربونهم، وإلى الذين فرقتهم الأغراض الدنيئة فيؤلفون بين قلوبهم ويجمعونهم؛ فللَّه دَرُّهُمْ ما أفضلَ أعمالَهم، وما أرفَعَ مكانَهم وأكمل أحوالهم؛ فكم حصل بسعيهم المشكور من خيرات وبركات، وكم اندفع بعملهم المبرور من شرور ومفاسد وآفات؛ وكم قمعوا من ضغائن وإحن، وكم أخمدوا بإصلاحهم ولطفهم من شرور وفتن؛ فيا فوزهم بمكارم الأخلاق، ويا سعادتهم عند لقاء الملك الخلاَّق؛ ويا فلاحهم إذا أكرموا بجنات النعيم، وَوُقُوا من عذاب الجحيمِ، فتمت لهم حينئذٍ العيشة الراضية، في جنة عالية، قطوفها دانية، وقيل لهم:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الحاقة: ٢٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

خطبة

في القيام بالحقوق

الحمد لله الذي بقدرته أنشأ الأشياء وأوجدها، وبإرادته باين بين المخلوقات في الصفات وميَّزها وخصَّصها، وبحكمته أحكم الأحكام، وأتقن ما صنعه على أحسن نظام وأكمل حالة وأبدعه، فسبحان من وَسِع كلَّ شيء رحمةً وعلماً، وأعطى كل شيء خَلْقَه ثم هداه إلى مصالحه، وأسبغ على عباده عطاء جمًّا؛ وأشهد أن لا إله إلاَّ الله الواحدُ الأحدُ الفردُ الصَّمدُ الذي تفرّد بكل كمال، وقَصَدَتْه المخلوقاتُ في جميع الأحوال. وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه الذي خصصه وفضَّله بأشرف الخصال. اللَّهمَّ صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه خير صحب وآل.

أما بعد: أيُّها الناس، اتَّقوا الله، واعلموا أن الله أوجب لبعضكم على

بعض حقوقاً متنوعةً بحسب القرب والاتصال، وَوَعَدَكم على القيام بها أفضلَ ثوابٍ وأجلَّ نوال، فأمر الأولاد ببرِّ الوالدين كما وصَّى الوالدين بحق الأولاد، وأوصى الأقارب فيما بينهم بالبر والصلة والإحسان، كما حثَّ على حقوق الجيران والأصحاب والإخوان؛ وألزم كلَّ واحد من الزوجين معاشرة الآخر بالمعروف، وأمر الناس بالقسط في المعاملة وعدم البخس والتطفيف؛ فمن قام بهذه الحقوق وأكمَلَها، فقد ارتقى أعلى الدرجات وأفضَلها؛ ومن تهاون بها وأهملها، فقد خسر دينَه ومروءتَه ونسي مصالح نفسه وضيعها.

أَلاَ فاستعينوا ربَّكم على القيام بما عليكم مع احتساب الأجر والثواب، ونافسوا باكتساب أعلى الأخلاق وأكمل الآداب؛ وَلْيُعِنْ مَنْ له الحقُّ الآخرَ بالإغضاء عن التقصير، وأن لا يرهقه من أمره الشيء العسير؛ فإن التفريط ملازم للإنسان، وَمَنِ الذي يكْمُلُ ويسْلَمُ من النقصان؟ فرحم الله والداً أعانَ أولادَه على بِرِّه، بتحمل بعض تفريطهم والعفو عن شيء من تقصيرهم، وتعظيمِ إحسانِهم إليه وشكره. وما أعظم توفيقَ من أغضى عن هفوة الزوجةِ والصديق والجار والقريب، فلقد أخذ من مكارم الأخلاق بأكمل حظ وأوفر نصيب. وما أَوْلَى بالعبد إذا كره من قرينه خُلُقاً ذميماً، أنْ يلحَظَ ويرضى في مقابلته خلقاً كريماً. فبذلك تدوم الصحبة والوصلة والاجتماع، وبذلك تحصل الراحة والألفة والمودة وينقطع النزاع.

أما إذا كلف كل واحد منهما الآخر بتكميل مراده بصعوبته وشدته ولم يرض إلاَّ بحصول جميع مطالبه وتكميل كل رغبته، فلا بد أن يبوء بالفشل والخيبة والخسران، وينتهي الأمر بدوام النزاع والفرقة والحرمان؛ فالحازم من داوى العلة بما يناسبها ويلطِّفها ويُطفيها، والجاهل الأحمق من قاومها بالعنف والمشقة فكأنه في فعله ينميها ويقويها.

وفقني الله وإياكم لمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وأعاننا على القيام بحقوقه وحقوق ذوي الحقوق والأصحاب والجيران والآل.

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة فصلت: ٣٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

إلى هنا انتهت هذه الدرر الغالية، والجواهر النفيسة، واللآلىء الثمينة، التي جمعناها من كلام شيخنا الإمام العلامة الأصولي عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ من كافة كتبه المطبوعة حول مواضيع: العلم، الإيمان، القرآن الكريم، الدعاء، الصبر، التقوى، الحياة الطيبة، الدعوة.

وبعد قراءة تلك الدرر، والتأمل فيها، تزداد النفوس الواعية، والقلوب المؤمنة، إيماناً بالله تعالى، والتزاماً بشرعه جل وعلا، وتمسكاً بطريقه سبحانه، ذلك الطريق الذي يعلم كل عاقل في هذه الحياة، أنه لا نجاة ولا فوز ولا فلاح ولا سعادة في هذه الدنيا وفي الآخرة، إلا بالتمسك به، والعض والثبات عليه.

ففي هذه الدرر، يدرك المرء حقيقة طلب العلم وآدابه...

وفي هذه الدرر، يدرك المرء حقيقة الإيمان ولذته...

وفي هذه الدرر يدرك المرء حكمة نزول القرآن وأجر تلاوته...

وفي هذه الدرر، يدرك المرء حقيقة الدعاء وحلاوة المناجاة...

وفي هذه الدرر، يدرك المرء حقيقة الصبر وأجر الصابرين...

وفي هذه الدرر، يدرك المرء حقيقة التقوى، وعاقبة المتقين...

وفي هذه الدرر، يدرك المرء حقيقة الحياة الطيبة ولذتها...

وفي هذه الدرر، يدرك المرء حقيقة الدعوة إلى الله تعالى وأساليبها...

فاغتنم هذه الدرر يا عبد الله، واجمع ما تستطيع من هذه اللآلىء، التي قلما توجد في هذا الزمان، واسأل الله دائماً الثبات على طريقه حتى الممات.

أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يرد المسلمين إلى دينه ردّاً جميلاً، وأن يبصرهم بأمور هذا الدين، ويفقههم فيه، ويوفقهم لما يحبه ويرضاه، كما أسأله تعالى وهو الرحمن الرحيم أن يغفر لشيخنا السعدي ويرحمه رحمة واسعة، ويعلي درجته في الجنان، ويجزيه عنا وعن المسلمين خير الجزاء، إنه جواد كريم.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وصلى الله على نبينا محمد وعلى

آله وصحبه وسلم تسليماً

كثيراً إلى يوم الدين

وكتب

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

أبو عبد الله

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
اللالىء والدرر السعدية (العلم)	١٣
المقدمة	١٥
الفصل الأول: الآيات الدالة على فضل العلم والحث على طلبه والإخلاص فيه لله عز وجل وتفسير العلامة السعدي لها	١٩
الفصل الثاني: بعض الأحاديث الدالة على فضل العلم والتعلم والتي قام بشرحها العلامة السعدي رحمه الله	٤١
الفصل الثالث: مباحث من كلام العلامة السعدي حول فضل العلم وآداب المتعلمين وأخلاقهم	٥٥
الفصل الرابع: جواهر ودرر من كلام العلامة السعدي حول العلم وطلبه	١٣٩
الفصل الخامس: خطب الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي حول طلب العلم وفضله	١٦٥
اللالىء والدرر السعدية (الإيمان)	١٨١

المقدمة ١٨٣

الفصل الأول:

الآيات الدالة على حقيقة الإيمان وصفات المؤمنين وتفسير العلامة السعدي لها ١٨٧

الفصل الثاني:

الأحاديث الدالة على حقيقة الإيمان وصفات المؤمنين والتي قام بشرحها العلامة السعدي رحمه الله ٢١٣

الفصل الثالث:

رسالة التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ٢٣١

الفصل الرابع:

فصول ومباحث ودرر من كلام العلامة السعدي على الإيمان ٢٨١

الفصل الخامس:

خطب الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي حول حقيقة الإيمان وصفات المؤمنين ٣٢٥

اللآلىء والدرر السعدية (القرآن الكريم) ٣٣٣

مقدمة ٣٣٥

الفصل الأول:

الآيات الدالة على عظم القرآن والآمرة باتباعه وتلاوته وعدم الإعراض عنه وتفسير العلامة السعدي لها ٣٣٩

الفصل الثاني:

شرح العلامة السعدي لحديث «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن» ٣٨٥

الفصل الثالث:

خطب للعلامة السعدي في الحث على تدبر القرآن ٤٣١

اللالىء والدرر السعدية (الدعاء) **٤٣٥**

مقدمة ٤٣٧

الفصل الأول:

الآيات الدالة على الإخلاص لله تعالى في الدعاء والحث عليه وتفسير

العلامة السعدي لها ٤٤١

الفصل الثاني:

شرح العلامة السعدي لبعض أدعية النبي ﷺ ٤٥٧

الفصل الثالث:

فصول ومباحث ودرر من كلام العلامة السعدي عن الدعاء وآدابه ٤٦٣

الفصل الرابع:

خطب شيخنا السعدي في الحث على الدعاء ٤٨٣

اللالىء والدرر السعدية (الصبر) ٤٨٩

المقدمة ٤٩١

الفصل الأول:

الآيات التي تحض على الصبر وتفسير العلامة السعدي لها ٤٩٧

الفصل الثاني:

شرح العلامة السعدي لبعض الأحاديث التي تحث على الصبر والرضى

بقضاء الله وقدره ٥٢١

الفصل الثالث:

فصول ومباحث وفوائد من كلام شيخنا السعدي حول فضل الصبر والرضى بقضاء الله وقدره ٥٣١

الفصل الرابع:

بعض خطب العلامة السعدي حول الحث على الصبر وانتظار الفرج ٥٥١

اللالىء والدرر السعدية (التقوى) ٥٥٧

مقدمة ٥٥٩

الفصل الأول:

الآيات الدالة على التقوى وتفسير العلامة السعدي لها ٥٦٣

الفصل الثاني:

شرح العلامة السعدي لبعض الأحاديث الدالة على التقوى ٦١٩

الفصل الثالث:

فوائد ودرر من كلام العلامة السعدي على التقوى ٦٢٩

الفصل الرابع:

بعض خطب العلامة السعدي التي تحث على التقوى ٦٣٥

اللالىء والدرر السعدية (الحياة الطيبة) ٦٤٣

المقدمة ٦٤٥

الفصل الأول:

الآيات الدالة على السبيل إلى الحياة الطيبة وشرح العلامة السعدي لها ٦٤٩

الفصل الثاني:

جواهر ودرر وفوائد من كلام العلامة السعدي رحمه الله حول السبيل إلى الحياة الطيبة ٦٦٣

الفصل الثالث:

رسالة العلامة السعدي الوسائل المفيدة للحياة السعيدة ٦٧٣

الفصل الرابع:

من خطب الشيخ السعدي عن الحياة الطيبة ٦٩١

اللالىء والدرر السعدية (الدعوة) ٦٩٧

المقدمة ٦٩٩

الفصل الأول:

الآيات التي تحث على الدعوة إلى الله تعالى وآدابها وتفسير العلامة السعدي لهما ٧٠٣

الفصل الثاني:

بعض الأحاديث التي تحث على الدعوة إلى الله تعالى وآدابها وشرح شيخنا السعدي لها ٧٢٣

الفصل الثالث:

فصول ومباحث ودرر من كلام العلامة السعدي حول الدعوة إلى الله وآدابها ٧٣٣

الفصل الرابع:

خطب العلامة السعدي حول الدعوة إلى الله تعالى ٧٨٥

الخاتمة ٧٩٤

الفهارس ٧٩٧